المجلد الثالث

السيرة الذاتية

(١)

دار الكتاب اللبناني

السِيرة الذاتية

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

السيرة الذاتية -١-

يحتوي على

أنا

حياة قلم

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

الطبعة الأولى
١٩٨٢

عباس محمود

العقاد

أنا

دار الكتاب اللبناني - بيروت

الكتاب والكاتب

بقلم
طاهر الطناحي

لما أصدر الفقيد الكبير عباس محمود العقاد ديوانه : « وحي الأربعين » — وكان وقتئذ في الرابعة والأربعين من عمره — اقترحت عليه « مجلة الهلال » أن يكتب فصلا نثرياً في هذا الموضوع ، فكتب لها فصلا بعنوان « بعد الأربعين » . وصف فيه حياته النفسية ، وحالته الفكرية في هذه السن ، وتحدث عن فلسفته بين الشباب والكهولة ، وعن تجاربه الشخصية بين العشرين والأربعين وقد نشرته « الهلال » في أول يونيو سنة ١٩٣٣ م

وكان هذا المقال هو أول مقال كتبه عن نفسه بأسلوبه العلمي التحليلي ..

وبعد عشر سنوات — وقد توليت تحرير هذه المجلة — اقترحت عليه أن يكتب مقالا بعنوان « وحي الخمسين » .. فكتب هذا المقال ، ونشرته « الهلال » في أول مايو سنة ١٩٤٣ م . وقد جعله موضوعياً كما جعله شخصياً . فتناول حياته وحياة أمثاله ممن بلغوا هذه السن ، وما يعتور أصحابها من حالات نفسية ، ونظرات جديدة إلى الحياة تختلف عن نظرات أبناء العشرين أو الثلاثين أو الأربعين .. وقد وصفها بأنها سن اغتناء لا سن افتقار ، ثم قال :

« إذا جاز لي أن أقيس على نفسي ، ، فهي لاتقل غنى عن الأربعين . وقد تفوقها غنى من وجوه .. ومن أمثلة كثيرة بين أصحاب الوحي — وأصحاب

الوحي هنا هم المنتجون في عالم الذوق والتفكير – نرى أن ثمرات الخمسين بين الفلاسفة والشعراء ، وأرباب الفنون ، تضارع خير الثمرات في سائر الأعمار».

وقد رأيت في هذين المقالين أن كتابته عن نفسه ، وترجمته لحياته تختلف عما كتبه الكثيرون من رجال الفكر والأدب والاجتماع عن حياتهم .. فبعض هؤلاء العلماء والأدباء والساسة ترجم لحياته في أسلوب تاريخي ، وبعضهم في صيغة مذكرات أو ذكريات ، وآخرون صوروا حياتهم فيما يشبه الاعترافات مع الاكتفاء بالأهم والمهم من الأحداث وأدوارهم فيها .. !

أما كتابة العقاد عن نفسه ، فهي كتابة لها طابع جديد في كتابة التراجم . كتابة ليست شخصية بحتة ، ولا سرداً لأحداث مرت به ، أو عاش فيها وكان له دور من أدوارها فحسب ، بل هي كتابة باحث عالم ، وفنان نابغ تعود النظر في مسائل العلم ، وقضايا الفن والفكر ، وجال في شؤون الفلسفة وعلم النفس والأدب والتربية والاجتماع ، وتمرس بتجارب الحياة ، ومارس حلوها ومرها وخرج منها بخبرة العالم ، وعبرة المفكر ، وحكمة الفيلسوف .

فإذا كتب عن نفسه تناول ألواناً من المعرفة ، وعالج أنواعاً من التفكير ، وتعقب كل حادث أو شأن من الشؤون بالتعقيب العلمي ، أو التعليل النفسي ، أو التأمل الفلسفي !

كتاب « عني »

وفي نحو السابعة والخمسين من عمره – وكان ذلك في سنة ١٩٤٦ م – اقترحت عليه أن يكتب كتاباً عن حياته ..

فأجابني : « سأكتب هذا الكتاب ، وسيكون عنوانه « عني » وسيتناول حياتي من جانبين : الأول حياتي الشخصية بما فيها من صفاتي وخصائصي ، ونشأتي وتربيتي البيتية والفكرية ، وآمالي وأهدافي ، وما تأثرت به من بيئة

وأساتذة وأصدقاء ، وما طبع أو انطبع في نفسي من إيمان وعقيدة ومبادىء . أو بعبارة أخرى « عباس العقاد الإنسان » الذي أعرفه أنا وحدي ، لا « عباس العقاد » كما يعرفه الناس ، ولا « عباس العقاد » كما خلقه الله ! ..

« والجانب الثاني : حياتي الأدبية والسياسية والاجتماعية المتصلة بمن حولي من الناس ، أو بالأحداث التي مرت بي وعشت فيها أو عشت معها ، وخضت بسببها عدة معارك قلمية ، وكانت صناعة القلم أبرز ما فيها ، أو بعبارة أخرى « حياة قلمي » الذي عاش معي وعشت معه منذ بدأت أكتب في الصحف السياسية والأدبية ، وأنا في السادسة عشرة حتى الآن ..

« وهذا الكتاب يحتاج مني إلى التفرغ مدة طويلة ، وبخاصة الجانب الثاني ، لأنه يحتاج إلى دراسة تاريخية ومراجعة للأحداث ، وتحقيق دقيق للأسباب والمسببات وجمع للوثائق السياسية والأدبية .

« ولعلي أبدأ بالجانب الأول الذي هو « أنا » لأنه أقرب إلى الكتابة وبخاصة وأنا في نهاية الحلقة السادسة من عمري ، فسواء عشت إلى السبعين أم الثمانين أم المائة ، فان عدد الشهور والأعوام لايغير منه شيئاً .. ! »

كتاب « أنا »

كان هذا الحديث في أواخر سنة ١٩٤٦ . وقد كتب لمجلة « الهلال » قبل ذلك المقالين السالفين : « بعد الأربعين » و « وحي الخمسين » . فرأيت أن هذين الفصلين هما من فصول الجانب الأول ، فاعتزمت أن استكتبه في « الهلال » سائر فصول هذا الجانب إلى نهايته ، ثم أجمعه له في كتاب منفرد كما فعلت في كتاب « رجال عرفتهم » الذي نشرته سلسلة « كتاب الهلال » ..

وعرضت عليه الفكرة ، فوافق عليها ، وكان أول ما كتبه بعد هذا الاتفاق مقال : « إيماني » الذي نشرته « الهلال » في يناير سنة ١٩٤٧ م . ثم مقال

« أبي » إلى آخر ما كتبه من الفصول التي أربت على الثلاثين فصلا في « الهلال».

وقبل وفاته بشهر كان يزورني بمكتبي ، فحادثته في جمع هذه الفصول وما نشر في موضوعها في بعض المجلات الأخرى ليتألف منها كتاب نختار له عنواناً مناسباً ، فأجاب : « لابأس وسنجعل عنوان الجانب الثاني بعد تأليفه « حياة قلم » .. !

فأخذت في جمع هذه الفصول ، وضممت إليها خمسة فصول نشرتها مجلات « المصور » و « الإثنين » و « كل شيء» ، و « القافلة » وما كدت انتهي من جمعها حتى مرض وعاجلته المنية . فرأيت من الوفاء لنابغتنا الكبير ، ولتاريخ الأدب أن أنشر هذا الكتاب . واخترت له عنوان « أنا » :

وإني أرى ويرى القراء معي أن هذا العنوان أصدق عنوان على فصول هذا الكتاب التي تتناول الجانب الشخصي والنفسي من حياته . ولو كان العقاد حياً لما رفض هذا العنوان فقد كان رحمه الله يترك لي عنوان بعض مقالاته التي ينشرها في مجلة « الهلال » ، وأسماء بعض كتبه التي نشرتها سلسلة كتاب الهلال ثقة منه بأني أختار الاسم المناسب ..

وحياة العقاد حياة ضخمة لا يجمعها كتاب واحد . فإذا كنت أقدم للقراء في كتاب « أنا » حياته النفسية والشخصية ، أو « العقاد الإنسان » فسيبقى بعد ذلك أمام المؤلفين والباحثين : « العقاد الكاتب » و « العقاد الشاعر » و « العقاد السياسي » و « العقاد اللغوي » و « العقاد الصحفي » و « العقاد الفنان » و « العقاد المؤرخ « و « العقاد المؤلف » و « العقاد العالم » و « العقاد الفيلسوف » ، فقد كان بحراً في اطلاعه وانتاجه ، وكان فذا في مواهبه وعبقريته .

حب العقاد للحياة

وقد كان الفقيد العزيز يحب الحياة على الرغم من متاعبها وأذاها ، وعلى

الرغم مما عاناه فيها من أمراض وشدائد ، لأنه كان يحب المعرفة ويغرم بها ، ويحب أن يصل إليها ، وتصل إليه ، ولو تحت التراب .. !

كنا وكان الناس يعرفون ذلك عنه فلما بلغ السبعين من عمره ، كنت أزوره ليكتب عن « وحي السبعين » فسألته :

– هلا تزال تحب الحياة اليوم ، كما تحبها بالأمس .. ؟

فقال :

– لم يتغير حبي للحياة ، ولم تنقص رغبتي في طيباتها .. ولكنني اكتسبت صبراً على ترك ما لابد من تركه ، وعلما بما يفيد من السعي في تحصيل المطالب وما لايفيد وزادت حماستي الآن لما أعتقد من الآراء ، ونقصت حدتي في المخاصمة عليها ، لقلة المبالاة باقناع من لايذعن للرأي والدليل ..

« وارتفع عندي مقياس الجمال ، فما كان يعجبني قبل عشر سنين ، لا يعجبني الآن ، فلست أشتهي منه أكثر مما أطيق .. كنت أحب الحياة كعشيقة تخدعني بزينتها الكاذبة وزينتها الصادقة . فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبي . لاأجهل ما تبديه من زينة ، وما تخفيه من قبح ودمامة . إنه حب مبني على تعرف وفهم .

والحياة بمعناها ولفظها حياة ، سواء رضينا أم لم نرض ، وهي خير من الموت وقد نظمت أبياتاً في هذا المعنى فقلت :

قالوا الحياةُ « قشورٌ » قُلْنَا فأَيــنَ الصَّميمُ
قالوا « شَقاءٌ » فَقُلْنَــا نَعَــم فأَيْنَ النَّعيــمُ
إنَّ الحَيَــاةَ حَيَــاةٌ ففَــارِقُــوا أَو أَقيموا

ولم يكن « العقاد » يتشاءم من شيء في الحياة مطلقاً ، فقد كان يتحدى

التشاؤم ، ولا يؤمن بـه ، حتى أنه كان يتحدى رقم ١٣ الذي يتشاءم منـه الكثيرون . فكان يسكن منزلا بمصر الجديدة يحمل هذا الرقم ، وكان الرقمان الأولان من تليفونه هما ١٣ ، وقد بدأ بناء منزله بأسوان يوم ١٣ مارس ، وقسم كتبه ١٣ قسماً ، واحتفظ بتمثال للبومة كان يضعه على مكتبه .. ومن الغريب أنه دفن في أسوان يوم ١٣ مارس ..

لم يبلغ كل ما أراد .. !

وقد سألته مرة : هل ظفرت بما كنت تريده من الحياة ؟ .. وهل كان لك هدف خاص حاولت أن تبلغه ، فبلغته ؟ .. وهل تحب نفسك الآن أكثر ممـا كنت تحبها أيام الشباب ؟ .. وهل تشعر بأن هناك صفات معينة تفتقر إليها ؟ .. وهل تجد في نفسك صفات تكرهها ويكرهها الناس ولا تستطيع التخلص منها ؟ وهل تحب أن تعيش حياتك الماضية مرة أخرى ؟ .. ثم ما هي فلسفتك في الحياة؟

فكتب العقاد يقول :

— كل ما كنت أريده وأطلبه من الحياة لم أبلغه ، ولا أرى أن أحداً بلغ كل ما طلب . وأما هدفي في الحياة ، فكان في الصبا أن أتولى القيادة العسكرية ، ثم تحولت أو خيل إليّ أنني أتحول إلى طلب العلوم الزراعية ، وأن ألتحق بمدرسة الزراعة في ذلك الحين ، ثم تبين لي من مراجعة نفسي مراجعة دقيقة أن وراء الطموح إلى القيادة العسكرية وإلى العلوم الزراعية باعثاً واحداً هو «حب الأدب»..

« فقد كنت أنظم الشعر في الحماسة ، ثم جنحت نفسي إلى دراسة الأزهار والطيور فبدا لي ذلك كأنه طموح إلى التفرد في علوم الزراعة ، ومـا كان في حقيقته إلا صورة من صور الجمال ، أو حب الطبيعة .

« وقد استويت على هذه الحالة بعد هذه المراجعة ، فبلغت فيما أعتقد غاية ما يستطاع في بيئتنا العربية . ولم أبلغ الغاية التي رسمتها أمامي في مقتبل حياتي ،

ولا قريباً من الغاية . وإذا قدرت ما صبوت إليه مائة في المائة ، فالذي بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين .. !

« أما حبي لنفسي ، فاني أصارحك أني ما أحببت نفسي قط إلا لسبب عام أرى أني أصلح له ، وأستحق الحياة من أجله . ولا تهمني الحياة لحظة إن لم تقترن بهذا السبب . . !

« وإني أشعر أن لي خصالا كثيرة أستطيع أن أمنحها غيري . ويكفي هذا عوضاً عما يعوزني من الخصال .. !

« ولم يكره الناس من صفاتي إلا تلك الصفات التي أعتز بها.. وأما ما أكرهه أنا فهو المحاسبة الشديدة لنفسي وللناس ، ولولا هذه المحاسبة لرضيت عن نفسي ، ورضيت عن الكثيرين .

« وإذا لم أجد خيراً من حياتي الماضية ، فأنا مضطر أن أعيشها بخيرها وشرها ، وأنعم بما فيها . وأنا على كل حال راض عن الحياة كل الرضا .

* * *

« أما فلسفتي في الحياة ، فأهم جانب من جوانبها هو ما استفدته من الطبع الموروث وجاءته بعض الزيادة من التجارب والقراءة . وأعني به قلة الاكتراث للمقتنيات المادية . فأعجب شيء عندي هو تهالك الناس على اقتناء الضياع والقصور وجمع الذخائر والأموال .

« ولم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال ، ولم أشعر قط بصغري إلى جانب كبير من كبراء الجاه والثراء . بل شعرت كثيراً بصغرهم ، ولو كانوا من أصحاب الفتوحات . !

« وأنا أعتقد أن نابليون مهرج إلى جانب العالم باستور ، والاسكندر المقدوني بهلوان إلى جانب أرشميدس ، وأن البطل الذي يخوض الحرب ذوداً عن الحق

والعقيدة أكرم جداً من كل بطل يقتحم الحروب ليقال إنه دوخ الأمم ، وفتح البلدان .

* * *

« وأما فلسفتي في الحياة مع الناس ، فأثر التجربة والدرس فيها أغلب من أثر الطبيعة الموروثة . وقد اتخذت لنفسي شعاراً معهم ، وهو : ألا تنتظر منهم كثيراً ، ولا تطمع منهم في كثير ... !

« وهذه الفلسفة تتلخص في سطور :

« غنـــاك في نفسك ، وقيمتك في عملك ، وبواعثك أحرى بالعنـــاية من غاياتك ، ولاتنتظر من الناس كثيراً تحمد عاقبته بعد كل انتظار » .

ميله إلى العزلة

وقد كان العقاد يميل الى العزلة والانفراد ، بل كان يميل الى الانطواء وربما ظن البعض أن هذا الانطواء يرجع الى عقد نفسية ، ولذلك سألته يوما عن هذه الحالة التي لازمته طول حياته . فكتب يقول :

« أعترف لك أنني مطبوع على الانطواء ، ولكني مع هذا خال بحمد الله من العقد النفسية الشائعة بين الكثيرين من أندادي في السن ، ونظرائي في العمل وشركائي في العصر الذي نعيش فيه ..

« لقد ورثت طبيعة الانطواء عن أبي وأمي .. فلا أملّ الوحدة ، وإن طالت . ولا أزال أقضي الأيام في بيتي على حدة حيث يتعذر على الآخرين قضاء الساعات بل اللحظات . ولكنني أشغل وحدتي بالقراءة والكتابة . واذا كنت في عزلة وانطواء عن الجماعات والحفلات ، فإني لست في عزلة عن أصدقائي واخواني .

« وأنا أميل إلى الصداقة وأكره العداوة .. ولكني لا أعرف التوسط في كليهما . سواء في إبداء الرأي ، أو العلاقات الشخصية . ولا يمكنني أن أفهم الأسلوب « المودرن » في السياسة . . فالمجرم في حق وطنه أقاطعه ، وعاطفتي تتشكل نحوه حسب هذا الاعتقاد .

« وأنا لا أحمل على انسان الا اذا اعتقدت أنه يستحق هذه الحملة . واذا ما حملت على انسان ، لا أتوسط في حملتي عليه ، لأن الشخص الذي يسيء الى وطنه أو الى الانسانية ، يجب أن نقاطعه وأن نحمل عليه ، والا اعتبرناه أحسن من الانسانية أو الوطن .

«وأنا أعمل عن حب لما أعمله،وأحب أن أعترف بمسؤوليتي ،ولا أحمل أحدامسؤولية كتابتي أو آرائي . وأميل الى التنظيم والمثابرة . ولذلك استطعت أن أجمع بين العمل في المجمع ومجلس الفنون والآداب وبين التأليف والكتابة والقراءة؛ فأعطي لكل حقه .. ! »

ايمان العقاد

والأستاذ العقاد كان مؤمنا بالله كل الايمان ، لا عن وراثة فقط ، بل عن شعور وتأمل وتفكير طويل ، فقد نشأ بين أبوين شديدي التمسك بالديـــن ، لايهملان فريضة من الفرائض اليومية وقد فتح عينيهعلى الدنيا فوجد أباه يستيقظ قبل الفجر ليؤدي الصلاة ، ويبتهل إلى الله بالدعاء، ولا يزال في مصلاه إلى ما بعد طلوع الشمس، فلا يتناول طعام الإفطار حتّى يفرغ من أداء الفرض والنافلة وتلاوة الأوراد .

رأى والدته في عنفوان شبابها تؤدي الصلوات الخمس ، وتصوم وتطعم المساكين . وقلما ترى النساء مصليات أو صائمات قبل الأربعين !

وندر بين أقاربه من لايسمى باسم من أسماء النبي وآله سواء منهم الرجال أوالنساء .. وكانت تقام في بيت أخواله « ندوات لقراءة الكتب الدينية ، ومنها

مختارات الأحاديث النبوية وكتب التفسير ، واحياء علوم الدين للغزالي .

فكان للوراثة والبيئة شأن فيما عنده من الإيمان والاعتقاد الديني .

أما الإيمان بالحس والشعور ، فذلك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يلتقيان في الحس والتصوير والشعور بالغيب وعظمة خالق الكون .

وهو كعالم مفكر يرى الإيمان بالتفكير ، والوصول بالعقل إلى معرفة الله هو أسمى درجات الإيمان ..

هذا في العقيدة أما إيمانه في مجال الأخلاق ، فهو الإيمان بالكمال فلا موجب عنده لعمل الخير غير طلب الكمال وفهم الكمال وأما إيمانه بالأدب فهو أنه رسالة عقل إلى عقول ، ووحي خاطر إلى خواطر .

وميزان ذلك كله هو ميزان المثل الأعلى وطلب الكمال ، لأنه إيمان صادق لا كذب فيه ولا غرض ، وهو إيمان يعمر النفس بلذة الروح ، ويغني عن طلب الجزاء ، ويعزي عن فقد الحمد والثناء .

وكذلك كان إيمان العقاد بالحياة والدين والأدب والأخلاق لا غاية له إلا الكمال !

الكتب وسر الحياة

وقد اشتهر العقاد بسعة اطلاعه ، وكثرة قراءته لمختلف الكتب ، لايترك نوعاً من أنواع الكتب إلا قرأه . ومع سرعة قراءته ودقته ، فقد كان يعلق كثيراً على ما يقرؤه بقلمه ، وربما لايعرف الكثيرون أنه كان يفضل قراءة كتب فلسفة الدين ، وكتب التاريخ العام والتاريخ الطبيعي ، وتراجم العظماء ودواوين الشعر ، وقد قال : « إنني أقرأ هذه الكتب ، وأعتقد أن العلاقة بينها متينة ، وإن كانت تفترق في الظاهر ، إذ تؤدي جميعاً إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان . فكتب الفلسفة الدينية تبين إلى أي حد تمتد الحياة قبل

الولادة وبعد الموت . وكتب التاريخ الطبيعي تبحث في أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة . وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة . والشعر هو ترجمان العواطف ، فأنا لا أقرأ من الكتب إلا ما له مساس بسر الحياة — ولكن ماهو سر الحياة ؟

« إنني أعتقد أن الحياة أعم من الكون ، وأن ما يرى جامداً من هذه الأكوان ، أو مجرداً من الحياة إن هو إلا أداة لإظهار الحياة في لون من الألوان أو قوة من القوى . والحياة دائمة أزلية لا بداية لها ولا نهاية !

« فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر الله ، عرفت الحياة ، ولكننا مطالبون بأن نحفظ لأنفسنا في هذا المحيط الذي لا نهاية له أوسع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا .

« والكتب هي وسائل الوصول إلى هذه الغاية ، وهي النوافذ التي تطل على حقائق الحياة ، ولا تغني النوافذ عن النظر .. !

« ومن جهة أخرى ، فإن الكتب طعام الفكر . وتوجد أطعمة لكل فكر كما توجد أطعمة لكل بنية . ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام . وكذلك الإدراك القوي الذي يستطيع أن يجد غذاء فكرياً في كل موضوع .. !

العقاد والحب

وحينما كنت رئيساً لتحرير مجلة الدنيا الأسبوعية التي أصدرتها دار الهلال اقترحت على فقيدنا العظيم أن يكتب عن الحب ، وكنت أعرف أنه في شبابه كانت له قصة حب عنيف ، صدم فيها صدمة كبرى . فكتب لهذه المجلة سلسلة مقالات بعنوان : « مواقف في الحب » . وهي التي جمعها فيما بعد في كتاب : « سارة » .

ولم يكن اسمها « سارة » . ولكنه اسم مستعار لهذه الفتاة التي وصفها بأنها جميلة بلا مراء ، ومع أنها ليست أجمل من رأى في حياته ، ولا أجمل من رأى في أيام حبه لها وشغفه بها، ولكنها جميلة جمالا لا يحتفظ بغيره في ملامح النساء .. لونها كلون الشهد المصفى، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء في مسحة واحدة .

وعيناها نجلاوان تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات، فيهما خطفة الصقر، ودعة الحمامة .. وفمها فم الطفل الرضيع مع ثنايا تخجل العقد النضيض في تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم ، وبين وجهها النضيد وجسمها الفاتن جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفقاً لتمام الحسن .

وقد دام الحب بينهما عدة سنوات ثم صدم في حبه . وكانت الصدمة منها ، وكان الفراق بينهما . وكان بكاؤه الشديد ، وهو يرد إليها ذكرياتها عنده في إحدى حدائق مصر الجديدة، بمشهد من صديق من أخلص أصدقائه؛ ولم يكن بكاؤه عن أسف عليها ، ولكن العقاد كان شديد الحساسية سريع البكاء . وقد أثبتت المراجع العلمية والنفسية أن أقوى الرجال أسرعهم إلى التأثر والبكاء .

ومن أمثلة التأثر والحساسية الشديدة عنده أنه أثناء سجنه بتهمة العيب في الذات الملكية ، وقع نظره يوماً علىّ جلاد يهوي بسوطه على ظهر سجين ، ثم ينبثق الدم من ظهر الرجل المسكين .. فعاد إلى مكانه في السجن باكياً ، وقلبه يكاد ينفطر شفقة ورحمة ، ومكث مريضاً مدة أسبوع كامل ، ولم يستطع النوم ثلاث ليال بأكملها ، وظلت صورة الدم على ظهر السجين تشاغل عينيه، واستمرت أنات الرجل تدوي في أذنيه ، ولم يرحم خياله أن ذلك الرجل قد أتى ذنباً استحق عليه العذاب !

هند ـ أو ـ مي

وقد كان أثناء حبه لهذه الفتاة يحب «الآنسة مي» فقيدة الأدب العربي. وقد اعترف لنا في حديث معه بحب هاتين الفتاتين وحدهما ، فقال : « لقد أحببت في حياتي امرأتين : « سارة » و « مي » .. كانت الأولى مثالاً للأنوثة الدافقة ، ناعمة رقيقة لايشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوثتها ، ولكنها كانت مثقفة أيضاً .

« والثانية ـ وهي مي ـ كانت مثقفة قوية الحجة تناقش وتهتم بتحرير المرأة واعطائها حقوقها السياسية . كما كان فيها بعض صفات الرجال من حيث أنها جليسة علم وفن وأدب ، وزميلة في حياة الفكر . أي أن اهتمامها كان موزعاً بين العلم والأنوثة » !

وقد أحبها العقاد حباً روحياً ، وتحدث عنها في آخر كتاب «سارة» . وسماها باسم « هند » وكان يزورها ويجالسها ويتناولان من الحب مايتناوله العاشقان العذريان ، وكان يكتب إليها ، فيفيض ويسترسل ويذكر الوجد والشوق والأمل. وكانت « مي » تحبه حباً شديداً ، ولم تكن تعلم بحبه لسارة ، وإنما كانت تزعم بينها وبين نفسها أنه معزول عن عالم النساء غير أنها لم تحفل باتصاله بالنساء ، مادام اسمهن «نساء» لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة وشبح غرام واحد..!

بكاء مي

فلما شعرت بأنه يحب فتاة أخرى ، وكان هذا الحب قبل أن تقع هي في حبه ، زارته على حين غرة في مكتب عمله ـ وهي الزيارة الأولى والأخيرة ـ فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها المفاجئة ، وابتهاجه بسؤالها عنه ، وأنصت لها ، فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج :

ـ لست زائرة ، ولا سائلة .. !

فقال : إذن .. ؟

فلم تتكلم ، بل نظرت إليه ، كمن يستحلفه ألا يتكلم . وانحدرت من عينيها دمعتان ، فما تمالك نفسه وتناول يدها ، ورفعها إلى فمه يقبلها ، ويعيد تقبيلها ، فمانعته ، ولم تكف عن النظر إليه . ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة ، وهي تتمتم هامسة : « دع يدي ودعني .. »

ويقول العقاد « لوجاءت هذه الزيارة في بداية علاقته بسارة لما كان بعيداً أن تقضي على تلك العلاقة ، وأن تصبح سارة عنده اسماً مغموراً في عامة النساء».

فلسفته في الحب

أحب العقاد ـ كما قلنا ـ مرتين ، صدم في الأولى ففارقها كارهاً لهـا لخداعها وخيانتها .. وفارقته الثانية ، لأنانيتها وكرامتها ، عاتبة غير منصفة لأنه لم يختلس منها شيئاً هو من حقها عليه . ومع ذلك فقد كان يمدح الحب ويقدسه ، ويقول عنه فيما يقول في أحد فصول هذا الكتاب :

ـ ما الحب ؟ .. ما الحب ؟.. إلا أنه بدل من الخلود ، فما أغلاه من بدل.

وكان يعرّف الحب بأنه اندفاع روح إلى روح ، واندفاع جسد إلى جسد.. وخلاصة فلسفته فيه أنه قضاء وقدر ، فهو يرى أننا لا نحب حين نختار ، ولا نختار حين نحب ، وأننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت .. لأن الحياة وفقد الحياة هي أطوار العمر التي تملك الإنسان ، ولا يملكها الإنسان..

كيف تنبأ بالموت ؟!

أما الموت فقد كان « العقاد » يكرهه ولا يخشاه . ولم يكن يطمع أن تدوم حياته إلى سن المائة . فقد توفيت والدته في سن الثمانين ووالده دون هذا السن ، وقد تنبأ بالموت في حديث بيني وبينه فقال : « ان الابن يأخذ متوسط عمري أبيه وأمه . وقد تنتهي حياتي قبل الثمانين » !

ثم ابتسم وقال :

« اذا فاجأني الموت في وقت من الأوقات ، فانني أصافحه ولا أخافه ، بقدر مـا أخاف المرض ، فالمرض ألم مذل لا يحتمل ، لكن الموت ينهي كل شيء ! . .

« نعم ، إن الخوف من الموت غريزة حية لاعيب فيها ، وانما العيب أن يتغلب هذا الخوف علينا ، ولا نتغلب عليه كلما وجب أن نغلبه في موقـف الصراع بين الغريزة والضمير ، فإن الخضوع له في هـذه الحالة ضعـف ، والضعف شر من الموت ، ثم تمثل بأبيات شعر يقول فيها :

سَتَغْرُبُ شَمسُ هذا العُمرِ يومـاً
ويغمضُ ناظـري ليـل الحِمامِ
فَهلْ يَسْري إلى قَبْـري خَيَـالٌ
مـن الدُّنيـا بأَبنـاءِ الأَنـامِ
خَلَعْتُ اسْمِي عَلَى الدُّنْيـا ورَسْمِي
فَمَا أَبْكي رَحِيلي أَو مُقـامِي

* * *

ولما قلت له يوماً :

ان بناء جسمك وما أراه من قوة صحتك ومثابرتك على العمل في الشيخوخة، يبشر بأنك ستصل إلى سن المائة أو تزيد ، فماذا يكون شعورك وقتئذ ، وما هو الكتاب الذي تؤلفه ؟

فأجاب :

– إنني لا أتمنى أن أصل إلى سن المائة كما يتمناه غيري ، وإنما أتمنى أن تنتهي حياتي عندما تنتهي قدرتي على الكتابة والقراءة ، ولو كان ذلك غداً ..

« أما شعوري لو بلغت « المائة » إذا كنت بصحة جيدة ، فهو نفس شعوري الآن .ولكن إذا ضعفت صحتي واضمحلت قوتي ، فإن شعوري يومئذ سيكون كشعور كل إنسان بالضعف والتعب ، وهو شعور مؤلم غير مريح ..

« وإذا توافرت لي الصحة ولم تضمحل القوة ، وبلغت سن المائة ، فإني أؤلف كتاباً أسميه : « تجارب مائة عام » أو «قرن يتكلم » . . وأعهد بنشره إليك » ..

* * *

وقد كان من أمانيه الكبرى أن يختم حياته بتأليف كتاب عن « الإمام الغزالي وفلسفته » . وعنده مكتبة خاصة عنه بالعربية والإنجليزية . وكان يقرأ له وعنه في الثلاثين سنة الأخيرة قراءة دقيقة ليضع هذا الكتاب ، فقد كان يعده أول فيلسوف ومفكر إسلامي . ويرى أنه قدوة للفلاسفة ، ومثال سام من التفكير الرفيع ، نتعلم منه أن الفلسفة لاتتم بغير قسط من التصوف ، لأن التصوف قدرة على انتزاع النفس من المألوف. وهذه قدرة لايستغني عنها الفيلسوف المفكر ، ولا الفيلسوف الحكيم .. !

طاهر الطناحي

***

الفصل الأول

أنـــا

الكاتب الأمريكي « وندل هولمز » يقول ان الإنسان – كل إنسان بلا استثناء – انما هو ثلاثة أشخاص في صورة واحدة .

الإنسان كما خلقه الله .. والإنسان كما يراه الناس .. والإنسان كما يرى هو نفسه ..

فمَن من هؤلاء الأشخاص الثلاثة هو المقصود بعباس العقاد ؟ ..

ومن قال إنني أعرف هؤلاء الأشخاص الثلاثة معرفة تحقيق أو معرفة تقريب ؟ ..

من قال إنني أعرف عباس العقاد كما خلقه الله ؟

ومن قال إنني أعرف عباس العقاد كما يراه الناس ؟

ومن قال إنني أعرف عباس العقاد كما أراه ، وأنا لا أراه على حال واحدة كل يوم ؟

هذه هي الصعوبة الأولى ، ولا أتحدث عن غيرها من الصعوبات .

ولكني أضربها مثلا واحداً من أمثلة كثيرة . ثم أختصر الطريق وأنتقل إلى الموضوع من قريب .

إنني لن أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقاد » كما خلقه الله .

فالله جل جلاله هو الأولى بأن يسأل عن ذلك ..

ولن أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقاد » كما يراه الناس فالناس هم المسؤولون عن ذلك .

ولكن سأتحدث عن عباس العقاد كما أراه .

وعباس العقاد كما أراه – بالاختصار – هو شيء آخر مختلف كل الاختلاف عن الشخص الذي يراه الكثيرون ، من الأصدقاء أو من الأعداء .. هو شخص أستغربه كل الاستغراب حين أسمعهم يصفونه أو يتحدثون عنه ، حتى ليخطر لي في أكثر الأحيان أنهم يتحدثون عن إنسان لم أعرفه قط ولم ألتق بــه مــرة في مكان .

فأضحك بيني وبين نفسي وأقول : ويل للتاريخ من المؤرخين ..

أقول ، ويل للتاريخ من المؤرخين لأن الناس لا يعرفون من يعيش بينهم في قيد الحياة ومن يسمعهم ويسمعونه ويكتب لهم ويقرؤونه ، فكيف يعرفون من تقدم به الزمن ألف سنة ، ولم ينظر إليهم قط ولم ينظروا إليه ؟ ..

فعباس العقاد هو في رأي بعض الناس مع اختلاف التعبير وحسن النيــة ، هو رجل مفرط الكبرياء .. ورجل مفرط القسوة والجفاء ..

ورجل يعيش بين الكتب ، ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس .

ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ولا سلطان للقلب ولا للعاطفة عليه .

ورجل يصبح ويمسي في الجد الصارم فلا تفتر شفتاه بضحكة واحــدة إلا بعد استغفار واغتصاب .

هذا هو عباس العقاد في رأي بعض الناس .

وأقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف أن عباس العقاد هذا رجل لا أعرفه ، ولا رأيته ، ولا عشت معه لحظة واحدة ، ولا التقيت به في طريق .. ونقيض ذلك هو الأقرب إلى الصواب .

نقيض ذلك هو رجل مفرط في التواضع ورجل مفرط في الرحمة واللين ورجل لايعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة ؛ رجل لايفلت لحظة واحدة في ليله ونهاره من سلطان القلب والعاطفة ورجل وسع شدقاه من الضحك ما يملأ مسرحاً من مسارح الفكاهة في روايات شارلي شابلن جميعاً ..

هذا الرجل هو نقيض ذاك ..

ولا أقول ان هذا الرجل هو عباس العقـــاد بالضبط والتحقيق ، ولكني أريد أن أقول انهم لو وصفوه بهذه الصفة ، لكانوا أقرب جداً إلى الصواب ، ولأمكنني أن أعرفه من وصفه إذا التقيت به هنا أو هناك ، خلافاً لذلك الرجل المجهول الذي لا أعرفه بحال .

مكان التواضع واللين

إنني لا أزعم أنني مفرط في التواضع

ولكنني أعلم علم اليقين أنني لم أعامل إنساناً قط معاملة صغير أو حقير ، إلا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب .

وأعلم علم اليقين أنني أمقت الغطرسة على خلق الله ، ولهذا أحارب كل دكتاتور بما أستطيع ولو لم تكن بيني وبينه صلة مكان أو زمان ، كما حاربـــت هتلر ونابليون وآخرين .

وأنا لا أزعم أنني مفرط في الرقة واللين .

ولكنني أعلم علم اليقين أنني أجازف بحياتي ، ولا أصبر على منظر مؤلم أو على شكاية ضعيف .

فعندما كنت في سجن مصر رجوت الطبيب أن يختار لي وقتاً للرياضة غير الوقت الذي تنصب فيه آلة الجلد لعقوبة المسجونين .

فدهش الطبيب ، وظن أنه يسمع نادرة من نوادر الأعاجيب ..

وقال لي في صراحة : ما كنت أتخيل أن أسمع مثل هذا الطلب من العقاد « الجبار » .

وأصبت في السجن بنزلة حنجرية حادة حرمتني النوم وسلبتني الراحة ، ولم تزل هذه النزلة الحنجرية عندي مقدمة لأخطر الأمراض كما حدث قبل نيف وعشرين سنة ونجوت منها يومئذ بمعجزة من معجزات العلاج والعناية وتبديل الهواء ، ومن أجل هذه النزلة الحنجرية ألبس في الشتاء تلك الكوفية التي علقتها الصحف الفكاهية في رقبتي لا تحل عنها في صيف أو شتاء ، ولا في صبح أو مساء ، حتى أوشكت أن تكون من علامات تحقيق الشخصية قبل الملامح والأعضاء .

وكانت زنزانة السجن التي اعتقلت بها على مقربة من أحواض الماء شديدة الرطوبة والبرودة ، يحيط بها الإسفلت من أسفلها إلى أعلاها ، ولا تدخلها الشمس إلا بالإشارة من بعيد .

فعرض المحامون أمري على المحكمة وحولته المحكمة إلى النيابة ، ودرسته النيابة مع وزارة الداخلية ومصلحة السجون ، وتقرر بعد البحث الطويل نقلي إلى المستشفى وإقامتي هناك في غرفة عالية تشرف على ميدان واسع وحديقة فسيحة ، وتتصل بالداخلين والخارجين أثناء النهار ، ويتردد عليها الأطباء والموكلون بالخدمة الطبية من الصباح إلى الصباح .

فرج من الله ، وأمنية عسيرة التحقيق تمهدت بعد جهد جهيد !

فصعدت إلى المستشفى وأنا أعتقد أن الخطر الأكبر قد زال أو هان، ولكني لم ألبث هناك ساعة حتى شعرت أن الزنزانة المغلقة أهون ألف مرة من هذا المكان الذي أصغي فيه إلى أنين المرضى وشكاية المصابين والموجعين ، ثم غالبت نفسي ساعة فساعة ، حتى بلغت الطاقة مداها ولما يطلع الفجر من الليلة الأولى ، وإذا بي أنهض من سريري وأنادي حارس الليل ليوقظ ضابط السجن ويعود بي

إلى الزنزانة من حيث أتيت ، ولتفعل النزلة الحنجرية وعواقبها الوخيمة ما بدا لها أن تفعل .

أنا أعلم من نفسي هذا ، وأعلم أن الرحمة المفرطة باب من أبواب العذاب في حياتي منذ النشأة الأولى ، وأعلم ما أعلم عن تلك العواطف التي يتحدث بها بعض الفضوليين ولا يعرفون منها غير التصنع والتمثيل وتدميع العيون وتبليل المناديل ، ثم أسمع جبلا من هذه الجبال البشرية يذكر الرحمة وما إليها ، كأنها حلية لايزين الله بها إلا أمثاله ، ولا يعطل الله منها إلا أمثال عباس العقـــاد ... فماذا يكون حكمي بعد هذا على آراء الناس في الناس ؟ ..

لن يكون إلا قلة اعتداد برأي من الآراء ، يحسبونها الكبرياء وليست هي الكبرياء ، ولكنها موقف من لا يبالي أن يعتقد من يشاء ما يشاء .

كرامة الادب والادباء

إلا أن الناس معذورون بعض العذر في شبهة الكبرياء هذه ، وإن كانوا لا يطالبون أنفسهم بأقل مجهود في تصحيح هذه الشبهات .

فقد أراد الله – وله الحمد – أن يخلقني على الرغم مني متحدياً « تحديـــاً خصوصياً » لكل تقليد من التقاليد السخيفة التي كانت ولا تزال شائعة في البلاد المصرية والبلاد الشرقية على العموم .

أنا أطلب الكرامة من طريق الأدب والثقافة ، وأعتبر الأدب والثقافـــة رسالة مقدسة يحق لصاحبها أن يصان شرفه بين أعلى الطبقات الاجتماعية ، بل بين أرفع المقامات الإنسانية بغير استثناء .

أفي ذلك عار ؟ .. أفي ذلك موجب للحقد والضغينة ؟ ..

كلا ! .. بل فيه مأثرة وفيه فضل جديد على عالم الأدب في هذا الشرق المسكين الذي كان أدباؤه لايرتفعون عن منزلة المضحكين والندماء المهرجين

على موائد الأغنياء والرؤساء ، فإذا ارتفعوا عن هذه المنزلة قليلا أو كثيراً ، فهم لايرتفعون بفضل الأدب والفن ، بل بفضل وظيفة يعتصمون بها أو شهادة علمية ينتحلون سمعتها ، أو ثروة يحسبون من أهلها ، ثم يحترمون لأجلها على الرغم من كونهم كتاباً وشعراء !

وها هو ذا إنسان يعرف حقه في الكرامة ولا يعرف حقاً لتلك الأصنام الاجتماعية تفرضه عليه .

صنم المال ، وصنم العناوين العلمية والشارات الرسمية ، وصنم المناصب وصنم الألقاب ، كيف تتجاهلها ياهذا وكيف تطلب الكرامة لنفسك من غير طريقها ؟

إن الأصنام لا تقنع بما دون العبادة ، فكيف بالإعراض وقلة المبالاة ؟ وكيف بالتحطيم والكفران ؟

جهنم الأرباب جميعاً قليلة – قليلة جداً – في جانب هذا الذنب العظيم ..

وإذا بهذه الأصنام جميعاً تدعوني إلى دفع الجزية المفروضة عن يد ونحن صاغرون ، وإذا بها جميعاً تعود خالية الوفاض غير محفول بما تعمل وما تقول .

قالت : أتريد لك حقاً وكرامة ؟

قلت : نعم ...

قالت : إذن كن غنياً وإلا فليس لك كرامة ..

قلت : كلا .. سأكون غنياً عن الغنى ، ولي الكرامة التي أريدها ...

قالت : إذن كن صاحب لقب وعنوان ....

قلت : كلا .. سيعرفني العالم والأديب ، وسأصعد في هذه السماء صعوداً حيث تزحف الألقاب والعناوين .

قالت : إذن كن صاحب منصب ، كن صاحب أحساب وأنساب ، كن شيئاً في طريقي ولك المسعدة مني بعد ذلك في كل طريق .

قلت : سأمضي في كل طريق أريد المضي فيه ، ولا حاجة بي إليك .

ثم دارت الأيام ،والتقيت بالأصنام .

قالت في شماتة وهي تتساءل : كيف الحال ؟ ..

قلت : عال . . أنت تعلمين على الأقل أنني لم أدفع الجزية المفروضة ، وأنت تعلمين على الأقل أنني لم أخسر شيئاً يعنيني .

قالت : نعم .. ولكنك تعبت كثيراً وخرجت آخر المطاف بسمعة الكبرياء والجفاء ! ..

قلت : يغفر الله لك أيتها الأصنام ! .. أتعنين السمعة على الألسنة والإشاعة في المجالس وسوء القالة بين الفارغين ؟ .. هذه أيضاً صنم من الأصنام التي لا أعرف لها جزية تؤدى ، فاكتبي جزيتها وجزيتك في حساب واحد ، وانتظري بالأجل إلى يوم الدين !

ولا عجب أن تغضب الأصنام غضبتها التي تضيق بها اللحوم والدماء ، ولكن العجب أن يغضب عبادها المساكين الذين لايظفرون منها بطائل ، وأعجب منه أن يغضب عبادها الحانقون عليها المتلهفون على الخلاص منها ، لأنهم نسوا هذا وأصبحوا يذكرون أن واحداً أفلح حيث يفشلون ، فلماذا تمرد فاستطاع ، وهم يتمردون فلا يستطيعون ؟

ذلك هو الثأر الذي لايغفر !

وذلك وأمثاله هو الأصل الأصيل في شبهة الكبرياء، أسوقه على هذا النحو الذي لايشبه الاعتذار ، وأفسره بهذا التفسير الذي لا يتضمنه طلب البراءة .. لأنني أكره الاعتذار عن الحسنات حينما يتفاخر الناس بالسيئات والوصمات ، وبحسبي أنني نازل عن حقي في الثناء ، لما صنعت من جميل لكرامة الأدب والأدباء .

وعذر آخر للناس – وإن كان لاذنب لي فيه – أن يذهب بعضهم من النقيض إلى النقيض في فهم رجل يعيش بينهم على قيد الحياة .

عذر هؤلاء أنني مطبوع على العزلة والانطواء على النفس في أحسن الأحوال وأسوئها على السواء .

ولا حيلة لي في ذلك لأن أسبابه عميقة يرجع بعضها إلى الوراثة وبعضها إلى الطفولة الباكرة ، وبعضها إلى تجارب الدنيا التي لا تنسى .

ورثت حب العزلة من كلا الأبوين .

وعرض لي حادث دون السابعة من عمري أتمثله الآن كأني حضرته منذ يومين وهو حادث الوباء الذي كان معروفاً باسم الهيضة أو الهواء الأصفر في أسوان .

أقفرت المدينة شيئاً فشيئاً من سكانها .

مات كثيرون منهم ورحل آخرون ، وخلا الشارع الذي أقيم فيه فأغلقت الحكومة أبوابه ولطختها بالعلامة الحمراء التي معناها أن هذا البيت قد زاره الوباء.

ومن لحظة إلى لحظة يتراءى في الشارع نعش عار يمشي من ورائه رجلان أو ثلاثة ، وقد يكون بينهم وبين حمل هذا النعش مسافة الطريق ، وتوصيلة أخرى من توصيلاته التي لا تنقطع طول النهار .

وبيتنا وحده فيه اصابتان ..

وليس في الشارع ، إذا خرجت إليه ، طفل واحد يحوم بين تلك البيوت المغلقة بالعلامة الحمراء .

وإذا نزلت إلى شارع النيل حيث كان يطيب لي التجوال على غير هدى ،

وجدته مقفراً من الناس ، ومن حين إلى حين تعبر في النيل سفينة شاردة لاتجترئ على ملامسة الشاطىء خوفاً من العدوى . ويصيح منها صائح كلما لمح على المورد زميلا يسأله عن الخبر :

– كم المحصول اليوم ؟

فيجيبه : مصري كامل .. أو مجيدي .. أو بنتو .. أو نصف جنيه فقط في أسلم الأيام .

ما هذا المحصول ؟.. وما هذه العملة التي يحسبونه بها ؟..

إنها تهكم المصائب الوجيع !

إنه عدد الموتى في ذلك اليوم : جنيه مصري كامل أي مائة ميت ، ونصف جنيه أي خمسون ، ولم أسمع قط ذكر الريال إلا في ختام الموسم الشنيع : موسم الحصاد !

صورة لاأنساها ، ولا ألتفت إليها إلا تمثلت وحشتها وبلواها ، وإليها ولا شك يرجع شيء من هذه الوحشة التي تحبب إليّ الخلوة والانفراد ..

وتزيد عليها تجارب الدنيا التي لاتنسى وخلاصتها أن العواطف المزيفة أروج في هذه الدنيا من العواطف الصحيحة . فلا أسف إذن على رأي الناس في الناس ، ولا اعتداد إذن بما يقال ومن يقول .

الصداقة والعداوة

ما أسلفته لا أذكره على أنه فضائل محمودة ، ولا على أنه رذائل مذمومة .. ولكنه صفات حقيقية وكفى .

ومن هذه الصفات الحقيقية التي أعهدها في نفسي أنني لا أميل إلى التوسط

في الصداقة ولا في العداوة . فلا أعرف إنساناً نصفه صديق ونصفه عدو ، وإنما أعرفه صديقاً مائة في المائة أو عدواً مائة في المائة ، ولا تهمني مع ذلك عداوته إذا حفظها لنفسه .. ولكنه إذا تعقبني بها وأبى إلا أن يكشف عنها فهي الحرب التي لا توسط فيها كذلك : إما كاسر وإما مكسور .. إلا أن يريحني احتقاره من عناء هذا وذاك ..

ومن هذه الصفات ، أنني أمام الألفة أو العادة ضعيف لا أقدم على التبديل إلا بعد عناء طويل .

ومثل من أمثلة ذلك أن البيت الذي أسكنه قد تغير له أربعة من الملاك ، وأنا الساكن فيه لا أتغير .

وأنني في مصر الجديدة ودكان حلاقي في شارع محمد علي إلى الآن ، لأنني منذ عشرين سنة كنت أسكن هناك .

وأنني كنت أشكو مرض الكلى قبل نيف وعشرين سنة فأشار عليَّ الطبيب باتباع نظام مخصوص في الطعام يناسب الحالة التي أشكوها ، وقد زالت تلك الحالة بعد سنة واحدة ، ولكني لاأزال إلى الساعة أجري على النظام الذي ألفته من جرائها ، ولا أستطيب أن أعود إلى كل طعام ، !

الظنون والتشديد

ومن هذه الصفات أن الظنون عندي قوية السلطان ، وعلة ذلك عندي معالجة التفكير المنطقي في كل شيء ، فليس أسهل في المنطق من فتح أبواب الاحتمالات . أما اغلاقها — أو الجزم بنفيها — فلا يكون إلا ببرهان قاطع ، والبراهين القاطعة قليل .

ومن هذه الصفات أن التجديد والمحافظة عندي يلتقيان في معظم الأمور ، وعلة ذلك على ما أعتقد أنني نشأت بأسوان ، وهي أعرق مدينة بين مدن مصر القديمة بموروثاتها التي لا تبلى ، وهي في الوقت نفسه مدينة أوربية في الشتاء ، أو كانت كذلك يوم نشأت بها نشأتي الأولى . فأوربا كلها كانت تتراءى هناك

كل شتاء بملاهيها وأزيائها وعاداتها ومؤلفاتها وفنونها واختلاف اقوامها .

وأنا أحب الأطفال جداً ، وكان في منزلنا جماعة من الأطفال أكبرهم في السادسة من عمره ، وهم جميعاً أصدقائي ، وكثيراً ما يصعدون إلى مسكني يسألونني ويتحدثون معي ما شاء لهم الحديث .

أنا يأسرني الفن الجميل ، حتى أنني أبكي في مشهد عاطفي أو درامي متقن الأداء ، وأذكر أنني بكيت في أول فيلم أجنبي ناطق ، كان يمثله الممثل القديم « آل جولسون » وكان مع آل جولسون طفل صغير يمثل دور الطفل الذي حرم من أمه وظل هدفاً للإهمال حتى مات ... وتأثرت من الفيلم وبكيت ، ولم أستطع النوم في تلك الليلة ، إلا بعد أن غسلت رأسي بالماء الساخن ثلاث مرات متتالية .. وأنا أستعين بغسيل الرأس بالماء الساخن على إبعاد الأفكار السوداء عني عندما تتملكني .

ومن صفاتي التي لايعرفها الناس ، أنني إذا عوملت بالتسامح لا أبدأ بالعدوان أبداً ، وإذا هاجمني أحد فلا أرحمه ، وقد قالت سارة عني ذات مرة « إن من يظهر طرف السلاح للعقاد ياقاتل يامقتول ! »

حاسة سادسة

ولديَّ صفة عجيبة أعتز بها أيما اعتزاز ، وهي أن لديَّ حاسة سادسة لا تخطيء ، ففي أحد الأيام – كنت بأسوان – سألت أختي فجأة عن صديق لي لم أكن قد رأيته منذ مدة ، وفي المساء جاءتني برقية تنعي ذلك الصديق ، وقد تبينت بعد ذلك أنه توفي في اللحظة نفسها التي تذكرته فيها ، وقد تكررت مثل تلك الحوادث كثيراً ، حتى عرف عني أصدقائي هذه الصفة ..

وأنا وفيّ جداً لأصدقائي من الأحياء والأموات ، كما أنني وفيّ لذكرياتي ، وأعتز بها كل الاعتزاز ، وقد كنت شديد التعلق بوالدتي ، وعندما كنت أزور أسوان كان أول ما أفعله هو أن أنزل من القطار وأهرع إلى غرفة والدتي ، وألتصق بها .. فلما توفيت إلى رحمة الله لم أدخل غرفتها حتى الآن ، كيلا

أراها فارغة منها ، حتى الشوارع التي كنت أغشاها مع صديقي المازني — رحمه الله — لم أستطع أن أغشاها بعد مماته ، وصرت أتجنب ما يذكرني بفجيعتي فيهما حتى لا أحزن من جديد .

ولدت في أسوان

ولدت في أسوان يوم ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٩ ، ولي إخوة أشقاء وغير أشقاء فقد كان والدي متزوجاً قبل والدتي ، ثم ماتت زوجته وبعدها تزوج أمي ... وكبير أشقائي أحمد ، وكان يعمل سكرتيراً لمحكمة أسوان ، وهو الآن على المعاش ، وعبد اللطيف وهو تاجر ، ولي شقيقة واحدة ، نحبها جميعاً وهي متزوجة تعيش في القاهرة إلى جواري ، أما إخوتي غير الأشقاء ، فهم جميعاً أكبر مني سناً ، وبعضهم يعيش في القاهرة ، والبعض الآخر بأسوان .

بدأت حياتي الأدبية وأنا في التاسعة من عمري ، وكانت أول قصيدة نظمتها في حياتي هي قصيدة مدح العلوم وقلت فيها .

عِلْمُ الحِسَابِ لـه مزايـا جَمَّةٌ
وبـه يزيدُ المـرءُ في العِرْفانِ
والنحـوُ قنطرةُ العُلـومِ جَميعها
ومُبينُ غَامِضِهـا وخَير لِسَانِ
وكذلك الجُغرافْيـا هَادِيةُ الفَتَى
لمسَـالك البلـدان والوديـانِ
وإذا عَرَفْتَ لسانَ قومٍ يا فتَى
نِلْتَ الأَمَان بـه وأَيّ بَيانِ

وتدرجت في المدارس ، ثم جئت إلى القاهرة للكشف الطبي عندما التحقت بإحدى وظائف الحكومة عام ١٩٠٤ ، وكان عمري إذ ذاك ١٥ سنة ، وكانت وظيفتي في مديرية قنا ، ولم تكن اللوائح تسمح بتثبيتي ، لأنني لم أكن قد بلغت بعد سن الرشـــد ثم نقلت إلى الزقازيق ، ثم كنت أول من كتب في الصحف يشكو الظلم الواقع على الموظفين ، ثم سئمت وظائف الحكومة ، وجئت إلى القاهرة ، وعملت بالصحافة ، وأخيراً عينت عضواً بمجلس الفنون والآداب .. كما عينت بالمجمع اللغوي .

***

أبي

هل يعرف أحد من أين لي باسم « العقاد » ؟

لاأحد طبعاً .. وهناك غير هذا أشياء كثيرة لا يعرفها الناس عني ، أشياء قد تبدو غريبة ، لكنني أقولها في هذا المقام .

أما اسم « العقاد » فأذكر أن جدي لأبي كان من أبناء دمياط ، وكان يشتغل بصناعة الحرير ، ثم اقتضت مطالب العمل أن ينتقل إلى المحلة الكبرى حتى يتخذها مركزاً لنشاطه ، ومن هنا أطلق عليه الناس اسم « العقاد » أي الذي « يعقد » الحرير ... والتصقت بنا ، وأصبحت علماً علينا ..

* * *

قد تعجب إذ تعلم أن جدنا الأكبر من دمياط ، مع أن الجميع يعرفون أنني من أسوان ، وأن عدداً من أبناء أسرتنا لايزال يعيش في أسوان حتى اليوم.

وإني أتمثل « أبي » الآن في الصورة التي رأيتها ألفي مرة بل أكثر من ألفي مرة ، لأنني كنت أراها كل يوم منذ فتحت عيني على الدنيا ، إلى أن فارقت بلدتي بعد اشتغالي بالوظائف الحكومية ..

وتلك هي صورته على مصلاه ، يؤدي صلاة الصبح ويجلس على سجادة الصلاة ، من مطلع الفجر إلى ما قبل الافطار ، ليتلو سوراً خاصة من القرآن الكريم ويعقبها بتلاوة الدعوات .

وكان يؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها ، ولكن جلسته في الصباح الباكر هي التي انطبعت في ذاكرتي إلى هذه الساعة ، لأنها كانت أول ما أستقبله من الدنيا كل صباح .

ومن أجل الصلاة حدث بيني وبينه أول خلاف يوصف بالعصيان .. فإنه — رحمه الله — كان يدين بالجد في الواجب ، أو بالشدة في الجد ، وكان يرى للطفل ما يراه للشيخ، إذا كان الأمر أمر فريضة أو عمل محمود أو عرف مأثور ..

من ذلك أنه كان يراني فيما دون الثامنة من عمري أجلس في المنزل بين قريباتي وخالاتي وجارات المنزل ، فيصيح بي مستغضباً :

— عباس .. ماذا تصنع هنا بين النساء ؟ .. تعال معي فاجلس بين أمثالك .. ومن هم أمثالي ؟.. شيوخ فيما بين الأربعين والسبعين، كانوا يسمرون معه في « المندرة » ويقضون الوقت في أحاديث الشيوخ عن السياسة تارة وعن قضايا الأسر الكبيرة تارة أخرى ، وقلما يمزحون أو يتفكهون إلا ثابوا إلى وقارهم كالمعتذرين .. وكانت السهرة تنقضي على أحسن حال إذا حضرها شيخ متحذلق معلوم فيه بعض الغفلة .. فيناوشونه بالأسئلة المحرجة والدعابات المتناقضة .. ثم يعودون إلى ما كانوا فيه .

* * *

وقد أفادتني هذه الجلسات كل فائدة تأتي من التوقر قبل سن الوقار ، وقلما يخلو من بعض الأضرار .

ولكن فائدتها الكبرى كانت ولا ريب معرفتي بالقاضي أحمد الجداوي رحمه الله . فإنه كان من أدباء الفقهاء الذين عاصروا السيد جمال الدين ، وأخذوا عنه دروس الحكمة والغيرة القومية ، وكان قوي الذاكرة واسع المحفوظ من المنظوم والمنثور ، يستظهر مقامات الحريري وبديع الزمان ودواوين الشعراء الفحول ، ويطارح خمسة أو ستة من الأدباء في وقت واحد فيسكتهم

دائماً ولا يسكتونه مرة واحدة . فكانت معرفتي به إحدى الدواعي الّتي حفزتني للمطالعة والإقبال على الكتب والدواوين .

ومن أمثلة الجد الشديد في السيد الوالد – رحمه الله – أنه كان ينظـــر إلى « الصور » كأنها ألاعيب فارغة لا تليق بالعقلاء . فلم يتخذ له صورة قط ، ولم يوافقني على شراء صورة من صور الفصول الدراسية الّتي كانت ترسم للمدرسة كل عام .

على هذه السنة من الجد الشديد أراد – رحمه الله – أن أواظب على الصلاة في أوقاتها قبل العاشرة من عمري. فكان أثقل ما أعانيه من ذلك يقظة الفجـــر في الشتاء ، وهو الوقت الذي يرين فيه النوم على الأطفال، فلا يستيقظون إلا بعد جهد عنيف .

وصبرت على هذا الجهد العنيف مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات، ثم تمردت دفعة واحدة ، وقلت لمن جاء يوقظني : « اذهب عني . فلســـــت بالمستيقظ .. ولست بالمصلي اليوم ! »

وسمع أبي ماقلت فصاح بي : « ماذا تقول ؟.. أتقول إنك لاتصلي ؟ » ووثب إلى عصاه ! ..

فذهب بي الإصرار مذهبه وقلت : « نعم ! »

فصمت ولم يزد ، وأعرض عني أياماً لا يكلمني حتى تناسينا هذا الخلاف ، وكنا مع ذلك نجلس إليه جميعاً على الطعام في الصباح والمساء وأحياناً في طعام الغداء .

* * *

وموضع الشدة في هذه المسألة أنني لم أكن أنفر من الصلاة ولا من الفرائض الدينية ، بل كنت أخف إلى المسجد بعض الأوقات ، وأنشد على المئذنة أناشيد الجمعة الأولى ، وظللت أنشدها بعـــد ذلك وأنظمها ، ولا أذكر للمؤذن أنني

نظمتها لئلا يستصغرها ويرفض انشادها ، ولكن الشدة صدمتني لأنها كلفتني ما لا أطيق قبل الأوان ، وجاءتني في معرض الاكراه والالزام ، وهي عبرة تساق للاستفادة منها في هذا المقام .

ولا أزال أذكر ملامح السرور التي رأيتها على وجه أبي حين أنشدته قصيدة من تلك القصائد التي كنت أنظمها في مدح النبي عليه السلام. فإنه تهلل واستبشر ، ولعله تهلل واستبشر لنزعتي الدينية قبل براعتي في نظم الشعر أو تجويد الكتابة ، ولم يلاحظ عليّ إلا أنني ختمت القصيدة بشطر أقول فيه على ما أذكر مشيراً إلى نفسي « عباس من هو في الأشعار مدراراً » ..

فقال : « إن الأباصيري أكبر مادحي النبي قد ختم مدائحه معتذراً عن التقصير . فافعل كما فعل ، أو فاسكت عن الاعتذار وعن الاطراء ».

* * *

وكان — رحمه الله — يحتقر المال أن يطلبه بما يسوء في الضمير ، أو يسيء إلى إنسان .

وقد كان في وسعه أن يجمع الثروة العريضة من وظيفته ، فلم يكسب منها غير مرتبه ، وما هو بالكثير .

* * *

كان أميناً « للمحفوظات » بإقليم أسوان ، وكانت أسوان خارجة من القلاقل الجسام التي حاقت بها في حرب الدراويش . فمعظم أبنائها الأغنياء كانوا يتجرون في السودان فانقطعوا هناك بعد انقطاع المواصلات ، وذهبت الوثائق فلم يدر أحد ما ذهب منها وما بقي بدار المحفوظات ، وتداولت هذه المحفوظات أيد كثيرة على غير انتظام في التسليم والاستلام .. وكثر المدّعون للأرض والعقار ، اعتماداً على ضياع الوثائق ، وغياب المالكين ، وموت بعض الوارثين ، فلو شاء أبي في هذه الفترة أن يخفي ويظهر ، وأن يقبل المساومة

والإغراء ، لقاسم الكثيرين فيما يدعون أو فيما يملكون . ولكنه أوصد هذا الباب فلم يطمع فيه طامع ، وسلم دار المحفوظات لمن بعده ، وهي مثل في الدقة والضبط وسهولة المراجعة والاحصاء .

* * *

ومن تقديراته في احتقار المال الذي يكسب عن طريق الاساءة إلى الناس ، أنه زجر أخي الكبير زجراً شديداً ، حين علم أنه ينوي التبليغ عن بعض المتهمين في قضية جعلت للمبلِّغ فيها مكافأة قدرها خمسون جنيهاً — أو مائة جنيه — لا أذكر الآن على التحقيق .

وجلية القضية أن فتى من الشبان الوارثين بالقاهرة حضر إلى أسوان في الشتاء ومعه ألف جنيه .

وكانت أسوان مرتاد السائحين والسائحات في موسم الشتاء ، وفيها من أسباب الانفاق والمتعة مطمع لأمثال ذلك الوارث ومن يلوذون بالمبذرين والمسرفين .

وسُرق الوارث قبل أن يستنفد من الألف مائة أو مائتين ، وانحصرت الشبهة في شاب موظف بالمحكمة ، كان يسكن مع أمه وأبيه في بيت لنا مجاور للبيت الذي نقيم فيه ، فراحت أمه إلى جارة لها تستجهلها وتظن أنها لاتعرف ورق النقد الذي كان في الواقع غير معروف بين أكثر الناس فاستودعتها لفافة من الورق هي جملة المبلغ المسروق . ولكن المرأة أطلعت زوجها على الخبر وهو من كتاب العرائض المدربين . فعرف الورق وعرف سر القضية وأخفى كل ما وصل إليه .

* * *

مثل هذا الخبر لايخفى بين سكان حيٍّ من أحياء الريف . فعرفنا ما حدث ، وعرفنا أن الوارث سمح بالمكافأة التي ذكرناها لمن يرشد إلى السارقين ، ونظر

أخي الكبير إلى القضية نظر الرجل العصري الذي لايبالي أن ينتفع بالمال للتبليغ عن مجرمين ، ونظر أبي إليها نظرة الجيل القديم يستعيذ من فضيحة الحرمات من أجل مال يبذره وارث سفيه .. فدعا بأخي أمامنا جميعاً وأقسم له أغلظ الأيمان لئن أقدم على التبليغ ليبرأن منه مدى الحياة ، ولا يأذن له أن يمشي في جنازته بعد الممات .

وكان يحاسب نفسه على كل حصة من المال تجتمع في حوزته وتفرض عليها الزكاة فيوزعها خفية ، ويرسلني بها إلى بيوت الفقراء الذين لايتعرضون للسؤال ولا يرد مسكيناً يطلب الطعام من المساكين الذين يترددون على الأبواب .

وكان كثير العطف على ذوي قرباه ، يزورهم في المواسم والأعياد ، سواء منهم من كبر ومن صغر ، ومن استغنى ومن افتقر ، على ماكان في انتقاله إليهم من المشقة بعد أن جاوز الخمسين ، وإذا استخلص منهم واحداً لسداد رأيه وخلوص طويته ، شاوره في الجليل والدقيق من شؤون الأسرة ، واعتمد على مشورته في كثير من الأحيان .

ولم يكن يغضب لشيء كما كان يغضب لكرامته وسمعة اسمه . ومن ذلك أنه كان له حمار يتنقل عليه من قرية إلى قرية ، حين كان معاوناً للإدارة . فلما استقر في المدينة باعه لبعض المكارين . وكان الحمار مشهوراً بالسرعة وهدوء الحركة ، فكان المستأجرون يطلبونه ويقولون للمكاري : « هات حمار العقاد » ثم اختصروا كعادتهم فأصبحوا يطلبونه فيقولون : « هات العقاد ! هات العقاد » فلما سمع بذلك عاد فاشتراه وقبل المغالاة في ثمنه على غير حاجة إليه . واستبقاه يعلفه ويتحمل ضجته ، حتى اشتراه من ينقله إلى قرية بعيدة لا يستخدمه فيها بالكراء !

* * *

ولم يكن مكثراً من القراءة في غير الكتب الدينية ، ولكنه كان يحدثنا

دائماً عن تجاربه ومصاعب حياته ، ويأبى علينا أن نستمع إلى أقاصيص العجائز وحكايات الأساطير .

على أنني وجدت في دواليب « المندرة » ، بعد أن بلغت سن القراءة ، أعداداً كثيرة من مجلة « الأستاذ » لصاحبها عبدالله نديم . فاتصلت بالحركة الوطنية قبل أن تنشأ في القطر صحيفة من صحفها الحديثة .

وجملة ما أذكره لذلك الأب الكريم ، أنني مدين له بالكثير ، وأنني لـم أرث منه مالاً يغنيني .. ولكني استفدت منه ما لا أقدره بمال ..

***

أُمّي

في سنة ١٩٣٠ ذهبنا إلى الصعيد في رحلة انتخابية ، وكان النقراشي رحمه الله قائد « التجريدة » كما سميناها يومذاك ، لأن النقراشي كان كعادته يسير في ترتيب أعمالها وتنظيم مواعيدها على خطة عسكرية لا تختل قيد شعرة ، وكان نظامها يستلزم في بعض الأيام أن نستيقظ قبل الفجر لادراك موعد القطار ، فكان القائد اليقظ يسبقنا إلى البكور ولا تمضي دقائق معدودات حتى تصبح التجريدة كلها على استعداد .

ونزلنا سوهاج فاسترحنا بمنزل الأستاذ محمد حسن المحامي ، وجاءني الأستاذ يقول : « هل يتسع الوقت للقاء خالك ؟ » فالتفتُّ إلى النقراشي أسأله ، فقال : « نعم .. وزيادة »

* * *

ثم عاد الأستاذ صاحب الدار يقول « إن الزوارق حاضرة » لأننا كنا ننوي أن نعبر النيل إلى أخميم ونعود منها قبل اطباق الظلام ، فسأله النقراشي : « أو لسنا منتظرين حتى يحضر خال العقاد ؟ »

قال الأستاذ محمد حسن : « ها هو ذا قد حضر ، ولا يزال حاضراً ، وإن شاء عبر النيل معنا »

والتفت النقراشي إلى جانبي فرأى شيخاً أبيض الوجه ، أميل إلى الشقرة ،

وتوليت التعارف بينهما فحياه النقراشي وهو يقول ضاحكاً : « عجباً .. لقد كنت أقرأ في الكشكول والصحف الشتامة عن « بخيتة السودانية » أم عباس العقاد ، وكنت أحسبهم يجدون فيما يكتبون ، فخطر لي أنني أنتظر رجلا أسود أو قريباً من السواد حين جلسنا ننتظر خالك .. أما أن يكون رجلا أشقر لـــه بقايا شعر أصفر ، فهذا ما لم يخطر ببال » ..

وسألني مازحاً : « لماذا لم تكذّب الخبر »

قلت : « إنني لم أكذب أخباراً أكذب من هذه ، فما بالي أكذب نسبتي إلى أم سودانية ؟ ليس في الأمر ما يوجب البراءة منه والاهتمام بتكذيبه .. فكم أنجبت السودانيات من رجال يفخرون بالأمهات »

* * *

لقد كانت أسرة « أمي » من أبويها جميعاً كردية قريبة عهد بالقدوم من ديار بكر ، وقد رأيت أحدهم لا تميزه من أمم الشمال في لونه وقامته ، وقـــد بقي بعضهم إلى أيام طفولتنا نعاكسه حين ندعوه إلى أكلة «ملوحة» أو ملوخية ، لأنهم لم يتعودوا أكلها ، فكنت أقرأ الأكذوبة عن « بخيتة السودانية » وقد وقر في نفسي أنها أبعد من أن تصدق ، واقترنت هذه الأكذوبة بأكذوبة أخرى في ذلك الحين تروي عني أنني أهمل زوجتي وأتركها تتسكع في الطرقات ، ولم تكن لي زوجة قط حتى تتسكع في طريق أو في بيت .. فلماذا أحفل بما يقال ، وكله من هذا اللغو المحال ؟ ..

ولكن هل كانت حكاية « السودانية » كذباً محضاً من الألف إلى الياء ؟ .. كلا .. ويا للعجب ، فإن أجداد أمي جميعاً قد تزوجوا في السودان ، وكان جدها لأبيها وجدها لأمها في الفرقة الكردية التي توجهت إلى السودان بعد حادثة اسماعيل بن محمد علي الكبير ، وهناك عاش عمر أغا الشريف قبل قدومه إلى أسوان ، وهو جد أمي لأبيها ، وأبوها هو محمد أغا الشريف الذي اختـــــار « أطيان » المعاش في قرية من قرى الإقليم ..

والذي يتذاكره كبراء السن الأسوانيون عن عمر أغا الشريف أنه كان رجلا شديد التقوى ، شديد القوة البدنية ، يدرّب أبناءه على الرياضة العسكرية كأنهم على الدوام في خدمة الميدان .

ولد له محمد وعثمان ومصطفى وحورية وفاطمة وخطبت حورية وفاطمة فأراد أن يحتفل بزواجهما معاً ، ثم علم أن خطيب فاطمة لايصلي ، فأبطل الخطبة في اللحظة الأخيرة ، وقال للوسطاء الذين حاولوا أن يصلحوا الأمر : إني لاأزوّج ابنتي لتارك صلاة ولا لمحدث نعمة ، كلاهما يجحد نعمة الله ...

وشاعت حوادث « العبد » قاطع الطريق في الصحراء ، وخافه الجند وهابه تجار القوافل . فقال عمر لأصغر أبنائه مصطفى : أتسمع هذا وتترك ذلك العبد يعيث في الأرض فساداً ؟ .. فما انقضى اسبوع حتى عاد مصطفى بالعبد مكتوف اليدين .

وقد مات مصطفى هذا على أثر ضربة من ضرباته أغراه بها فرط قوته ، فإنه تصدى لثور هائج فقمعه وألقاه على الأرض ، فلم تنقض أيام حتى لقي نحبه ، وقيل أنها حسد . . ولعلها كانت مزقة في داخل الجسم من ذلك الجهد العنيف ..

* * *

أما محمد أغا جدي لأمي فقد كانت فيه تقوى أبيه وصلابته وكثير من أنفته واعتزازه بكرامته ، وقد كان يمزج هذه الأنفة بالعمليات ولا يقصرها على القول أو السلوك .

ذهب إلى قرى الإقليم ليختار أطيان المعاش ، فكان كلما سأل عن زراعة أرض فقالوا له أنها عدس أو فول . . قال : لاشأن لي بها ، حسبنا من العدس والفول ما استوفيناه في السنجق ، أي الفرقة العسكرية . . . حتى جاء إلى أرض قيل له أنها تزرع قمحاً أو شعيراً ، فقال : هذه أرضي : القمح لمحمد أغا

والشعير لحصانه ! . . واختارها مع ما بينها وبين الأطيان الأخرى من فرق في الثمن يبلغ ثلاثة أضعاف . . !

* * *

وورثت أمي تقواها وسلامة بنيتها من أبيها وجدها ، ففتحت عيني أراها وهي تصلي وتؤدي الصلاة في مواقيتها ، ولم يكن من عادة المرأة أن تصلي في شبابها . إنما كانت النساء لايصلين إلا عند الأربعين . .

ومما ورثته عن أبويها حب الصمت والاعتكاف . . كان الناس يحسبون هذا الصمت والاعتكاف عن كبرياء في جدي رحمه الله ، وكانوا يقولون انها « نفخة أتراك » !

لكنها لم تكن « نفخة أتراك » كما توهموا . بل كانت طبيعة تورث وخلقة بغير تكلف ، ولم أر في حياتي امرأة أصبر على الصمت والاعتكاف من والدتي . فربما مضت ساعة وهي تستمع من جاراتها وصديقاتها وتجيبهن بالتأمين أو بالتعقيب اليسير ، وربما مضت أيام وهي عاكفة على بيتها أو على حجرتها ، ولا تضيق صدراً بالعزلة وإن طالت ، ولا تنشط لزيارة إلا من باب المجاملة ورد التحية .

ومن المصادفة اتفاق والدي ووالدتي في هذه الخصلة ، ولست أنسى فزع أديب زارني يوماً وعلم أنني لم أبرح الدار منذ أسبوع ، فهاله الأمر كأنه سمع بخارقة من خوارق الطبيعة . . إنها وراثة من أبوين ، يؤكدها الزمن الذي لا تحمد فيه معاشرة أحد . . إلا من رحم الله !

* * *

وقوة الإيمان في والدتي هي التي بنت فيها العزيمة ليلة احتضاري . . !

نعم أيها القارىء الكريم ولا تعجب . . . فقد احتضرت قبل نيف وثلاثين سنة ، كما تخيل عوادي في تلك الليلة ، فإذا بالوالدة هي الإنسان الوحيد الذي يتحامل على نفسه إلى جانب سريري ليقنعني أنني بخير . . وتنطوي على ذلك

ساعات وهي على عزيمتها ، حتى جاء الطبيب أخيراً وأنبأهم أنه عارض غير ذي بال ، فإذا بالمحتضر قد نجا ، وإذا بالمؤاسية قد سقطت مغمى عليها .

وكانت الوالدة لا تنكر من شؤوني إلا الورق . . نعم : ماهذا الورق ؟ . . الورق الذي لاينتهي ! . .

هذا الورق الذي لاينتهي هو الذي يمرضني ، وهذا الورق الذي لاينتهي هو الذي يصرفني عن الزواج ، وهذا الورق الذي لاينتهي هو سبب الشهرة ...

ووالدتي أيها القارىء من أعداء الشهرة تتطير بها ولا تغتبط بها لحظة إلا تشاءمت لحظات .

هذه الشهرة هي التي « تشيل غارتك » ... أي تجعلهم يتحدثون عنك ، وما تحدث الناس عن أحد وسلم من ألسنة الناس !

• • •

وقلت لها ذات يوم : « لو وجدت لي زوجة مثلك تزوجت الساعة .. »

ولم أكن مجاملا والله ولا مراوغاً . فإنني لا أنسى كمال تدبيرها لبيتها منذ صباها ، وكنا بفضل تدبيرها هذا ننتفع بالجورب حتى بعد أن يرث ويبلى .. فإنه يصلح عندئذ كرة محبوكة ! .. ويغنينا عن شراء الكرات التي لا تحتمل أقدامنا مثل احتمالها .

ولقد توفي والدي وهي في عنفوان شبابها ، وكان لي أخ صغير فتوفرت على تربيته وتركت كل شاغل غير طفلها هذا وأبنائها الكبار .

ولقد ورثت منها كثيراً إلا القصد في النفقة ، وتدبير المال ، وحسبي بحمد الله ما ورثت منها .

* * *

بلدتي ٧

صفاء في جو المكان قلما تشوبه غاشية ، وامتلاء في جو الزمان قلما تخلو منه زاوية .. تنتقل فيها من عصر إلى عصر كما تنتقل فيها من حارة إلى حارة ، وترجع في تاريخ مصر إلى أقصى الماضي فتلقى لها تاريخاً مثله ! ..

هي بلدة خالدة ! بل هي بلدة مخلدة ! لأن معالم الخلود في الهياكل والتماثيل مستعارة من محاجرها ، فهي كالزمن حين تهب الخالدين مادة الخلود .. تلك هي بلدتي أسوان . لم تكن قط شيئاً هملا في عصر من العصور ..

كانت على أيام الفراعنة مفتاح الجنوب ، ومثابة التجارة بين جانبي الوادي القديم ، وملتقى القوافل بين جوانب الوادي جميعاً وصحراء المغرب والمشرق من البحر الأحمر إلى بحر الظلمات ، صاحبت الأرباب منذ عرف الناس الأرباب .. فأقيمت فيها الصلوات لإله النيل ، وأقيمت لايزيس وأوزريس وأقيمت «ليهوا» رب الجنود ، وتلاحقت فيها أديرة الرهبان من أتباع السيد المسيح وصوامع النساك من أتباع محمد عليه السلام ..

وفد إليها «هيرودوت» و « سترابون » من آباء التاريخ ، وكان أبو التاريخ يقول عن كهانها أنهم كانوا يسخرون به كما يسخر الرجل الكبير في حديثه إلى الطفل الصغير ! .. وذكرها « حزقيال » في نبوءات التوراة ، وعرفها الشاعر الابق دعبل ، كما عرفها الشاعر رهين المحبسين أبو العلاء ..

أسوان أنتِ لأن الرَّكْبَ وجهتهم
أَسوانُ أيّ عـذابٍ دون عَيْـذَابِ

وبين أسوان وعيذاب ، كان طريق حجاج المسلمين منذ اضطربت بلاد أبي العلاء بالفتن والثورات ، وتحول قصاد بيت الله إلى هذا الطريق .

وفيها من ذكرى العلم ، كما فيها من ذكرى الحرب والسياسة ، فعرفت فيها أصدق الأرصاد عن محيط الأرض قبل ميلاد المسيح بأكثر من مائتي سنة .. كما عرفت فيها أصدق الأرصاد عن جرم الشمس بعد المسيح بقرابة ألفي سنة .. ولا تزال في جزيرتها بئر يدلونك عليها ، ويقولون لك انها البئر التي نظر فيها « أراتوستين » علامة زمانه في علوم السماء حين قاس زاوية الأرض من الإسكندرية إلى أسوان ...

* * *

واتصلت فيها أسباب العلم من عهد الفراعنة واليونان إلى عهد الإسلام .. فقال « كمال الدين جعفر بن ثعلب » في القرن الثامن الهجري : « قد خرج من أسوان خلائق كثيرة لا يحصون من أهل العلم والرواية والأدب .. قيل انه حضر مرة قاضي قوص ، فخرج من أسوان أربعمائة راكب بغلة للقائه .. » كناية عن العالم لأن البغلة كانت ركوبة العلماء ..

وكانت إلى ذلك العهد تسمى « الثغر » لأنها تزدحم ازدحام الثغور الحافلة بطلاب العلم وطلاب التجارة وطلاب اللهو والفراغ . وفيها يقول كمال الدين :

أسوانُ في الأَرْضِ نِصْفُ دَائرَةْ
الخيرُ فيهَـا والشرُّ قَدْ جُمِعَـا

تَـصْـلُحُ للنـــاسِكِ التَّقِــيِّ إذا
أَقَامَ والفَـــاتِكِ الخَلِيعِ مَعَـــا

وقد تغيرت تواريخ الدول وتعاقبت حكومة بعد حكومة ، ولا تزال أرضها هي أرضها ، وسماؤها هي سماؤها ، ومناظرها هي ما كانت عليه من نمط فريد بين مناظر الطبيعة المصرية ، لا تشاهد في بلد من بلاد مصر ماتشاهده فيها من جزر وجنادل وتيارات وصخور في الماء والصحراء ، تجمع من الألوان ما تجمعه المعادن والجواهر ، وتحكي الذهب والفضة والشبه كما تحكي الزمرد والمرجان والياقوت ، وذهب من جنادلها ماذهب فقام في مكانها الخزان وتلفتت مصر تترقب من لدنها مطامع الضياء كما كانت من قبل تترقب منابع الماء .

ولدت فيها بمشيئة القدر ، ولو أنني ملكت الأمر لولدت فيها بمشيئتي لأنها الموطن الذي يستفاد منه خير ما آثرته لنفسي من النظر إلى الحياة.. فليس مما أحبه لنفسي أن يحصرني الحاضر في نطاقه ولا أن يحويني الحيز الأرضي في حدوده ..

أدعو إلى الإنسانية في الأدب ، وأنظر إلى « العالمية » في المستقبل ، وأحب مصر والشرق ، ولكني لا أحب ضيق الأفق في عصبية وطنية أو شرقية ..

وفي أسوان رأيت التقاء التاريخ الماضي بالحاضر الذي نعيش فيه ، فالمتحف فيها والبيت يتقابلان، والتاريخ فيها حي يرزق ويتنفس الهواء، لأنه ماثل شاخص في الأحياء . والحياة فيها تتسربل بقداسة التاريخ العريق لأنها صورة منه تتجدد مع الأجيال . وفي أسوان رأيت التقاء المشرق والمغرب ، ودرجت وأنا أشهد الحضارة الأوربية في كل جنس من أجناسها وكل ناحية من أنحائها .

وفي أسوان من أهل أسوان ، فضلا عن الغرباء عنها ، عصبة أمم صغيرة يتجاور فيها من ينتمي إلى الفراعنة ، ومن ينتمي إلى العرب ، ومن ينتمي إلى البجاة ، وتسأل عن نسب الأسرة فيدلك عنوانها على أصل من الفرس ، أو من

الترك ، أومن المجر ، أومن البوشناق ، أو من العباسيين أو من العبيديين لأنهم جميعاً وفدوا إليها مع قوافل التجارة ، أو مع سرايا الجيوش أو مع اللائذيـــن الناجين بأنفسهم من تقلب الدول وتنازع الحكومات ..

فإذا ذكرت أسوان بلدتي جاز لي أن أذكرها فأقول مدرستي ، لأنني كما أسلفت أدين بالإنسانية في الأدب ، وبالعالمية في السياسة ، وبالوطن الذي تتسع له آفاق الفكر وآفاق الشعور .. ولعلي قد تنفست هذه الدروس من هواء الموطن قبل أن أقبسها من صفحات كتاب ..

***

طفولتي

يقال إن الذاكرة ملكة مستبدة ، ويراد بنسبة الاستبداد إلى هذه الملكة العقلية أنها تحفظ وتنسى على غير قانون ثابت ، فتذكر الأمور على هواها ولا تذكرها بقدر جسامتها واقتراب زمانها ، وقد تحتفظ بأثر صغير مضى عليه خمسون سنة ، وتهمل الأثر الضخم وإن عرض عليها قبل شهور أو أسابيع .

هذه الدعوى التي يدعونها على الذاكرة الإنسانية غير مكذوبة من أساسها ، وفيها ولا ريب ما يوجب الشبهة ، إن لم نرد أن نقول : ما يوجب الثبوت واليقين .

كل ما أراجعه من معاهد الطفولة بأسوان يصلح أن يكون شاهداً لاتهام الذاكرة بهذه المحاباة ، إلى أن يثبت أنها محاباة استبداد وهوس على أسلوب ابن عباد :

لا تَمْدَحَنَّ ابن عبَّاد وإنْ هَطَلَتْ
يَدَاه بالجُودِ حَتَّى شَابَهَ الدِّيما
فإنَّها خَطَرَاتٌ من وسَاوِسه
يُعْطي وَيمنعُ لا بخلاً ، ولا كَرَمَا

* * *

فمن هذه المحاباة أن بعض معاهد الطفولة يذكرني بأشياء رأيتها في الثالثة من العمر ، وأشياء رأيتها في السابعة ، وغيرها رأيتها في التاسعة والعاشرة ، ولا أحتاج في استعادتها وإحيائها بتفصيلاتها إلى جهد عسير ، بل أراها أمامي تتمثل بألوانها وأشكالها ومناسباتها كأنها من مشاهدات العيان منذ ساعات .

وإنني – مع هذا – لأجتهد بما وسعني من الجهد أن أغالب النسيان المطبق في أمور لم يمض عليها غير سنين ، ثم أذكرها – بعد إعنات الفكر – فتظهر لي كأنها ملتفة بغواشي الضباب ، بين الكثيف منه والرقيق ! ..

لكنني أعود إلى أسباب هذه المفارقات فلا أكاد أعتقد أنها محاباة على أي معنى من معاني المحاباة ، ودعنا من قول القائلين انها وساوس ابن عباد ، في الهوس والاستبداد .

فكل ما تذكرته قبل العاشرة فهو من ذكريات « الانتباه الأول » .. ومن نوع الحوادث التي تأتي وحدها متميزة بين غيرها ، ولا تأتي مع حوادث « الوتيرة » والسياق المتكرر المملول ..

في الثالثة من عمري

كنت في الثالثة يوم جربت رحلتي النيلية للمرة الأولى ، وكانت السفينة تضطرب بين الشاطئين ويضطرب معها الشراع الذي يحاول أن يستقبل مهب الريح على غير جدوى ، وكان بيننا وبين ضريح ولي الله الذي نقصده لوفاء نذر الفدية والزيارة أكثر من عشرة أميال ، فوقفت السفينة على الشاطىء الشرقي وخرج النواتية يطبخون طعامهم تحت نخلات هناك ، وكانت لي في تلك الطبخة حصة القهوة التي تعودت أن أشربها ملونة بلون البن ، مشبعة بالسكر ، كأنها تعلة من تعلات الفطام .

ليس من استبداد الذاكرة – إذن – أن يثبت هذا المنظر في الثالثة وأن تزول

بعده عشرات المناظر من الرحلات النيلية أو البرية ، التي تمر على وتيرتها مع تيار الحوادث والأخبار ..

وكنت في السابعة يوم عصف وباء الهيضة (الكولرا) بأسوان ، وكاد الحي الذي نقيم فيه أن يخلو من سكانه بين مصاب وميت ومهاجر ومعتكف يحاذر زبانية الحجر الصحي محاذرة السائر آجام السباع ..

ويرن في أذني إلى الساعة صياح النواتية إذ يعبرون النيل ويسألون : كم أسعار اليوم ؟ فيجيبهم زميل من المرسى المهجور يفهم معنى السؤال ويعلم أنهم يسألون بهذه الكناية وما شابهها عن عدد المصابين من أول النهار :

جنيه مصري : أي مائة ..
بنتو .. أي ثمانين ..
بندقي .. أي خمسين ..

وهكذا حتى هبط السعر إلى الريال « الشنكو » والريال المجيدي ،«وأم خمسة» أي القطعة ذات الخمسة قروش !

منظر آخر لا نظن أن الذاكرة تحابيه ، ولا نظن محاباتها إياه — إن صحت الشبهة — ضرباً من الاستبداد .

منظر فتاة

وأجمل المناظر التي تحتفظ بها الذاكرة من ذخائر العاشرة — ومادونها — منظر فتاة أوربية هيفاء لفت نظري أنها تسير في وسط المدينة — على غير عادات السائحين والسائحات — وتدير على خصرها حزاماً « أو مشداً » لايزيد قطره على بضعة قراريط .. وتخطر في الطريق الوعر كأنها تلمس أغصان الشجر بقدمي قطاة .

ولم أكن أفهم يومئذ أن نحافة الخصر جمال محبوب ، ولكنني فهمت أنه

أعجوبة نادرة ، وتبعت الفتاة الهيفاء ، حول منعطفات الطريق ،و لا أعلم لماذا أتبعها ، ولا يدور في خلدي خاطر غير الاستزادة من هـذا المنظر العجيب ، الرشيق ..

لو أنني مصور لاستطعت اليوم أن أصور هذه الفتاة ، من الذاكرة ، فلا أخطىء منها لمحة يثبتها المصور على قرطاسه . ولست أذكر اليوم نقوش كسوتها ولكنني إذا أثبتها بجملتها لم تخالف ما يثبته المصور من نقوش الكساء على البعد ، ويقنع به الناظرون .

ولمن أراد من علماء « السيكولوجيا والبداجوجيا » أن ينعت هذه المحاباة بما يحلو له من أوصاف الاستبداد ، ولكنني — بعد هذه السنين الطويلة — أستغفر لهم ذنوبهم إلى الذاكرة ، وأقول انها ملـكة مظلومة على الغـاية من العـدل والديمقراطية ، إن كانت محاباتها كلها على مثال هذه المحاباة ..

الانشاء في المدرسة

بدأت الكتابة بموضوعات الإنشاء في المدرسة ، وقد يكون في الإشارة إليها شيء يهم الناشىء المتطلع إلى التأليف لأنه يعلم منه مبلغ فعل التشجيع حين يتلقاه الناشئون من ذوي مكانة ملحوظة في العلم والحياة العامة .

كانت المفاضلة بين شيئين هي المحور الغالب على موضوعات الإنشـاء في أيامي بمدرسة أسوان ، أيهما أفضل المال أو العلم ؟ الذهب أو الحديد ؟ الصيف أو الشتاء ؟ الرأي أو الشجاعة ؟ السيف أو القلم ؟ الحرب أو السلم ؟ .. إلـى أشباه هذه المفاضلات .

وكان من عادتي أن أختار أضعف الجانبين حتى اخترت الجهل مرة في مفاضلة بينه وبين العلم ! .. وكان لنا أستاذ فاضل « هو الشيخ فخر الدين محمد» يحمد هذا الاختيار على أن يكون من قبيل مرانة القلم ، ويعرض كراستي على كبار

الزوار بين ما كان يعرضه من كراسات التلاميذ ، فلما زارنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ذات شتاء أراه الكراسة فتصفحها باسماً وناقشني في بعض مفاضلاتها ، ثم التفت إلى الأستاذ وقال ما أذكره بحروفه: « ما أجدر هذا أن يكون كاتباً بعدُ ... »

* * *

ونطق « بعد » بضم الدال غير واقف على السكون ، ولم أزل أذكر ذلك حتى علت به وقوف زعيمنا «سعد زغلول» على أواخر الكلمات محركة غير ساكنة ، وقلت انها « مدرسة واحدة » تحرص على تحريك أواخر الكلمات ، أنفة من الهرب على حد قول القائلين : « سكّن تسلم » .. فهم لايهربون من الحقيقة ولا يحرصون على السلامة .

وأبالغ إذا قلت ان كلمة الأستاذ الإمام هي دون غيرها التي حفزتني إلى الكتابة ، ولكنها كانت ولا ريب حافزاً قوياً بين الحوافز الكبرى ، وجاءت بعد عزيمة سابقة فأعانتها ودفعت عنها عوارض التردد والإحجام .

أما ظروفي المادية « عندما كنت صغيراً أتعطش إلى قراءة الأدب » فلم تكن ظروف ثراء مهما نقتصد في حدود الثراء ، ولكنها كذلك لم تكن ظروف ضنك وفاقة ولا ظروف شعور بالحاجة إلى الضروريات .

كان أبي وأخي الأكبر موظفين يعيشان في بيت واحد ، وكان مرتبهما معاً بضعة عشر جنيهاً وهو مقدار لم يكن بالقليل في ذلك الحين ، وكنت الطفل الوحيد بالمنزل إلى أن ولدت أختي فلم تكن في تربيتها كلفة ، لأن تعليم البنت في أسوان لم يكن معروفاً قبل نموها إلى سن التلمذة ..

فنشأت أحسب أنني غير محتاج وأنني أجد من راحة المعيشة مالا يجده الكثيرون من زملائي .

مكتبة بخمسين قرشا

على أن الرزق الذي يتيسر للضروريات لايتيسر لشراء الكتب عن سعـــة ، وأحمد الله أن شراء الكتب عن سعة لم يكن لازماً في أيام صباي للاطلاع على أوائل المعرفة الأدبية ، بل على المعرفة الأدبية في مراحلها المتقدمة ..

فلا أحسب أن المكتبة التي اشتريتها بنقودي في صباي زاد ثمنها على خمسين قرشاً أو نحو الخمسين ..

كان الكتاب من الطبعة الأزهرية يباع بقرشين أو ثلاثة قروش ويشتمـــل أحياناً على ثلاثة كتب بين المتن والحاشية والتذييل ..

وكانت هذه الكتب تباع في دكان إلى جانب المدرسة مع أصناف العطارة والحبوب ولوازم أهل الريف ، ومنها ما كان يرتفع إلى خمسة قروش أو إلى عشرة قروش كالمقامات والدواوين .

***

ولم يكن « مصروفي » يزيد على خمسة مليمات في اليوم إلا ليدرك خمسة قروش في الأسبوع ، أتسلمها كل يوم خميس فلا أشتري بها مأكولا أو فاكهة ولا أذهب بها إلى ملعب البهلوان إن كان بالمدينة ملعب منها ، وهي لاتقيم فيها بل تزورها غبـاً كل بضعة أشهر . .

فإذا كان معي ثمن الكتاب اشتريته لساعته ، وإلا أعطيت العطار قرشين بعد قرشين حتى يتم الثمن المطلوب .

وبهذه الطريقة قرأت العقد الفريد وثمرات الأوراق والمستطرف والكشكول والمخلاة ومقامات الحريري وبعض الدواوين .

ولم تكلفني المكتبة التي اشتريتها — كما قلت — إلا أقل من جنيه واحد ، وقد يزيد ثمنها على نصف الجنيه بقليل ..

لكن هذه الكتب هي مقتنياتي التي اشتريتها بنقودي في أسوان ، ولم تكن هي كل ما قرأته في فترة التلمذة وما بعدها ، بل كانت لي وسائل إلى كتب أخرى من غير طريق الشراء .

فقد كان أبي يقرأ كتب الفرائض والعبادات وبعض كتب التاريخ ولاسيما تاريخ السيرة النبوية وتراجم الأولياء والصالحين . ومع هذه الكتب كنت أجد عنده مجموعة كبيرة من أعداد صحيفة « الأستاذ » وصحيفة « الطائف » لعبد الله نديم وصحيفة « العروة الوثقى » لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ..

وكان أخوالي يقرؤون كتب التصوف والأدب الديني ولا سيما كتب الغزالي ومحيي الدين بن عربي وطائفة من المتصوفة المتأخرين .

* * *

ولم تكن مكتبة المدرسة مفتوحة يومئذ للتلاميذ ولا كان فيها من كتب الأساتذة ما يملأ رفين أو ثلاثة رفوف من دولاب ، وكانت مجلة المقتطف احدى المجلات التي تصل إليها من وزارة المعارف العمومية ، فأذن لي الناظر في التردد عليها والاستعارة منها والاعتماد عليها في تحضير المناظرات والمطارحات ..

وساعدني ، من المصادفات التي لا تتيسر في كل حين ، أن أسوان كانت يومئذ مرتاداً لمئات السائحين كل شتاء ، وكان فيها فندقان كبيران وفنادق أخرى دونهما في العظم والوجاهة تزدحم جميعاً بالسائحين من أقطار العالم، فتعودنا أن نرى فيها كل شتاء مكتبات عامرة بالمراجع التاريخية والقصص والصحف والمجلات الأدبية والفكاهية ، ولم يكن من العسير علينا أن نحصل على بعضها بالثمن المستطاع ، بل كان يتفق أحياناً أن يزور مدرستنا أناس من علية السائحين ومعهم أبناؤهم وبناتهم يطلبون عنواناتنا لتبادل الرسائل ، ويبعثون إلينا بالهدايا من الكتب التي تعجبهم ويقدرون أنها تعجبنا ، ولا أنسى أحد السائحين — وكان

إنجليزياً مسلماً يسمى « ماجور ديكسون » – يوم جاءني منه بعد عودته إلى بلاده كتابان : أحدهما ترجمة القرآن والآخر كتاب كارلايل عن الثورة الفرنسية .. وهو الوحيد الذي اختار لي هذا الاختيار ولا أزال أذكره كلما توسعت في القراءة فعلمت أنها تقوم في الأغلب الأعم على هذين القطبين من المطالعة : أصول العقائد وفلسفة الثورات الاجتماعية من وجهة البطولة والابطال .

* * *

هذه الندرة من الكتب التي تيسرت لي أيام التلمذة وما بعدها علمتني دستوراً للمطالعة أدين به إلى الآن وخلاصته أن كتاباً تقرؤه ثلاث مرات أنفع من ثلاثة كتب تقرأ كلا منها مرة واحدة .

***

ذكرياتُ العيد

من العيد تعلمنا أن الطفل الصغير « شيء مهم » في البيت ، أو أننا نحن بذواتنا « أشياء مهمة » .. لأننا أطفال ..

تبتدىء تهنئات العيد في مدن الريف بعد مغرب الشمس من يوم الوقفة ، وتكون مقصورة في ذلك اليوم على الجارات القريبات من المنزل ، لأن الغالب عليهن أن يذهبن صباح العيد مبكرات إلى « القرافة » لتفريق الصدقة على أرواح الأموات .

وتدخل الجارات واحدة بعد الأخرى يرددن صيغة لاتتغير ، تنتهي بهذا الدعاء : « .. يعود عليك كل سنة بخير .. أنت وصغيرينك وصاحب بيتك والحاضرين والغائبين في حفظ الله » .

وقبيل المغرب ، تكون عملية التغيير وتوزيع الملابس الجديدة على صغار البيت قد ابتدأت على يد الوالدة في نشاط وسرعة ، ولكن .. وهذا هو العجب . في غضب وشدة ، وأحياناً في سخط وصياح :

ــ تعال ياولد .. اذهب يامسخوط .. الحق أدخل الحمام .. مع تسبيحة أو اثنتين من قبيل : ان شاء الله مالبست .. ان شاء الله ما استحميت .. !

ولقد تعودنا هذا الموشح كل عيد على قدر ماتعيه الذاكرة في سن الطفولة ، وأكثر مايكون ذلك حين تزدحم الجارات ، وحين تكون أقربهن إلى الدار على

استعداد للشفاعة وترديد الجواب المألوف في هذه الأحوال : «بعيد الشر .. بعيد عن السامعين ! »

وقد خطر لي يوماً أن هذا كثير على عملية التغيير ،فرفضت الكسوة الجديدة وذهبت صباح العيد إلى منزل جدتي بثوبي القديم .

وكان من تقاليد العيد أن ترسل رؤوس الذبائح إلى الجدات : أم الأب أو أم الأم من كانت منهما على قيد الحياة ، وأم الأب مفضلة إذا كانت الجدتان تعيشان ..

فلما دخلت منزل جدتي « أم أمي » وهي ضريرة : سمعت الأطفال يعجبون لأنني لم ألبس جديداً في العيد ، فقربتني الجدة العطوف إليها وسألت في شيء من اللهفة :

ــ ما الخبر ياولدي ؟ لماذا لم تلبس ثوبك الجديد ؟ ألم يحضروا لكم ثياباً جديدة ؟ ..

ــ بلى .. إنهم قد أحضروها ، ولكنني أبيت أن آخذها من يد بنتك .. لأنها تشتمنا وتزعق فينا ..

فابتسمت وهي تعرف بنتها حق المعرفة ، وصاحت :

ــ بنتي ؟! وكيف كانت القصة ؟؟

فأعدت عليها القصة مردداً كلمات السخط التي أغضبتني ، فسألت :

ــ أكان أحد من الجيران عندكم في تلك الساعة ؟

فحسبت أنها تطلب شهوداً على الواقعة ، وقلت لها :

ــ كثيرات .. فلانة .. وفلانة و ..

فلم تمهلني أن أتم أسماء جاراتنا اللاتي تعرفهن ، وجعلت تربت على كتفي وتقول : « وأنت العاقل ياعباس تقول هذا ؟ .. إن أمك لا تبغضك ولا تدعو عليك ، ولكنها تصرف النظرة .. ! »

وفهمت معنى « تصرف النظرة » بعد شرح قليل ، وخلاصتها أن رؤيـــة الأم في مساء العيد بين أطفالها الفرحين المتهللين بالعيد تفتح أعين الحاسدات اللائي حرمن الأطفال ولا يحتفلن « بتغييرات » العيد هذا الاحتفال . فإذا شهدن امارات السخط بدلا من الفرح والرضا بطل الحسد ، وسلم الصغار وأمهاتهم من عيون الحاسدات .

* * *

لأول مرة أشعر بأن الطفل في البيت « قنية نفيسة » يحسد عليها الأمهـــات والآباء ، وما كنت أفهم قبل ذلك إلا أنه من « غلب الحياة أو هموم المعيشة » وأنه هو — في شعوره بنفسه — شيء صغير يتطلع إلى اليوم الذي يساوي فيـــه هؤلاء الكبار ، ويُحسب في زمرة الناس المعدودين ! ..

وكان ذلك « درساً » في تفسير القرآن وتفسير الكتب المدرسية ..

فقد كنت أذهب مع أبي إلى المسجد القريب يوم الجمعة فأسمع الفقيه يقرأ في سورة الكهف : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » فلا أدري كيف نكـــون زينة ، ونحن نتطلع إلى أيسر سلعة من سلع الزينة الغالية ؟

وكان من قطع المحفوظات التي كتبناها في المدرسة قصة نسميها .. « قصة المرأة البائحة » هذه خلاصتها :

« امرأة زارت إحدى صديقاتها ، فراحت صاحبة الدار تفاخرها بجواهرها وتفرجها عليها ، ثم ذهبت صاحبة الدار ترد الزيارة لصاحبتها وتسألها : أيـــن جواهرك لأتفرج عليها .. واستمهلتها هذه ساعة إلى أن حضر ولداها من المدرسة فاستدعتهما إلى حجرة الاستقبال وقالت للضيفة المدلهة بجواهرها .. هـــاهمـــا جوهرتاي .. وليس لهما ثمن تحتويه خزائن الأموال »

وكان جواباً مخيباً للآمال ، مسقطاً للقصة كلها في موازين النقد عندنا نحن الأطفال .. أو نحن الجواهر التي لا تقدر بالمال .. !

* * *

ونخرج من ذكريات الطفولة إلى تجارب الحياة، فنعلم الآن فلسفياً واجتماعياً ونفسياً ، أن الطفولة هي قوام العيد كله فلولا الأطفال لما استطاع المجتمع أن يوقت الفرح مقدماً بميقات معلوم في يوم من الأيام، ولكن هات للمجتمع أطفالا يفرحون بالكساء الجديد واللعب المباح ، وأنت الكفيل بفرح المجتمع كله على الرغم منه .. إذا صح الفرح بالارغام وهو صحيح في شريعة « الديكتاتوريين » الصغار ، فليس في استطاعة كبير أن يعصي سلطان الفرح وهو ينظر إلى صغار فرحين .

ومن العيد تعلمنا مفارقات النفوس في الأسرة الواحدة ، علما يسبق كل ما عرفناه بعد ذلك من قوانين الوراثة في ذمة السيكولوجيين والبيولوجيين .

تعودنا أن نزن الأقدار في بيئتنا « العائلية » بمقدار العيدية التي كانت تتفاوت من خمسة قروش على الأكثر إلى خمس مليمات على الأقل .

وكان لنا من الأقارب ، والمعارف غير الأقارب ، ذخيرة وافية للرقـــابة النفسية من الإخوة الأشقاء .

أخوان شقيقان يتشابهان أقرب الشبه في الملامح والأزياء : هذا يمنح القروش الخمسة وذاك لايزيد على الخمسة المليمات ، وهذا بشوش مازح ، وذاك عبوس صارم ، وهذا ثرثار لايفرغ من الحديث ، وذاك صموت نزر الكلام ..

ولكنا – مع الإيمان بصحة الميزان الذي يفرق بين خمسة قروش وخمسة مليمات– قد تعلمنا مبكرين أن النقود ليست هي الميزان الوحيد لأقدار المعيِّدين..

إذ كان من أولئك المعيدين صديق للأسرة لايبذل مليماً واحداً ولا يسكت مع هذا عن مسألة العيدية بحذافيرها مداراة لإفلاسه .. بل يلقانا مبادراً بطلـــب العيدية منا ونفهم منه – بداهة – أنه يمزح ، ولا ينتظر منا أن نعطيه ولا ننتظر منه أن يعطينا .

إلا أنها فاتحة للمعايدة لابد منها ، ثم تتبعها أدوار متلاحقة من الفوازيـــر

والألغاز الحسابية أو اللغوية ، وأدوار أخرى من محاكاة القطط والكلاب والخرفان والحمير .

ولم نكن نحن نطلب « عيدية » من أحد يبذلها أو لايبذلها ، ولكن أبانا رحمه الله كان حريصاً على أن يحذرنا من طلب العيدية خاصة من هذا الصديق ، لأنه « على قد حاله » كما كان يقول ، فكان هذا الصديق « الذي على قد حاله » على رأس القائمة بين المنتظرين من المعيدين ، وكنا نميزه بالحصة الوافية من ضيافة الأعياد : قرفة ، وكعك ، وبقايا المكسرات من رمضان ..

وقد كان في ذهني درس من دروس العيد يوم قرأت مذهب « أبي العلاء » في ظلم الضعفاء والأقوياء فرحبت به ولم أستغربه ، وهو غريب لاتقدر على هضمه معدة الطفولة ، كقوله :

ظُلْمُ الحَمَامةِ في الدُّنيا وإنْ حسبت
في الصالحاتِ كَظُلْمِ الصَّقْرِ والبَازِي

ففي احدى زيارات العيد، علمت أن « سعادة المأمور » بجلالة قدره مظلوم، يظلمه بهلوان أو شبيه بالبهلوان ، من أصحاب الأراجيح .

وكانت لعبة الأراجيح أحب ألاعيب العيد إلى الأطفال ، وقد أقيمت على ساحة قريبة من المنزل قبل الوقفة بأيام ، ثم فوجئنا بحلها ورفعها من مكانها ، وقيل انها حلت ورفعت بأمر سعادة البك المأمور .

وشاعت التعليقات من قبيل قولهم :
رجل مستبد يظن أن الإدارة هي التحكم في خلق الله ...
رجل فظ ينكد على الأطفال الصغار في موسم اللعب والفرح ...
رجل غليظ القلب يقطع أرزاق المساكين الذين على باب الله ...

ويأتي هذا الرجل الموصوف بكل هذه الصفات للتعييد على الوالد الذي كانت

تربطه به رابطة العمل في ديوان واحد ، إذ كانت دار المحفوظات يومئذ تشغل المكاتب التي تجاور مكتب المأمور .

فلم نخف إلى استقبال الرجل « المستبد الفظ الغليظ » إلا حين علمنـــا بعد هنيهة أنه في الواقع هو الرجل المظلوم .

وكأنه سيق إلى التحدث عن قصة الأراجيح فقال :

ــ انها حُلّت ورفعت لأنها قد ظهر بعد فحصها أنها مفككة اللوالـــب و « الصماويل » وأن حادثاً حدث فيها وتهشم من جرائه ثلاثة أو أربعة أطفال من أبناء البلدة التي كانت فيها قبل وصولها إلى أسوان ، ووجدت الورقة التي يحملها صاحبها وعليها تعهد منه بأن يصلح خللها قبل إدارتها ، ولكنه لم يصلح هذا الخلل ولم يكن من المأمون على حياة الأطفال أن تدار وهي بتلك الحال ..

كم من حاكم مظلوم ، وكم من محكوم ظالم !
وكم من حجة للقائلين :

لَو أَنْصَفَ الناسُ استَـرَاحَ القَاضي
وباتَ كلٌّ عـن أَخيـهِ راضِي

وإن لم يخل من الحجة قول القائلين : لو أنصف القاضي استراح الناس .. نعم .. وكم للعيد من دروس تمر بالصغار والكبار ، ولا ندري متى تصلح للعظة والاعتبار ! ..

***

الفَصْل الثاني

أسَاتِذَتي

كان زعيم مصر الكبير سعد زغلول رحمه الله يعد من مزايا نظام التعليم في الجامع الأزهر على عهده ، أنه كان نظاماً يسمح للطالب أن يختار أساتذته ويجلس في الحلقة التي يروقه أن يجلس فيها ..

وهي مزية لاشك في نفعها للمعلمين والمتعلمين ، لأنها تنوط مكانة الأستاذ بعمله واجتهاده ولا تقيد التلميذ بفرصة واحدة في درس من دروسه، وليس في هذا النظام ضرر على الأخلاق مادام طلب العلم هو الغرض الخالص للأساتذة والتلاميذ .

ومما أحمد الله عليه أن أساتذتي جميعاً قد اخترتهم بنفسي ، ولم يفرضهم عليّ أحد يملك سلطة التعيين والفصل دون غيره ، لأنهم كانوا جميعاً مؤلفين مشهوداً لهم برسوخ القدم في صناعة التأليف ، أقرأ منهم ما أشاء وأعرض عمن أشاء ، وأطلبهم حين أريد وحيث أريد ..

ومع هذا كان لي أساتذة في المرحلة الأولى من مراحل التعليم الدراسي أفدت منهم غير قليل ، ولكنني كنت في استفادتي منهم على اختيار يرجع إليّ ، ولا يرجع إلى البرنامج المقرر أو النظام المفروض ..

في المرحلة الأولى

استفدت من مرحلة التعليم الابتدائي من أستاذين اثنين على اختلاف بينهما في طريقة الافادة ، فإن أحدهما قد أفادني وهو قاصد ، والآخر قد أفادني على غير قصد منه ، فحمدت العاقبة في الحالتين ..

كان أحدهما الأستاذ الفاضل مدرس اللغة العربية والتاريخ الشيخ محمد فخر الدين ، وكان « الإنشاء » صيغاً محفوظة في ذلك الحين كخطب المنابر وكتب الدواوين ، ولكنه كان يبغض الصيغ المحفوظة وينحي بالسخرية والتقريع على التلميذ الذي يعتمد عليها ، ويمنح أحسن الدرجات لصاحب الموضوع المبتكر وأقل الدرجات لصاحب الموضوع المقتبس من نماذج الكتب ، وإن كان هذا أبلغ من ذاك وأفضل منه في لفظه ومعناه .

وكان درسه في التاريخ درساً في الوطنية .. فعرفنا تاريخ مصر ، ونحن أحوج ما نكون إلى شعور الغيرة على الوطن والاعتزاز بتاريخه ، لأن سلطان الاحتلال الأجنبي كان قد بلغ يومئذ غاية مداه ..

أما الأستاذ الآخر ، فقد كان أستاذ حساب وهندسة ورياضة . ولا داعي لذكر اسمه في هذا المقام .

كان يؤمن بالخرافات وشفاعات الأولياء ، وكان محدود الفهم في دروسه ولاسيما المسائل العقلية في درس الحساب ، وقد كانت هذه المسائل شائعة في ذلك الحين ثم أبطلوها بعد ذلك لأنهم زعموا أن القدرة على الحساب شيء والقدرة على فض المغلقات العقلية شيء آخر ، وقد أصابوا من ناحية وأخطأوا من ناحية ، لأن القدرة على فض المغلقات ألزم اللوازم لاتقان العلوم الرياضية خاصة ، واتقان العلوم الأخرى على العموم .. !

وكان يتردد على مسجد يعتكف في زاويته رجل من المشهورين بالولاية وصنع الكرامات ، فدعانا جميعاً — نحن تلاميذ السنة النهائية — إلى صلاة المغرب

معه في ذلك المسجد ، للتبرك بالرجل الصالح وتلقي النصائح منه فيما نحن مقبلون عليه من امتحان قريب.

وجاء دوري في تلقي النصيحة ، فقال لي الرجل : « أما أنت فعليك باللغة الإنجليزية » ..

وعجبت وعجب زملائي من هذه النصيحة ، لأنني كنت من المتقدمين في هذه المادة على الخصوص ، وكنت أقرأ فيها بعض الكتب الأدبية وأنا في السنة الرابعة الابتدائية ، ولكن زملائي فسروا هذه النصيحة بسر الولاية ..فلعل الرجل يعلم من سر الامتحان في تلك السنة ما لا يعلمون .

فلما اجتمعنا بالمدرسة في أول حصة للحساب ، قال الأستاذ الرياضي : « تذكر نصيحة الشيخ يافلان ! » ..

قلت : « إن الشيخ لم يقل شيئاً » ..

قال وهو يحوقل وزملائي يأخذهم الوجل ، ومنهم كثيرون بقيد الحياة : « كيف لم يقل شيئاً ؟ .. ألم ينصحك بالاجتهاد في اللغة الإنجليزية ؟ .. »

قلت : « نعم فعل .. ولكنه سيظفر بالسمعة في علم الغيب أياً كانت النتيجة ، فإن نجحت قيل إنها بركة لنصحه ، وان أخفقت قيل ه قد عرف هذا فحذرني منـــه » .

فما زاد الأستاذ على أن قال : « دع هذا الضلال هداك الله » ..

ولكن الدرس الأكبر — الدرس الذي أحسبه أكبر ما استفدته من جميع الدروس في صباي — كان بصدد مسألة حسابية من تلك المسائل العقلية .. كنت شديد الولع بهذه المسائل لا أدع مسألة منها بغير حل مهما بلغ إعضالها ..

وكان الأستاذ يحفظ منها عدداً كبيراً محلولا في دفتره يعيده على التلاميذ كل سنة ، وقلما يزيد عليه شيئاً من عنده ..

وعرضت في بعض الحصص مسألة ليس في الدفتر ، فعالجنا حلها في الحصة

على غير جدوى ، ووجب في هذه الحالة أن يحلها الأستاذ لتلاميذه فلم يفعل ، وقال على سبيل التخلص : « إنما عرضتها عليكم امتحاناً لكم ، لتعرفوا الفرق بين مسائل الحساب ومسائل الجبر ، وهذه من مسائل الجبر لأنها تشتمل علـى مجهولين » .

لم أصدق صاحبنا ولم أكف عن المحاولة في بيتي ، وقضيت ليلة ليلاء حتى الفجر وأنا أقوم وأقعد عند اللوحة السوداء حتى امتلأت من الجانبين بالأرقام .. وجاء الفرج قبل مطلع النهار ، فإذا بالمسألة محلولة ، وإذا بالمراجعة تثبت لي صحة الحل ، فأحفظ سلسلة النتائج وأعيدها لأستطيع بيانها في المدرسة دون ارتبـاك أو نسيان .

قلت : « لقد حُلَّت المسألة »

قال الأستاذ : « أية مسألة ؟ »

قلت : « المسألة التي عجزنا عن حلها في الحصة الماضية »

قال : « أو صحيح ؟ .. تفضل أرنا همتك يا « شاطر » ..

وحاول أن يقاطعني مرة بعد مرة ، ولكن سلسلة النتائج كانت قد انطبعت في ذهني لشدة ما شغلتني وطول ما راجعتها وكررت مراجعتها .

وانتظرت ما يقال..

فإذا بالأستاذ ينظر إليّ شزراً وهو يقول : « لقد أضعت وقتك على غير طائل ، لأنها مسألة لن تعرض لكم في امتحان » .

وإذا بالزملاء يعقّبون على نغمة الأستاذ قائلين : « ضيّعت وقتنا .. ما الفائدة من كل هذا العناء ؟ »

كانت هذه صدمة خليقة أن تكسرني كسراً ، لو أن اجتهادي كان محل شك عندي أو عند الأستاذ أو عند الزملاء ، أما وهو حقيقة لاشك فيها ، فإن الصدمة لم تكسرني بل نفعتني أكبر نفع حمدته في حياتي ، وصح فيها قول نيتشه : « إن

الفضل قيمته فيه لا فيما يقال عنه، أيّاً كان القائلون» ولم أحفل بعدها بانكار زميل أو رئيس .

* * *

كان أساتذتي جميعاً ممن اخترتهم بنفسي ..

نعم ! .. ولكنني أحب أن أستثني أستاذاً واحداً كان حضوري عليه من اختيار أبي لا من اختياري، وذاك هو الشيخ أحمد الجداوي رحمه الله .. كان الشيخ أحمد من أبناء أسوان ، وحضر العلم في الأزهر وزامل الأستاذ الإمام « محمد عبده » على أيام السيد جمال الدين ..

وتولى القضاء في قنا ، ثم تولى إدارة التعليم في السودان ثم نشبت الفتنة المهدية فهجا « محمد أحمد » بقصيدة نونية نشرتها الحكومة في جميع الأقطار السودانية ، ومنها على ما أذكر قوله :

يــا ذا الذي حسِبَ الضلالَ هدايةً
مــا أنت إلا مُبتــلى بجنــونِ

فجعل المهدي جائزة لمن يأتيه برأس « الكويفر » الجداوي حياً أو ميتاً ، وبادرت الحكومة بإبعاده إلى أسوان عند استفحال الثورة مخافة عليه . فأقام في بلده وفتح بيته الواسع لالقاء الدروس الأدبية والدينية . وكان الرجل في عمله على النهج القديم ، ولكنه كان على دأب تلاميذ الأفغاني جميعاً نهماً بالمعرفة ، يطلب منها كل ما استطاع طلبه ، ولو لم يكن من سلكه ولا اتجاهه .

من ذاك أنه تعلم اللغة الإنجليزية في شيخوخته على المرحوم نعوم شقير باشا ، وكان يومئذ شاباً ناشئاً يعمل في قلم الترجمة بمعسكر الجيش ، وقد ذكره نعوم باشا في كتابه عن السودان ..

ومن ذلك أنه تعلم الشعوذة وألعاب السينما وحيل الحواة حتى برع فيها ..

ولم يكن أعجب من مفاجاته حين يتكلم إلى أحد الضباط الإنجليز باللغة الإنجليزية ، أو حين يجتمع بالموظفين والأعيان لمشاهدة « حاو » ماهر يبهرهم بألعابه ، وكان « الحواة » يكثرون يومئذ في أسوان لازدحامها بالطارئين عليها . فيقف الأستاذ ويشمر عن أكمامه العريضة ، ويفحم « الحاوي » المسكين في صميم فنه ، أو يضربه بعصاه !

* * *

كان هذا النابغة الألمعي أوسع من لقيت محفوظاً في الشعر والنثر .

كان يطارح وحده خمسة أو ستة من القضاة والمدرسين والأدباء .

والمطارحة هي أن تأتي ببيت من الشعر فيأتي مطارحك ببيت يبدأ بحرف القافية في البيت الأول .. فإذا اجتمع خمسة أو ستة من الأدباء كان لكل منهم أن يقترح بيتاً ، وكان الشيخ الجداوي هو الذي يرد عليهم جميعاً .. فيسكتون في النهاية وهو لايسكت ولا ينضب معينه . وكان كثيراً ما يتعمد التعجيز فيذكر في رده بيتين أو ثلاثة أبيات أو أربعة .

وكان يحفظ مقامات الحريري والهمذاني ويلقيها أحياناً موقعة مفسرة ، فيأخذني والدي معه إلى بيت الشيخ لأنه كان من أصدقائه ومحبيه ، أو يدعوني إلى حضور المجلس إذا زارنا الشيخ كما كان يفعل أحياناً .

ومن خصائصه أنه على قدرة فائقة في نظم الشعر المؤرخ أو الشعر الذي يجتمع من حروف كل شطرة فيه أو كل بيت فيه تاريخ سنته . وقد نظم في استقبال الخديو عباس — عند مروره بأسوان في طريقه إلى السودان — قصيدة كبيرة في كل بيت منها تاريخان .

ولم يكن مجلسه كله مقامات ودروساً ومطارحات ، بل كان من طرائفه أنه يعرف ألعاب الحواة ويبتدع الملح والفكاهات ، وكان مولعاً بشيخ معمر

جاوز الثمانين اسمه « علوب » لايفتأ يناوشه ويستثيره ويحرك غيظه ليستمع إلى ردوده الساذجة التي لايبالي فيها بكبير ولا صغير .

ومن دعاباته معه أنه كان يقسم له لئن وصل من مكانه إليه قبل أن يفرغ من عد « خمسة » ليعطينه قطعة بخمسة ! ..

وقطعة بخمسة في ذلك العصر شيء مهول عند « علوب »

ثم يأخذ القاضي الجداوي في العد فيطيل نفسه « بالواحد » حتى تستغرق ثواني كثيرة .

والسلحفاة تطمع في الوصول من أول المجلس إلى آخره إذا استمر العد على هذه النغمة !

فيتحرك الطمع في صدر « علوب »

ويدس قدميه خفية في النعال ليفاجىء القاضي بالجري إليه قبل أن يفرغ من عدّه . .

فما هو إلا أن يخطو خطوتين أو ثلاثاً وينطلق في جلاله ووقاره عادياً مهرولا حتى يسرع القاضي فيأتي على بقية الخمسة عداً في نفس واحد .

فيحوقل الشيخ ويصيح به : « والله ما أحسبك تعلمت الفتاوى الشرعية إلا لتأكل على « علوب » هذه الخمسة قروش » .

وربما تمادى القاضي في إطماعه عمداً فيستمر في عده على النغمة الأولى حتى يصل إليه « علوب » ويكسب الرهان ويعترف له القاضي بالهزيمة ويأتي دور التسليم بعد البحث في الجيوب من اليمين والشمال.و« علوب» واقف بالانتظار..

ويطول البحث في الجيوب و « علوب » ضاحك متهلل ضحك الشماتة والانتصار ..

ثم يصيح به القاضي وقد أطال لهفته وأثار طمعه : « خذ ياشيخ . بارك الله لك فيما أعطاك »

ويدس في يده شيئاً فيرتاع « علوب » لأنه يحس في يده خمسة مليمات لا خمسة قروش .

ويأتي دور القاضي في الشماتة والنكاية، ويعود إلى الفتاوى الشرعية التي يكرهها « علوب» فيقول له: قطعة بخمسة ياصاحبي يعني خمسة مليمات. أتحلف بالطلاق أن القرش التعريفة لا يسمى قطعة بخمسة يا « شيخ علوب ؟ .. » إن حلفت فلك خمسة القروش التي تريدها . ولكن — يا « شيخ علوب » — حاسب قبل اليمين .. كم مؤخر صداق « الوليَّة » يا أبا العلاليب ! ..

وهكذا تنقضي مجالسه في سرور وفائدة وإيناس ، ولا أدري على التحقيق كيف تعلم ألعاب الحواة وأشباهها من الحيل الحسابية والسينية، ولكني لاحظت عليه أنه لايرى أمامه باباً للمعرفة إلا تطرق إليه ، ومن ذلك أنه تعلم اللغة الإنجليزية لأن مجلسه كان يجمع بعض الأدباء المحيطين بها ومنهم المرحوم نعوم شقير الذي كان يومئذ مترجماً بمعسكر أسوان . فانتهز هذه الفرصة ليتعلم عليه الإنجليزية ويعلمه درساً في الآداب العربية ..

وليس الشغف بالمعرفة على هذا النحو بالخلق المستغرب من تلاميذ جمال الدين ، فلولا حبهم للمعرفة ومخاطرتهم في سبيلها لما عرفوه .

وقد حببت مدرسة الجداوي الأدب إلى نفسي لأول مرة ورغبت أن أتخذه فنا أضرب فيه بسهم ، كما ضرب فيه الأستاذ ، وصرت من ذلك الحين مهتماً بحفظ الشعر ، ومطالعة كتب الأدب .

ومما يلذ ذكره أنني لما أغرمت بالأدب أخذت أتمرن على نظم الشعر ، وساعدني في ذلك مباراتنا المدرسية التي كان الناظر يعقدها لنا في إلقاء الشعر العربي ، حتى كنت أستعيض عن محفوظاتي الشعرية بأبيات أنظمها من تلقاء نفسي . وكانت أول أبيات نظمتها وأنا لم أتجاوز الحادية عشرة هذه الأبيات التي أذكرها هنا على سبيل الفكاهة :

عِلْـمُ الحِسابِ لَــهُ مَزَايـا جَمَّةٌ
وبــهِ يزيدُ المــرءُ في العِرْفــانِ
النحــوُ قنطرةُ العُلُــومِ جَمِيعُهــا
ومُبِيــنُ غَامِضِهــا وزَيْــنُ لِسَانِ
وكذلك الجغرافيــا هَادِيَــةُ الفَتى
لمَسالك البــلدانِ والوديــانِ
وإذا علمتَ لِسانَ قــومٍ يا فَتَى
نلْتَ الأَمَــانَ بِــه وأيّ لِسانِ

الشيخ محمد عبده

والشيخ محمد عبده في اعتقادي أعظم رجل ظهر في مصر وما جاورها منذ خمسة قرون ..

أثره في نفسي من أقوى الآثار ..

وقد أعجبت به لأنني سمعت بذكره في مجلس الأستاذ الجداوي مرات ، وكان محبوباً في بلدتي أسوان على الرغم من الضجة التي شنها عليه حســـاده والجاهلون بفضله .

وذلك لأنه توسط في قضية متشعبة الأطراف شغلت المدينة والإقليم كلــه أكثر من عشر سنوات ، حتى سماها ظرفاء المدينة قضية دريفوس .. وكان أحد الطرفين فيها رجلا سَريا مفرط الذكاء شديد العناد خبيراً بحيل المقــاضاة وأساليب المراوغة والتأجيل وإعادة النظر وإهمال التنفيذ ، وكان الطرف الآخر

رجلا من المهاجرين إلى السودان الذين عادوا إلى وطنهم مفتقرين بعد الثـورة المهدية ، فلما بحث عن بيوته وأمواله وجدها في يدي ذلك السري الذكي العنيد ولم يجد معه دليلا حاضراً يعينه على المقاضاة ، ولولا العداوة بين ذلك السري الذكي العنيد وبين أسرة أخرى في المدينة لما استطاع الانفاق على القضية سنة واحدة .

ومع هذا عز على الأسرة القوية اثبات حقه ، وأوشكت القضية أن تنقلب عليه ، لولا أن هداه نائب أسوان في مجلس الشورى إلى الشيخ محمد عبده فقص عليه قصته واستفز نخوته فتولى القضية بنفسه وخاطب فيها زعيمنا الكبير سعد زغلول رحمه الله بعد أن تحولت إليه ، فحكم فيها حكماً فاضلا هـز الإقليم بأسره وتحدث به الكبار والصغار في كل مجلس وفي كل قرية ، وغلبت هذه السمعة الحسنة التي تكلل بها اسم الشيخ محمد عبده في أسوان على كل تهمـة باطلة من تهم الحساد الذين افتروا عليه الزندقة والالحاد .

ومن حظي الحسن أني سمعت به في تلك الأيام ، فراقني أن أقتدي به في غيرته على الحق ونجدته للضعيف وقلة اكتراثه للقيل والقال ، واطلعت على معظم ما كتب في شؤون الدين والدنيا ، ولكنني أعجبت بخلقه فوق إعجابي بعلمـه ، فإن الاقتداء بخلقه نافع لكل إنسان كائناً ما كان مذهبه في الدراسة والتفكير ، ولكن العلوم والمعارف تتعدد بين فريق وفريق من الناس ، فلا ينتفع المرء إلا بمن يماثله في معارفه وعلومه .

وأنا مدين بخطتي في السياسة الوطنية لاعجابي بالشيخ محمد عبده ومريديه ..

فإعجابي به هو الذي أعظم في نفسي الثقة بسعد زغلول يوم كان الفتيان من عمري كلهم أنصاراً لمصطفى كامل وعبد العزيز جاويش وأتباعاً لهما في الحملة على سعد زغلول .

ولما اشتدت هذه الحملة ذهبت إلى سعد في ديوان المعارف لأستطلع رأيه وأسمع حجته على حضور ، وقلت في خطابي إنني أثق به لأنني أثق بأستـاذه ، ودخلت المكتب فاستقبلني واقفاً وأشار إلى كرسي أمامه فجلس وجلست ،

وسألني : « أعرفت الشيخ محمد عبده ؟ » قلت : « نعم ! .. قرأت رسائله وتفسيراته وترجمة حياته » قال : « أين ؟ .. أفي الأزهر ؟ » قلت : « لا .. بل في أسوان ، قدمني إليه أستاذي فناقشني في علومي المدرسية وبعض الآراء العامة ثم سمعت منه بشرى طيبة » ..

قال : « ماذا سمعت منه ؟ »

قلت : « التفت إلى الأستاذ وقال وهو يربت على كتفي : ما أجدر هذا أن يكون كاتباً بعد ».

فتبسم الباشا وقال : « أرى أن نبوءة الإمام تتحقق » . واستطرد إلى كلام عن الشيخ يثني عليه .

وهكذا ترتسم لنا في بواكير الصبا السياسة التي نقاد بها ونقود بها غيرنا مدى الحياة .

شيطنة التلاميذ

ولا أحسب أن أحداً يتكلم عن أساتذته إلا انتظر منه القارىء شيئاً عن « شيطنة » التلاميذ مع الأساتذة ..

وللقارىء حق ..

فما خلت قط علاقة تلميذ بأستاذ من تلك « الشيطنة » ، ولم أكن أنا من أبطال « الشيطنة » المدرسية .. ولكنني كنت أستطيبها وأشجع عليها حين تقع في موقعها ، ولا أطيل في سرد النوادر فهي كثيرة تكفي هنا واحدة منها على سبيل المثال ..

كان معلم الخط في مدرستنا من أبرع الخطاطين في البلاد العربية ، ولكنه كان رجلا غريب الأطوار يهتاج لأقل خطأ فيشتم التلميذ المغضوب عليه شتماً يناله هو قبل أن ينال التلميذ ، لأنه يبدأ كل شتيمة بقوله يا ابني .. ثم يكيل

الشتائم كيلاً فإذا هي كلها مردودة إليه .

وكان التلاميذ يهجونه لشتمهم وشتم نفسه على هذا النمط الغريب ، ومنهم تلميذ خبيث أعيى أساتذته وأهله خبثاً في جميع سنوات الدراسة ، ويملك أهله مطاحن بخارية توشك أن تحتكر طحن الغلال في المدينة .

ولم يكن من الميسور طحن مقطف من القمح في اليوم الذي يرسل فيه إلى المطحنة ، لأنها كانت تكتظ بالمقاطف وأصحابها فيبيتون إلى جوارهـــا في بعض الأيام ..

واغتنم معلم الخطوط فرصة وجود هذا التلميذ في فصله ، فجعل يستدعيه إلى المنزل ظهر كل خميس ليحمل الطحين إلى مطحنة أهله ويعود به في اليوم نفسه ..

وما أدراك ما يوم الخميس ؟ .. إنه هو اليوم الذي ينتظره التلميذ بنـــافذ الصبر ليسرح ويمـــرح ، لا ليخزن نفسه في مطحنة تعـــج بأصوات الآلات وأصوات الطاحنين .

وصبر التلميذ الخبيث أسبوعاً وأسبوعين وثلاثة أسابيع ، ثم نفد صبره ، وعول على استنجاد خبثه .. وهو لايخذله حيث يتخابث في غير طائل . فكيف بالخبث الذي ينقذه من هذا البلاء !

وجملة القول أنه باع المقطفين بأبخس ثمن ، ولم يذهب في يومها إلى المطحنة ولا رجع إلى بيت الأستاذ .

وقبل حصة الخط جمعنا وهو لا يملك نفسه ضحكاً ، فحدثنا بما حدث .. فدخلنا الفصل ونحن نتلهف شوقاً إلى ما يكون !

وكان التلاميذ يتعلمون الخط يومئذ في كراسة مذهبة تسمى « المشق » ، وعلى رأس كل صفحة منها نموذج مطبوع ، تحته نموذج مفرغ بالنقط ، تحته فراغ لكتابة التلميذ ..

ولا أذكر ما هو النموذج الذي كان مكتوباً في رأس الصفحة ذلك اليوم .. ولكنني أذكر أنه كان مبدوءاً بحرف « ميم »

وجاء دور التصحيح ، فذهب التلاميذ واحداً بعد واحد إلى منصة الأستاذ فجعل لا يلتفت إليهم إلا قليلا ، ولا يشتمهم على عادته في كل تصحيح ، لأنه على ما يظهر كان يدخر « الشتيمة » كلها لتلميذ واحد ، هو ذلك التلميذ الخبيث

— أهذه « ميم » تكتب يا ابني ياابن ال.....

قالها قبل أن يضع التلميذ كراسته أمامه .. فنظر التلميذ الخبيث إلى أستاذه متجاهلا وهو يسأل : « أي ميم يا أفندي ؟ .. إنني لم أكتب ميماً »

وكانت الكراسة قد استوت أمام الشيخ فنظر فيها ، فرأى أن الخبيث قد تخطى الصفحة إلى التي بعدها عن عمد أو سهو ..

فلم يسكت الشيخ بل راح ينطلق في شتمه لهذا السبب الجديد ، وقال له : « وتتخطى الصفحة أيضاً يا ابني يا ابن ال .... »

ثم ضحك على الرغم منه ..

فنجا الخبيث بهذه الضحكة من العقاب ومن سخرة الطحين في كل خميس..

رحمهم الله جميعاً ، وأطال بقاء الأحياء منهم ..

إنهم كانوا أساتذة نافعين : نافعين بما علمونا من دروس ، ونافعين بما علمونا من أطوار بني آدم ، ونافعين بما قصدوه وما لم يقصدوه ..

***

ثلاثة أشياء جعلتني كاتبًا

إنني أومن بكلمات التشجيع التي يتلقاها الناشىء في مطلع حياته ممن يثق بهم ويعتز برأيهم ، فيمضي إلى وجهته على يقين من النجاح .

وأومن بالظروف وفعلها في تمهيد أسباب النجاح وتيسير البدء في طريقه ، ثم المثابرة عليه إلى غاياته القريبة والبعيدة .

وأومن بالرغبة في الوجهة التي يتجه إليها الناشىء والعمل الـــذي يختاره ويحس من نفسه القدرة عليه والاستعداد له مع الاجتهاد والتذرع بالوسيلة الناجعة..

أومن بها مجتمعات ولا أومن بها متفرقات .

أومن بالتشجيع والظروف والرغبة تتلاقى معاً وتتوافق في الخطوات الأولى..

ولا أومن بها متفرقة يتيسر بعضها ويتعذر سائرها في مستهل الطريق .

فكلمات التشجيع إذا امتنعت الظروف المواتية قلما تفيد، وكلمات التشجيع مع مؤاتاة الظروف تضيع كلها عبثاً إذا امتنعت الرغبة في نفس الناشىء ودل امتناعها على نقص الاستعداد أو على الرغبة في عمل آخر يضل عنه حتى يهتدي إليه ، في ظرف من الظروف .

واتجاهي إلى الصحافة — أو إلى الكتابة على الأصح — قد تلاقت فيه كلمات التشجيع ومؤاتاة الظروف والرغبة الكامنة في الطوية من أيام الطفولة ، ولاأقول من أيام الصبا أو الشباب ، لأنني قد عرفت أنني أحب الكتابة وأرغب فيهـــا

قبل العاشرة ، ولم أنقطع عن هذا الشعور بعد ذلك إلى أن عملت بها واتخذتها عملا دائماً مدى الحياة .

كان أستاذنا في اللغة العربية والتاريخ الشيخ فخر الدين محمد الدشناوي يعرض كراساتي التي أكتب فيها موضوعات الإنشاء على كبار الزوار لمدرسة أسوان ، وكان كبار الزوار لهذه المدرسة أكثر عدداً وأعظم شأناً من كبار الزوار لمدارس القطر كله ، لأن أسوان كانت قبلة العظماء والكبراء من جميع الأرجاء في موسم الشتاء .

واطلع الأستاذ الإمام الشيخ « محمد عبده » على احدى هذه الكراسات فقال : « ما أجدر هذا أن يكون كاتباً بعد ! .. »

فكانت هذه الكلمة أقوى ما سمعت من كلمات التشجيع ، ولكنها جاءت بعد سنوات في القراءة ومحاولة الكتابة وإصدار الصحف التي تطبع على « البالوظة » .. ولا يقرؤها أحد غيري وغير تلميذين أو ثلاثة من الزملاء ..

* * *

كان والدي رحمه الله من أنصار الحركة العرابية ، وتعلمت الأبجدية وكتابة الحروف الأولى وأنا أرى بين يدي أعداد مجلة « الأستاذ » وغيرها من مجلات عبدالله نديم ، ومعها أعداد قليلة من «أبو نضارة » و « العروة الوثقى » ونشرات الثورة التي كانت توزع في الخفاء .

وكنت أسمع على الدوام أخباراً في سير الكتاب الذين يصدرون هذه الصحف ، ولا سيما عبدالله نديم .

فأصدرت يوماً صحيفة باسم « التلميذ » محاكاة لصحيفة « الأستاذ » ، وافتتحتها بمقال عنوانه ؛ « لو كنا مثلكم لما فعلنا فعلكم » معارضة لمقال النديم المشهور : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » يعني بها الأوربيين.

واقترنت بهذه الظروف رغبة ملحة في القراءة والكتابة ، بل في النظم والنثر المسجوع بعض الأحايين .

ولعل المرة الأولى التي عرفت فيها أنني أكتب ما يستحق التنويه بين الأقران قد عرضت لي من قبيل المصادفة وأنا في السنة الثانية الابتدائية ، وكان مدرس الخط والكتابة عندنا الخطاط المشهور الشيخ مصطفى عاصم رحمه الله، وهو والد زميلنا أحمد عاصم « بك » الذي أصبح بعد ذلك من رجال التربية المعدودين ..

طلب منا الشيخ مصطفى أن نكتب بالخط النسخ كلاماً من عندنا نصف به المدرسة التي نتعلم فيها، ولم تكن دروس الإنشاء مقررة علينا في تلك السنة، ولكنه أراد أن يجعلها درساً من دروس الخط بكتابة من عندنا ، غير كتابة « المشق » المرسوم .

ونسيت هذا الطلب لأنه « نافلة » لا يدخل في باب المقررات ، فلما التقيت قبل دق الجرس بزملائي سألني أحدهم : « هل كتبت ما طلبه مدرس الخط ؟ » فتذكرت ذلك الطلب « النافلة » وبدا لي أن كتابته خير من اهماله ، وأخرجت كراسة التجارب فكتبت صفحة من صفحاتها في هذا الموضوع .

وكان من المفاجآت لي وللزملاء الصغار — الذين علموا كيف كتبت ذلك الموضوع بعد تنبيههم إياي — أن المدرس لم يقرأ في الفصل غير ذلك الموضوع ! وغار الزملاء فقال بعضهم :

— إنه يا أفندي كان ناسياً وذكرناه به في اللحظة الأخيرة ..

وظنوا أنهم يهبطون بدرجة الإنشاء في تقدير الشيخ ، فإذا هو يضاعف التقدير ويقول لهم :

— إن هذا أدل على الإجادة وحسن الاستعداد .

* * *

وبلغت السادسة عشرة وأنا أعمل في وظيفة حكومية ، وكان عليّ أن أنتظر سنتين قبل التثبيت ، لأن الوظائف الدائمة لا تثبت قبل الثامنة عشرة ! ..

فخطر لي ذات مرة أن أريح نفسي من هذا الانتظار وأن أتوفر على اصدار صحيفة أسبوعية باسم « رجع الصدى » واتخذت مستشاري لهذا العمل « كتبياً » بحي الأزهر كنت أشتري منه الكتب الأدبية بأرخص الأثمان ، لأنها كانت مطبوعة — كلها — على الورق الأصفر ، وبعضها مرجوع يباع بنصف الثمن ، ولا يزيد ثمنه على بضعة قروش .

قال لي الكتبي الناصح :

— إياك أن تفعلها وتترك خدمة « الميري » من أجل هذه الصناعة الملعونة !

ولم تمض ساعة حتى شهدت بعيني أنها في الحق صناعة ملعونة كما قال ، أو كانت على الأقل ملعونة إلى ذلك الحين !

على مقربة من المكتبة مطبعة صغيرة تطبع فيها صحيفة أو اثنتان من الصحف الأسبوعية ، ويقف فيها « مدير الصحيفة » ينتظر الوكيل الذي أرسله إلى المشتركين للتحصيل وسداد حق المطبعة من محصول الاشتراكات .

وحضر الوكيل ...

مخلوق أشعث أغبر ليس على بدنه كسوة من قطعة واحدة ، ولحيته مرسلة بغير قصد منه ، لأنها معلقة على قرش واحد يؤديه للحلاق ، ولا سبيل إليه ..

وبادره المدير قائلاً :

— ماذا صنعت ؟ ..

فأخرج له ايصالا معاداً من أحد المشتركين ، وقال له :

— إن صاحب هذا الإيصال قد أنبأني أنه سدد الاشتراك لك قبل الآن ، وعنده ايصال بالسداد .

قال المدير :

– وأين الإيصال الآخر ؟ ..

قال الوكيل :

– قطعه الرجل ورماه في خلقتي ! ..

فانتهره المدير وهو يضربه ، وقال له :

– مستحيل ! .. إن هذا الرجل ممن يخافون من الكتابة عنهم خوف البرد ، ومسألة بنته أو أخته معروفة يخشى منها الفضيحة .. فلا تقل لي انه قطع الإيصال ورماه في خلقتك الشريفة...بل قل انك قبضت الاشتراك وسكرت به كعادتك..

وكانت بقية الفصل خناقة لاأدري كيف انتهت ، لأنني لا أحب منظر « الخناق » ... فتركتها وأنا أردد قول الكتبي الناصح :

– إنها صناعة ملعونة وايم الله !

* * *

بعد هذا كانت علاقتي بالصحافة علاقة الكتاب من « منازلهم » ...

فكنت أكتب إلى « الجريدة » التي أشرف على تحريرها الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد ، وكتبت قبلها إلى صحيفة « الظاهر » التي كان يصدرها « أبوشادي » المحامي وإلى صحيفتي « المؤيد » و « اللواء » ، ونشر أول ما نشر لي من الشعر في إحداها ، وأذكر أنه في صحيفة « اللواء » ..

وإنني لأقرأ الصحف ذات يوم إذا بالأستاذ « محمد فريد وجدي » يعلن عن صحيفة يومية ينوي أن يصدرها باسم الدستور ، ويطلب مخاطبته في شؤون الصحيفة ، ومنها شأن التحرير .

فتناولت ورقة في المقهى التي كنت أجلس بها بجي شبرا ، وكتبت إليه خطاباً أرشح فيه نفسي للاشتغال بتحرير الدستور ، ولم يمض يومان حتى جاءني الرد منه بالقبول ، فذهبت إليه حيث اختار مكتب الصحيفة الأولى بدار مطبعة « الواعظ » لصاحبها الأستاذ محمود سلامة بدرب الجماميز ، وعدت لأستقيل

من وظيفتي الحكومية وأبدأ حياتي الصحفية المنتظمة . ولم أزل أعمل في تحرير « الدستور » حتى اضطرت إلى التوقف عن الصدور .

وإنني لأحمد الله أن كانت بداية عملي المنتظم في الصحافة مع رجل كالأستاذ وجدي رحمه الله قليل النظير في نزاهته وصدقه وغيرته على المصلحة القومية واستعداده للتضحية بماله وراحته في سبيل المبدأ الذي يرعاه ولا يتزحزح عنه قيد أنملة ، فقد عطل صحيفته وبين يديه عرض سخي من جماعة « تركيا الفتاة » التي أرادت أن تتخذ منها لسان حال لها في مصر والشرق باللغة العربية ، وهذا غير العروض السخية التي توالت عليه من جانب « المعية الخديوية » ... فأقدم على تعطيل الصحيفة لكيلا يخالف عقيدة من عقائده السياسية مرضاة لهؤلاء أو هؤلاء وباع كتبه ليؤدي حساب العمال والصفافين والموظفين مليماً بمليم .

أحسن الله ذكراه في مثواه .

وأكثر الله بين الصحفيين من ينحو في هذه الصناعة « المباركة » منحاه .

***

هجرت وظائف الحكومة

« الاستخدام رق القرن العشرين »

كان هذا عنوان كتبته في « الجريدة » حوالى سنة ١٩٠٧ ، وأنا في وظيفتي الحكومية ، وكنت يومئذ على أهبة « الاستعفاء » منها للاشتغال بالصحافة ..

ومن «السوابق» التي أغتبط بها وأحمد الله عليها أنني كنت – فيما أرجح– أول موظف مصري استقال من وظيفة حكومية بمحض اختياره ، يوم كانت الاستقالة من الوظيفة والانتحار في طبقة واحدة من الغرابة وخطل الـرأي عند الأكثرين ، بل ربما كانت حوادث الاستقالة أندر من حوادث الانتحار . ولو ظفرنا اليوم باحصاء ثابت لحوادثهما معاً منذ بدأت عندنا الوظائف الحكومية إلى أوائل القرن العشرين لتحقق لنا أن الاستقالة من الوظيفة كانت أندر من الانتحار ، ولا يخرج هذا عن حيز المعقول ، لأن الوظيفة كانت معيشة وشرفاً ومزيـة اجتماعية ، ولأن عدد الموظفين الذين تسجل عنهم حوادث الاستقالة أقل من عدد الجمهرة الكبرى التي تسجل عنها حوادث الانتحار ، ولعلنا لو أخذنا في العددين بالنسبة المئوية لما اختلفت دلالة الاحصاء .

كان الشرف كله يومئذ منوطاً بالوظيفة الحكومية ، وكانت كلمة القائلين ان خدمة « الميري » شرف مثلا سائراً في كل طبقة من طبقات الأمة ، ويضارعه في الشيوع قول القائلين : « إن فاتك الميري اتمرَّغ في ترابه » وهو القول القاطع الذي شاع وظل شائعاً إلى عهد قريب .

وليس في الوظيفة الحكومية لذاتها معابة على أحد ، بل هي واجب يؤديه من يستطيع ، ولكنها إذا كانت باب المستقبل الوحيد أمام الشاب المتعلم فهذه هي المعابة على المجتمع بأسره ، وتزداد هذه المعابة حين تكون الوظيفة — كما كانت يومئذ — عملا آلياً لا نصيب فيه للموظف الصغير والكبير غير الطاعة وقبول التسخير ، وأما المسخر المطاع فهو الحاكم الأجنبي الذي يستولي على أداة الحكم كلها ، ولا يدع فيها لأبناء البلاد عملا إلا كعمل المسامير والآلات في تلك الأداة .

* * *

وأعود فأقول مرة أخرى ان نفوري من الوظيفة الحكومية في مثل ذلك العهد الذي يقدسها كان من السوابق التي أغتبط بها وأحمد الله عليها ... فلا أنسى حتى اليوم أني تلقيت خبر قبولي في الوظيفة الأولى التي أكرهتني الظروف على طلبها كأني أتلقى خبر الحكم بالسجن أو الأسر والعبودية .. إذ كنت أومن كل الإيمان بأن الموظف رقيق القرن العشرين ..

وقد اشتغلت بوظائف كثيرة في المديريات ومصلحة التلغراف ومصلحة السكة الحديد وديوان الأوقاف ، ويلحق بها — أي بهذه الوظائف — عملي في تعلية الخزان ، لأنه كان بمثابة الوظيفة الحكومية في ذلك الحين .

وأذكر أنني تقدمت للامتحان في « نظارة الحقانية » يوم كان الكاتب المشهور في زمنه « أحمد سمير » رئيساً من الرؤساء الكتابيين فيها ، وكان موضوع الامتحان حساباً وترجمة وإنشاء عربياً ، سئلنا فيه أن نكتب تاريخ حياتنا فكتبت تاريخ حياتي في الوظائف الحكومية قبلها ، ومهدت له بمقدمة عن الوظائف وما ينبغي لها من الاصلاح ، ونظر الأستاذ أحمد سمير في ورق الإنشاء أمامنا فقال : « يظهر أن خوجة هذا الطالب كان من المجاورين الحناشيص في اللغة العربية » .. ثم أتم القراءة فقال لي بعد أن دعيت باسمي : « ومن لنا بأنك تبقى عندنا أكثر مما بقيت عند غيرنا .. أنت يابني تريد إصلاح

الوظائف كلها ، ونحن مش قدك ، والله العظيم ! »

فقلت له : « والآن تستطيع أن تعتبر ورقة الطلب ورقة استعفاء ، مادامت هذه طريقتكم في الامتحان » .

* * *

ولو أنني أردت أن أسجل تجاربي في تلك الوظائف جميعاً لما وسعتني المقالات فإنها مما تستوفيه الكتب المطولات .

ولكنني أذكر هنا تجربة أو اثنتين من مهازلها ومآسيها ويقاس عليها غيرها من هذا الباب ، وغير هذا الباب ..

كانت الرسائل تسمى يومئذ « بالافادات » ..

وكانت « للإفادة » صيغة مقررة مكررة لا تختلف من الديباجة إلى التقفيلة كما كانوا يسمونها ، وكان من نماذجها ترتيب الألقاب من « حميتلو » إلى « رفعتلو » إلى « سعادتلو » إلى « عطوفتلو » بين ملاحظ البوليس وناظر المالية الذي كنا تابعين له في أقسامنا المالية بالمديريات ..

فإذا قلت « صاحب الحمية ، أو صاحب العطوفة » بدلا من « حميتلو » أو « عطوفتلو » بطلت الإفادة ووجبت إعادتها من جديد .

وكذلك تبطل الإفادة إذا ختمتها بعبارة غير عبارة التقفيلة المعهودة « وهذا ما لزم عرفناكم به أفندم » .

وتتخلل الإفادة قوالب تعبيرية « أو كليشيهات » على هذا المثال لا يجوز فيها التبديل ولا التقديم ولا التأخير .

وأكتب عشرين أو ثلاثين إفادة دفعة واحدة فإذا هي تعاد إليّ « لتصحيحها وكتابتها مرة أخرى بالأسلوب المعهود » .

* * *

ويتكرر هذا مرة بعد مرة ولا متسع من الوقت لكتابة الإفادات جميعاً فضلا عن كتابتها وتغييرها بلا سبب غير هذا الجمود على الأسلوب العتيق .

ويتفق يوماً أن أدخل على « الباشكاتب » بالإفادات المشطوبة فأجده منفرداً في المكتب ، وتزين لي « شقاوة » التلمذة أن أعبث بالرجل عبثاً لم يكن يخطر له على بال ، وبخاصة هذا الباشكاتب الذي اشتهر في مديريات القطر بالحزم والمهابة والدراية بأصول الإدارة وأساليب المكاتيب .

قلت له في كل بساطة : «يا أيها الحمار الأزعر .. أمثلك يصحح الكتابة العربية وأنت لاتعرف منها غير الهجاء وكتابة (العرضحالات) ؟! »

ولم يصدق الرجل أذنيه . وظن أنه أمام مجنون لا يؤمن أن يبطش به ويعتدي على حياته ، فقفز من كرسيه إلى خارج الحجرة ينادي الفراشين والموظفين المساعدين ، ثم ذهب إلى مكتب وكيل المديرية يشكوني إليه ، لأن المدير — محمد محب باشا — كان غائباً عن البلد ، وينوب عنه « محمد خليل نائل بك » الذي كان معروفاً في ذلك الوقت بأنه رجل « رياضي » بحبوح قبل أن تشيع كلمة الا « سبورت » .

* * *

ويدعوني الوكيل فأقول له مقسماً أنني ما خاطبت الرجل إلا بما يستحقه من الاحترام .

ويبتسم الوكيل الظريف ، ثم يقول للبك الباشكاتب :

— دعه لي .. فإنني سأنظر في أمره « بما يستحقه » .

وما كاد الباشكاتب يولي قفاه حتى ضحك الوكيل وكاد أن يقهقه ، ثم اصطنع العبوس وهو يقول :

— اسمع يابني .. شغل الحواة في المدارس لا ينفع هنا في الوظائف ، ولو

ثبت عليك أنك تطاولت على حضرة الباشكاتب لكان جزاؤك الفصل العاجل ، فلا تعد إليها مرة ثانية .

وقد علمت بعد ذلك أن الباشكاتب قد استكبر على مهابته المشهورة أن يذاع عنه أن موظفاً صغيراً قال له : « ياحمار » .. فلم يذكر للوكيل إلا بعض ماقيل!

وتجربة أخرى في هذا الديوان نفسه أننا كنا نعمل بقسم المكلفات أي تدوين الملكيات الزراعية أيام فك الزمام ، وليس أكثر في هذه الأيام من العقود الواردة من المحاكم ومن الأقاليم فلا طاقة للموظف بإنجاز العمل مرة واحدة فضلا عن انجازه مرتين .

وأقرر .. نعم أقرر ،وأقولها الآن وأنا أضحك كما يضحك القارىء وهو يتصفحها ..

أقرر عدداً من العقود أنجزه كل يوم ولا أزيد عليه ولو تراكمت الأوراق على المكتب كالتلال .

ومن هذه العقود عقد أذكره تماماً .. أنه كان لأمين الشمسي باشا والسد السيد علي الشمسي الوزير السابق المعروف ، مضت عليه أشهر وهو بانتظار التنفيذ في الموعد الذي قررته لنفسي وجاء الباشا يسأل عنه فرأيته لأول مرة ، ورأيته لايغضب ولا يلوم حين تبينت له الأعذار التي استوجبت ذلك القرار .

* * *

وإذا كان هذا قليلا من كثير من تجاربي في وظائفي الحكومية فلا أحسب القارىء المعاصر يعجب لاستقالتي منها واحدة بعد واحدة ..

غير أني أقول اليوم كما أقول كلما ذكرت أمثال هذه التجارب . « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

وهكذا مرت بي تجارب الوظائف على خير لاشك فيه ، فلولا اشتغالي

بالمديريات بين قنا ، والزقازيق ، والفيوم ، ولولا تنقلي فيها بين أعمال تتصل بالملكيات الزراعية ، وأخرى تتصل بمساوىء الأوقاف وغيرها بالمواصلات ومشروعات الأبنية والمقاولات ، لفاتني كثير ، بل كثير جداً ، من العلم بحقائق بلدي ومواطن الإصلاح فيه .

ولو اطلعتم على ما في الغيب لاخترتم الواقع.

ولعلي لم أكن أختار هذه الوظائف بعينها ، ولكنني أختار أن أعرف ما عرفت من حقائق وطني بالثمن الذي « تستحقه » .. وهي تستحق الكثير ..

***

الفَصل الثالِث

قَلَمِي

من ذكريات المدرسة التي أستعيدها الآن لمناسبتها ، حادث شجار عنيف بين تلميذين على قلمين من أقلام الكتابة العربية ، يدعي كلاهما أن أحد القلمين قلمه ، ويرد الآخر إلى صاحبه .

أكان النزاع على القلم المطلوب من أجل قيمته الغالية ؟ ..

كلا .. فان قيمة القلمين معاً لم تكن تزيد على ثلاثة مليمات أو أربعة ؛ لأنهما من أقلام البوص التي كانت توجد يومئذ في جميع الأسواق .

فلم يكن النزاع بين الزميلين لغلو الثمن ، وانما كان لنفاسة أخرى غير نفاسة المال ، وهي أن القلم الذي تنازعا عليه كان من الأقلام التي براها الأستاذ وقطعها بيديه ، فهو صالح لتجويد الخط ، وضمان بعض الدرجات في الامتحان!

كان ذلك يوم كان القلم ثمرة من ثمرات الطبيعة ، وكانت لكل قلم شخصية ممتازة بما يكتبه من نوع الخط ، ثلثاً كان ، أو نسخاً ، أو رقعة ، أو حرفاً من الحروف الديوانية أو الفارسية .. ويوم كانت لكل قلم شخصية ممتازة يستمدها ممن براه ، وقطه ، وهيأه للكتابة ، وقلما يحسن ذلك غير أستاذ خبير بالأقلام ، وبما تخطه الأقلام .

كان ذلك على التقريب شأن كل قلم في المدرسة ، وفي غير المدرسة ، فكان قلم البوص هو القلم المعتمد بين التلاميذ ، وبين الموظفين ، وبين الكتبة في كل مكان .

أما اليوم فلا « شخصية » للأقلام ، لأنها جميعاً من صنع « الفابريكة » التي تخرج مصنوعاتها بالألوف ، وعشرات الألوف !

إنها « نمر » مرصوصة في صناديق ، وكل قلم فيها ككل قلم بلا اختلاف في غير علامة « الفابريكة » ، أو قدم القلم وجدته .. وفيما عدا ذلك فالأقلام جميعاً سواء !

* * *

وكنت في المدرسة من المعدودين بين المتقدمين في الخط ، فلم تكن درجتي فيه تقل عن الدرجة العليا بأكثر من درجتين أو ثلاث .

ولكنني لم أكن من المتقدمين في صناعة البري ، والقط ، وتنويعها على حسب الحروف والخطوط .. وكنت أعول في هذه الصناعة على الأستاذ ، وأحتفظ بأقلامه طوال العام ، فلما تركت المدرسة لبثت برهة انتفع بأقلامي المدرسية ، ثم عدلت عنها مضطراً إلى الريشة المعدنية ، ولم أزل أكتب بها في الدواوين ، حتى اشتغلت بالصحافة ، ووجدت الكلفة في الاستملاء ، وحمل الدواة إلى كل جهة أذهب إليها وأحتاج إلى الكتابة فيها ..

ولم يكن من اليسير أن أحصل على قلم « مداد » ، أو قلم « أمريكاني » كما كان يسمى في تلك الأيام ، فلجأت إلى استخدام القلم الرصاص .

وأتعبني القلم الرصاص لأنه ينقصف ، ويؤلم الأصابع بضغطه ، ويترك فيها مثل علامة السجدة في جباه المصلين ، ولكنها علامة لاتنفع أصحابها كما تنفع علامة السجدة من ينتفعون بها في سوق الرياء !

فما هو إلا أن تيسر لي ثمن القلم المداد ، أو القلم « الأمريكاني » ، حتى

استبدلته بأقلام الرصاص ، وما زلت أكتب به إلى اليوم .

واتفق أنني عملت في عدة صحف صباحية على التوالي ، فظهر لي أن المداد الأحمر« أريح » للنظر في ضياء الليل، فهو المداد الذي استعملته إلى عهد قريب..

* * *

هل احتفظت بقلم من أقلامي هذه أو غيرها لمناسبة خاصة تهمني ذكراها ؟..

نعم .. احتفظت بأقلام ثلاثة ، كان لاحتفاظي بكل منها سبب وتاريخ ، وكان كل منها مبايناً لصاحبيه في سببه وتاريخه ..

قلم منها احتفظت به لأنه كان هدية من إنسان أعزه ، وكان قد كتب به قصيدة من شعري في وصف ليلة على النيل ، ثم أهدى إليّ القلم، والصحيفة المكتوبة بخطه .

وقلم ثالث كتبت به الفصول الأولى من كتابي عن « ابن الرومي » ، ثم أدركني وأدركه شؤم الرجل ، وسوء طالعه ، فدخلت السجن ، ودخله معي حيث قضى فيه تسعة أشهر ، ولكن في مخزن الأمانات !

وقلم آخر أخرجته لخصم من خصومي السياسيين ، وأقسمت له لتسقطن الوزارة النسيمية قبل أن ينبري هذا القلم .. وقد كان من أجود الأقلام المعروفة « بالكوبية » أهديت بصندوق من نوعه ، فجعلت أراوح في الكتابة العجلى بينه وبين القلم المداد .

أين هذه الأقلام الآن ؟ هل هي محفوظة كما احتفظت بها في أوانها ؟

كلا .. مع الأسف ، فليس عندي منها اليوم قلم واحد . لأنها ضاعت بسبب وتاريخ ، كما كان لها في الاحتفاظ بها سبب وتاريخ .

القلم الذي أهداه إليّ إنسان عزيز عاد بعد فترة من الوقت ، فأصبح في حياتي غصة لا تطاق .

فحملته ذات ليلة ، وحملت معه الصحيفة التي كتبها بيد ذلك الإنسان العزيز ، ووهبته للنيل في الموضع الذي وصفته بذلك القصيد !

والقلم الذي صاحبني في السجن ، أفرجت عنه ، وأصررت على أن أتم به الكتاب الذي شرع معي في تأليفه ..

ثم أدركه نحس « ابن الرومي » مرة أخرى ، فامتدت إليه يد سارق لابد أنه حبس بعد ذلك .. ! إذا جرى « ابن الرومي» على عاداته ، سامحه الله !

فإنني على ما أظن قد عثرت بالقلم عينه ، وان خطر لي في ذلك الحين — ولا يزال يخطر لي الساعة — أنه شبيه به مشابهة الزميلين في صنعة واحدة ..

ولقد رثيت القلم المسروق بقصيدة أقول في مطلعها :

زاملني في السِّجْنِ ذاك القَلَم   ونَالَه ما نالَني مِنْ قسَم

ومنها أقول :

أما وقد فارقْتَنَا يا قلم
وصَالَحَ اليَأْسُ عَليك الألَمْ
فَخَيْرُ ما أَرجوه ألا تُرَى
في كفِّ خَوَّانٍ ولا مُتَّهَمْ
ولا تَخُطَّ الجَهْلَ في صَفْحَةٍ
أَبْيَضُ مَا فيها سَوَادُ الحُمَم
ولا تَكُنْ يا قلمي آلَةً
تَشْتُمني باللَّغْوِ فِيمَنْ شَتَم

بَدَأْتَ في الأَوْجِ فلا تنحدِر
إلى حَضِيضِ الـذُّل في المُخْتَتَم

* * *

ثم عثرت بقلم « مرجوع » من لونه، ونقشته، وعلامته فاشتريته وقلت فيه

شبيه القَلَـم المفْقُو دِ في لَـوْنٍ وفي حَجْمِ
وفي البائـعِ والشا ري وفي الصنعةِ والرَّسم
سَتُغْنيني إذا استَغْنَيـ تُ بعد الروح بالجسم
أَو استغنى بتمثالٍ فـؤادُ الأَب والأُم

ولكنني أعطيته لمن طلبه في الإسكندرية، وذهب به إلى الشاطىء، فضاع !..

أما القلم الذي راهنت به على الوزارة النسيمية ، فقد احتفظت به زمناً بعد سقوط تلك الوزارة، ثم التبس عليّ بفضلات من أقلام أخرى تشبهه، فلم أشأ أن أحتفظ بنسخ متعددة لا أدري أيها الجدير بالاحتفاظ ، وتركته مع شبيهاته لما يصيبه من صروف الأقدار .

وقيل لي كثيراً : « احتفظ بهذا القلم أو ذاك لأنك كتبت به هذا الكتاب أو ذاك » .. فلم أجد معنى للاحتفاظ بقلم تغني عنه في عملي ، وفي نظري ، أقلام .

***

لماذا هويت القراءة ؟

أول ما يخطر على البال – حين يوجه هذا السؤال إلى أحد مشتغل بالكتابة – أنه سيقول : إنني أهوى القراءة لأنني أهوى الكتابة !

ولكن الواقع أن الذي يقرأ ليكتب وكفى هو « موصل رسائل » ليس إلا.. أو هو كاتب « بالتبعية » وليس كاتباً بالاصالة .فلو لم يسبقه كتاب آخرون لما كان كاتباً على الاطلاق ، ولو لم يكن أحد قبله قد قال شيئاً لما كان عنده شيء يقول للقراء .

وأنا أعلم فيما أعهده من تجاربي أنني قد أقرأ كتباً كثيرة لاأقصد الكتابة في موضوعاتها على الاطلاق ، وأذكر من ذلك أن أديباً زارني فوجد على مكتبي بعض المجلدات في غرائز الحشرات ، فقال مستغرباً ، ومالك أنت وللحشرات؟.. إنك تكتب في الأدب وما إليه ، فأية علاقة للحشرات بالشعر والنقد والاجتماع ؟

ولو شئت لأطلت في جوابه .. ولكنني أردت أن أقتضب الكلام بفكاهة تبدو كأنها جواب وليس فيها جواب ..

فقلت : نسيت أنني أكتب أيضاً في السياسة !

قال : نعم .. نسيت والحق معك !.. فما يستغني عن العلم بطبائع الحشرات رجل يكتب عن السياسة والسياسيين في هذه الأيام !

والحقيقة كما قلت مراراً أن الأحياء الدنيا هي « مسودات » الخلق التي

تتراءى فيها نيات الخالق كما تتراءى في النسخة المنقحة، وقد تظهر من «المسودة» أكثر مما تظهر بعد التنقيح . فإذا اطلع القارىء على كتاب في الحشرات، فليس من اللازم اللازب أن يطلع عليه ليكتب في موضوعه ، ولكنه يطلع عليه لينفذ إلى بواطن الطبائع وأصولها الأولى ، ويعرف من ثم كيف نشأ هذا الاحساس أو ذاك الاحساس ، فيتقرب بذلك من صدق الحس وصدق التعبير ، ولو في غير هذا الموضوع .

كذلك لا أحب أن أجيب عن السؤال كما أجاب قارىء التاريخ في البيت المشهور :

ومَنْ وَعَى التاريخَ في صدرِهِ   أضاف أعماراً إلى عُمْرِهِ

فليست إضافة أعمار إلى العمر بالشيء المهم إلا على اعتبار واحد ، وهو أن يكون العمر المضاف مقداراً من الحياة لا مقداراً من السنين ، أو مقداراً من مادة الحس والفكر والخيال ، لا مقداراً من أخبار الوقائع وعدد السنين التي وقعت فيها . فان ساعة من الحس والفكر والخيال تساوي مئة سنة أو مئات من السنين، ليس فيها إلا أنها شريط تسجيل لطائفة من الأخبار وطائفة من الأرقام.

* * *

كلا .. لست أهوى القراءة لأكتب ، ولا أهوى القراءة لأزداد عمراً في تقدير الحساب ..

وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا ، وحياة واحدة لاتكفيني ، ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة .

والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد ، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق ، وإن كانت لاتطيلها بمقادير الحساب ..

فكرتك أنت فكرة واحدة ..

شعورك أنت شعور واحد ..

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك ..

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى ، أو لاقيت بشعورك شعور آخر ، أو لاقيت بخيالك خيال غيرك .. فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين أو أن الشعور يصبح شعورين ، أو أن الخيال يصبح خيالين ..

كلا .. وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات من الفكر في القوة والعمق والامتداد .

* * *

والمثل على ذلك ، محسوس في عالم الحس والمشاهدة ، ومحسوس في عالم العطف والشعور .

ففي عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرآتين فلا يرى إنساناً واحداً أو إنسانين اثنين ، ولكنه يرى عشرات متلاحقين في نظره إلى غاية ما يبلغه النظر في كل اتجاه .

وفي عالم العطف والشعور نبحث عن أقوى عاطفة تحتويها نفس الإنسان فإذا هي عاطفة الحب المتبادل بين قلبين .. لماذا ..؟ لأنهما لا يحسان بالشيء الواحد كما يحس به سائر الناس ..

لا يحسان به شيئاً ولا شيئين ، وإنما يحسان به أضعافاً مضاعفة لاتزال تتجاوب وتنمو مع التجاوب إلى غاية ما تتسع له نفوس الأحياء .

هكذا يصنع التقاء مرآتين ، وهكذا يصنع التقاء قلبين .. فكيف بالتقاء العشرات من المرائي النفسية في نطاق واحد ؟

وكيف بالتقاء العشرات من الضمائر والأفكار ؟

ان الفكرة الواحدة جدول منفصل .

أما الأفكار المتلاقية فهي المحيط الذي تتجمع فيه الجداول جميعاً ، والفرق بينهما وبين الفكرة المنفصلة كالفرق بين الأفق الواسع والتيار الجارف ، وبين الشط الضيق والموج المحصور .

وقد تختلف الموضوعات ظاهراً أو على حسب العناوين المصطلح عليها ، ولكنك إذا رددتها إلى هذا الأصل كان أبعد الموضوعات كأقرب الموضوعات من وراء العناوين .

أين غرائز الحشرات مثلا من فلسفة الأديان ؟
وأين فلسفة الأديان من قصيدة غزل وقصيدة هجاء ؟
وأين هذه القصيدة أو تلك من تاريخ نهضة أو ثورة ؟
وأين ترجمة فرد من تاريخ أمة !

ظاهر الأمر أنها موضوعات تفترق فيما بينها افتراق الشرق من الغرب والشمال من الجنوب .

وحقيقة الأمر أنها كلها مادة حياة ، وكلها جداول تنبثق من ينبوع واحد وتعود إليه .

غرائز الحشرات بحث في أوائل الحياة .
وفلسفة الأديان بحث في الحياة الخالدة الأبدية .

وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء قبسان من حياة إنسان في حالي الحب والنقمة ..

ونهضة الأمم أو ثورتها هما جيشان الحياة في نفوس الملايين ، وسيرة الفرد العظيم معرض لحياة إنسان ممتاز بين سائر الناس .

وكلها أمواج تتلاقى في بحر واحد ، وتخرج بنا من الجداول إلى المحيط الكبير ..

ولم أكن أعرف حين هويت القراءة أنني أبحث عن هذا كله ، أو أن هذه الهواية تصدر من هذه الرغبة .

ولكنني هويتها ونظرت في موضوعات ما أقرأ فلم أجد بينها من صلة غير هذه الصلة الجامعة ، وهي التي تتقارب بها القراءة عن فراشة ، والقراءة عن المعري وشكسبير .

لا أحب الكتب لأنني زاهد في الحياة .

ولكنني أحب الكتب لأن حياة واحدة لاتكفيني .. ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة ، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد ، ومهما يتنقل في البلاد فإنه لايستطيع أن يحل في مكانين . ولكنه يزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد ، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل ، وتتضاعف الصورة بين مرآتين .

***

الكُتبُ المفضَّلة عِندي

هذا موضوع جليل، ولكن هل تعرف أنني أفضل قراءة كتب فلسفة الدين، وكتب التاريخ الطبيعي.، وتراجم العظماء، وكتب الشعر ؟

إنني أقرأ هذه الكتب وأعتقد أن العلاقة بينها متينة، وإن كانت تفترق في الظاهر، لأنها ترجع إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان .. فكتب فلسفة الدين تبين إلى أي حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت. وكتب التاريخ الطبيعي تبحث في أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة، وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة، والشعر هو ترجمان العواطف، فإنني أفضل من الكتب كل ما له مساس بسر الحياة.

* * *

وتسألني ما هو سر الحياة، فأقول على الإجمال انني أعتقد أن الحياة أعم من الكون، وأن ما يرى جامداً من هذه الأكوان أو مجرداً من الحياة إن هو في نظري إلا أداة لإظهار الحياة في لون من الألوان أو قوة من القوى ... والحياة شيء دائم أبدي أزلي، لابداية له ولا نهاية ..

فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر الله عرفت سر الحياة، ولكننا مطالبون بأن نحفظ لأنفسنا في هذا المحيط الذي لانهاية له أوسع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا. والكتب هي وسائل الوصول إلى هذه الغاية. وهي النوافذ التي تطل على حقائق الحياة، ولا تغني النوافذ عن النظر.

ومن جهة أخرى فإن الكتب طعام الفكر ، وتوجد أطعمة لكل فكر كما توجد أطعمة لكل بنية ، ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام . وكذلك الادراك القوي يستطيع أن يجد غذاء فكرياً في كل موضوع ؛ وعندي أن التحديد في اختيار الكتب انما هو كالتحديد في اختيار الطعام . وكلاهما لايكون إلا لطفل في هذا الباب أو مريض ، فاقرأ ماشئت تستفد إذا كان لك فكر قادر أو معدة عقلية تستطيع أن تهضم ما يلقى فيها من الموضوعات وإلا فاجعل القابلية حكماً لك فيما تختار لأن الجسم في الغالب يغذيه ما نشتهيه .

ولا تغني الكتب عن تجارب الحياة ، ولا تغني التجارب عن الكتب ، لأننا نحتاج إلى قسط من التجربة لكي نفهم حق الفهم ، أما أن التجارب لاتغني عن الكتب ، فذلك لأن الكتب هي تجارب آلاف من السنين في مختلف الأمم والعصور ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد أكثر من عشرات السنين ..

* * *

ولا أظن أن هناك كتباً مكررة لأخرى ، لأني أعتقد أن الفكرة الواحدة إذا تناولها ألف كتاب أصبحت ألف فكرة ، ولم تعد فكرة واحدة .. ولهذا أتعمد أن أقرأ في الموضوع الواحد أقوال كتاب عديدين ، وأشعر أن هذا أمتع وأنفع من قراءة الموضوعات المتعددة . فمثلا أقرأ في حياة نابليون أكثر من أقوال ثلاثين كاتباً وأنا واثق من أن كل نابليون من هؤلاء هو غير نابليون الذي وصف في كتب الآخرين .

أما تأثير كل من أنواع الكتب الثلاثة : العلمية ، والأدبية ، والفلسفية فهو أن الكتب العلمية تعلمنا الضبط والدقة ، وتفيدنا المعارف المحدودة التي يشترك فيها جميع الناس ، والكتب الأدبية توسع دائرة العطف والشعور ، وتكشف لنا عن الحياة والجمال ، والكتب الفلسفية تنبه البصيرة وملكة الاستقصاء وتتعدى بالقارىء من المعلوم إلى المجهول ، وتنتقل به من الفروع إلى الأصول .

وكل من هذه الأنواع لازم لتثقيف الإنسان ، وتعريفه جوانب هذا العالم

الذي يعيش فيه . وأنا أفضلها على هذا الترتيب : الأدبية ، فالفلسفية، فالعلمية.

ولا يستطيع القارىء أن يحصر مقدار الفائدة التي يجنيها من كتاب، فرب كتاب يجتهد في قراءته كل الاجتهاد ، ثم لا يخرج منها بطائل ، ورب كتاب تتصفحه تصفحاً ، ثم يترك في نفسه أثراً عميقاً يظهر في كل رأي من آرائه ، وكل اتجاه من اتجاهات ذهنه ، فأنت لاتعرف حق المعرفة « الطريقة » التي تضمن الفائدة التامة من قراءة الكتب ، ولكن لعل أفضل ما يشار به — على الاجمال — هو ألا تكره نفسك على القراءة ، وأن تدع الكتاب في اللحظة التي تشعر فيها بالفتور والاستثقال .

* * *

أما مقياس الكتاب المفيد فانك تتبينه من كل ما يزيد معرفتك وقوتك على الادراك والعمل وتذوق الحياة ؛ فإذا وجدت ذلك في كتاب ما ، كان جديراً بالعناية والتقدير ، فاننا لا نعرف إلا لنعمل أو لنشعر ، أما المعرفة التي لاعمل وراءها ولا شعور فيها فخير منها عدمها . وعلى هذا المقياس تستطيع أن تفرق بين ما يصلح للثقافة والتهذيب وما لايصلح .

***

منهجي في كتابة المقالات

أكتب أكثر المقالات الصحفية للمجلات الأدبيـة باقتراح من الـزملاء المشرفين على تحريرها ، وأرحب بهذه الطريقة كل الترحيب لأنني عرفـت بالتجربة الطويلة أن محرر المجلة أولى باقتراح موضوعاتها ، وأقدر على اختيارها واجتناب التكرار فيها ، إذ هو أعرف بمنهج صحيفته وأذواق قرائه وبرنامج الاعداد التي تصدر منها مبوبة ، أو مرتبة على حسب مواعيدها .. فهو يعـفي الكاتب من مؤنة البحث عن موضوع يوافق هذه المطالب ويجهله أكثر الأحيان أو لايعلم بتفصيلاته علم صاحب الدار .

فاقتراح موضوع المقال من قبل المجلة ييسر لمحررها أن يلاحظ مطالبها ، ويعفي الكاتب من البحث عنها ، وليس فيه مشقة على الكاتب في استجابـة الاقتراح كائناً ما كان ... لأني ، من وجهة نظري ، لاأرى عنواناً من العناوين غير صالح للكتابة فيه ، ولو على سبيل الاستطراد وإبداء وجهة النظر في قلـة صلاحه أو قلة جدوى الكتابة فيه ، إن رأى الكاتب أنها لاتجدي في حالة مـن الحالات ، أو في جميع الحالات .

* * *

أما المقالات الصحفية التي كتبتها في صحف يومية توليت تحريرها فقـد كانت الصعوبة الكبرى في تقديم موضوع منها على موضوع ، أو في تأجيل

بعضها إلى ما بعد يومه ومناسبته ، لأننا تولينا العمل الصحفي في ابان الحركة الوطنية قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، فلم يخل يوم من أيام كتابتنا الصحفية من خبر خارجي أو داخلي ، يستدعي المبادرة بالتعقيب عليه ، ولم تزل أعمال الاصلاح التي يشتغل بها ولاة الأمور ويدعو إليها المصلحون الوطنيون سيلا متدفقاً بالآراءوالنصائح والمشروعات والبرامج علىاختلاف المذاهب والنيات ، بين أنصار الدعوة من جانب وبين معارضيها منجانب واحد أوجوانب شتى ، وكثيراً ما كانت الصحف اليومية تصدر في وقت واحد من النهار وفيها ما يستلزم الرد عليه قبل فوات يومه ، وقد يصدر بعض الصحف صباحاً ويتبعه الرد على ما فيه مع طبعات المساء.. فقد كانت الصعوبة – كما تقدم – أن نؤجل موضوعاً منها أو نجمع ما بينها في وقت واحد. وقد يكون الجمع بين الموضوعين أيسر الأمرين ، فينشر أحدهما بتوقيع صريح وينشر الآخر بتوقيع مستعار أو مختصر معروف. وربما لجأنا إلى الاقتراع بين أسماء الموضوعات إذا تعذر نشر المقالين معاً لسبب من الأسباب الفنية ..

* * *

ولم تكن المقالات الأدبية أقل في موضوعاتها وازدحام مناسباتها منمقالات السياسة في الصحافة اليومية وملاحقها الأسبوعية ، فقد كان الأسبوع لاينقضي على غير كتاب ينقد ، أو قصيد يتبع بالتعليق عليه ، أو خبر عن أديب مشهور في الثقافة الغربية يستحق الكتابة عن سيرته أو ذكراه ،أو مناقشة مذهبه أومذهب مدرسته في مسائل الفن والفكر وما إليها. وقد يتسع المجال كل وقت لكتابة المقالات المتتابعة عن موضوع من موضوعات الأدب التيتتجدد مناسباتها ولا تحتاج إلى مناسبة خاصة لاعادة البحث فيها. ومن هذا القبيل مقالات الشعر والقصص والمبادىء الفكرية ،وهي حاضرة في أذهان قرائها وعلى أقلام كتابها لايستغرب ابتداؤها والعودة إليها في سنة من السنين ولا في موعد منمواعيد الصحف والمجلات ، ما لم يكن هناك موضوع يشغل الأذهان لمناسبة عاجلة

تميزه بالتقديم ، فهو في هذه الحالة يختار نفسه للكتابة فيه ولا يلقي على الكاتب مؤنة الاختيار .

* * *

هذا هو الغالب في أسباب اختياري لموضوعات المقالات والفصول ، ولكن اختيار موضوعات الكتب يجري على غير هذه الطريقة في أهم موضوعات التأليف عندي ، وهو موضوع التراجم والسير التاريخية أو الأدبية ..

فالقاعدة في اختيار ترجمة ما للكتابة فيها أن تكون كتابتها لازمة لابراز حق ضائع أو حقيقة مجهولة ، وتستوي في ذلك سير العظماء والنوابغ من كل طراز وفي كل طبقة من طبقات العظمة والنبوغ .

فالحافز الأكبر على تأليف كتابي عن « ابن الرومي » أنه مجهول القدر مبخوس الحق يصطلح على بخسه والنزول به عن قدره جهل النقاد وظلم الأغراض والأهواء ، ورأيي فيه أنه أعظم شعراء العالم بلا استثناء في ملكة الوصف التصويري والعاطفة الممثلة في قالب الحس والخيال ، ولكن نقادنا يذكرونه ويحسبون أنهم يتعطفون عليه إذا ألحقوه بشاعر كالبحتري أو ابن المعتز على غير مساواة ، وهما بالقياس إليه كمن ينطق بحروف الهجاء في مجالس البلغاء.

* * *

ولقد كان إنصافه — مما أصابته به خرافة الجهل وخرافة الشؤم — حافزاً يوشك أن يكون من حوافز الغيرة الدينية إلى جانب لذته الأدبية ، وفضلت البدء به على البدء في تأليف غيره في موضوع النقد وتواريخ الآداب ..

ولايقال عن عظمة النبي عليه السلام أنه بحاجة إلى انصاف أحد ، أو دفاع في وجه ناقد ناقم يفتري عليه ، لأنها عظمة القداسة التي تعلو على إنصاف المنصفين وافتراء المفترين . ولكنني كتبت « عبقرية محمد » للقارىء « الإنسان » الذي تضطره مقاييس الإنسانية العليا إلى تعظيم نبي الإسلام ولو لم يكن على دين

المسلمين ، وتوخيت في بيان خلائقه وأعماله أن تسقط عذر الخلاف في الدين لمن يحجم عن تقدير تلك العظمة جهلا منه بدين الإسلام أو بتاريخ النبوة الإسلامية. ولم أشأ أن أجعل الاعتراف بها موقوفاً على صفة يدين بها المسلم لأنه مسلم ويرفضها المخالف لأنه يرفضها بحكم العقيدة الدينية .

وممن أختارهم للترجمة عظماء الفرصة الذين بلغوا بالحيلة ما لم يبلغوه بالقدرة الخالصة،وتوسلوا إلى منافعهم في أزمنتهم بتلك الوسائل التي نسميها اليوم بالوسائل « المكيافيلية ».. فان الغرض الأول من الترجمة التاريخية أن يعرف الناس الفارق بين حق الفرصة في زمن من الأزمان،وحق القدرة في كل زمن، رمع اختلاف الفرص وعوارض الظروف، فلا ينبغي أن يأخذ عظيم الفرصة من التاريخ فوق ما أخذه من منافع عصره، وبخاصة حين يكون حكم التاريخ الكاذب جوراً على خصومه وتغطية لنقائص عصره. ولست أجد في نفسي باعثاً قوياً للكتابة عن العظماء الذين اتفقت لهم الفرصة والعظمة معاً فاستحقوا المجد الذي نالوه، ولكن بشيء من المبالغة العاطفية أو مبالغة الظروف ومناسبات الحوادث ، ولهذا أفضل الكتابة عن عبقرية خالد على الكتابة عن عبقرية صلاح الدين .. لأن انصاف صلاح الدين لايحتاج إلى مزيد .

* * *

ومن حظوظ التأليف التي لها حكم كحكم الحظ في كل شيء ، أنني أؤجل أحب الموضوعات عندي وقتاً بعد وقت على أمل في اقتراب الوقت الموافق لتأليفها، فلا يقترب كما أريد مع توالي الأعمال واعتراض المطالب العاجلة التي لاتحتمل التأجيل. وأحب الموضوعات عندي تلقى مني هذا التأجيل بعد التأجيل لأن توفية الكلام فيها تستغرق الوقت الطويل وتستلزم الإحاطة بجميع الأطراف ، ولا يتم اجمال القول فيها — فضلا عن التفصيل — فيما دون المئات من الصفحات . وقد تأخرت من أجل هذا كتابتي عن الغزالي، وهو أحب المفكرين الإسلاميين إليّ وأقدرهم تفكيراً على الاطلاق ، ولم يتيسر لي

أن أكتب عن خليفته الشيخ « محمد عبده » إلا بعد أن أجمعت على اطراح التردد في أمره وأقنعت نفسي بثلاثمائة صفحة تكتب في ترجمته حيث كان ألف صفحة دون الكفاية عندي لمثل هذا الموضوع .

ان الاقتراح يعمل في تأليف الكتب أحياناً عمل الاقتراح في تأليف المقالة الصحفية . وقد ألفت كتبي عن « سن ياتسن » و« شكسبير » و« برنارد شو » و « فرنكلين » و « عقائد المفكرين » وغيرها تلبية للمقترحات التي وافقت رغبتي كما وافقت زمانها في إبانها، ولكنها كلها — من التراجم وغير التراجم ومن الموضوعات التي أختارها أو أوافق على اختيارها — لا تخرج عن مقصد واحد لاهوادة فيه ولا يتجرد منه موضوع كتاب أو مقال: وهو احياء الثقة بالروح الالهي الخالد من لوثة المادة ومهانة الانكار العقيم، أو مهانة كل اعتقاد وخيم يغلب فيه عامل السلب والنفي على عامل الثبوت والايجاب ..

طريقتي في الكتابة

أما طريقتي في الكتابة، فإني أبدأ المقال وفي ذهني جميع أصوله و « نقطه » مرتبة على الجملة حسب التسلسل المنطقي، ولكني إذا مضيت في الكتابة عرضت لي حاشية من هنا ، أو لمحة من هناك، تطرأ في عرض الكلام ولا تغير شيئاً من جوهر المقال إلا أن تزيده جلاء في بعض الأحيان أوتضيف إليه عنصر الفكاهة والتبسيط .

وأكتب في كل مكان خلا من الضوضاء . أما إذا لم تقيدني الضرورة بمكان معين فأكثر ما أكتب وأنا مضطجع على الفراش وثلاثة أرباع مقالاتي السياسية كتبت كذلك. هذا في النثر أما الشعر فيغلب أن أنظمه وأنا أتمشى أو أسير في الخلاء .

ويهمني كثيراً أن أعود إلى كلامي قبل الطبع لأصححه وأراه في صورته

الأخيرة ، إلا أن يعوقني عن ذلك عائق .. ومتى نظرت فيه قبل تسليمه إلى المطبعة فقد أحذف وأزيد عليه ويندر جداً أن يمس الحذف أو الزيادة جوهر الموضوع ..

وإذا شطبت على الكلمة أثناء الكتابة عنيت بأن أطمسها طمساً تاماً كأني لا أريد أن تتراءى لنظري بعد ذاك ، ويكثر الشطب إذا كنت مشغول الذهن منحرف المزاج . ويقل إذا أقبلت على العمل بنفس راضية وجسم مستريح . أما زمان الكتابة فشرطي الوحيد فيه ألا يكون بعد تناول الطعام ..

* * *

وخطتي في المناقشة أن أعمد إلى أقوى الحجج بداءة فأجتهد في تقويضها ثم أقفوها بأضعف الحجج ، وقد أعود إلى ما فيه مساك من القوة . وربما كانت في هذه الخطة مفاجأة للقارىء ولكنها مفاجأة لا تخلو كما شاهدت بالتجربة من تأثيرها المحمود .

وأفضل الكتابة منفرداً لا يحيط بي أحد . ولم أكتب قط في الأدب خاصة ومعي آخر في الحجرة ، إلا أن أملي عليه ما أقول وهو جد نادر .

ولم أتعود أن أستعين بشيء من المنبهات التي يألفها بعض الكتاب أثناء العمل كالتدخين وشرب القهوة وما إليها ، حتى أيام كنت أدخن .. بل لقد كنت يومئذ أترك التدخين حين أشرع في الكتابة .

***

منهجي في تأليف الكتب

منهجي في التأليف يلخص في كلمتين ، هما : التقسيم والتنظيم ، وهما — كما سيرى — تختلفان بعض الاختلاف عن منهج التبويب والترتيب

فعملي الأول عند تأليف الكتاب أن أتبين في ذاكرتي أقسامه الواسعة التي تحيط بأجزائه المتفرقة ، فإذا فرغت من الإحاطة بها كتبت عنوان كل قسم على غلاف متوسط الحجم يتسع لعدة أغلفة أصغر منه إذا وضعت فيه ..

ثم أراجع في ذهني مصادر الأخبار والآراء والحوادث التي تتصل بهذه الأقسام .. وهي الكتب التي اطلعت عليها في المبحث المطلوب من جميع نواحيه، وقد أضيف إليها كتباً أخرى لم أطلع عليها ولكنها مشتركة في مدار البحث أو معدودة من موسوعاته عند النظر في الاستقصاء، والمقابلة بين الوجهات والآراء..

* * *

أذكر كيف ألفت — على سبيل التمثيل — كتابي في البحث عن العقيدة الإلهية ، وهو الكتاب الذي أطلقت عليه اسم « الله » ولاحظ بعض النقاد بعد صدوره ان الأحرى به من ناحية البحث العلمي أن يسمى « الاله » .. لأن اسم « الله » عنوان لعقيدة خاصة في « الإلهية » لا يدين بها جميع المؤمنين بالربوبية، وكان موضع الخطأ في هذا النقد أن مدار البحث هو « الله » الذي انتهى إليه

الإيمان « بالاله » ، وهما بحثان مختلفان .. لأن الوصول إلى فكرة « الاله » قد تم قبل ظهور العقيدة في « الله » بدهر طويل ..

ولا بد من تحقيق اسم الكتاب قبل الشروع في حصر أقسامه ، فلو كان موضوع الكتاب « الاله » كما اقترح أولئك النقاد لاكتفينا في تقسيمه بدرجات التقدم مع العقيدةالإلهية إلى أن ظهرت في التاريخ فكرةالربوبيةعلى اطلاقها، لأن « الرب » يطلق على كل « إله » بغير تعريف ، خلافا لاسم « الله » ، فانه هو « الاله » كما انتهت إليه غاية البحث في عقيدة الوحدانية .

* * *

أما والعقيدة المطلوبة هي العقيدة في « الله » فالأقسام التي يتناولها البحث هنا غير الأقسام التي يستوفيها البحث بمجرد الوصول إلى الاعتقاد بأي إله ، وأي رب معبود ..

وقد كان من أهم هذه الأقسام قسم عن نشأة العقيدة الدينية من مبدئها ، وقسم عن الاعتقاد بالأرباب على اطلاقها ، وقسم عن العقيدة الإلهية في أمم التاريخ الكبرى ، وقسم عن العقيدة الإلهية في الديانات الكتابية ، وقسم عن الاله في مذاهب الفلسفة قبل الديانات المشهورة ، وقسم عن مذاهب الفلسفة بعدها وعن مذاهب الفلسفة بعد شيوع العلوم العصرية التي أطلق عليها اسم العلوم التجريبية ، ثم ختام لهذه الأقسام بجمع أطرافها والتعقيب عليها ..

* * *

وكان ابتداء التأليف في هذا الكتاب صيفا بمدينة الاسكندرية، فنقلت إليها مكتبة صغيرة مما قرأته قبل ذلك، وطلبت من مكتبة المعارف — وهي ناشرة الكتاب — أن تستحضر أكثر من مائة مرجع من المؤلفات الأوربية، فلم يتيسر في ذلك الحين استيرادها ولم نجد فيفرع الاسكندرية غير نصفها وبعض الكتب المطلوبة باللغة الإنجليزية منقولة إلى اللغة الفرنسية، وبدأنا

المراجعة تصفحاً واستعراضاً لا نتوسع فيه إلا بمقدار ما يكفي للاستذكار والتعليق والعلم بما يلزم في كل قسم من هذه الأقسام وكادت أن تنقضي إجازة الصيف في هذا الاستذكار والتعليق.

فالعمل الأول على حسب هذا المنهج هو الإحاطة بأقسام الكتاب وتخصيص غلاف مستقل لكل قسم منها ، ويليه جمع المصادر اللازمة للرجوع إليها عند كتابة كل قسم من هذه الأقسام

ويأتي بعد ذلك عمل التصفح والمراجعة ، والغرض منه حصر المسائل المتفرقة وتوزيعها على أقسامها

* * *

فإذا مرت بي مسألة من تلك المسائل في المرجع الذي أتصفحه أثبت رقم الصفحة التي وردت فيها ، وعرفتها بعنوانها المختصر ، وألحقت بها اشارة تتضمن تعقيبي عليها بالموافقة أو الشك أو تعليق الرأي إلى موعده ، ولم تزد هذه الإشارات على علامة كعلامة « صح » في الكراسات المدرسية أو علامة كعلامة الاستفهام أو التعجب أو التضمين ، أفهم المقصود بها ساعة النظر إليها، وتغنيني عن كتابة التعليق بالكلمات.

وتكتب كل إشارة من هذه الإشارات على قصاصة صغيرة ثم توضع في الغلاف الخاص بها حسب أقسام الكتاب ، وإلى نهاية التصفح والمراجعة في المصادر المجموعة بين يدي ، فلا يبتدىء التأليف قبل الفراغ من حصر هذه المسائل المتفرقة في مواضعها وتيسير الرجوع إليها ساعة الحاجة ..

ثم تأتي بعد ما تقدم مرحلة تالية وهي مرحلة التصفية والتنظيم.

وفي هذه المرحلة يعاد النظر إلى قصاصات كل غلاف على حدة ، لإبقاء ما يظهر من مجموعة المسائل أنه جوهري ضروري لا غنى عنه لاستيفاء مقاصد الكتاب ، وتنحية ما يظهر على نقيض ذلك أنه زيادة يستغنى عنها، وتكرار

يدخل في خلال المقاصد الأخرى ويلحق بها على هذا الاعتبار . ولا يندر في هذه الحالة تغيير عناوين الأقسام وتفريع المسائل إلى أبواب في القسم الواحد، كل باب منها منفرد بجانب من جوانب البحث يستقل بعنوانه وحدوده.

وقد يرى هنا موضع الاختلاف اليسير بين منهج التقسيم والتنظيم ومنهج التبويب والترتيب ... فإن التبويب على منهجنا هذا ينطوي في التقسيم ولا يسبقه ، بل لا يتأتى التفريع قبل الفراغ من تقرير الأصول .

أما الترتيب فليس من أسرار الصناعة أن أقول انني لست ألتزمه في جميع الأحوال ، فموضوع البراهين القرآنية في الكتاب الذي نحن بصدده كان أول فصل كتب فيه ، وموضوع الفلسفة اليونانية جاء ، على ما أذكر ، بعده في ترتيب الكتابة .. ولست أغفل الترتيب لغير سبب يستدعيه تنظيم أوقات العمل. ولكنني أنظر إلى الوقت الميسور لكتابة الفصل وإلى الأيام التي أفرغ فيها للتأليف بين الأعمال الأخرى . فإذا كان أمامي ثلاثة أيام تركت الفصل الذي يحتاج إلى خمسة أيام أو عشرة أيام متوالية وفضلت الابتداء بالفصل الذي يكفيه الوقت الميسور بغير انقطاع أو تأجيل

* * *

وقد كان صديقنا المازني يقول إن أسلوبه الاستطرادي لا يمكنه من بناء الدور الثالث في المنزل قبل الدور الثاني ، على حسب تعبيره ...ولكنني أعتقد أن تشبيه المراحل هنا بمسافات الطريق أقرب إلى الواقع من تشبيهها بطبقات البناء ، لأن فصول الكتاب لا تقوم على اختلافها في العلو والارتفاع كما تقوم على اختلافها في الابتداء والانتهاء على خطوط الطريق ، ومتى عرفت مسافات السير من الميل الأول إلى الميل الألف فلا فرق بين الابتداء بالتمهيد من الميل الأول إلى العشرين والثلاثين وبين الابتداء به من الميل العشرين والثلاثين إلى ما بعد ذلك من المراحل والمسافات ..

وإنما المهم هو التحقق من حدود كل مسافة بالنسبة إلى سائر الحدود ،

وهذا هو العمل الواجب قبل الشروع في الكتابة من مبدئها، فلا بد من الاطلاع على عناصر الكتاب عنصراً عنصرا في كل مبحث قبل كتابة فصل من الفصول .

وليس لكتابة المقالات منهج يخالف هذا المنهج في تأليف الكتب ، سوى الخلاف الضروري بين الاطالة والإيجاز وبين التشعب ووحدة الموضوع ، فكل فكرة في المقالة حاضرة قبل أن تكتب كلمتها الأولى، ولكن أفكار المقال غير تعبيراته ، بل غير صبغته الفنية في أكثر الأحيان، لأن اشباع المعنى ساعة الكتابة قد يوحي بألفاظ العبارة التي تليها ، وقد يكون للعاطفة صلة بأسلوب التعبير عن المعنى فيشتد شعوري بها على قدر اشباعها وقوة أدائها، وربما تحول القلم من أسلوب الانفعال إلى أسلوب السخرية والتهكم، أو من أسلوب النقد إلى أسلوب التنديد والتفنيد ، إذا ارتفعت نغمة المعنى وارتفعت طبقته أثناء الأداء ، كما يحدث في أداء أصوات الغناء حيث تظهر آثار الفوارق العاطفية بين نغمة ونغمة ، وبين توقيع وتوقيع مع وحدة النوطة الموسيقية . ويحدث هذا في فصول الكتب كما يحدث في المقالات المنفصلة ، فربما كتبت الفصل وعيناي مغرورقتان كما حدث في كتاب « أبي الشهداء » ، وربما كتبت المقال وفي نفسي مغالبة عنيفة للبكاء كما حدث في مقالات الرثاء للمازني والنقراشي وغاندي وسعد زغلول .

* * *

ولم أعالج كتابة القصة في غير قصة واحدة مطولة هي قصة « سارة »، وقصص قلائل من الحكايات أو الأماثيل القصار .

ورأيي في منهج القصة أن إبلاغ مؤثراتها النفسية إلى وجدان القارىء هو كل ما يطلب من كاتبها بغير قيد مرسوم ولا اتباع لمذهب مدرسة خاصة أو فنان معلوم .

وقد قيل غير مرة أن « سارة » لا تجري على منهج القصة المتبع ، ولم يقل أصحاب هذا الرأي ما هو المنهج المتبع الذي يعنونه وما هو القانون الفني الذي

يفرض على كل كاتب ولا يسمح له بالتصرف فيه ..

وكل ما هنالك أن الناقد يلقي بهذا الرأي وهو يعرض في ذهنه أساليب قصص مختلفة ويريد مني أن أوافقها جميعاً في أسلوب قصة واحدة ، وينسى أنني لا بد أن أخالف أسلوب عشرات من القصص إذا وافقت واحدا منها . بل ينسى أنه لم يكلف نفسه تعريف موضوع القصة في « سارة » قبل مطالبة الكاتب بالمنهج الذي يمليه عليه .

فقصة « سارة » ليست قصة حياة همام بطل الرواية ، ولا قصة حياة سارة بطلتها ، ولا قصة حياة أحد من المذكورين أو المذكورات فيها ، ولكنها قصة العلاقة في فترة محدودة من الزمن بين فتى وفتاة ، فلا منهج لها غير المنهج الذي يصور البواعث الظاهرة والباطنة التي عملت في تعريضها للشك والإضطراب ، ثم انتهت بها إلى ختامها . ولم تبتدىء الرواية إلا حيث ينبغي أن تبدأ ، لأنها بدأت بموقف الفصل بين دواعي بطل الرواية وبطلتها إلى استئناف علاقتهما ودواعيهما إلى القطيعة والإنفصال ، ومن هنا ينبغي أن يبدأ تساؤل المطلع عن طبيعة تلك الصلة وطبيعة الدواعي التي ألحت عليها بدواعي التردد إلى خاتمة التردد على غير يقين ..

* * *

ولست أدعو كل قلم إلى اتباع هذا المنهج في وصف هذه العلاقة ، ولكنني أدعو من شاء أن يقترح لها منهجاً آخر يوافق النقاد والشعراء على انه أصلح من منهجها لابلاغ مؤثراتها النفسية إلى وجدانهم ، ولا أحسبهم موافقين ..

وبعد ، فما هو المقياس الذي يقاس به هذا المنهج وكل منهج سواه ؟

إنه هو ذلك المقياس المتفق عليه في خطوط المواصلات جميعا : وهو وقت السفر ومحطة الوصول ..

مَا لَم أكتب وَمَا أريد أن اكتبُ

إذا سألني القارىء ما الذي تريد أن تكتبه؟ وما الذي لم تكتبه عمدا أو لضرورة من ضرورات الوقت والحالة؟ فالجواب عن هذه الأسئلة قد يعرفه القارىء الذي يلم بعناوين كتبي وموضوعاتها ، لأنه يعرف منها ما يهمني وما أستطيع أن أكتب فيه ، ويعرف من ثم كيف يتم ما بدأته من تلك الموضوعات، وما الذي يحتاج منها إلى اتمام .

فالغالب على القراءة والكتابة عندي انهما تتصلان بمسائل شاملة يجمعها برنامج واضح يحيط بتفصيلاتها ، وكلها تدور على مسائل الوجود والعقيدة والعظمة الإنسانية والفنون ، وأكثر ما كتبت فيه من هذه المسائل يشير إلى أن بقيتها « تحت التأليف » .

كتبت عن وجود الخير الأكبر ، وهو الله خالق كل شيء ..

وكتبت عن وجود الشر الأكبر وهو ابليس أو الشيطان، رمز الفساد في كل شيء ..

لأن الكون هو الخلق الأعظم في مجموعته الواسعة الكاملة ، ولأن الإنسان هو أشرف المخلوقات التي نعلمها وأقربها إلى الوجود الإلهي، وقد يراه المتصوفة أكبر من الكون كله كما قال شاعرهم:

وتــزعم أنَّك جُــرْمٌ صغــ
يرٌ ، وفيك انطوَى العَالَمُ الأَكبر

لأنهم يرون أن وجود الكون بما رحب إنما هو وجود مادي مجرد من الروح والحياة ، وليس فيه من مظهر روحي حي أشرف من الإنسان .

في هذا الباب إذن أريد أن أؤلف كتاباً عن الكون وكتاباً عن الإنسان ، أشرح فيهما ما أفهمه وما أحسه من معنى وجود المادة ومعنى وجود الفكرة أو الضمير أو الروح .

وقد ألفت عن الأنبياء فكتبت « عبقرية محمد » و « عبقرية المسيح » و « أبي الأنبياء إبراهيم » .

بقيت « عبقرية موسى » الكليم ..

وبقيت معها « عبقرية بوذا » و « عبقرية كنفشيوس » .

ذلك اني تبينت من دراسة تاريخ النبوءات أن أنبياء الأديان الثلاثة الكبرى – وهي الموسوية والمسيحية والإسلام – قد ظهروا في الشرق الأوسط بين الأمم السامية ، وتفسيري لذلك أن النبوة لم تكن لتظهر في بلاد الدول المتسلطة ، لأنها تخضع في شرائعها وآدابها لقوانين السلطان وعرف الكهان ، ولم تكن لتظهر في الصحراء لأنها تخضع لقوانين النار والعصبية ، ولكنها تحتاج إلى بيئة تجمع بين أحوال الدولة وأحوال البادية ، وهي مدينة القوافل .

* * *

إن مدينة القوافل تعرف المعاملات العامة والمصالح المختلفة والشرائع التي تقوم على حقوق المتعاملين غير مقيدين بسياسة السلطان ولا بعصبية القرابة ، وفيها – أي في مدينة القافلة – تتعرض الأخلاق للفتنة والغواية لكثرة المتقلبين

على المدينة من المترحلين المتنقلين وكثرة طلاب الكسب والارتزاق حيث تروج التجارة وتروج دواعي اللهو والمتعة ..

ففي هذه البيئة تتهيأ الأحوال النفسية والاجتماعية لظهور هداة الأديان ودعاة الإصلاح والإنصاف من الرسل والأنبياء ، ولهذا ظهر إبراهيم في مدن القوافل بين « أور » في الفرات وبعلبك في سورية وبيت المقدس في فلسطين ، وظهر موسى في مدين وما حولها ، وظهر المسيح في الجليل ثم في بيت المقدس ، وظهر نبي الإسلام في مكة بعد أن ظهر أنبياء العرب حيث تقوم العلاقات وسطاً بين شريعة الدولة وشريعة البادية .

وموسى عليه السلام هو ثالث الرسل العظام من السلالة السامية ، بعد أبي الأنبياء إبراهيم .

أما « بوذا » و « كنفشيوس » فهما نوع آخر من أنواع الرسالة يقترب تارة إلى الشك وتارة إلى تعليم الأدب والسلوك ، وتفصيل البحث فيهما بقية لازمة بعد جلاء آيات النبوة في إبراهيم وبنيه عليهم السلام .

* * *

وقد تضاف هنا إضافة مناسبة ولكنها لا تخطر على البال لأول وهلة .. قد يقال : ان هذا شأن النبوة فيما مضى ، فكيف يكون الإصلاح الديني بيننا في العصر الحديث ولا موضع هنا للبعث ولا للرسالة ؟ ...

أقول انه – حيث لا ينتظر البعث أو الرسالة – تنتظر الهداية على سنة النبوة ، ولن تكون الهداية فيما أعتقد إلا بفضل « الشخصية الإنسانية » في صورة من صور الإلهام والتأثير بالقدرة المهيمنة على العقول والضمائر ..

كذلك كانت هداية جمال الدين ، وكذلك كانت من بعده هداية تلميذه محمد عبده ، وأحب ما أتمناه من موضوعات التأليف أن ألحق بعبقريات الإسلام كتابا عن عبقرية جمال الدين وكتاباً جامعاً يترجم لهما في نسق واحد ،

ويترجم معهما ببعض الإيجاز لمن عمل على نهجهما في ديار الإسلام.

وقد ألفت عن « ابن سينا » وعن « ابن رشد » ، وهما أكبر فلاسفة اللغة العربية في المشرق والمغرب.

وبقي كتاب عن « الغزالي » الفيلسوف الذي يصارع الفلاسفة ، والفقيه الذي يؤدب الفقهاء ، والمتصوف الذي يكشف عن عالم الخفاء ، كما يكشف عن عالم الشهادة.

* * *

وليس في المشرق والمغرب من هو أرجح فكراً وأصفى عقلا وأقوى « دماغا » من هذا الامام الجليل ، ولولا اتساع الأفق الذي تدفعنا إليه الكتابة عنه لبدأت بترجمته ونقده قبل « ابن سينا » و « ابن رشد » وغيرهما من حكماء المشرق والمغرب ، ولعله مانع وشيك أن يزول ، لأنه مانع يقتضينا واجبين معا ، إذا كان العمل السهل يقتضينا واجبا واحدا لا موانع فيه ..

ولقد كتبت عن شعراء كثيرين :

كتبت المؤلفات المستقلة عن « ابن الرومي » و « أبي نواس » و « عمر ابن أبي ربيعة » و « جميل بثينة » ، والفصول المتفرقة عن « المتنبي » و « أبي العلاء » و « دعبل » و « بشار » و « ابن زيدون » و « ابن حمديس » وغيرهم من المشارقة والمغاربة ، ولا يزال في المجال متسع للمطولات عن أدب « أبي الطيب » وأدب « أبي العلاء » على التخصيص.

وأريد أن أكتب ما يغني عن تفصيل الكتابة في الشاعرين الحكيمين وفيمن عداهما من شعراء الأدب الغنائي أو شعراء الرونق والجمال ، وأحسب أنني أستغني عن ذلك اضطرارا ، بكتاب يتناول موازين النقد في الشعر وفلسفة الجمال كما نطبقها على الفنون في صورتها التي تمتزج بالفكرة والعبارة النفسية على الإجمال ، وشواهد هذا البحث من كلام الشعراء والبلغاء دليل يرجع

إليه من شاء فيما تقوله فلسفة الجمال عن شعرائنا الحكماء وغير الحكماء ..

وقادة الفكر بين أمم الحضارة ، قديمها وحديثها ، كتبت عن بعض منهم ولم أكتب عن بعض ، وليس في الوسع ولا في النية أن أستقصيهم بقضهم وقضيضهم ، فليكن خلاصة ، أو عصارة لمذاهبهم وآراء المفكرين فيهم ، وبها تتأدى حصتي الصغيرة من أمانة تحملها الأرض والجبال ، والإنسان ! .. ثم ماذا بعد هذا ؟ ..

سيرة « سعد زغلول » ظهرت في زمن لا تظهر فيه حقائق الحكم والمحكومين ، فمن الخير أن تعاود وأن يزاد عليها ما لم يكن يزاد في عهـــد أحمد فؤاد ...

وإلى هنا أراني ذكرت حقا ما لم أكتب ، وذكرت طرفا أو أطرافا مما أريد أن أكتب ، ولكن « ما أريد » يصدق عليه قول القائل : « إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون »

وسأريد ما يكون ، وقد يكون ما لم أذكره وما لم أرده ، وعلمه عند الله ..

* * *

الفصل الرابع

عرفتُ نفسي

وهل يعرف الإنسان نفسه ؟ ..

كلا ، بغير تردد؛ فلو انه عرف نفسه لعرف كل شيء في الأرض والسماء وفي الجهر والخفاء ، ولم يُكتب ذلك لأحد من أبناء الفناء ..

إنما يعرف الإنسان نفسه بمعنى واحد وهو أن يعرف حدود نفسه حيث تلتقي بما حولها من الأحياء أو من الأشياء . والفرق عظيم بين معرفة النفس ومعرفة حدودها ، لأننا نستطيع أن نعرف حدود كل مكان ولكن لا يلزم من ذلك أن نعرف خباياه وخصائص أرضه وهوائه وتاريخ ماضيه ولو قسنا كل شبر في حدوده .

والأحرى أن يقال إن الإنسان يعرف الفواصل بينه وبين غيره ، فيعرف مداها ولا يتعداه ...

وقد عرفت انني أثق بنفسي وأعتمد عليها ولكني أعتقد انني وثقت بها من طريق النفي قبل وثوقي بها من طريق الثبوت ، فقد كنت في بادىء الأمر أحسب انني أنا المخطىء وحدي ، وان جميع الناس على صواب .. ! .

هناك اختلاف لا شك فيه فمن المخطىء ومن المصيب ؟ .. أنا المخطىء إذن لا جدال ..

كنت في طفولتي أحب مراقبة الطير والحيوان وكان فضاء بلدي — أسوان — يمتلىء في أوائل الشتاء وأوائل الصيف بأسراب الطير المهاجرة إلى افريقية الوسطى أو القافلة من الهجرة ، فاتفق انني تتبعت سرباً منها و هو يحط على الأرض ويرتفع عنها حتى ضللت الطريق في الصحراء ، وعدت إلى المنزل بعد هبوط الظلام .

فلما سئلت وأجبت كان جوابي أضحوكة الكبار والصغار وشاع بين أندادي في المدرسة فتندروا به وأكثروا من السخرية به والتعقيب اللاذع عليه !.

هم إذن على صواب .. وإلا فلماذا ضللت الطريق وحدي وراء ذلك السرب ، ولم يحفل به غيري من كبير أو صغير ؟ ! ..

وأقيم لقريب لي عرس في دار ريفية ذات فناء رحيب من تلك الأفنية التي تكثر في قرى الصعيد الأعلى . فاجتمع أهل القرية حول المشاعل الموقدة يصفقون ويهللون وانحرفت وحدي إلى الفناء المعزول ، فإذا الظلام الحالك قد أطلع في السماء كل كوكب يسري على ذلك المدار ، فجلست على الرمل أتملى هذا المنظر الساحر ، فريع أهلي إذ تفقدوني ولم يجدوني ، وكنت في نحو التاسعة من عمري ، فما أشعر إلا والمشاعل كلها قد تحولت إلى مكاني من الفناء ، وأصوات الدهشة تنبعث من جميع الأفواه ، حتى سئلت فأجبت ، فانتقلت الدهشة منهم إليّ . ودهشت أنا ، لأنهم راحوا يقهقهون ولم أدر لماذا يقهقهون ولولا أن اليقظة كانت ملء عيني لقالوا طفل حالم أو طفل مخبول ..

إذن نحن لا نتفاهم وخير لي أن أنطوي على جد نفسي وهزلها لأسلم من الضحك والسخرية إلى أن يغيرني الله ، فأهتدي كما اهتدى سائر خلق الله ...

واني لعلى هذا التوجس من البوح بما في نفسي ، وعلى هذا الشك الشديد

في جدها وهزلها ، إذا بي أقرأ ما كتب عن بعض الشعراء ومحبي الطبيعة وهم يعتزلون العالم ليمتعوا النظر بصورة من تلك الصور السماوية ، وإذا بي أقع على جزء قديم من « مجلة المقتطف » صدر في سنة ١٨٩٩ م وفيه مقال عن الطائر الطنان ويليه مقال عن مناقير الطيور ، وأقرأ في كليهما أن مراقبة الطير شغل شاغل لبعض العلماء والرحالين ، وان حركة الطائر وهو يتقدم ويتأخر أو يأكل ويشرب أو يغني ويلعب ، مسألة ذات خطر وليست سخرية لمن سخر ..

أكذاك هو ؟ ..

إذن يبسط أبو حنيفة رجله ، ولا مبالاة ..!

وكان أبو حنيفة كما قيل يبسط رجله في حلقة الدرس لأنه لم يكن يستطيع أن يثنيها من مرض أو من اعياء . فأقبل على درسه ذات يوم شيخ غزير اللحية وقور المشية هابه أبو حنيفة فثنى رجله على ألم ثم أخذ في درسه عن موعد صلاة الصبح ، فإذا بالشيخ يسأل : « وما العمل إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ » قال أبو حنيفة : « العمل أن أبا حنيفة يبسط رجله ويحمد الله » !

وقد بسطت رجلي وحمدت الله من ذلك الحين ، وعلمت أن خطأ الكثيرين جائز وان سخريتهم لا تضير ، فلم أحفل بتلك السخرية ، ولعلي بالغت في قلة الاحتفال بها « وأخذت راحتي » جداً في بسط رجلي حيث أشاء ..

* * *

لقد علمتني تجارب الحياة أن الناس تغيظهم المزايا التي ننفرد بها ولا تغيظهم النقائص التي تعيبنا ، وأنهم يكرهون منك ما يصغرهم لا ما يصغرك ، وقد يرضيهم النقص الذي فيك ، لأنه يكبرهم في رأي أنفسهم ، ولكنهم يسخطون على مزاياك لأنها تصغرهم أو تغطي على مزاياهم .. فبعض الذم على هذا خير من بعض الثناء لا بل الذم من هذا القبيل أخلص من كل ثناء لأن الثناء قد يخالطه الرياء . أما هذا الذم فهو ثناء يقتحم الرياء .

وود أبو حنيفة لو يصل رجله برجل أخرى ليبسطها كل البسط في وجه كل مذمة من هذا الطراز .

وعرفت أن الذين أسخطهم لا يرضيهم عني شيء ، وأن الذين أرضيهم لا يسخطهم عليّ شيء فلا فائدة إذن من اتقاء السخط ولا من اجتلاب الرضى ، لأن الذين يسخطون عليّ يرجعون إلى خلائقهم التي لا تتغير ، والذين يرضون عني يعرفونني من عملي الذي يرتضونه ، ولا يريدون مني شيئا سواه .

وأعجب ما عرفته من أمر نفسي أنني أسيء الظن بالناس لأنني أحسن الظن بهم ...

فأول ما يخطر لي على بال أن أتهم من يقترف عملا من الأعمال المنكرة بسوء النية وتعمد الاساءة . لأنني لا أحسب أن إنسانا عاقلا يقع في خطأ جسيم عفوا أو جهلا بالفرق بين الحسن والقبيح ..

فإذا ظلمته فقد يشفع لي أنني أظلمه في سبيل الإنصاف .. !

* * *

وعرفت أنني من أعجز الناس عن رفع حاجز واحد يقام بيني وبين إنسان ولا سيما حاجز الكلفة والاعراض ، فإذا تلقاني إنسان بمثل هذا الحاجز فلا اقتراب بيني وبينه أبد الدهر ، وليس أشق على نفسي من تلك الزلفى التي يزدلف بها بعضهم لكسب صداقة أو تمكين علاقة .. فإن زال الحاجز وحده فهنالك يمتزج العقل بالعقل والنفس بالنفس طواعية وعفوا كأننا في عشرة حميمة منذ سنين .

وعرفت أنني أكره الهزيمة في كل مجال ، ولكن يشهد الله أنني أعاف النصر إذا رأيت أمامي ذل المنهزم وانكسار المستسلم ، ولولا ان هزيمتي أبغض إليّ من هزيمة خصمي لأبغضت النصر الذي يفضي لا محالة إلى انهزام واستسلام..

وأعرف أن العادة قوية السلطان على سليقتي وخلقي ولا تعصمني منها إلا

الثورة النفسية ، وأشدها ما كان ثورة للكرامة أو الحقيقة كما أومن بها . . فكل بناء تبنيه السعادة ينهار فيما بين ليل ونهار إذا ثارت النفس لحقيقة محجوبة أو كرامة مغلوبة ، وقلما تكون للإرادة يد في الحالتين

وأعرف أنني أعامل الناس والأشياء كأنهم معان مجردة في الضمير ،لا كأنهم شخوص ومحسوسات .. فعشرة ملايين جنيه — مثلا — معناها عندي المتعة أو الترف أو السطوة أو الجاه . وطلبي لها يتوقف على حاجتي إلى تلك المعاني لا على حسابها بلغة الأرقام والمصارف والقصور والضياع ..

وأكره الظلم حين أكره الظالم والشر حين أكره الشرير ، والخبث حين أكره الخبيث ...

ولهذا يفوتني أحياناً أن أفرق بين كراهة المبدأ ، وصاحب المبدأ ، ولا يسيغ طبعي ما يقال عن التفرقة بين العمل وعامله ، لأن العمل لا يكون خبيثا وعامله من الأطهار .

وعرفت كثيراً من أمثال هذه الحدود ، ولكنني لم أعرف كثيراً ولا قليلا مما تحيط به تلك الحدود .. فعرفت ان إلفيلسوف سقراط كان يستعير لغة الكهانة حقاً حين قال : « اعرف نفسك » .

لأنه كان كمن يطالبنا بمعرفة الغيب أو معرفة المجهول وكلاهما من صناعة الكهان ! ...

* * *

عرفت طريقي للنّجاح

يعرف المعنيون بطبائع الطيور المهاجرة انها قد تضلل عمدا — أو على غير عمد — عن طريقها فتضل عنه مرة أو مرتين أو ثلاث مرات على الأكثر ، ولا يلبث الطير المهاجر أن يتجه إلى وجهته ويستقيم عليها إلى أقصاها.

يصدق هذا على النفس البشرية وهي تلتمس طريقها السوي في أوائل حياتها كما يصدق على الطيور المهاجرة ، فتضل الطريق مرة أو مرات ، ثم لا تلبث أن تعتدل على نهج تتحراه إلى أقصاه .

وهذا الذي حدث لي في أوائل صباي بين المناهج المختلفة التي اعتقدت أنني مهيأ للمسير عليها بالفطرة وهداية الظروف ..

* * *

خطر لي في مبدأ الأمر أنني مهيأ لحياة الجندية وأنني أبلغ أمنيتي من الحياة إذا بلغت مرتبة القيادة في جيش مصر وطردت جيش الاحتلال ، وبين زملائي في الدراسة من يذكر هذه الأمنية أو هذه الطليعة ، ومنهم الأستاذ سيد جودت المهندس الكبير ، واللواء محمود عسكر الذي اتجه دوني إلى الحياة العسكرية وترقى فيها إلى غاية الدرجات التي يرتقي إليها الضابط المصري قبل سن الإحالة إلى المعاش .

ثم خطر لي أنني خلقت لدراسة علوم الزراعة والحيوان ، فاقترحت على

والدي أن أتمم الدراسة في كلية الزراعة العليا بدلا من التوظف بدواوين الحكومة.

ثم علمت يقينا أنني خلقت للأدب ولم أخلق لغيره ، وأن التفاتي إلى الجندية والزراعة إنما كان التفاتا للأدب من طريق آخر : طريق الانشاد الحماسي قبل المبارزة ، وطريق الشغف بالأزهار وعامة الأحياء.

كانت أسوان ميداناً لمختلف الجنود المصريين والسودانيين والإنجليز أيام حرب الدراويش ، وكنا في المدرسة نؤلف الجيوش ونتقاتل في الوقت المخصص للرياضة ، وكنا نبدأ القتال بانشاد الشعر الحماسي على سنة الفرسان الأقدمين كما قرأنا عنهم في كتب الملاحم والغزوات.

وشاقني أن أنظم الشعر لأنشده في هذه المواقف ، فكان هذا في الواقع موطن هواي للجندية التي اعتقدت أنني خلقت لها وللتقدم في صفوفها إلى مرتبة القيادة.

أما دراسة الزراعة فالذي حولني إليها شغفي بأزهار الحديقة المدرسية وسائر الحدائق المحيطة بالمدينة الخالدة : مدينة أسوان.

وقد حولني إليها كذلك أن أسوان كانت معبر الطيور المهاجرة في أوائل الشتاء وأوائل الصيف ، فلم تزل تلفتني هذه الظاهرة وتلفتني الظواهر الأخرى من قبيلها في طبائع الحيوان حتى ظننت أنني خلقت للزراعة ثم علمت الحقيقة من هداية وجداني ، فأيقنت أن الولع بالشجر والطير إنما هو ولع بالوصف والتعاطف مع الحياة في شتى ظواهرها ، فهو تمهيد للأدب وللهيام بالطبيعة كما يهيم بها الشعراء ..

* * *

ولي أن أقول من باب المجاز القريب إلى الحقيقة ان حياتي الأدبية لم تخل من نضال الجندية ولا من الغرس وتعهد الغراس الفكري من الجذور إلى الثمرات..

فإذا سئلت : هل نجحت ؟ وجب أن أبين في البداءة ماذا قصدت ، ووجب أن يكون الجواب على وفاق المقصد المطلوب .

نجحت لأنني قصدت إلى العمل بالقلم ووصلت في هذا العمل إلى نتيجة يحمدها الأديب العربي لنفسه ويحمدها له قراؤه ، ولا محل للدعوى والإنكار في هذا التقدير ، فانه مما يقدر بأرقام الحساب ولا يكتفى فيه بتقدير الآراء .

ولا أحسب أنني اعتمدت على المعجزات أو الغرائب في توفير أسباب هذا النجاح ، ولكنني أحسب أنها أسباب طبيعية معروضة للعاملين في كل صناعة ، يلتفتون إليها باستعدادهم لها ، ويعينهم على الالتفات إليها نصح الناصح وهداية الدليل .

* * *

أول هذه الأسباب الرغبة الصادقة في النجاح ، فإنني لا أخال أحدا ينجح في عمل لا يرغب في نجاحه .

ويلي هذا السبب الأول أن يعنى العامل بعمله لذاته ، لا للنتيجة التي يترقبها من ورائه ، سواء كانت ربحاً من المادة أو شهرة على الألسنة أو وجاهة في المجتمع أو التاريخ .

وأقرر هذه الفكرة تقريراً آخر حين أقول : ان الذي خلق للأدب لا يتحول عنه إلى منهج آخر من مناهج العمل لأن هذا المنهج يعطيه الربح والشهرة والوجاهة حيث يفقدها أو يتعذر عليه بلوغها في منهج الأدب .. ولعلي لا أخطىء التشبيه إذا قلت ان مثل الأديب في هذا كمثل الأب الذي يُعرض عليه أن يختار ولداً غير ولده يطيعه ويسره بالفلاح والتقدم حيث يخيب ولده ويعصيه ، فانه لن يقبل هذا العرض مع يقينه برجحان الولد الناجح المطيع من غير ذريته على ولده المخفق المصر على العصيان ..

وسبب لا يقل عن الرغبة الصادقة والعمل للعمل لا للنتيجة المترقبة منه —

وهو الثقة بالنفس والاستخفاف بالعقبات وبانكار المنكرين عن جهل أو حسد أو تباين في الرأي والخليقة .

* * *

ولو أنني سئلت أن أرتب أسباب النجاح بالنسبة إليّ لبدأت بهذا السبب وأخرت بعده جميع الأسباب .

ولو أنني سئلت عن الفضل فيه هل هو للقدرة والتعليم والظروف أو هو للسليقة المطبوعة لقسمت هذا الفضل بينها قسمين متعادلين ، وزدت قسم السليقة المطبوعة بعض الزيادة في معظم الأحوال .

* * *

وبحمد الله أقول اني نجحت فيما قصدت إليه ، وأنتهي بذلك إلى عبرة هذا النجاح ، فألخصه في عوامله الغالبة التي لا يخلو منها نجاح في صناعة من الصناعات ، وتلك هي الاهتداء إلى استعداد الفطرة ، ثم صدق الرغبة في تحقيق ذلك الاستعداد وصرف الجهد إلى العمل دون النتيجة المرتقبة منه ، وتعزيز الثقة بالنفس أمام الموانع والعقبات .

ومن الحق أن أتبع هذا بالتفرقة بين النجاح وبين تحقيق كل ما يراد وكل ما يرجوه المرء من نفسه ويرجوه عنه الناس ...

فما من أحد يحقق كل ما يريد وكل ما يراد منه ، وإن كان أنجح الناجحين ، وإنما يقاس النجاح بما استطيع فعلا وبما يستطاع حقاً لو اتسع الوقت وأسعدت الظروف .

* * *

تعلمتُ مِن أوقاتِ الفراغ

اوقات العمل تملكنا ..

ولكننا نحن الذين نملك أوقات الفراغ ونتصرف فيها كما نريد ، فهي من أجل هذا ميزان قدرتنا على التصرف وميزان معرفتنا بقيمة الوقت كله ، وليست قيمة الوقت إلا قيمة الحياة ..

فالذي يعرف قيمة وقته يعرف قيمة حياته ، ويستحق أن يحيا وأن يملك هذه الثروة التي لا تساويها ثروة الذهب ، لأن مالك وقته يملك كل شيء ويصبح في حياته سيد الأحرار.

إن أفرغ الناس هو الذي لا يستطيع أن يملأ ساعات فراغه ، وعندنا في الشرق كثيرون ، بل كثيرون جداً ، من هؤلاء الفارغين :

على القهوات وعلى أفاريز الطرقات ، في الصباح وفي المساء ، خلال أيام الصيف وخلال أيام الشتاء ..

في كل وقت وكل موسم و كل مكان ألوف من الشبان الأقوياء والرجال الناضجين يقضون ساعات الفراغ في لعب النرد والورق أو في تعاطي الراح والدخان ، أو في مراقبة الغادين والغاديات والرائحين والرائحات .

ليس هذا وقتا فارغا لأنهم مشغولون فيه ، وليس هذا وقتا مملوءاً لأنهم يملأونه بما هو أفرغ من الفراغ .

هذا ليس بوقت على الإطلاق ..

هذا عدم خارج من الزمان ، خارج من الحياة !

وليس معنى « وقت الفراغ » أنه الوقت الذي نستغني عنه ونبدده ونرمي به مع الهباء ، ولكن وقت الفراغ هو الوقت الذي بقي لنا لنملكه ونملك أنفسنا فيه ، بعد أن قضينا وقت العمل مملوكين مسخرين لما نزاوله من شواغل العيش وتكاليف الضرورة .

قرأت مرة في تاريخ أمريكا الشمالية أن الإنجليز والفرنسيين تسابقوا على استعمار « كندا » فنجح الإنجليز حيث أخفق الفر نسيون .. لماذا ؟

زعموا في تعليل ذلك — وأصابوا — أن استعمار القفار من الأرض البور يحتاج إلى قضاء الأوقات الطوال في عزلة عن المدن الحافلة ، وأن الإنجليز نجحوا في استعمار تلك الأرض لأنهم يستطيعون أن يقضوا أوقات الفراغ منفردين منعزلين ، وأن الفرنسي لا يطيق العزلة ولا يحتمل أن يفرغ لنفسه ولا يزال في شوق إلى المدينة لقضاء السهرات والأصائل بين الناس في الأندية والمجتمعات ، فترك ميدان الخلاء لمن هم قادرون عليه ..

* * *

ويصدق علينا في الشرق ما يصدق على الفرنسيين ، فإن الإنسان منا لا يستطيع أن يجد في نفسه ما يشغله ساعة فراغ ، ولا يحس بفراغ من الوقت حتى يلوذ بالطرقات والقهوات ، ولا يهتدي بعد البحث الطويل في أعماق ضميره وأطواء دماغه إلى شيء يملأ به ذلك الفراغ .

إن كان قصارى ما أصاب الفرنسيين من هذه الخصلة أنهم أخفقوا في استعمار « كندا ».. فالأمر معنا أخطر وأعظم ، فلعلنا لم نذهب فريسة الاستعمار إلا لأننا فارغون ، وأننا لا نجد في نفوسنا ما ننطوي عليه !

قيل عن أهل اسبرطة انهم كانوا ينبذون الطفل الضعيف في العراء ، وانهم كانوا يمتحنون قوة الأطفال بوضعهم في إناء مملوء بالنبيذ ، فمن بقي منهم

مفيقاً بعد هذه التجربة أبقوه واستحق عندهم عناء التربية ، ومن ظهر عليه التخدر والسبات أهملوه ونبذوه ..

ولو أنني أردت امتحان الأقوياء من الرجال لما تركتهم فترة في آنية النبيذ بل تركتهم فترات في مكان مغلق يقضون فيه ساعات فراغهم ، فمن صبر على هذه الساعات فهو رجل ملآن بقوة الفكر وقوة الخلق وقوة الاحتمال ، ومن لم يصبر عليها فهو الفارغ الذي لا خير فيه.

* * *

ماذا نتعلم من ساعات الفراغ ؟

نتعلم منها كل شيء ، ولا نتعلم شيئاً من الحوادث أو الكتب أو الأعمال إلا احتجنا بعده أن نتعلمه مرة أخرى في وقت فراغ ..

فالمعارف التي نجمعها من التجارب والكتب محصول نفيس ، ولكنه محصول لا يفيدنا ما لم نغربله ونوزعه على مواضعه من خزائن العقل والضمير ..

ولن تتيسر لنا هذه الغربلة وهذا التوزيع في غير أوقات الفراغ ..

إن معارف التجربة والاطلاع زرع في حقله ينتظر الحصاد والجمع والتخزين ، ولا فائدة للحرث والسقي والرعاية ما لم تأت بعد ذلك ساعة التخزين ..

وهي ساعة الفراغ ..

ساعة هي ألزم لنا من ساعات العمل ، لأن العمل كله موقوف عليها في النهاية ، فلا ثمرة لأعمال الحياة بغير فراغ الحياة.

ولولا أننا نخشى أن يقدس الناس الفراغ لقلنا ان تاريخ الإنسانية من أوله إلى عهده الحاضر مدين لساعات الفراغ.

لقد عرف التاريخ الإنساني أقواماً فارغين جنوا عليه بفراغهم أشنع

الجنايات ودفعوا به إلى الحرب تارة وإلى الفتنة تارة أخرى لأنهم وجدوا أمامهم متسعاً من الفراغ يعيشون فيه .

ولكننا – حتى مع هذا – لا نستغني عن ثمرات ذلك الفراغ جميعاً دون أن نجازف بالجانب الصالح النافع من تاريخ الإنسان .

* * *

ماذا يبقى من تاريخ الإنسانية لولا الفارغون الذين اتسعت أوقاتهم للبذخ والترف بين الحلي والحلل في ظلال القصور ؟

من كان يجوب الأرض ويمخر عباب البحر ليجلب الحرير والبهار والحجر النفيس والحجر الذي تبنى به الصروح ؟

من كان يتعلم الملاحة ؟ من كان يتعلم صناعة السفن ؟ من كان يتعلم النسيج ؟ من كان يستخرج اللآلىء أو يبحث عن شذور الذهب والفضة ؟ من كان يرسل القوافل ويحذق فنون التجارة ؟ من كان يرصد النجوم ويدرس حركة الأفلاك في السماء ؟

من كان يعرف هذه الأعمال التي يعيش عليها الملايين لولا ذلك الفراغ الذي تقدم به الزمن في تواريخ الأمم ؟

لقد كان فراغاً ذميماً في أكثر نواحيه ، ولكنه على مذمته قد أفادنا درسا خالدا لا يصح أن ننساه . ذلك الدرس الخالد هو حاجة الناس جميعاً إلى أوقات الفراغ ، فهي شيء لا غنى عنه في حياة أمة ولا في حياة أحد ..

وحبذا قضاء الفراغ كله فيما هو خير . ولكننا إذا خيرنا بين الفراغ بخيره وشره وبين ضياع الفراغ كله لاخترنا أهون الشرين .

إن العقلاء من أصحاب الأعمال يطلبون اليوم متسعا من الفراغ لعمالهم بعد أن كان طلب الفراغ مقصوراً على العمال .

فالعامل الذي يتسع وقته للرياضة ينشط لعمله بعد عودته إليه ..

والعامل الذي ينفق بعض الوقت ينفق بعض المال فتدور الحركة ــ حركة البيع والشراء في الأسواق .

حسبة من حساب الحرص لا من حساب الاسراف ، وحسبة يرضى عنها علم الاقتصاد ولا يغضب عليها علم الأخلاق .

والإقتصاد الأعظم بعد هذا وذاك هو الذي تعلمناه ونتعلمه من تاريخ الإنسانية من أوله إلى عهده الحاضر.

لا بد من فراغ ! ...

ولا بد من فراغ نحفظه !

والفراغ الذي نحفظه هو الذي يحفظنا ، لأننا نستخلص فيه خير ما ندخره من غربلة التجارب والمعارف والعظات .

* * *

أحْرَج ساعة في حياتي

إنها كانت ساعة من ساعات كارتر البوليس السري المشهور ذلك أني كنت مدة الحرب العالمية الأولى « ناظر المدرسة الإسلامية بأسوان » وكان عندنا إذ ذاك مدير متأله طالما كابد الأهالي من غطرسته شرا .وصادف أن وقعت حادثة القاء القنبلة على السلطان حسين كامل فنجا منها واحتفلت البلاد بنجاته ، وكان حقا علينا أن تحتفل مدرستنا بهذه المناسبة . فلما أعددت العدة لهذا الاحتفال دعوت سعادة المدير لحضوره ولكنه لم يقبل ، فاحتججت عليه في ذلك فكان جوابه أن طوق المدرسة بخيله ورجاله ، فرفعت عنه تقريراً إلى السلطان حسين .. فلما وصل عظمته استدعى المدير إلى القاهرة وأطلعه على شكواي . ويظهر انه أنبه تأنيباً شديداً ، إذ ما عاد المدير حتى استدعاني .. فلما حضرت إلى مكتبه جلست على أحد المقاعد التي فيه ، فما كان منه إلا أن انتفض قائلا : « قف أمامي يا أفندي » فلم أملك أمام تلك الفظاظة إلا أن أقول له : « ولأي شيء هذه الكراسي المرصوصة التي اشترتها الحكومة للجلوس في هذا المكتب ؟ » فبهت الرجل من هذه الإجابة . . ولكنني تركته وانصرفت ، فتهيج الرجل وأمر أعوانه باللحاق بي . فلما رجعت إليه جعل يهددني بالنفي إلى « مالطة » وأنا أعلم أن النفي إلى « مالطة » إذ ذاك معناه الإعدام لأن صحتي كانت لا تسمح لي بتحمله ، ولكني لم أعبأ بذلك وقلت له : « افعل ما تريد » وانصرفت ..

وكان مفتش الداخلية إذ ذاك في أسوان ، وكنت في هذه المدة تحت المراقبة .. وكان يلازمني عسكري بوليس أينما ذهبت نهارا ، فإذا جاء الليل وقف على باب داري غفير إلى الصباح ، وهكذا دواليك .. فما أن وقعت تلك الحادثة بيني وبين المدير حتى أخذ يشدد عليّ المراقبة ، وكتب خطاباً إلى رئيس جمعية المدرسة بفصلي ، ثم جعل يرسل التقارير ضدي إلى الداخلية ، ويزعم أني أقوم بتهييج الأهالي . واستقر رأيه هو ومفتش الداخلية على نفيي إلى « مالطة » ولكن قبل أن أنتظر موافقة الداخلية دبرت طريقة للخروج من أسوان . ففي ذات يوم وضعت « عفشي » في قفة من قفف الطحين وغطيته بطبقة من القمح ، وأرسلت القفة إلى بيت أحد أقاربي بالبلدة ، وهناك وضعوا « العفش » في « شنطة » وأخذها أحدهم إلى المحطة الثانية التي تلي أسوان . وفي اليوم الثاني كلفت صديقاً لي بأن يقطع تذكرة من محطة أسوان إلى الأقصر..

بقي أمر خروجي أنا من المنزل مع هذه المراقبة الشديدة التي تستمر صباحاً ومساء ... فلم أجد وسيلة إلا تكليف أحد أقاربي بإحداث « شكلة » مع أحد المارة بقصد إبعاد الغفير عن البيت — وقد كان — وفي أثناء اشتغال الغفير بالمتنازعين خرجت ورفيق لي إلى ظاهر البلدة حيث كنا أعددنا الحمير للركوب في المساء .. فما أن ركبنا حتى حثثنا السير إلى المحطة الثانية . فلما وصلنا إليها وجدنا حامل التذكرة المذكورة ، فأخذتها منه واعتليت القطار . ولسوء الحظ وجدت في المركبة التي دخلتها معاون بوليس أسوان مسافراً لكتابة محضر حريق في « كوم امبو » فأحرجت ، وكانت تلك الساعة ما بين محطة أسوان ومحطة كوم امبو هي أحرج ساعة في حياتي ، ولكنها مضت بخير ، ووصلت إلى القاهرة بعد أن انتقلت إلى قطارين آخرين بقصد التمويه على إدارة أسوان حتى لا ترسل من يلحق بي في الطريق . ولما حضرت إلى القاهرة أخذت أقابل ولاة الأمور في شأني . وبينما كنت أقابلهم للشكوى من المدير كان هو يكتب إليهم التقرير اثر التقرير ، ويزعم أني أقوم في ذلك الوقت بتحريض الناس وتهييجهم في أسوان مما أدى إلى افتضاح كذبه وإحالته على المعاش .

كُنتُ شَيْخًا في شَبَابي

كنت شيخاً في الشباب ، فلا عجب أن أكون شاباً في الشيخوخة . . قياس منطقي غير صحيح كما يظهر لأول وهلة ..

فإذا كانت الشيخوخة قد بكرت إلى الفتى في ابان شبابه ، فالمعقول أن يصبح شيخاً قبل الأوان ، وأن يأتي عليه السن وليست فيه بقية من الشباب ..

هذا هو المعقول ، ولكن لأول نظرة كما تقدم ..

أما بعد نظرة أو نظرات فالمعقول غير هذا على التحقيق .

المعقول بعد النظرة والتجربة أن الشباب المرح المندفع في شِرَّتِه وعنفوانه يبعثر قواه عاجلا ، ويستنفد رأس ماله سريعاً ، فيخطو إلى الشيخوخة خطوات واسعات كأنه يسير إليها بكل قوة الصبا والفتوة !

إن الشباب الذي يحس الشيخوخة قبل أوانها يتأنى ويتئد ، فلا يصل إلى شيخوخته في الأوان ..

وهذا هو المعقول في القياس .

وهذا هو المعقول لأنه هو الواقع الذي أعلمه من نفسي كيفما كان حكم القياس ...

نعم .. لقد كنت شيخاً في الشباب ، وأصح من هذا أن أقول : بل كنت شيخاً في الطفولة الأولى قبل أن أجاوز سبع سنوات .

ولا أطيل في وصف العوارض والبدوات التي تدل على أطوار الشيخوخة في تلك السن المبكرة ، فإن طوراً واحداً يغني عن عشرات الأطوار ، وحسبي أن أذكر أنني لم ألبس قط بنطلوناً قصيرا ، وأصررت كل الاصرار على رفضه مع فرحي بالملابس الجديدة المجهزة لدخول المدرسة مع زملائي وأقاربي ، وقد كنت من أصغر التلاميذ سناً في السنة الأولى الابتدائية ، وكانوا جميعاً بالبنطلونات القصيرة ما عداي ، فقد أصبح إيجاد البنطلون الطويل لمن كان في مثل سني مشكلة تجارية في المدينة الصغيرة ، لو لم يسعفني طول القامة الذي جعلني أطول من لداتي بنحو سنتين !

هذا المثل يغني عن أمثال ..

* * *

وأحسب أن هذا الشعور قد لازمني في كل مرحلة من مراحل حياتي ، وأحسبني أشير إليه حين قلت أخاطب الشيب وأنا في السادسة والعشرين :

دُونَ الثَّلاثين تَعْرُوني وَمَا انْصَرَمَتْ
إلَّا كَمَا تَنقَضِي الأَعوامُ في الحُلم !
قُل لابن تسعين لا تَحْزَن فَذَا رَجُلٌ
دُون الثلاثين قد سَاوَاك في الهَرم
اذا ادَّكَرْتَ شَبَاباً في النَعيم مَضى
لم يَدَّكِرْ مِنْ شَبَابٍ كَان أَوْ نِعَم
وما انتِفَاعي وقد شَابَ الفُؤادُ سُدًى
إن لَم تَشِب أبداً كفي ولا قَدَمي

وليسَ ما يَخْدَعُ الفِتْيَـــانَ يَخْدَعُني
كَلَّا ، ولا شِيَمُ الفِتْيَـــانِ مِنْ شِيَمي

وهو الصحيح ، فلم تكن شيم الفتيان قط من شيمي ، وأعني بها اللهو والغي والتمادي في طلب المتعة والسرور ، وهذا التحفظ الذي لم يفارقني فترة في حياتي هو « القصد » الطبيعي الذي حفظ لي ثروة الفتوة ، فجاوزت الستين وأنا أعمل عملي في العشرين وفي الثلاثين وفي الأربعين ، وقد أزيد عليه ..

وهذا هو المقياس الصحيح لدوام قوة الشباب ، ولكنه مقياس واحد من عدة مقاييس ، يكثر ترددها في مثل هذا المقام.

فعندهم مقياس الشعور ، وأصحاب هذا المقياس يقولون ما معناه . عمرك شعورك .. أو أنك تبلغ العمر الذي تحس أنك بلغته ، فأنت في الثلاثين إن شعرت شعور ابن الثلاثين ، وأنت في الستين إن شعرت شعور ابن ستين ، وان كانت تذكرة ميلادك تقول انك لم تبلغ نصفها من السنين ..

وعندهم مقياس القلب والهوى ، وأصحاب هذا المقياس يقولون انك شاب إذا كانت الفتاة تسعدك وتشقيك ، وكهل إذا كانت تسعدك ولا تشقيك ، وشيخ إذا كانت لا تسعدك ولا تشقيك .

أي أنك شاب ما دمت تنخدع بالهوى ، وما دمت تطلبه ، فإن أصبحت لا تنخدع به ، ولا تطلبه ، فقد جاوزت الشباب وجاوزت الكهولة بعد الشباب.

وشاعرنا العربي على هذا المذهب حين قال :

يا عزّ هل لك في شيخٍ فَتى أَبَـــداً
وقـــد يكونُ شَبَابٌ غَيرُ فِتْيَـــانِ

وعندهم مقياس الهمة والطموح، وأصحاب هذا المقياس يحسبون المرء

شاباً ما دام له مطمع في المجد والعظمة ، فإن ونى وقنع فهو هرم الهمة وإن كان فتي الأيام ..

وعندهم من يقول ان الخمسين شباب الشيخوخة وشيخوخة الشباب ..

لكنها كلها مقاييس عامة لجميع الناس ، وإنما المقياس الخاص ما يقيسك بنوع عملك أو شغل نفسك الذي لازمك في كل الأعمار ، فإذا استطعت في الستين عمــلا كنت تقدر عليه وعمرك عشرون أو ثلاثون سنة ، فأنت في شيخوخة يمازجها الشباب ، مهما يقل أصحاب مقياس الشعور ، أو أصحاب مقياس القلب والهوى ، أو أصحاب مقياس الهمة والطموح ، أو أصحاب مقياس الخمسين ..

والمقياس الواحد الذي أقيس به جهدي في جميع أدوار حياتي هو النهم إلى المعرفة ، فإنني لا أذكر سنا لم أكن فيها أحب أن أعرف ، وأن أقرأ وأن أختبر ، وأن أفيد من كل ذلك توسعة في آفاق الشعور .

صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم تخيلني في بعض كتبه قد دخلت الجنة وذهبت أطوف في أرجائها عسى آن أرى واجهةمكتبـة أقف أمامهـا ، وأتأمل عناوين الكتب فيها ، فلما طال بي المطاف ولم أجد مكتبة ولا كتبا ضجرت منها وطفقت أقول : « ما هذا ؟ .. جنة بغير كتب ؟ .. »

وصديقنا الحكيم لم يبالغ في تخيله ، لأنني فعلا لا أستطيع أن أعيش في جنة لا أطلع فيها .. نعم لا أطلع فيها ، وليس من الضروري أن أقرأ في كتاب..

وأود أن ألفت القارىء إلى هذا الفارق المهم جداً في نظري بين القراءة والاطلاع ...

فقد يقرأ الإنسان ولا يطلع ، وقد يطلع ولا يقرأ ، فالقراءة هي إحدى وسائل الاطلاع ، وليست هي وسيلته الوحيدة ...

ولماذا لا نطلع في الجنة ؟ ..

يجب أن نطلع في الجنة قبل غيرها ، لأن المكان الذي تسكنه وتحب أن

تسكنه هو أحق الأمكنة أن تطلع عليه وتعرف كل ما قيل فيه ، وكل ما خطر بالبال عنه ، وكل ما خامر به النفوس غير نفسك من خوالج الغبطة والشوق والرغبة والاستطلاع .

يجب أن نطلع في الجنة لأن الساعة الحاضرة فيها لا تكفينا ، ومن حقها علينا أن نعرفها ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، وأن نحيط فيها بشعورنا وشعور الآخرين الذين اختبروها غير خبرتنا ، وشهدوا منها غير ما شهدناه ..

فان لم تكن لنا وسيلة إلى ذلك غير الكتاب فليكن الكتاب في الجنة ،ولا يعقل أن تنقص الجنة حيث تكمل المدن العامرة في هذه الدنيا .

ويقول قائل : أقراءة في الجنة ؟ .. إذن أنت سوسة كتب يا صاح ! ..

كلا أيها القائل ، وهذه غلطتك الكبرى . فان سوسة الكتب هو الذي يعيش في الكتب كما يعيش السوس ، وأما الذي يقرأ الكتاب ليوسع حياته في العالم ، فالكتاب عنده طريق إلى عالمه ، أو هو نظارة يكبر بها نظره ليضاعف رؤيته، فهو من صميم الحياة وليس بالصومعة التي تعزل ساكنها عن الحياة..

وأيا كان الرأي في طلب المعرفة فالواقع انها هي المقياس الذي أعرف به ما بقي لي من الشباب ، لأنها هي العمل الواحد الذي حصل بالأمس ويحصل اليوم وسيحصل غداً إلى أن يشاء الله .

* * *

وأحمد الله لم يتغير من ذلك شيء إلا قوة النظر على طول القراءة ، فليس في طاقتي اليوم أن أثابر على القراءة أكثر من ساعة واحدة ثم أستريح هنيهة قبل أن أعاودها ، وقد كانت تطول في ابان الشباب بضع ساعات متواصلات.

وأحمد الله مرة أخرى ، لأنه نقص يقابله عوض حسن ، فالساعة اليوم أبرك من ساعات ، مع المرانة على التحصيل وعلى الكتابة والتسجيل .

ولا أراني صنعت معجزة إذ احتفظت بهذا القسط من الشباب ، لأنه حظ يصيبه من شاء ، وأخال طريقتي في اصابته من أيسر الطرق للجميع ..

فلي وقت للعمل ، ولي وقت للرياضة ، ولي يوم كل أسبوع أكف فيه عن كل عمل وكل قراءة حتى مطالعة الصحف وفض رسائل البريد ، ولي مواعيد للطعام والنوم لا تختل في يوم ، ولي قاعدة عامة تشمل العمل والرياضة والطعام والجد واللهو والبطالة ، وهي التوسط بين الافراط والتفريط ..

وقبل ذلك كله كانت لي شيخوخة في مقتبل الشباب .

ولم يخل شبابي من الشيخوخة فمن الحق ألا تخلو شيخوختي من الشباب ..

* * *

الفصل الخامس

أصدقائي وأعدائي

لي بحمد الله أصدقاء ..

ولي كذلك أعداء بحمد الله ..

وأحمد الله على الأصدقاء حمد الغبطة والرضا والمسرة ..

وأحمد الله على الأعداء حمد الانعام بالبلوى ..

وقد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ..

ويبتلي الله بعض القوم بالنعم ..

كما قال أبو تمام ..

ومن الأعداء من تود لو تشتّريه بمالك وسعيك ، إذا أنت افتقدته فلم تجده من حولك ..

ومن حقك أن تشتّري بالمال والسعي عدواً يزينك بمخالفته إياك ، فانه لا يزينك بهذه المخالفة إلا إذا كان على خلق يعيبه ولا يشرف من يوافقه عليه ..

ومن حقك أن تشتّري العدو الذي لا يعاديك إلا حسداً على النعمة ، فليس أسوأ حالا من إنسان على حالة لا يحسد عليها ، وليس من الخير اتقاء حسده بخسارة نعمتك ..

ومن حقك أن تحرص على الأعداء الذين يقولون بعداوتهم لك انك تضر وتنفع ، فمن لا يضر ولا ينفع موجود لا يحس له وجود ، ولا ضير عليك أن يخال بعض الناس أنك تضره أكبر الضرر أو أصغره ، فإن من الناس لمن يكون ضرره عقوبة على الشر ، وأن منهم لمن يجهل ضرره ونفعه ، وان منهم لمن يبتليه الله بالضرر لصلاح أمره ، ومن يكون ضرره في نفسه كضرر عداوته لغيره .

فعلى عداوة هؤلاء جميعاً نحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، ولكنه مكروه يستزاد.

وعلى صداقة من يبقى لنا بعد عداوتهم فلنحمد الله ، حمداً لله ، ثم حمداً لله ..

وحمدا لله مرة بعد مرة ، لأنني لا أصادق أحدا ولا أعاديه في مأرب من مآرب النفس ولا في صغيرة من صغائر الضعف الذي يبتلى به كل إنسان ، فما عرفت صديقا فعرفت لصداقتي له سببا غير فكرة نشترك فيها أو مطلب من مطالب الأدب نتفق عليه ، أو غاية من الغايات العامة نسلك السبيل إليها ، أو طرفة من طرف الراحة الروحية تعم كل من يستريح إليها ، ولا تخصني أو تخصه بداع من دواعي الاثرة والمحاباة .

وكذلك أعدائي الكثير منهم والقليل ..

أعاديهم ، وأصح من ذلك أنهم هم يعادونني ، لأننا نتعادى على عقيدة أو خطة أو برنامج أو مصلحة من مصالح الناس ، ونحن من أولئك الناس.

وفي ذلك ألقى العجاب من عداوة النقيضين ، وضغينة العدوين المتعارضين.

لقد حاربت الطغيان وحاربت الفوضى ..

لقد حاربت رؤوس الأموال وحاربت مذاهب الهدم والبغضاء ..

لقد حاربت التبشير وحاربت التقليد الأعمى والدجل المريب باسم الدين ..

لقد حاربت الجمود والرجعية وحاربت الإنكار والجحود ..

لقد حاربت الأحزاب وحاربت الملوك ..

لقد حاربت هتلر، ونابليون، وحاربت المستعمرين في صفوف الديموقراطيين..

لقد حاربت أعداء الأدب المسمى بالقديم ، وحاربت أصدقاء الأدب المسمى بالجديد ...

لقد حاربت الصهيونية وحاربت النازية أكبر أعداء الصهيونية ...

لقد حاربت جميع هؤلاء فالتقى على محاربتي أناس من جميع هؤلاء :

صهيوني ، إلى جانب نازي ، إلى جانب فوضوي ، إلى جانب رجعي ، إلى جانب ملحد ، إلى جانب حامل اللحية والعذبة باسم الدين ، إلى جانب الماركسي من اليسار والمبشر من اليمين .

وفي معسكر الأعداء – كما يقال في لغة المعسكرات – يلتقي « المليونير » والمتشرد، ويلتقي المعجب بالخنساء والمعجب بساجان، ويلتقي الصوفي والخليع ، ومن ورائهم معسكر الشاردات من الجنس اللطيف ومعسكر الشاردين من الجنس المخشوشن الكثيف .

جيش جرار بحمد الله ..

نعم بحمد الله حقاً وصدقاً حمدين متواترين ..

حمداً لله « أولا » لأنه أرسل عليَّ هذه السيوف المشرعة من كل جانب ، ولكنه أسبغ عليَّ الدروع التي تتكسر عليها تلك السيوف ، فقال رب الجنود : أنت « قدهم وقدود » ..

وحمداً لله أولا وأخيراً لأنه خصني من بين هذا العموم بصداقة « الإنسان » حيث كان ، في جميع هذه الأشكال والألوان ..

فحيثما اختلفت هذه الجماعة وتلك الجماعة ، وحيثما افترقت الأسماء

والأزياء ، فالإنسان الذي يكمن في كل مكان وراء العناوين والجدران، يبسط يديه إليّ ، ويلتقي بصاحبه لديّ ، وينقلب على حزبه ولو كان مستخفياً في سرية ، فهم شيع وأحزاب من بعيد ، وهم معي في محراب « الإنسانية » الوحيد ، صديق رشيد إلى جانب صديق رشيد ..

ولا تنس من هذه الأشكال والألوان ، عباد الأصنام والأوثان ..

والأوثان هنا هي أوثان المظاهر والالقاب لا أوثان المذاهب والارباب..

ولقد نكب هذا البلد المسكين بداء الاستبداد القديم ، فوقر في أخلاد بنيه على توالي العصور أن قيم الناس مرهونة بتقدير الحاكم المطلق المتصرف في الأقدار والمقامات ، فلا قدر لإنسان بغير مظهر ، ولا مقام لأحد بغير لقب ، ولا جاه ولا حسب ولا علم ولا يقين بغير صيغة مرسومة في سجلات الدواوين..

وبلغ من عبادة الأوثان أن « الصوفية » خلقت في هذا البلد منذ قرون فما لبثت أن عاشت على المظاهر والألقاب ، وعلى الشيع والأحزاب ، بين عريف ووكيل ورئيس ، وبين منتسب إلى هذا الضريح ومنتسب إلى ذلك الهيكل أو تلك الزاوية أو ذلك الكنيس .. ! ومعهم كلهم ألوان من الشارات وأشتات من الرايات والفوانيس .. وانهم لكذلك وهم يتصوفون ويتقشفون ، أو هكذا يقولون لينبذوا مظاهر الدنيا وألقاب التعظيم والتقديس ..

وقبل أن تتحطم هذه الأوثان ، يظهر في هذا البلد مخلوق وأي مخلوق ، وقل إن شئت إنسان وأي إنسان ..

أديب مشهور ، وليس بليسانس ولا دكتور ..

وعضو في مجلس الأعيان ، وليس في حوزته نصف فدان ..

وليس ببيك ولا باشا ، ولكنه يقول للبيك والباشا : كلا وحاشا ! ..

وصاحب أعوان وأنصار ، وما هو بزعيم حزب ولا بصاحب عصبية ، ولا مصطبة ولا دوار ..

وفقير جد فقير ، ولكن ليس بهين ولا حقير ..

وصاحب قلم مسموع الصرير مرهوب النفير ، ولكن ليس بصاحب صحيفة ولا بمدير ، ولا برئيس تحرير ، ولا سكرتير تحرير ..

يا حفيظ ..

شيء يجنن ..

ويزيد المغيظين من هذا « المقتحم المتهجم » أن يهاجم « الأصلاء » فلا يبالي هجوماً عليه ، أو يباليه ولكنه بأصبع واحدة من احدى يديه ، يرده على عقبيه ..

يا حفيظ .. شيء يجنن .. شيء يغيظ !

ولقد أراحنا الله من هذه الأوثان في عالم الرتب والنياشين ، وبقي الطقم الأخير من أوثان الألقاب والمظاهر في عالم « العلم » المحجوز على ذمة المعاهد والدواوين ..

وكان خليقاً بهذا الوثن المتخلف أن يتحطم أو يتهشم أو يقبع في عقر داره بعيداً عن الأنظار والأسماع ، ولكنه — وهو الوثن « الحيلة » والبقية الباقية من القبيلة — قد ضوعفت حوله القناديل والقرابين ، وأوشك وحده أن يخلف أوثان الدنيا والدين ..

وأغيظ ما يكون عابد الوثن إذا كان للوثن صلاته وصيامه وكان حول الوثن طوافه وقيامه ، وكان كل حقه في سمعة العلم مرهوناً بلقبه ، وكل توهين لشأن هذا اللقب موهناً لحجته في دعواه ، وما من حجة له سواه ..

إن من أهل العلم من هو على موثق من فضله ، ومن هو في غنى عن قشور المظهر بلبابه ، فلا موضع لصغائر الدعوى في سبيل هذه النافلة عنده ، ولي صديق في كل إنسان وكل ذي أمانة من هؤلاء ، ولهم حق على الناس أراه

على سنة الإنصاف والوفاء ، ولكنني أدعو الله ألا يحرمني من عداوة مدع دخيل على حرم المعرفة وحرمتها : نكرانه للفضل على قدر شعوره بعرفان غيره ، وكفرانه بالحق على قدر صواب المحق لا على قدر خطئه ، فان الذي لا صواب له يكفي الحاقدين مؤونة النقمة عليه واللجاجة في مذمة عمله وبخس جهده واجتهاده ..

والحمد لله على عداوة هؤلاء ، ووقانا الله شر الرضا من هؤلاء ، وشر الصداقة والأصدقاء « الألداء » من هؤلاء وأشباه هؤلاء ..

ولست أحدث القارىء بجديد في أمر العداوة على المظهر والعنوان ، ولا في أمر الغيرة على الأصنام والأوثان ، وأقبحها أوثان المظاهر والعناوين في أمة شقيت طويلا بأرباب الطغيان ، قبل أرباب الأديان ..

ولكنني أود لو يعلمون كم يبلغ العابدون في محراب هذه الوثنية من أهلها ومن غير أهلها ، فانهم لكثيرون بل جد كثيرين .. !

فان بين المحرومين من كل مظهر لمن هو أخلص عبادة لهذا الوثن من أقرب المقربين إليه ، وأوفرهم حظا من نعمته ، لأنه ينقم عليك أن تساويه في مظهره ولا تساويه في هوانه ، وأن تعلو حيث يهبط وترتفع حيث ينحدر ، وتسلم لك الشهادة حيث تبطل عندك المكابرة واللجاجة ، فلا يقاربك بواقعه ولا بدعواه !

وخذ مثلا من هؤلاء العباد « المتطوعين » ، مخلوقا عرفته لا له في العلم ولا في دعواه ، ولا يخطر له يوماً أن يحسب في زمرة العلماء من حملة الألقاب ولا في زمرة العلماء العاطلين ، ولا العلماء المغمورين والمجهولين المنسيين ، بل لعله — وهو طرزي بلدي — لم يطمع إلى مزيد من الشهرة فوق مكانته بين أهل الصناعة ، ناجحين أو كاسدين ..

ولكنه كان أغيظ ما يغيظه أن ينهض الناس تحية لفاضل من فضلاء عصره

لم يكن من ذوي الألقاب والأحساب ، ولكنه كان موفور القدر في أعين ذويها ، وفي أعين الناس ممن يعبر بهم في طريق الطرزي ، من ميدان التوفيقية حيث يسكن ، إلى قهوة « الاسبلندد » حيث يلتقي بالاخوان والصحاب ، وأكثرهم من ذوي المراتب والمظاهر ، وكلهم يلقاه بذلك التوقير وذلك الترحاب .. !

وينفجر الطرزي غيظا وقد عبر الرجل الفاضل أمام دكانه ، وقد وقفت أتحدث إلى صديق لقيته في ذلك الدكان ، فكدت أحسبها ترة من ترات الدم بين ذلك الطرزي وذلك الفاضل الموقر بغير لقب ولا حسب ، ولا جاه ولا مال .. قلت له : أتعرفه ؟ ..

قال : لا والله ، ولكنني عرفت حاله — وهو « غلبان » في بيته وفي مأكله ومشربه وكسائه فعجبت : ما هذه النفخة في غير شيء ؟ .. وما هذا التوقير من هؤلاء المغفلين لإنسان لا يحسب من « الأفندية » ولا البكوات .. إلا بتقليد اللسان : « حتى مش بيه الا بالكدب » ..

ولقد عرفت الرجل فلا والله ما عرفت عليه سمة من سمات « النفخة » التي ادعاها عليه ، ولكنه كان لا يقبع في حاله — كما قال — وهو يعلم انه ليس من « الباشوات » ولا من أصحاب المناصب والأموال ..

وحول « الأوثان » ألوف من هؤلاء العباد « المتطوعين » ذهبت بهم دولة الرتب والنياشين ، ولكنهم حول الوثن الأخير لا يزالون راكعين ساجدين ، وفاء لعهد المذلة والعادة ، وإن فاتهم كل وفاء لكل علم ولكل دين ..

* * *

أصدقائي الأطفال

أزاهير الرياض بشائر الخير والجمال ، وترجمان الربيع بالألوان والعطور ، والناس يحبونها ولا يعجبون من حبها ، بل لعلهم يعجبون إذا قيل لهم ان هذا أو ذاك لا يحب الأزاهير ...

ولكنهم قد يحسبون أن حب الأطفال « خبر » يروونه عن هذا أو ذاك ويفسرونه كما يفسرون غرائب الأخبار ..

أتراهم يظنون أن نضرة الزهرة أجمل من نضرة الطفل الصغير ؟ ..
لا نخالهم يظنون ذلك ، ولكنها « الأنانية » تدخل هنا في الحساب ، فتضلهم عن حسن التقدير ..

لأنهم تعودوا كلما ذكروا الأطفال أن يتصوروهم أبناء لآباء وأمهات .. فإذا سمعوا أن الأب يحب وليده وان الأم تحب صغيرها فلا عجب ولا حاجة إلى خبر ..

ولكن ما بال من ليس بأب يحب أبناء آبائهم وهم عنه غرباء ؟ ..

هذا هو وسواس الأنانية الذي يدخل في الحساب فيضل الخيال عن التقدير الصحيح ..

أما الواقع — بمعزل عن هذه الأنانية — فهو ان الأطفال محبوبون لأنهم أزاهير الإنسانية وترجمان ربيعها ، محبوبون لأنهم بشائر الشباب والحياة ..

بل هم محبوبون ، وينبغي أن يحبوا ، لأننا نتعلم منهم، ولأننا نستمتع في صحبتهم برياضة من رياضات النفس تجدد لنا كل شيء ، ولأنهم عزاء وأي عزاء حتى حين يبكون بكاء الطفولة الساذج المضحك المأمون ..

انهم معلمون من الطراز الأول .. لأن أخلاق الإنسانية مكتوبة في نفوسهم بالخط البارز الذي تقرؤه لأول نظرة ، وهي في نفوس الكبار ضامرة أو مصحفة أو ملتبسة بوشي الرياء وزركشة العرف وزخارف التكلف والتمويه ..

ان معلمينا الصغار لا يكتمون شيئاً ، وكل ما كتموه أبرزوه وضاعفوا ابرازه ، فمن لم يتعلم حقائق الضمير الإنساني من الطفل فما هو بمستفيد شيئا من علوم الكبار ، ولو كانوا من كبار العلماء ..

وصحبة الطفل الصغير رياضة وما أجملها من رياضة ..

إن الأوربيين يعبرون عن الرياضة بالخلق الجديد recreation كأنهم يقولون ان الترويح عن النفس يخلقها خلقاً جديداً ويعيدها نشأة أخرى كما كانت أو خيراً مما كانت عليه ..

والطفل يريك هذا الكون قشيبا عجيبا كأنك تراه خارجا من يد الله في يوم الخليقة الأول ..

ان الصغير الذي يرفع العصا ليدرك بها القمر يعود بك كما كنت يوم ملأت عينيك من القمر أول مرة ، فزعم لك خيالك الطريف انه على مد الذراع القصيرة ، وانه إذا احتاج منك إلى جهد فغاية هذا الجهد أن تصعد إلى سقف وترفع العصا إليه ، فتنزل به إليك ! ..

ان التليفون لا يدهشك إذا نظرته أو استمعت إليه ، ولكنه يملؤك بالدهشة كلما حدثت طفلا من وراء المسافات البعيدة فسمعته يهلل ويصيح على من حوله أن ينظروا إليك مختبئاً في جوف السماعة المسحورة .. وأكبر عجبه أن تحتويك تلك السماعة وهي تضيق عن كفيه الصغيرتين .

ان كل محادثة مع الطفل عن هذه المنظورات المملة المطروقة إنما هي

احتفال برفع الستار للمرة الأولى عن تلك المنظورات العتيقة .. كأنها أعجوبة لم تقع عليها من قبل عينان .

وهؤلاء الصغار عزاء .. مثله عزاء الحكماء ..

ألا يبكون من مصائبهم التي تضحك الثكلى ؟ ألا نتعلم من هذا البكاء المضحك أننا سنضحك غدا مما يبكينا في هذه الساعة ؟ ألا نعود إلى ما كان يبكينا في طفولتنا فنعلم أن كثيراً من البكاء هزل ، وان كثيراً من العزاء جد ويقين ؟

ولهم محرجات تخنق في حينها ولكنها حتى حين « تخنقنا » من الحرج تكاد تخنقنا من الضحك المكتوم .

وكلكم عرفتم هذه المحرجات وتعرفونها وستعرفونها ، فأنتم في غنى عن الافاضة في سرد الأمثال والنوادر ، وقد تذكركم نادرة واحدة بمئات من هذه الأمثال .

حضرنا مجلسا كان فيه رجل وقور أعور بين العور ، وفي الدار طفل في الثالثة من عمره ، سليط اللسان يكاد لا يدخل لسانه في فمه من فرط الثرثرة والفضول .

ووقف هذا الثرثار على باب الحجرة ، ثم رأيناه يطيل النظر إلى الرجل الوقور الأعور ، ثم اقترب منه وهو يضع اصبعه في فمه ويرفع نظره إلى العين العوراء ..

قلنا : يا ساتر استر . انه لن يسكت ولن يطول الانتظار حتى نسمعه قائلا شيئاً . فما عسى أن يقول ؟

وقبل أن نفرغ من هذا الخاطر رأيناه يصعد على ركبتي الرجل ويمد يده إلى عينه العوراء ويسأله كأنه يسأل عن ساعة أو سلسلة أو خاتم أو حلية مما يثير الفضول : « لماذا أقفلت عينك هكذا ؟ »

تشاغلنا كأننا لا نسمع لعله يكتفي بسؤال واحد فلا نلجيء الرجل ولا نلجيء أنفسنا إلى حرج .

ولكنه كأنما قد أقسم ليعرفن السر في تلك الحيلة المستغربة : حيلة هذا المشعوذ الذي يستطيع أن يقفل عينه ، وكل من رآهم حوله لا يستطيعون .

فعاد يلح ويسأل : ألا تقول لي لماذا أقفلت هذه العين ؟

فبطلت الحيلة ، وأخذته أمه جذبا باحدى ذراعيه ، وخرجت وهي تختنق كما نختنق نحن من الحرج المضحك أو من الضحك المحرج ، وهو مع هذا يمد ذراعه الأخرى غاية امتدادها مشيراً إلى العين المقفلة . ويكرر على أمه هذا السؤال : ولكن لماذا يقفلها يا ماما ؟ .. ولم تسترح « ماما » منه الا حين قذفت به إلى داخل الحجرة المجاورة ، وهي تقول ولا تملك نفسها من الغضب والضحك المكتوم : أنت مالك وما لعينه ؟ !

هؤلاء المحرجون « مصائب » في أوقات الحرج .

إلا أنها المصائب التي نذكرها بعد ضاحكين ، ولا ندري هل نتمناها أو نتمنى انقطاعها .. فانها المصائب التي يسوءنا أن تنقطع من الحياة ..

وأي مخلوق أحب إلى القلب من المخلوق الذي يسليك وهو يحرجك ، ويعزيك وهو يبكي أمامك ، ويجددك أنت وهو ينظر إلى كل قديم من حولك ، ويعلمك وأنت تحسب أنك لا تفرغ من تعليمه ، وان دروسه التي يمليها عليك لأنفع من دروسك التي تمليها عليه .

لكن .. ويالها من لكن !

لكنها كما نعلم جميعاً متعة غالية الثمن . غالية جداً لا نملك ثمنها ، لأنه قاصم للظهور في كثير من الأحوال .

فنظرة إلى طفل مريض تنسيك متاع الدنيا بأسرها ، وصيحة ألم من ذلك

الصغير تزلزل عزائم الأبطال

أما إذا كان الخطب أجسم من ذلك فلا حول ولا قوة إلا من حول الله وقوته .. وكلاهما ليس في اليدين ..

وجاهل بهذا الخطب من يحسب أن الحزن على الصغير أهون من الحزن على الكبير .

إذ الواقع أن الحزن على الكبار قد يهون عند الحزن على هؤلاء الصغار ، لأنك تحزن عليهم بمقدار تعويلهم عليك ومقدار الرجاء في غدهم ، وغدهم طويل مفتوح لآمال الخيال ، ونظرتهم إليك وهم مرضى على يديك تطالبك بالمعجزات ، وتعجزك بعد ذلك عن الصبر على ذلك الأمل الذي ضاع فيك وضاع فيهم ، فلا عزاء .

متعة نفيسة وثمن غال ، ومما زهدني في اقتناء المتعة النفيسة علمي بغلو الثمن .. ولا أخالني مع هذا نجوت مما ابتليت به في طائفة من هؤلاء الأصدقاء الأعزاء ...

* * *

أنا في السِّجْن

فتحت الكوة الصغيرة ، ثم فتح باب الرتاج الكبير ، ثم احتوانا البناء المخفور الذي يعرف في مصلحة السجون باسم « سجن مصر العمومي » ويعرف على ألسنة الناس باسم « قره ميدان » أي الميدان الأسود باللغة التركية ! ..

وخطر لي — وأنا أخطو الخطوة الأولى في أرض السجن — قول الفيلسوف ابن سينا وهو يخطو مثل هذه الخطوة :

دخولي باليقين بلا امتراء　　　وكل الشك في أمر الخروج

فهو تقرير فلسفي صحيح للواقع ! ..

أما الدخول فها هو ذا يقين لا شك فيه ، وأما الشك كل الشك فهو في أمر الخروج .. متى يكون ، وإلى أين يكون ؟ أإلى رجعة قريبة من السجن واليه ؟ أم إلى عالم الحياة مرة أخرى ؟ أم إلى عالم الأموات ؟

في تلك اللحظة عاهدت نفسي لئن خرجت إلى عالم الحياة لتكونن زيارتي الأولى إلى عالم الأموات ، أو إلى ساحة الخلد كما سميتها بعد ذلك .. أي ضريح سعد زغلول ..

ولم تقع مني هذه الرحلة بين الدار والسجن[1] موقع المفاجأة ، لأنني كنت أنتظرها منذ زمن طويل ولو على سبيل الحجز الذي ينتهي بافراج سريع ، ولكنني كنت لا أرى فرقا بين أيام أو أسابيع أقضيها على ذمة التحقيق وبين مدة أقضيها في الحبس بحكم القضاء ، لأنني كنت أقدر أن حبس التحقيق — وإن قصر — كاف لأن يصيبني بأكبر الضرر الذي يخشاه الناس من السجن ، وهو ضرر العلة التي لا تزول ، وعلى توقعي الاتهام والحبس كانت الأنباء تتوالى عليّ بما يؤكد ذلك التوقع من جهات عدة ، وسمعت النبأ اليقين في هذا الأمر من صديقنا المغفور له سينوت حنا بك ، ولقد لقيني مرة فاستوقفني وقال لي : « حذار يا أستاذ ! » فقلت له باسما : « لا يغني الحذر من القدر ! » قال لي : « إني أروي لك ما أعلم لا ما أظن : ان مقالاتك تراجع في بعض الدوائر مراجعة خاصة ، وإنهم ينتظرون يوماً معيناً ربما كتبت فيه ما يساعد على تأييد التهمة ، ثم يقدمونك إلى المحاكمة بما استجمعوا من أدلة قديمة وحديثة ! »

* * *

وكان في نيتي أن أسافر صيف سنة ١٩٣٠ إلى لندن مع وفد مجلس النواب لتمثيل مصر في مؤتمر المجالس النيابية الذي عقد تلك السنة في العاصمة الإنجليزية ،

---

(١) في أوائل سنة ١٩٢٨ م اجتمع البرلمان اجتماعا خاصا في عهد وزارة الرئيس مصطفى النحاس للبحث فيما يدبر للحياة النيابية بين القصر ودار المندوب السامي ، ووقف عباس محمود العقاد خطيبا ، فهاجم أعداء الامة وأعداء الدستور ، ونطق بكلمته المشهورة « ان الامة على استعداد لسحق اكبر رأس في البلد يخون الامة ويعتدي على الدستور » وفهم القصر ان المقصود بهذه الكلمة الملك فؤاد ، وكان العقاد متمتعا وقتذاك بالحصانة البرلمانية كنائب في البرلمان ، فلما حلت الحكومة البرلمان .. ثم جاءت حكومة اسماعيل صدقي دبرت قضية العيب في الذات الملكية من المقالات التي كان يكتبها وقتذاك عن الرجعية ، فقضت المحكمة بحبسه ٩ اشهر من ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٠ الى ٨ يوليو سنة ١٩٣١ م .

فقد استخرجت جواز السفر السياسي ، واشتريت دليل لندن ودليل العواصم الأوربية التي كنت أنوي زيارتها ، ولم يبق الا تذكرة السفر والاتفاق على الموعد واللحاق باخواننا الذين سبقونا إلى باريس ليشهدوا فيها الاحتفال بعيد الحرية ، ثم بدا لي أنني إذا سافرت فقد أمهد بيدي وسيلة لنفيي في أوربا سنوات بلا عمل ولا قدرة على البقاء في ذلك الجو القارس أيام الشتاء ، وربما كان منع عودتي أسهل على الوزارة من محاكمة قد تنتهي بالبراءة أو بعقوبة لا ترضيها .. فعدلت عن السفر في اللحظة الأخيرة ، وقلت ان السجن أحب من النفي الذي لا عمل فيه ولا ضمان للصحة ولا للحياة !

وفي اليوم الثاني عشر من شهر أكتوبر دق الجرس أصيلا وأنا وحدي بالمنزل ، لأن أخي كان معتقلا في قضية « البلطة » المشهورة متهماً بالتآمر على حياة رئيس الوزراء ولأن الخادم لم يعد من راحته الظهرية وصلاته العصرية ، ففتحت الباب فإذا ضابط من رتبة « اليوزباشي » على ما أذكر يبادرني بالسؤال :

— هل حضرتك فلان ؟

قلت : نعم ..

فمد إليّ ورقة من دفتر في يده على هيئة ذكرتني الكونت نيمور وهو يلقي القفاز في محضر لويس الحادي عشر.

قلت : « تفضل أولاً فاجلس »

* * *

فتردد في الدخول ، ثم دخل وجلس ، فتناولت الورقة وقرأت فيها دعوة من صاحب السعادة النائب العمومي للحضور إلى مكتبه في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ، ووقعت على الدفتر — كما طلب الضابط — بأنني تسلمت الورقة . وأخذت في إعداد الكتب التي سأقرؤها في السجن ، والأدوية التي أتعاطاها ، والملابس البيتية التي أحتاج إليها هناك ، وزدت فأعددت الأغطية

الصوفية التي تلزمني للفراش والغطاء ، لأنني كنت حتى تلك الساعة أجهل « تقاليد السجون » وأظن أن الأغطية الخاصة مسموح بها كالملابس الخاصة أثناء التحقيق وفي الفترة التي تسبق المحاكمة ، ثم حضر الطاهي فأريته هذه الأشياء كلها وقلت له : إنه سيحضرها لي في السجن غداً عند اللزوم ..

فظهر لي انه لم يفهم .. وأنه ينوي أن يقصد بها سجن الأجانب الذي كان أخي معتقلا فيه .

فقلت له : « بل هي لي أنا في السجن الذي سيخبرونك عنه غداً بدار النيابة ! »

ووصفت له الدار واجتهدت أن أفهمه جهد المستطاع ، وذلك جهد يعرف العارفون بالشيخ « أحمد » انه ليس باليسير !

وذهبت في الموعد المحدد إلى دار النيابة ، واستغرق التحقيق ساعات ، ثم قال لي حضرة المحقق : « اني آسف لأننا سنضطر إلى ابقائك عندنا قليلا يا أستاذ ! » وبدأ حضرات المحامين يوجهون نظر رجال النيابة الحاضرين إلى « الحيطة الصحية » الواجبة في هذه الحالة ، ومنها اختيار السجن الذي يوافقني أثناء الحبس « الاحتياطي » أكثر من سواه؛ وكان الأساتذة المحامون لحسن الحظ من الخبيرين بمزايا سجون القاهرة التي تردد عليها في سنوات الثورة السياسية معظم المشتغلين بالقانون والسياسة ، فأضافوا خبرتهم بالسجن إلى خبرتهم بالمحكمة وقدرتهم على النصح السديد للمتهمين والموكلين ، واستحسنوا أن يكون الحبس في «سجن مصر» لأن الجو فيه أوفق لي من سجن الاستئناف..

* * *

فذهبت مع الضابط والجند في سيارة خاصة إلى « قره ميدان » وتخطيت الباب فإذا هدوء غير مألوف لأن الوقت كان وقت الراحة عقب الغداء . وتوجه بي الضابط نحو حجرة الكاتب لتسليم ما عندي من الودائع وكتابة الأوراق التي لا بد منها لكل مسجون جديد . وما هي إلا لحظة حتى توافد

الموظفون وكثر دخول السجانين ينظرون إلى القادم الذي سرى بينهم نبأ قدومه .. وأخذ كاتب هناك مرح ثرثار يداعبهم واحداً بعد واحد كلما مروا به وتصنعوا سؤاله عما يضمره لهم بريد اليوم . فيقول لأحدهم : « اطمئن .. لقد عينوك مديراً لمصلحة السجون .. » ثم يحدج ببصره كمن يستغرب دهشته . ويقول : « ألا تصدق ؟ آه يا ابن الحلال .. معذور . فانك في السجن ولست في البيمارستان .. »

أو يقول لغيره : « تعال هنا .. قرب أذنيك !! قرب أيضاً » .. ثم يناديه بصوت يسمعه كل من في المكان : « افرح .. نقلوك إلى أسوان . لا تقل لأحد يا ولد ! »

وهكذا في اثناء التسليم والتدوين . فاستعدت في ذهني موقف هملت وحفاري القبور .. إذ يغنون وهم في ذمار الموت !!

الليلة الاولى :

لم يكن مكتب الموظفين إلا بمثابة « الاعراف » التي تفصل بين نعيم الحرية وجحيم الاعتقال . ولكنها « اعراف » تنقل من النعيم إلى الجحيم كما تنقل من الجحيم إلى النعيم .. وقد كانت في اليوم الذي سجلت فيه اسمي بين الداخلين تسجل أسماء شتى للخروج أو للافراج كما يسمونه في لغة السجون !

وعبرنا مكتب الموظفين ومكتب المأمور مع ضابط العنبر في هذه المرة ، لا مع ضابط الشرطة الذي انتهى مقامه عند الباب . فاتجه الضابط إلى عنبر « ب » وفتح الباب الحديدي ودخلنا العنبر فكان أول ما صادفنا فيه منظراً عجيباً لا تألفه العين :

أناسا بملابسهم العادية جالسين القرفصاء في صمت لا يلتفت أحدهم يمنة ولا يسرة . ومن ورائهم نفر مكبون على الأيدي كما تمشي الدواب يزحفون

زحفاً ، ويتغنى أحدهم بصوت خفيض والباقون يجيبونه بصدى — لا بكلام — يقولون فيه : « هيه هيه » .. أما المغني فالذي أذكره من أنشودته الآن عبارة واحدة : « رايحه له فين ! ده عليه سنتين ! »

فقلت : فأل جميل وايم الله ! وللفأل شأن كبير في « نفسيات » المسجونين ، كما سيرى القراء في بعض هذه الذكريات ..

وكان لا بد لي من « فرجيل » يصاحبني كما صاحب الشاعر الإيطالي « دانتي » في طبقات الجحيم ليدله على أنواع العذاب ودرجات المعذبين .. فمن هؤلاء الجالسون القرفصاء ؟ ومن هؤلاء المكبون على أربع ؟ أهذا ضرب من العقاب في مكان العقوبات ؟ وما بال أناس منهم يلبسو ن ثيابهم العادية على اختلافهم بين المعمم والمطربش ولابس « الطاقية » .. ولا يلبسون كأهـــل السجون ؟

على أنني لم ألبث طويلا حتى عثرت على الدليل الذي ينوب في جحيمنا عن فرجيل ! ..

فقد كان على يسار الحجرة التي خصصت لي حجرة للصحفي الظريف علي أفندي شاهين رحمه الله . وكان محبوسا رهن المحاكمة في قضية مقالات ورسوم قذف بها بعض الوزراء وعلى رأسهم اسماعيل صدقي باشا كبير الوزراء في تلك الأيام . وكان واقفا عند باب حجرته ينتظرني بعد أن سبقت البشائر إلى العنبر بقدومي فلقيني مرحباً . وعلى مقربة منه اثنان أو ثلاثة من أهل بولاق « دائرتي الانتخابية » كانوا في مؤخرة صفوف الجالسين القرفصاء ، فنهضوا يحيونني ويهمون بالصياح لولا أن شاهدوا الضابط والسجانين فعادوا جالسين .

وعلمت بعد ذلك بهنيهة أن هؤلاء الجالسين القرفصاء هم المحبوسون على ذمة التحقيق ممن آثروا البقاء بملابسهم العادية .

وأنهم جلسوا تلك الساعة في انتظار الخروج « للطابور » الذي هو موعد

الرياضة المصطلح عليه مساء كل يوم . وللمحبوسين شوق إلى موعده يفرحون به أشد من فرح الطلقاء بنزهة الأصيل على شاطىء النيل وطريق الأهرام !

* * *

أما المكبون على أربع فهم أصحاب النوبة المنوط بهم تنظيف بلاط العنبر وتلميعه . وهم يتغيرون كل شهر مرة . ويقومون بهذا العمل طول النهار ، ويؤثرونه على أعمال السجن الأخرى لأنهم ينطلقون فيه على مدى واسع بعض السعة ، ولا يحبسون في الحجرات .

قال دليلي أو « فرجيلي » بعد الشرح المتقدم : « وان هؤلاء المساكين يعانون هذا العناء من أثر دعوة النبي يوسف عليه السلام » .

قلت : « وماذا أفادك الله ! »

قال : « لقد دعا يوسف ربه في السجن أن يغزر ترابه ويحلي طعامه ويقصر أيامه .. فالتراب لا ينقطع لحظة عن أمثال هذا المكان » .

قلت : « يخيل إليّ أن يوسف عليه السلام قال اللهم غزر رغامه ولم يقل غزر ترابه .. لأن السجعة تقضي بذلك » !

وما لبثت في السجن نصف ساعة حتى رأيت بعيني حرص الأقدار على إجابة ذلك الدعاء ، فما هو إلا أن يزحف الماسحون من طرف العنبر إلى طرفه حتى يكون التراب قد سفا على المكان الذي تركوه .

وإلى هنا لم أكن قد تناولت طعام الغداء مع اهتمامي برعاية المواعيد في تناول الوجبات .

فأين الطعام ؟ هل أحضره الطاهي أو نسي إحضاره وفهم غير ما تعبت بالأمس في إفهامه إياه ؟

هنا ظهرت لي قيود السجن دفعة واحدة ، فليس من المستطاع أن أعرف

هذا الخبر الصغير إلا بعد أن أسأل السجان ، وبعد أن يسأل السجان الضابط ، وبعد أن يسأل الضابط البواب ، وبعد أن يحيل البواب الأمر إلى المأمور وأطباء المستشفى ، وبعد أن ينقضي في ذلك كله وقت غير قصير ..

ولم يكن الذنب في هذه المرة على ذكاء « الشيخ أحمد » كما توهمت لأول وهلة ، فإنه قد أحضر الطعام بعد انصرافي من دار النيابة ، ولكنهم حجزوه على الباب حتى يتلقوا أمراً بقبوله وانتظام حضوره ، وحتى يراه الطبيب ويرى الأدوية التي معه ، وحتى يتم الفحص عن حالتي الصحية وما يصلح لي من الدواء ، ثم قبلوا الطعام والدواء وردوا الغطاء والفراش ، لأن السجن كما قالوا فيه الكفاية من غطاء وفراش !!

* * *

وفي هذه الأثناء بدأت أشعر بقشعريرة الرطوبة التي ينضح بها الاسفلت في أرض العنبر وسقوفه ، ثم فرغ السجان وصاحب النوبة الموكل بحجرتي من إعداد سريرها وأدواتها ولوازمها ، فألقيت نظرة على الغطاء الذي سيغنيني عن غطائي فلم أطمئن إليه كثيراً ، ولكني قلت : لا بأس بالتجربة هذه الليلة . وبقيت متوجسا من هذه النافذة المفتوحة على رأسي يندفع منها الهواء طول ليل الخريف .. فما العمل فيها ؟

قال دليلي أو « فرجيلي » علي أفندي شاهين : « لا عليك من هذه النافذة ! فسترى كيف نعالج خطبها » والتفت إلى صاحب النوبة فأوصاه أن يسدها بالحصيرة المفروشة على أرض الحجرة كما يصنع في حجرته هو ، ففعل صاحب النوبة تواً ليريني كيف يحكم هذه الصناعة ، وضحك شاهين أفندي ضحك العلم والمعرفة وهو يقول لي : « احمد الله على أنهم لم يختاروا لك سجن الاستئناف . فهناك النافذة أربعة أضعاف النافذة هنا ولا أمل في سدها بحال من

الأحوال ، فضلا عن الظلام المطبق من الصباح إلى المساء ».

قلت : « الحمد لله ! »

* * *

وهبط ظلام الليل شيئاً فشيئا ، وعاد المسجونون قبل ذلك أفواجا إلى الحجرات ، وتعالت بينهم ضجة كضجة السوق في يوم زحام ، ثم توالى إغلاق الأبواب وإدارة المفاتيح في الأقفال ، ثم بدأ « التتميم » أو المراجعة حجرة حجرة :

كم يا ولد ؟.. عشرة !

كم يا ولد؟.. أربعة .. وهكذا إلى نهاية الدور ، وفي كل عنبر أربعة أدوار ولن يبرح السجان دوره حتّى يستوثق من مطابقة العدد الموجود للعدد المكتوب في سجله المعلق عند الباب .

وازدادت الضجة بعد انتهاء المراجعة فلم يكن للسامع أن يسمع إلا أسماء تتقاذف أفواه رجال ونساء ، وصرخات وأهازيج وشتائم هي عندهم في منزلة التحيات المباركات ! ثم سكنت الضجة بعض الشيء وتبين من هنا وهناك نداء مفهوم ، وشرع اثنان في قافية من القوافي المعروفة في محافل الأعراس والموالد المصرية . وكأنهما علما بمقدم الصحفي الطارىء على السجن في تلك الليلة فجعلا للصحافة قسماً من هذه المساجلات المحفوظة ..

— الأولاد تنادي وراك وتقول :

— ايش معنى

— المؤيد ! المؤيد .. وهو يعني « المقيَّد »

— فوق رأسك يا معلم علي

— ايش معنى

— المقطم

وهذه حقيقة واقعة وليست بمجاز ! لأن بناء السجن واقع في حضن جبل المقطم

– الرغيف في سقف بيتكم

– ايش معنى

– كوكب !

– تطلع من هنا تقابلك في البيت

– ايش معنى

– الحمارة !

وقس على ذلك ما يقال ، وما يسمع كرها ولا يقال .

* * *

وقد أظلمت الحجرة عندي – حينذاك – ظلامين ، لأن النافذة المغلقة حجبت كل ضياء يتسلل إلى الحجرة من فناء السجن المنار بنوره الضئيل ، فلم أستطع أن أعرف مكان الكوب ولا سلة الطعام في ذلك الظلام ، ولبثت أسمع الأصوات تخفت وتخفت حتى انقطعت أو كادت نحو الساعة التاسعة كما أنبأتني الساعة العربية التي تدق في مسجد القلعة ، ولم يبق من مسموع إلا وقع أقدام الحراس على البلاط ، والا صيحاتهم كل نصف ساعة يطيلونها ، ويتنافسون في إطالتها ، فذكرتني مبيت ليلة على حدود الصحراء ، أسمع فيها صياح الذئاب .

* * *

خواطر في الصّحّة والمرض

في ديواني الأول قصيدة بعنوان « الشاعر الأعمى » اقول في مطلعها :

شَكَا الشَاعِرُ البَاكي عَمًى قَدْ أَصابَــهُ
وأَظْلَمُ مَـا نالَ العَمَى جَفْنُ شَاعِـرِ

ومنها أبيات يصرخ فيها الشاعر سائلا :

لِمنْ تَجمُلُ الأَكوَان إنْ كَـانَ لَا يَرَى
بَدَائعَهَـــا عَيْنٌ تَــرَى كُلَّ بَاهِــرِ
فَما كَانَت الدُّنيــا سِوَى حُسْن مَظْهَرٍ
ومَا جَادَ فِيهَـا الحَظُّ إلَّا لِنَـاظِرِي
وهَل كُنْتُ أَخْشَى المَوتَ إلَّا لأَنَّهُ
سَيَحْجُبُ عَنِّي حُسْنَ تِلْــكَ المَناظِرِ

* * *

ثم ينعى الشاعر قسمته في الحياة فيقول :

جَمَعْتُ شَقَاءَ العَيْشِ في ظُلْمَـةِ الرَّدَى
فَيَالي مِنْ مَيِّتٍ شَقِـيِّ الخَـواطِرِ

أَرَى الصُّبْـحَ وَهَّاجـاً بِمُقْلَةِ نَائِـمٍ
ويَلْحَظُـهُ قَلْبِي بِحَسْرَةِ سَاهِـرِ

فَمَنْ لي إلَى هَـذَا الوُجُودِ بِنَظْـرَةٍ
أَرَاهُ وَلَـمْ يُغْـمِ التُّرَابُ بَصَائِـرِي

* * *

إلى أن يقول متأسيا بنور البصيرة عن نور البصر :

فَيَا قَلْبُ انْفِقْ مِنْ ضِيَائِكَ واحْتَسِبْ
لَدَى الشَّمْسِ لَأْلَاءَ الوُجُـوهِ النَّوَاضِرِ

حادثة عارضة

قصيدة لا شك كان لها باعثها كغيرها من القصائد الّتي ينظمها الشعراء وحي من خاطر نفساني أو حادثة عارضة . فما هو الخاطر النفساني هنا ؟ أو ما هي الحادثة العارضة ؟

هل كنت أحس في صباي ضعفاً في النظر بعث في نفسي الاشفاق من فقدانه والمصير إلى مثل ذلك الظلام الذي شكاه الشاعر المنكود في بلواه ؟

ذلك أقرب ما يرد على الخاطر في تفسير باعث القصيدة ، ولكنه على

قربه بعيد من الواقع لأنني كنت أيام نظم الديوان الأول على أقوى ما يكون الإنسان بصرا في صباه ، وكنت — بالإيجاز — أستطيع أن أقرأ الصحيفة على نور القمر تحت قبة السماء .

* * *

ومن الجائز أنني كنت لا أعرف هذه القوة في بصري ، وأنني كنت أكبر وأجاوز الشباب والكهولة ولا أدري مبلغ بصري من القوة ، كما يتفق كثيراً أن يجهل الإنسان ما يألفه من قوته ويحسبه من المألوفات التي لا غرابة فيها ، ولم يكن هنالك ما يدعوني إلى القراءة على نور القمر لأن المصابيح أوفر من أن تفتقد في مدينة كبيرة أو صغيرة ، ولكنني أعلم الآن أنني استطعت أن أقرأ على نور القمر وأذكر ذلك جيداً لأنني حين اضطررت إلى هذه القراءة مرة واحدة كان ذلك مقرونا بمناسبات متشابكة جامعة بين الجد والفكاهة وبين ذكريات الأسرة والموطن وغرائب الروايات والتقاليد المتواترة في الريف . فليس في وسعي أن أنساها بعد حين ولا أزال أذكرها اليوم كأنها حدثت قبل يوم أو يومين ولم تمض عليها — كما مضى فعلا — أربعون سنة أو تزيد .

وفي جوار أسوان — بلدتي — ضاحية صغيرة جميلة على مسافة قصيرة منها ، أهلها من أقدر خلق الله على التشبيه المحكم أو على الإصابة بالعين كما اشتهروا في الاقليم كله ، ويقال عنهم ان أحدا منهم لا يملأ عينيه من الشيء إلا قضى عليه وأصابه بما يعطبه أو يضره لساعته ، وآية امتلاء العين من الشيء المنظور عندهم أنها تستوعبه بالتشبيه المحكم فلا تعدو صفة من صفاته .. فالتشبيه المحكم والإصابة القاتلة في عرف القوم مترادفان ..

أمثلة من التشبيهات

قالوا ان أحدهم نظر إلى بستان من التين فصاح اعجابا بثمراته المتفتحة : « ما هذا التين الذي يحكي خياشم السمك ! ؟ »

وقالوا ان أحدهم رأى رهوانا محلى السرج واللجام بالألوان المختلفة فصاح قائلا : « أتراه يحمل بيارق الأحمدية ! ؟ » .. يعني طريقة من الطرق الصوفية تسمى بالطريقة الأحمدية ويحمل اتباعها الرايات المتعددة بمختلف الألوان ..

وقالوا : ان أحدهم نظر إلى ساقية بحارية فقال : « إنها تبلع البحر بحوته » ..

* * *

وقالوا غير ذلك كثيراً من أمثال هذه التشبيهات ولم ينسوا مرة من المرات أن يردفوا التشبيه بذكر العاقبة التي تلحق به على الأثر، وهي التلف والبوار..

وكان في هذه الضاحية عرس نعرف أصحابه ، وذهبنا نشترك في إحياء العرس فمر القطار بالصحف قبل وصوله إلى أسوان ، وجاءتنا الصحيفة فطويناها حتى خرجنا من الدار نتنسم الهواء فوق كثيب من الرمال البيضاء ، وفتحت الصحيفة على غير التفات مني إلى الخطر المزعوم من وراء هذه المجازفة .. وإذا بزميلي يختطفها من يدي على عجل ويصيح بي : « ويحك ! .. أتريد أن تعمى ؟ ألا تعرف أين أنت ؟ .. أهنا مكان تقرأ فيه الصحيفة على نور القمر وتسلم من العاقبة ؟ ! »

حادث بطرائفه ومناسباته لا ينسى ، فليس في وسعي إذن أن أجهل أنني كنت على قوة مبصرة خارقة فيما بين الخامسة عشرة والثلاثين ، وليس الباعث على نظم القصيدة – قصيدة الشاعر الأعمى – أنني أشفقت من مصير كذلك المصير الذي و صفته بتلك الأبيات.

أما الباعث في الواقع فلا أعرفه على التحقيق ، ولكنني أظن ظنا أنه يرجع إلى مطالعاتي في تلك الفترة ، وأكثر ما كنت أحفظ يومئذ شعر أبي العلاء ، وشعر ملتون في قصيدة الفردوس المفقود ، ولعلي قرأت يومئذ لأول مرة

قصيدة الشاعر المحدث الضرير فرنسيس فتح الله مراش التي يقول في مطلعها :

هل عَادَ عندَك يا زمــان بِعَادي
خَطْبٌ تُعَانِـــدُني بــه وَتُعَادي ؟

ويقول منها :

يَبْدُو النهارُ لِكُلِّ عَيْــنٍ أبيضا
ولأعيني مُتَوَشِّحـــاً بِسَــوَادِ

وليست هي على طائل من جودة الشعر ، ولكنها على ضعفها معبرة عن شعور صحيح .

أحكام سن الأربعين

ومضت الأيام والسنون ، وجاوزت الأربعين فسمعت عن تقاليدها المرعية بين أصحاب النظارات ، وعملت بتلك التقاليد على غير اضطرار في مبدأ الأمر لأنني كنت أستطيع القراءة نهاراً وليلا بعد الأربعين ، ولكنني أردت المزيد من الوقت في مطالعاتي الليلية ، فصنعت النظارة بين الخامسة والأربعين والخمسين ، ولم أستخدمها إلا قليلا جداً في ذلك الحين ..

ثم شعرت في السنوات الأخيرة بالحاجة إليها تزداد على ممر الأشهر ولا أقول على ممر الأعوام ، وكدت أنسى قصيدة الشاعر الأعمى في الديوان الأول بعد ما نظمته من قصائد الدواوين المتوالية ، فإذا بهذه القصيدة أثبت القصائــد في ذاكرتي خلال السنتين الأخيرتين ..

« عملية جراحية » وإلا فلا نظر ! ..

وهانت العملية والعمليات مع هذه العاقبة المحذورة التي يهون معها فقد الحياة..

وتمت العملية بسلام ، ودخلت في ظلام الغماء راضياً به مغتبطاً بسواده المحتوم ، لأنه الليل الذي يطلع على فجر الضياء ..

وتشاء المقادير أنني أضع الغشاء على عيني في صبيحة اليوم الذي أظلمت بعده سماء مصر الجديدة حيث أقيم ، لأنني أجريت العملية في أواخر أكتوبر ، وفي تلك الأيام منيت مصر الجديدة بغارات الخريف المشؤوم . .

ان كان في تلك البلية رحمة من رحمات الغيب فرحمتها أنها لم تتقدم يوماً واحداً ولم تفاجئنا والمشرط بين العين ويد الطبيب القدير ، ثم أطبقت البليـــة ساعات من أحلك ساعات الليل والنهار على السواء ، فحمدت الله الذي لايحمد على المكروه سواه .. حمدته لأنني ألازم موضعي بحكمة وشجاعة أو بغير حكمة ولا شجاعة ! .. ولأنني أطفأت النور قبل أن تتصايح الأصوات حول الدار :

ــ أطفئوا الأنوار .. أطفئوا الأنوار ..

ظلمات فوق ظلمات

ولعلك تسألني عن تلك الساعات الطوال كيف كنت أقضيها وبأي الأطياف والأشباح كنت أعمر ظلماتها وأملأ فراغها ؟ ..

والحق أنها كانت ظلمات من أحلك الظلمات ، وأنها كانت فراغاً من أثقل الفراغ . ولكنني لم أسعد فيها ــ أو لم أشق ــ بطيف من أطياف الظـــلام ولا بهاجس من هواجس الفراغ ، ولست أعجب لذلك لأنني تعلمت من تجــارب الليالي والأيام أن الشواغل إنما تكون على قدر الحيرة والقلق ، وأنه حيث يكون في الأمر قولان أو عدة أقوال فهناك التردد والاضطراب ، وهناك الهواجـــس والأخيلة والأوهام والأشباح . وأما مسألة البصر فأي اختلاف فيها ؟ .. وأي

حيرة وأي موازنة وأي ترجيح ؟.. إنما هو القبول والاستسلام أو الرفـــض والخلاص من الظلام إلى الظلام !

وقد كنت أنتظر احدى النتيجتين ولا أزيد ، وكان جانب الرجاء بحمد الله أقوى في النفس من جانب الخوف والقنوط ، فتراجعت الأشباح والأطياف إلى ظلماتها. وقضينا الساعات الطوال بالشواغل التي تضحك ولا تبكي وتسلي ولا تشجي، ومنها ما يضحك السامع ضحكتين لا ضحكة واحدة!.. لأنه يضيف إلى ضحكة العبث ضحكة المثل القائل : « ان الزمار يموت ويداه تلعبان ! »

ومن أمثلتها الكثيرة مثل « البحث اللغوي » في إطفاء الأنوار ..

إنهم يسمونه في سورية ولبنان « بالتعتيم » ونسميه في مصر بالاظلام أو اطفاء الأنوار .

ونحن في جوار الغارات الجهنمية نستمع إلى زلازلها وضوضائها ونتساءل : أيهما الصحيح ؟..

ونمضي في التعليق بين قائـــل ان التعتيم خطأ لأن العتمة ظلام خاص بأول الليل ، وقائل انها ظلام الليل على اطلاقه ، ونتشاور برهة في الموازنة بين التغمية والتغشية والتخفية وغيرها وغيرها بديلا من التعتيم ومن الاظلام .. وكلهـــا كالشر الذي تخفيه بلاء لا خيار فيه !

وانجابت الغمة

وانجابت الغمة بحمد الله ، وأسفر الصباح بعد ليـــال مطبقات ، وإنني لأصدق النور حقه فأقول : بل أسفرت الغمة عن فجر أو شفق ولم تسفر عن صباح أو نهار .

ولا بأس بالفجر والشفق في عالم الشعر والشعراء ، فربما طاب لنا الفجر كما يطيب الشفق بوحي من ذوق الجمال وغبطة السكينة والسلام ، وإن لم يكن في سطوعه ولمعانه نداً للصباح أو قريناً للنهار .

الفصل السادس

ايماني

أومن بالله .. أومن بالله وراثة وشعوراً وبعد تفكير طويل .

فأما الوراثة فإني قد نشأت بين أبوين شديدين في الدين لا يتركان فريضة من الفرائض اليومية ، وفتحت عيني على الدنيا وأنا أرى أبي يستيقظ قبل الفجر ليؤدي الصلاة ويبتهل إلى الله بالدعاء ولا يزال على مصلاه إلى ما بعد طلوع الشمس فلا يتناول طعام الافطار حتى يفرغ من أداء الفرض والنافلة وتلاوة « الأوراد » ..

* * *

ورأيت والدتي في عنفوان شبابها تؤدي الصلوات الخمس وتصوم وتطعم المساكين وقلما ترى النساء مصليات أو صائمات قبل الأربعين . وندر بين أقاربي من لايسمى باسم من أسماء النبي وآله سواء منهم الرجال والنساء أو من أسماء الأنبياء على العموم ، وكان في بيت أخوالي درس لقراءة الكتب الدينية وأذكر منها مختارات الأحاديث النبوية وإحياء علوم الدين ؛ فللوراثة شأن فيما عندي من سليقة الاعتقاد .

أما الايمان بالشعور فذاك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يلتقيان في الحس والتصور والشعور بالغيب وربما كان « وعي الحياة » شعبة من « وعي

الكون » أو من « الوعي الكوني » الذي يتعلق به كل شعور بعظمة العالم وعظمة خالق العالم .... والوعي الحيوي مصدر النفس والوعي الكوني مصدر الدين .

أما الإيمان بالله بعد تفكير طويل فخلاصته أن تفسير الخليقة بمشيئة الخالق العالم المريد أوضح من كل تفسير يقول به الماديون . وما من مذهب اطلعت عليه من مذاهب الماديين إلا وهو يوقع العقل في تناقض لا ينتهي إلى توفيق ، أو يلجئه إلى زعم لايقوم عليه دليل ، وقد يهون معه تصديق أسخف الخرافات والأساطير فضلا عن تصديق العقائد الدينية وتصديق الرسل والدعاة . فالقول بالتطور في عالم لا أول له خرافة تعرض عنها العقول لأن ابتداء التطور يحتاج إلى شيء جديد في العالم وحدوث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ في اللسان فضلا عن الفكر أو الخيال . والقول بالارتقاء الدائم من طريق المصادفة زعم يهون معه التصديق بالخرافات وخوارق العادات في تركيب الأجسام أو الأحياء .

والقول بأن المادة تخلق العقل كالقول بأن الحجر يخلق البيت وأن البيت يخلق الساكن فيه ، وأيسر من ذلك عقلا بل ألزم من ذلك عقلا أن يقال ان العقل والمادة موجودان وأن أحراهما بأن يسبق الآخر ويخلقه هو العقل لأن المادة لا توجد ما هو أفضل منها وفاقد الشيء لا يعطيه .. فأنا أومن بالله وراثة وأومن بالله شعوراً وأومن بالله بعد تفكير طويل .

هذا في مجال العقيدة ..

* * *

أما في مجال الأخلاق فلا موجب عندي لعمل الخير غير طلب الكمال وفهم الكمال ..

ومن الخير ما هو عسير على النفس محفوف بالخطر مكروه العواقب مستهدف للنقد والمذمة بين من يجهلونه أو يصابون في منافعهم من جرائه ، فلا باعث لعمل هذا الخير أقوى من باعث الشوق إلى الكمال والارتفاع بالنفس إلى ماترضاه ..

إن الإنسان لايرائي بحب الطعام الجيد أو الطعام المفيد ، إنه يحبه في السر كما يحبه في العلانية ، وإنه ليبذل فيه ثمنه وإن غلا ويجلبه من مكانه وإن بعد وإنه ليكتفي به ويحسبه جزاء حسناً ولا ينتظر عليه المثوبة أو الشكران من أحد لأنه يتناوله لنفسه ولا يتناوله مرضاة لغيره .

وهكذا طعام العقل أو طعام الروح حيثما عرفت الروح ما يصلح لها وما يليق بها من طعام ، إنها لاتستريح بغيره ولا تتوانى عن طلبه ولا تنتظر المثوبة أو الشكر لأنها تختار غذاءها فتحسن اختياره ولا ترضى بما دونه . وانما المهم أن تعرف هذا الغذاء فإذا هي عرفته فلا باعث لها إلى الخير أقوى من الشوق إليه ولا وازع لها ولا عقوبة تخشاها في سبيله أوجع من فواته والحرمان منه ..

وقد ترى الطفل يؤجر على تجرع الدواء ويساق إليه بالحيلة والإغراء لأنه لايعرف ما هو الداء ، ولا ما هو الدواء ..

ولكنك تنتظره سنوات حتى يعرف هذا وذاك فإذا هو يبذل الأجر لمن يعطيه الدواء ، ويسعى إليه عند الأطباء في أبعد الأرجاء ، وما تغير طعم الدواء ولا تغير عمله ولا تغيرت الحاجة إليه ولكن تغير شعور الطفل بالصحة الجسدية وتغير شعوره بالواجب عليه لتصحيح جسده وتغير فهمه « للكمال » في عالم الأجساد .

• • •

وهناك عالم للضمائر ، وعالم للأفكار ، وعالم للأذواق والأخلاق ، كما هناك عالم للأجساد ، وهناك أطفال في هذه العوالم كما هناك أطفال في ذاك ..

وهؤلاء الأطفال هم الذين يقبلون الصحة لأنهم يثابون عليها ويتجرعون الدواء لأنهم يساقون إليه ، فدعهم حتى يكبروا في أعمار العقل ، أو في أعمار الضمير ولا تتكلف أن تعرض عليهم الدواء أو تلحف عليهم في تعاطيه لأنهم

ينشدونه حيث كان ويبذلون فيه أغلى الأثمان ..

في عالم الأخلاق لاباعث إلى الخير أقوى من شعور الإنسان بكماله ولا وازع عن الشر أقوى من شعور الإنسان بنقصه ولا أخلاق لمن يحسن لأنه يؤجر على الإحسان أو يسيء لأنه في أمان .

فساعة من الغبطة ببلوغ الكمال هي غاية ما تصبو إليه النفس من مراتب السعادة وساعة من تبكيت الضمير على النقص هي غاية ما تنحدر إليه النفس من الشقاء .

وإيماني في المعاملات أن الطيبة موجودة في الطبيعة الإنسانية ولكنك لاتجدها في كل إنسان ولا تجدها في جميع الأوقات ..

ولكنك إذا بحثت عن المعين لم تضمن وجوده حين تريده وإذا وجدته حين أردته لم تضمن أن يوافقك على رأيك ويساعدك على قصدك ، فلعله يعين إذا اعتقد وجه الصلاح في العمل الذي يدعى إليه ولعله لايعتقد اعتقادك فيما ترى من الصلاح .

* * *

فلا تقنط من طيبة الناس كل القنوط .. ولا تعول عليها كل التعويل بل أحسن الظن بالناس كأنهم كلهم خير واعتمد على نفسك كأنه لاخير في الناس وقديماً قلت :

أنــا لا ألومُ ولا أُلَامُ
حَسْبِي مِـنَ الناسِ السَّلَام
أنا إن غنيتُ عــن الأَنَامِ
فقــد غنِيتُ عَن المَلَام

وإذا افْتَقَـرْتُ إليهم

فاللــومُ مِــنْ لَغْوِ الكَلَام

ولا أزال كلما نسيت هذه الخطة في سهوة من السهوات ردتني الحوادث إليها وزادتني إيماناً بصوابها .

* * *

وإيماني بالأدب أنه رسالة عقل إلى عقول ووحي خاطر إلى خواطر ونداء قلب إلى قلوب .

وأن الأدب في لبابه قيمة إنسانية وليس بقيمة لفظية .

فالأديب الذي يقرؤه القارىء فلا يعرف شيئاً جديداً ولا يحس بشيء جديد فسكوته خير من كلامه .

والأديب الذي يقصر جهده على التسلية وإزجاء الفراغ خادم جسد وليس بصاحب رسالة في عالم العقل والروح ، والعلاقة بين الكاتب وقارئه علاقــة تعاون واشتراك لايغني فيها الجهد المفرد عن الجهدين المتساندين .

فالقارىء الذي يفرد الكاتب بواجب التفهيم لا يستحق من الكاتب أن يلتفت إليه ..

لأنه واحد من ثلاثة : فإما رجل يظن أن القراءة لا تستحق التعب وهو يتعب في طلب اللهو والتسلية فلا نفع فيه .

وإما رجل يتعب فكره ولا يصل بالتعب إلى نتيجة فذلك أيضاً لانفع فيه ، وإما رجل لا تهمه نتيجة القراءة التي يتسلى بها أو يتعب فيها فهو كصاحبيه لا نفع فيه .

* * *

وإيماني بالشهرة والثناء كإيماني بالثواب والجزاء فما أجفلت قط من نقد ، ولا توسلت قط إلى ثناء ، ويعزيني عن كثير من الثناء أن الناس لايبذلونه لمن يكبرونه بل يبذلونه لمن لايملأ قلوبهم بالاكبار ولا يبلغون من اعظامه مبلغاً يحسدونه وينفسونه عليه ، وأن الأدب شيء هين كل الهوان إن ضاعت قيمته بكلمة حاسد أو جاءت قيمته من كلمة كاذب منافق ، فإذا كانت له قيمة فلا خوف عليها وإن لم تكن له قيمة فلا حرص عليه ..

* * *

وبعد فايماني كله في العقيدة والأخلاق والمعاملة والأدب يوزن بميزان واحد وهو ميزان المثل الأعلى أو طلب الكمال لأنه إيمان يغنينا عن طلب الجزاء ويعزينا عن فقدان الحمد والثناء ..

***

لَوْ عُدْت طَالبًا

من قديم الزمن يشعر كل طالب في حياته المدرسية بالتنازع بين قطبين متقابلين ، أحدهما مانسميه « بالنظام » والآخر ماشتهرت به الطفولة والشباب من حب التمرد والهرب ومخالفة النظام .

فالتلمذة بغير نظام مستحيلة ، ولا بد لكل مدرسة من مواعيد وفصول وواجبات في المدرسة وواجبات في خارجها ، ولا بد للتلميذ من القيام بهذه الواجبات إذا أراد أن يضمن النجاح ؛ ومن لم يأخذ نفسه برعايتها حقاً فهو على الأقل مضطر إلى رعايتها غشاً وتزييفاً ، لأنها لايمكن أن تخرج كل الخروج من الحساب ..

ولا بد للتلمذة من نظام ..

ولكن ما القول في الطفولة أو في الصبا الباكر على العموم وكلاهما ملازم للتلمذة في أدوارها الأولى ؟ ..

هل يمكن أن تخلو الطفولة من قلق وعربدة و « شقاوة » وولع بالشيطنة والمخالفة ؟..

لايمكن .. فلا بد من فلتة ، ان لم تكن الطفولة كلها فلتة في نفوس الشذاذ الميئوس من فلاحهم ، وهم غير قليلين . .

نظام وشيطنة ، أو نظام ومخالفة ، وهذان هما القطبان اللذان يتنازعان كل تلميذ في دراسته الباكرة ، إن لم يتنازعاه في جميع أدوار الدراسة بعد سن

الطفولة والصبا ، فقد قرأت للقس الإنجليزي الفيلسوف المطران « انج » أنه هو وزملاءه في كلية اللاهوت كانوا « يعاكسون » أستاذهم الكبير « فارار » على توقيرهم لعلمه وحبهم لشخصه ، وكانوا يتعمدون أن يسوقوه إلى تكرير لوازمه ليضحكوا منها في « أكمامهم » كما يقول الإنجليز ..

وهؤلاء رجال لاهوتيون من أهل الورع والوقار ، فما بالك بالتلاميذ الطلقاء من رهبة الدين وسمت الهيبة والسكينة !..

فإذا عدت طالباً ، فماذا أصنع بين هذين المتنازعين ؟.. هل أندم على قلة النظام أو على قلة التمرد فيما سلف من تلك الأيام ؟..

أحسب أنني أخذت من كليهما الكفاية ، وأنني لا أبالي أن أعود كما كنت بغير تبديل كثير ..

* * *

كنت « نظامياً » في مواعيدي فلا أذكر أنني تخلفت عن موعد حضور أو موسم امتحان أو حصة مذاكرة حين تفرض للمذاكرة حصص في ختام السنة الدراسية ..

وكنت إذا خالفت النظام فانما أخالفه في شيء يعنيني ولا يعني المهتمين بدروسي وواجباتي .

انما أخالفه في قليل من « البهدلة » التي تظهر في اهمال الملابس واهمال الحلاقة ، وربما خالفته حباً للسرعة لا حباً للبهدلة والاهمال ، فإنني لم أكن أطيق أن أنتظر « البذلة » عند الكواء ولم أكن أعطي اللبس — ولا أنا أعطيه الآن — أكثر من بضع دقائق في عجلة وهرولة ، وقد أترك للفراش تغيير « البذلة » دون أن أختار له « بذلة » أخرى ، وقد يغيرها وأنا لاأعلم بالتغيير ..

* * *

لهذا كنت في مقدمة التلاميذ المرضي عنهم من وجهة النظام ، وكان بعض

الأساتذة وبعض الزملاء يتناولونني أحياناً بنكتة هنا وتشنيعة هناك من أجل البهدلة الكسائية ، ولكنهم كانوا مع ذلك يتجاوزون عن هذه البهدلة اضطراراً إذا وجب استقبال زائر كبير بخطبة أو تحية شعرية ، أو وجب حل مسألة حسابية أو مشكلة من مشكلات الأجرومية الإنجليزية يعيى بعلاجها زملائي المتخلفون في الحساب واللغة ..

وكنت ــ لحسن الحظ ــ محسوباً من المفرطين في رعاية النظام وأداء الواجبات حين كنت في الحقيقة مفرطاً في الخروج على النظام وإهمال الواجبات ..

* * *

كنت أجلس الى المصباح في حجرتي حتى منتصف الليل أطالع واذاكر .

فيماذا ؟..

كلهم في المنزل يحسبون أنني أذاكر دروسي وأطالع كتب المدرسة ، ويصفونني من أجل ذلك بالغيرة على الواجب والأنفة من التأخر في الترتيب ، وكلهم في الواقع لا يعلمون الحقيقة لأنهم لاينظرون في الكتب والدراسات التي أدمن مطالعتها ..

إنها تارة ديوان شعر ، وتارة أخرى قصة من قصص ألف ليلة ونحوها ، وتارة غير هذه وتلك مجلة شهرية « كالمقتطف » و « الهلال » و « المحيط » و « المفتاح » وغيرها من مجلات تلك الأيام !..

ولهذا لايسوءني أن أعود طالباً فأعود نظامياً على هذه الوتيرة .. إذ هي نظامية تجمع بين قضاء حق الواجب وقضاء حق التمرد في رأي الذين يطالبونني بالنظام ..

* * *

كدت أنسى أن أقول للقارىء أن هذه المغالطة لم تكن غاية شوطي من التمرد على النظام أيام التلمذة ..

فقد ذهبت في التمرد إلى النقيضين ، وكان بعض هذا التمرد خطراً على الحياة ، لأنه كان يغريني بالسباحة في النيل ، وما أدراك ما النيل عند أسوان ؟..

انه يبلغ من العرض قرابة ميل ، ويندفع فيه التيار من شلال وراء شلال ، وتلتف الدوامات بصخوره فلا يقدر على عبورها غير السابح الخبير ، وتكمن التماسيح في مائه متربصة بالسابحين ، ولا سيما قبل تمام أعمال البناء على عيون الخزان ..

وكنا نخرج من المنازل وعلى سيقاننا خواتم سليمان مرسومة بالمداد الخفيف الذي لايحتمل الماء ، ولكننا مع هذا كنا نستجيب لغواية النيل ونعوم بين جزائره المترامية في أخطر أيام الفيضان ، ونعتمد على فن الرسم لاخفاء معالم العصيان . فلا يخذلنا هذا الفن إلا حين ننسى ونتعجل فنرسم خاتم سليمان على اليمنى بدلا من اليسرى أو على اليسرى بدلا من اليمنى ، فيأخذ منا النظام حقه عصياً أو سياطاً معدودات .. ثم نعود إلى العصيان وتزييف خاتم سليمان .

* * *

هذه مجازفة في سبيل الرياضة البدنية ..

مجازفة بالخروج على النظام ، ومجازفة بالتعرض للغرق ، ومجازفة بالتعرض للعقاب ..

فهل كنت مع هذا من محبي الرياضة البدنية ؟..

كلا .. بل كنت أغيب عن حصتها عمدا ، وأعلم أن جزاء الغياب حبس ساعات ..

وهذا هو الذي عنيته حين قلت فيما تقدم : انني ذهبت في التمرد الى النقيضين ، وأعود فأسأل نفسي وأسأل القارىء أيضا : هل هما نقيضان حقاً ؟. وهل السباحة التي نهواها « كالجمباز » الذي نساق إليه على الرغم منا ونهدد بالعقاب لنقبل عليه مكرهين ؟..

من جهة ، هما نقيضان ..

ومن غير هذه الجهة لاتناقض بين هوى السباحة وكراهة الجمباز المفروض بالاكراه ، فقد يكون الذنب على الطريقة لا على الجمباز ..

ولكنني بعد هذه السنين الطوال أقول : انني أود لو عدت طالباً لأمسح « تمردي » في صفحة واحدة هي صفحة الألعاب الرياضية ، فقد تعبت كثيراً من جراء كراهتها واهمالها ، ولو أنني أعطيتها جانباً من الوقت إلى جانب الأوقات التي أخذها المعري وشركاؤه لاسترحت في بدني من بعض تلك المتاعب ولعلي أكفر — من حيث لا أشعر — عن خطيئتي في حقها بما كتبته وكررته عن فضائلها وحقوق أبطالها ، فهي في رأيي أحد الترياقين الموصوفين لكل أمة تشكو الخمول وتطلب السلامة والقوة ، والترياق الآخر هو الفن الجميل ..

لو عدت طالباً ..

ولماذا أعود طالباً ؟.. إن كانت العودة للتكفير عن خطيئة الألعاب الرياضية فالصلح معها على طريقتنا المختارة يغنينا عن مشوار الرجوع كل تلك السنين ..

* * *

كلا .. لاأحب أن أعود ، لأن الحاضر خير من الماضي فيما أرى وبخاصة حين نعود إليه . وإنما يحلو الماضي حين ننظر إليه بأعيننا الحاضرة ..

فلننظر بها قانعين إلى ما بين أيدينا من السنين ..

* * *

فلسفتي في الحُبّ

ما ليس بالحب أسهل في التعريف ممـــا هو الحب ، وهكذا الشأن في كل تعريف لمعنى من المعاني أو كائن من الكائنات . فنحن نستطيع في لمحة عين أن نعرف أن زيداً ليس بعمرو ، ولكننا لانستطيع في هذه الصورة أن نذكر تعريف عمرو وزيد ونحيط بأوصاف هذا أو ذاك، ولو كنا من أعرف العارفين بالاثنين..

وعلى هذا القياس نعرف الحب من طريق النفي قبل تعريفه من طريـــق الإيجاب ..

فليس الحب بالغريزة الجنسية ، لأن الغريزة الجنسية تعم الذكور والإناث ، ولا يكون الحب بغير تخصيص وتمييز .

وليس الحب بالشهوة ، لأن الإنسان قد يشتهي ولا يحب ، وقد يحـــب وتقضي الشهوة على حبه .

وليس الحب بالصداقة ، لأن الصداقة أقوى ما تكون بين اثنين من جنس واحد ، والحب أقوى ما يكون بين اثنين من جنسين مختلفين .

وليس بالانتقاء والاختيار ، لأن الإنسان قد يحب قبل أن يشعر بأنه أحب ، وقبل أن يلتفت إلى الانتقاء والاختيار ..

وليس الحب بالرحمة ، لأن المحب قد يعذب حبيبه عامداً أو غير عامد ، وقد يقبل منه العذاب مع الاقتراب ولا يقبل منه الرحمة مع الفراق ..

والحب كذلك يعرف جزءاً جزءاً قبل أن يعرف كاملا شاملا مستجمعا لكل ما ينطوي عليه .

ففي الحب شيء من العادة ، لأن المحب يهون عليه ترك حبيبه إذا كان تركه لايغير عاداته ومألوفاته ، وأقوى ما يكون الحب إذا طال امتزاجه بالعادات والمألوفات ..

وفي الحب شيء من الخداع ، لأن المرأة الواحدة قد تكون أفضل المخلوقات في عين هذا الرجل ، وتكون شيئاً مهملا لايستحق الالتفات في عين ذاك ، ثم يعود كالشيء المهمل في عين الرجل الذي فضلها من قبل على جميع المخلوقات..

وفي الحب شيء من العداوة ، لأن المحب مكره على البقاء في أسر الحب ، عاجز عن الافلات من قيوده ، ويقترن الشعور بالاكراه والعجز دائماً بشعور النقمة والعداء ..

* * *

وفي الحب شيء من الأنانية ولو أقدم صاحبه على التضحية ، لأنه لايترك محبوبه لغيره ولو كان في ذلك إسعاده ورضاه ، ولكنه قد يضحي بنفسه إذا اعتقد أن محبوبه لايصير إلى سواه ..

وفي الحب شيء من الغرور ، ولولا ذلك لما اعتقد الإنسان أن إنساناً آخر يهمل الألوف من أمثاله ليخصه وحده بتفضيله وإيثاره ..

وقد يخلو الحب من كل شيء إلا من شيء واحد ، وهو الاهتمام ..فصدّق إن قيل لك إن حبيباً يبغض حبيبه ويؤذيه ، وصدّق إن قيل لك إن حبيباً يتقبل من حبيبه البغض والايذاء ، وصدق إن قيل لك إن الحب والازدراء يجتمعان ، وصدق إن قيل لك إن الحب يخون أو يقبل الخيانة من المحبوب ، فأما إن قيل لك إن حباً يبقى في النفس بغير اهتمام،فذلك هو المحال الذي لايقبل التصديق .

وفي الحب شيء من القضاء والقدر ، كما يعبرون عنه في لغة الحوادث والتحقيقات ..

لماذا ولد فلان ؟ .. لماذا مات علان ؟ .. لماذا أحب فلان ؟ .. إن « التأشير » على المحضر بكلمتي « القضاء والقدر » هو أصدق ما يقال في تعليل هذه الأحداث المتشابهات ، لأنها كلها من أطوار الحياة التي لا يملكها الإنسان ، ولا يحسب انه سيطر عليها حتى يرى انها هي مسيطرة عليه ..

والا فماذا تقول إذا سألك سائل : لماذا أحب فلان فلانة ؟ .. ألأنها أجمل من يرى من النساء ؟ ألأنها أقرب النساء إليه ؟ ألأنها تجزيه الحب بمثله ؟ .. ألأنها تروعه بالفطنة النافذة والخلق الحميد ؟ .. ألأنها تنفرد بمزية من المزايا لا توجد في العشرات والمئات ؟ ..

ماذا تقول غير « القضاء والقدر » إذا كانت « لا » هي جوابك على كل سؤال من هذه الأسئلة ؟ .. ولعلها هي كذلك جواب المحب المفتون !

فقد تعمى الأبصار عن الحب كما تعمى عن الأقدار ، أو يسير الحب إلى فريسته كما قال ابن الرومي في مسير القضاء :

أو مسير القضاء في ظلم الغيـ ـب إلى قاصد له بالتـــواء

* * *

وربما خطر للفريسة المخدوعة أنها تهرب وتمعن في الهرب وهي تقترب في كل خطوة من الشرك المنصوب في الخفاء ، وربما أنكر المحب أنه محب كما ينكر السكران انه سكران ، بل لعله يشتد في الانكار كلما اشتد به الدوار ولا يدري انه قد سكر حقاً الا حين يأخذ في الافاقة ويقوى بعض القوة على فتح عينيه وتحريك قدميه .

وأوجز ما يقال إن الحب قضاء يملك الإنسان ولا يملكه الإنسان ، ولو دخل في مشيئته لما استولى عليه ولا غلبه على أمره ..

قال بعض الحكماء : ان الحجر الذي تقذفه بيديك يحسب أنه يطير في الجو باختياره ، لو كان له شعور ..

وهكذا يحسب العاشق وهو يتهالك على معشوقته .. يحسب انه هو الذي يريد ما يصيبه ولا يزال على حسبانه حتى يحاول ألا يريد ، فلا يستطيع ..

وخلاصة القول ان الحب عواطف كثيرة وليس بعاطفة واحدة ، ومن هنا كان أقوى وأعنف من العواطف التي تواجه النفس على انفراد ..

ففيه من حنان الأبوة ، ومن مودة الصديق ، ومن يقظة الساهر ، ومن ضلال الحالم ، ومن الصدق والوهم ، ومن الاثرة والايثار ، ومن المشيئة والاضطرار ، ومن الغرور والهوان ، ومن الرجاء والقنوط ، ومن اللذة والعذاب ، ومن البراءة والاثم ، ومن الفرد الواحد ، والزوجين المتقابلين ، والمجتمع المتعدد ، والنوع الإنساني الخالد على مدى الأجيال ..

والذي يعجب لذلك يعجب في الحقيقة من أقرب الأشياء إلى المألوف وأبعدها من العجب والغرابة .

فكيف يكون الحب شعورا يستولي على نفسين كاملتين ثم يخلو من كل ما يخامر النفوس في مختلف الأوقات والأحوال ؟ ..

وكيف يكون الحب مشتملا على جسدين ثم لا يضطرب فيه النزاع بين الجسدين والنفسين كما يضطرب الجسد الواحد في منازعة النفس الواحدة ، ثم يزيد على هذا الاضطراب ؟ ..

وكيف يكون الحب ترجمانا لإرادة النوع ثم لا ينطق بكل عاطفة يتسع لها كيان الإنسان ؟ ..

* * *

يسألونك عن الحب قل هو اندفاع جسد إلى جسد ، واندفاع روح إلى روح ..

ويسألونك عن الروح فماذا تقول ؟ ..

قل هي من أمر ربي.. خالق الأرواح ! ..

لهذه الكثرة الزاخرة في عناصر الحب ، تكثر العجائب في العلاقات بين المحبين ..

فيجمع الحب بين اثنين لا يخطر على البال انهما يجتمعان ..

ويتكرر الحب في حياة الإنسان الواحد حتى ليكون المحبوب اليوم على نقيض المحبوب بالأمس في معظم المزايا ومعظم الصفات ..

ويتقارب البعيدان ، ويتباعد القريبان ، ويتجدد القلبان بين آونة وأخرى كأنها من طبيعة الجان ، والواقع أن العاطفة حرارة ونار ، ولا فرق بين طبيعة الجان وطبيعة النيران ..

إلا أن القلوب أقرب إلى التناسب والتجاوب إذا هي تناسبت في العمر وتجاوبت في المزاج ، وحب الفتى للفتاة كحب الفتاة للفتى لا يدوران على الجسد وحده كما قد يخطر على البال ، ولكنهما يتناسبان ويتجاوبان لأنهما ينظران إلى الدنيا بعين واحدة ويستقبلان الحياة بشوق واحد ، ويطربان ويغضبان على نحو واحد ، ويعطيهما الجسدان المتشابهان فرصة واحدة للتفاهم على الآراء وتبادل الخواطر والأهواء

فلا تجاوب بين المحبين أقرب ولا أعم ولا أقوى من تجاوب العمر والمزاج..

* * *

ولكن اختلاف السن قد يفتح الأبواب لداعية من دواعي التجاوب بين النفسين لا تتوافر في السن الواحدة على الدوام . وحاجة نفس إلى عطف الأبوة وطمأنينة التجربة وسكينة الرضى قد تقابلها حاجة نفس إلى دفء العاطفة وحماسة الرغبة واسداء العطف والرعاية ، فتقبل النفس على النفس ، ويعتصم الضمير بالضمير ،

ويقع التبادل بين بضاعتين مختلفتين لا بين بضاعة واحدة من كلا الطرفين . ولكنها الندرة التي لا يقاس عليها والمصادفة التي لا تنتظم في حساب ، وكأنما يختلقها الحب اختلاقاً ليفتح باب الشك فيه ويبطل اليقين في أمره، وهو لا يتقي خطراً من الأخطار كما يتقي خطر اليقين الجازم والضياء الحاسم . فالحب بخير ما دام في القلب باب للشك مفتوح . . فإذا أوصد الباب مصراعيه على يقين لا شك فيه ، فالحب مارد في قمقم مأمون ، أو رفات في قبر مدفون ..

وخلاصة التجارب كلها في الحب انك لا تحب حين تختار ولا تختار حين تحب ، واننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت؛ لأن الحياة وتجديد الحياة وفقد الحياة هي أطوار العمر التي تملك الإنسان ولا يملكها الإنسان ...

وقد تسألني في خاتمة المطاف : هل الحب إذن أمنية نشتهيها ؟ .. أو هو مصيبة نتقيها ؟ ..

ولي أن أقول : إنه مصيبة حين تحمل به نفسا ثانية مع نفسك وأنت تريدها ولا تريدك ، وانه أمنية حين تتعاون النفسان ولا تتخاذلان ..

وليس بالمصيبة ، ولا يكفي فيه أن يوصف بالأمنية ، حين لا عبء ولا تخفيف ، بل تنطلق النفسان محمولتين معا على كاهل « النوع » كله أو على أجنحة الخلود التي تسبح في أنوار عليين .. وما من محبين إلا اتفقت لهما هذه الرحلة السماوية في سهوة من سهوات الأيام ..

* * *

فلسفتي في الحياة

من فلسفة الحياة ما نستمده من الطبع الموروث ..
ومنها ما نستمده من تجربة الحوادث والناس ..
ومنها ما نستمده من الدرس والاطلاع ..

وهي في اعتقادي على هذا الترتيب في القوة والاصالة . فلا يتفق الناس في فلسفة الحياة إذا كان بينهم اختلاف في الطبع الموروث ، وإن اتفقوا في الدرس والاطلاع ، أو اتفقوا في تجارب الحياة ..

وأهم جانب من جوانب فلسفتي في الحياة هو ما استفدته من الطبع الموروث ، وجاءته بعض الزيادة من التجربة أو القراءة ..

وأعني به قلة الاكتراث للمقتنيات المادية ..

فأعجب شيء عندي هو تهالك الناس على اقتناء الضياع والقصور وجمع الذخائر والأموال ...

***

وربما امتد العجب من هذا إلى ما هو أكبر وأعظم إلى رجالات التاريخ وأبطال الفتوح والغزوات ..

فالمتوسعون في الفتح أعجب عندي من المتوسعين في الثراء ، وكلامي عن هتلر ونابليون والإسكندر هو أثر من آثار هذه العقيدة أو هذا الشعور ..

وقد يخطر لبعض القراء انها « فلسفة نظرية » أو نزعة من نزعات الرأي والتدبير ..

أما الواقع الذي أعلمه من نفسي فهو أن الطبع أغلب هنا من التطبع ..

فلم أشعر قط بتعظيم انسان لأنه صاحب مال ، إن لم يكن أهلا للتعظيم بغير مال ..

ولم أشعر قط بصغري إلى جانب كبير من كبراء الثراء . بل شعرت كثيراً بصغرهم حيث يستحقون التصغير ..

وكنت أعتقد دائماً ان نابليون مهرج إلى جانب باستور ، وان الإسكندر المقدوني بهلوان إلى جانب أرشميدس ، وان البطل الذي يخوض الحرب ذوداً عن الحق والعقيدة أكرم جداً من كل « بطل » يقتحم الحروب ليقال انه دوخ كذا من الأمم ، وفتح كذا من البلدان ..

ومن هنا كنت قليل المبالاة بالمقتنيات المادية ، لأن احتواءها لا يعظم من يحتويها في نظري ونقصها عندي لا يصغرني بالنسبة إليه ..

* * *

أما فلسفتي في الحياة مع الناس ، فأثر التجربة والدرس فيها أغلب من أثر الطبيعة الموروثة ..

كنت أتعب في معاملتهم ثم عرفت ما أنتظره منهم ، فأرحت نفسي من التعب ...

واتخذت لنفسي شعاراً معهم :

ألا تنتظر منهم كثيراً ، ولا تطمع منهم في كثير .

والطمع في انصاف الناس ، إذا كان في الإنصاف خسارة لهم أو معارضة لهواهم ، هو الكثير الذي ما بعده كثير .

فهم منصفون إذا لم يكلفهم الانصاف شيئاً ، ولم يصدمهم في هوى من أهوائهم ..

ومنهم المنصف وان جنى عليه الانصاف ، ولكنه واحد في ألوف .. لا تجده في كل حين ..

ولقد رضت نفسي معهم على هذه الحقيقة، وتعودت منهم مجافاة الانصاف حتى كدت أشعر بشيء من « خيبة الرجاء » إذا وقعت اتفاقا على أحـد المنصفين ! ..

فهل هم أهل خير ؟ ..

هل هم أهل شر ؟ ..

ليبحث من أراد أن يبحث في أمرهم على مهل . ولكنه قادر على أن يستريح معهم في خلال ذلك إذا لم يطمع في خيرهم وهم أخيار ، ولم يحفل بشرهم وهم أشرار ..

* * *

وفلسفتي في العمل تتلخص في أصول ثلاثة هي :

قيمة العمل فيه ..

وقيمة العمل في بواعثه لا في غاياته ..

وأساس العمل كله نظام ..

فإذا عملت شيئاً له قيمته ، فثق انها قيمة « محفوظة » لا ينقص منها قول منكر ولا يزيد فيها قول معترف ..

وإذا لم تبلغ بك الثقة هذا المبلغ فاجعلها فرضا بين فرضين ليس لهما ثالث :

إما أن يكون للعمل قيمة مرهونة به فلا بأس عليه ، وامـــا أن تكون

قيمته مرهونة بمشيئة هذا أو ذاك فهو أهون من أن تأسى عليه ..

وقد درج الناس على النظر إلى غايات الأعمال حتى أوشكوا أن يجهلوا بواعثها أو يغفلوا عنها .

* * *

واختلاف البواعث هو الذي ينتهي إلى اختلاف الغايات . فالناس يختلفون في طلب المجد حين يطلبه أحدهم في الرئاسة ، ويطلبه غيره في العلم ، ويطلبه غيرهما في الثروة ، ويطلبه آخرون في الإيمان ..

وإنما اختلفت غاياتهم لاختلاف بواعثهم . فما يبعث هذا إلى العمل لا يبعث ذاك ، وما يزهد فيه بعضهم يتناحر عليه غير الزاهدين فيه ..

فعول على صحة الباعث لك على العمل قبل التعويل على صحة الغاية ، لأنك إذا صدرت عن باعث صحيح هان عليك أن تفوتك الغاية المرجوة ، وعملت ما ينبغي أن تعمله وبقي عمل الزمن أو عمل الأقدار ..

وأصعب الأعمال سهل مع النظام ..

والعمل الكثير مستطاع إذا نيط كل عمل بوقته ، لأن حكم الأعمال الكثيرة في هذه الحالة حكم العمل الواحد .. ما دام له وقت لا يشترك فيه عمل آخر .. وشعاري مع النظام كلمتان : « لا ترتبك » ..

وإنما تأتي الربكة من المفاجأة التي تطرأ على نظامك فتلجئك إلى تغييره ..

فلا تغير نظاما لغير ضرورة ..

وإذا حلت الضرورة فلا تتردد في تغييره ، وخذ بين ذلك بالمهم في وقته الذي لا يحتمل التأجيل ..

* * *

فصواب هذه الخطة ثابت من جانب لا شك فيه ، وهي انها كل ما يستطاع وخير ما يستطاع ، وانك بها تعمل شيئاً ، وبالتردد لا تنتهي إلى عمل شيء ..

فلسفة حياة في بضعة سطور :

غناك في نفسك ، وقيمتك في عملك ، وبواعثك أحرى بالعناية من غاياتك ، ولا تنتظر من الناس كثيراً ..

* * *

الحيَاة ... هَل هيَ جَديرَة بأن نحيَاهَا ؟

نعم .. ولكن أي حياة ؟ .. لقد عاب القرآن الكريم على بني إسرائيل في عهد النبي خوفهم من الموت ، فقال انهم أحرص الناس على « حياة » ولم يقل على الحياة .. لأن الحرص على الحياة واجب طبيعي وواجب إلهي لا عيب فيه ، فلا يلام الحي على أن يحرص على الحياة .. وإنما يلام لأنه يحرص على كل حياة وأي حياة ، ولو قبل الهوان وهرب من الواجب وامتنعت عليه وسائل العمل النافع ووسائل الرجاء في صلاح الأمور ..

وفي ختام مقال لي عن « فلسفة الحياة » قلت ما معناه : ان الحياة تستحق أن نصونها إذا كانت لنا شروط نمليها عليها وتقبلهـــا ، ولكنها غير جديرة بالصون إذا كانت كلها شروطا تمليها هي علينا فنقبلها صاغرين ولا نملك العرف والعدل فيها ..

و هذا هو الفاصل الحاسم الذي نفرق به بين الحياة الكريمة والحياة المهينة ، والحياة الأولى نعمة تصان والثانية سخرة وسخرية في آن . ومن الأمثلة التي يتضح بها هذا الفارق مثال الحياة في الشباب المقبل والحياة في الشيخوخة الفانية .. فالشاب له أن يأكل ويشرب وينعم ويطرب ، وعلى الحياة أن تديم له الصحة والنشاط والقدرة على هضم كل طعام ، واحتمال كل شراب ، والاعراض حينا بعد حين عن المنام .. له أن يسرف ، وعلى الحياة أن تعوضه تعويضاً كاملا عن كل خسارة تصيبه من ذلك الاسراف .. له أن يطيش ،

وعلى الحياة أن تصبر على طيشه حتّى يثوب إلى الحكمة ويصلح بيديه ما كانت تصلحه هي بيديها .. له أن يعذب أبويه بالمغامرة والمخالطة ، وعلى الحياة أن تحبب إليهما العذاب ، وتلهمهما الصفح والحنان .. فهو صاحب شروط ، والحياة تتقبل منه تلك الشروط ، فهي جديرة بأن يحياها ، وهو جدير بأن يتقبلها على هواه وعلى هواها ..

أما الشيخوخة الفانية، فهي على نقيض ذلك من الألف إلى الياء . . حق للحياة أن تحرمها الطعام والشراب شيئا فشيئا ، وواجب عليها هي أن تقنع بما بقي لها وتجرب الاكتفاء بالموجود عن كل مفقود. من حق الحياة أن تطيش معها ، ومن واجبها هي أن تتقي ذلك الطيش بالحكمة ، وتحسب له الحساب بالتدبير بعد التدبير .. فالحياة كلها شروط تمليها عليه ، فيتقبلها ، والحياة إذن غير جديرة بأن يحياها ولكنه يحياها ، فلماذا ؟ .. انه يحياها بحكم العادة وبحكم الضعف عن فراقها ، لأن الإنسان لا ينبذ الحياة إلا بقوة مستمدة من الحياة . ومن أجل هذا ، كانت نسبة الانتحار بين الشبان أكبر من نسبة الانتحار بين الشيوخ ..

* * *

ويشبه هذا المثال الفارق بين الحياة المستقلة والحياة المستعبدة لأهواء الآخرين .. فالحياة المستقلة نعمة ، والحياة المسخرة « مدة سجن » تقضى ، لأن المستقل يملك شروطه ويمليها على الحياة فتقبلها ، ولأن الحياة تملي شروطها على « المسخر » فلا يملك الفكاك منها .. يعمل المستقل حين يشاء ويستريح حين يشاء .. أما المسخر فلا يعمل لنفسه ، ولا يستريح لنفسه ، ولكنه يجري في العمل والراحة على قانون مفروض عليه ولا رغبة له فيه ..

ولنا أن نتخذ الأمثلة من الحياة الفنية كما نتخذها من الحياة الطبيعية ، فنقول : ان الحياة الفنية تستحق العناء إذا كان عندك ما تقوله وتصنعه — وفاقا لذوقك ووحي وجدانك وعقلك — ولكنها لا تستحق عناء قلّ أو كثر إذا

كان كل ما تقوله موافقة لأذواق الناس وعقولهم ، ومرضاة لهم في مطالب المصلحة والجد أو مطالب اللهو والفراغ ..

والشروط بالأمل الصحيح كالشروط بالعمل الواقع في تقويم قيم الحياة .. فليس من الضروري أن تكون شروطك كلها منجزة بين يديك في كل ساعة لأن الحياة ليست ساعة واحدة ، وليست يوما واحدا ، وليست سنة ولا بضع سنوات ..

* * *

فإذا كانت لك شروط مؤجلة فيها ، فهي كالشروط المعجلة على حد سواء . ومثلك في ذلك مثل المنفق على حساب المحصول في المزرعة ، وهو يعلم أن المحصول آت لا ريب فيه .. فالحياة مصرف كبير ، وأموال المصارف ليست كلها حاضرة منجزة في كل لحظة من لحظات النهار والليل ، وإنما تغني عنها الثقة التي لا غنى عنها.

فاقنع بشروط الثقة في بعض الأحوال ، كما تقنع بشروط الثقة في كثير من الأحوال ...

والحياة لعوب ماكرة . لا يحيط بمكرها جميع الأحياء ولو كانوا من أبناء آدم وحواء . وهي تعلم انها تستهوي الخلق باللعب والدهاء ، وتحول بينهم وبين الموت بالحيلة الناجحة في كثير من الأوقات . ولولا ذلك لشردوا منها كما يشرد الأطفال من الحبس الكريه الذي لا يلعبون فيه كما يشتهون . لهذا تعطي بعض الشروط وتمنع بعضها فلا تكون جديرة بالحب كله ولا بالبغض كله في وقت واحد من أوقات عمر الإنسان .

فالشاب له شروط كثيرة على الحياة في الصحة والنشاط ولكنها قد تملي عليه شروطها الثقيلة في مسائل العمل والمال أو مسائل الجاه والنفوذ ، والشيخ عليه شروط يطيعها في شؤون بدنه ونفسه ، ولكنه قد يملك شروطه في تدابير المعيشة التي تريحه ويعوض بها مسافات من راحة العافية والسلامة .

والفنان المستقل قد يقول ما يشاء ، ولكن الفنان « الهواش » قد يربح ما يشاء .. ولولا ذاك لانتحر نصف الناس وعاش الباقون في حكم المنتحرين .. أو منتحرين مع وقف التنفيذ !

قبل أن أطبع ديواني الأول – على ما أذكر – كنا ثلاثة أو أربعة من قراء الشعر والأدب في بعض الضواحي التي يطيب فيها تناشد الأشعار ، فتمثل أحدهم بهذين البيتين :

قالوا الحياة شقاءٌ   قلنـا فأين النعيـم ؟
إن الحيـاة حيـاة   ففـارقوا أو أقيمـوا

وكان بعضنا لا يعلم ان هذين البيتين من نظمي ، فقال هذا الكلام صعب .. هذا كلام استغناء .. كأنه يقول : من لم تعجبه الحياة فليشرب من البحر !

قلت : ليته يجد البحر ليشرب منه ، لأن الموت قفر تنضب فيه جميع البحار الا أن تكون حياض الموت التي قال فيها الشاعر :

أَتَت وحِياض الموت بَيني وبَينِها
وجَادَت بِوَصْلٍ حين لا ينفع الوَصْلُ

فالحق أننا بين أمرين اثنين ، لا ثالث لهما : فإما أن تكون الحياة جديرة بأن نحياها ، وإما أن يكون الموت جديرا بأن نموته .. ولا خيار بعد هذا الخيار..

وأحسب أن إيماني بالحياة لم يتبدل منذ نظمت تلك الأبيات ، وقد كان إيمانا جديراً بالتقدير والتكرير في خاشية الضعف التي رانت على زملائنا من أبناء الجيل كله أو جله ، لأنهم كانوا يتباكون ويظنون ان البكاء علامة الظرف

والذوق ، ويشكون الحياة ويظنون أن جهاد الحياة شيء لا يليق بأصحاب المزاج « الرقيق » .

وليس معنى هذا أننا لا نشكو من حالة من الحالات ، فان الدنيا ما خلت قط ولن تخلو أبداً من أسباب الشكاية بسبب معقول أو غير معقول .. ولكننا نعني أن شكوى الطفل لأمه غير شكوى الرجل لنفسه ، وان الحياة حياتنا .. فنحن مسؤولون عنها ، ونحن نصلحها ونعالج نقصها ونجعلها أهلا لنا أو جديرة بأن نحياها ، وقولنا ان الحياة غير جديرة بأن نحياها مرادف لقولنا اننا نحن غير جديرين بالحياة ..

فلا نقل هذا ولا ذاك ، ولنقل ان الحيـــاة جديرة بـــأن نحياها فنراها كذلك ..

* * *

الفصل السابع

طفت العالم من مكاني

أعتقد أن كبار الرحالين الذين تستحوذ عليهم رغبة ملحة في الطواف بين أرجاء العالم تملكهم على الرغم منهم « ملكة شخصية » يصح أن تسمى عبقرية السياحة ، ويصح أن تتجاوز الحد فتسمى هوسة السياحة ..

وأعتقد أن هذه الملكة الشخصية مستمدة من ملكة قومية أصيلة في الأمة التي يخرج منها أولئك الرحالون المنقطعون للسياحة ..

لأن معظم الرحالين الكبار خرجوا من أمم قد تعود أبناؤها الرحلة وشقت عليهم الإقامة الطويلة . كالعرب لأنهم من أبناء البادية ، والفينيقيين والإغريق لأنهم يقيمون على الشاطىء ويحتاجون إلى الملاحة ، وكالبنادقة والبرتغاليين والإنجليز في العصور المتأخرة ، لأنهم جميعا بحريون وملاحون ..

وأكثر الرحالين الكبار الذين اشتهروا في التاريخ ونسب إليهم الفضل في الكشوف الجغرافية ، هم من أبناء هذه الأمم ، أو أبناء أمم تشبهها في البداوة والاشتغال بالملاحة ..

ملكة شخصية مستمدة من ملكة قومية ..

هذه هي عادة الرحلة التي تغلب على بعض الناس ، أو هذه هي هوسة الرحلة إذا تجاوزت حدها المعقول .

الارتحال : ملكة .

على أني أعتقد — إلى جانب هذا الاعتقاد — أن ملكة الرحلة غالبة على الرحالين وغير الرحالين .

ولكنها تظهر في صور كثيرة غير صورة الرحلة الخارجية ، ومنها الرحلة في داخل النفس ، أو في عالم الخيال .

وبين كبار الرحالين من هذا الطراز أناس لم يفارقوا مكانا واحداً خلال عشرات السنين .

كأبي العلاء المعري ! ..

فانه سمى نفسه « رهين المحبسين » لملازمته داره وحبسه في جسده ، ولكنه شاء أن يرحل في كتاب من كتبه — وهو رسالة الغفران — فلم يقنع بأقل من الرحلة إلى السماء ، وإلى الجحيم !

وكجول فيرن الكاتب الفرنسي الحديث ..

فان ما رآه من جوانب الأرض بالقياس إلى المشاهدات المأثورة عن كبار الرحالين شيء لا يذكر ، ولكنه ساح بخياله في جوف الأرض وفي أعماق البحار وفي أجواء السماء ، بل ساح في عالم الغيب فوصف للناس مخترعات لم تخلق بعد ، ثم خلقت في أوانها فاذا هي كما وصف .. ! حتى قال ليوتي القائد الفرنسي الكبير ان الناس اليوم « يعيشون أحلام جول فيرن » ..

* * *

طواف بغير انتقال

لا بد من السياحه إذن في الخارج أو في الداخل ! سياحة مع الانتقال ، أو سياحة بغير انتقال .

والظاهر — لا بل المحقق — أنني أنا أحد الرحالين بغير انتقال ، كما لاحظ بحق أحد أصدقائي ، حين علم مرة باعتذاري من تلبية الدعوة إلى كثير من السياحات ، وبعضها بغير نفقة على الإطلاق ..

ومع هذا يجوز لي أن أقول انني طفت العالم من مكاني الذي لا أبرحه ، لأنني رأيت في هذا المكان ما يراه الرحالون المتنقلون ..

لقد تعلقت بالسياحة في أوائل صباي ، وشاقني أن أسيح هنا وأسيح هناك بين مشارق الأرض ومغاربها . ولكنها كانت كلها كما تبين لي بعد ذلك عارضاً من عوارض الصبا التي تنزوي مع الزمن وراء غيرها من الميول المتمكنة في السليقة ، فما زالت تضعف وتضعف حتى ليسعني أن أقول اليوم إنني لولا رياضة المشي التي تعودتها لما خطر لي أن أبرح المنزل أياما بل أسابيع .

ولذلك سبب مني ، وسبب من أحوال العصر الذي نعيش فيه ..

فأما السبب الذي مني فبعضه يرجع إلى حب العزلة التي نشأت عليها وورثتها من أبوي ..

وبعضها يرجع إلى شعوري بالقراءة التي تعنيني . فانني أشعر بأنني لا أقرأ سطوراً على ورق ، ولكني أحيا في تلك الأوراق بين أحياء .

ومن هنا ألفت بعض شخوص التاريخ كأنني أعاشرهم كل يوم ، وألفت بعض الأدباء في قراءة كلامهم فتمثلتهم في ملامح وجوههم وعاداتهم ، في حركتهم وسكونهم ، واستمليت من ديوان شاعر كابن الرومي سيرة حياته أو صورة حياته ، وثبت له في خيالي شكل لا يتغير ولا يزال يلوح لي على هيئة واحدة كلما طاف بي طيفه في منام .

ومثله المعري والفارابي وابن سينا وطائفة من مشاهير الأدب والفن بين الشرقيين والغربيين .

فلو كنت مصورا لاستطعت أن أرسم لكل منهم صورة كاملة كما يرسم المصور أناسا من الأحياء يراهم كل يوم .

* * *

وسائل العصر تفني

أما السبب الذي من العصر ، فلك أن تقول انه في الحقيقة جملة أسباب .

لأن العصر الحاضر أول عصر ييسر للانسان ــ وهو جالس في مكانه ــ أن يدرك بالبصر والسمع بلاداً واسعة على مدى مئات الفراسخ وألوفها فينظر مساكنها وسكانها ، ويشرف على بطاحها ، ويتغلغل في دروبها ، ويتراءى له في لحظات من معالم هذه المدينة أو تلك القرية ما ليس يتراءى لساكنها في ساعات أو أيام .

كانت السياحة هي الوسيلة الوحيدة للاحساس بالبلاد البعيدة .

أما اليوم فنحن نحسها بالعين والأذن كلما أردنا ، ونحن في الدار أو على مقربة من الدار ..

الصحف تنقل الينا أخبارها .

والاذاعة تسمعنا أصواتها وأصداءها .

والصور المتحركة تستدني للآذان ــ كما تستدني للعيون ــ كل ما هو خليق منها بمشاهدته أو الاستماع اليه .

وعلم تخطيط البلدان قد يعرفك بما يجهله المقيمون فيها ، ومراجع التاريخ قد تملأ نفسك بما يملأ عصورها من الأحداث والذكريات ، ونقوش الفنانين وأغاني الشعراء والموسيقيين تهيء لك أن تنفذ الى روحها وتمتزج بعبقريتها ، وتحياها على أحسن أنماطها في الحياة .

* * *

خير من لا شيء !

نعم إن الاحساس بالمكان ـ وأنت فيه ـ غير الاحساس به وأنت على مسافة منه . . ولكن هل نستطيع أن نقول ان الاحساس بالمكان القريب يغني عن الاحساس البعيد ؟ أو هل نستطيع أن نقول ان الاحساس من الداخل يغني عن الاحساس من الخارج ؟ أو ان الاحساس بالعين والأذن يغني عن الاحساس بالوعي والخيال ؟

هما إحساسان ولا شك لا زمان . .

والخير كل الخير أن تجمع بينهما ، وأن تكون رحلتك الخارجية مقرونة برحلتك الداخلية ..

فاذا تعذر الخير كل الخير فالخير بعض الخير « خير » من لا شيء !

ولست أزين لأحد أن يفضل طريقتي في السياحة على طريقته . ولكنني أنا على الأقل لن أنقطع عن السياحة في العالم رحالةً بغير رحلة ، وطوّافاً بغير طواف !

* * *

أجمل أيامي

قال : حدثنا عن أجمل أيامك من شبابك الى مشيبك .

قلت : أمهلني حتى أذكر .

ثم راجعت نفسي قبل أن أمعن في التذكار وأستقصي ما عندي من ودائع الأسرار والاخبار ، فسألتها مصارحا في سؤالها :

— فيم هذا الامهال وفيم هذه المراجعة ؟ انك لا تفعل ذلك الا أن تكون أيامك الجميلة قد بلغت من الكثرة أن تفوق الحصر والحساب وأن تحتاج منك الى العناء في التمييز بينها وتفضيل ما يذكر منها ، بعد طول الأخذ والرد والترجيح والتعديل !

فهل تراك تزعم لنفسك ، أو تزعم لقرائك ، انك صاحب هذه الثروة التي لا تحصى من الأيام الجميلة ، وانك في حيرة بين ما تأخذ منها وما تدع وبين ما تقدم منها وما تؤخر ، وبين ما تنشره منها وما تطويه ؟

دعواك هذه — إن ادعيتها — لا يدعيها أحد من بني آدم وحواء ، فما بلغت السعادة بهذا النوع البشري المسكين أن يستمتع في حياته بكل هذا المقدار من جمال الأيام او جمال الأوقات التي تحسب بالساعات .

فإن لم يكن هذا مبلغ ثروتك من الأيام الجميلة ففيم العناء في التذكر والاستعادة ، وفيم التسويف والارجاء ؟

هل هذه الأيام الجميلة من الخفاء بحيث يحجبها ظلام السنين عن النظر وتطويها حوادث الايام في زوايا النسيان ؟

كلا .. ولا كل هذا التواضع « الجميل » في رأي الكثيرين من المزيفين للأقوال والأعمال ، فما من إنسان يعمل في دنياه ويتصل بإخوانه من ذرية آدم وحواء تفوته الأيام المذكورة التي لا تنسى على طول العهد أوالتي تغلب النسيان ولو تقلب عليها الليل والنهار .

فلا محل للبحث في أعماق الذاكرة لاستخراج تلك الودائع الباقية ، وإنما البحث في أعماق الذاكرة لغرض آخر غير حصر أيام الحياة التي تحسب من الحياة ونحب من أجلها الحياة .

انما البحث في أعماق الذاكرة للتمييز بين الأيام التي يحق لنا أن نصفها بالجمال والأيام التي يكفي أن تحسب من أيام المتعة واللذة أو أيام السرور والارتياح ..

وبين الصنفين فارق بعيد فيما يذكر وما لايذكر .

بينهما الفارق الذي يجعل أحد الصنفين جديراً بالغبطة والتنويه ولولم يكن منه في العمر غير يوم واحد ، ويجعل الصنف الآخر على أحسن الأحوال نموذجاً يتكرر على نمط واحد ويكفي أن يذكر منه عنوانه ليغنينا بعد ذلك عن ذكر المئات والألوف من الأيام ، يدل عليها ذلك العنوان ..

* * *

في حياة كل إنسان ذخيرة وافرة من الأيام اللذيذة الهنيئة والأوقات الرخية الراضية ، ولكنك تحسبها من أمتع أيام الحياة ولا تحسبها من أجمل أيام الحياة .

فمن هذا الذي يعرف مايذكر وما ينسى من الأيام ثم يستوقف السامعين ليحدثهم عن الأكلة الشهية التي ساغت له أمس أو قبل عشر سنين ؟..

ومن هذا الذي يعرف معنى الجمال ثم يحسب منه تلك الليلة اللذيذة التي

قضاها في أحضان الحب والهوى ، ونعم فيها بنعومة ذلك الجسد وحرارة ذلك العناق .

هذه اللذائذ لاتفوت إنساناً من بني آدم وحواء ، وليست من جمال النفس الإنسانية في شيء ، وإنما هي تمرينات محبوبة للحواس ينعم بها كل ذي حس من الحيوان كما ينعم بها كل ذي نفس من بني الإنسان .

ليست هذه أجمل أيام الحياة ، ولكنها كما تقدم أمتع أيامها أو قد تكون في حساب الجسد أحب الأيام إليه .

أما اليوم الجميل فهو اليوم الذي يرتفع بنا إلى مقام فوق المتعة والألم والراحة وفوق المعدات والأكباد والجلود ، وفوق مطامع النفس التي يغلبها الطمع ويسومها أن تقبل الجميل والقبيح وأن ترضى بالحميد والذميم ..

* * *

اليوم الجميل هو الذي نملك فيه دنيانا ولا تملكنا فيه ، وهو اليوم الذي نقود فيه شهواتنا ولذاتنا ولا ننقاد لها صاغرين أو طائعين .

ومن هذه الأيام ما أذكره ولا أنساه ولا أحتاج إلى العناء في البحث عن ذكراه ..

فكل يوم ظفرت فيه بنفسي وخرجت فيه من محنة الشك فيما أستطيع وما لا أستطيع فهو يوم جميل بالغ الجمال .

جميل ذلك اليوم الذي قضيت عشرات الأيام في انتظاره متردداً بين اغراء اللذة وايحاء الكرامة ، حتى وصلت إليه فحمدت لنفسي أنها عملت بما ينبغي أن تفعل ، واستطاعت أن تفعله ولا تندم عليه ..

جميل ذلك اليوم الذي ترددت فيه بين ثناء الناس وبين عمل لايثني عليه أحد ولا يعلمه أحد فألقيت بالثناء عن ظهر يدي وارتضيت العمل الذي أذكره ما حييت ولم يسمع به إنسان ..

جميل ذلك اليوم الذي وقفت فيه بين الخوف من عواقب الخروج على زمرة الأقوياء القابضين على أزمة الأمر والنهي في البلد وبين الرضا بمساوئهم وأباطيلهم وغنائم رضاي ورضاهم ، فخرجت من الزمرة غير ملتفت إلى الوراء وأسعدني الطالع المبارك فجمعت بين جرأة المجترىء وحكمة الحكيم ، وبين تضحية المجازفة وثواب الحزم والروية .

جميل ذلك اليوم الذي كاد يحشو جيوبي بالمال ويفرغ ضميري من الكرامة فآثرت فيه فراغ اليدين على فراغ الضمير ..

جميل ذلك اليوم الذي احتجت فيه واحتاج فيه مسكين فغلبت شح النفس ، ووجدت بين جوانحي طاقة الصبر على الضيق ولم أجد فيها طاقة الصبر على منظر العين الذليلة والقلب الكسير ..

جميل ذلك اليوم الذي استغنيت فيه عن العمل وملكت فيه مايغري بالكسل فطاب لي التعب الذي لاحاجة إليه ، ولم يطب لي الكسل الذي يحببه إليّ طول الجهد وقلة الجزاء على العمل الكريم ..

* * *

هذه الأيام جميلة أجمل ما فيها أن نصيبي منها جد قليل ، إلا أن يكون النصيب عرفاني باقتدار نفسي على ما عملت فهو إذن كثير بحمد الله لا أبادل عليه المكثرين من خيراتهم وطيباتهم ، كما يحسبون الخيرات والطيبات ..

أجمل ما في الحياة يوم تملك فيه نفسك فتعلم أنك ملكت الثروة التي لايقاس بها ملك المال ولا ملك اللذة ولا ملك الثناء .

أيام لا أقول انها تكثر حتى تعد بالعشرات ولا أقول انها تندر حتى لا تذكر ، ولكنني أذكرها وقد سئلت عنها لأنها تعريف بالجمال حين نتحدث عن جمال الأيام ، وعزاء لمن قنع بها من حياته ليعلم أنها تبقى في الذاكرة وانها محصول سني العمر ويحمده من ملكه ، ولو لم يملك سواه ..

أكرَه الصَيف

قال شاعر حديث :

يَطْلُبُ الانسانُ في الصَّيفِ الشِّتـا
فإذا جـاءَ الشِّتـا أنْكَـــرَه
لَيس يَرْضَى المَـرْءُ حالاً واحِداً
قُتِـلَ الإنسَانُ مـــا أَكْفَــرَه !

أما أن الإنسان كنود كفور فحقيقة لاشك فيها ، إنه كثيراً ما ينعم بالخير فلا يشكر ولا يذكر ، وكثيراً ما يقابل الخير بالشر والإحسان بالإساءة ، فلا يخطىء الشاعر الذي ينعي عليه كنوده ونكرانه وكفره بنعماء ربه وبني جنسه..

* * *

وقريباً كنت أعاود القراءة في مقالات طبيب عالم فاضل له شهرة بالعطف على الحيوان ، فقرأت للمرة الثالثة أو الرابعة قوله ان « حب النوع الإنساني » فضيلة عليا ولكنه هو « آسف لأنه لايستطيع أن يدعي هذه الفضيلة » .. وحسبه منها أنه قانع بحبه لأنواع الحيوان ومصاحبته لما عنده من الكلاب والقردة ، وهو الذي لايطيق أن يزيد في حديثه مع أحد من الناس على نصف ساعة ، ثم يحاول النجاة ويعجب لمحدثه كيف لم يسبقه إلى هذه المحاولة !

قرأت هذا الاعتراف لكاتبه الدكتور « آكسل مونته » أصدق الناس عطفاً على العجماوات فلم أعجب لقراءته في هذه المرة ولا في المرات السابقة ، لأنه في الواقع رجل صادق لايخفي حقيقة شعوره ، ولا يلقي القول على عواهنه ، فإن جنسنا البشري — ولا فخر — يستحق هذا وأكثر منه من فضلاء أبنائه ، والدكتور آكسل مونته في طليعة هؤلاء الفضلاء ..

قتل الإنسان ما أكفره .. صدق الشاعر وصدق الطبيب ، ولكن الشاعر لم يصب في اختيار « الحيثيات » كما أصاب في الحكم على المتهم ، فقد يشتاق الإنسان في الشتاء إلى الصيف وقد يشتاق في الصيف إلى الشتاء ، ولا يستحق وصف الكفر والكنود من أجل هذا ! ولا يقال فيه إلا أنه يصبر إلى حين ، ثم يخذله الصبر بعد ذلك الحين .

فتقسيم الفصول في الدنيا لم يقصد فيه الدوام ولم تجمع الخيرات كلها في موسم واحد ، بل وزعت على الفصول كلها وجعلت في بعض الأقطار فصلا واحداً لاتختلف مواسمه على طول السنة ، فلا يلام الإنسان إذا هو تمنى بعض الخير الذي غاب عنه أو شكا بعض الشر الذي ألح عليه ، وقد يمهد له العذر في ذلك « أن الحال من بعضه » وأن الكرة الأرضية نفسها تتقلب في دوائر الفلك فلا تصبر على صيف أو شتاء ، ولا تقنع بربيع أو خريف ..

* * *

وحتى لو كانت « الفصول » رضى النفس في كل موسم لا أحسب أن الملل منها يدل على « الكفر والكنود » كما يدل على طلب التقدم وحب الاستطلاع ، فإن الإنسان يترقى ويتقدم لأنه يترقب حالا بعد حال ويطمح إلى المزيد من الخير الذي يحصل في يديه ، ولولا ذلك لبقي على نقصه وسوء حاله ولم يرتفع إلى طبقة بعد طبقة في تاريخه ، ولو جاز لنا أن نلوم الإنسان لأنه يتغير ويحب التغير ، لجاز لنا أن نلوم الطفل الذي ينتقل إلى الصبا ونلوم الصبي الذي ينتقل

إلى الشباب ونلوم الشاب الذي يبلغ كمال الرجولة مع الزمن ، ثم لايقنع بذلك حتى يتمنى الخلود .

كلا أيها الشاعر الحكيم الذي صدق في حكمه ولم يصدق في حيثياته ، فقل ما شئت في كنود الإنسان وكفره بالنعماء، ولكننا ندع لك « حيثياتك » تعيد النظر فيها على مهل، ونقول لك ياصاح اننا نحن أيضاً نطلب الصيف في الشتاء ونطلب الشتاء في الصيف، ونعرف لكل فضله وحسنه وسبب اختياره، فنحسب هذا العرفان « عرفاناً بالجميل » ولا نحسبه من الكنود والكفر بالنعماء .

وإذا لم يكن بد من طلب الدوام .. فليدم لنا فصل الشتاء وليذهب عنا الصيف حيث شاء ، إلى أقصى الأرض أو أطراف السماء !

* * *

يقال إن الناس يختلفون في تفضيل الفصول على حسب اختلافهم في المولد وموعده من تلك الفصول ، فمن ولد في الصيف فهو صيفي الهوى والمزاج ، ومن ولد في الشتاء فهو محب للبرد مستريح إليه !..

فإن صدق هذا الزعم فليصدق على من شاء من مواليد الصيف ، ولكنه — مع الأسف — لم يصدق عليّ قط ولا هو صادق عليّ الآن ، لأنني ولدت في أشد أيام الصيف من شهر يونيه بمدينة أسوان — ولا يزعجني شيء كما يزعجني الصيف إذا ارتفعت حرارته فوق حرارتي على الخصوص ، وتقدم من « الثلاثينات » إلى حدود الأربعين ، وهي كما يقولون سن النضج وقد صدقوا .. ولكنه نضج الجلود لا نضج الأعمار ..

ولا تزعجني منه مضايقة المزاج فقد تعودنا من الدنيا مضايقات كثيرة أشد على النفس من هذه المضايقات ، وإنما يزعجني منه أنه « يتعب الكبد » حقيقة ومجازاً ، وتعب الكبد والعياذ بالله غاية الإزعاج وقلب المزاج ..

وقد سألت كثيرين ممن ولدوا مثلي في هذا الفصل الخانق ، وإن لم يوصف بأنه

بارد ، فكان لسان حالهم أنهم نسوا مولدهم فيه ، ويخيل إليهم أنهم سيموتون فيه !

* * *

ومن نقائض الصيف أن يمتد فيه وقت العمل وتقصر فيه القدرة عليه عند معظم العاملين ، فيبلغ النهار أربع عشرة ساعة وتهبط الطاقة إلى بضع ساعات ، فلا هو بالموسم العامل ولا هو بالموسم المريح ، وإذا احتالوا عليه في الغرب بتقديم الساعات فهذه الحيلة في الشرق قلما تقدم أو تؤخر لأنه يطالب أبناءه بالقيلولة في الظهر الأحمر كما يقولون ، فينامون في النور الساطع ولا ينامون في الظلام الحالك ، وينقلب ليلهم بنهار ، وهم يفرون من الديار ولات حين فرار .

ومن نقائضه أنه يدعى موسم الثمرات لأنه موسم الحصاد ، ولولا أنها نبتت في الشتاء أو الخريف لما حصدت فيه ..

وإذا ارتفعت فيه الحواجز وتفتحت فيه الأبواب ، فكثيراً ما تنفتح للناس وهو من ورائهم كرار قهار ، يطردهم طردا إلى الخلاء بغير قرار ، وقد يطردهم من ديارهم إلى خارج الديار ، وإن شط المزار .

وإذا أغناهم عن النار أحوجهم إلى الثلج ، أو أغناهم عن الكساء أحوجهم إلى نسمات الهواء .

يتأففون منه بحكم الفطرة قبل حكم المشيئة ، فهم بين زافر ونافر ، وبين نافخ في الهواء أو متطلع إلى السماء ، فلو أراد أن يتجمل ويتلطف ، غلبته « القافية » فتململ وتأفف ، وأوجس شراً وضاق صدراً ، وان اتسعت حوله منادح الفضاء !

إلا أنني أحمد له ساعة لا يحمدها أحد ، لأنها الساعة التي ينام فيها كل أحد ، ولا أحس فيها لاغية في الطريق ، ولا في البلد ! ..

عودت الليالي في صيفها أو شتائها ألا أقضيها كلها نائماً وإن قصرت

مسافتها بين المغرب والمشرق ، فلا بد من يقظة أو يقظات ، ولا بد في كل يقظة من جلسة إلى صفحة أو أسطوانة ، أو نظرة على الأفق إلى الشرفة قد تطول في كثير من الليالي إلى مطلع الفجر ، وقد تنسيني الفراش حتى الصباح ..

يتعمق بي الليل أو أتعمق به في هذه الجلسات الطوال ، فتنقطع الرِّجْل من الطريق كما يقول سهارة الليل ، وتنقضي اللحظة بعد اللحظة ولا حس ولا خبر ولا موقع قدم ولا همسة هامس من قريب أو بعيد .

وحدي في الكون كله ، أو الكون كله لي وحدي .. وحسبك من الصيف أن يعطيك لحظات معدودات تحس فيها بالكون كله بين يديك ، مخلوقاً لك بغير منازع ولا شريك .

تحس بهذا نعم مجرد إحساس لا تستولي به على الحقيقة في ظاهرها وباطنها ، ولكنه الإحساس الذي يكفي لأنه غاية الكفاية وغاية الامكان ..

لحظة تنفرد فيها بالكون كله ولو في عالم بين اليقظة والمنام ، وهل يتفرد أحد بشيء من الأشياء في غير عالم الوهم أو عالم الأحلام ؟

أنانية ؟ ..

أتقول : أنانية ؟ .. قل ما تشاء ، ولكن لا تنس ان « الأنانية » التي تتسع للكون كله أوسع من الزحام الذي تتصادم فيه الرؤوس والأقدام ..

في تلك اللحظات لا أنسى حكيمنا « رهين المحبسين » وهو يقول :

ولو أَنّي حُبِيتُ الخُلْـدَ فَرداً

لمـا أَحْبَبْتُ بالخُلْـدِ انْفِرَادَا

* * *

نعم لا أنساه ولا أزال أقول معه : إنني كذلك لا أحب الخلد منفردا به

على حال ، ولست أحسب أحداً يحب هذا الذي كرهه أبو العلاء ، أو يحسبه نعيما يحرص عليه أبناء الحياة الفانية.

فكلنا في هذا سواء .. أحكم الحكماء وأجهل الجهلاء ..

لا انفراد بالخلد ولا نعمة فيه ولا نعيم عين .. أما التفرد بالكون كله ساعة أو بعض ساعة فذلك غاية المنى ولو في الحلم ، أو في يقظة كأنها من حلم الصيف !

فإذا أعطانا الصيف تلك اللحظة نحسها واهمين أو متخيلين ، فتلك شفاعة له من لفحات لهيبه ، ونفحات صبيبه ، ومن أسباب الغفران أنه أوان لا يخلد به الزمان ، وما دام يزول فله من اقباله عذر مقبول .. !

* * *

الفصل الثامن

بعد الأربعين

من الأقوال الشائعة ان الشباب يبدأ حياته « خياليا » ثم يصير إلى الواقع شيئا فشيئا حتى ينكر كل خيال ..

لكنني أذكر أن البداءة معي كانت على خلاف هذه القاعدة وأنني الآن أقل إيمانا بما يسمونه التفكير الواقعي مما كنت في مستهل الشباب .

ففي مقدمة « خلاصة اليومية » وهي أول كتاب طبعته قبل عشرين سنة قلت ألخص الأفكار التي جمعتها في تلك الخلاصة :

« أولا » : إن كل ظواهر هذا الكون علويها وسفليها ، ظاهرها وباطنها ، نتيجة تفاعل القوى المختلفة .. وكذلك الأمر في الاجتماع البشري ..

« ثانيا » : إن اللذة والألم أو — بعبارة أعم — المنفعة والضرر هما الدعامتان اللتان عليهما تقوم الأخلاق البشرية كافة ..

« ثالثا » : إن الإنسان حيوان راق ، ولكنه لا يزال « حيوانا » ..

فهذه نظرة « واقعية » لا أومن بها الآن بعد أن جاوزت الأربعين ، وليس يتسع المقام هنا لتفصيل الخلاف بين رأيي في العشرين ورأيي في الأربعين ، فهذا مجال واسع كثير الشعب كثير التفاصيل . ولكنني أردت أن أقول ان الأمر

قد يختلف أحيانا ، فيبدأ الشاب بالنزعة الواقعية ، ثم ينتهي إلى التعديل فيها ، وليس من الضروري في كل حال أن يبدأ بالخيال وينتهي بالنزعة الواقعية ..

على ان الحقيقة التي لا ريب فيها ان « النزعة الواقعية » عند الشاب لا تخلو من الغضب العنيف على محاسن الخيال والأمثلة العليا ، فكما ان الفتى المدله يشعر بالخيانة من حبيبته فيروح ثائرا غاضبا يقسم انها دميمة وانها حقيرة وانها لا تستحق منه الشغف ولا الغضب والنقمة ، كذلك يفعل الشاب الذي يخيب أمله في المثل الأعلى فينقلب عليه ثائرا غاضبا يقسم ان المثل الأعلى خرافة ، وان الحياة كلها « مادة » وان الإنسان حيوان وخير له أن يعيش كالحيوان .

* * *

فلا ينبغي أن نصدق العاشق المخدوع الثائر على الحبيبة ولا الفتى المفكر الثائر على المثل الأعلى .. فان العاشق يثور وينكر جمال حبيبته لأنه يحب ويريد أن يحب ، والفتى المفكر يثور وينكر جمال المثل الأعلى لأنه يؤمن ويريد أن يؤمن . وهذا هو الفرق بين النزعة الواقعية عند الشباب والنزعة الواقعية عند الشيوخ .. ففي الشباب تكون النزعة الواقعية أشبه بالغضب من محاسن الخيال والمثل العليا ، وفي الشيخوخة تكون النزعة الواقعية إنكاراً لوجود تلك المحاسن والمثل وعجزا عن الشعور بوجودها مع الرضى عنها أو الغضب عليها ..

فأنا في التفكير بدأت بشباني « واقعيا » وانتهيت إلى الشك في قدرة الإنسان على ادراك الواقع كله .. لأن ادراك الواقع كله لا يتأتى لإنسان محدود في زمانه ومكانه وتفكيره وشعوره ، إذ الواقع كله شيء يتناول الكون في ظاهره وخافيه ، وليس للكون حدود في الزمان والمكان ولا في مؤثراته على الفكر والشعور .. فالذين يحسبون انهم قادرون على ادراك الواقع في المسائل الكبرى والأصول الخالدة هم الواهمون ، وهم هم الذين لا يستحقون اسم «الواقعيين».

* * *

هذا في التفكير ..

أما في المسائل النفسية ، فالذي أجزم به أن الزمن لا يغير عناصر النفس الأصيلة ولا يزيد عليها ولا ينقص منها ..

فكل ما كان في نفسي من أخلاق وأطوار وشهوات أحسستها في ابان الشباب الأول لا تزال قائمة هناك أراها في العشرين ، وفي الخامسة والعشرين ، وفي الثلاثين وفي الأربعين ..

كل ما اختلف منها انها كانت في حالة الفوران ، ثم هي جانحة قليلا إلى الاستقرار ..

فكأنما هي مواد في قدر تغلي وتضطرب ..

* * *

ففي ابان الشباب الأول كان الغليان شديدا ، فكانت هذه المواد تذوب وتتحلل ويختلط لون منها بلون وعنصر منها بعنصر ، ولا تني صاعدة هابطة لا تلمحها إلى اليمين حتى تراها إلى الشمال ولا تهم بأن تحصرها وتعرف مقدارها حتى تغيب عنك وتفلت من الاحصاء .

أما فيما بعد ذلك فقد جنحت إلى الاستقرار فأمكن أن تراها وأن تحصرها وأن تعرف معادنها وألوانها ، وقد رسب منها ما رسب ، وطفا منها ما طفا ، وقل اختلاطها وتميزت ألوانها فسهل من احصائها ما كان صعبا وأسلس من بيانها ما كان عصيا ، ولكنها في جميع الناس هي هي بلا زيادة ولا نقصان .

فالسن لا تغير الطبائع ولا تضيف إلى عناصر النفس أو تأخذ منها ، ولكنها تعرفنا بمقاديرها ومواقعها وتنقلها من غليان مبهم إلى استقرار واضح ، ولكل من هاتين الحالتين فضله ورجحانه ففي الغليان قوة وفي الوضوح معرفة ، والمعرفة مع ذلك قوة للعارفين ..

ذلك مجمل ما يقال في التغيير الذي طرأ عليّ بين العشرين والأربعين من

حيث التفكير ، ولا سيما في المسائل الكبرى ، ثم من حيث الأخلاق والبواعث النفسية .

* * *

أما شؤون المعيشة أو ما يسمى في بعض الأحيان بفلسفة العيش فالاختلاف فيه بين العشرين والأربعين غير قليل ..

ففي العشرين كنت كالمسافر الموعود في رحلته بأمتع المناظر وأعجب المفاجآت ، فلا يزال يعرض عما يراه لأنه دون ما كان ينتظر ويتخيل ، ولا يزال مستهينا بالحاضر أملا فيما يليه .

أو أنني كنت في العشرين كالجالس على المائدة وهو يظن أن أطايب الطعام لا تزال مؤخرة محجوزة ، لأنه لم يجد أمامه طعاما يستحق الإقبال ..

فهو لهذا يصيب منها القليل ويعف عن الكثير ، ويزهد فيما بين يديه ويتشوق لما بعده .

حتى إذا أشفق أن ينهض جائعا تناول مما بين يديه في اعتدال فأمن الجوع وأمن فوات المقبل الموعود .

* * *

وكذلك كنت في العشرين وأصبحت في الأربعين ، فكنت أرى كل متعة حقيرة زهيدة شوقا إلى ما بعدها وارتيابا في قيمتها وأن تكون هي كل ما تزلفه الحياة لأبنائها ، ثم أخذت نفسي بأن أتناول ما على المائدة تناول رجل لا يفوت الحاضر ولا يحب أن يفوته المستقبل ، والعجيب أنني كنت متنطسا عازفا عن الدنيا حين كانت عندي كلها مادة وحيوانية ، وأنني أقللت من التنطس والعزوف حين رأيت في الدنيا شيئا غير المادة والحيوانية .. وإنما يبدو هذا عجيباً في الظاهر الذي نراه لأول نظرة دون الباطن الذي نراه بعد انعام النظر ، فان العزوف الأول كان عزوف عاشق ساخط يطلب من الحياة الكثير

فإن لم يأخذه أنف من القليل .. ومن طلب صاحبته كلها لم يقنع منها بنفاية ما تعطيه ! .. فالفرق ظاهر بين هذه العلاقة وعلاقة العشرة الهينة التي تقوم على رأي بشار :

إذا أَنتَ لم تَشْرَب مِراراً على القَذَى
ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّـــاسِ تَصَفُو مَشَارِبُه

* * *

وبعد فما النصيحة التي ينصح بها رجل في الأربعين للشبان الناشئين ؟

أحسب أن الشيوخ أولى مني بنصيحة نافعة في هذا المقام ، وتلك هي أن يجتنبوا اللجاج في النصح للشبان الناشئين لأنه أضيع شيء عندهم ولا لوم عليهم. إذ ليس في وسع الشاب أن يعيش في عمرين مختلفين ولا في وسعه أن يجمع بين حياة المجرب وحياة غير المجرب كائنا ما كان نصيبه من اليقظة والذكاء . ولو كانت النصيحة تغني عن التجربة كل الغنى لكانت الحياة عبثا ضائعا ولاستطاع الفتى في العشرين أن يعلم ما قد علم الشيخ في الستين أو الثمانين . فالشيخ الذي يحاول أن يلقن الشاب الناشيء حكمة الشيخوخة كالبستاني الذي يحاول أن يغرس نبات الشمال في حرارة خط الاستواء ، فهذا وذاك على خطأ لا يليق بالمجربين .

* * *

إنما النصح أن توجه ذهن الفتى الناشيء إلى ناحية من الحياة توضحها له ما استطعت التوضيح ، فأنت تصوب النور أمام عينيه ، ولكنك لا تعطيه النظر ولا الرغبة في المسير ولا القدرة عليه ، وهذا هو مدى النصيحة المعقول ، من تعداه من المجربين فتجربته عبث ، وهو — قبل الناشئين — في حاجة إلى الناصحين !

وَحيُ الخَمسين

من كلمات فيكتور هيجو – على ما أذكر – ان الخمسين شيخوخة الشباب ، ولكنها شباب الشيخوخة .

وفي هذه الكلمة حقيقة أكثر من مجازها ، على خلاف كلمات هيجو التي يكثر فيها المجاز وتقل الحقيقة ، ذهابا مع الجرس أو إيثارا لمحاسن التشبيه..

فذو الخمسين شاب بين الذين نيفوا على السبعين أو الثمانين ، يشعر بهذا كما يشعرون به وان لم يقصدوه ويتعمدوه . فإذا اجتمع مجلس من المجالس التي يختار لها الأعضاء ممن جاوزوا الأربعين ، كبعض المجالس النيابية وبعض المجامع العلمية والأدبية ، رأيتهم يتصرفون في التقديم والتأخير والإيثار بالراحة والرعاية ، تصرف الأبناء والآباء في الأدب والمعاملة وهم دون ذلك في السن بكثير ، ورأيت أبناء الخمسين وربما بدرت منهم « شيطنة » التلاميذ في معاملة الأساتذة الذين يوقرونهم ويحبونهم ، ولا يخلونهم من فلتات « الشيطنة » مع ذاك !

***

ولا حاجة بنا إلى اطالة التذكير بتلك الحقيقة الخالدة التي لا ينبغي أن تنسى في مقام ، ونعني بها ان المسألة اعتبارية اضافية في جميع الأعمار والعلاقات ، فما يصدق على الخمسين عند فريق من الناس قد يصدق على غيرهم وعلى

الستين عند آخرين . فإنما الكلام في هذه الأمور على الإجمال ، ولا يتأتى أن يساق الكلام فيها على التفصيل لكل فرد من الناس على حدة .

ومن الصور التي كانت شائعة في أوائل القرن الحاضر – ولا ترى الآن كثيراً – صورة العمر الإنساني وأدواره من السنة الأولى إلى المائة ، فندر دكان حلاق دخلت إليه قبل ثلاثين سنة الا كانت فيه هذه الصورة التي كان لكل زائر وقفة عندها يتبين فيها مكانه من الدرج الصاعد أو الدرج الهابط . وربما كان التفات الشيوخ إليها أكثر من التفات الصبية والشبان لأن الصبية والشبان واثقون من المكان في حاضرهم وبعد زمن طويل ، أو طويل على ما يحسبون ، ولكن الشيوخ لا يثقون من مكانهم على هذه الدرجات الا إلى حين – فهم دائمو التلفت إليه ، مخافة أن يضيع ! ..

في تلك الصورة طفل مولود في مهده ، ثم ولد في العاشرة يعدو وراء طوقه ، ثم شاب في العشرين يصاحب فتاة في مثل عمره أو دون عمره بقليل ، ثم رجل في الثلاثين معه امرأة تقاربه سنا وبينهما طفل أو طفلان ، ثم كهل في الأربعين تمت له مظاهر السمت والقوة والقوام ، ثم يرتقي على قمة الدرج في أوسطه شيخ في الخمسين قد أدار ظهره إلى الدرج الصاعد وقد أدركه بعض الانحناء ، واستقبل بوجهه الدرج الهابط وقد تزايد انحناء الهابطين عليه درجة بعد درجة ، أو دركة بعد دركة ، حتى انتهوا إلى كرسي كمهد الطفل في سنته الأولى ، يجلس عليه شيخ فان في المائة ، قد نكس رأسه ، لا يلتفت إلى الأمام ولا إلى وراء ..

تمثيل حسن لأدوار العمر الإنساني على كل درجة من درجاته مع استحضار الفوارق النسبية بين انسان وانسان .

ويصح على هذا التصوير أن تكون الخمسون أعلى الذروة في درجات العمر كله ، قبلها الصعود وبعدها الهبوط ، وهي بينهما في مكان الاعتدال والاستواء.

ومن المحقق أو الراجح في جميع الأعمار ، أن الخمسين نهاية الكسب أو

التحصيل من الحياة ، ليس بعدها ما يأخذه الإنسان من الدنيا ويضيفه إلى تكوين عقله وجسمه ، ولكنه لا يزال بعدها يعطي الكثير ويفقد الكثير ، إيذانا بفقد كل شيء يأخذه التراب من التراب .

إذا قيل على هذا التعبير ان الثلاثين سن التحصيل ، وان الأربعين سن الجمع والثروة ، فالذي يقال في الخمسين انها سن التصفية و « عمل الحساب » ليعرف الإنسان نصيبه من الربح ونصيبه من الخسارة .

وهي من ثم سن اغتناء وليست سن افتقار ، وإن جاز لي أن أقيس على نفسي فهي لا تقل غنى عن الأربعين ، وقد تفوقها غنى من وجوه .

تفوقها غنى لأن التدبير فيها أفضل ، لا لأن الثروة فيها أعظم ، أو تفوقها غنى لأن الحساب فيها أضبط لا لأن الثروة فيها تزداد على التوالي كلما ازدادت السنون ، إذ هي في الواقع كما أسلفنا تكف عن الإزدياد في جملة المكاسب من خيرات الحياة .

فالرجل الذي ضبط حسابه — بعد التصفية الكاملة — قد يستفيد من مائة دينار ما ليس مستفيده غيره من مائتين قبل ضبط الحساب .

والرجل الذي عرف ما له وما عليه يعرف على التحقيق أين يضع ماله وأين يمسك عن الانفاق ، وتلك معرفة لا يحيط بها الرجل الذي عنده المال الكثير ، ولكنه قد ينفق من ديون ويكف عن النفقة من الملك المضمون ..

* * *

هذه هي فضيلة الخمسين على أدوار العمر السابقة : فضيلة المال المحسوب والنفقة المقدورة ، والثروة التي لا تزيد يوما بعد يوم ولكنها لا تضيع في غير طائل ، ولا تذهب في غير المفيد

ووحي الخمسين هو وحي هذه الفضيلة ، أو هو وحي الملك الخالص لا

يعتمد على الاستعارة ولا يقوى على الإسراف في انتظار التعويض من الوارد الجديد ..

إذ الوارد الجديد قليل ..

وإذا جاء الوارد الجديد فقلما يتسع الوقت لتصريفه واعادة تثميره ، وقلما يكون له موضع إلا أن يضاف إلى ما قبله ، كل باب إلى بابه وكل نظير إلى نظيره . .

وحي الغنى المحسوب ، وليس هو بوحي الغنى بغير حساب ، أو هو التدبير وليس هو بوحي التجميع والازدياد .

ذلك هو وحي الخمسين الذي يرتقي إلى ذروة السلم ، ثم يقف حيث لا يطول الوقوف .

ومن أمثلة كثيرة بين أصحاب الوحي – وأصحاب الوحي هنا هم المنتجون في عالم الذوق والتفكير – نرى أن ثمرات الخمسين بين الفلاسفة والشعراء وأرباب الفنون تضارع خير الثمرات في سائر الأعمار ..

ولا يبدو هذا عجيباً في الكلام على الفلسفة والمذاهب الفكرية ، لأن الفلسفة حكمة والحكمة مقرونة في الأذهان بالشيخوخة وتقدم العمر ، وزيادة التجربة والروية .

ولكنه يبدو عجيباً حين نتكلم عن الشعر والفنون ، لأن الشعر والفنون جمال والجمال مقرون في الأذهان بالشباب وصحوة العمر ، وقد يكون مقروناً إلى حد كبير بالغرارة وقلة النصيب من التجربة والروية .

وهنا وهم يجب الالتفات إليه .

إذ يجب التفريق بين الجمال وتقدير الجمال ، ويجب التفريق بين تقدير الجمال والتعبير عن تقديره .

ومهما يختلف المختلفون في جمال الشباب وجمال كل عمر من الأعمار

فالحقيقة التي لا خلاف فيها ان تقدير الجمال لا ينتهي بانتهاء الشباب ، وان القدرة على التعبير لا تنقص بنقصان الشباب ، بل لعلها تزيد.

ومهما يقل القائلون عن استطاعة المتعة بالحياة ، فالحقيقة التي ليس فيها قولان ان المعدة التي تهضم أعسر المأكولات ليست هي المعدة التي تتذوق أحسن المأكولات ، لأن الخبز والملح لذيذان عند من يهضم ويستخلص من الطعام القليل أكثر ما فيه من غذاء ، ولكن الاختيار الأنيق انما يكون لمن لا مناص له من الاختيار ، فلا يستهويه الا ما كمل أو قارب الكمال .

فاذا كانت الأعمار الأولى أوفر حظا من متعة الحياة ، فالأعمار التالية أوفر حظا من التمييز بينها والشعور بمزاياها والعرفان بما لكل منها من قيمة وحظوة ، وهذه هي الحقيقة التي تزيل الوهم العارض الذي أشرنا إليه ، وهو الوهم الذي يلقي في روعنا أن وحي الأربعين أو وحي الخمسين لا يوحي جمالا لأن الجمال مقرون بالشباب .

ان جمال الجوهرة غير تقويم الجوهرة ، وغير تمييز الجوهرة ، وغير السرور بالجوهرة لمن يقتنيها ، وهذا هو بعينه ما يقال عن جوهرة الحياة فيما شئت من الأعمار وما شئت من الأقدار .

ولو اتسع المجال لأتينا هنا بالأمثلة من عشرات الدواوين الشعرية وعشرات التحف الفنية ، وقابلنا بين ما نتج منها في الثلاثين وما نتج في الأربعين أو الخمسين أو الستين ، فاننا لخليقون أن نعلم بالمقابلة والمضاهاة ان المزايا تتعادل وتتفاضل فلا تنحصر المزايا كلها ولا الفضائل كلها في عهد من عهود الحياة ، ولا تزال لكل سن فضيلة تعوضها فضيلة مثلها في سن أخرى ، فاذا توفرت حماسة الشعور في بواكيره فقد تقابلها المعرفة بأنواع الشعور بعد فوات البواكير ، أو تقابلها القدرة على التعبير والالتفات إلى الفروق ، أو تقابلها تصفية تأخذ الخلاصة بعد أن تجمع لديها الكثير من الأزواد .

وفي الشرق تبكر الشيخوخة أحيانا كما يبكر الشباب . فيسرع الذبول كما تسرع النضارة ، ويكثر النبوغ قبل الأوان كما يكثر الجمود قبل الأوان ، ويندر بين أدبائنا من أتى بالفلق بعد الخمسين كما أفلق أناس من أدباء الغرب الذين جاوزوا السبعين أو الثمانين ، ولكننا إذا رجعنا إلى أدبائنا الذين بلغوا تلك السن ألفينا لهم حسنات يعيشون بها في عالم الخلود يقرنها الناقد بأجمل حسناتهم المأثورة في أيامهم الأولى ، وكلها ذات سمعة واحدة لا تعدوها وهي سمعة الثروة المملوكة والكنز المحسوب ..

* * *

وحي الستين

إحياء ذكرى الميلاد – أو عيد الميلاد – كما يسميه بعضهم عادة جميلة لسبب واحد على الأقل ، وهو ان الاحتفال بهذا اليوم فرصة سنوية لاجتماع الأهل والإخوان في مودة وصفاء وإيمان بالاقبال على الحياة ، كأنهم يشعرون جميعاً بأن دخول الحياة « مناسبة سعيدة » تستحق التذكر والاحتفال ..

ولكنني ، فيما عدا ذلك ، لا أفهم في الواقع معنى لهذا الاحتفال بيوم الميلاد أو بعيد الميلاد ..

هل هو احتفال بانقضاء ما مضى من العمر ؟ .. أو هو احتفال بالسنة القادمة التي لا نعلم كيف تكون ؟ .. وهل لا يكفينا الاحتفال برؤوس السنوات إذا كان المقصود هو الاحتفال بالمستقبل المجهول ؟..

* * *

لم أتعود لزاما أن أحتفل بيوم ميلادي ، ولم يعلم أحد مني أنا ببلوغي الستين في هذه السنة .. ولكن أصحابي الذين يعرفون تاريخ ميلادي علموا بذلك ، وتفضل بعضهم فكتب في الصحف مهنئا ومحييا لهذه المناسبة .. فلم أفرغ بعد ذلك من الأسئلة التي ساقتها إليّ هذه المناسبة السعيدة، ولم أزل أتلقى هذه الأسئلة التي تدل كلها – أو معظمها – على فكرة واحدة عند سائليها ، وهي أن الستين « نقطة تحول » في تاريخ الإنسان يكون له من بعدها شأن غير شأنه قبل بلوغها .. ولا أدري كيف ؟ ..

إن الحياة ليست كالساعة أو الخريطة المرسومة بخطوط للتوقيت أو بخطوط للعرض والطول ، وليس كل خط من هذه الخطوط المعروضة فيها فاصلا حاسما بين عمرين ..

والستون من ناحية أخرى رقم ثابت لا يتغير .. وأين الرقم الثابت الذي لا يتغير من أطوار الحياة التي هي حركة متغيرة على الدوام في كل حي من الأحياء ؟ ..

وأين الرقم الثابت الذي لا يتغير من أطوار الحياة في الأحياء المتعددين الذين يحسبون بالملايين ؟ ..

* * *

أصغر من بلغ الستين !

لقد سمعنا من زميلنا الأديب الظريف الشيخ عبد العزيز البشري – رحمه الله – نكتة قالها لعضو جليل من أعضاء المجمع اللغوي حين أحيل على المعاش ، فقال له متبسطاً : « انك لأصغر من بلغ الستين ! .. »

وكانت هذه النكتة تروى على انها مزاح تجوز فيه المفارقات ولا تستلزم فيه الدقة في التعبير .. ولكن الواقع انها جد دقيق وليست بالمزاح المرسل على عواهنه ، لأن الستين بالنسبة إلى انسان قد تكون « أصغر » من الخمسين بالنسبة إلى آخر ، وأكبر من السبعين بالنسبة إلى غيره ! ...

والمرجع في ذلك إلى العلم والتجربة المعهودة بين الناس ، فان علماء التاريخ الطبيعي يقررون نسبة بين سن النضج وعمر الحي من الآدميين وغير الآدميين : بعضهم يقول ان عمر الحي ثمانية أضعاف السن التي يتم فيها نموه ونضجه ، وبعضهم يقول سبعة أضعافه أو ستة أضعافه .. ولكنهم متفقون على وجود النسبة بين أسنان النمو وبين أعمار الأحياء .

فلا غرابة على هذا أن يكون المبكر في النمو مبكرا في الشيخوخة ، وأن يكون ابن الستين في هذا الإقليم أصغر من ابن الخمسين في ذلك الإقليم ، على

حسب اختلاف الجو والمناخ ، وعلى حسب اختلاف أثرهما في تكــوين الأجسام والأعضاء .

* * *

جهاد ومجاهدة !

كذلك تختلف القدرة والعجز في الشيخوخة ، على حسب اختلاف الأعمال أو الأعباء التي ينهض بها الإنسان ..

وقبل أن نقول مثلا ان الشيخوخة أعجزته عن عمله ، ينبغي أن نعرف أولا ما هو هذا العمل الذي أعجزته عنه ؟ ..

فالرجل الذي يجاهد بأعضائه وعضلاته غير الرجل الذي يجاهد بتفكيره وعزيمته ، أو الرجل الذي يجاهد بحسه وشعوره ..

بل تختلف المجاهدة بالتفكير والعزيمة على حسب الاختلاف في نوع التفكير ونوع العزيمة ..

* * *

فمصطفى كمال قد استطاع أن يثابر على القتال وأضلاعه مكسورة ، وسعد زغلول قد عاش برصاصة في صدره وهو إلى جانب ذلك مصاب بالربــو وبغيره من الأدواء ..

إن الزعامة بنوعيها هذين ، تتطلب هذه القوة الخارقة في تكوين البنية الجسدية ..

ولكن هل يحتاج إلى مثل هذه البنية رجل يقوم عمله الأكبر على الدراسة والبحث والاطلاع ؟ ..

على هذا النحو من الاختلاف ، يتغير الحكم على أبناء الستين أو أبناء أيــة سن من أسنان الحياة ..

ثم هو لا يتغير من سنة إلى سنة ، كأنما تقع السنون في الحياة موقع الخطوط على الخرائط والساعات ..

ولكنه يتغير من فترة إلى فترة ، يحسبها كل إنسان بما يتفق له من التجربة والاختبار ..

* * *

ومن هنا أعود فأقول : ان « الستين » لم تكن في حياتي نقطة تحول بين عهدين أو بين عمرين . . ولكنني إذا نظرت إلى الفترة التي تمت بها الستون والفترة التي تمت بها الخمسون مثلا ، فهناك بعض الاختلاف بين الفترتين..

وهو فيما يخيل إليّ اختلاف في التلوين أو في التمكين، وليس اختلافاً في جوهر الموضوع ومادة القدرة والشعور .

ومثال ذلك أنني قد زادت قدرتي على البحث والدراسة ونقصت قدرتي على مواصلة الكتابة والقراءة، ولكنني عوضت هذا النقص بازدياد المرانة على الكتابة وازدياد الخبرة بالتقاط أصعب الفوائد من أيسر القراءات ..

زادت حماستي لما أعتقد من الآراء ، ونقصت حدتي في المخاصمة عليها ، لقلة المبالاة باقناع من لايذعن للرأي والدليل ..

لم تنقص رغبتي في طيبات الحياة ، ولكنني اكتسبت صبرا على ترك ما لابد من تركه ، وعلماً بما يفيد من السعي في تحصيل المطالب وما لا يفيد ..

* * *

الحياة كعشيقة . . وكزوجة !

وارتفع عندي مقياس الجمال ، فما كان يعجبني قبل عشر سنين لايعجبني الآن ، فلست أشتهي منه أكثر مما أطيق ...

كنت قبل عشرين سنة كما أنا الآن .. قليل الرجاء في خير بني الإنسان ، وكنت أقول قبل عشرين سنة :

بحَسْبِي من أبناء آدم إن صفا
لي العَيْشُ يومـاً أن تَكُفَّ أذاها

ولكن فلسفة الشعور هنا قد تحولت إلى فلسفة العمل ، ولا أطيل في شرح هذا الفارق بين الفلسفتين ، ولكنني أبينه بمثل من الأمثلة العملية يغني عن الشروح والنظريات ..

كنت أقول لمن معي في مسكني إذا نمت أو تفرغت للكتابة : لاتوقظوني ولا تقاطعوني إذا دق التليفون أو جاءكم زائر .. ما عدا هذا الاستثناء ، وذاك الاستثناء ، وذلك الاستثناء . أما اليوم فلا استثناء على الاطلاق .

كنت أحب الحياة كعشيقة تخدعني بزينتها الصادقة وزينتها الكاذبة ، فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبي ، ولا أجهل ما تبديه من زينة وما تخفيه من قبح ودمامة ..

وتلك فيما أرى نماذج كافية لبيان الفوارق بين الفترتين .. فترة الستين ، وفترة الخمسين أو ما قبلها من أرقام العقود ! ..

وفي الجملة يتبين لي من التجربة والاختبار أن المشتغلين بالأعمال الفكرية لاتهيض السن من قدرتهم كما تهيض من قدرة العاملين بالعضلات وما يشبه العضلات ..

إن السن مكسب للعاملين بالقلم ، أو هي إلى المكسب أقرب منها إلى الخسارة ..

* * *

ويسأل سائل : « وأين خرف الشيخوخة ؟.. »

فيجيب قبلي مجيبون كثيرون : « إن الذين حسبوا أن الخرف والشيخوخة حالتان متلازمتان ، بقية من بقايا القرون الغابرة ، لأن العلم الحديث يعلم أن خرف الشيخوخة مرض من أمراض البنية وليس بعرض من أعراض الأسنان والأعمار .. فمن نجا من جراثيمه نجا من أعراضه كما ينجو من الأمراض وكما ينجو من الجراثيم » .

وَحيُ السَّبْعين

في الشباب نأخذ الحياة « مقايضة » لأنها تطلبنا كما نطلبها .. أو نبذل فيهـــا أضعاف ثمنها ، لأننـــا نجهل حقيقتها ونملك ثروة الشعور التي تساعدنا عـــلى الاسراف ، والبذل الجزاف .

وفي الشيخوخة نأخذ كل شيء بثمنه ، ولا نعطيه فوق حقه ، لأننا فقراء لانملك الثروة التي ننفقها كما نريد ، وعلى الرغم منا ننفقها كما نستطيع ..

لاتسل أي الحالتين أفضل و « أعقل » فلا اتفاق على جواب لهذا السؤال ..

* * *

ولكنك إذا سألت : أيهما أحب وأجمل ، فلا خلاف على الجواب : بين الشباب والشيخوخة فروق كثيرة ، فما من حالتين من أحوال هذه الدنيا بينهما من الفروق أكثر مما بين هاتين الحالتين .

ولكن الفارق الأكبر بينهما أن الشباب حالة نتمناها عـــلى علاتها ، وأن الشيخوخة حالة نرضاها أو لا نرضاها على حسب الظروف !

نتمنى الشباب على علاته ، ونتمنى جهله كما نتمنى هداه ، إن كان له هدى أو هداية مع هواه !..

بل نحن نتمنى جهله قبل هداه ..

لأن جهله هو الذي يعطينا الجديد من مرارته وأسراره ، وجهله هو الـــذي

يعطينا أول قطفة من ثماره وأزهاره ، وجهله هو الذي يشوقنا إلى غده في كل يوم من أيامه ، ويجعل كل يوم من هذه الأيام كأنه يوم « كولمبس » في بحــر الظلمات ، أو يومه بعد ذلك في العالم الجديد .

والمرء يتمنى ما يجهل ، ولا يتمنى ما يعرف ، ولوعرفه لما تمناه ، ولا وافق مناه ، لهذا نتمنى الشباب على العلات !..

ولا يضيرنا أن نكون من الجهلاء !..

فهل نتمنى الحياة في السبعين ؟..

كلا ولا كلام .. لانتمناها في السبعين بل نتمناها في العشرين وفي الثلاثين ونتمناها كلما جهلناها أو عرفناها على الظن لا على التحقيق .

أما في السبعين — وأنت في السبعين — فالتمني كلمة كبيرة عليها ، وعلى كل شيء تعرفه قبلها وبعدها .

التمني كلمة كبيرة جداً على المقام أو على المناسبة ، ولا بد لها من تواضع كثير قبل الطمأنينة والاستقرار ، فحسبها أن تهبط من هذه العلياء إلى الــوادي المطمئن بين القمتين .

* * *

حسبها أن تهبط إلى وادي الرضا والقبول ، فقد يكون الرضى بها غاية ما تستحقه من صاحبها ، على اضطرار وعلى اختيار .

هل ترضى الحياة في السبعين ؟.. نعم .. فيها ما نرتضيه ولا ريب ، وفيها البديل الصالح أحياناً مما فقدناه في العشرين ولم نجده في الثلاثين ، ومما فقدناه في الثلاثين ولم نجده في الأربعين ومما فقدناه ونفقده في كل سن ولا نجده ..

فيها بديل بالرضى المعلوم عن الأمل الموهوم ، وقد يكون الرضى بما تعلم بديلاً صالحاً من كل ما نرجو ونتوهم ، ثم تندم عليه ولات مندم !

نحمد في السبعين أنها تعطينا الرغبة على قدر الطاقة ، وأنها تعطينا الرغبة ومعها لجامها الصغير ، تشد عليه إذا خطر لها أنها في حاجة إليه .

ونحمد منها أنها تعودنا الاستغناء عما يلزم وما لا يلزم .. فليس في السبعين من ضروري لا غنى عنه ، حتى الحياة ، وحتى المجد ، حتى الخلود !..

ونحمد منها أنها تعوضنا بالخبرة عن القوة ، بل تعوضنا بالخبرة عن الوقت الثمين وهو مادة الحياة .

فإذا احتجنا في العشرين إلى عشرين سنة لنعرف إنساناً نصاحبه ، فحسبنا في السبعين عشرون ساعة لنعرف ذلك الإنسان غاية المعرفة التي تتاح للإنسان ، بل حسبنا كلمة نسمعها منه أو نسمعها عنه لنستغني بها عن الزمن الطويل في عشرته ، وندخله في زمرة السواد التي تشمل كل بني آدم وحواء ، كما قال أبو العلاء :

وما العُلَمَاءُ والجُهَّالُ إلاّ
قَريبٌ حِينَ تَنْظُرُ عَنْ قَرِيبِ

وإذا كان ابن السبعين ممن يقرأون ويكتبون ، فحسبه عشرون سطراً من كتاب ليعرف ما هو الكتاب في الجوهر واللباب ، ويعود إلى ما شاء من أبوابه أو يقنع منه إذا شاء بهذا الباب بعد ذلك الباب .

* * *

وفي السبعين جديدها الذي لا تشتهيه – الأنفس – ولكنه جديد يذهب بسآمة التكرار ، فابن الأربعين يتبدل نظاماً للمعيشة أو نظاماً للصحة سنوات بعد سنوات .

إذا تغير نظام المعيشة عنده في الثلاثين لم يسأل عن نظام جديد قبل الأربعين

أو الخمسين ، وإذا تغير نظام المعيشة عنده في هذه السن فلعله لا يسأل عن غيره قبل الخامسة والخمسين أو السادسة والخمسين ، أو الستين ..

أما نظام الستين فما هو صالح للحادية والستين إلا بشق الأنفس وتعب الرأس وجهد الطب والصيدلة ، ودع عنك الخامسة والستين والسبعين وما فوق السبعين .

ولقد سئلت قبل عشر سنين عن شعوري بالحياة في الستين ، فقلت : إنه شعور الحب لا مراء، ولكنه حب غير حب الحياة في ريعان الشباب ، لأن الحياة لا تخدع الشيخ في الستين بالأبيض والأحمر والكحل والطلاء، ولا تطمع منه في حب كحب المعشوقة الفاتنة تخلبه بزينتها وتروعه بما تبديه وما تخفيه ، وارتبطت به وارتبط بها على الخير والشر وعلى الحسنة والسيئة وعلى الوئام والخصام ، وليست بالمعشوقة التي تتحبب إليه ويتحبب إليها ، وتلقاه ويلقاها على نمط من الاعجاب لايخلو من التمثيل !..

فإن يكن لا بد من تشبيه الفارق بين مكان ابن السبعين ومكان ابن العشرين من الحياة .. فهو على ما أحسب مكان واحد عند المائدة المشتهاة ..

وانما الفارق في « القابلية » أو اشتهاء الصحاف والصنوف ، فلا نسيغ في السبعين ما كنا نسيغه في العشرين ، ولا ننتفع اليوم بما كان ينفعنا بالأمس ، ولكنني لو تخيلت الحياة طاهياً يبسط أمامنا صحافه وصنوفه ، لتخيلته مبتهجاً متهللا كلما مددت يدي إلى صنف من صنوفه التي يبسطها على المائدة لضيوفه.. فلا فخر للطاهي في نهم الجائع الذي يلتهم كل شيء ولا يعزف عن شيء وله الفخر كل الفخر في كل لقمة يتناولها الشبعان القانع أو المتردد المصدوف .

* * *

ومن سألني : هل تبادل ؟.. هل تساوم على الزيادة والنقص في البدل ؟.. هل تعطي وتأخذ وأنت مفتوح العينين في هذه الصفقة الرابحة ؟.. وهل تسميها « صفقة رابحة » إذا أعطيت السبعين وأخذت العشرين والأربعين ؟..

فلا يحسبن السائل أنه يسأل عن تحصيل حاصل ، ولا يعجلن بالجواب لأنه يخاله من فصل الخطاب .

كلا .. لا أبادل ، ولا أقبل المساومة بغير معارضة على الشروط ولن أقبل كل ما في العشرين ، أو أنفي عنه كل ما في السبعين ..

يفتح الله .. فإما الحياة « على السكين » وإما لا حياة ، ولن تجدني يوماً أحرص الناس على حياة .. فما هي بشيء في حسابي إذا تجردت أمامي من الألف واللام ، وحبذا هي من حياة إذا علمت أنها « الحياة » للعهد والتعريف ..

وسأنفي من العشرين والأربعين كل ما سوغ لي ما لا يسوغ ، وكل ما هون عندي ما لا يهون ، إما في باطل لا يتحقق ولا خير فيه إذا تحقق أو مجاملة لمن تستر لهم جهالتهم ولا يسترونها ، ومن يسترون كل فضيلة ولا يكادون يرونها ..

وسأبقي معي من السبعين كل ما يعين النفس على هجران الحياة إذا وجب أن تهجر ، وهجرانها واجب يوم تستبقيني وأنا آسف للبقاء فيها .

* * *

ولئن تمنيت شيئاً بعد السبعين ، لأتمنين أن أعيش فلا أعيش عبثاً ولا فضولا وأن أعيش كما عشت بحمد الله على الدوام ، أحقاباً وأحقاباً إلى الأمام ، فيقول الناس اليوم ما كنت أقوله قبل عشرات الأعوام ، فذلك هو العمر الذي أحتسبه سلفاً وأعيشه قبل حينه ، فلا يكلفني انتظاره إلى الختام .

***

إعترافاتي

دارت عادة الاعترافات دورة تامة منذ وجدت قبل أكثر من ثلاث آلاف سنة إلى أن دخلت في نطاق الطب النفساني والجسماني قبل نحو ثلاثين أو أربعين سنة[١] .

وقد اشتهرت الاعترافات في الهياكل على عهد الحضارة البابلية قبل ميلاد السيد المسيح بعدة قرون ، وكانت في حقيقتها ضرباً من العلاج الجسماني الذي يتطلبه المريض من الطبيب ، لأن البابليين كانوا يعتقدون أن المرض والبلاء على اختلافه عقوبة الهية يقتص بها الأرباب من أصحاب الذنوب والخطايا ، وأن الذي يبوح بخطيئته ويندم عليها يشفى من دائه بوساطة الكهان والأحبار ، فكان الاعتراف بهذه المثابة ضرباً من الاستشفاء كعلاج الأمراض بالطب في العصر الحديث .

وهكذا عاد كما بدأ ، في أوائل القرن العشرين ، فشاع الكلام عن الكبت وعن العقد النفسية وعن أثر التنفيس عنها بالاعتراف والكشف في شفاء الأبدان والنفوس ، فتمت الدائرة في حلقة مفرغة من أيام البابليين إلى أيامنا هذه من القرن العشرين .

ولن يكون الاعتراف اعترافاً في رأي بعضهم إلا إذا كان اعترافاً بأمر

(١) آثرنا تسجيل هذا الفصل هنا مع ما في بعضه من تكرار لبعض ما مضى .. لان في هذا التكرار اضافة معلومات جديدة عن صاحب الكتاب ..

يغلب على الناس انكاره وكتمانه ، فلا يفهمون من الاعتراف إلا أنه اعلان الخبيئة في النفس تشين صاحبها وتدعوه إلى اخفائها .

لكنها على التحقيق مغالطة من مغالطات « العرف » التي تواضع عليها أبناء آدم وحواء على سنة الكذب والرياء ، فهم جميعاً سواسية في الخطايا والعيوب التي يخفونها ولا يعترفون بها ، ومتى صدق عليهم قول السيد المسيح : « من لم يخطىء منكم فليرجمها بحجر » فلا حاجة بهم إلى الحجارة ولا إلى الرجم ولا معنى لخجل قوم وشموخ آخرين ، وما لم يكن الإنسان مجرماً غارقاً في الإجرام أو نذلا معرقاً في الخسة فعيوبه وخطاياه « قاسم مشترك أعظم » بينه وبين الآدميين جميعاً من قبل الطوفان إلى نهاية الزمان .

وحسبي اعترافاً في هذا الصدد أن أحداً من الناس لم يسلم من عيوبي وخطاياي فهل في وسعهم جميعاً أن يدعوا مساواتي في جميع فضائلي ومزاياي ؟..

من شاء أن يدعي فليدع ما يشاء، ولكنني لا أرى من الانصاف أن استهدف للحجارة وعندي حجارة مثلها أقابل بها كل حجر بعشرة من أمثاله حين أريد أو حين أستطيع ..

وأنا بحمد الله لا أريد ولا أستطيع ، فلتكن حجارتي محفوظة في محجرها الأمين ، وليكن اعترافي نوعاً من التعريف الذي يفيد . أما تبادل الحجارة طرداً وعكساً وعكساً وطرداً فهو عبث لا يعي به راجم ولا مرجوم ، وهو كذلك لا يفيد .

أعترف بالخصائص النفسية التي تدل الناس على بعض الحقائق في الطبيعة الإنسانية ، وذلك ولا ريب أجدى من الاعتراف بالعيوب والخطايا التي يتشابه فيها أبناء آدم وحواء على السواء أو على مقربة .

وأول ما أعترف به أنني مطبوع على الانطواء وأنني مع هذا خال بحمد الله من العقد النفسية الشائعة بين الأكثرين من أندادي في السن ونظرائي في العمل وشركائي في العصر الذي نعيش فيه ..

ولقد ورثت طبيعة الانطواء عن أبي وأمي ، فلا أملّ الوحدة وإن طالت بغير قراءة ولا تسلية ، ولا أزال أقضي الأيام على حدة حيث يتعذر على الآخرين قضاء الساعات واللحظات .

كيف يتفق هذا ؟.. كيف يتفق الانطواء على النفس والخلو من العقد النفسية أو من الاسرار المكبوتة في اصطلاح النفسانيين المحدثين .؟

هنا محل للاعتراف الذي قلنا انه خير وأجدى من تبادل الحجارة ، فإن تفسير ما أعرفه من عادات طبيعتي خليق أن يصحح الأوهام عن معنى الانطواء ومعنى العقد النفسية .

فليس كل انطواء كبتاً للنفس أو كتماناً لسر من الأسرار الخفية ، وهناك فارق كبير بين السكوت خشية من الكلام والسكوت لأنك لاترى حاجة إلى الكلام .

فإذا سكت الإنسان خاشياً فهنالك عقدة نفسية ، وإذا سكت الإنسان لأنه لايشعر بالحاجة إلى الافضاء والتصريح فلا عقدة هناك ولا كتمان .

وقد تعودت أن أقول ما أريد حين أريد ، فلا أعكف على العزلة كبتاً ولا حذراً ، ولا أحس التناقض بين الانطواء والاستراحة من آفات الكبت والعقد النفسية .

* * *

ويغلب على المنطوين أنهم لا يألفون الناس بسهولة ، وأعترف بأنني واحد من المنطوين في هذه الخصلة ..

ولكنني أعترف كذلك بأن الألفة التي تصح بيني وبين أحد من الإخوان لا تنقطع ولا تتعرض للقطيعة باختياري ، وقد يتعدى الأمر ألفة الإخوان إلى ألفة غيرهم من الأحياء والأشياء . فالحلاق الذي عرفته منذ ثلاثين سنة هو الحلاق الذي أعرفه اليوم ، والطاهي الذي عمل عندي في سنة خمس وعشرين

أو نحوها هو الطاهي الذي يعمل عندي في سنة خمسين أو احدى وخمسين ، بل أدع الأحياء من الآدميين وأذكر المنزل الذي أقيم فيه ، فهو مسكني منذ أربع وعشرين سنة ، ولا أحسبني أسكن غيره ما دامت تسعني سكناه .

وأعترف إلى جانب هذا بأنني لا أعرف التوسط بين الحب والكراهية ولا أريد أن أعرفه ، وشعاري في ذلك هو شعار أبي اسحاق الصولي الذي قال :

خَلِّ النِّفَاقَ لِأَهْلِهِ وَعَلَيكَ فالْتَمِسِ الطَّرِيقا
وارْبَأْ بِنفسِكَ أَنْ تَرَى إلا عَدوّاً أَوْ صَدِيقَا

فأنا أفهم أن يقبل الإنسان نصف صداقة إذا كان مضطراً إليها ، وأفهم أن يقبل الإنسان نصف عداوة إذا كان خائفاً منها ، ولكنه إذا وجد الصداقة كاملة فلماذا يجمع بينها وبين نصف الصداقة ؟ .. وإذا استوجب العداوة كاملة فلماذا يتقيها ويداريها ؟..

إن طائفة من الخلق يستبقون العلاقة بينهم مع انقطاع المودة طلباً لدوام المنفعة؛ فهؤلاء يمثلون ويتاجرون. ولا ضير من التمثيل فناً ولا من التجارة عملاً ، ولكن الضير كل الضير من التمثيل في الضمير والاتجار بالعاطفة ، ففي هذا من المعابة ما يعاب على المتاجرة بالأجسام والشهوات .

* * *

وعندي صفة يسميها الشانئون عناداً وتشبثاً ويسميها المحبون عزيمة وصدق إرادة ..

أعترف بأنهم مصيبون في جانب ، مخطئون في جانب .. فقد يبلغ من ضعف ارادتي أحيانا أن أحتال على نفسي كأنها شخص آخر أطلعه على بعض مرادي وأخفي عنه بعضه . فاذا اعتزمت الإقلاع عن التدخين مثلا قلت لنفسي : أتركيه أسبوعاً وانظري ما يكون بعد أسبوع . أقول لها هذا وأنا

أنوي أن أتركه أبدا فلا أقطع بهذا الترك دفعة واحدة . ثم أعود بعد أسبوع فأقول لها : إن شيئا تقدرين على تركه أسبوعا لا حاجة إلى احتماله على مضض ولا حكمة في العودة إليه .

أعترف بهذا وأعترف معه بأنني في المواقف الحاسمة أملي على تلك النفس بعينها شروطا كشروط القائد الذي لا يرحم : العدو أمامك والبحر وراءك .. وافعلي ما تشائين ..

ومن لطف الله بالعباد أن هذه المواقف الحاسمة لم تتكرر في حياتي أكثر من خمس مرات أو ست مرات ، ولم أندم قط بحمد الله مرة في جميع هذه المرات .

أعترف بأنني من الزاهدين في البذخ والحطام ، ولكنني أعترف بأنه زهد لا فضل لي فيه ، لأنه يكلفني مشقة المغالبة والمقاومة ، فليس في النفس هوى أغالبه وأقاومه ، وإنما ألوذ في هذه العصمة بسند واحد : وهو سهولة احتقاري للباذخين ومن ينظر إليهم نظرة الإكبار والإعجاب فهؤلاء وهؤلاء أهون عندي من الهباء .

وأعترف بأن عنان النفس يفلت من يدي في حالات كثيرة ، ولكنها حالات أراجعها أحياناً فلا آسف لإفلاته ، بل أرى أن ضرر الإطلاق أخف من ضرر الشد والكظم وثني العنان .

أما اعترافاتي في ميدان الأدب فمنها ما يخصني ومنها ما يعم القراء معي ..

وأول هذه الاعترافات انني أقرأ لنفسي وأقرأ أحياناً في موضوعات لم أكتب فيها للقراء حرفا واحداً حتى الساعة ..

ولا أطالب أحداً بجميل لأن جميلي لنفسي سابق لكل جميل ، ولكنني أعترف كذلك بأنني لا أطيق التواضع الكاذب الذي هو رياء في المتكلم وغفلة

في السامع . فاذا بخسني الباخسون حقا فدعواي إذن أمام ضميري لا يزعزعها اجماع الخافقين ..

أعترف بأنني أحب الشهرة والخلود ، ولكنني أعترف كذلك بأنني لا أطلبهما بثمن يهيض من كرامتي ، وأنني إذا أحسست ان انسانا يمتن عليّ بشهادة يبذلها أو شهادة يمنعها فلا نصيب له عندي غير التحدي الذي يذهب به إلى الحائط .. ولتذهب الشهرة وليذهب الخلود معها إلى الشيطان ..

ولقد تعبت كثيراً في تحصيل الأدب والثقافة ، ولكنني أعترف بعد هذا التعب كله بقصوري عن الغاية التي رسمتها أمامي في مقتبل صباي . فلم أبلغ بعد غاية الطريق ولا قريبا من غايته ، وإذا قدرت ما صبوت إليه بمائة في المائة فالذي بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين .

* * *

الفصل التاسع

في مكتبتي

قلت لك يا صاحبي إنني أحب مدينة الشمس لأنني أحب النور ..

أحبه صافيا وأحبه مزيجاً . وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً . وأحبه مخزوناً كما يخزن في الجواهر وأحبه مباحا كما يباح على الأزاهر ، وأحبه في العيون ، وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون ! ..

ويوم سكنت في هذا المكان ، ونظرت من هذه النافذة ، أعجبني أنني أفتحها فلا أرى منها إلا النور .. والفضاء .

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور ..

وكيف يكون فضاء ، ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ، ويصل الأرض بالسماء ؟ . .

قلت لك يا صاحبي انني أحببت النور فسكنت في مدينة النور ! ..

وأود أن تفهمني حين أقول لك انني أحب النور ..

فإنني لا أحبه لأنه يريني الدنيا وما فيها ، أو لأنه هو واسطة الرؤية وأداتها ، ولكنني أحبه لأراه ولو لم أر شيئاً من الأشياء ..

وقديماً كنت أقول ان الأرواح تخف في النور كما تخف الأجساد في الماء ، كأنما هي تسبح فيه وتطفو عليه ..

وكنت أقول :

النُّورُ سِــرُّ الحَيَــاةِ   النُّــور سِــرّ النَّجَاة
ألمحـــــه بالرّوح لا   لَمْحَ العُيــون الخوَاة
ما تُبْصِرُ العَيْــنُ مِنْ   مَعْنَــاهُ إلَّا أَدَاة

وكنت أحسبه « روحانية » ترى بالعين و ...

أرى الأَرْضَ رُوْحَانِيَّة في جَمَالِهــا
وإلا فمــا بَالُ النُفُوسِ بِهَا تَسْمُو
إذا فاضَ منها النورُ هزَّتْ قُلُوبَنَا
سَعَادَةُ رُوح ليسَ يَعرفُهَا الجِسْمُ
ولو أَنهــا من لذة الحسِّ عِفْتُهَــا
كما قد يُعَافُ اللمْحُ والسّمْعُ والشَّم
كَرِهْتُ مــن الدهر الكثير ولم يزل
بقلبي مِنْ شَمْسِ النهارِ هَوًى جَم
ترَى كل يوم وهي عنــدي كأَنهــا
غَريبٌ عَرا لم يُدْرَ وَصْفٌ له واسْمُ

عَجِبْتُ لأَرضٍ تَخْطُرُ الشمسُ فوقَهَا
وتُشْرِقُ فيها ، كيف يَطْرُقُهَا الغم

***

فلا أتكلم بالمجاز حين أقول لك يا صاحبي : إنني أراه من عالم الروحانيات ، وإنني أشبع منه الروح والعين ولا أشبع منه العين وكفى ، وانه شيء يرى ويرى ويرى ولا تمل رؤيته ولا يشبع من النظر إليه . وليس هو الشيء الذي غاية ما يكفيك منه أنه يريك الأشياء .

قال صاحبي : هذا من عمل النشأة الأولى .. هذا من عمل أسوان !

قلت : أو تظن ذلك ؟ .. ولم لا تظن ان النشأة الأولى تزهدنا فيما هو مبذول لدينا ، بل فيما هو مسلط علينا ؟ ..

هل رأيت شاعراً من شعراء الصحراء يتغنى بالشمس المجيدة أو الشمس الفاخرة أو الشمس الباهرة كما يتغنى بها أبناء الغيوم أو أبناء الشمال ؟ ..

لست معك يا صاحبي فيما قدرت ، ولعلي كنت أقدر معك هذا التقدير لو أنني نشأت في أسوان أحب الظلال وأكره سطوة النور وأحسبه من قضاء الله الذي يطاق ولو في بعض المواسم والساعات ..

ولكنني — على ما رأيت — أستطيع أن أقول لك : بل انني لأحب النور على الرغم من النشأة في أسوان ، وانني أحبه حين أنظره وأحبه حين أنظر به ، وأحبه حين أهتدي به في عالم البصر وأحبه حين أهتدي به في عالم البصيرة ، لأنني أحسبه سر الأسرار أو أحسبه سبيل الهداية إلى سر الأسرار ، وأوشكت أن أومن بهذا الحسبان كل الايمان ..

قال صاحبي : ما أعجب أن يكون أظهر الأشياء هو أخفى الأشياء !

قلت : يا صاحبي لا عجب أن يكون أظهر الأشياء هو المظهر للخفاء في

كل معانيه ، ولا أحسب ان حجابا من الحجب الكونية سيرتفع في مجال العلم أو مجال الحكمة من طريق غير طريق النور ، مهما يطل الزمان .

وكنا نتحدث في المكتبة ، فتناولت بعض الكتب التي تبحث في الروح والمادة ، وقلت لصاحبي : أعرفت حجة السياسي الفيلسوف « أرثر بلفور » في نفي الصلة بين عالم المادة وعالم الروح ؟ .. إنه يقول ان الروح لن تؤثر في الأجساد إلا بجسد مثلها . فكيف يكون هذا التأثير ؟ .. ان الروح تخالف الجسم في تكوينه فكيف تعمل فيه عملها وما هي الأداة الجسدية التي تتلقى عنها دوافعها ! .. فإما أنهما شيئان منفصلان فلا تتأتى بينهما صلة على وجه من الوجوه ، وإما انهما شيئان متشابهان فلا اختلاف إذن بين تكوين الأرواح وتكوين الأجساد ! ..

قال صاحبي : أخاله قوي الحجة في مقاله .

قلت : وكذلك أخاله ، ولكننا اذا شككنا في أحد العنصرين : عنصر المادة ، وعنصر الروح – فأيهما أولى بالشك فيما تراه ؟ ..

قال : على كل حال لا أستطيع الشك في المادة وهي تحيط بي وتصدني وتصدمني ، إذا أنا غالطت نفسي فيها .

قلت : بل في المادة تستطيع أن تشك وتفرط في الشك قبل أن تواتيك دواعي الشك في عالم الروح .

وإنما ساء فهم المادة والروح معا من تصور الأقدمين هذه وتلك ، إذ وضعوهما موضع النقيضين ، وجعلوا المادة كثافة لا حركة فيها ، وجعلوا الروح حركة لا كثافة فيها .

فهل المادة كذلك ؟ ..

هل هذه الكثافة التي تصدمها بقدمك وتضربها بيدك هي الحقيقة التي لا تستطيع انكارها ؟ ..

أقول لك كلا .. إنك حين تضرب الأرض بقدمك فتزعم انك صدمت الحقيقة التي لا تقبل المراء ، انما تصدم شيئاً غير الكثافة أو الجرم الذي يحسب عند بعض الناس وجودا لا يقبل الانكار . فانما الوهم كل الوهم هذه الكثافة ، وإنما الوجود الحق هو ما وراءها من قوة تصدم القوى فتصدم الحواس ..

هذه الكثافة المادية لا شيء يا صاحبي لولا القوة التي تكمن في أطوائها .. وان شئت مصداقا لذلك فافرض ان يدك التي تقف عند هذه الخشبة قد زادت قوتها ألف ضعف أو عشرة آلاف ، ثم عد إلى لمس الخشبة بتلك القوة المضاعفة ، فهل تقف عندها ؟ .. كلا .. انها لا تقف عندها بل تعبرها كما تعبر الهواء .

أو تعال إلى الماء والهواء وهما مثال التخلخل في تلك الكثافة المادية ، فادفع الماء بقوة من بعض العيون .. انك اذن لتضربه بالسيف القاطع فلا يمضي فيه ويرتد إليك ، وادفع الهواء بقوة من بعض الفوهات .. انك إذن لا تثبت أمامه على قدميك .

فليست الكثافة المادية هي الحقيقة التي لا مراء فيها ، بل القوة هي الحقيقة الكامنة في تلك الكثافة وفي كل مادة ملموسة أو محسوسة .

قال صاحبي : مهلا .. مهلا .. وأين هذا من النور ؟ .. وأين هذا من سر الأسرار ؟ ..

قلت : صبرا يا صاح . ان كل جسم من الأجسام يتألف من الذرات ، وكل ذرة من هذه الذرات تتألف من النواة والكهارب ، ثم من الحركة أو من طاقة الإشعاع والنور .. تقلصت كثافة المادة كلها ووصلنا إلى الشعاع والإشعاع : وصلنا إلى النور ، واقتربنا ولا نزال نقترب كثيراً من عالم الحركة التي لا كثافة فيها ، وابتعدنا ولا نزال نبتعد كثيراً من عالم الكثافة التي لا حركة فيها . اننا هبطنا بالكثافة المادية إلى أدناها ، اننا نظرناها بالأحداق ثم دقت حتى عن النظر بالأحداق . نعم اننا لم نصل إلى طرف الروح الأقصى ،

ولكننا وصلنا إلى طرف المادة الأقصى ، أو لعلنا قد عرفنا طريق القنطرة بين العدوتين إن لم نكن قد أقمناها وشرعنا في العبور عليها . ماذا بقي من المادة الغليظة الجاسية ؟ .. ماذا بقي من الجرم الجاثم الذي يناقض الروحانية ؟ .. إننا نقترب . إننا نقترب . إننا نقترب . إننا مع النور نصل إلى الملتقى الموعود ، ولعلنا لا نصل إليه ان وصلنا من طريق غير هذه الطريق .

قل إن الكون حركة لا مادة فيه . ذلك أيسر لك من أن تقول : ان الكون جرم لا روح فيه ! ..

قل ان الكون نور . قل ان الله نور السموات والأرض ، فاذا قصر بك الحس عن نور الله فثق ان هذا الضياء الذي يملأ الفضاء هو النور الإلهي الذي كتب لابن الفناء أن يراه .

* * *

وكان النهار بساما ، مدلا بشمسه ، مزهوا بنوره ، كأنما يحس روعته في الأنظار وبهجته في الأرواح ، وكأنما يتوهج من نظر العيون إليه كما تتوهج الوجنة الصبوح تحت لمحات الاحداق . كان نهارا مبتكرا عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سويعة من يوم ! .. خلقا مبتكرا يخيل إليك انه يتلألأ في فضائه للمرة الأولى .. وهل هنالك من فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور في أبعد مكان من الفضاء ، وفي أبعد فترة من الزمان ؟ .. ها هنا شيء على الأقل تستطيع أن تقول انه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين ، وانك تذهب معه إلى أبعد من مذهب أبي العلاء حين سأل الفرقدين :

واسأَل الفَرْقَدَيْنِ عَمَّنْ أَحسا من قبيل وآنسا من بلاد
كم أَقاما على بياض نهار وأَنــارَا لمدلج في سواد

ان الفرقدين وأخواتهما في السماء لأطفال تلعب في حجر هذا الشيخ السرمدي ، يلوح لك من جدته اليوم كأنه لم تنقض عليه ساعة من نهار !

قال صاحبي وهو يرسل الطرف في السماء ، ولا نهاية لمد البصر تصعيدا ولا تصويبا ولا من يمين ولا شمال : قصرت عين تحسب وهي تنظر إلى هذا النور أنها تنظر إلى شيء مكشوف لا عمق فيه ولا طوية وراءه : كاشف الخفاء هذا هو ينبوع الخفاء ! ..

وشاء أن يتكلم بلغة المكان ، لغة المكتبة ، لغة المجازيين والبلغاء ، فقال :

ـ ونحن إذن في برزخ الأنوار : وراء الجدران نور الشمس في مدينة الشمس الخالدة ، وبين الجدران نور القرائح ونور الحكمة ونور البيان !

قلت : مجاز حسن وان طال به عهد أصحاب المجاز ، الكتب علم ، والعلم نور ، ولكنني لا أحسبه مجازا يجري في النفس كما يجري في لفظ اللسان . فهل من الحق اننا نواجه المكتبة كما نواجه النور ؟ .. وهل خطر لك قط أن تسأل نفسك : كيف تبدد الكتب الكثيرة ـ مجتمعة في مكان واحد ـ من يدخل عليها لأول مرة ؟ .. كيف يقع ألف كتاب أو عشرة آلاف كتاب موقعها ممن يفجأ بها ويعرف ما هي وان لم يعرف معناها ؟ .. اننا في هذه الحضارة قد تعودنا منظر الكتب مجتمعات بالمئات والألوف . ولكننا خلقاء أن نتجرد من فعل العادة ولو لحظة عابرة لننظر إلى هذه الظاهرة من جانب غرابتها لا من جانب ألفتها فكيف تبدهنا رؤية الكتب لمئات من أصحاب القرائح والعقول محشورة في بضعة رفوف ؟ ..

انني لا أسأل عن أولئك القراء والدارسين الذين الفوا عشرة الكتب بالليل والنهار . ان هؤلاء ينظرون إلى كتبهم كما ينظر الجوهري إلى الثروات المخزونة عنده في صناديق البلور من نوادر الفصوص والأحجار الكريمة ، أو كما ينظر البستاني إلى أحواض الزهر وهي تترعرع أو تذبل بين يديه ، أو كما ينظر صاحب القصر إلى أسراب الحسان المقصورات فيه . أو كما ينظر المهندس إلى الأزرار التي في لوحته وقد ينطلق كل زر منها بما يحرك مدينة بأسرها ، وكلهم يملكون زمامهم أو زمام تلك المرئيات وهم يحسون بها ، وكلهم

يحضرون منها ما ألفوه وتعودوه وكرروه وقد يغيب عنهم منها جانب المفاجأة والغرابة . ولكنني أحب من حين إلى حين أن أستغرب ما آلف وأن آلف ما أستغرب . ويثير هذا الشوق في خاطري أن أشهد وقع هذه الغرابة مرتجلا في بعض النفوس ولا سيما النفوس التي تقارب الكتب من بعيد .

قال صاحبي : وماذا وقع من صورتها في نفسك كلما استغربت ما ألفت منها ..

قلت : لا أحدثك بهذا الآن .. وانما أحدثك بما شهدت وعاينت ، ثم أحدثك بما استدرجني إليه الخيال كلما ألقيت بمقادتي إليه .

لا أنسى وهلة فتاة ذكية حين دخلت هذه المكتبة عرضا في بعض الأيام ...

كانت على شيء من التعليم ، وكانت تميل إلى القراءة كلما اتفقت لها قصة سائغة أو قصيدة شائقة ، ولكنها فوجئت بهذه الكتب المتجمعة فصاحت على غير روية منها : يا سلام ، كتب ، كتب ، كتب ، كل هذا كتب .. شيء يدوخ ! .. ومالت برأسها كأنها تهرب من دوار ينذرها باغماء ..

ألا ترى يا صاحبي أن هذه الفتاة قد عرفت الكتب فلم تعرفها جلودا وأوراقا وألوانا تشوق العيون ، ولكنها عرفتها كما هي في الحقيقة زحمة من الأفكار والمعارف تشفق منها على رأسها الصغير ؟ ..

لقد عجبت يومئذ من هذه الوهلة لأنني أعلم على التحقيق ان الفتاة شاهدت المكتبات في المدرسة وشاهدتها في السوق . فسألتها : أهذه أول مكتبة رأيتها في حياتك ؟ ..

تعجبت هي أيضاً معي من هذه الوهلة ، ولم تزد على أن تقول : رأيت غيرها كثيراً ولكني لا أدري لماذا « دخت » وأنا أنظر إليها هنا ..

ثم راجعت نفسي في تفسير ذلك فلم أعجب من وهلة الفتاة كما عجبت من صدق حاستها ، أو من مبادرة هذه الحاسة إلى التفرقة بين الأشياء المتشابهة حين يتفرق بها المكان ..

فانما تختلف الأشياء عندنا بما يقترن بها من تداعي الخواطر وما توحيه من اللوازم والملابسات . فالكتب في السوق بضاعة للبيع . والكتب في المدرسة موزعة بين أيدي الأساتذة والطلاب ، ولعلهم مئات ولعلهم ألوف فلا توحي إلى الخاطر تلك « الزحمة » التي ترهق الرؤوس . أما الكتب في حجرة واحدة في بيت رجل واحد فللفتاة العذر إذا أجفلت منها تلك الجفلة وخافت منها على رأسها الدوار ..

اننا نمر بالمائدة في الفندق العامر ، فلا نستغربها وان امتلأت بطعام جيد ، ولكننا إذا رأينا هذه المائدة بعينها أمام ضيف واحد خطرت لنا التخمة أو خطر لنا الغثيان ، ولنا المعذرة في هذه التفرقة بين المائدتين ! ..

* * *

واحتجنا يوما إلى نقل بعض الرفوف من هذه الحجرة إلى الحجرة التي تليها ريثما نصلحها ونفرغ من طلائها . فاستعنا بقريب لبواب المنزل يومئذ على النقل مع خدم البيت ، وكان ريفيا أمياً يزور قريبه أو يزور « آل البيت » على التعبير الصحيح . أو لعلها أول زياراته للقاهرة في طلب الخدمة وطلب البركة على السواء .. ولم يكن له علم بالأحرف العربية ولا بالأحرف الإفرنجية ، فاذا رأى كتاباً في هذه الأحرف أو في تلك فكله كتاب ، وكله مما يقرؤه المطهرون .

فلما اقترب من باب المكتبة خلع نعليه وتهيب أن يمد يده إلى الكتب لأنه كما قال لم يكن على وضوء !

أليس لهذا الريفي الأمي منطق صادق فيما فعل على البداهة ؟ .. انه تعود أن يقرن صورة الرجل العالم بصورة رجل الدين ، فما باله لا يقرن كتاب العلم بالقداسة الدينية ؟ .. وهل يكون الكتاب لغير علم أو لغير قداسة ؟ ! ..

لقد أكبرت تحية الجهل للعلم في مسلك هذا الريفي الصالح ، وأستغفر الله لأنني أفسدت سمعة الكتب في رأيه على الكره مني ، فأعلمته انها كأبناء آدم

وحواء فيها الصالح والطالح وفيها الطيب والخبيث ، وانها لا تحرم في جميع الأحوال على اللمس بغير وضوء ، فلم أجرئه على حرمتها ولا أقنعته بلمسها حتى أريته على غلاف بعضها صور التماثيل العارية ، وفي صفحات بعضها صور السادة والسيدات . فتحلل من حرج وأقدم بعد احجام ..

ولا أخال هذه « الهيبة » للكتاب بعيدة جداً من هيبة « المكتوب » عند القبائل الفطرية كما أنبأنا عنها رواد المجاهل الافريقية . فانهم لا يفهمون هناك كيف يقرأ الرجل الورقة ويفهمها ويعمل بما فيها دون أن يكون فيها روح مرصد أو طائف من الجان . وقد روى بعض الرحالين أنه أرسل خادمه الأسود إلى زوجته على مسيرة ساعات ليطلب بعض الأمتعة والأدوات من بيته ، فكتب له ورقة وأمره أن يأتيه بجوابها . فحمل الورقة مطمئنا ولم يلق إليها كبير اكتراث ، ولكنه لما رأى السيدة تقرؤها وتراجعها كلما أسلمته أداة من الأدوات المطلوبة فيها خامره الشك وأيقن أنها تستوحي بمراجعة الورقة روحا تفقه عنها ما تسأل عنه في صمت ووقار . فلما أسلمته السيدة تلك الأدوات تقبلها وحملها ولم يوجس منها ، ولكنه تردد وأوجس حين أسلمته الورقة بالجواب ! .. وحملها كمن يحمل ثعباناً يخاف أذاه أو شيطانا يخاف سخطه وغضبه ، وأدى الأمانة بتمامها لأنه في حراسة رقيب ينقل عنه ما يظهره ويخفيه ..

قال صاحبي : ويح الأسود المسكين لو انطلق عليه روح من وراء كل كلمة مخزونة في هذه الرفوف ! .. ان عفاريت الآجام جميعها لتصبحن عنده من ملائكة الرحمة بالقياس إلى هذه العفاريت ، وان سحرة افريقية على بكرة أبيها لا ينقذونه من وبال هذا السحر المخيف ! ..

قلت : أو لم يحصل ؟ .. بلى قد حصل وفرغنا من محصوله ! .. وقد انهزم السحرة المساكين في وجه هذه الأرواح ، وهربت عفاريت الآجام من سطوة هذه العفاريت . وهل المعركة بين القارة السوداء وبين الواغلين عليها إلا المعركة بين الكتاب وتعويذة السحر القديم ؟ ..

والتفت صاحبي إلى الرفوف يتصفح عناوينها ويسألني : أو لا يزعجك بعض الأحيان أن تخلع عن الكتب هذه الصورة ، وأن تراها حاضرة الأرواح جياشة الحركة بحياة مؤلفيها ؟ ..

قلت : بل أنا لا أراها إلا على هذه الصورة كلما أعرضت عن صورتها الممثلة في الجلود والأوراق : أرواح في انتظار الطلسم ، أو مردة في قماقم سليمان . وأين برج بابل من لهجات رف واحد هاهنا لو تحركت له ألسنة وتفتحت له أفواه ؟ .. وأين الجحيم كلها لو انبعثت المردة من أرصادها وتمردت على الطلسم الأعظم الذي يحبسها في قماقمها ؟ ..

قال صاحبي : خير للكتب وأولى .. نعم خير للكتب ألف مرة أن تكون أرصاداً للأرواح أو قماقم للمردة من أن تكون على تلك الصورة التي يصورها لنا أصحاب المائدة وصحاف الطعام ! .. ولست أدري لِم يحضرني خاطر الطعام المخزون في العلب كلما تحدثوا عن الكتب وما فيها من طعام العقول ؟ .. فما القول في رأس فيلسوف مجفف لساعة الحاجة إليه ؟ ..

وما القول في هذه الأغذية المحنطة على الرفوف لطول البقاء واجتناب الفساد ؟ .. هي ولا ريب أفضل ما اخترع الإنسان من صناعات الخزن والتجفيف وأحسن ما ابتكر من وسائل الصيانة والتعقيم . ليت الثمرات كلها تصان وتظفر بالتعقيم والتجفيف على هذا المنوال . ولكننا لا نشتهي طعام العقول للعقول حين نعرض لها الرؤوس المجففة والثمرات المحنطة ليوم القراءة أو ليوم التغذية المشتهاة .. لا .. لا .. اننا لا نود أن نشتهي الكتب هكذا لنأكلها برؤوسنا وأدمغتنا ، وانما نؤثرها مردة في قماقم وأرواحا في أرصاد . فعلى بركة الله فلنمض معها في سياحتنا إلى حيث تلقي بنا في آماد المكان والزمان، ولنطلقها فرادى إن عز علينا أن نطلقها أسراباً وجماعات .. على بركة الله ! ..

قلت : نطلق ماذا يرحمك الله ؟ .. وإلى أين المنتهى إذا ابتدأنا معها واحداً واحداً أو سرباً سرباً إلى حيث تستطيع المسير؟..هذا يا صاحبي مارد يحملنا إلى قطب الشمال وبجانبه مارد مثله يحملنا إلى قطب الجنوب ! .. وهاهنا مارد ثالث يتعدى بنا أقطاب الأرض إلى الشعرى اليمانية وما وراء السديم .. فمع أيها نسير ومتى المعاد إن سرنا مع هذا أو ذاك ؟ .. وإنك لتعلم أنها قديرة على السفر في رحاب الزمان قدرتها على السفر في رحاب المكان . فهذا يحملك إلى القرن الأول للهجرة وهذا يحملك إلى القرن الأول للميلاد ، وغير هذا وذاك يحملك إلى ما قبل الهجرة والميلاد من أزمنة يضل فيها التاريخ وقلما يهتدي فيها الخيال ، وخطوة من هنا تلاقيك بهوميروس وخطوة من هناك تلاقيك بامرىء القيس ، وخطوة أخرى تجمعك بآدم وأبنائه الأولين . فأين المنتهى بعد هذا ومتى القرار ؟ .. لا يا صاحبي يرحمك الله .. لا نهاية لانطلاق هذه المردة في مداها فرادى ولا مجتمعات . فدعها في قماقمها وانظر اليها ومعك أرصادها . فليس هذا أوانها وليست سياحتنا هذه بالسياحة السرمدية التي لا نرقب نهايتها .. فعلينا بالأفق الذي نحن فيه نلازمه ولا نتعداه ، وحذار أن تفتح القماقم مجتمعات ولا متفرقات ، ولك عندها بعد ذلك ما تشاء ..

فالتفت صاحبي إلى القماقم يتصفح عناوينها ، ونظر هنا ونظر هناك على غير اطراد كأنه يرتجح ولا يملك الانبعاث في طريقه دون أن يرجع إلى حيث كان . ثم هتف بي سائلا : ما هذه المفارقات ؟ .. بل ما هذه المقارنات ؟ .. شعر وتاريخ وفن ودين وسير وطبائع حشرات تصاحبها طبائع عظماء ، وخليط من المطالب لا تعرف لها وحدة ولا يطرد لها نظام . فهل هي مكتبة قارىء واحد أو هي مكتبات شتى أعددتها لمن يشاء ؟ ..

قلت : بل هي مكتبة واحدة أعددتها لقارىء واحد ، ولا أحسب ان مكتبة القارىء الواحد تتفق على غير هذا النظام ، لأنك تعد الكتب في مطلب واحد لمئات القراء الذين يشتغلون به ويرجعون إلى مصادره ، ولكنك لا تحصر

القارىء في مكتبة واحدة الا إذا نوعتها له وأغنيته بها عن غيرها . ولا بد للقارىء الواحد على الأقل من مطلبين مختلفين : أحدهما للصناعة والعمل ، والآخر للمتعة والتسلية ، فان كانت صناعته الكتابة فقد تعدد ما يقرأ للعمل والصناعة وتعدد ما يقرأ للمتعة والتسلية . وكثيراً ما يكون التعدد مع ذلك في العناوين لا في بواعث القراءة .. فإن القارىء قد ينظر في خمسة موضوعات أو ستة أو سبعة لباعث واحد ونزعة واحدة ، وليس أقرب من بواعث القراءة في بعض الأحايين ، مع تباعد الموضوعات والعناوين .

خذ لذلك مثلا هذين الموضوعين الغريبين : طبائع الحشرات وما وراء الطبيعة ؟.. أيبتعد عنوانان قط أبعد من هذا الابتعاد ؟.. أيفترق شيئان في ظاهر الأمر كما يفترق البحث في الكون والسماء والخلود والبحث في جحور النمال ومباءة الجراثيم ؟.. ومع هذا يتقاربان جد الاقتراب حين يهديك كلاهما إلى بداية الحياة أو نهاية الحياة ، وربما فسرت لك طبائع الحشرات « تصميم » بناء الحياة تفسيراً تعجز عنه عقول الفلاسفة والحكماء ، وربما عرفت من دوافعها وجواذبها وأنت ترقب الحشرة الضئيلة في أطوارها المتعاقبة ما لست تعرفه من مقاييس المنطق وتقديرات البديهة ، ودراسة المذاهب والتأويلات .

وخذ مثلا آخر ، هذين الموضوعين الغريبين : الشعر والدين !.. إنهما ليبدوان في الغرابة كما يبدو لك منظر الناسك في الصومعة وإلى جانبه منظر الشاعر في مجال الأنس والسرور ، ولكنهما يلتقيان أقرب لقاء حين يعبر الشاعر عن نفسه ويريك جمال الخالق في خلقه ، وحين يبرز لك الإنسان من وراء مسوح الزهاد فإذا هو شاعر مستتر أو شاعر موثق بسلاسل العبادة ، وإذا العبادة لاتخرج به من نطاق الشعور ، ولا تنكر له فتنة الحياة بل تمثلها له قوية مخيفة يتقيها بالمجانبة فيشعر بها كما يشعر بها من يواقعها ولا يتقيها . وإذا الفراش الذي يقع في

النار والفراش الذي يهرب من النار .. كلاهما فراش !..

ولقد سألت نفسي عن هذه البواعث المتوافقة وراء هذه النقائض المفترّقة فأجابتني عنها جواباً أرتضيه ولعلك ترتضيه ، ولخصته لي في كلمات معدودة : وهي « الاستزادة من الحياة ».

ولك أن تستزيد من الحياة بتعميقها أو بتوسيعها أو بتفسيرها، ولك أن تتوسل إلى ذلك كله بقصيدة من عيون الشعر أو بنظرة في عجائب حشرة ضئيلة تخالها من أسرار الصناعة المكتومة بل من « مسودات » الخلق الأولى .. أو باستقصاء آماد الحياة فيما وراء الغيب وفيما بعد الموت وقبل الميلاد ، أو بالمقابلة بين سير العظماء على ضروب شتى من العظمة وبين سير الصغراء على ضروب شتى من الصغار .. فكل أولئك باعث واحد مختلف العناوين ، وكله صحاف تعطيك ألواناً شتى من الطعم والمذاق ولكنها لا تعطيك في النهاية غير دم واحد ينبض في العروق .. ومعذرة بعد من هذه اللفتة إلى الطعام وأنت لاتحب ذكر الطعام في هذا المقام ..

قال: لا عليك من المعذرة بعد هذه الفترة. فقد أوشكت الساعة أن أستطيب التشبيه الذي كنت أعافه منذ برهة ، وأوشكت مع هذا أن أؤمن بأن الثبات على الرأي في البلاغة غير الثبات على الرأي في الأخلاق . فقديماً قيل لنا ان الثبات فضيلة ، وأخشى أن أكون اليوم قد أخللت بهذه الفضيلة .. لولا باب من الرحمة في هذا الخلاف بين شرعة البلاغة وشرعة الأخلاق . وليست هذه مسألة فكرة تقاس بالرأي بل هي شيء أحسه الساعة ولا أبالي أن أفكر فيه . فما أرتضيه من البلاغة وأنا شبعان مكظوظ لاأرتضيه منها وأنا جائع أتلمس الطعام ، وأنت لا تشهي الكتب إليّ ..حين تشبهها بالمائدة وأنا من الكظة أعاف المائدة وأحاديثها، ولكنك تشهيها إليّ حين تصفها بهذه الصفة وأنا متفتح المعدة والرأس لكل غذاء..

قلت : هو ما قالوه قديماً وأصابوا فيه أكثر مما أرادوا . فالبلاغة هي

« مراعاة مقتضى الحال » .. ولقد كنت بليغاً في اشارتك هذه .. فلك عندي من المكافأة عليها مائدة غير مائدة أفلاطون وأشباه مائدة أفلاطون !

وعدنا نستطيب القماقم والأرصاد بعد هنيهة ، ولكن على أن نتركها بسلام فلا نطلقها فرادى ولا جماعات ، وحسبنا منها العناوين والرفوف ؟

ثم راح يجول ببصره جولة الطائر فيما يعبره وهو يقول : ما أصغر نصيب القصص من هذه الرفوف !..

قلت : نعم . . وإنه لو نقص بعد هذا لما أحسست نقصه . لأنني — ولا أكتمك الحق — لا أقرأ قصة حيث يسعني أن أقرأ كتاباً أو ديوان شعر ، ولست أحسبها من خيرة ثمار العقول .

قال : كيف ؟.. أليس في الرواة والقصاصين عبقريون نابهون كالعبقريين النابهين في الشعر وسائر فنون الآداب ؟..

قلت : بلى .. ولكن الثمار العبقرية طبقات على كل حال ، وقد يكون الراوية أخصب قريحة وأنفذ بديهة من الشاعر أو الناثر البليغ ، ولكن الرواية تظل بعد هذا في مرتبة دون مرتبة الشعر ودون مرتبة النقد أو البيان المنثور .. والمثل هنا أقرب إلى الايضاح من سوق القضية بغير تمثيل : إن الحديقة التي تنبت التفاح لا يلزم أن تكون في خصبها ووفرة ثمراتها أوفى من الحديقة التي تنبت الجميز أو الكراث . ولكن الجميز أو الكراث لا يفضلان التفاح وإن نبتا في أرض أخصب من الأرض التي تنبته وتزكيه .

* * *

ونحن نقرأ القصص التي تجود بها قرائح العباقرة من أمثال ديكنز ، وتولستوي ، ودستيفسكي ، وبورجيه ، وبروست ، وبيراندلو ، فنؤمن بتلك العبقريات التي

لاتجارى في هذا المضمار ، ولكن إيماننا بها لايلزمنا أن نضع القصة في الذروة العليا من أبواب الآداب ، ولا يمنعنا أن نقدم عليها غيرها في التقدير والتمييز ..

قال : وما المقياس الذي نرتب به هذه الرتب ياترى ؟..

قلت : لعله مقاييس شتّى لا مقياس واحد ، ولعل الناس يختلفون فيها كاختلافهم في كل شيء يرجع إلى المشرب والتعبير . غير أنني أعتمد في ترتيب الآداب على مقياسين يغنياني عن مقاييس أخرى ، وهما الأداة بالقياس إلى المحصول ، ثم الطبقة التي يشيع بينها كل فن من الفنون .

فكلما قلت الأداة وزاد المحصول ارتفعت طبقة الفن والأدب ، وكلما زادت الأداة وقل المحصول مال إلى النزول والاسفاف .

وما أكثر الأداة وأقل المحصول في القصص والروايات ؟.. إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذي يعطيكه بيت كهذا البيت :

وتَلَفَّتَتْ عَيني فَمُذْ بَعُدَتْ
عَنِّي الطُّلُولُ تَلَفَّتَ القَلْبُ

أو هذا البيت :

كأن فؤادي في مَخَالبِ طَائرٍ
إذا ذُكِرَتْ لَيلى يَشدُّ بِه قَبْضَا

أو هذا البيت :

لَيْسَ يدرى أَصُنْعُ إنسٍ لِجِنٍّ
سَكَنُوه أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لإنْسِ

أو هذا البيت :

وقد تَعَوّضْتُ عَنْ كُلٍّ بِمشبهِـهِ
فما وَجَدْتُ لأَيامِ الصِّبا عِوَضَا

لأن الأداة هنا موجزة سريعة والمحصول مسهب باق ، ولكنك لا تصل في القصة إلى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة في التمهيد والتشعيب. وكأنها الخرنوب الذي قال التركي عنه — فيما زعم الرواة — انه قنطار خشب ودرهم حلاوة !.. أما مقياس الطبقة التي يشيع بينها الفن فهو أقرب من هذا المقياس إلى أحكام الترتيب والتمييز . ولا خلاف في منزلة الطبقة التي تروج بينها القصـة دون غيرها من فنون الأدب ، سواء نظرنا إلى منزلة الفكر أو منزلة الذوق أو منزلة السن أو منزلة الأخلاق . فليس أشيع من ذوق القصة ولا أندر من ذوق الشعر والطرائف البليغة ، وليس أسهل من تحصيل ذوق القصة ولا أصعب من تحصيل الذوق الشعري الرفيع حتى بين النخبة من المثقفين .

* * *

قال صاحبي : على أنهم قد أثاروا في أوائل هذا القرن ضجة حول القصة بالغوا فيها أيما مبالغة وخيلوا إلى الناس أن فنون الأدب كلها عالة عليها ، وأنه لا كتابة لمن ليست له قصة .

قلت : لقد فعلوها حقاً ، وكان ذلك على أثر ضجة أخرى هي ضجـة الكلام الكثير في الدراسات النفسية و « السيكولوجية » بأنواعها ، فبدا لبعضهم أن القصة هي المعرض الوحيد لتطبيق هذه الدراسات في الكتابة الأدبية، وأنها هي الوسيلة القريبة لفهم العلاقـات بـين النفوس البشرية وتفسير المواقف

والمشكلات التي تنجم عن غرائب الطباع . ولم تخل ضجة القصة من أسباب قوية غير « السيكولوجية » وكثرة الكلام فيها ، فإن شيوع القراءة بين الدهماء قد أشاع معها القصة التي تفهمها الدهماء وتؤثرها على غيرها من الفنون الأدبية ، وجاء شيوع الصور المتحركة بعد شيوع القراءة فأملى للدهماء في هذه النزعة أو هذه « الهواية » حتى غلبت عليهم وسرت منهم إلى النقاد الذين يتبعون الجماهير ويسمون نزواتها بروح العصر وهي نزوات بغير روح !..

ونظرت إلى صاحبي فإذا هو يضم ما بين الخنصر والبنصر ويقول : هانحن أولاء نقلب صفحة جديدة أو نفتح كتاباً جديداً .. وها نحن أولاء نتكلم بالقول الصريح وبالقول المستعار في وقت واحد . فما أبعد النقلة ما بين الخنصر والبنصر في عالم الكتب : ما أبعد النقلة بين الأرض والسماء وبين المعاش والمعاد .

قلت: كلاهما يتصدى لعمل واحد وهو تفسير الكون وترتيب المعاش في هذه الدنيا على هذا التفسير .

* * *

وكان صاحبي قد انتقل كما قال ، فيما بين الخنصر والبنصر إلى عالم السماء : عالم البحث في الله ، وسر الوجود ، وأصل الحياة وما قبل الحياة وما بعد الحياة..

وكان على ديدن الكثيرين يرى أن هذا البحث فيما وراء الطبيعة من الوقت الضائع أو فضول القول . فسألني وهو يتحرج قليلا لأنه يعلم أنني لا أستضيع وقتاً أنفقه في بحث هذه الأمور : ما فائدة هذا كله وهو غموض في غموض ، وفروض من وراء فروض ؟ ..

ألا يمكن أن يعيش الإنسان على هذه الأرض وهو في غنى عن هذه الفلسفة التي يسمونها سر الوجود ؟..

وأردت ألا أتخلف عنه في جرأة الرأي فقلت : بل هي آخر شيء يستغني عنه الإنسان . وما أنت مستطيع أن تطل من هذه النافذة أو تبدأ عملك في الصباح ما لم تكن لك « فلسفة وجود » على نحو من الأنحاء ..

قل لي : « ماذا تستبيح وماذا تحرم وأنت تنظر من هذه النافذة » .. أتستبيح ألا تملأ عينيك من شيء غيرك كما قال الأديب الحجازي ؟..وإذا استبحته فلماذا تستبيحه ؟.. وإذا حرمته فلماذا تحرمه ؟.. وما حدود المتاع بالنظر فيما تراه ؟.. أله حدود أم ليست له حدود ؟..

وأنت تذهب إلى عملك كل يوم في الصباح فلماذا تعمل أو لماذا تهمل عملك ؟.. أعليك واجب ؟.. أمناط هذا الواجب مصلحتك أم مصلحة الأمة ؟.. ومشيئة الخالق أم مشيئة المخلوق؟..وإن آمنت بهذه المشيئة أو بتلك فلماذا آمنت؟ وإن لم تؤمن بهذه أو بتلك فلماذا كفرت ؟.. وإن لم تفكر في شيء من ذلك فهل أنت إذن مثل حسن للآخرين !..

* * *

مرحلة الحياة ياصاحبي كجميع المراحل التي نقطعها من مكان إلى مكان . لا تركب القطار حتى تحصل على التذكرة ولا تحصل على التذكرة حتى تعرف الغاية التي تسير إليها . غاية ما هنالك من فرق بين راكبين أن أحدهما يقرأ التذكرة والثاني لايقرؤها أو أن أحدهما يؤدي ثمنها من ماله والثاني يؤدى له الثمن من مال غيره..وإن أبيت المجازات فأحد الراكبين في مرحلة الحياة يبحث عن غايتها بنفسه والثاني توصف له غايتها بلسان غيره .. لا بد ياصاحبي من هذه الفلسفة التي تريد أن تلقي بها في اليم وأنت على الشاطىء . وثق ياصاحبي أنها آخر شيء يلقيه راكب السفينة حين تلعب به الأعاصير في البحار اللجية . بل هو الشيء الذي لا يتركه ولو ترك السفينة أو تركته إلى الأعماق . ألم تسمع قولهم في

الأمثال : « انهم كالنواتية لا يذكرون الله إلا ساعة الغرق ؟ » فاعلم يا صاحبي أن هذا الذكر هو فلسفة الحياة التي تبقى مع راكب السفينة بعـــد كل بضاعة يستغني عنها ، وبعد السفينة نفسها إذا حان حينها !..

قال صاحبي : وهل وصلت قط من فلسفة حياتك إلى شيء ؟..

قلت : نعم .. إن الله موجود .

قال : باسم الفلسفة تتكلم أو باسم الدين ؟..

قلت : باسم الفلسفة أتكلم الآن . والفلسفة تعلمنا أن العدم معدوم فالوجود موجود .. موجود بلا أول ولا آخر لأنك لا تستطيع أن تقول : كان العدم قبله أو يكون العدم بعده !.. وموجود بلا نقص يعتري الوجود من جانب عدم ولا عدم هناك .. موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص لأن الكامل الأمثل هو الله ..

قال : وكيف توفق بين الوجود الأمثل وبـــين الشرور والآلام في هذه الحياة ؟..

قلت : هذا سؤال غير يسير ، لأننا نحن الفانين لن نرى إلا جانباً واحداً من الصورة الخالدة في فترة واحدة من الزمان . ومن يدرينا أن هـــذا السواد الذي يصادفنا هنـــا وهناك هو جزء لازم للصورة كلزوم النقوش الزاهية والخطوط البيضاء ؟.. وماذا تستطيع أن تصنع لو ملكت الأمر وتأتى لك أن تقذف بالشرور من الحياة ؟.. بغير الألم والخسارة ما الفرق بين الشجاع والجبان وبين الصبور والجزوع ؟.. وبغير الشر والسوء ما الفرق بين الهدى والضلالة وبين النبـــل والنذالة؟..وبغير الموت كيف تتفاضل النفوس وكيف تتعاقب الأجيال؟..وبغير المخالفة بينك وبين عناصر الطبيعة من حولك كيف يكون لك وجود مستقل عنها منفصل عن موافقاتها ومخالفاتها ؟.. وبغير الثمن كيف تغلو النفائس والأعلاق ..

قال صاحبي : أليس عجزاً أن نشقى وفي الوسع ألا نشقى !.. أليس عيباً أن نقصر عن الكمال وفي الوسع أن يكمل الكمال ؟..

قلت : وكيف يكون في الوسع أن يكمل المتعددون ؟.. إنما يكون الكمال للواحد الدائم الذي لا يزول .

قال صاحبي : قل ما شئت ، فليس الألم مما يطاق ، وليس الألم من دلائل الرحمة وآيات الخلود الرحيم :

قلت : على معنى واحد ان هذا لصحيح !..

انه لصحيح إذا كانت حياة الفرد هي نهاية النهايات وهي المقياس كل المقياس لما كان وما يكون . لكن إذا كانت حياة الفرد عرضاً من الأعراض في طويل الأزمان والآباد – فما قولك في بكاء الأطفال ؟.. ان الأطفال أول من يضحك لبكائهم حين يعبرون الطفولة . وإنهم أول من يمزح في أمر ذلك الشقاء ، وليس أسعد الرجال أقلهم بكاء في بواكير الأيام ..

يا صاحبي : هذا كون عظيم . هذا كل ما نعرف من العظم ، وبالبصر أو البصيرة لو نظرنا حولنا لا نعرف العظم إلا من هذا الكون . ماذا وراء الكون العظيم مما نقيسه به أو نقيسه عليه؟..فإن لم نسعد به فالعيب في السعادة التي ننشدها، ولك أن تجزم بهذا قبل أن تجزم بأن العيب عيب الكون وعيب تدبيره وتصريفه وما يبديه وما يخفيه . ولك أن تنكر منه ما لا تعرف ، ولكن ليس لك أن تزعم أنه منكر لأنه مجهول لديك .

* * *

وبسط صاحبي ذراعيه وهو ينظر حوله بالبصر والبصيرة معاً في أجواز

الفضاء السرمد ، ويخيل إلى من يراه في تلك الساعة أنه يفتح بصيرته وسعها كما يفتح المشدوه عينيه وسع الأجفان ، حين يحب أن يملأ العينين مما تريان . وكأنه أغمض بعد إعياء من التأمل والاستقصاء فقال : هذه آفاق شاسعة !.. هذه أغوار لا يسبر لها قرار. وتساءل: أليس إلى معرفة الحقيقة من طريق غير هذه الطريق؟.. أليس للرياضة الروحانية مسلك إلى هذه الآفاق والأغوار ؟.. إن نساك الهند على ما يبدو لي لأخبر بهذه المسالك وأهدى في هذه الدروب .. إنهم لايصدعون رؤوسهم بالبحوث والفروض ولكنهم يعرفون !..

قلت : بل أحسب أن الطريقين مختلفان . إن نساك الهند لا يطلبون المعرفة ولا يجعلونها غاية الغايات ،. فإن المعرفة قد تنال من إقرار الجسد كما تنال من انكاره ، وقد تنجم من الإقبال على الدنيا كما تنجم من الاعراض عنها ، ولكنهم طلبوا الطمأنينة والراحة أو طلبوا الرضوان ، وشتان بين من يطلب الرضوان ومن يطلب المعرفة حيثما وصل إليها أو وصلت إليه ..

قال : أي رضوان وأي راحة ؟.. إنهم ليعذبون أبدانهم ويقدعون نفوسهم ويشلون أعضاءهم بمشيئتهم ، فكيف ينشدون الرضوان والراحة بهذا العذاب..؟!

قلت : هل يعذبون أبدانهم إلا لأنهم راضون بهذا العذاب ومطمئنون إلى عقباه ؟.. وهل يشاء الإنسان أمراً لا يشاءه أو يختار أمراً لا يختاره أو يرضى بأمر لا يرضاه ؟..

* * *

لعمري لئن لم يفتح النساك فتحاً عظيماً في جانب المعرفة لقد فتحوا أعظم الفتوح في جانب الأخلاق . بل أقاموا الأخلاق على أوسع أساس حين علموا الإنسان أن رضوان النفس مطلب يهون في سبيله كل عذاب ، وأنه لا جزاء

أوفى من رضوانها ولا عـــذاب أنكأ من سلب ذلك الرضوان ، وأي فهم لمعنى الثواب والعقاب أكمل وأفضل من هذا الفهم الذي لم يأت من جـــانب البحوث والفروض ؟.. لا عذاب للنفس أنكأ من شعورها بالنقص ولا نعيم لها أنعم من شعورها بالرضوان . فكفى بهذا الفتح انتصاراً في معترك الأخـــلاق ، وإن لم ننسك كما ينسكون ولم نتعذب كما يتعذبون ..

قال صاحبي : الحق أنني لم أشق في حياتي بشقاء أمر وأوجـــع من اتهامي لنفسي وسوء الظن بطويتي . ولو لم يكن هذا الشقاء أمر الشقاء على الطبيعـــة البشرية لما تحصنت منه بحصن الغرور ، وهو أعم الخلائق في البشر أجمعين .

قلت : والغرور هو الجوهر الزائف الذي نتحلى به كلما أعوزنا الجوهر الصحيح ، وإنه على هذا لحصن مطروق لا يستعصم كل الاستعصام من ذلـــك الرقيب الحسيب .. فربمـــا اغتر الإنسان فكبرت قيمته عنده ولم يقنع بما دونها فآلمه النقص وفاتته نعمة الرضوان .

* * *

ولقد قال اليونان قديماً اعرف نفسك ، فإذا قلنا معهم : نعم وارض عن نفسك أيضاً بلغنا كمال العلم وكمال الأخلاق . ترى هل يطلب الناس أجراً لأنهم يلبسون حلل الحرير ولا يلبسون الكرابيس ؟.. ترى هـــل يأكل الناس الطعام المريء اللذيذ ويصدفون عن الطعام المسقم الخسيس لأنهم يخشون العذاب ؟.. فإذا عرفوا الكمال وعرفوا النقص فهل تراهم يطلبون أجراً لأنهم تجنبوا النقص وتعلقوا بالكمال ؟.. وإذا عرفوا صحة النفس فهل تراهم يلتمسون الأجر على الصحة كما يلتمس الأطفال أجرهم على تناول الدواء ؟ .. انما الخوف من النقص هو أمر العذاب ، والرضوان عن الكمال هو أحسن الجزاء . وقد يتعذب الإنسان

في طلب الكمال وهو راض ، وقد يرفض النعمة فراراً من النقص وهو لايخشى العقاب . فارض عن نفسك وأنت في غنى بعد هذا عن الوعد والوعيد في نشدان الكمال ، لأنك لا تحتاج إلى الوعد والوعيد لتستطيب ما أنت شاعر بطيبه وتنفر مما تعاف .

قال صاحبي : أكبر الظن أن « الذوق » هنا قد يغني ما ليست تغنيه المعرفة أو تغنيه التقاليد والموروثات ، وهنا يستوي الفن الجميل في مكانه إلى جانب المعرفة وإلى جانب الدين .

* * *

بين كتبي

وكان صاحبي يداعب على القرب رفاً أمامه يقرأ عليه عناوين الكتب في تماثيل اليونان ومدارس الفن القـــديم والحديث ، فما هو إلا أن طرأ اسم الفن الجميل على لسانه حتى تناول واحداً منها ثم تناول ثانياً وثالثاً ورابعاً وهو يقلب صفحاتها ويقابل بين صورها ويقرأ سطوراً هنا وسطوراً هناك في التعقيب على تلك الصورة أو ذلك التمثال ، ولم يفته أن يدرك مـــا أدركته الأجيال بداهة وارتجالا من ذلك الفضل السابق على جميع الأفضال في باب التماثيل : وهو فضل الإغريق الأقدمين . فراح يقول : صدق الذين أطنبوا في شأن هـــؤلاء الإغريق ووصفوهم بأنهم تراجمة الطبيعة الصادقون في كل بـــاب ، ولاسيما باب التماثيل وباب التمثيل ، فما يبصر الإنسان تمثالا إغريقيـــاً إلا اتصل بصره بالطبيعة على بساطتها بغير حائل وبغير حجاب ، ومـــا يقرأ قصة من قصصهم المسرحية إلا اتصل بصره بالطبيعة كما يعيش فيها وتسيطر عليها العناصر والأقدار.

واختطف كلمة في هذا الكتاب وكلمة في ذاك عن فن مريون وفيدياس وليسبس ومن تلاهم من المتخلفين . فإذا الفن أيضاً مظهر لبروز الفرد الإنساني من الغمار الشامل إلى مكان التخصيص والتمييز ، فالتمثال القديم نموذج للشكل

والقالب والقوام يتساوى فيه كل ذي خلق سوي من الناس ، ولكنه شامل عام لا تتميز فيه الملامح والتعبيرات ولا يتمثل فيه التخصص والانفراد ، ثم تتعاقب صور الافراد بروزاً وتبايناً حتى ينسى الناظر إليهـا النماذج الشاملة ويتناولها بالتقسيم والتفصيل ، ويظهر هذا في تماثيل العصور الإغريقية لأنهم صدقوا وصف الطبيعة وصدقوا الشعور بها على السواء ... وكأنهم حين يمثلون الأبطال الأقدمين يمثلون عناوين شتى لكل نموذج من نماذج البطولة يصنع على غراره قالب باق وتتعدد منه انماط متكررات .

ولم ينته صاحبي من تقليب تلك الصور إلا وهو يقول : فن جميل . نعم فن جميل. ولكن‌ما غناء الفنون الجميلة في عصرنا هذا عصر العلوم والصناعات !.. وأية أمة في عصرنا هذا تفرغ للفن كما فرغ له الإغريق وعليها ذلك الالحاح الدائم من حاجتها إلى العلم وحاجتها إلى الصناعة ؟

وتذكرت في تلك اللحظة سؤالا سمعه الناس ولا يزالون يسمعونه منذ ظهرت بينهم الصناعة الحديثة والعلم الحديث . وقد سئلته مرات ، وأحببت في هـذا المقام أن أكون أنا السائل قبل أن أكون المسؤول ، فقلت لصاحبي : وأيهما أحق بالعناية والتقديم ؟.. وأيهما أجدر بالأمم أن تفخر به وترعاه ؟..

قال : وهل في ذلك جدال ؟.. أحقها بالعناية والتقديم هو الذي تحتاج إليه ولا تستغني عنه !..

قلت : ولكن هذا المقياس يا صاحبي أخطأ مقياس للتفضيل بين شيئـين يتعلقان بالإنسان ، لأن الذي لا نستغني عنه دائماً هو الضرورات الحيوانية التي تقارب بيننا وبين من دوننا من الأحياء .. والذي نحسبه من الكماليات هو الكمال الذي تتفاضل به منازل الناس . فدع الحاجة ومقاييسها ياصاحبي فليست هـي

بمقياس صحيح ، وكيف يكون مقياساً للاختيار ما يسلبك الاختيار وينزلك على حكم الضرورة والاكراه !..

قال : فماذا ترى أنت ؟..

قلت : إذا لم يكن في الأمر اضطرار فنحن إذن قادرون على أن نختار بين أمة جاهلة ناقصة الأداة وأمة مريضة توشك أن تموت ..

فالأمة بغير علم أمة جاهلة ولكنها قد تكون على جهلها وافية الخلق والشعور ، والأمة بغير صناعة أمة تعوزها أداة العمل ولكنها على هذا قد تكون صحيحة الحس صحيحة التفكير ، والأمة بغير تعبير أمة مهزولة أو مشرفة على الموت ، وكذلك تكون الأمم التي خلت من الفنون ، لأن الفنون هي تعبير الأمم عن الحياة .

ولا أكتمك ياصاح أن الاختيار بين هذه المقاصد الثلاثة خليق أن يعنت المختار . لأن الفن والعلم والصناعة ليست بديلا من بديل وليست قريناً يقاس إلى قرين. وما أُعطي الإنسان التعبير ليبادل بينه وبين العلوم أو بينه وبين الصناعات. فإنما التعبير جزء من حياة الإنسان .. والعلم حالة من حالاته ، والصناعة أداة من أدواته .. ولا محل للمفاضلة بين جزء لا ينفصل من النفس الإنسانية وحالة من حالاتها التي قد تنفصل عنها ، ولا محل للمفاضلة بين هاتين وبين عصا يحملها المرء في يده أو فأس يضرب بها الأرض أو مطية يركبها ، أو شيء من هذه الأشياء المصنوعة على الإجمال ..

وما ظنك برجل يقول لك : تعال يافلان !.. انك حي تعبر عن سرورك وألمك وتقول إني أحب وإني أبغض ، وإني أرجو وإني أخاف ، وإني أبتهج لتلك الروضة وأنقبض لتلك المتاهة ، وأعجب بهذا البطل الجسور وأهيم بذلك الوجه الصبوح .. تعال يا فلان!.. إنك تستطيع أن تقول هذا فلا تقله وخذ في مكانه العلم أو خذ في مكانه عشر سيارات وبضع طيارات ومصنعاً للحديد

ومنسجاً للحرير .. ما قولك في هذا الرجل يا صاح !.. هل تراه قد عرض عليك الخيار في أمر يصلح للخيار ؟.. وهل تراك قادراً على أن تجيبه ولو طاب لك أن تأخذ البدل المعروض وتعطيه التعبير المزهود فيه ؟..

ذلك هو شأن الذين يفاضلون بين الفنون والعلوم والصناعات يخيرون الناس في غير موضع للخيار ، ويسألونهم عن الأسعار في غير موضع للبيع والشراء . أما إن كان المقصد من هذه التسعيرة تقويم القيم والعلم بأقدارها فليعلموا إذن ما شاءوا أن يعلموه : ليعلموا أن للأصبع قيمة ، وأن للمصباح قيمة ، وأن للسيف قيمة ، وأن للرغيف قيمة ، ولكن المبادلة بينها لا تقبل في سوق الاختيار ... وليس في سوق البيوع الجبرية مجال للإيجاب والقبول !..

ووقعت يد صاحبي على مجلدات الصور التي تسمى بصور المدارس الحديثة وهي أشكال وألوان من المستقبليين إلى فرق الواقعيين إلى الاحساسيين الغلاة ، إلى أشباه ذلك من البقع والخطوط والأصباغ التي تحمل عنوان التصوير وليست هي من التصوير في شيء ، لأنها في استطاعة كل من يتناول الريشة ويغمسها في الألوان ، وليست بالفن الذي تعرف له أصول وتدرس له مبادىء ويمتاز به الفنان بين سائر الناس .

نظر صاحبي إلى تلك الصور فاشتدت عليه النقلة من فنون الأقدمين ونظرائهم المحدثين إلى هذا الهراء الذي يشبه هذيان المجانين . فقال : إن كان الفن تصويراً فليس هذا بتصوير ، وإن كان هذا الفن الذي يسمونه بالحديث تصويراً فلنبحث عن اسم آخر لذلك الفن القديم .. لن يجمع الفنين اسم واحد بأية حال .

قلت : لا حاجة للبحث عن اسم آخر للفن القديم فهو التصوير الذي يصنعه المصورون . أما هذا فهو ألغاز وأحاجي كتلك الألغاز والأحاجي التي تنشر في صحف التسلية عن الحروف المتقطعة والأرقام المثلثة أو المربعة أو عن العيون التي

ليس لها آناف والآناف التي ليس لها عيون، وكلها من عمل الملغزين والمفسرين فلا اختصاص بها للمصورين والنحاتين دون غيرهم من العالمين .

قال صاحبي : ونستغفر الألغاز والأحاجي قبل هذا التشبيه بين الفنين . فإن الألغاز والاحاجي ترجع إلى تفسير يتفق عليه كل من يفهمها بلا استثناء . أما هذه البقع والخطوط والأصباغ فهي شيء لا يفهمه غير صاحبه ، ولا يستطيع أن يعمم فهمها بين طائفة من الناس . فكل صورة هنا كلمة من لغة لا يعلمها إلا انسان واحد ، إن صح أنها شيء معلوم . وقد كانت الفنون لغة عامة يفهمها على البداهة من لا يتفاهمون باللغات ، فأصبحت على أيدي هؤلاء المجان خرافة سرية في ذهن رجل واحد لا يمثلها مرتين على نمط معروف .

ثم أومأ صاحبي إلى صحائف الاحساسيين فقال : هؤلاء هم الذين فتحوا الباب جزاهم الله !..

قلت : أصبت ، إنهم هم الذين فتحوا باب التصرف في الأصول الموروثة ولكنهم أصابوا في فتحه ، وهؤلاء دخلوا فيه ولكنهم دخلوا واغلين ..

لقد كان الأساتذة الأقدمون يصورون ما يعلمون ويحسون ، فجاء من بعدهم أساتذة المدرسة « الاحساسية » ليصوروا ما يحسون وما يشاهدون ..

كان الأستاذ القديم يعلم وهو يصور الشجرة أن لها غصوناً وأوراقاً فيصورها ذات غصون وأوراق مفروزة كما يعلمها ، وإن كان يراها من حيث يجلس لتصويرها لوناً أخضر لا تنفصل ورقة فيه عن سائر الأوراق .

وكان الأستاذ القديم يحسب الظل سواداً لأنه نقيض البياض وإن كان ليضرب أحياناً إلى لون البنفسج أو الرماد .

فجاء الاحساسيون فأصلحوا هذا وذاك وكان لهم الفضل والتوفيق في هذا الابتداء .

وكأنما حسب الذين خلفوهم أن التصرف مقصود لغير غرض مقصود ، فوصلوا إلى ما هم فيه من هذيان المجانين .

كان الأقدمون يصورون ما يعلمون ويحسون ، وكان الاحساسيون الصادقون يصورون ما يحسون ويشهدون ، فجاء من بعدهم من يصورون ما يتوهمون ، وجاء من بعد هؤلاء من يصورون ما يزعمون أنهم توهموه ، وهم كاذبون .

توهم مزعوم .. فماذا يكون وراء الوهم الملفق والزعم المكذوب ؟..

لن يكون إلا هذه البقع والخطوط والأصباغ ، ولن تكون فناً يتولاه فنان لأنها في مقدور كل يد تصبغ الألوان .

انظر إلى هذا الكلب الذي صوره رجل من المستقبليين !.. أرأيت كلباً قط له اثنتا عشر قدماً وذيلان أو ثلاثة ذيول ؟.. إن هذا « المستقبلي » يصوره كذلك لأنه يزعم أن الكلب وهو يجري قد يرى له هذا العدد من الأقدام والذيول !.. فمن الذي أنبأه أن فن التصوير قد خلق لتصوير الكلاب وهي واقفة لا تنقل قدماً في قصارى شوطها فلم يجهل أحد رآها أنها تعدو غاية العدو وأن الحركة شيء داخل في صناعة المصورين . ولو جرى المصورون على هذا المذهب لما جاز أن يرسم انسان بعينين اثنتين .. لأنه يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال ويرفعهما إلى أعلى ويصوبهما إلى أسفل فلا تستقران في لمحتين !..

وانظر إلى هذا المنكود من غلاة الواقعيين كيف يصور الفتاة ؟.. أفهذه فتاة أم جثة غريقة وارمة ؟.. أم جلد آدمي محشو كما تحشى جلود الحيوان ؟..

ولكنه يقول لك انه يصور ما يراه الوعي الباطن ولا يصور ما تراه العينان . فمن قال له ان الوعي الباطن مخلوق في هذه السنوات التي سميناه فيها باسمه ؟.. ومن قال له ان الأساتذة الأقدمين كانوا يعيشون في هذه الدنيا بغير وعي باطن وبغير أوهام وأحلام ؟.. إنه سمع اسماً جديداً فظنه خلقاً جديداً يرينا الدنيا على

صورة لم تكن لها في الزمن القديم.. ثم جاء المتجرون بالغرائب فسخروه وشجعوه، ووقع في الفخ من يدعون غير ما يعلمون، ومن يخافون أن يقال عنهم انهم قوم متخلفون ، لا يفقهون الجديد ولا يجرون مع العصر الذي يعيشون فيه .

قال صاحبي : ترى لو تمثل صاحبنا في وعيه الباطن صورة السيارة كأنها الفتاة الحسناء اللعوب – أيؤمن بوعيه الباطن هذا فيلقي بنفسه تحت قدميها ، أو يقف في طريقها ليغازلها ويسعد بقربها ..؟!

قلت : ليتهم يصدقون الوعي الباطن هذا التصديق ، فيلحقوا بالوعي الباطن في عالم الخفاء وتسلم القرائح والأذواق .. لكنهم عند الجد قوم عقلاء . ينظرون بالعين التي ينظر بها الناس ولا يرون السيارة إلا سيارة ، ولا الرجل إلا رجلا ولا الفتاة إلا فتاة !..

وألقى من يده تلك المجاميع ليتناول مجموعة من صور التماثيل التي صنعها الأقدمون والمحدثون وحفظت أصولها في دور الفنون والآثار، بعضها في متحفنا المصري وبعضها في العواصم الأوربية .. فبدرت منه هتفة اعجاب بنخبة من تماثيل الملوك والملكات والكهان في عصور الفراعنة ، وأدهشه ما يمثله الحجر – ثم تمثله الصورة المأخوذة عن الحجر – من قوة الخلق ودقة الملامح وبروز السمات على خلاف ما توسم في تماثيل الإغريق .

قال : ما كنت أحسب أن المصريين برعوا الإغريق في هذه الفنون ، ولا سيما في النحت والتصوير .

قلت : كان ينبغي أن تحسب ذلك بداهة قبل أن تلمحه بالعيان ، فالمصري القديم كان يعنيه التخليد قبل أن يعنى بالنقل عن نماذج الطبيعة ، ومن عني بنقل النماذج العامة أغناه الوصف المشترك بينها عن السمات الخاصة والملامح الشخصية ولكن المصري الذي كان يصنع التمثال كما يحنط المومياء لتخليد صاحبها ودوام جسده ومقومات شخصه لم يكن له معدى عن تمييز معارفه والتدقيق في تمثيل

صفاته . فمن ثم كان المصريون الأقدمون أبرع من الإغريق الأقدمين في نقل الملامح والقسمات ، ولولا أن الإغريق أطلقوا الدنيا وأن المصريون قيدوا دنياهم بآخرتهم لجاء فن الإغريق بعد فن الفراعنة الأقدمين بأشواط فساح .

قال: ولعلهم من أجل هذا قربوا الصلة بين قيود الفن وقيود الأخلاق . فندر في صورهم العري وعرض المفاتن المثيرة ، وتعمدوا أن يستروا من الأجسام ما تقضي الأخلاق بستره ، خلافاً للسنة الشائعة في رسم الصور ووضع التماثيل .

قلت : إنهم في الواقع أقرب إلى ستر الأعضاء من غيرهم ، فلم يكشفوا من عورات الأجسام الا ما صنعوه لآلهة التناسل في المحاريب المزوية ، ولكني لا أخال المسألة هنا مسألة حياء اتصف به قدماء المصريين وتجرد عنه الآخرون ، وانما كانت تماثيل المصريين الأقدمين تماثيل أشخاص معروفين لا تماثيل أجسام يتخذونها نموذجاً للجسم القوي والجسم الجميل ، ولا حاجة إلى عرض خفايا الجسم في تماثيل الأعلام المعروفة : أما نماذج القوة ونماذج الجمال فيختلف الحكم عليها بعض الاختلاف — فإن اظهار العضلات والألواح واظهار الزوايا والمدارات ، قد يتمم النموذج ويلزم المثال في أداء عمله أشد من لزوم الوجوه والرؤوس ..

ثم قلت : وعلى هذا ربما أدهشك كما أدهشني حين قرأت لأول مرة ان الأصل في ستر الأعضاء انما يرجع إلى الأنفة من وظائفها لا إلى الحياء من شهواتها ، وانهم كانوا يعافونها فيسترونها ولم يستروها لأنهم يخشون فتنتها ، فما أعجب أصول الأخلاق ، وما أعجب منبت الحياء .

قال صاحبي : وكان من الذين يتحرجون ولا يمنعهم تحرجهم أن يسمعوا وجهات الأنظار : من أي منبت نبت فهو اليوم فضيلة من كبريات الفضائل ،

أو لعله اليوم أصل الفضائل جميعاً .. فلماذا يكشفون ما ينبغي أن يستر ، ولماذا يلزمون تماثيل الناس قلة الحياء وهم يطلبون الأصل الأصيل ! ..

قلت : أولى لهم أن يستروا ما يعاب كشفه ولا حاجة إلى إبدائه . على ان المثالين قد خدموا الأخلاق من حيث لا يريدون حين عودوا الناس أن ينظروا إلى الجسد الواحد نظرات متعددات ، لأن النظر للشهوة وحدها معيب كعيب الخلاعة والابتذال ، وما زال العزل بين أنواع الشعور ثروة لنفس الإنسان تخرجها من فاقة الطبع إلى غناه . فالطبيب ينظر إلى جسد المرأة الحسناء فينسى الجمال والشهوة ويذكر الطب والرحمة ، والرجل ينظر إلى أخته أو ابنته فينسى انها امرأة من جنس النساء ويذكر الحنان والمودة ، والممثل يقبل الممثلة وينسى لذة التقبيل ليذكر براعة التجويد والإتقان . والعينان اللتان تبصران ألف جسد على شاطىء البحر في كساء الحمام لا تفتنان كما تفتنان بجسد واحد في مثل هذا الكساء بين الجدران ، فإذا تعود الناس أن ينظروا إلى التمثال فيذكروا جماله واتساق أعضائه وتناسق أوصاله وينسيهم ذلك انهم من ذوي الشهوات بضع لحظات ، فهم كاسبون في الأخلاق فضلا عن الأذواق ،وليسوا بخاسرين ..

* * *

وعاد صاحبي إلى ترتيب المكتبة الذي بدا لأول وهلة انه لا يعجبه ولا يريحه ولا يتيح له أن يجد طريقه فيه ، لأنه أعرض عن كتب الصور والتماثيل ومد يده إلى بعض الكتب التي تجاوزها على رفها فاذا هي في المنطق وما إليه . قال : ما هذا ؟ .. أمن بيكاسو وأروزكو وبراك وتماثيل الفراعنة والجرمان إلى أرسطو وكانت وهيوم ؟ .. لم أر موضوعا أبعد عن المنطق من موضعه في هذا المكان .

وكانت هذه الملاحظة وأشباهها ما تفتأ تعاد من كل زائر طرق هذه الحجرة ونظر في كتبها ورفوفها ، ولم تكن بي حاجة إلى بيان عنها لأن البيان الوحيد أنني أجددها كل حين ولا أملك أن أرتبها كل حين ، وانني مع هذا لا أضل فيها عن طريق كتاب أريده منها فما حاجتي إلى ترتيب لها غير هذا الترتيب ؟ ..

ولكنني رجعت بصاحبي إلى المنطق الذي احتكم اليه فقلت : وهل يقضي المنطق بغير ما تراه ؟ .. ما الحاجة إلى عناء الترتيب والتبويب ان كنت بغير ترتيب ولا تبويب تدرك ما تريد ؟ .. وأي ترتيب ينتظم في هذه الحجرة من ناحية الا ليختل من ناحية أخرى ؟ .. أترتيب الحجم أم الموضوع أم تاريخ الاقتناء أم المؤلفين !.. ولِمَ العناء ؟.. ان المنطق الذي تحتكم إليه أسباب وعلل .. فهل من سبب وهل من علة ؟ ..

قال : لست على المنطق بغيُّور فاصنع به ما تشاء وضعه حيث تشاء . وما جدوى المنطق في المكتبة وما في الحياة من منطق يعقله العقلاء

قلت : أما هذا يا صاحبي فلا ، وإننا لعلى شرطنا الأول أن ندع المردة في قماقمها ولا نطلقها ، ولكننا قادرون — وهي حبيسة — أن نقول في أمان : أن المنطق والحياة لا يفترقان ! .. وان الآفة فيمن لا يفهمون المنطق انهم لا يحسونه ، وفيمن لا يحسون الحياة انهم لا يفهمونها ، فما من شيء في هذه الحياة يناقض المنطق بحال ، فإن فهمناه فهو مفسر بأسبابه ومقدماته ، وان لم نفهمه فليس لنا أن نناقض بينه وبين المنطق أو القياس

قال : عجبا ! .. أو كذلك ؟ .. إننا لنرى كل يوم أمورا لا نفهمها ولا يراها الناقدون تجري إلا على خلاف وجهها ونقيض استقامتها ، هذا الغني بخيل وذلك الفقير كريم . هذا الفتى المقبل على الحياة يقدم على الموت في

شجاعة وخيلاء ، وذلك الشيخ الذي شبع من الحياة يجبن ويخاف . هذا الذكي محروم وهذا الغبي مجدود .. فأي منطق في هذا وأي قياس ؟ ..

قلت : كل المنطق وكل القياس .. إن الذكي لا يصنع مقاديره فيصيب فيها بذكائه وإن الغبي لا يصنع مقاديره فيخطىء فيها بغبائه ، واننا لنضع المنطق في غير موضعه حين نجعله حسبة أرقام وأعوام ، فان الفتى الذي يقدم على الموت لا يفعل ذلك لأنه يحسب الأعوام التي عاشها والأعوام التي ينبغي أن يعيشها ، ولا يقدم على الموت لأنه يريد أن يقدم عليه ، ولكن الوضع الصحيح أن نضع دوافع الحياة التي تحفزه إلى المجد والغلبة والثناء وتخجله من العار والمهانة والعقاب ثم نضع أمامها دواعي الحرص والحذر والإشفاق ، فاذا كانت تلك الدوافع أقوى من هذه الدواعي فالمنطق الصحيح إذن أن يقدم على الموت ولا يستسلم للحذر والمخافة ، واذا كان الشيخ على نقيض ذلك قد تغلبت فيه المخاوف على دوافع الشباب فالمنطق الصحيح أن يتشبث بالحياة التي يرفضها ذلك الشاب وهو في مقتبل صباه .. وما من غرابة إلا وهي مفهومة معقولة منطقية قياسية حين نضعها في وضعها الصحيح ، وانما نخطىء المنطق لأننا نخطىء الإحساس ، فلا تصدق خصيان العقول والنفوس حين يزعمون أنهم من ذوي الإحساس لأنهم لا يفكرون ولا يقيسون . فانما الإحساس القويم هو الفارق الوحيد بين المنطق القوي والمنطق الضعيف وانما الخطأ في المنطق خطأ في الإحساس بالأمور على حقائقها النفسية .. أتعرف أولئك النظّامين الذين يحفظون التفاعيل ليحسنوا وزن الشعر ، فلا تستقيم لهم التفاعيل ولا تستقيم لهم الأوزان ؟ .. لو أحسوا بآذانهم لصححوا الأوزان معها ، وكذلك الذين صغرت نفوسهم فلا يشعرون بالحياة على حقائقها يتهمون المنطق وهو براء ، وهم الذين لا ينطقون ولا يحسون .

ترى هل يخطىء المخطئون فيحسبون الغني أولى بالسخاء والفقير أولى بالضنانة لأنهم يحسون ولا يفكرون ، أو لأنهم لا يحسون ولا يضعون شعوراً أمام شعور بل أرقاماً أمام أرقام ! .. ترى لو أحسوا ماذا يختلج في نفس الغني فيبخل وماذا يختلج في نفس الفقير فيجود ؟ .. أكانوا يخطئون في المنطق ويضلون عن سواء السبيل ؟ ..

اننا نتكلم في الغني والفقير ، فلنمض في القافية ولا ندع الكلمتين قبل أن نقول : ان فقر العقول لم يكن قط شهادة بغنى النفوس ، وان ثروة النفس لا تحرم صاحبها ثروة العقل بل تعينه عليها وتزيده منها . وهذا فيما أحسب فصل الخطاب في قضية الفقراء المنطقيين الذين يثبتون غناهم في الحس والشعور بشهادة فقر في باب المنطق والتفكير .

* * *

وقبل أن يتقدم صاحبي إلى ركن الشعر والشعراء وهو ربع المكتبة بادرته بالشرط المعهود : لا نفتح القماقم ولا نتجاوز العناوين ! ..

قال : نعم الشرط فيما أرى . فما نحن بخارجين من هذه الحجرة لـــو أطلقنا مارداً واحداً هنا وانطلق وراءه اخوانه المتحفزون . ولا أخفي عليك أنني لست على مذهبك في الحفاوة بالشعر لأنه فضول شبعنا منه نحن الشرقيين وطال اشتياقنا إلى تعويد أبنائنا ملكة العمل بعد ملكة الكلام ! ..

قلت : لك رأيك في الحفاوة بالشعر والشعراء . أما الحقيقة فهي أننا كنا عاملين عندما كنا قائلين ، وأنه لم توجد قط أمة عرفت كيف تعمل الا عرفت كذلك كيف تقول . فلا تناقض بين القدرة على العمل والقدرة على القول . وما يستطيع إنسان أن يعمل حسنا أو يقول حسنا إلا بوعي صحيح . والوعي

الصحيح قسط مشترك بين ملكة العمل وملكة الشعر . ولولا ان الشعراء يحتاجون إلى صناعة التعبير ويفرغون لاتقانها لما منعهم الشعر أن يكونوا أقدر العاملين.

أتحسب العرب كانوا متخلفين في ميادين الأعمال لأنهم كانوا سباقين في ميادين القصيد زمناً من الأزمان ؟ .. أرأيت اليونان قد نبغ فيهم القادة والساسة والمدبرون إلا حين نبغ فيهم الشعراء والمنشدون ؟ .. أتعلم أمة من أمم الأرض في العصور الحديثة كانت أطبع على مراس الواقع والعناية بالفكر العملي والخلائق العملية من أمة الانجليز ؟ .. فهل رأيت أمة من جيرانهم ومنافسيهم سبقتهم في مضمار الشعر وأنجبت نصف من أنجبوه من عباقرة الشعراء ؟ ..

زعموا – أو زعمنا لأنفسنا نحن الشرقيين – اننا خياليون ، واننا لو أصبحنا واقعيين لنفضنا عنا غبار الخمول . والحق الذي لا مرية فيه عندي اننا واقعيون فاشلون في الواقعيات ، فليست قصور ألف ليلة ولا حسانها وجواهرها وموائد طعامها وشرابها خيالا يحتاج إلى ملكة من ملكات التصور والإدراك ، ولكنها كلها واقع ناقص أو واقع موقوف التنفيذ . فاذا حصل التنفيذ حصل الواقع الذي يلمس ويرى ويشم ويذاق .. واليوم الذي نتخيل فيه ، فنحسن التخيل هو اليوم الذي ننفض فيه غبار الخمول .. لأننا نحسن الوعي بهذا التخيل ، ونطبع الصورة الصادقة في بدائهنا من صورة الوجود ، ولن تنطبع في النفس صورة صادقة لما حولها وهي راكدة قاعدة أو عازفة عن الحركة والسعي والاستجابة لتحول الأحوال .

فكن على رأيي أو رأي غيري في الحفاوة بالشعر والشعراء ولكن لا تجعل الشعراء مقياسك الذي تقيس به قدرة العمل ، لأنهم يتفرغون للتعبير فيفوتهم

التفرغ لما عداه من الشؤون، واتخذ مقياسك من الأمم العاملة القائلة تجد أن الشعر الأصيل والعمل الأصيل يرجعان معا إلى فرد مقياس ، و هو الوعي الأصيل .

وهممنا أن نترك الحجرة التي قضينا فيها معظم هذه السياحة فأنصفناها أعدل الإنصاف لأننا في الواقع نقضي فيها معظم الحياة .

وعدل صاحبي عن الرفوف إلى الجدران فقال : اننا دخلنا هذه الحجرة ونحن نقول : إن النور أخفى الأشياء ، لأنه أظهر الأشياء بل مظهر الأشياء ، وها نحن أولاء نغضي عن الجدران الظاهرة ونبحث عن الرفوف والصفوف . فمن هذا وما ذاك وما هنالك على هذه الجدران التي رأيناها أول ما رأينا ؟ .. ألم تكن أحق منا بالسؤال عنها أول ما سألنا ؟ ..

وكانت على الجدران صورة فنية واحدة لا ثانية لها من نوعها وهي صورة الفتاة الحزينة على قبر حبيبها الدفين ، وقد كتبت عنها في ساعة من الساعات بين الكتب فلم يكن السؤال بحاجة إلى جواب ، أما سائر الصور فقد كانت أوضح من أن تحتاج إلى توضيح ، جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول وكارليل وبيتهوفن ، وصورتان من صنع الفنان النابغ صلاح الدين طاهر احداهما صورتي بعد الأربعين والأخرى صورتي بعد الخمسين ! ..

ولقد تجمعت هذه الصور في أماكنها بمحض الاتفاق ، في نيف وعشرين سنة ، فلم أعرف لها وحدة تجمعها إلا بعد أن تجمعت وحدها وساءلت نفسي عن تلك « الوحدة » كما كان يسألني الناظرون إليها .

قال صاحبي وهو يومىء إلى الصور واحدة بعد واحدة : هذا موسيقي ألماني ، وهذا حكيم انجليزي ، وهذا مصلح أفغاني ، وهذا وزير ، وهذا مفت ، وهما مصريان ! .. فما الذي جمعهم في صعيد واحد وهم بهذا التفرق في المواطن والشواغل والأهداف ؟ ..

قلت : الجد والكفاح ونبل السليقة وقلة الاستخفاف .

فهؤلاء الثلاثة شرقيون من رجال العمل والحركة ، وأعمالهم فيها النهضة الاجتماعية والثقافة الدينية والثروة الوطنية ، ولكنهم كلهم مجدون مكافحون نبلاء ، لا يستخفون بما يعملون ولا يدينون بشريعة الاستخفاف التي يتراءى بها بعض الساخرين من الحكماء .

قال : لكأني بك لا تحب الساخرين .

قلت : كلا .. بل أحبهم ساخرين وجادين مكافحين . ومن أعجبه كارليل وبيتهوفن لا يكره السخر بل لا يكره السخط أحياناً على الحياة . ولكن شتان سخط وسخط وشتان رضوان ورضوان .

أتعلم يا صاحبي ماذا أحب وماذا أبغض من مذاهب السخرية بل من مذاهب السخط والتشاؤم ؟ ..

ان النظرة إلى المرأة هنا هي مقياس النظرة إلى الحياة . فانك لا تسخط عليها إلا لأنك تكبرها ، ولا تترك السخط عليها والسخرية منها إلا لأنها هينة عليك حقيرة في عينيك .

الزوجة تغضبك وتقيمك وتقعدك ولكن البغيّ المستباحة لا تثير منك غضبة ولا تكلفك حساباً ولا عناية . فاذا اقترن السخط بالجد والاهتمام فالحياة شريفة مرعية تلقاك منها المغضبات بغير ما تتوقعه وما تتمناه ، واذا بطل السخط وبطل معه السخر اللاذع فالحياة جثة مستباحة بلا عرض ولا كرامة ، وهذا الذي أوثر عليه سخط الساخطين وسخط الساخرين ..

وإني لأسمع من هذه النافذة بين حين وحين صوت امرأة لا تني تنذر وليدها بالخيبة وسوء المآل : أأنت تفلح في شيء قط ؟ .. والله ما أنت

بمفلح ولا بمقلع عما أنت فيه ! .. خيبني الله إن لم أرك خائباً هكذا بين أبناء الأمهات . .

وهذا سخط كسخط فريق من الفلاسفة المتشائمين على الدنيا ومن فيها ، ولكنه سخط من يريد الخير ومن يسوءه صدق ما يقول ، ومن هو أول الفرحين المستبشرين لو جرى الأمر على غير النبوءة التي يقسم عليها جاهداً ، ويخيل إليك انه قد جزم بها كل الجزم وفرغ منها غاية الفراغ .

هذا سخط من يعنيه أن يسخط ويعنيه أن يرضى ، هذا سخط من يسخط على نفسه وهو ساخط ، أو من يسخط لأنه يحاول أن يرضى فما استطاع ..

أما أولئك الفلاسفة الراضون بالدنيا لأنهم يلتذون عيوب الإنسان ويبحثون عنها بحث المحبور بالنقص المحزون بالكمال — فبينهم وبين أولئك الساخطين بون بعيد ، بين هؤلاء وهؤلاء ما بين الأم التي تنعي خيبة وليدها والعدو الذي ينعي خيبة عدوه ، فتلك تنعي و هي كارهة آسفة ، وهذا ينعي وهو راض قرير ، وتلك تحفز إلى العمل والصلاح ، وهذا يصد عن العمل والصلاح .

أولئك المتشائمون أصدقاء الحياة والإنسان ، وهؤلاء المتشائمون أعداء الحياة والإنسان .

وليست العبرة في مذاهب الحكمة بالأسماء والعناوين ، ولكنما العبرة حق العبرة بالبواعث والنيات ، وربما نظرت إلى البواعث والنيات فرأيت بعض المتشائمين أقرب إلى حب الحياة والاشادة بفضائل الأحياء من بعض المازحين والضاحكين .

قال صاحبي : ان كثيراً من الناس ليفهمون قولنا حين نقول لهم : ان كارليل فيلسوف متشائم ، ولكن كم منهم يفهموننا حين نقول : ان بيتهوفن موسيقار متشائم أو مناضل ؟ .. وكم من الناس في الشرق خاصة يرى في

صناعة الألحان متسعاً لآراء المتفائلين وآراء المتشائمين وآراء المناضلين ؟ .. انما يحسبون ذلك وقفا على التعبير بالكلام دون التعبير بالألحان ، فان وصفوا لحناً بالتشاؤم فأول ما يسبق إلى أخلادهم انه لحن جنازة أو لحن شجن وأنين ... وانما يسوغ التعبير الموسيقي في معاني المذاهب الفلسفية عند طبائع الغربيين ولا يسوغ عند طبائعنا نحن الشرقيين . أو ليس هذا هو الفارق بين موسيقى الغرب وموسيقى الشرق التي ورثناها عن الآباء منذ عهد بعيد ؟ ..

قلت : لا أحب أن أظلم الطبائع الشرقية ولا أود أن أفرد الطبائع الغربية دون سواها بتلك الفضيلة ، فإن الموسيقى الغربية لم تكن من قديم الزمان على هذا الطراز الذي نسمعه من بيتهوفن وأمثاله ، وانما اتخذت منهجها الحديث حين نشأت في ظل القداسة الدينية ثم عبرت عن مسائل الروح وأسرار الوجود التي تشتمل عليها الأديان ، ثم استولت عليها المذاهب الكونية حين استولت في الغرب على تراث الدين كله وعلى مسائل الروح بما رحبت ، فلم ينعزل الموسيقيون عن الفلاسفة والشعراء وباعثي النخوة في صدور الأمم يوم تعاقبت بينهم نهضات الإصلاح والحرية ، وقديماً كان في اليونان وفي بلاد الجرمان منشدون وملحنون فلم ينهجوا على هذا المنهج الحديث ولم يرتفعوا بالموسيقى كثيراً عن منزلة الطرب وتمليق الحواس وتمثيل الشعور المحدود .

ولعلنا نقترب إلى الإنصاف وندنو من التحقيق حين نقسم الموسيقى إلى نهجين يختلفـــان باختلاف الذوق والبديهة ولا نقسمها إلى اقليمين « جغرافيين » بين أناس في الشرق وأناس في الغرب ، أو أناس في الشمال وأناس في الجنوب ..

فهناك موسيقى الحس المحدود وهي التي تؤدي لنا وظيفة الجارية والنديم ، وتسلينا بأنغام الفرح حين نفرح وأنغام الشجن حين ننوح .

وهناك موسيقى الروح وهي التي تخاطبنا من منبر الإلهام وشرفات الغيب وتجلس لنا مجلس المفسرين والهداة ، وتقول لنا ما يعجز عنه الكلام ، لأن الألحان لا تقصر عن وصف الأسرار حين تقصر عنها المعاني والحروف ..

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس الحي التي تطربنا وتشجونا كما يختلج الطرب والشجو بالجسم القوي الصحيح .

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس المريض التي تطرب من تطرب وتشجو من تشجو كأنها السم المخدر أو الشهوة السقيمة التي تترهل بها الأجسام في مخادع اللذات .

وقد تقترن الموسيقى بالسعة والضيق وبالسمو والهبوط ، على حسب السامع المصغي إليها والمتعقب لأنغامها .

فمن الآذان الشعرية مثلا ما ليس يتسع لغير القافية الواحدة في القصيد الطويل .

ومنها ما يسمع القصيدة الواحدة وفيها عشر قواف تتكرر في أماكنها ، فتحسن انتظارها حين تعود وتجري مع كل قافية منها في مدار .

وكذلك الأوزان الموسيقية في آذان السامعين ، ربما أتعبت أناساً بتكرارها وأراحت اناساً بهذا التكرار ، وانما المعول في الحالتين على الأذن التي تتعقب وتحسن التعقب والتعقيب .

أترى اليدين اللتين تلعبان بخمس كرات وسكينتين وبضع بيضات مع الكرات والسكينتين لا تزال تقذفها اليمين وتتلقاها الشمال أو تقذفها الشمال وتتلقاها اليمين ؟ .. انهما يدان من لحم ودم كتينك اليدين اللتين تكسران البيضة الواحدة إذا تناولتاها على غشم وجفاء ، فاذا مرنت البديهة الصاغية فقد

تداول بين عشرين وزناً تتلقاها في مواقيتها ولا تحار بين واحدة منها وواحدة كلما رجعت إليها ، وإذا أخطأتها هذه المرانة — أو هذه القدرة — فقد يعنتها الوزن الواحد في غير ميقاته المحدود ولا خطأ في الموسيقى هنا وهناك ، وانما هو الخطأ في التناول والاتباع ..

* * *

قال صاحبي مبتسماً : وإخالها لعبة عسرة على آذان المستمعين عندنا .. خمس كرات وبضع بيضات وسكينتان في يدين اثنتين ... هذا كثير على سامعي العود والقانون في هذا الشرق « اللطيف » ... اني ليائس من اليوم الذي يتجمع فيه لسماع الموسيقى العالية جمهور يعد بالمئات والألوف ، كذلك الجمهور الذي يتجمع لها في أندية الأوربيين.

قلت : ان أجلنا اليأس فلا ضير في تأجيله ، فإن الأغاني الشعبية عندنا لا تزال سليمة من مرض الترهل والغواية ، وهي لا تحتاج إلى مرانة كبيرة في المنشدين ولا في المستمعين .. فأما الموسيقى التي لا غنى فيها عن مرانة الآذان والأذواق فهي تلك الموسيقى العالية التي نتمنى لنا نصيباً منها كنصيب الأوربيين أو أوفى من ذلك النصيب . وليس لنا أن نيأس من عقباها بيننا حتى نؤدي واجب المرانة المطلوبة في الجيل الناشىء تمهيداً لما بعده من الأجيال . فإذا حسنت هذه المرانة جيلا واحداً ولم تثمر في الشرق ثمراتها المنشودة فهناك مجال لليأس أو للشروع فيه.

ويخيل إلينا اننا لم نبدأ هذه المرانة بعد على وجهها المفيد لأننا خلقاء ألا نترقب فناً موسيقياً عالياً قبل أن نفصل بين الذوق الفني وبين المتعة الجنسية أو المتعة الجسدية ، ونحن لا نزال نقبل على مجلس السماع جنسيين جسديين ،

يتعصب الذكور منا للمغنيات الاناث ويتعصب الاناث منا للمغنين الذكور .

قال : وما آية هذا الفصل بين ذوق الفن وبين الغريزة الجنسية ؟ ..

قلت : آيته أن ترى السامعين يحيون السماع بغير ما ألفناه من التصدية والتصفيق ، وبغير ذلك الأسلوب الناشز من الخبط والصريخ ، فان الصفة الأولى التي لا تنفصل من الموسيقى والغناء هي صفة الانسجام والتناسب بين الأصوات ولن تسيغ الأذن الموسيقية زعيقاً ولا اقتضابا وهي تصغي إلى تناسب وانسجام . انما السامع المصغي إلى الغناء الذي يصيح تلك الصيحات المزعجة حيوان لذعته الغريزة فجمح في غير أناة ، وليس هو بانسان يملكه جمال النسق وتستهويه متابعة النغم في مسالك الألفة والنظام . وليس في وسع الأذن أن تكون أذناً موسيقية ثم تنتقل من الفوضى إلى النسق ومن النسق إلى الفوضى في لمحة عين ، وليس في وسعها أن تسيغ الفن وتسيغ نقيضه في آونة واحـــدة ، وهل الفن إلا أوزان ؟ .. وهـــل نقيضه الا الأصداء والاخلاط التي تنطلق بغير عنان ؟ ..

فالصاخب الذي تلذعه الغريزة فيصيح ويقتضب الغناء معقول ومفهوم..

أما الذي لا يفهم ولا يعقل فهو ذو نظام وذو فوضى ينطلقان في لحظة واحدة ، ولا يزالان كذلك متقلبين مترددين في شخص واحد ساعة أو بضع ساعات...

قال : كأنما الذنب ذنب المستمعين .

قلت : ليس في فنون الجماهير ذنب واحد ، بل ذنوب تشمل المسمعين ومن يستمعون إليهم ، ومن لا يسمعون ولا يستمعون .

* * *

وكانت صورة بيتهوفن تنحني إلينا كأنها تصغي إلى حديثنا ، فقال صاحبي : ما كان أعظم فجيعة المسكين بسمعه وهو السفير بينه وبين عالم الأصداء والأصوات . لو كان هو الذي أمامنا ولم تكن صورته لما سمع من حديثنا أكثر مما سمعت هذه الصورة الصماء . فماذا كان على الدنيا لو أسمعت هذا الذي أسمعها من أقصاها إلى أقصاها ولا يزال يسمعها إلى اليوم ! ..

قلت : هي محنة تمثلت فيها نزاهة الفن وخلوصه من ظاهرة الحس القريب . فقد سمعنا من نقاد الغرب من يقول : إن روفائيل لو ولد مقطوع اليدين لكان هو في ملكة التصوير روفائيل الذي علمناه. فإن كان هؤلاء النقاد قد بالغوا بعض المبالغة فقد شاء القدر أن نرى أعظم الموسيقيين مقفل الأذنين لا يسمع ما يوحيه لأنه يتلقاه من عالم النسب المحض التي لم تترجمها الأصوات .. وما يتفق هذا لأصحابنا أصحاب العود والقانون وربع المقـام . لأنهم كالمرأة التي تنظر إلى مرآتها ولا تفارقها. فإن فاتهم أن يسمعوا أنفسهم فقرة بعد فقرة لم يحسنوا إسماع الآخرين ..

* * *

وتهيأ صاحبي لسؤال يتردد فيه فقال وهو ينقل بصره بين الصور المتجاورات : إنك لم تجمعها عمداً على هذا التفاوت البعيد فيما بينها . فأما وقد اجتمعت على غير قصد منك فهل خطر لك قط أن توازن بين أصحابها وأن تسأل نفسك أيهم أعظم وأيهم أحق بالاكبار والاعجاب ؟

قلت : لا يخطر لك على أية حال أنني أنزل بقدر الموسيقي العظيم عن قدر المصلح العظيم أو الزعيم العظيم . إن الأئمة الموسيقيين أندر في العالم من أئمـــة الاجتماع وأئمة السياسة ، فلا تحسبنه حتماً لزاماً أن يكون زعماء الاجتماع أو

السياسة أعظم من زعماء الفنون ، لأن المعول على الكفاءة اللازمة للعبقرية لا على أثرها في مواطن الجاه والسلطان ، وليست حاجة الناس إلى الشيء هي مقياس العظمة فيه ، لأن الناس يحتاجون إلى سنابل القمح ويستغنون عن اللؤلؤ ، وليس القمح بأجمل ولا أبدع في التكوين ولا أغلى في الثمن من الجوهر الذي لانحتاج تلك الحاجة إليه ..

* * *

قال : وهؤلاء الثلاثة العاملون .. من أعظمهم في موازين الرجال ؟

وأشار إلى جمال الدين ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ..

قلت : أعظمهم أثراً في قطر واحد هو سعد زغلول ، وأعظمهم أثــراً في جميع الأقطار هو جمال الدين، وأعظمهم نفساً فيما أرى هو محمد عبده، أوسط الاثنين .

قال : وبم كان أعظمهم في موازين النفوس ؟..

قلت : إن عظماء البطولة الإنسانية لا يوزنون بغير الصفة العليا التي تتجلى في البطولة ، وهي الإيثار .

فإذا تعادلت كفاءات العقل واللسان وكفاءات العزم والعمل ، فليس في الميزان الإنساني أصدق من وزنة الايثار للمفاضلة بين المتقاربين في الأعمــال والأقدار ..

قال صاحبي متعجباً : ومحمد عبده الذي تسنّم المناصب ولم يحرم نفسه متعة الأبوة والزواج أعظم إيثاراً من جمال الدين ؟..

قلت : قد تكون العزوبة مزيداً من الاعتداد « بالشخصية » وقــد تكون الأبوة مزيداً من الإيثار .

قال : عليهم سلام الله أجمعين ، سابقين ولاحقين ، وراجحين ومرجوحين فليس بالمرجوح من له الرجحـــان على الألوف وألوف الألوف ، وإن سبقه بالرجحان أستاذ أو مريد .

وتحول صاحبي إلى صورتي فقال وهو يردد النظر بيني وبينها : لقد سألتك عن صور غيرك فما لي لا أسألك عن صورتك ؟.. كيف ترى صديقك الفنان قد مثلك في هذه الأصباغ والألوان ؟..

قلت : على شرطي في كل تمثيل ..

وشرطي في الممثل القدير – على المسرح – أنه هو الممثل الذي يمثل لك ما لايقال ، أو هو الممثل الذي يشغل فراغ القول بين عبـــارة وعبارة من كلمات المؤلفين . لأن مصاحبـــة الكلمة الضاحكة بالمنظر الضاحك أو مصاحبة الكلمة الباكية بالمنظر المحزن فن لا يعسر على الكثيرين ، وانما يعسر عليهم أن يمثلوا لك ما لا يقال بـــين الكلمتين أو بين المنظرين : يصعب عليهم أن يمثلوا لك ما تدركه أنت ولا يقوله المؤلف بلسانه ولا تسمعه أنت بأذنيك .

وكذلك أرى صورتي كما صورهـــا صديقنا الأستاذ صلاح ، لأنـــه يمثل القابليات ، قبل تمثيل الملامح والمحسوسات ، فليس في الصورة حالة محسوسة عني بها دون غيرها ،ولكن ما من حالة قد تطرأ على النفس إلا نظرت إلى الصورة فرأيتها قابلة لها موافقة للتعبير عنها ، وهذه هي ملكة الإيحـــاء التي تشترط في جميع الفنون ، فما تحبسه الكلمات والأصباغ من المعاني أو الملامح أقل في العمل الفني مما ينطق به الخيال أو يسترسل فيه تداعي الخواطر والأفكار .

* * *

وكان آخر ما ودعه صاحبي من المكتبة نخبة من الكتب في فن الغذاء وأقوال

المحدثين عن وحدات الحرارةوالفيتامينات. وأول ما استقبله وهو منصرف عنها باب المطبخ على اليمين . فنظر فيه ضاحكاً ، وبادرته سائلا :

— إنك الآن تضحك لأنك في حل من المقارنة بين طعام العقول وطعام الجسوم !..

قال : غير هذا قد خطر ببالي حين ضحكت ، وانما ذكرت قولة لصديق لي كان يستعيدها في مناسباتها كما تستعاد الحكم المحفوظة . ولست أدري كيف أطبقها في هذا البيت ، فإنها غير قابلة فيه للتطبيق .

قلت : طبقها ولا حرج عليك ..

قال : لا ... إنها لا تنطبق هنا بحال من الأحوال ، لأن صاحبي كان يقول ويزهى بالعلم الذي أوحي إليه حين يقول : ان خطبت فتاة فلا تسأل عن أبيها ولا أمها ولا تسأل عن مالها ولا أدبها ، وانما تحتال حتى تلقي نظرة فاحصة على مطبخ بيتها ثم تخطبها إذا أعجبك نظام المطبخ وأنت مغمض العينين ..

قلت : لم يعد صاحبك الصواب ، ولو شاء لعمم هذا الحكم المصيب على الأمم فقال : إن أردت أن تخبر أمة من الأمم فلا تسأل عن نسبها ولا حسبها ولا تسأل عن مالها ولا أدبها ، وانما تسأل عن « مطبخها » فيغنيك العلم به عن كل سؤال .

قال : وكأني بهذا الرأي — لو صح — يتيح لنا أن نقول اننا نحن الشرقيين سادة العالم وقادة الشعوب ، لأننا أساتذة الشعوب في المطبخ والمخدع باتفاق الآراء ، وما ينازعنا القوم في الأستاذية إلا حين يذكرون المعمل والمدرسة ، أو حين يذكرون العلوم والصناعات .

قلت : وهنا أراك قد أخطأت التطبيق يا صاحبي في حكمة صاحبك الأديب . فإن المطبخ « المثالي » هو المطبخ الذي يستخدم للغذاء وليس بالمطبخ الذي يستخدم

للذة الطعام أو لذة النوم . وقد يكون الطعام اللذيذ سماً في باب الغذاء ويكـــون الطعام وافر التغذية وهو قليل اللذة ، أو لا لذة فيه .

ولا ينكر علينا أحد أننا برعنا في مطبخ اللذة ، وورثنا في هذا الفن تركات روما وبيزنطة ومنف وبغداد وفارس والهند والصين ... وعرفنا كيف نطبخ الطبخة التي تمتع ، والطبخة التي تكظ البطون ، والطبخة التي تهيج الأكباد ، والطبخة التي تعين على الشراب ، وجرب ذلك الغربيون فشهدوا لنا بالسبق في المجال من نساء ورجال .

***

في بيتي

كتبت « ايزادورا دنكان » أجمل الراقصات في العصر الحديث تاريخاً لرحلاتها في الغرب والشرق فذكرت أكلة لها في قطر من أقطار أوربا الشرقية فلم تنس أن تقول : إنها أكلتها ونامت فاستيقظت وهي تعلم يومئذ كيف يستيقظ الرجال من النوم ويخرجون من البيوت !..

وهذه البراعة في المطبخ الشرقي الفاخر لا نزاع عليها ولا تخلو من الدلالة مع هذا على نصيب الأمة من شواغل العيش ومطالب الحياة . ولكنها تقف بنا دون البغية المرموقة إذا طمحنا بها إلى مقام الأستاذية بين الشعوب ، وانما كتب « سوء التغذية » على أغنيائنا وفقرائنا على السواء بهذا المطبخ اللذيذ ، وربما كان داء الغني المستمتع بهذا المطبخ أوبل من داء الفقير المحروم .

وأعرف من فتياننا الموسرين فتى تزوج فأراد أن يستعين على المخدع بالمطبخ فأصيب بداء السكر في أقل من شهرين ، وكان مصابه بالمطبخ المعين قبل مصابه بالمخدع المستعان عليه ، لأنه أقبل على الدسم والتوابل والمشهيات فأرهق الكبد وأجحف بالبدن كله من حيث أراد له الصحة والمتاع . فبئس المطبخ مطبخ اللذة ، ونعم المطبخ مطبخ الغذاء ، وأعني مطبخ الفرد والأمة على السواء .

قال صاحبي وهو يصطنع المزاح ولعله أقرب إلى الجد منه إلى المزاح : إنك تخيفني الساعة بهذا التمهيد ، أترانا مقبلين على مائدة لا تلذ الآكلين ؟ أتحسبني أطيق أن نقلب صفحة من صفحات هذه الكتب الملعونة كلما أقبلنا على صفحة من الصحاف ؟..

قلت : هوناً هوناً أيها الصديق ، فمهما يكن من حكم هذه الكتب الملعونة فكن على يقين أننا في هذه الحجرات المعدودات لا نعرف كتاباً يطاع كل الطاعة ولا إماماً يتبع كل الاتباع ، ولك أن تطمئن فيها بعض الاطمئنان إلى غاندي ، وإن عز عليك أن تطمئن كل الاطمئنان إلى أبيقور ..

زَاهِدُ الهِنْـدِ نَعَى الدُّنيا وَصَام
أَنا أَنعَـاها ولٰكِنْ لا أَصوم

طَامِـعُ الغَرْبِ رَعَى الدنيا وهام
أَنا أَرعاهـا .. ولكـن لا أَهيم

بين هذيـن لنـا حَدٌّ قَـوَام
وَلْيَلُمْ مِنْ كلّ حِزْبٍ مـن يَلُوم

* * *

إن هذه الكتب الملعونة –كتب الغذاء والفيتامين– حقيقة أن تراجع وتستشار ، وليست بحقيقة أن تسيطر على العقول والأجساد ، لأنها تعطي الجسد ما يحتـاج إليه بمقدار ما يحتاج إليه .. فتسلبه بذلك ألزم خصائص الجسم الحي وهي طبيعة

التعويض والتمثيل والتصحيح ، وخير من هذا أن نعطي أجسامنا شيئاً ناقصاً في هذه الوجبة وشيئاً زائداً في تلك فنبقي للجسم قدرته على تعويض النقص وتوجيه الزيادة إلى وجهتها ، ونعامله معاملة الراشد الذي يعمل لنفسه ولا يكلفنا أن نعمل له في كل لقمة وكل جرعة وكل طبخة ، ولست ممن يرتضي القصور للعقول ولا للأجسام ، فكلاهما في القصور معيب ، وكلاهما في الرشد جميل ..

قال صاحبي : وإن جسمي لمن أرشد الأجسام في ساعة الطعام .

قلت : إنك الساعة تخيفني أشد مما أخفتك يا صاح بذلك التمهيد .

واستقبلنا في ركن من أركان ردهة المائدة الصغيرة صندوقاً مربعاً يوحي إلى الناظر باسمه المتفق عليه ، وهو التابوت !..

سماه باسم التابوت المقدس كل من رآه لأنه يشبه في منظره وموقعه توابيت القديسين في أركان المزارات . ولم أنكر التسمية لأن التابوت فيه تقديس وفيه تخليد ، وماذا على الموسيقى التي اشتمل عليها التابوت أن تتصف بالتقديس والتخليد ؟..

كان هذا التابوت مشتملا على حاكٍ قديم وبضع مئات من القوالب الموسيقية أو الغنائية المختارة من مسموعات الشرق والغرب ، ومنها توقيعات على بعض الآلات السماعية العجيبة التي تختلف بسلمها الموسيقي عن السلم الشائع في معظم البلدان ، كتوقيعات أهل الصين .

ومزح صاحبي مزحة ليست بالأولى من نوعها لأنها كذلك من وحي المقام . فقال : إن هؤلاء العازفين في موضعهم هنا لأنهم يعزفون لك على الطعام ، فلا يفوتك حظ الحواقين والشاهات في قصور البذخ والسلطان !

وأجبته كما كنت أجيب هذه المزحة في كل حين : إن الإنسان يا أخانا لا يأكل أكلتين في لحظة واحدة : أكلة روح وأكلة معدة ، وما من كرامة

الموسيقى الرفيعة أن تشتغل بشيء آخر وأنت تستمع إليها ، فإنها شاغل كاف لمن يستوعبها ويتقصاها ويتأمل في معانيها وشاراتها ، وليست تلك الموسيقى التي تتحدث وتأكل وتتشاغل عنها وأنت تسمعها إلا بمنزلة الجارية المستعبدة من السيدة المطاعة ، لأنها تسليك وتلهيك ولا تخاطب.روحك وخيالك ووجدانك فتستدعيك إلى الإصغاء والمبالاة .

لا يا أخانا وكرامة !.. إنني أختار لهذا التابوت أحياناً ساعات كساعات التهجد في جنح الظلام ، فإن كان الوقت شتاء فأكثر ما أرجع إلى هذا التابوت في ساعات اليقظة الباكرة بعد هدأة النوم الأولى . ويطول الليل وتثقل المطالعة في الهزيع الثاني أو الهزيع الثالث من ليل الشتاء المديد .إن قبلت هذا التقسيم والترتيب للهزع الليلية . فإذا بي أعرض عن رفوف الكتب وأتوجه إلى هذا التابوت، لا علالة من الأرق ولا بديلا من الورق، ولكن تلبية لنجوى العبقريات في وقت لايسمع فيه غيرها ولا يوحي فيه السكون السابغ على الكون بغير وصية الاصغاء ، وكأي من مدلج في الطريق تتسرب إليه تلك الأصداء غير مفسرة ولا متصلة فيخالها من همسات الأرواح والأشباح في غفلة الأنس وناشئة الصباح..

وتعمدت العبث والدعابة فقلت لصاحبي : إننا لا نسمعها في أيام إذا سمعنا أناشيدها أنشودة أنشودة ، فليتنا نسمعها دفعة واحدة في وقت واحد !.. ترى كيف تتلقاها المسامع التي تطرب لها متفرقة ؟.. أليس من حقها أن تسر بالكثير أضعاف سرورها بالقليل ؟..

قال صاحبي : ما أحسب أن أحسن الأنغام إذا قيلت معاً تفضل أسوأ الأصوات وأنكرها في الآذان ..

قلت : ألا نستخلص من ذلك عبرة من عبر الحياة العظمى ؟.. أليس الذين يتعجلون النعم فيخيل إليهم أن ازدحامها خير من تفرقها وأجمع لمحاسنها —

يخطئون كما يخطىء الذين يتعجلون النغم فيحسبون أن مائة لحن في وقت واحد خير من اللحن الفرد وأوفى . ؟

شيء واحد في وقت واحد، وجميع الأشياء في جميع الأوقات.. وهذا هو نظام العيش وقوام الجمال في كل نفع وكل سرور.

قال صاحبي : وهل تسمعها في الصيف كما تسمعها في الشتاء ؟..

قلت : الحق أقول لك ياصاحبي انني أود أن أسمعها صيفاً وشتاء كلما انتبهت في هذا الموعد ، وقلما تمضي ليلة لا أنتبه فيها . ولكن الشتاء مقفل مستور والصيف مفتح مكشوف . ومنظر رجل يستمع إلى الحاكي في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل منظر يرشحني لسمعة الجنون المطبق بعد ليلتين أو ثلاث ، ولن تؤمنني من هذه السمعة اللازبة ألف شركة من شركات التأمين ، لو عنيت الشركات بالتأمين على العقول .

كلا .. إنني لا أسمعها في ذلك الموعد من الصيف ، ولكنني أستعيض منها بجلسة في الشرفة ونظرة إلى الطريق ، وقد يبلغني الاصغاء إلى السكون أحياناً ما يبلغنيه الإصغاء إلى أنبياء النشيد ..

إننا نكبر بالليل جداً يا صاح ..

إن الليل هو عالم النفس ، وأما النهار فهو عالم العيون والأسماع والأبدان ..

إننا بالنهار جزء صغير من العالم الواسع الكبير ، ولكن العالم الواسع الكبير كله جزء من مدركاتنا حين ننظر إليه بالليل ، وهو في غمرة السبات أو في غمرة الظلام .

ذلك النجم البعيد الذي تلمحه بالليل هو منظور من منظوراتك ووجود منفرد بك أمام وجودك .

ذلك الصمت السابع على الكون هو شيء لك أنت وحدك رهين بما تملؤه به من خيالك وفكرك ، ومن ضميرك وشعورك .

تلك المدينة الصاخبة التي نضيع فيها إذا أضاءتها الشمس هي شبح مسحور يلقيه رصد الليل تحت عينيك ، وهي ضائعة كلها إذا لم تأخذها في حوزة نفسك ومجال بصرك ، وكأنما هي من تلك المدن التي تسحرها لنا الأساطير ... فكلها مفقود في غيبوبة الأرصاد ، إلا السائح الذي ساقه إليها القدر وهو ساهر الظلام !

أنت عالم النفس بالليل ، كأنما توازن وحدك عالم الأنظار والأبدان

وأنت تشمل الدنيا بالليل وهي تشملك بالنهار

وأنت في حضرة أعظم من حضرة الحس حين لا حس يشغلك عن عالم السريرة ..

أنت في حضرة الخالق حين لا تكون في حضرة المخلوقات

ومن سعد بهذه النشوة في ساعة من ساعات الهزيع الأخير ، فلا ضير عليه أن تفوته نشوة السماع

وكنا قد فرغنا من الطعام وقضينا سويعة في أشباه هذا الكلام ، فإذا بصاحبي ينهض من المائدة وهو يقول :

ـ هذه المائدة ، وهذا التابوت !..

قلت : وهذه المزامير !..

وسمعنا بعض أدوار المطربين وشيئاً من أغاني الصعيد ولبنان .. ثم نقلت صاحبي نقلة بعيدة فأسمعته بعض الألحان التي لا تعذب في جميع الآذان ..

وسألته : أفهمت شيئاً مما سمعت ؟..

قال : لا والله ..

قلت : وأنا مثلك ... هذا موسيقار الغرب الأشهر ولهلم فاجنر ، وأنا لا أفهم منه إلا أقل من القليل ، ولكنه عند نقادهم موسيقار جليل وعبقري نادر المثيل ..

قال : وهل يفهمه الغربيون كلهم وهو مغلق على أناس منا كل هذا الإغلاق ؟..

قلت : بل يسخر بعض الغربيين بهذه الموسيقى وأمثالها كما نسخر نحن منها ، ولهم في التندر عليها قفشات تذكرنا بقفشات أولاد البلد ، لأنها تجري على أسلوبها . هذا يزعم أن القرن النحاسي اعتدل من النفخ فيه بأمثال هذه الأنغام ، وذاك يزعم أن طبيباً أخذ مريضه الأصم إلى فرقة من هذه الفرق ليشفيه بضجيجها فسمع المريض وصم الطبيب !..

فليست كل موسيقى مفهومة عند كل سامع ولو كان الموسيقيون والسامعون من بلد واحد ، وليس من اللازم أن يستطيب محب الغناء كل غناء ، ولا أن يستطيب محب الشعر كل قصيدة ، ولو كان من نظم أجود الشعراء ..

قال : ولماذا لا نلغيه من عداد الموسيقيين كما ألغينا أولئك المبتدعين المحدثين من عداد المصورين ؟..

قلت : أولئك فهمنا أنهم سخفاء . أما هذا فنحن لا نفهمه ولا ندينه بما لا نفهم . ولو كنا نحيط بكل سر من أسرار الموسيقى ونتلبس بكل مزاج من أمزجتها لصح أن نقضي عليه وعلى المعجبين به وبفنه ، فقصارانا إذن نقضي فيه بأنه عندنا نحن « غير مفهوم ! »

وامتدت السياحة خطوة فإذا نحن في حجرة النوم ..

وحجرة النوم في بيت الرجل الأعزب كحجرة الاستقبال ..

وحجرة المائدة وحجرة المكتب .. ليس عليهما حجاب ..

غير أنني قلت لصاحبي : إن هذه الحجرة تعنيني ولا تعني أحداً غيري من الناس ، اللهم إلا بعض الصور الفنية التي فيها . وكلها منسوخة من أصولها المحفوظة في متاحفها ، فليس فيها من صورة أصيلة أو تحفة غالية، ما عدا واحدة بمفردها هي بينها آية الاستثناء في كل قاعدة من قواعد التعميم .

هذه شالومة أو سلامة ، صاحبة هيرود ، من تصوير الفرنسي بروسيير : كان ثمن رقصتها في زمانها رأس نبي من أنبياء بني اسرائيل . ولا تزال رقصات الفاتنات من خليفاتها تكلف الناس كثيراً من الرؤوس ، وإن لم تكن رؤوس أنبياء : فإن هذا الصنف قد انقطع عن الدنيا منذ زمن بعيد !

وهذه صورة الزهرة من تصوير الاسباني فيلاسكيه . جسد بديع وقوام ساحر ومعاطف منسوقة .. لولا أمانة فيلاسكيه المشهورة لحسبناها من تنسيق الخيال .. شغل بها المصور فمثلها على تمامها ولم يمثل لنا الوجه إلا في مرآة رفعها رب الحب أمام ربة الجمال .

* * *

وهذه صورة تاييس وهي تهدم إيمان الناسك المسكين ، وقف أمامها وقد تبادلا الفتنة فأخذها بوعظه وأخذته بغواية جسدها ، ولبس هو طيلسان الأثرياء وخلعت هي كل طيلسان،وكأنما شاء المصور أن يعقد المقارنة بين هذه الفاكهة الشهية وبين ثمرات البساتين . فجود ما شاء في العنب والموز والبرتقال ، ولكنه تركها إلى جانب هذا البستان الحافل كأنها الماء الذي لا طعم له ولا لون ، ولا يروي الظمآن إلا شراب ذلك البستان ..

قوتان متناجزتان لم تشغل الميدان قوتان أكبر منهما منذ تصارعت في هذه الأرض قوتان :

عقيدة وشهوة ، نسك وفتنة ، جسد تمرد من فرط الحرمان وروح تمردت من فرط المتاع بالشهوات .

ولقد رزقت المرأة فتنة قوية ولم ترزق عظمة قوية ، فلم يزل عزيزاً عليها أن تنخذل بالفتنة أمام العظمة ، ولم يزل من دأبها أن تجرب هذا السلاح أمـــام كل سلاح ، فجربته في كفاح الوفاء.وكفاح البطولة وكفاح النسك والزهادة ، وشاءت في هذه الجولة أن تضرب أقوى ضرباتها لأنها آخر ضرباتها . فلما ضربتها سقطت من الإعياء ساجدة . فكانت سجدة العمر إلى الممات ، وخرجت الراقصة عابدة من ميدان صراع .

وانتصر الخصمان وهما منهزمان أكبر انهزام : راقصة تفتن ناسكاً وناسك يصلح راقصة ، وذلك أقصى مدى الهزيمة والانتصار .

فلما انجلى الغبار كانت الراقصة راهبة في الدير وكان الراهب مفتوناً يهيم في وادي الغواية ، وكلاهما صارع مصروع ، ومفلح مخفق ، وصامد هارب من الميدان .

وهذه صورة لسوق الرقيق في عاصمة من عواصمنا الشرقية : تعجبني منها عصبية الفنان لوطنه وإن لم تعجبني منها حيدته عن الحقيقة في هذه العصبية ..

فهذه السمراء الشرقية تراها مزهوة بعرض محاسنها كأنها ترحب بنظرات سيدها الذي أوشك أن يشتريها . ولا يعنيها الخجل كما يعنيها أن تظفر في هذا الموقف المخجل بنظرة استحسان ..

وهذه البيضاء الغربية تداري وجهها بيديها وتطرق برأسها وتدع الأنظار ترتع في محاسنها كأنها تتلقاها على الرغم منها .

وفي الشرق خفر كثير لأنه وطن الحجاب ، وفي الغرب جرأة كثيرة لأنه وطن السفور .. فإذا وجدت شرقية واحدة وغربية واحدة في سوق واحدة فهل من المحتّم أن تكون الشرقية مثلا للتهتك الوقاح ، والغربية مثلا للخفر الخجول ؟.

قال صاحبي : أو لا يجوز للفنان أن يتعصب لوطنه ؟..

قلت : بلى يجوز . بل يجب في كثير من الأحيان ، ولكن على أن يصدق البيان ولا يتكفل بتشويه الحقيقة ، لأن الفن جمال ، والجمال عدو لكل تشويه..

وتلي صورة الجواري في سوق الرقيق صورة الينبوع العذب الصافي البرود . برودته تتراءى من صفائه في مجراه ، وقد جعله « انجرز » صبية كاعباً تنضح بالصباحة والطهارة وبراءة المحيا ونقاوة القسمات ، وأعطاه عمراً وحياة كأنه لم يبلغ بعد سن الينابيع الكبار ، وكأنه بين موارد الماء الفياضة تلك الصبية الكاعب بين أمهاتها وجداتها من النساء .

وأصبحنا أمام الصورة الأصلية التي انفردت بين هذه النسخ المنقولة ..

قال صاحبي : إنني أفهمها وإن لم أعلم بخبرها .

قلت : انها لا تحتمل غير معنى واحد: فطيرة حلوى يشتهيها الجائع والشبعان، بل يشتهيها المتخوم والمكظوظ ... وعليها صرصور وذباب يحوم ، وفي القدح الذي يفرغ عليها الحلاوة عسل يضطرب فيه بعض الذباب ويموت .. فلا يأكل من الفطيرة الحلوة على هذه الصورة شبعان ولا جوعان . بل تعزف النفس حين تراها عن كل طعام .

وقيمة الصورة أن تاريخ الفن كله — بل تاريخ العبادة من أوائله — مرتبط بالباعث على تمثيلها في هذه الرموز .

فقد وجد الفن في الدنيا لأن النفوس تمتلىء بالشعور وتشتغل به كل الاشتغال، فلا تقنع به شعوراً بل تطلبه حساً منظوراً ، ولا تشاء أن تظل فيها حاسة من

حواسها فارغة منه غير مملوءة بمثاله . ومن هنا نشأ التصوير ونشأ التجسيم . ومن هنا نشأت هذه الصورة اليوم. كأنها أول اختراع لفن التصوير .

* * *

وكانت جولة الوداع في حجرة الاستقبال

قال صاحبي وهو يستقر فيها : لقد سمعت عن حديقة الحيوان وقرأت في وحي الأربعين عنها أنها « لاتجمع إلا الفنان أو المحب للفنون ، سمي كل زميل من زملائها باسم حيوان يلاحظ في اختياره اتفاق الشبه في الملامح والعادات ، وقد جمعها الفن كما كان أورفيوس المعروف في أساطير اليونان يجمع الأحياء حين يغني ويعزف فتقبل عليه من كل فصيلة وهي لا تشعر بخوف أو تهم بعدوان » .. فهل لي مكان في جوار أورفيوس ؟

قلت : إن طال استقرارك ظفرت بمكان ، بعد الموافقة والامتحان .. ولا تحسبن الطموح إلى هذه المنزلة من يسير الأمور التي تبلغ بغير عناء . فأولى لك أن تحسبه من الادعاء الذي يتطلب التزكية والشهادة ولا تحسبه من التواضع الذي يقبل بغير تزكية ولا شهادة ... فهل تدري من هم أكثر الناس حرصاً على مظاهر الوجاهة وشارات الثروة وعناوين الفخار ؟.. إنهم أحدث الناس نعمة وأقربهم إلى الضياع في غمار الوضعاء والأذلاء إن لم يتميزوا أبداً بتلك المظاهر وتلك الشارات وتلك العناوين . وكذلك مقياس الإنسانية عندنا في هذه الحديقة : أصحاب الإنسانية المحدثة هم أحرص على مظاهرها وشاراتها وعناوينها ، وأشبه الناس بالأحياء الدنيا من ينخلع عنه شعار الإنسانية باسم وعنوان، وانما يقاس نصيب المرء من الإنسانية بمقدار عطفه على الحيوان واقترابه من فهمه وفهم شعوره ، فمن قام بينه وبين معاطفة الحيوان حجاز حاجب فذلك حجاز بينه وبين الفهم والعطف والشعور ، وهي أكرم مزايا الإنسان ..

* * *

قال صاحبي : أنا لا أنكر شيئاً في الحديقة وترشيحاتها ولكنني أود أن أعرف كيف جمعتموها وكيف جاءت هذه التسمية أو كيف اخترتموها ؟..

قلت : احسبها تسمية ترجع إلى مرجعين لا إلى مرجع واحد ، أحدهما قريب ظاهر والآخر بعيد باطن . فأقرب هذين المرجعين هو فن المحاماة عند صديق من أصدقائنا الأعزاء . فما تقع عينه على أحد يلفت النظر إلا أسرع إلى تشبيهه ومحاكاته ، فإذا هو شبه محكم ومحاكاة تطابق الشبه من جميع وجوه المطابقة ، ولا يعفي من هذه العادة ألصق الناس به وأقربهم إليه ، بل هؤلاء هم في الغالب هدفه الأول وإصابته المسددة ... وخلقته هو على هذا القياس هي أول ما يستهدف وأول ما يصيب .

فإذا تألب عليه الصحاب تندراً وسخرية ومزاحاً شهر عليهم هذا السلاح وأسكتهم عنه بالبدء بنفسه والعدل في توزيع نقمته . ومن دلائل عدله أنه لايطلق على أحد شبهاً من الأشباه إلا وافقه الحاضرون جميعاً ما عدا صاحب الشبـــه ... فإنه قد يمانع هنيهة ثم يلقي يد السلم ويعترف « بالخلعة السنية » التي خلعت عليه..

أما المرجع الآخر فأحسبني أنا المسؤول عنه من حيث أريد او لا أريد . فإن عادة عندي — بل أقوى من عادة — أن أشعر بوحدة الخلق كله وأن أنظر إلى جميع الأحياء كأنها تجربة واحدة تنجلي عن مقصد واحد ، وأننا ربما فهمنـــا مقصد التجربة من مسوداتها الأولى قبل أن نفهمه من النسخة المنقحة المصقولة ... وإن كانت النسخة المنقحة المصقولة أجود في التعبير وأفصح في الأداء .

* * *

وما قرأت قط خرافات الأقدمين عن وشائج الأحياء إلا خيِّل إليَّ أنهـــا تنطوي على أكثر من خرافة أو لعبة خيال ، وتساءلت قبل نيف وثلاثين سنة عن مغزى تلك الأساطير التي تحكى عن أناس لهم أجسام آدميين ووجوه كلاب ،

أو مغزى تلك التماثيل التي تجمع بين أجسام الوحوش ورؤوس الآدميين ، فقلت من كتاب الفصول : « ما مغزى هذا الاجماع والتواتر ؟.. وماذا في طي هذا الاعتقاد بأن الإنسان يتحول أحياناً من هيئته إلى هيئة حيوان أدنأ منه ، أو أن في عالم الحياة مخلوقاً بعضه إنسان وبعضه حيوان ؟.. هذا شعور لم يرد إلينا من ناحية الحواس ولكننا لا نجهله ، وصحيح أن الخيال مفطور على مزج أشكال الحس وإلباس الموجودات لباس الإنسانية ، ولكن لماذا فطر الخيال على ذلك ؟ أكان يستحيل أن يفطر على غير هذه الفطرة ؟.. وهل لو خلق الإنسان من غير عنصره المعروف كان يتخيل هذا الخيال بعينه ؟.. ألا يجوز أن يكون مغزى هذا الاجماع والتواتر أن في جبلة الإنسان شعوراً راسخاً بوحدة الخلق وتلاحم سلسلة المخلوقات ... شعوراً أعمق من الفكر لا بل أعمق من الخيال نفسه ، يتكلم باللسان فيكني ويلفق ويتكلم بالبديهة فيصرح ويصدق ؟ .. ولماذا ننفي وجود شعور كهذا يصل الإنسان على وجه ما بشيء من أسرار الحياة مع علمنا أن الإنسان قد اتصل بالحياة قبل أن يصله بها عقله وحواسه ؟.. أليس ترجيح وجود هذا الشعور أولى وأحرى بقدم العلاقة بين الأحياء والطبيعة ؟.. فلا يبلغن من قصور العقل ألا يصدق إلا العقل وحده ، ولا يبلغن من ضيق النظر أن نقسر حواس النفس كلها على أن تنمو نمو الحواس الخمس .. كأن الإنسان لايتصل بالدنيا إلا بها ، وكأنما الخيال ليس جزءا من الإنسان كما هي جزء منه .. »

وهذا الشعور الكمين لا أحسبه غائباً عني يوم نشرت خلاصة اليومية وكتبت في تصديرها « إن الإنسان حيوان راق ولكنه لايزال حيواناً » ... ويوم كتبت مجمع الأحياء وعقدت فيه مؤتمر الحياة بين الحمامة والأسد والنمر والقرد والثعلب والإنسان والمرأة وسائر الأحياء ، ثم يوم رثيت كلبي بيجو وجعلته شاهدي على بعض المذاهب في التربية .. والدراسات النفسية .. فإذا كانت « حديقة الحيون » فكاهة من فكاهات المجالس فليست هي من الفكاهات العابرة

ولا من الفكاهات الرخيصة لأن لها أصلا أصيلا من الجد بعيد القرار .

* * *

ونظر صاحبي إلى يمينه وأوشك أن يجفل جفلة الخوف ، لأنه رأى هنالك تمثال بومتين دقيقتين ، يحفان بالساعة الصغيرة عن اليمين وعن الشمال . وقال : رب هذا من ذاك !.. ثم قال ترى لو دخل صاحبك ابن الرومي هذه الحجرة ونظر إلى هذين التمثالين المخيفين — ماذا كان يصنع ياترى ؟..

قلت : لا شك أنه كان ناكصاً على عقبيه على الأثر ، وإن كنت قد وضعت هذين التمثالين في موضعهما وتحديت الشؤم كله لأجله هو جزاه الله ..

لاحقه الشؤم في حياته وقلّ منصفوه بعد مماته ، وضل معظم النقاد في أمره لأنه من طراز غير الطراز الذي يقيسون عليه ، فهو عندي — بغير خلجة من الشك — وحيد شعراء العالم من مشرقه إلى مغربه ومن قديمه إلى حديثه في ملكة « الوعي » والتصوير .. وهي أنفس الملكات التي يرزقها رجال الفنون ، فلا يضارعه في هذه الملكة شاعر عربي ولا شاعر أعجمي ، ولا يناظره فيها فحل من فحول التشبيه والتصوير في أدب اليونان والرومان ولا في أدب الغربيين المحدثين ، ولم أعرف بين أدباء الأمم الأخرى التي اشتهرت بدقة التشبيه — كأدباء الصين واليابان — من يجري في غباره أو ينسج على غراره . ومثل واحد يغني عن مئات الأمثال ، وهو وصفه لحقل الكتان حيث يقول في بيتين اثنين :

وجلس من الكتان أخضر ناعم
توسنه داني الربَاب مَطير

إذا اطَّردت فيـه الشمال تتابعت
ذَوَائِبُـــه حتى يُقَـــال غدير

* * *

فالواعية الفنية وحدها هي التي تغريه بوصف حقل من حقول الكتان التي مرت بألف شاعر منذ الخليقة ولم يلتفتوا إليها ، لأن حقل الكتان لا يحسب من موضوعات الوصف التقليدية بين شعراء التقليد ، فليس هو بروضة من رياض الورد والياسمين وليس هو بستاناً من بساتين الفاكهة والثمرات ، ولا هو بمنزه من منازه الحسان أو موعد من مواعيد الغرام .. فانظر كيف علق هذا المنظـــر بوعيه اللاقط المستوعب وكيف أحصى عليه كل ما يحصيه التصوير في شرط النقد الحديث ، بعـــد طول المشاهدة والمراجعة لآيات الأساتذة من نوابـــغ التصوير .. واذكر كيف صنع ذلك بداهة وابتداعاً غير عامد ولا متنبه ، وهم يتعمدون ما يسجلون من ملاحظات النقد ويتنبهون إليه .

فالنقد الحديث يشترط على المصور النافذ البصر والبصيرة أن يستوعب المنظر فلا يفوته اللون ولا الملمس ولا الزمان ولا جو المكان ولا الحركـــة التي تشيع فيه إن كانت فيه حركة ، أو السكون الذي يشمله إن كان به سكون ..

وكل أولئك تجده في البيتين الاثنين مطبوعاً منقولا إليك نقل البداهة عن تلك الواعية المستوعبة التي لا تفوتها مدركة من مدركات الحس والخيـــال : لمح اخضرار اللون ، ونعومة الملمس ، وأحاط بوقت الصورة كما مثلت أمامه فهو وقت الوسن ، وأحاط بجو المكان فهو المكان الذي يظل عليه رباب مسف فويق الأرض يؤذن بالمطر القريب ، وأحـــاط بالحركة وبمصدرها من ريح الشمال

فإذا رؤوس الشجر تموج بالحركة الذاهبة الآيبة فكأنها صفحة غدير . لا موضع لنقص في الصورة ولا محل فيها لزيادة ، وليس أصدق من الوعي الذي أحسن اللقط وأحسن التمثيل في لمحة عين وفي بيتين اثنين .

* * *

مثل هذا المقياس الذي تقاس به الواعية الفنية لم يكن مقياس أولئك النقاد الذين جهلوا فضل ابن الرومي وأشادوا بفضل سواه ، ولو انهم تتبعوا مئات الأبيات من شعره — بل ألوفها — على هذا المنوال لعلموا انه مغبون — جد مغبون — حين يقرن بشاعر من شعراء العالم كائناً ما كان في هذه الملكة الفريدة.. فكيف بالغبن الذي يصيبه إذا قدموهم وأخروه وأشادوا بفضلهم وأنكروه

أثارني هذا الظلم فآليت لأدفعنه عنه ، فإذا بصحبي يثنونني عن إنصافه وهم وجلون ، ولئن كانوا غير جادين لقد كانوا كذلك غير مازحين . فما لقيني أحدهم مشتغلا به إلا صاح بي : حذار حذار ، انه مركب غير مأمون العثار ! .. والرجل موصوف ببأسه في شؤمه ، فلا شأن لك بانصافه وظلمه ، ودعه لقضائه ، واقنع بأنك من قرائه ، فقد يتحداك شقاؤه إذا تهجمت على حرمة شقائه ! ..

وكانت ثورة فأصبحت ثورتين : لقد ذل من يخاف ذلك الشؤم المعتز بجبروته ، ولقد طغى ذلك الشؤم الذي يسطو على فريسته في حياتها وبعد مماتها ثم ينذر بالنقمة من يتصدى لغوثها ، فاذا أنصفنا الشاعر المغبون وغضب الشؤم الواقف له بالمرصاد فليصنع الشؤم اذن ما يشاء .

وسكنت هذا البيت ورقمه ثلاثة عشر ، ووضعت فيه التليفون ورقمه يومئذ مبدوء بثلاثة عشر ، وجعلت أسأل الشؤم في كل دعوى من دعاويه وأولها دعواه الكبرى على البومة المسكينة . ما لهذه الطريدة المظلومة وهي قد

تركت الدنيا والنهار للإنسان ولاذت منه بالليل والخلاء ؟.. وما عيبه عليها وهي أوفى الطيور في عشرة الأليف منها للأليف؟ أليست هي إحدى الأحياء النادرة التي يسكن الزوج منها إلى زوجه مدى الحياة ؟ .. أليست هي التي تغني لنور القمر ولعزلة الليل ولا تقحم صوتها على من يأباه ؟ .. ألم تكن عند الأثينيين — وهم عباد الجمال — رمزاً للمدينة ينقشونه على الدراهم مع أغصان الزيتون ؟ .. فإذا جنى الظلم على سمعتها ولاحقها الظلم في خلوتها فليصنع ما بدا له فإننا نتلقاه منها باثنتين لا بواحدة، لأنها لا تحب الفراق، وإن زعموها نذير الفراق..

***

قال صاحبي : وكيف رأيت العاقبة ؟ ..

قلت : خير بعد شر ، وفلاح بعد كفاح ، فلا أخفي عليك يا صاحبي أن أمر ابن الرومي في سمعته تلك أمر عجيب مفرط في العجب ، وأنني لو صدقت خرافة من الخرافات لصدقت خرافة الشؤم والتشاؤم ، وصدقتها في ابن الرومي هذا قبل غيره . فما حدث منه قد شهدته بنفسي وخبرته في صحبي ، ولم أعتمد فيه على رواية الأقدمين ولا على مبالغات المتندرين ، لأنني تعاقدت على طبع كتابي عنه مع مدير المطبعة فمات هو وسجنت أنا قبل الفراغ من ملازم الكتاب الأولى ، وكان وزير المعارف « أحمد حشمت » قد أوصى بطبع ديوانه وأقام على تصحيحه مفتش اللغة العربية في الوزارة ، فعزل الوزير والمفتش وماتا قبل الفراغ من جزئه الثاني ، وكتب المازني فصولا عنه فكسرت رجله ، ونشر صاحب الثمرات قصائد من ديوانه فكسرت رجله ، وهمَّ صاحب البيان بنشر مطولاته والعناية بأخباره فتعطلت مجلة البيان ، فلو كانت هذه المصادفات أسباباً يؤخذ بها وترتبط بنتائجها لكان الشؤم المزعوم حقيقة من الحقائق العلمية التي لا شك فيها ، ولكنها مصادفات سيئة تقترن بها مصادفات حسنة ، ولا يجوز لنا أن نركن إلى هذه ولا إلى تلك على انفراد؛ فقد أنجزت كتابي عن ابن الرومي فكانت السنة التي ظهر فيها من

أسعد السنوات في حياتي الخاصة وأبرزها في حياتي العامة ، وسلك الكتاب سبيله بين مراجع الأدب المعدودة في هذا الجيل ، فان كان الشؤم على صولته التي يتخيلونها فقد تحديناه ، ونجحنا في تحديه بحمد الله .

ولم يكن في الحجرة شيء سبقته إلى سكن هذا البيت منذ سكنته قبل زهاء عشرين سنة ، فكل ما فيها قد دخل البيت يوم دخلته وبقي هناك كما بقيت .. إلا بعض الصور ، والمذياع ! ..

ففيها صورة للقصر المعروف باسم « أنس الوجود » من صنع الفنان التركي القدير الأستاذ هدايت . تلمح من نظرة واحدة إليها غرابة الجو المصري والألوان المصرية الوضاءة على آثارنا الخالدة كما تبدو في عيني الفنان الغريب عن الديار .

* * *

وفيها صورة لي من صنع الأستاذ « أحمد صبري » وهو من أساطين فن التصوير في هذا البلد ، وله ريشة ثابتة وألوان صحيحة وطريقة مأثورة عن عباقرة المدرسين الأقدمين ، لا تستهويه البدع المستحدثة ولا يروقه من ملامح الوجوه الا ما ينم على جد واهتمام .

وفيها صورة لشاطىء الزمالك من صنع المصور الموهوب الأستاذ شعبان زكي ، وهو فنان ينظر ويحلم ويسبغ من أحلامه كثيراً على المناظر الطبيعية أو الحوادث التاريخية التي يسجلها . ومن آثاره التي تتجلى فيها أحلام التصوير والأدب صورة امرىء القيس والعذارى وهو مرابط لهن على حافة الغدير .

وهناك تمثال نصفي أهداه إليّ بعض الهواة ممن يشتغلون بغير النحت ولا يظهرون آثارهم الفنية .

أما المذياع فلم يكن قد ذاع يوم سكنت هذه الدار ، ولم أكن أرى منه في مصر الجديدة إلا أدوات عاجلة يركبها بعض الكهربائيين على أيديهم ، وتسمع

أو لا تسمع كالمركب الشراعي الذي يسير أو لا يسير « على حسب التسهيل »..

قال صاحبي : إن نقل الصوت من المكان البعيد معجزة كافية ، فكيف إذا أضيفت إلى هذه المعجزة معجزة النقل من زمان بعيد ؟ .. إنهم يزعمون ذلك في الامكان ، ويقولون ان استخلاص أصوات الأقدمين كما نطقوا بها في حياتهم ليس بالمستحيل . لأنها محفوظة في بعض طبقات الجو البعيد ، لا يؤثر عليها الاختلاط الا كما يؤثر الاختلاط على أصوات المحدثين ..

قلت : لو كان لي لسانان لقال أحدهما : مرحى ! .. وقال الآخر في الوقت نفسه : أعوذ بالله ! . .

* * *

إننا نحب أن نسمع الأنبياء وهم يخطبون ، والأبطال وهم يناضلون ، والشعراء وهم ينشدون ، وأصحاب الأغاني وهم يترنمون.. ولكن مَن مِن هؤلاء الأبطال يرضى أن تسمعه وهو في خاصة وقته بين أهله أو ندمائه ! .. ومن من الناس في عصرنا يحب أن تنقل عنه كل كلمة قالها وكل سر همس به وكل آهة من آهات الضعف فارقت شفتيه ؟ .. ان الاستعاذة بالله هنا تحتاج إلى مائة لسان إذا كان الترحيب يكفيه لسان واحد . فليكن « وعيد » العلماء اذن من المستحيل ، وإلا أصابهم منه ما يصيبون به الآمنين في القبور ..

* * *

عباس محمود
العقاد

حياة قلم

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تقديم
بقلم طاهر الطناجي

في شهر يوليو الماضي أصدرت سلسلة كتاب الهلال ، كتاب « أنا » لفقيد البيان عباس محمود العقاد . . وقد حوى هذا الكتاب اربعين مقالاً ، تناولت حياته الشخصية بما لها من صفات وطباع وخصائص ، وتربية أدبية وفكرية ، وبما طبع أو انطبع في نفسه من ايمان وعقيدة ومبادىء ، وبما تأثر به من بيئة واساتذة ، أو بعبارة جامعة : « عباس العقاد الانسان » . . !

وكنت ألمعت في مقدمة « أنا » الى ان حياة العقاد لها جانبان تاريخيان : جانب شخصي انساني ، وجانب اجتماعي عام ، يتصل بمن عاصرهم وعاشرهم من الناس في حياته الصحافية والادبية والسياسية . ويتناول الاحداث التي اشترك فيها ، وخاض من اجلها عدة معارك قلمية . وكانت صناعة القلم أبرز ما فيها منذ بدأ اشتغاله بهذه الصناعة ، وهو في السادسة من عمره .

وفي منتصف اغسطس سنة ١٩٥٧ م اخذ يكتب عن الجانب الاجتماعي والسياسي من حياته بعنوان « حياة قلم » . فكتب عدة فصول بدأها بولادة هذا القلم في اسوان ، وتحدث عن ظروف هذه الولادة ، وعن الجيل الذي ولد فيه ، وقارن بين قلمه وقلم عبد الله النديم في ذلك الحين ، ثم تحدث عن الصحافة قبل خمسين سنة ، وعن موزعي الجرائد ، وفي مقدمتهم المعلم « عكريشة » ، وعن احاديثه مع الساسة من الوزراء وغير الوزراء ، وكيف شق هذا القلم

طريقه ، وما وقع لهذا القلم وصاحبه من أزمات ، وكيف اشتغل بالصحافة في الحرب العالمية الاولى ، وكيف انقطع عنها ، ثم عاد اليها الى آخر ما تناوله في الفصل الثامن في هذا الكتاب « حياة قلم » حتى انتهت هذه الحرب ، وقامت ثورة سنة ١٩١٩ م .

وهنا وقف عن كتابة هذه الفصول أو المذكرات التاريخية التي تعد بلا شك جزءاً من تاريخ مصر ، ومرجعا للمؤرخ فيما عالجه العقاد من موضوعات عن هذه الحقبة التي تناولت نحو عشرين عاما من الحياة العامة عاشها وساهم فيها بقلمه . . !

ثم يبقى ما تلا هذه الحقبة من جهاد وجهود ، واحداث وأطوار ، لهذا القلم في الميدان العام . . فهل عوضتنا كتاباته الأخرى ومؤلفاته عما نقص من سلسلة هذه المقالات ؟

- ١ -

الواقع ان حياة العقاد العامة ، أو حياة قلمه منذ ثورة سنة ١٩١٩ م تكاد تكون معروفة لأبناء هذا الجيل من زملائه الادباء والصحافيين . ومن السهل الرجوع اليها في الصحف والمجلات التي اشترك فيها ، وعالج فيها ما عالج من موضوعات سياسية واجتماعية وادبية . وقد كان كاتب الوفد الاول منذ فجر هذه الثورة الى أن اختلف مع زعماء الوفد سنة ١٩٣٥ م كما سيجيء في هذه الصفحات . .

وقد كتب عن هذه الثورة ، وابدى آراءه في رجالها واحداثها كسياسي مفكر ، وكوطني كبير ، مستقلا عن آراء حزبه ، وان كان هو كاتب هذا الحزب ، والمؤيد لسياسته التي تتفق مع آرائه في ذلك الوقت . وقد كان زعيم الوفد سعد زغلول يقدره كل التقدير ، ويقول عنه ما يرويه لنا الاستاذ كامل

سليم سكرتير مجلس الوزراء ، وسكرتير الوفد المصري حين سافر الوفد الى أوربا للمفاوضة ، فقد كتب مقالا في مجلة الثقافة في ٢٧ يوليو سنة ١٩٤٠ م بعنوان : « سعد زغلول كما عرفته ، رجلاً ، وزعيماً ، وسياسياً » . وقد جاء فيه :

« وسألته مرة عن رأيه في كاتب كبير - يعني العقاد - فقال :

« أديب فحل ، له قلم جبار ، ورجولة كاملة ، ووطنية صافية ، واطلاع واسع . ما قرأت له بحثا ، أو رسالة في جريدة أو مجلة الا أعجبت به غاية الاعجاب . وهو لا يعالج موضوعا الا احاط به جملة وتفصيلا ، احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد . . وله أسلوب أدبي فريد » !!

- ٢ -

والذين يراجعون كتاب « سعد زغلول » الذي الفه العقاد سنة ١٩٣٦ م يستطيعون ان يلموا بتاريخ زعيم الثورة واحداثها ورجالها وتطوراتها ومفاوضاتها الى ان توفي « سعد » في اغسطس سنة ١٩٢٧ م . ويعد هذا الكتاب من حياته السياسية و« حياة قلمه » وطورا من اطواره الوطنية .

ولما توفي سعد زغلول ، وكانت الاحزاب المصرية مؤتلفة مع الوفد ، لم يستمر هذا الائتلاف سوى عام ، ثم ما لبث الخلاف ان عاد بين الوفد وحزب الاحرار الدستوريين . وتولى زعيم هذا الحزب رياسة الوزارة ، وعطل الحياة النيابية ، وحكم البلاد بيد من حديد ، حتى دعي حكمه باليد الحديدية . ورأى « العقاد » أن مصر في ذلك العهد امتحنت بالحكم الدكتاتوري ، وكان « موسوليني » قد ظهر في ايطاليا بالدكتاتورية السياسية ، فألف كتابه « الحكم المطلق » في القرن العشرين وحمل فيه على هذا الحكم الاستبدادي حملة شعواء ، وأبان فساده سياسياً وعلمياً واجتماعياً . وتحدث عن الديمقراطية ونجاحها ، ونجاح الحكم النيابي . ثم اصدر كتاب « اليد القوية في مصر » سنة ١٩٢٨

وكان الحكم المطلق وقتئذ قد اصبح عدوى في بعض البلدان الشرقية والغربية ، وظهر هتلر بديكتاتوريته في المانيا ، فكتب العقاد عدة مقالات ضده ، ثم اخرج كتاب « هتلر في الميزان » . ثم كتاب « النازية والأديان » . . !

وكانت سنة ١٩٣٠ م وقد اعيدت الحياة النيابية ، وكان العقاد وقتئذ عضوا في مجلس النواب . ثم اشيع أن الملك فؤاد سيقيل الوزارة ، ويعطل الحياة النيابية . فوقف على منبر المجلس في احدى الجلسات ، وتحدث عما يشاع من تعطيل الدستور ، وحل البرلمان . واحتد في خطابه ، ودفعته وطنيته الجريئة الصريحة الى أن قال كلمته المشهورة :

« إن الامة على استعداد لأن تسحق اكبر رأس في البلاد يخون الدستور ، ولا يصونه » . . !

وكان لهذه الكلمة دويها في جميع الأوساط ، واتخذها المنافقون والملكيون حجة ضده ، وحبالة ينصبونها للايقاع به والانتقام من جرأته . . ولما كان وقتئذ عضوا في مجلس النواب الذي اعيد بعد استقالة رئيس الاحرار الدستوريين ، وكان يتمتع بالحصانة البرلمانية ، فقد أخذوا يتربصون له حتى عطلت الحياة النيابية في وزارة صدقي باشا ، وكان ما يزال يحرر موضوعاته السياسية ، ولم يكن قد اعتزل السياسة . . وذهبوا يجمعون مقالاته المعارضة لسياسة الحكم ، ثم أحيل للمحاكمة بتهمة : « العيب في الذات الملكية » . فحوكم في اكتوبر سنة ١٩٣٠ م وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر ، قضاها بين سجن الاستئناف ، وسجن قره ميدان بالقاهرة . وحينما افرج عنه في شهر يوليو من ذلك العام قصد فورا ضريح سعد زغلول وانشد في مستقبليه من الجماهير قصيدته الوطنية : « على ضريح سعد » التي يقول فيها :

الى الذاهب الباقي ذهاب مجدد وعند ثرى سعد مثاب ومسجد

الى مرجـع الاحـرار في الشرق كله ... الى قبلـة فيهـا الامـام موسد
نحيي من الـدنيا التـي نستعيدها ... مكانـا من الـدنيا له العـود احمد

ثم ختمها بقوله :

وكنـت جنـين السجـن تسعـة أشهر ... فها انذا في ساحـة الخلـدْ أولد
ففـي كل يوم يولـد المرء ذو الحجى ... وفي كل يوم ذو الجهالـة يلحد
عداتي وصحبـي لا اختـلاف عليهما ... سيعهدنـي كلٌّ كما كان يعهد

وبعد خروجه من السجن ببضعة اعوام استكتبته لمجلة « كل شيء » في « حياة السجن » . فكتب لهذه المجلة عدة مقالات جمعها في كتاب بعنـوان : « في عالم السدود والقيود »

ولا ريب ان هذه المدة ، وتلك المقالات ، كانت فترة هامـة من حياتـه وحياة قلمه . وقد استكتبته يوما لمجلة المصور عن تجاربه في الانتخابات . وقد دخلها ومارسها ، ونجح فيها . فكتب مقالا طويلا . نقتبس منه ما يلي :

« مارست الانتخابات بانواعها التي عرفناها في مصر منذ إعـلان النظـام الدستوري الحديث . مارست الانتخاب على درجتين ، والانتخابات على درجة واحدة . واختبرت الاخفاق في هذه التجارب ، كما اختبرت النجاح بالتزكية ، والنجاح بالكثرة الساحقة .

« وفي وسعي أن أقول كلمة محققة عن كل نوع من هذه الانواع . وان كانت الكلمات المحققة في شؤون الانتخاب أقل من القليل . !!

« فالمحقق عنـدي في الانتخـاب على درجتـين أنـه نظـام لا مزية له على الاطلاق . وانما تظهر صورتـه في حالتـين غـير محمودتـين : احـداهما تدخـل الادارة ، والثانية شراء الاصوات . .

« أما الفوز بالتزكية ، فقد طعن فيه بعض الباحثين الدستوريين ، واشاروا في علاجه الى اعادة باب الترشيح مرة اخرى في كل دائرة لم يتقدم لها اكثر من مرشح واحد .

« أما النجاح بالكثرة الساحقة ، فقد عرفت صعوباته الكثيرة ، وعرفت اصعب هذه الصعوبات . وهو بذل الوعود الانتخابية والسعي في تحقيقها . واذا قلت الوعود الانتخابية ، فانما أعني الوعود العامة ، ولا أعني الوعود الشخصية . لانني اعلنت في كل دائرة تقدمت فيها انني لن اقبل الوساطة في مسألة شخصية ، الا أن تكون تقريرا لحق ، او دفعا لمظلمة . . » .

- ٣ -

عاش « العقاد » منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ م ـ ومنذ قامت الثورة القومية في سنة ١٩١٩ م بقيادة سعد زغلول ـ في جهاد وطني عنيف ، مؤيدا لسياسته ، فقد كان يقدره ، ويؤمن باخلاصه ووطنيته . وكان سعد يحبه ويحترمه على صغر سنه بالنسبة له . وكانت جريدة البلاغ في عهده هي جريدة الوفد الاولى ، فكان هو كاتبها الجريء ، وسهمها النافذ الذي يرمي به الوفد خصومه . ولم نر كاتبا سياسيا مثله يكتب كل يوم مقالة سياسية طول اشتغاله بالسياسة الى جانب ما يؤلفه من كتب ادبية ، وما يكتبه من مقالات في الادب والفن والفلسفة والترجمة والتاريخ كل ثلاثاء .

وقد عانى ما عانى الوفد من شدائد ، واحتمل متاعب السجن والاضطهاد ، واستمر مع خلفاء سعد في الوفد مدافعا عن آرائه ، مناهضا للاستعمار والمستعمرين ، محاميا عن الاهداف التي قام الوفد من اجلها وهي الحرية والاستقلال والدستور ، ولم يكن في تأييده لسياسة الوفد يدافع عن حزب ولا عن آراء زعيم ، لانه كان يكره الحزبية ، ولم يكن كاتبا حزبيا . وقد كان

يرى أن الوفد في ذلك الوقت الذي يخوض فيه المعركة يمثل : « عقيدة وطنية » و« فكرة سياسية حرة » وان الصحافة الوفدية التي يكتب فيها هي وسيلة التعبير عن هذه العقيدة ، وتلك الفكرة . وقد كتب عن العقيدة الوفدية ، فقال : « . . نحن لا نحب ان نعرف العقيدة الوفدية من طريق البرامج والاقوال ، وانما نعرفها من طريق الوقائع التي تنطق بها أعمال الخصوم ، قبل ان تنطق بها السنة الأصدقاء والانصار . وتتلخص العقيدة الوفدية على هذا المعنى في عبارة وجيزة هي : « المحافظة على القومية المصرية بقوة الامة المصرية » . ومن أجل هذا يبغضها اشد البغض كل من يكرهون ان تكون لهذه الامة قوة تعتمد عليها ، وتقف بها في وجوه اعدائها . ولو لم تكن « الوفدية » هي مناط هذه القوة ، لما ابغضها الطامعون في ضعفنا وعجزنا عن المقاومة والاستقلال بالارادة . ولو كان للعقيدة الوفدية شركاء في هذه المزية لابغضهم المستعمرون ومنكرو ارادة الامة . . » .

الى ان يقول عن الصحافة الوفدية التي كان اكبر كتابها :

« . . انما تؤدي الصحافة الوفدية واجب التعبير عن عقيدة البلاد السياسية ، لا واجب الدعاية الحزبية وما اليها . وما من مبدأ اصيل تدين به صحافة مصرية بريئة الا والامة تصدقه قبل ذلك تصديق من لا يحتاج فيه الى اقناع ، أو تدليل . . » .

هكذا كان رأيه في « الوفد » . وعلى هذا المعنى كان يدافع عنه ويؤيده ، وهو في ذلك كان يدافع عن عقيدة وطنية ، ويؤيد مبدأ وطنيا كان يؤمن به كل الايمان ، وهو « المحافظة على قومية الأمة بقوة الأمة » لا بقوة احد سواها .

ولم ينصرف العقاد يوما عن تأييد هذه العقيدة ، ولم يخرج عن سياسة الوفد الذي تأسس وقام على هذه العقيدة ، حتى أصاب الوفد ما أصابه من الانحراف وانتقل من هيئة شعبية وطنية الى حزب سياسي يقوم على برامج ،

ويعتبر الحكم وسيلة لتحقيق هذه البرامج ، ويسعى ما استطاع الى تولي الوزارة ، ويتهافت عليها تهافت المستوزرين . !

- ٤ -

وفي اوائل عام ١٩٣٤ م نظم العقاد « نشيده القومي » وكان وقتئذ يحرر مقالاته السياسية في البلاغ . وقد جاء في مطلع هذا النشيد :

قد رفعنا العلم للعلا والفدى
في ضمان السماء
حيّ أرض الهرم حيّ مهد الهدى
حيّ أم البقاء

وعلى أثر نشر هذا النشيد اجتمع طائفة من كبار أدباء مصر ومفكريها ، واقاموا له حفلة تكريم في مسرح حديقة الازبكية - برياسة زعيم الوفد - حضرها جمهور كبير من اعلام الفكر والبيان ، واعضاء البرلمان والوزراء ورجال التعليم ، وكرائم السيدات . وكان في مقدمة المتكلمين عن العقاد الدكتور طه حسين ، فالقى خطبة ضافية عن « العقاد ولواء الشعر » . قال فيها :

« انه مهما كرم العقاد ، فان مكرميه لن يبلغوه حقه من التكريم بالقياس الى احسان العقاد اليهم . . ! »

ثم يستطرد ، فيقول : « تسألونني لماذا أؤمن بالعقاد في الشعر الحديث ، واؤمن به وحده ، وجوابي يسير جدا ، لماذا ؟ . لانني اجد عند العقاد مالا اجده عند غيره من الشعراء . . وان شئتم ، فإني لا أجد عند العقاد ما أجده عند غيره من الشعراء ، لأني حين اسمع شعر العقاد أو حين أخلو الى شعر العقاد ، فانما اسمع نفسي ، وأخلو الى نفسي .

« انما أرى صورة قلبي ، وصورة قلب الجيل الذي نعيش فيه ، وحين اسمع شعر العقاد ، انما اسمع الحياة المصرية الحديثة ، واتبين المستقبل الرائع للادب العربي الحديث . . »

وبعد ذلك يضرب الامثلة من « ديوان العقاد » . . ويشيد بقصائده ، ولا سيما قصيدة « ترجمة شيطان » التي يقول فيها انه لم يقرأ مثلها لشاعر في أوربا القديمة وأوربا الحديثة ، ثم يقول في النهاية : « ضعوا لواء الشعر في يد العقاد ، وقولوا للادباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه » . . !!

- ٥ -

وكان خريف سنة ١٩٣٤ م ، وتألفت وزارة محمد نسيم باشا الثالثة في ٢٢ نوفمبر من ذلك العام ، بعد استقالة وزارة عبد الفتاح يحيى باشا التي سارت على سياسة اسماعيل صدقي باشا . وكانت الامة غير راضية وقتئذ عن سياسة صدقي في الحكم والحياة النيابية التي قامت على دستوره الجديد ، فلما تولى نسيم باشا الحكم ، وأوقف دستور صدقي باشا ، انتظرت الأمة منه أن يعيد دستور ١٩٢٣ م ونظامه النيابي ، وانتظرت من الوفد أن يطالبه بذلك خصوصا وقد اعلن تأييده للوزارة النسيمية ، ولكن نسيم باشا كان يتباطأ في الاستجابة لرغبة الامة . وكلما الحت عليه بالرجوع الى الحياة النيابية ودستور سنة ١٩٢٣ م الذي كان خيرا من دستور صدقي باشا ماطل وتغافل ، واخذ يحكم الامة حكما فرديا غير دستوري . واثارت سياسة نسيم باشا « كاتب الوفد الاول » منذ ظهرت بوادر هذا الحكم ، ولم تمض على نسيم باشا ثلاثة اشهر ، فأخذ ينقد سياسته ويحذر رجال الوافد من اطماعه ونواياه . فلم يوافق الوفد على معارضة « العقاد » للوزارة النسيمية التي كان يؤ يدها ، ويعلم صلتها بالانجليز وحدثت مشادة بينهما في بيته انتهت بخروجه على سياسة الوفد التي كانت تمالىء هذه الوزارة . وكان « العقاد » يكتب مقالاته وقتئذ في جريدة روز اليوسف ، فاشتدت حملته

على هذه السياسة وعلى زعيم الوفد وصحبه ، واضطر نسيم باشا ان يصدر في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م بياناً سياسياً جعل عنوانه : « بيان للناس » . فكتب عباس العقاد مقالا نشرته روز اليوسف في اليوم التالي بعنوان : « قصة الدستور في بيان نسيم باشا » جاء فيه :

« وان للدستور في بيان نسيم باشا ـ على حد تعبير صديقنا الدكتور طه حسين ـ لقصة ، وانها لتختلف عن كل ما اذاعه المطبلون للوزارة النسيمية والمزمرون ، حين طلعوا علينا باسطورة منتصف شهر مايو الماضي ومنتهاه ، ثم بأعجوبة الخريف والشتاء . . لكن ما لنا وللانشاء الذي يتطرق اليه التحريف والتصحيف او الشدة في التعبير والاساءة في التصوير . . وأمامنا بيان رئيس مجلس الوزارة وقد تضمن من الوقائع ما يكفي سرده في ترتيب لتقديم القصة للقراء اصدق تقديم . . » .

ثم سرد هذه الوقائع التي أحصاها فكانت ثلاثة وعشرين واقعة . وفي مقدمتها : « ولي نسيم باشا الحكم ، وهو لا يقصد الى اعادة دستور ١٩٢٣ م بالذات ، اذ اكتفى الامر الملكي الذي استصدره في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤ م بأن يشير الى أن البلاد سيوضع لها نظام دستوري ولما أراد نسيم باشا تنفيذ الامر الملكي الصادر له أبلغه المندوب السامي ان الحكومة البريطانية ترى « ان البلاد قد تستفيد من تأجيل المسألة ، وان مصلحة البلاد تقتضي عند سنوح الفرصة ان يكون شكل الدستور الجديد ، موضع درس مهم يتناول جميع وجوه المسألة » .

وقد علق العقاد في نهاية مقاله على الوقائع التي تضمنها البيان ، فقال :

« وبعد ، أفليست هذه القصة التي استخرجناها بكل أمانة من بيان نسيم باشا ، مؤيدة التأييد كله ، لكل ما سبق لنا ذكره عن نسيم باشا وموقفه من الوزارة ومن الانجليز ومن الدستور ؟

« وقد قلنا منذ الساعة الاولى انه قد ولي الحكم متفاهما مع « مستر

بيترسون » على أن يحكم مصر من غير دستور سنتين كاملتين ، وان الدستور الذي يقدم لمصر بعد ذلك لا يكون هو دستور ١٩٢٣ م ، بل دستور جديد محدود !! »

- ٦ -

لقد اقسم « العقاد » لزعيم الوفد في اكتوبر سنة ١٩٣٥ وهو يشير الى قلمه الرصاص الذي كان يكتب به مقالاته - وكان يحمله وقت جداله معه في بيته بالاسكندرية - ألا ينتهي هذا القلم حتى تنتهي وزارة نسيم باشا من دست الحكم . وقد صدق فما كاد يمضي اليوم الرابع من يناير سنة ١٩٣٦ م حتى استقالت الوزارة النسيمية استقالة اشبه ما تكون بالاقالة وتولت الحكم بعدها وزارة « علي ماهر باشا » !

وأصر « العقاد » على مخالفته لزعيم الوفد في سياسته التي كانت تهدف الى تولي الوزارة في ذلك الحين ، مع مهادنة الاستعمار ، وممالأة مندوب المستعمرين في مصر ، واشتد في حملته على الوفد في معارضته ، واحتد زعيم الوفد ، وهو يجادله في اجتماع ضمه وضم سكرتير الوفد وبعض اعضائه ، وذكره « بأنه زعيم الوفد » فقابل العقاد احتداده بأشد منه ، وأجابه قائلا :

« انك زعيم الوفد ، لأن هؤلاء الذين حولك أجلسوك على هذا الكرسي ، أماأنا ، فإن قلمي وحده هو الذي وضعني في مكان قدره رئيسك سعد زغلول وقدرته الامة » .

وأخذ الوفد يحارب جريدة روز اليوسف ، ويحاربه ، حتى عطلت هذه الجريدة . وكان قد انفصل قبل ذلك من عبد القادر حمزة صاحب البلاغ لخلاف شخصي لا صلة له بالسياسة . فاتفق مع صاحب امتياز جريدة « الضياء » عبد الحميد حمدي على اصدار جريدته لحسابه . وكان هو « مدير السياسة » .

ورئيس التحرير « كليم ابو سيف » وصدر العدد الاول منها بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٣٦ م في ١٢ صفحة افتتحه « العقاد » بمقال ملأ اعمدة الصفحة الاولى بعنوان : « عهد وذكرى » . جاء فيه ما يوضح فيه خطته ، فقال :

« في هذا اليوم نحن بادئون بعمل جديد ، ومثابرون على خطة معروفة معهودة لزمناها عشرين سنة في خدمة الصحافة والقضية الوطنية . فمن الاطالة على حضرات القراء ، أن نفيض في الشرح ، ونسهب في العهود والوعود فيما هو معروف معهود . وحسبنا اليوم ان نقول اننا سنمضي على ما كنا فيه ، لنكون قد قلنا ما فيه الكفاية ، واستغنينا عن الفضول والتكرار . فإن كان لا بد من ايضاح لهذا الاجمال ، فإيضاح هذا الإجمال أننا سنعلن ما نعتقده من رأي في غير محاباة ولا احجام ، واننا لن نتردد في ابداء الرأي الذي نؤمن به ، كلما وجب ابداؤه وتعزيزه ، واننا منذ اليوم الذي قضت فيه هذه الخطة نفسها بأن نستقل عن جميع الهيئات والاحزاب قد آلينا على انفسنا الا يعوق هذا الاستقلال عائق ، ولا يحجبه حجاب نحن قادرون على ان نميطه ونعلو عليه . . فسياستنا في جميع المسائل والحوادث سياسة قومية تنظر الى الاعمال ، لا الى العناوين ، والى المبادىء القويمة ، والمصالح المصرية ، لا الى الاحزاب والهيئات . . »

ثم إنتقل الى حرية الرأي والشجاعة الأدبية في إبدائه. تلك الحرية التي حاربه فيها زعيم الوفد وقتئذ فقال :

« حزية الرأي والشجاعة الادبية في ابدائه هما المثل الاعلى فيما نتوخاه من عمل صحافي ومن خلق قومي تدين به الأمة ، وتعكف عليه ، ولا تعدل به مطلبا من المطالب ، ولا برنامجا من البرامج ، ولا وعدا من الوعود ! . .

« حرية الرأي والشجاعة الأدبية في إبدائه أنفس من الاستقلال ، لان الامة التي تملك رأيها ، وتملك شجاعة ايمانها هي مستقلة فعلا وحقا . ولو احتلتها فيالق الغاصبين . . فأما اذا خسرت الامة حرية رأيها وشجاعة ايمانها ،

فلا خير لها في استقلال ، ولا دستور ، ولا نيابة ، ولا انتخاب ، لانها تساق سوق العبيد لكل من خطر له أن يسبودها من الاقرباء أو البعداء . وتعيش عيشة العبيد ، ولو لم يكن لها سيد قريب أو غريب . . ولا فرق بين عبد مسود ، وعبد مطلق اليدين والقدمين . لان العبودية في النفوس والقلوب لا في القيود والاغلال . . »

ثم أخذ يحصي الحقائق التي دافع عنها ، واختلف فيها مع الوفد ، ورأى فيها آراء سديدة صدقتها الحوادث ، واثبتت صحتها الايام . ثم قال في النهاية :

« . . نعم ذلك ما صنعناه ، ونصنعه في كل حين . وذلك هو العهد الذي نعاهد القراء عليه . وتلك هي الذكرى التي نعود بها الى الاذهان والضمائر . . »!

ـ ٧ ـ

هذه مقتبسات من الافتتاحية التي صدر بها هذا العدد . وقد وطد « العقاد » العزم على متابعة اصدارها . ولكنه ما لبث ان حاربه خصومه بأساليبهم الحزبية ، واتفقوا مع متعهد توزيع الصحف على قتلها ، وهي في المهد . فانصرف « الكاتب الكبير » عن السياسة الى الكتابة الأدبية وتأليف الكتب كما كانت عادته في كل أزمة يتعطل فيها عن الكتابة السياسية ، فيجد في ميدان التأليف والكتابة في الصحف الأدبية والعلمية مجالا لعلمه البليغ وفكره الخصب ، وأدبه الرائع ، وعلمه الفياض .

انقطع « العقاد » عن الكتابة السياسية ، أو انصرف عنها حينا . . ثم كان انشقاق الوفد الثاني بزعامة أحمد ماهر ، وتألف « حزب السعديين » . وأصدر جريدة الدستور ، وطلبوا منه أن يكون رئيسا لتحريرها ، فلم يقبل ،

واعتـذر بانصرافـه عن الكتابـة السياسية . وكان وقتئـذ يؤلف كتـاب « سعـد زغلول » الذي صدر في ستمائة وثلاثين صفحة . ولما أصدر هذا الحزب جريدة « الأساس » كان محمود فهمي النقراشي زعيم هذا الحزب ورئيس الوزارة وقتئذ بعد مقتل أحمد ماهر ، فألح على صديقه « عباس العقاد » أن يحرر في جريدة الأساس ، فأخذ يكتب مقالاته السياسية مستقلا في آرائه التي يراها في الأحداث الوطنية والمسائل القومية كعادته في كل ما يكتب وخصص « يوم الثلاثاء » للكتابة الأدبية . ولكن جهده الأكبـر منـذ تعطلـت جريدة الضياء في سنـة ١٩٣٦ قد انصرف الى تأليف الكتـب وتحـرير الفصـول الأدبية في المجـلات الشهـرية والاسبوعية .

ونستطيع ان نقول ان المدة التي بدأت من سنة ١٩٣٦ الى ان انتهت بوفاته في مارس سنة ١٩٦٤ كانت أخصب انتاجا ، وأكثر تأليفا من غيرها في « حياة قلمه » المباركة . فقد ألف فيها خمسة وسبعين كتابا من نحو مائة كتاب ونيف الفه طول حياته .

هذا عدا نحو خمسة عشر ألف مقـال أو تزيد كتبهـا في الاداب والعلـوم والفنون في الصحف العلمية والأدبية مما يملأ مئات من الكتب الاخـرى الى ما خلف من مؤلفات غزيرة .

- ٨ -

ولقد كان ديمقراطيا في حياته ، واشتراكيا تعاونيا في مذهبه . فقد سئـل يومـا : « لماذا هو ديموقراطـي ؟» فأجـاب : « لانني لسـت بالمذل ولسـت بالذليل ، ولست بالمؤمن بصـلاحية الاستبـداد في جميع الأحـوال ، وهـذه هي الأسباب التي تبغض الي الاستبداد حيث كان ، وتحبب الي الديموقراطية حيث كانت . ولو كانت بين اناس لا يستحقونها أحسن استحقاق .

« فالحرية في أقبح أوصافها خير من الاستبداد . . وقد شبع العالم من عيوب الحكم المطلق الوفا بعد الوف من السنين . . »

وقال عن مذهبه الاشتراكي من مقال كتبه في ذلك : « انه هو اشتراكية التعاون التي تحراها ولاة الامر في وطننا ، لاصلاح المجتمع بتحسين معيشة العامل والفلاح ، وتحديد الثروة على أنواعها ، وتقريب المسافة بين طبقات الأمة وهي اشتراكية تؤتي ثمراتها على التحقيق ، كلما تتابعت بها التجربة بعد التجربة ، على اساس التوفيق بين تقييد الاحتكار والاستغلال ، واطلاق النشاط الحر ، والكفاية الضرورية في ميادين العمل كافة . . . »

- ٩ -

وقد كتب في عهد ثورتنا الحاضر مقالات عن العروبة والعرب والسياسة العربية من جوانبها العامة . وكتب عن كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبد الناصر مقالا ضافيا قارن فيه بين الثورة الفرنسية والثورة التركية ، والثورة الصينية ، والثورة المصرية . ثم قال عن كتاب رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر :

« . . وبعد هذه المقارنة السريعة بين ثورتنا ، وثورات غيرنا نرى ان التفاهم على التفصيلات قريب كالتفاهم على الاصول الكبرى .

« فقد قرأت الصفحات الثمانين التي كتبها الرئيس جمال عبد الناصر في كتاب « فلسفة الثورة » فخرجت منها وأنا أعتقد أن الخلاف عليها أقل خلاف في مثل هذه الصفحات وفي مثل هذا الموضوع .

« صواب ولا شك ان الحركة المصرية ، لا توصف بانها تمرد عسكري .

« وصواب ولا شك ان الحاضر يعيش ببقية من مساوىء العهود الماضية .

وهذا هو باب الأسف والأسى ، ولكنه كذلك باب الأمل والعزاء ، لانه يدفع اليأس من النفوس اذا عولج ، فلم يذهب به العلاج بين عشية وصباح « اذ لم يكن يمكن في غمضة عين أن تزول رواسب قرون » .

« وصواب كذلك ، أن الشك آفة معطلة للجهود معطلة للافكار والآراء ، فليس الانصاف وحده بالذي يشفع لاصحاب الشكوك ، ويعفيهم من عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد أجيال وأجيال . ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيع البليغ قبل شفيع الانصاف .

« يقول السيد الرئيس جمال عبد الناصر : (كان من السهل وقتها ، وما زال سهلا حتى الآن أن نريق دماء عشرة أو عشرين ، أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة ، ونرغمها على ان تبتلع شهواتها وأحقادها وأهواءها . .)

« ثم يقول : (. . ولكن أية نتيجة كان يمكن أن يؤدي اليها مثل هذا العمل ؟ . . كان من الظلم ان يفرض حكم الدم علينا دون ان ننظر الى الظروف التاريخية التي مر بها شعبنا والتي تركت في نفوسنا جميعا تلك الآثار) .

« نعم . يكون ذلك ظلما ، ويكون أكثر من ظلم ، لانه يصيب من لم يصبه العقاب فيضاعف داء الشك والحذر ، ويبطل فائدة العلاج ، وييئس من عقباه . . »

ثم يتناول « العقاد » بعد ذلك سائر ما جاء في « فلسفة الثورة » بالتعليق . . ويقول في ختام المقال :

« . . على ان الصفحات الثماين التي تحمل اسم « فلسفة الثورة » لا تنحصر بالقارىء في حدود الافق المصري ، وان كانت لا تخرج به من آفاق المسألة المصرية في أوسع حدودها . فالمصري في عصرنا هذا لا يهتم بوطنه حقا ان

لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق أو عوالم ، لا انفصال لها من وطنه ، وهي العالم العربي ، والعالم الافريقي والعالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه .

« .. أين نحن من العالم العربي ؟

« أين نحن من العالم الافريقي ؟

« أين نحن من العالم الاسلامي ؟

« نحن في قلب كل عالم من هذه العوالم ، فليس في وسعنا ان نجهل علاقتنا بها ومستقبلنا معها . يقول الرئيس جمال : (إن نصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية . فنحن أقوياء أقوياء ..)

« ويقول : (اننا لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في أعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ، ومائتي مليون من الافريقيين . اننا في افريقيا ، والنيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة ..)

« ويقول الرئيس عن العالم الاسلامي : (حين أسرح بخيالي الى ثمانين مليونا من المسلمين في اندونيسيا ، وخمسين مليونا في الصين ، وبضعة ملايين في الملايو ، وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون في الباكستان ، واكثر من مائة مليون في منطقة الشرق الاوسط ، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتي ، وملايين غيرهم في أرجاء الأرض المتباعدة ـ حين أسرح بخيالي الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة اخرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التي يمكن ان يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة) .

ويعلق « العقاد » على كلام الرئيس ، فيقول :

« وهذا كله صحيح في الجملة والتفصيل . وليس الاهتمام به من طموح الشباب ، كما يتخيل المتخيل الوادع في عقر داره ، بل أخشى أن اقول انه من أعباء الشيخوخة قبل أوانها . . بل من همومها في ابانها ، ان كان حمل الهموم البعيدة وقفا على الشيوخ . !

« ماذا نصنع ان جنى البترول على العالم العربي ، فضيعه بدلا من تزويده بأسباب القوة والمناعة .

« وماذا نصنع ان أصبحت أفريقية للمستعمرين الاوربيين ولم تصبح في الغد القريب افريقية للافريقيين .

« وماذا نصنع إن تهدم معنى الحياة ، كما تمثله المادية الحيوانية ، أو كما تمثله الحضارة الحسية ، ولم نعتصم من التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين ، وترتفع بها من غمار الذل والاستكانة ، أو غمار القنوط والحيرة ؟

« فروض جسام . ولكنها فروض واقعة لا تهدأ ولا تنام . .» !!

- ١٠ -

ذلك بعض ما جاء في مقال العقاد عن « فلسفة الثورة » . وهو مقال يعد من عيون مقالاته التي لم تجمع في كتاب . وقد آثرنا أن نتحدث عنه في هذا التقديم .

أما مقالاته الفلسفية والأدبية والعلمية الأخرى فقد أضفنا بعد الفصل الثامن الى هذا الكتاب فصولا أخرى تحتوي على « ذكريات شخصية » ومقالات عن أرض الميعاد وهي بحوث كتبها بعد زيارته لفلسطين قبل التقسيم ، ومقالات أخرى في الادب والفلسفة والشعر والدين . وهذه المقالات اخترناها مما لم ينشر

في كتاب من كتبه . وفي عزمنا أن ننشر من هذه المقالات مجموعات أخرى في كتب ملائمة لموضوعاتها المتقاربة ، أو المتجانسة في الفن ، والفلسفة والعلوم ، والاداب . . عما قريب ! . .

وقد أنتج في الاثنتي عشرة سنة الأخيرة أضعاف ما أنتجه في غيرها من السنين السابقة لعهد الثورة . فمنذ قامت الثورة المصرية في سنة ١٩٥٢ الى أن توفي ألّف ما يربو على أربعين كتابا . وهذا يدل على نشاطه الكبير في شيخوخته بعد أن بلغ الثالثة والستين من عمره .

ولقد كانت الدور العلمية والأدبية تتسابق الى نشر مؤلفاته ، كما كانت الصحف والمجلات تهتم بنشر بحوثه ودراساته . وكان من عادته فيما عدا مؤلفاته ومقالاته السياسية أن يفضل اقتراح الجريدة أو المجلة في الموضوع الادبي او العلمي الذي تريده أما الموضوعات السياسية فهو صاحب اقتراحاتها ، لا يقبل من أحد أن يملي عليه اقتراحا سياسيا يكتب فيه ، ولو كان سعد زغلول الذي كان يقدره ويحبه . وفي ذلك يقول :

« انني أفضل اقتراح المقالات الأدبية للمجلات والصحف السيارة لسببين :

« أحدهما أنه يريحني من حيرة التردد بين الموضوعات الكثيرة ، فلا أضيع الوقت بين المناسب والأنسب ، وبين الحسن والأحسن . وثانيهما أن محرري المجلة أو الصحيفة أولى باختيار موضوعاتها وتنسيقها . لأن الكتاب قد يكررون الموضوع اذا اختار كل موضوعه مستقلا باختياره من غير مشاورة ولا مقابلة . فلا محل للاعتراض على محرر المجلة اذا اقترح موضوعا لكل كاتب يعاونه على عمله . ولا مساس بكرامة الكاتب من الاقتراح عليه ، بل هو نقيض ذلك دليل على الثقة ، وتحقيق لقول القائل : « اطلب تجد » ويقصدون به القدرة على الاستجابة لكل سؤال .

« وانني على ترحيبي بالاقتراح الأدبي ، أرفض كل اقتراح سياسي بالكتابة في مسألة من مسائل السياسة وقد كان سعد زغلول رحمه الله ـ وهو زعيمنا الذي نحبه ونجله ـ يعلم ذلك ، فلا يقترح عليّ الكتابة ، ولا الكف عن الكتابة . وغاية ما كان يستبيحه من طلب الكتابة اذا أرادها أن يبسط المسألة للمناقشة ، ويسمع ما نقوله فيها ، فان وجد أن الرأي متفق مع وجهة نظره قال : « أود أن أقرأ لك شيئا في هذه المسألة » . !

« وقد حدث أن اللورد جورج لويد « المندوب السامي في ذلك الحين » طلب اليه أن يكفنا عن الحملة عليه ، وأرسل اليه من يبلغه أنه يحسبه موعزا بها ، فما زاد على ان قال قولته المشهورة : « هذا شرف لا أدعيه ، أو تهمة لا أدفعها » .

« ولم يفض الينا بما حدث الا بعد انقضاء الأزمة وقد سيرت فيها الأساطيل للانذار والارهاب ، أو للتهويل والتمثيل . واننا نحمد الله على ما فرق به بين الادب والسياسة ، فلولا ذلك ما طلبنا بأنفسنا اقتراحا في الكتابة الادبية ، ورفضنا الاقتراح في السياسة وأنكرناه وان تحركت له الاساطيل » ! . .

هذا ما أردنا أن نقدم به « حياة قلم » . وأن نتابع أحداثه وتطوراته السياسية والادبية بالاجمال ، بعدما وقف به الأستاذ العقاد عند ابتداء ثورة سنة ١٩١٩ م . فقد كان في عزمه أن يكمله . ولأمر ما وقف به هذا الموقف . .

ويرى القراء فيما قدمنا من صفحات هذا التقديم صورة واضحة ـ وان كانت مركزة في لمحات ـ عن جهاد هذا القلم وصاحبه في نحو خمسة وأربعين عاما من حياته الفذة . . !

فحياة قلم العقاد حياة فذة عظيمة بلا ريب ، ليست كحياة أي كاتب أو أديب في عصره . ويزيد هذه الحياة قيمة ومكانة أن صاحب هذا القلم كان

عصاميا في نشأته وجهاده ، وأنه في كل ما حصله من علوم وفلسفة واداب ، كان أستاذ نفسه وولي أمره ، ومدرسة فكرية جامعة ، ومكتبة نفيسة حافلة بالاطلاع الواسع .

وقد زود اللغة العربية وعلومها وآدابها بثروة قيمة الى ثروتها الكبرى . ولو أن كتابات العقاد ومؤلفاته ، فقدت من المكتبة العربية لخسرت خسارة فادحة لا تعوض ، لانها عصارة فكر قديرّ ، وحصيلة قريحة خصبة ووليدة ثقافة أصيلة ، وانتاج ذهن عبقري ، عاش صاحبه أديبا مجاهدا ، وعالما مفكرا ، ومؤلفا غزير الانتاج واسع الاطلاع ، وفيلسوفا سامي المبادىء ، عظيم الأهداف . . !

طاهر أحمد الطناحي

الفصل الأول

ولادَة قلَم



ولادة قلم

ألا أعرف نفسي ؟

سؤال نسمعه كل يوم ولا نجيب عنه ، ولا يجيب عنه قائله ، لانه في عرفنا جميعا غنيّ عن الجواب ، او جوابه بلسان الحال يغني عن جوابه بلسان المقال ، وكأننا نقول لكل من يسأله : عفوا .. كيف لا تعرف نفسك ؟.. تعرفها بالتحقيق !

ومع هذا اقول بعد تجربة طويلة للبواعث النفسية التي تدفعني الى أكبر الاعمال وأصغر الاعمال على السواء :

ان الانسان يعرف نفسه بالتخمين لا بالتحقيق ، وانه كثيرا ما يكون في تخمينه عنها غريبا يبحث عن سر غريب ، ولا فرق في هذا بين البحث عن أعمالنا والبحث عن أعمال غيرنا الا في الدرجة والمقدار ، بحكم العادة والتكرار .

حديث مع نفسي !

انني أعمل في تحرير الصحف من خمسين سنة ،[1] وكنت أكتب لها متطوعا قبل ذلك بسنوات قليلة ... وأزيد القارىء فأقول إنني منذ بلغت سن الطفولة وفهمت شيئا يسمى المستقبل لم اعرف لي أملاً في الحياة غير صناعة القلم ، ولم

---

(١) كتب هذا الفصل - وهو أول فصول حياة قلم - في اغسطس سنة ١٩٥٧ .

تكن امامي صورة لصناعة القلم في اول الامر غير صناعة الصحافة .

ولكنني مع هذا اسأل نفسي الآن كما سألتها من قبل : لماذا اخترت هذه الصناعة دون غيرها في طفولتي ، وجعلتها أملا من آمال الحياة الكبرى . . بل أمل الحياة الاكبر ؟ فلا أدري باعث هذا الاختيار على سبيل التحقيق ، ولا استغني فيه عن التخمين او التخمين الكثير ، بعد المقارنة بين ذكريات الطفولة وملابساتها وبعد الترجيح من هنا والشك من هناك ، كما يفعل الباحث في السير والتراجم حين يعمد الى التخمين عن حياة الآخرين .

واكثر من هذا أنني « أضبط » نفسي وهي تروغ مني وتحاول ان تقنعني بوجهة غير الوجهة التي تعنيها او تعنيني ، ثم نتلاقى مبتسمين ، وأكاد أسألها : أأنت هنا ؟ وتكاد تسألني : وها أنت يا صاح ؟ . . ثم لا نلبث أن نعلم اننا لم يفهم بعضنا بعضا من الكلمة الاولى ، واننا نحتاج بعدها الى كلمة أو كلمات نثوب بعدها الى التفاهم والاتفاق .

***

قلت انني لم اعرف لي في طفولتي أملا غير صناعة القلم .

وهذا صحيح . .

وهذا غير صحيح . . !

صحيح إذا نظرنا الى الوجهة القصوى في نهاية الطريق .

وغير صحيح إذا نظرنا الى عطفة هنا او منعرج هناك أو زقاق بين بين في أثناء الطريق . .

كلا ! بل تمنيت حينا أن أكون جنديا . وتمنيت حينا آخر أن أكون عالما زراعيا ، وهما فيما يبدو صناعتان متباعدتان !

ولكنني لم ألبث أن علمت انني تعلقت بالجندية لأنني أريد صناعة القلم ، وتعلقت بالعلوم الزراعية لأنني أريد صناعة القلم ، وان صناعة القلم كانت تلمحني بعينيها الساحرتين من وراء النقاب وأنا أحسبني أغازل صناعة السيف أو اغازل صناعة المنجل والمحراث . .

حادث مع قومندان الانجليز

كانت لعبة الجيوش في أواخر القرن التاسع عشر لعبة الاطفال المفضلة في اسوان . وكانت دروب المدينة وحيشان المدارس والمكاتب ميادين قتال لا ينتهي بين جيش مصر وجيش السودان وجيش الدراويش وجيش الترك وجيش الانجليز . . وكلهم بين قادة وجنود من صغار الاطفال الذين لا يجاوزون العاشرة ، لان المسألة كانت جداً ـ ولم تكن لعباً فحسب ـ مع الاطفال في هذه السن على الخصوص . اذ كانوا يسمعون ان الدراويش اذا دخلوا قرية قتلوا رجالها ، وسبوا نساءها ، وحملوا أطفالها مطعونين على أسنة الحراب ، فلا جرم تشغلهم هذه الحرب عن كل شاغل من شواغل الخطر والخوف فضلا عن شواغل الالعاب . .

ومما أتمثله أمامي حتى الساعة ، وابتسم له كلما تمثلته ـ منظر زميلنا المقدام « عبد المعطي فرج » قائد الجيش السوداني المغير على مكتب « القومندان » في المعسكر الانجليزي وهو يصيح وأذنه في يد القومندان الجبار :

« مش أنا يا عمي . . مش أنا والله يا مستر » . . ويكاد القومندان يقهقه وهو يدفعه الى الخارج ويزجره قائلا « سأعلمك كيف تنط يا خنزير ! »

ذلك اننا في هذه الهجمة زدناها حبتين ، ولعلها زادت في الحقيقة اكثر من حبتين ! . .

قررنا ـ نحن قادة الجيوش المصرية والسودانية ـ ان نهجم حقا على

القومندان الانجليزي في معقله بجانب المدرسة ، وكان هذا القومندان رجلا صارما يخافه الانجليز من مرؤوسيه ويستعيذ من شره أهل المدينة الخاضعون لاحكامه العرفية ، فما هو الا ان سمع دبة عبد المعطي تحت السور حتى وثب الى الباب مستغرباً ان يجترىء احد على اقتحام مكتبه هذا الاقتحام في وضح النهار ، وفتح الله على قائدنا المغوار ـ عبد المعطي ـ بالعذر الوحيد الذي لا يقبل التصديق في هذا الحرج الشديد : اذنه بين اصبعي الرجل ولسانه يصيح : انه ليس هو المقبوض عليه .

على الربابة !

هذه اللعبة ـ لعبة الجيوش ـ كانت شغلنا الشاغل في المدينة التي لا لعب ولا لهو فيها ، وكانت من جانبي أنا على الاقل لعبة عسكرية ادبية في وقت واحد . . لانني كنت قائد الجيش المصري الذي يطلب المبارزة من الاعداء ويطلبها على الطريقة العنترية الهلالية اليزنية المشهورة في ملاحم شعراء الربابة ، فلا يبدأ الصدام قبل تبادل الشعر الحماسي على حسب المقام . .

وكان زملاؤنا ـ او اعداؤنا ـ يستعينون في تحضير هذه الحماسيات بشعراء الربابة الذين امتلأت بهم قهوات البلدة في ايام الحملة السودانية وأغنوها عن المسارح وملاعب البهلوانات والقرقوزات ، لازدحام المدينة بالجنود والباعة من أبناء الصعيد ـ طلاب هذا الضرب من القصص والاناشيد ـ ومن لم يجد من الطلاب بغيته عند شاعر الربابة طلبها في بيت هنا او قطعة هناك من كتب المحفوظات او روايات التمثيل ، وفيها الكثير من مواقف الفخر والحماسة أو مواقف التخويف والتهويل . .

وكنت أنا قد جربت نظم الشعر في بعض المقاصد المدرسية ، فشجعتني التجربة على نظم الاناشيد الحماسية لميدان المبارزة ، وأردت أن أثبت للسامعين انني صاحب تلك الاناشيد فالتزمت في نظمها أن أذكر اسمي كاملا في كل قطعة

منها . وانتصرت بها انتصارا اعظم من انتصار القتال . اذ اوشكت المناوشة كلها ان تنحصر في الاستماع الى قصائد الفخر والحماسة بغير قتال . .

وانتهت مدتي في الجندية بنهاية هذه الجندية المتطوعة !! . . فلم يعسر عليّ ان أفهم ان حماسة النشيد هي بيت القصيد عندي من الجندية والتجنيد ، وانها كانت منفسا للملكة الناشئة التي لم تستقر بعد على قرار . .

سر الولع بالزراعة

أما الولع بالعلوم الزراعية ، فلم ألبث أن علمت أنه في دخيلته ولع بتطبيق الاشعار التي كنت اقرؤها عن الازهار والعصافير والحدائق وجداول الماء والانهار . . وربما كان مدخلها الى نفسي أعمق من ذلك وأخفى مكانا على النظرة الاولى التي نظرتها بها يوم ذاك ، فإن علوم الزراعة تعين على مراقبة اطوار الحياة وغرائب الحيوان والنبات ، وليس أوثق من العلاقة بين الدراسات النفسية وبين تلك الغرائب والاطوار ، ولا أراني حتى الساعة أوثر كتابا في سيرة علم من اعلام التاريخ على كتاب في طبائع الاحياء والحشرات او آثارها القديمة في بقايا الحفريات . .

كانت أمنية الجندية وعلوم الزراعة اذن ترجمة لأمنية الكتابة مستعارة في صورة من صور الصناعات الاخرى ، وبخاصة حين نذكر انها كتابة لا تخلو من نضال ، ولا تخلو كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والاحياء . .

ومثل هذه الترجمة فيما اظن معهودة في كل محاولة ناشئة قبل ان تستقر على قرارها ، فلا يزال الناشىء يتمنى شيئا بعد شيء ويجهل ما يتمناه حتى يثبت فيه على القرار الأخير . . ويومئذ يعلم انها كانت جميعاً أمنية واحدة في باطنها ، وانه كان بينه وبين نفسه في هرب ولقاء كأنهما في طراد البحث والاستخفاء .

أول مجلة !

واحسبني حتى الساعة لم ابلغ من معرفة الباعث الصحفي في نفسي مبلغ اليقين الجازم الذي لا رجعة فيه ولكنني على يقين جازم من أنني انشأت صحيفة في طفولتي الباكرة ، وأنني لم أنشئها قبل أن أطلع على ودائع دولاب المنظرة في بيتي ، وأكثر ما فيه صحف اسبوعية أو شهرية قديمة ، وأكثر هذه الصحف القديمة من مجلات عبد الله نديم ، وليس بينها أكثر عددا ولا أكبر حظوة عندي يومذاك من مجلة « الاستاذ » .

ودولاب المنظرة مستودع عزيز يعرفه أبناء الريف ولا تخلو منظرة في بلدة ريفية من دولاب منه على الاقل ، يفرغ في جوف الحائط ويقام عليه باب بمفتاح او بغير مفتاح ، ويغلب ان يكون الباب بغير مفتاح لان الودائع التي يحرص عليها اصحابها لا تودع في المناظر على متناول الداخل الغريب .

وعلى تعداد الصحف في دولاب المنظرة عندنا لم تكن بينها صحيفة أبرع في العناوين من صحف عبد الله نديم ، وكان هذا الصحفي المطبوع استاذ زمانه ، بل لعله استاذ من اساتذة العناوين في كل زمان . . .

من عناوينه عنوان « كان ويكون » للترجمة ، وعنوان « التنكيت والتبكيت » لاسم صحيفة ، وعنوان « المسامير » لكتاب هجاء ، وعناوين اخرى بهذه البراعة لعشرات من الفصول والاخبار .

معارضة النديم !

ولفتتني العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف النديم ، ووجدتني ذات يوم أقطع الورق قطعا على قدر المجلة وأعمد الى مكان العنوان منها فأكتبه بخطي متأنقا وأعارض عنوان « الاستاذ » بعنوان « التلميذ » .

أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضا من قبيل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التي تردد صداها زمنا في البيئات المصرية ، وهي المقالة التي جعل عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وافتتح بها الجزء الثاني والعشرين من السنة الاولى .

فكتبت مقالي الافتتاحي وجعلت عنوانه « لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم » .

وكان فحوى مقال النديم أننا نطلب الاستقلال وندعي اننا والاوروبيين أشباه وأمثال ، ولكن الاوروبيين ينكرون هذه الدعوى ولا يكلفون انفسهم غير دليل واحد يثبتون به الفارق البعيد بيننا وبينهم ، فاذا قلنا لهم نحن مثلكم قالوا لنا تلك دعواكم ، ولو كنتم مثلنا لفعلتم مثلنا . .

واستغرقت مقالة النديم اكثر من عشرين صفحة ختمها بقوله : « ان آخر الدواء الكيّ وقد بلغ السيل الزبى فإن رفأنا هذا الخرق وشددنا أزر بعضنا . . أمكننا أن نقول لأوروبا نحن نحن وأنتم أنتم ، وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالاجانب فريقا بعد فريق حق لأوروبا أن تطردنا من بلادنا الى رؤوس الجبال لتلحقنا بالبهيم الوحشي وتصدق في قولها لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » .

***

وتناولت في مقالي فقرات النديم واحدة واحدة بردود لا أذكرها الان ، ولكني أذكر منها ما يدل عليه العنوان ، وفحواه أننا نحن الشرقيين لو كنا مثلكم ـ أيها الغربيون ـ فاتحين منتصرين لما فعلنا فعلكم من نهب الاموال واستباحة الحقوق وافتراء الاكاذيب والتعلل بالمواعيد ، ولكننا لسنا مثلكم ولا نريد ان نفعل فعلكم ، وسترون فعلنا عما قريب . .

ثم اصدرت من صحيفة التلميذ المخطوطة بضعة اعداد لم يكن لها من قراء غير زملائي في المدرسة وأقاربي المشجعين أو المتندرين المتفكهين . ولم يكن لها اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن . .

عادة . . من أيامها !

أخالني الآن على حق اذا قلت إن هذا السر ـ سر دولاب المنظرة ـ هو كذلك سر الاتجاه الأول عندي الى صناعة القلم ، ويؤيد هذا الظن الراجح انني تعودت من أيامها عادة لم تفارقني الى اليوم في تجهيز ورق الكتابة الصحفية بصفة خاصة . . فهذه الورقة التي أكتب عليها الان مقصوصة على النحو الذي اخترته لصفحات مجلة « التلميذ » . . . ومتى كتبتها طويتها طولا كما تطوى المجلة ووضعتها في غلاف مستطيل كالغلاف الذي توضع فيه المجلات ، وقد اتخذت من هذه الاوراق ومن ذلك الغلاف ذخيرة حاضرة اوصي بصنعها اذا نفدت من السوق ، كما تنفد احيانا في بعض ايام الحروب العالمية.

***

وعلى هذا النحو من التخمين نعرف انفسنا باحثين مترددين ، قبل ان نصل الى اليقين ، ان وصلنا الى يقين . .

لكنني لا تفوتني كلمة سمعتها من صديق كان يناقشني كلما تساءلت عن سر اتجاهي الى صناعة القلم فيقول : وهل من حاجة الى البحث عن سر لهذا الاتجاه ؟ ألا يكفي أنك أنست من نفسك القدرة على الكتابة فاتجهت الى صناعة الكتابة ؟ . .

ولست على رأي الصديق في هذا التعليل لاتجاهاتنا النفسية ، فإن الملكة النفسية تخلق فينا قبل ان تخلق لها أدواتها ، وربما كانت سهولة الكتابة عندي نتيجة مستفادة من سهولة القراءة ، ولم أكن قارئا الا لانني سأكون كاتبا يوما من الايام متى تيسرت الاداة .

على ان شعور الطفل بقدرته على الكتابة لا يأبى عليه أن يتمنى الوزارة او يتمنى الوجاهة الاجتماعية او يتمنى صناعة القلم مبتدئا بعمل من الاعمال الكتابية غير الصحافة ، ولست اعتقد ان مئات الاطباء والمهندسين والصناع وذوي الملكات المنوعة الذين ظهروا من ابناء جيلنا قد استلهموا اختيار صناعاتهم من وحي القدرة على علم من علومهم المدرسية ، بل لعلهم توجهوا وجهتهم في مستقبلهم على الرغم من جميع تلك العلوم . . .

جيل وجيل

كان عبد الله النديم أستاذ مدرسته في الصحافة والدعوة الوطنية ، وكان كل من نشأ بعده بقليل بين واحد من اثنين : إما تلميذ يقتدي به ، وإما خصم يبغضه وينحي عليه . .

ونشأ مصطفى كامل في هذه المدرسة ، وكان خصوم النديم يزعمون ان الخديو لم يعرض عن الاستاذ ويقبل على التلميذ إلا لأن ابناء الاسرة الخديوية غضبوا لتقريبه رجلا كان يحاربهم في الثورة العرابية ويعمل على تقويض عرشهم ، فاختار الخديو من تلاميذه شابا بعيدا عن هذه الشبهة وميزه على استاذه لمعرفته باللغة الافرنجية ، وقال وليّ الدين يكن في كتابه « المعلوم والمجهول » :

« من أجل هذا قال أكثر الامراء من الأسرة الحاكمة على مصر ان مقام الامارة يقرب منه النديم لأنه عدو اسرته وجنسه ، وبهذه السياسة المضحكة آل الامر الى الاعتماد على « كامل » وقد كان كامل ممن يرددون نغمات النديم ، وانما ميز المقلد عن المجتهد إلمامه باللغة الفرنساوية واستطاعته بيان آرائه للغربيين ولم يفز النديم بمثل ذلك » .

إلا ان الامر لم يكن في هذه المسألة خاصة أمر اللغة الافرنجية ، لان

الخديو قرب اليه الشيخ علي يوسف الازهري وهو ممن انشأوا الصحف منافسة للنديم وتطلعوا الى محاكاته في المنهج والاسلوب ، ولكنها مسألة المدرسة الصحفية التي كانت تحمل علم الدعوة امام الصحافة المسخرة للدعاية الاجنبية ، ولم تكن هناك مدرسة تحمل هذا العلم في أول عهد الاحتلال غير مدرسة النديم .

ويصدق على هذا جيل النديم والجيل الذي تلاه ، ولكنه لا يصدق على الجيل الذي نشأ بعد ذلك بسنوات ، لأن هذه الفترة قد اتسعت لعوامل جديدة في السياسة والتفكير تخالف العوامل التي غلبت على الثورة العرابية او على جيل المخضرمين بين الثورة والاحتلال .

أنا . . والنديم

ولهذا أرجع الى ظواهر كثيرة صاحبت نشأتي الصحفية فلا أستطيع أن أقول إنني على الجملة من تلاميذ مدرسة النديم ، وان كان النديم أول من لفتني الى العمل في الصحافة وكانت مطالعته أول مطالعة وجهتني الى هذه الصناعة . .

لا بل هنالك مشابهات عديدة بين النديم وبيني لا أدري هل جاءت من وحي القدوة الخفية أو جاءت مصادفة بغير قصد مني ولا من أحد . .

فقد تعلمت صناعة التلغراف كما تعلمها النديم ، واشتغلت بالتعليم في مدرسة خيرية كما اشتغل النديم ، وجربت الاستخفاء على الطريقة البوليسية أكثر من مرة في ابان الحرب العالمية الاولى ، وكذلك فعل النديم عند مطاردته في أعقاب الثورة العرابية . . .

ولكنني ـ مع هذه المشابهات ـ لم أشعر من قبل ولا أشعر الآن بأن الرجل قدوتي المختارة بين أمثلة النبوغ التي أتمناها أو بين « الشخصيات » المثالية التي أجلها وأحب أن أنتمي اليها . .

وأحسب أن المرجع في هذا الاختلاف الى سببين : أحدهما يرجع الى الاحوال العامة ، والآخر يرجع الى المزاج الشخصي الذي فطرت عليه . .

فالأحوال العامة في عصرنا تخالف الأحوال العامة قبيل الاحتلال أو في الفترة بين الثورة العرابية والاحتلال ، لان دخول الانجليز مصر كان مسألة دولية تعمل فيها الدولة العثمانية عملاً « قانونياً » يصح الاعتماد عليه باعتبارها صاحبة السيادة القانونية على الديار المصرية ، وكانت مناورات الدول المتنافسة على فتوح الاستعمار باباً مفتوحاً على مصراعيه يتسع للمساومات والدسائس والمعاكسات ويتعلق الامل به من جانب المصريين ، ولو إلى حين . .

وهذا فيما نظن أحد الأسباب التي تحولت بأنظار عبد الله النديم وتلاميذه الى الدولة العثمانية ، وجعلت سيادة هذه الدولة على مصر ركنا مهما في برنامج مصطفى كامل والحزب الوطني الذي قام على يديه . .

أما في عصرنا ـ نحن الذين ولدنا بعد الاحتلال ـ فقد أصبحت مسألة الاحتلال من أعبائنا الوطنية التي لا عمل فيها للدولة العثمانية ولا للمناورات الدولية ، وانما يقع العبء الاكبر فيها على عواتقنا نحن المصريين . . فلا يجوز لنا أن نفرط في مبدأ الاستقلال من أجل صيغة « شكلية » لا تفيدنا في جهادنا إن صح أنها كانت تفيدنا قبل ذاك . .

هذا هو سبب الاختلاف بين جيلنا وجيل النديم فيما يرجع الى الاحوال العامة .

وأما سبب الاختلاف الذي يرجع الى المزاج الشخصي فخلاصته في كلمتين : ان الرجل كان ينزع كثيرا أو قليلاً الى شيء من التهريج ، وانني نشأت في بيئتي البيتية بين أبوين محافظين أشد المحافظة على سمت الوقار و« اللياقة » ونقلت هذا الخلق منهما بالوراثة كما نقلته بالقدوة والمحاكاة . .

كل الناس . . ولا عباس !

ومما يحضرني من ذكرياتي فيما دون العاشرة أنني رفضت كل الرفض أن ألبس البنطلون القصير يوم دخلت المدرسة في نحو السابعة من عمري ، وانني رفضت أشد الرفض أن أجيب نداء المعلم حين دعاني باسم « عباس حلمي » جريا على تقاليد ذلك العهد التي بقيت الى الآن في أسماء المعاصرين . . فلم يكن أحد من التلاميذ يدعى باسم ابيه ولكنهم كانوا يلقبون بألقاب حلمي وصبري ولطفي وحسني وشكري وما شاكلها على حسب المطابقة لأسماء المشهورين أو الموافقة لجرس اللقب ورنينه في الاسماع ، فبقيت واحدا من قليلين يذكرون بأسماء آبائهم بين أبناء ذلك الجيل ، ولولا إصراري على رفض اللقب المستعار لكان اسمي اليوم « عباس حلمي محمود » كما كتب في قائمة « التصنيف » أي توفيق الاسماء والالقاب . .

والى اليوم يذكر شيخاتنا وشيوخنا في الاسرة كلمة الامهات التي كن يرددنها لاطفالهن كلما أصابهم ما يسوءهم من التورط في المزاح معي وراء الحد الذي أسيغه ، فاذا ذهبوا الى أمهاتهم يشكون ما أصابهم كان الجواب الذي يقال بين الضحك والغضب : امزح مع من شئت يا بني . . ولكن « كل الناس ولا عباس ! » .

ومن الطبيعي لطفل في هذا المزاج ان ينظر الى مثله الاعلى فلا يراه في صاحب التنكيت والتبكيت وصاحب المسامير ، واحسبني لم أفضل الاستاذ الامام محمد عبده على صاحبنا النديم إلا لسبب من جملة أسباب ترجع الى هذا المزاج ، فإن وقار محمد عبده هو القدوة التي ارتضيها حين أنظر الى النديم فيظفر مني بالثناء ولا يظفر مني بالاقتداء ، وكلاهما فيما عدا هذا الخلق صنوان ينتميان الى الثورة العرابية وإلى مدرسة جمال الدين وإلى العمامة والبيئة الازهرية . .

مدرستان !..

وأيا كانت أسباب الاختلاف بين النديم وبيني ، فالعصر الذي نشأنا فيه لا يسمح لمدرسة واحدة أن تطغى على أفكار الناشئة في كل بقعة من بقاع البلاد المصرية .. لأنه كان عصرا مزيجا مضطربا بين عصرين ذهب أحدهما ولم يخلفه العصر القادم على رأي واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين وما يوافقها وتوافقه من التفكير الحديث ..

كان عصرنا « برج بابل » يبنى ويعاد بناؤه بين عام وعام ..

كنا نعيش في عصر الجامعة الاسلامية على مذاهب ، ونعيش في عصر الجهاد الوطني على مذاهب ، ونعيش في عصر التجديد الفكري على مذاهب ، ولا نرى أمامنا مذهباً واحدا في قضية من قضايانا الكبرى : وكلها مشكلات ..

فالجامعة الاسلامية مدرستان : مدرسة جمال الدين ومدرسة الدعاة الرسميين ..

مدرسة جمال الدين تعني بالجامعة الاسلامية أن تكون جامعة شعوب متيقظة مسؤولة عن شؤونها مرعية الحقوق مع ملوكها وأمرائها ، فضلاً عن حقوقها مع الطامعين المتربصين بها ..

ومدرسة الدعاة الرسميين تعمل للملوك والامراء وتريد من الجامعة الاسلامية أن تكون وحدة سياسية بزعامة هذا الخليفة أو ذاك من ملوك المسلمين ، وأعلاهم صوتا في مصر من كان يعمل لخليفة بني عثمان ...

ومدرسة الجهاد الوطني على هذه الحال :

مذهب يعتمد على مناورات الدول وحقوق السيادة الشرعية ، ومذهب يستضعف هذا الرأي ، ويحسب العمل فيه من ضياع الوقت على غير جدوى ،

وبخاصة في أمر التعويل على السيادة العثمانية . لأن حقوق هذه السيادة لم تكن عصمة للمعتمد عليها ، بل كان مجرد الانتماء الى الرجل المريض صاحب التركة المنتظرة ـ كما كانت الدولة العثمانية تسمى في ذلك الحين ـ ذريعة الى ضياع البلد في معركة النزاع على التركة أو في مساومات التقسيم والتفريق ! . .

بلبال .

ويزيد البرج بلبالاً خليط الاصوات المنبعثة من طغمة الدعاة المأجورين المسخرين لخدمة الدسائس الاجنبية . .

فمن هؤلاء من كان يضرب المعول في أركان الدولة العثمانية جاهدا مكابرا باسم الاصلاح والثورة على الاستبداد ، وهو في باطن الامر صنيعة للدول وسمسار من سماسرة الاستعمار الذين يقصدون في الواقع الى هدم الاسلام وتمكين المستعمرين من الدولة المستقلة الباقية بين بلاد المسلمين . .

ومن هؤلاء من كان يعلن الغيرة على حقوق مصر والدولة العثمانية ، وهو في باطن الامر صنيعة السياسة الفرنسية في الشرق يناوىء الاحتلال بأمرها ويورط البلد في المشكلات تحقيقا لمآربها . .

ومنهم من كان يثير دعوة الجامعة الاسلامية ليتخذها وسيلة إلى إيقاع الشقاق بين أبناء الوطن الواحد ، تأييداً لدعوى الدول التي تستفيد من تهمة التعصب الديني ، وتلوح بها لإقناع الأجانب بحاجتهم الدائمة الى الحماية من دولة أوروبية . .

ومنهم من كان يطلب الدستور ، ولكنه لا يطلبه حباً للحرية ولا إنصافاً للامة بل تعزيزا لسلطان الخديو . . وتمهيدا لاطلاق يده في ميزانية الدولة ووظائف الحكومة بمعزل عن دار المندوب البريطاني ومستشاريها في الدواوين . .

بلبال ، وأي بلبال . .

وأشد منه اختلاطا بلبال آخر في ميدان الفكر والثقافة ، يضطرب فيه القول بين تفكير من يعجب بالثقافة الحديثة وبين اتهام من يزدريها بالجهل المطبق والبهيمية العجماء ، وسوف نعرض لهذا البلبال الفكري في مكانه من الفصول القادمة . . لأننا نبدأ بالكلام عن الصحافة وموضوعاتها الغالبة عليها قبيل اشتغالي بالتحرير فيها ، ثم نقفوه بالكلام على غيره من الموضوعات . .

بلبال يهون الى جانبه ضوضاء برج بابل . . فأين يذهب الطفل الناشىء في دروب هذا التيه وزواياه بين مهابطه ومراقيه . . ؟!

وأنا في السادسة عشرة !

لا أعيد هنا كل ما عرض لي في هذا الطريق من حيرة وشك وعثرات وأزمات .

لكنني أعلم علم اليقين أنني كنت على قرار واضح في كل قضية من هذه القضايا حين بلغت السادسة عشرة ، ثم عملت لأول مرة في تحرير صحيفة الدستور . .

الجامعة الاسلامية عندي هي جامعة جمال الدين ، أو جامعة شعوب متيقظة متعاونة لا جامعة ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة أو تخليف ذلك السلطان . .

الدولة التركية نتمنى بقاءها وصلاحها ، ولكننا لا نتمنى سيادتها ولا نستمع لمن يحاربها باسم الشورى أو النقمة على الاستبداد . .

الدول الاجنبية لا تنفعنا إن لم ننفع أنفسنا ، وسياسة « مصر للمصريين » هي أقوم سياسة يتبعها المصريون ويهتدون بهديها فيما لهم من حق وعليهم من واجب . .

الحزب الوطني حزب مخلص مجتهد ، ولكنه مفرط في مجاملة « يلدز » و« عابدين » مقصر في مساعيه نحو « مصر للمصريين » .

الملوك والامراء يخدمون القضايا القومية بمقدار ما تخدم عروشهم ، فان تلاقت مصالحهم ومصالح الوطن فحبا وكرامة ، وان تشعبت الطريق بين هذه المصالح وتلك المصالح فلا خفاء بالطريق القويم . .

الحكم الدستوري لا غنى عنه ، ولا وجه للمقارنة بينه وبين حكم الاستبداد بحال من الاحوال . .

داخل النطاق

منذ كتبت في صحيفة الدستور لم تخرج كتابتي عن هذا النطاق في قضية من هذه القضايا . .

لم أمدح الخليفة « عبد الحميد » الا في مناسبة واحدة وهي اعلان الدستور ، ويومئذٍ كتبت أبياتاً أهنئه بها وأسجل تاريخ السنة بحساب الحروف الابجدية ، فكان التاريخ هذه الشطرة :

« قد أنشأ الدستور عبد الحميد » .

ومجموع حروفها بحساب الجمل (١٣٢٦) وهي السنة الهجرية التي أعلن فيها الدستور . .

ولما توفي مصطفى كامل شيعته صحيفة الدستور ـ وهي من صحف الحزب الوطني ـ برثاء أبلغ من رثاء صحيفة اللواء ، ولكنني أحجمت عن رثائه بثناء خلو من النقد وأحجمت في ذلك المقام من نقد سياسته قبل الاستانة وقبل الخديو وقبل السيادة العثمانية ، وكاشفت الاستاذ فريد وجدي بحرجي وحرج صحيفته وهي لسان الجامعة الاسلامية الاولى ولسان الحزب الوطني الثاني بعد اللواء ،

فقال لي رحمه الله إنه يفهم هذا الحرج وإنه يقوم عني بما اتحاشاه، فآثرت الصمت عن الرثاء على ثناء بغير نقد، أو نقد متحفظ، متحرج، بين مضطرب الآراء . .

***

وانقطعت الصلة بيني وبين الصحيفة بضعة أشهر لا اكتب فيهاولا أكتب اليها، ولكنني كتبت اليها مقالي الوحيد من الخارج يوم أعلن الدستور في ايران، وقلت فيه مهنئا للشاه الصغير: لو كنت في فرنسا لكان مصيرك كمصير الصبي ابن لويس السادس عشر، ولكنك تحمد الله لانك في بلد اسلامي وتحمد لشعبك - ولا ريب - جميل هذا الصنيع .

والان - بعد نصف قرن كامل - أقول إنني قد جربت هذا البرنامج السياسي، الصحفي، في مشكلات هذه الحقبة وأزماتها جميعا . . فحمدت مغبة هذه التجربة، ولم أجد فيما وجدته من الحوادث المتناقضة برنامجاً أصح منه ولا أصلح لقضية مصر وقضايا الامم الشرقية، ولا أعلم أن الحوادث بعد الحوادث كشفت لنا عن خطة أهدى منه للعاملين وأحق منه باتباع المتبعين . .

وبعد، فإنني لا أحب ان أنافق القارىء باصطناع التواضع الكاذب طلبا للثناء الأكذب، فأقول إن الحكاية سهلة على كل من يطلبها، وانها حكاية يطلبها كل من شاء بغير عناء . .

الاستقلال . .

كلا ! . . ليس من السهل على كل ناشىء في العشرة الثانية من عمره أن يسلك سبيله بين تلك النقائض والشبهات دون أن يروض نفسه على استقامة القصد الى الحقيقة واستقلال الرأي بين شتى الدوافع والمغريات . .

ولكنني أعود فأقول انه لا استقلال الرأي، ولا استقامة القصد، كانت

كافية لهدايتي الى سبيلي لو لم أستفد من ظروف الاونة التي نشأت فيها وظروف البلد الذي نشأت فيه . . .

لقد كانت الآونة في مصر آونة نادرة ، لم تمتحن فيها العقول بعد بمحنة المحن في العصر الحديث : محنة تكوين الرأي جماعات جماعات ، فلا ينطوي الشاب في جماعة صاخبة حتى يحرم القدرة على نقدها ونقد سواها ، فهو مع جماعته التي انطوى فيها يقبل خطأها كما يقبل صوابها ، وهو مع الجماعات الاخرى يرفض صوابها كما يرفض خطأها ، وانه لخاسر مضلل في كلتا الحالتين . . .

وكانت البلدة التي نشأت فيها بلدتي اسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشىء في مثل سني أن يأوي بها الى صومعة من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر في كل ما يسمع أو يبصر من الشؤون العامة ، بغير تضليل أو تهويل . . وتهب الزوبعة القومية فلا تفاجئنا في وسط غبارها فتعمي البصائر عما فيها ، ولكنها تقترب منا رويداً رويداً فلا تصل الينا حتى تنكشف على جلاء . .

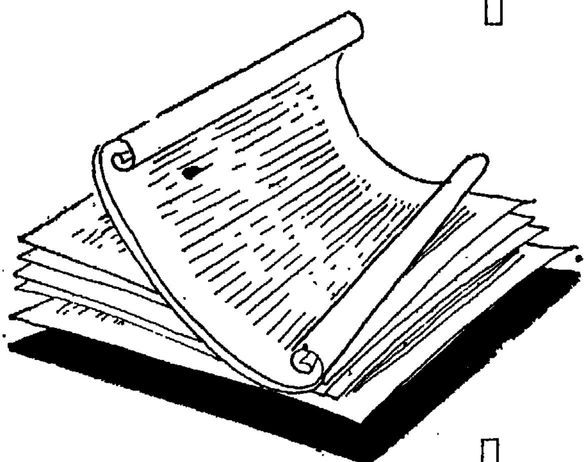
***

وهل في ذلك عبرة ؟ . .

نعم . . عبرة قريبة فيما نرى ، فخير ما يصنعه الشاب في فترة تكوين الرأي أن يروض نفسه سنوات على النظر الى ما حوله مستقلا عن طغيان الجماعات ، فاذا دخل في جماعة منها بعد ذلك عرفها بمحاسنها وعيوبها معرفة تمييز وتقدير ، ولم يعمل فيها آلة من الآلات . .

الفصل الثاني

قلم يشقّ طريقه



صَحيفَة مَطبُوعَة بعَدالمخطُوطَة

أصدرت صحيفتي المخطوطة ـ التلميذ ـ وأنا تلميذ في الثانية عشرة ، لم أبرح المدرسة ، ولم أملك في يدي مبلغا من المال يكفي للتفكير في طبع ورقة .... ان وجدت المطبعة حيث كنت في الصعيد الاقصى .. وهي غير موجودة !..

لكنني الآن موظف حكومة ، تخرجت من المدرسة الابتدائية واشتغلت بالقسم المالي في مديرية الشرقية ، وعرفت لي مبلغا من المال أقبضه في أول كل شهر : خمسة جنيهات !..

ومن هذه الجنيهات الخمسة استطيع ان أدخر جنيها في كل شهر ، وان اجمع من هذه الجنيهات المدخرة مبلغاً يكفي للانفاق على العددين الاولين من صحيفة مطبوعة ، ثم لا حاجة بعد ذلك الى المال لان الصحيفة تباع وتأتي بتكاليفها عددا بعد عدد ، أو عددين بعد عددين ..

وكنت قد عرفت شيئا عن تكاليف الطباعة في مدينة الزقازيق عاصمة الشرقية ، لانني اشتقت الى بلدتي بعد ان فارقتها يافعاً لأول مرة فنظمت قصيدة على وزن قصيدة المعري التي يقول في مطلعها :

عللاني فإن بيض الأماني فنيت والظلام ليس بفان

فقلت في مطلع قصيدتي :

ذكرانـــي نعيمهـــا ذكراني حبـــذا لو علمتما ما أعاني

وقلت منها اذكر أسوان .

« الست ارجو عودا الى اسوان » .

ولا يحضرني الآن الشطر الأول من البيت . .

وراقت القصيدة من سمعوها من الزملاء المتأدبين ، فاقترحوا علي طبعها ليحتفظ كل منهم بنسخة منها . . وتكفل أحدهم بتقديمها لمطبعة المدينة فلم تكلفنا ورقا وطبعا أكثر من ثلاثين قرشا لمائتي نسخة ، وقيل لنا إنها تكلفنا أقل من خمسين قرشا اذا طبعنا منها مائتي نسخة أخرى فعرفنا السعر وعرفنا الفرق بين تكاليف طبع القصيدة وتكاليف طبع الصحيفة ، وهي في تقديرنا تقع في ثماني صفحات بدلا من صفحتين .

حسبة ميسورة مشجعة ، ومرتب شهر واحد يكفي للبدء في طبع الصحيفة على بركة الله ! . .

وماذا يبقى بعد الطبع مما يحتاج الى التدبير والاستعداد ؟ . .

لا شيء ! . .

فالتحرير مضمون بغير كلفة ، لأنني محرر الصحيفة الوحيد . .

والتوزيع مضمون لا خوف عليه ، وكيف لا يكون مضموناً وهؤلاء قراؤنا يتهافتون على اقتناء الطبعة الاولى ويستنفدون منها مائتين في يوم أو يومين ؟

* * *

ومن البديهي أنني لا أصدر الصحيفة وأنا موظف بالحكومة . . ولا أطبعها ، من ثم ، في الزقازيق حيث طبعت القصيدة .

إلا أنها عقبة هينة لا يصعب علينا تذليلها ، فليس أهون من الانتقال الى

القاهرة بعد الاستقالة من الوظيفة ، وليس ابناء القاهرة بأقل من ابناء الزقازيق اقبالا على قراءة المنظوم والمنثور . . وكنت اذهب الى القاهرة مرة في كل اسبوع أو أسبوعين ، أشهد التمثيل في مسرح الشيخ سلامة حجازي ، وأزور حيّ الأزهر باحثا عن الكتب الادبية القديمة بثمن رخيص . .

فذهبت الى القاهرة ، وأحببت أن أحقق وأدقق واستوفي المعلومات اللازمة قبل الشروع في العمل . . ووقع اختياري ـ لاستقصاء البحث في المسألة ـ على صاحب مكتبة عتيقة عظيم الخبرة بالمطبوعات القديمة والحديثة ، كثير الاتصال بالصحفيين والادباء ، تعودت ان اشتري منه ما أجده عنده وان أوصيه باستحضار الكتب النادرة من الطبعات المرجوعة . .

والواقع ان « الاستقصاء » الذي عولت عليه لم يكن ليعوقني عن المضي فيما نويت ، وانما هو مسألة شكلية على حكم العادة في الاستشارة والاستخارة . . وليقل صاحبنا ما يقول ، فإنني أعددت الصحيفة كتابة وتقسيماً وتبويباً وتسمية وإخطاراً للحكومة ، ولم يبق من معداتها شيء غير الطبع والتوزيع . .

* * *

وكنت اتردد بين اسمين : اسم البيرق واسم رجع الصدى ، ولا احسبني يومئذ قصدت الفرق بين الاسمين وعنيت ما فيه من الدلالة على الصحيفة التي تقود الآراء ويلتف بها الشعراء كما يلتفون بالبيرق ، أو عنيت ما فيه من الدلالة على الصحيفة التي تردد اصداء الآراء ولا تزيد على عرض الحوادث والانباء . .

لا أحسبني قصدت الى هذه التفرقة ، ولكنني انتهيت على غير قصد مني الى تفضيل اسم « رجع الصدى » على اسم « البيرق » . . . وكتبت العنوان بخطي ليخرجه الحفار كما كتبته ، بدعة من بدع التجديد في العناوين ! . .

ولست أنسى نظرة الكتبي العتيق الي من تحت نظارته الملحومة في موضعين او ثلاثة ! . .

ماذا؟ تترك خدمة « الميري » وتشتغل بالغزازيط والجرانيل ؟ ان كنت لا تدرك ما انت مقدم عليه فانتظر هنيهة لترى مائة من هؤلاء « الصائعين » الضائعين يتمنون التراب تحت قدميك في وظيفتك ولا يصلون اليه . . لا يا صاحبي لا . . . انني اراك أعقل من هذا يا بني . . فلا تخيب املي فيك . . !

ولم يقنعني كلامه لأنني لم اسمع منه جديدا عن خدمة « الميري » وقداستها في عرف أبناء جيله ، ولم يزحزحني تحذيره قيد شعرة عن نية المضي في الاستعداد والتنفيذ . .

وانما زحزحني عن هذه النية قيد فرسخ ـ لا قيد شعرة وحسب ـ منظر أو منظران من المناظر التي كانت تتكرر في كل حلقة صحفية ولا يستغربها أحد من المتفرجين لانها من ادوات المهنة المتفق عليها ومن أدوارها التي تعاد في كل قصة ، فلا يجهلها الا الذين يجهلون الصحف والصحفيين أو الجرناجية وجماعة الغزازيط وتجار التجريس والتنبيط !

كانت بجوار المكتبة مطبعة صغيرة تطبع فيها الصحف الاسبوعية وكان « مدير » احدى الصحف يرجو صاحب المطبعة أن يعجل باصدار العدد ويأبى صاحب المطبعة أن يخرج العدد ، ما لم يحصل على أجرته وأجرة العدد السابق الذي صدر قبل أسابيع ، ووقف المدير ينتظر وكيلا له أرسله الى المشتركين للتحصيل وعاد الوكيل على صورة يقصر عنها أمل المتسول الذي يريد أن يبالغ في اثبات صناعة التسول واستدرار شفقة المحسنين ، والمسيئين !. .

فصاح به المدير : ما وراءك ؟. .

فأخرج له الوكيل ايصالا معادا من احد المشتركين ، وقال ان الاشتراك مسدد قبل الآن . .

فسأله المدير : واين الايصال الآخر ؟

قال الوكيل : ان الرجل قطعه ورماه في خلقتي !..

فهمّ المدير بضربه وهو يقول مختنقا من الغيظ : رماه في خلقتك ؟ مستحيل .. ان فضيحة بيته معروفة يخشى من الاشارة اليها بكلمة ، فلا تقل انه قطع الايصال ورماه في خلقتك الشريفة ، بل قل انك سكرت بالاشتراك كعادتك وجئتنا برائحة الخمر تفوح من فيك ..

وكان هذا أول الادوار التقليدية المحفوظة ولم يكن آخرها ولا أقبحها ، وفي واحد منها الكفاية للعدول على الأقل عن الخطوة الاولى ، وقد عدلت عنها الى الآن .

ولكن .. لم أحتقر الصحافة

ان هذه المناظر المخجلة حقرت في نظري طائفة من المتطفلين على الصحافة ، ولكنها لم تحقر صناعة الصحافة ، ولا نزلت بأعلامها النابهين الى منزلة أولئك المتطفلين ، ولست اعتقد انني كنت مستطيعاً ان احتقر هذه الصناعة من أجل ذلك المنظر المخجل ، ولو كنت من المستخفين بها والزاهدين فيها .. لأن قوة الدعوة القامية في تلك الفترة قد بلغت في القاهرة مبلغاً لا يدانيه ما بلغته في عاصمة من عواصم المشرق والمغرب ، ولا أخالها تبلغه اليوم على عظم الفارق بين صحافة اليوم وصحافة مصر والشرق قبل خمسين سنة ..

كانت القاهرة مركزاً لكل دعوة تهتم بها دول العالم ذوات المطامع في الشرقين الادنى والاقصى ، ومركزا لكل دعوة يديرها دعاة الجامعة الاسلامية ودعاة الوحدة العربية ودعاة تركيا الفتاة ودعاة الاصلاح في ايران وأوسط آسيا ، ودعاة الحركات الوطنية في مصر نفسها وفي سائر الاقطار الافريقية من شمالها في بلاد المغرب الى جنوبها في بلاد السواحل وزنجبار .

وكانت قوة هذه الدعوة تخيف الملوك والساسة على عروشهم وعلى أرواحهم

وأبدانهم ولا تمهلهم أن يتجاهلوها أو يغفلوا طرفة عين عن أخطارها وعواقبها ، وقد حدث أن حركة في القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد في الآستانة ، وان رجلا شهرته دعوة القلم واللسان ذهب الى ايران لاتمام هذه الدعوة فطرده الشاه وأهانه اثنان من وزرائه فقتل الثلاثة جميعاً وقال قاتلوهم انهم قضوا عليهم بالحق انتقاما لذلك الداعية الطريد : جمال الدين . .

كانت هذه الحقيقة من وقائع الحال الغنية عن المقال ، ومن طرائفها المروية ان السلطان عبد الحميد كان ينام في يلدز وعيناه في شارع محمد علي بالقاهرة ، واتفق يوما أن المويلحي الكبير[1] ـ صاحب مصباح الشرق ـ دخل مكتب « المؤيد » ووجد فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه ، فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه الى سقف الحجرة : قادر أنت يارب أن تسقط هذا السقف على من تحته فيستريح عبد الحميد !.. قال محمد عبده ، وكان من زوار الحجرة : نعم .. لو تقدمت أنت خطوتين !

وتلك نادرة من نوادر الفكاهة التي تخلقها الحقيقة الواقعة ، وما يكون لها أن تخلقها لو كانت محض مزاح ..!

تهيأت القاهرة لاجتماع هذه القوة فيها لامتيازها بين عواصم الشرق بمركزها التاريخي ومركزها الحديث ، ولم تتهيأ لها مدينة أخرى على مثالها من الاستانة عاصمة الخلافة الى ما دونها من عواصم الولايات والحكومات ، ولم تكن القاهرة عاصمة الدعوة الكبرى مصادفة ولا لعلة من العلل العارضة ..

فالاستانة هي عاصمة الخلافة ، ومركزها بهذه الصفة أهم المراكز في العالم الاسلامي وعالم السياسة الشرقية على إجماله ... ولكن قيام الدعوات

---

(١) يقصد ابراهيم المويلحي صاحب صحيفة « مصباح الشرق ».

القلمية ، أو اللسانية فيها أمر لا يخطر على بال الدعاة لشدة الحجر فيها على الاقلام والالسنة ، وحظر الاجتماع فيها وتأليف الجماعات للمقاصد السياسية . .

وعواصم الشرق الادنى مهمة بشهرتها وموقعها ، ولكنها لم تكن قط مركزا يتلقى منه العالم الشرقي دعوة عامة على نطاق واسع ، وحكمها حكم الآستانة في حرية الدعوة والاجتماع . .

اما القاهرة فقد كانت ، منذ بنيت في أيام الفاطميين ، مركز داعي الدعاة ، استاذ الاساتذة في فنون الدعوة بالقول والاشارة ، أي بالخطب والرسائل والرموز السرية والموالد والزفات !..

ثم أصبحت مركز الاعلان الاقتصادي والسياسي في الحقبة التي اشتدت فيها المنافسة بين أصحاب التجارة من طريق البحر الاحمر واصحاب التجارة من طريق رأس الرجاء . .

ثم جعلها الخديو اسماعيل قطعة من أوربا بمحاكمها المختلطة ، وامتيازاتها الاجنبية ، واشتباك المصالح المتعارضة فيها بين الدول ، وتلاطم التيارات حولها من داخل البلاد العثمانية في شؤون الحكم او شؤون الثقافة . .

ثم انطلقت فيها حرية الصحافة وحرية الاجتماع ، فتمت فيها معدات الدعوة ، وترادف عندها نمط الدعوة القديم ونمط الدعوة الحديث . . .

تاريخ الشرق مرتبط بصحافته . .

وفيما تقدم من العوامل والمهيئات كفاية . .

ولكننا نحسب انها لم تكن لتفعل فعلها بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لو لم تكن الدعوة في هذه الفترة مطلوبة من كل صوب ،

ولو لم تكن بلاد الشرق متعطشة الاسماع الى كل صوت ينادي بكلمة الأمل ، أو كلمة النصيحة والتحذير . .

ولا ننسى سحر « الكلمة المطبوعة » في جدتها قبل ان تبتذلها كثرة التداول ، وتدخلها الالفة في عداد اليوميات الرتيبة التي تنتظر في أوقاتها ولا تحتاج الى لهفة في الانتظار . .

وان تعجب لسر من أسرار تلك الدعوة في نفاذها ، وبعد مداها ، فاعجب للبون الشاسع بين ضخامة أثرها وضآلة وسائلها ، وانظر الى البون الشاسع مثلا في صحيفة كصحيفة « العروة الوثقى » أو « أبو نضارة » أو « الطائف » أو « الاستاذ » .

وريقة ذات مقال وبضعة أخبار من قبيل الاخبار البوليسية او البرقيات المقتضبة ، وتحاول ان تتبع أثرها الى أقصى مداه فلا تستقصيه ، لانك قد تسمع صداه في تخوم الصين وعلى متون الرمال في جوف الصحراء . .

ولا محل للمقارنة من الوجهة الفنية بين تلك الصحافة وصحافتنا اليوم ، ولكن لا محل كذلك للمقارنة بين دعوة يطلبها الناس ويتشوقون اليها ودعوة تطلبهم وتحتال عليهم بأفانين الترغيب والتقريب .

منظر الحساب بين مدير الصحيفة الاسبوعية ووكيلها قد يصح أن يثنيني عن طبع العدد الاول من صحيفتي المطوية وأن يضعف أملي في تحصيل تكاليفها بعد عدد أو عددين . .

ولكن هل تراه يذهلني عن هذه القوة الهائلة وأنا أحسها من حولي كالدوامة المدوية في لجة البحر الموار بالأمواج والرياح ؟ . .

ان الف دجال باسم الطرق الصوفية لا يمسحون من الضمائر قداسة الدين ، وان ألف دجال باسم الصحافة لا يمسحون قداسة « الكلمة » الحية بين

أناس يحتاجون الى الكلمة حاجتهم الى العمل في ساعة اليقظة من سباتهم الطويل .

ان الصحف التي تستغل مخاوف الملوك وفضائح الدول لا تستطيع ان تملأ الجو من أعلاه الى أدناه ، ولا أن تستوعبه بجميع زواياه . .

فاذا وجدت هذه الصحف ، فهي الشفاعة المقبولة أو غير المقبولة لوجود طبقات في الجو الصحفي الى جانبها ، تنزل من الملك الى الوزير ومن الوزير الى الرئيس الصغير ومن الرؤساء الى عمد القرى ومشايخ الحارات ، ومن هؤلاء الى ما دون ذلك في طبقات ذلك الجو الفسيح . .

وليقل العائب العاتب ما شاء ، فإنه لن يستطيع أن يقول في النهاية شيئا عن تاريخ الشرق الحديث دون أن يقول معه شيئا عن الدعوة القلمية وعن الصحافة والصحفيين . .

صحيفة الدستور

كانت صحيفة « الدستور » التي أصدرها الاستاذ « محمد فريد وجدي » منذ نصف قرن أول صحيفة يومية عملت في تحريرها . .

ولا أقول انه كان « عمل ضرورة »

ولا اقول كذلك انه كان عمل اختيار

ولكنه كان ضرورة مختارة بين ضرورات ، اذا صح هذا التعبير ، وأبادر فأقول إنه صحيح غاية الصحة ، لأننا في أعمالنا التي نعدها من معالم حياتنا لا نستطيع ان نقول عن عمل واحد انه كله اختيار ، أو انه كله اضطرار . .

وكان في وسعي قبل العمل في تحرير الدستور ان أعمل في تحرير « اللواء » أو في قلم الترجمة باللواء على الاصح . . لأنني علمت انهم يطلبون مترجمين يعرفون الانجليزية او الفرنسية ، بعد تفكيرهم في انشاء « لواءات » غير اللواء

العربي تصدر باسم « الاستاندرد »و« ليتندار » .

التحرير أو الترجمة

وكانت الترجمة الصحفية من أعمال تلك الفترة التي كان امثالي يستطيعونها ، وكانت ظروف التعليم والنشأة « الاسوانية » مما يرشحني لأدائها ، ويجعلني من المفضلين في « امتحاناتها » .

فقد كنا نتعلم دروسنا المهمة باللغة الانجليزية ، ومنها دروس الجغرافيا والمعلومات العامة « أو الاشياء » .

وكانت صحف المدارس المقروءة في انجلترا بين « المطالعات » الاضافية المقررة علينا في السنة الرابعة الابتدائية .

والى هنا نتساوى جميعا في مدارس القطر كله ، ثم يأتي دور النشأة الاسوانية بمزية تنفرد بها مدينة أسوان ولا تشاركها فيها سائر المدن في الوجهين .

كانت المكتبات الافرنجية تفتح في موسم الشتاء لبيع الكتب والمجلات والصحف الاجنبية المحلية ، وكان كبار الزوار لا ينقطعون عن زيارة المدرسة خلال الموسم الذي كان يمتد من ديسمبر الى مارس ، وتتبع زيارتهم احيانا دعوات خاصة نجلس فيها مع ابنائهم وبناتهم ولا نتكلم اثناءها بغير اللغة الاجنبية . .

وتضاف الى ذلك حالتان طارئتان على أسوان ـ في ذلك الحين ـ لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة ، وهما حملة السودان وبناء الخزان . .

ففي اثناء حملة السودان ، كان الحاكم العسكري ومحافظ المدينة وقاضي المحكمة وقادة الفرق الموزعون على المصالح ، طائفة من الانجليز العسكريين او المدنيين لا يعرفون العربية ، وكان كل بيت فيه « ولد من اولاد المدارس »

مرجعا نافعا لقراءة الاوراق الرسمية او ترجمة العرائض الى « الحكام » على حسب الاجتهاد ، وكان « نصف الفرنك » نفحة سخية يحصل عليها « الولد » المترجم الذي يستطيع ان يخط في الورق بضعة سطور تدل على معنى من المعاني مفهوم بالاشارة او بالتخمين . . فأما « الولد » الذي تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد يصعد في معاملته الى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع زيادة القرابة أو الجوار . .

أما بناء الخزان فقد جلب الى المدينة مئات من المهندسين والخبراء والمفتشين يقرأون الصحف الافرنجية طوال العام ، ويدفعنا حب الاستطلاع الى النظر في هذه الصحف وفي صحف السائحين ، فلا يفوتنا - مع تتابع النظر - أن نعرف اقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن البرقيات والاخبار منها ، وان نختطف عبارة هنا وتعليقا هناك فلا يخفى علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة او بالتصحيح بعد التصحيح . .

مع مصطفى كامل . .

فلما علمت أن « اللواء » يطلب مترجمين يعرفون الانجليزية ، خطر لي ان استقيل من وظيفتي وان أرشح نفسي للعمل فيه . .

ولكنني ترددت ، وطال التردد حتى أحجمت ، ثم فضلت ترك هذه « الفرصة » وانتظار فرصة غيرها لسببين :

« أولهما » أنني اذا اقدمت على هجر الوظيفة الحكومية مفضلا عليها الصحافة فليكن ذلك لأكتب لا لأترجم ، فانني ما احببت الصحافة لانها مورد رزق افضل من موارد الوظائف الحكومية ، ولكنني احببتها لانها مجال للكتابة او صناعة القلم بغير وساطة من صناعة النقل أو الترجمة ! . .

والسبب الثاني شخصية مصطفى كامل رحمه الله ، فان محادثتي الاولى له

لـم تشجعني على مزاملته في عمل دائم ، وصورته لي رجلا معتداً بذاته ، ضيق الحظيرة ، لا يسمح حتى للفكاهة أو « للقافية » أن تفتح عليه بابا لتصحح قولة قالها أو رأيا ارتآه . .

كنت اتبرع بالتعليم في المدرسة الاسلامية بأسوان ، وحضر مصطفى كامل متفقدا للمدرسة ومعه الكاتبة الفرنسية مدام « آدم جولييت » وسيدة انجليزية ، وكانت الحصة حصة محفوظات ولغة . . فأملى مصطفى كامل على التلاميذ هذا البيت لأبي العلاء :

والمرء ما لـم تفـد نفعـاً اقامته غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وترجمه للسيدتين بطلاقة وايقـاع ، ثـم طلـب من التـلاميذ ان يشرحـوه ويعلقوا عليه ، فاضطربوا ولم يحسنوا الشرح أو التعليق . . .

والتفت مصطفى كامل إليّ ، والى الاستاذ « محمد شلبي عيد » متسائلا ، فأدركته قائلا ان التلاميذ معذورون . . لانهم في أسوان يعلمون ان الغيم الذي يظلل الرؤوس شيء نافع لا يضربون به المثل لقلة النفع . . فلعله انفع لهم من شعاع الشمس ومن المطر . .

« حسن تخلص » كنت أقدر من « خطيب » مثله ان يتقبله بالاستحسان والارتياح ، ولكنه تجهم وزوى وجهه ، وبدا لي ان الاستدراك عليه ـ ولو من باب الفكاهة ـ أمر كثير على طاقته الفكرية والنفسية ، وأرى الان انها لـم تكن منه فلتة عارضة في زيارة عاجلة ، لان حياة الرجل كلها لا تعرض لنا لمحة واحدة فيها شيء من سماحة الفكاهة او سماحة التوفيق بين الآراء . .

فريد وجدي . . والدستور .

ولم يطل بي الانتظار حتى اعلن الاستاذ فريد وجدي ، عن عزمه على اصدار « الدستور » .

ولم يكن اسم « فريد وجدي » غريبا عني ، ولا عن قراء ذلك الجيل من طلاب الثقافة الاسلامية الفلسفية . . . فقد كانت له كتابات ضافية يرد بها على كتاب الغرب وفلاسفته المنكرين لحقوق المسلمين وفضائل الاسلام ، وكانت له شهرة بالاطلاع على ثقافة الدين وثقافة العصر الحديث ، فلما لقيته وحادثته لم يكن أيسر من الاتفاق معه على العمل في صحيفته ، وخرجت اقول لنفسي ان اكبر خلاف بيني وبين كاتب كهذا لن يعوقني عن العمل معه ، لانني عجبت لحرية فكره ، مع اشتهاره بالتعصب والمحافظة ، بل بالتزمت والحرج في شؤون الدين والدنيا . . فما من فكرة قط كان يرى انها قضية مسلمة ، وأنها لا تقبل المناقشة .

وأظن اليوم أن فرط الثقة بقوة الحجة والقدرة على الاقناع هو الذي كان يسوغ له ان يسمع كل رأي ، ويقبل كل تحد ، ويجيب عن كل سؤال . ودام عملي في صحيفة الدستور من عددها الاول الى عددها الاخير الا أشهرا قليلة فارقتها فيها ثم عدت اليها . . فأكاد اقول ان ما خالفته فيه اثناء هذه المدة اكثر مما وافقته عليه ، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبتها لمخالفة رأيه .

كان شديد الايمان بالجامعة الاسلامية على منهج قريب من مناهج الرسميين ، ولم يكن كغيره من طلاب الكسب والجاه من وراء هذه الدعوة ، بل كان يخسر الكثير في أحرج أوقات الحاجة الى المال . ومن ذلك انه رفض الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة على اعتبار « الدستور » لسان حال للحزب في سياسته العثمانية بعد ان تكفل الحزب بالانفاق على الصحيفة وسداد ديونها ، لان الحزب كان يشترط ان ترفع من عنوان الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الاسلامية » . . ولم تمض أسابيع حتى كان الرجل يبيع كتبه بثمن يضارع ثمن وزنها من الورق ليؤدي مرتبات الموظفين والعمال .

وعلى هذا التشبث بهذه الدعوة كنت أخالفه فيها ، وأرى انها تعمل

لنفسها ، ويعمل لها الزمن اضعاف ما يعمله المنقطعون لها من دعاتها المخلصين وغير المخلصين . . فلم يحاول قط ان يفرض عليَّ رأيا في قضية من قضاياها بغير الاقناع أو السكوت . .

وكانت صحيفة « الدستور » لساناً ثانياً للحزب الوطني بعد اللواء . وكان موقف الحزب الوطني معروفا من سعد زغلول وبخاصة بعد قيام الشيخ جاويش على تحرير اللواء ، ولكنني كنت أؤيد سعداً وأرد على ناقديه في الدستور ، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبته في هذا الموضوع . .

وكان من غلواء الاستاذ وجدي في محاربة الاختلاط الجنسي أنه كان يشجع الهواة على انشاء فرق تمثيلية يتم فيها التمثيل بغير ظهور النساء على المسرح ، وهذه حذلقة تغري بالسخرية حتى في تلك الآونة . . ولم يكن الرجل على جهل بتاريخ التمثيل في الغرب الحديث أو القديم ، فكان إذا لمح مني بادرة من بوادر السخر الخفية لم يزد في حدته على أن يقول : « لقد أجازها شكسبيركم لضرورة من ضروراته . . فهل وقفت ضرورات الدنيا كلها عند شكسبير » !

الغاصبون !

واعتقد أن اختيار اسم الصحيفة وحده كان ميزاناً لنزاهة هذا الرجل ولحريته الفكرية والدستورية ، يغني عن كثير من الموازين . .

وماذا في « اسم » على رأي شكسبير أيضا ؟ . .

فيه كثير وكثير ، ولا سيما في العصر الذي سميت فيه الصحيفة باسم الدستور . .

كان اسم « الدستور » يغضب قصر « يلدز » ويغضب قصر عابدين ، ويغضب « قصر الدوبارة » . .

وكان الحزب الوطني يطلب الدستور ولكنه يتحرج من الدعوة العامة اليه ، لأنه ينكر مقاصد المطالبين به من رعايا الدولة العثمانية ، ويشفق من غضب السلطان عبد الحميد . ويراجع القارىء اليوم صحيفة « اللواء » فيرى انها كتبت عن المطالبين بالدستور في تركيا ، قبل إعلانه هناك بيوم واحد ، فقالت انهم قوم يسبحون في الخيال . .

وكان الخديو يحرض على طلب الدستور سرا كلما أراد بالتحريض عليه احراج الانجليز والحد من سلطة المندوب البريطاني والمستشارين ، ولكنه كان يرفض الإصغاء الى هذا الطلب كلما ثاب الى شيء من الوفاق بينه وبين المحتلين . . ولهذا كان حزب القصر يسمي نفسه « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » . . ولا يخفى الفارق بين الدستور واصلاح الدواوين على مبادىء الدستور !

وكان حزب « الأمة » كما يدل عليه اسمه يعارض الحكم المطلق للعرش في مصر وللعرش في عاصمة الدولة العثمانية ، وكان ينادي بالاستقلال التام فيهدده المؤيد بحكم القانون لأن السيادة العثمانية مقررة فيه ، ولكن حزب الأمة على مناداته بحصر الحقوق كلها في الأمة لم يخل من أقطاب مخلصين كانوا يحسبون الطفرة في الحكم النيابي خطرا حقيقا بالحذر والاجتناب . .

فاذا ظهر من بين هذه الصفوف رجل لا سند له من أصحاب العروش ، ولا من جمهرة الأحزاب ، فاختار كلمة « الدستور » دون غيرها اسما لصحيفته الوليدة فهو اسم يدل على كثير ، وإن غضب صاحبنا شكسبير ! . .

صحافة المتطوعين :

في هذه الصحيفة بدأت عملي الأول ، فماذا كان عملي الأول هذا ؟ أو بماذا نسميه في « تقاسيم » الصحافة الأخيرة ؟

لا يوجد له اسم واحد ، وقد يحيط به على الجملة انني كنت نصف هيئة التحرير برمتها ، إذ لم يكن في قلم التحرير غير كاتبين اثنين ، احدهما أنا والآخر صاحب الصحيفة !

ولا نبخس في هذا المقام فضل « التطوع » في تحرير صحيفة الدستور ، ولا في تحرير غيرها من صحف تلك الفترة . . فقد كان قوام المقالات الصحفية من « تحرير المنازل » وكانت اشهر الفصول على الاطلاق في ذلك العهد فصولا كتبها المحررون المتطوعون ، وكل حامل قلم في البلد محرر متطوع ما عدا الجالسين على مكاتبهم في دور الصحف المحدودة ، وهم معدودون على الأصابع .

ولقد كانت نصيب « الدستور » من التطوع أوفى نصيب إذ كان فيها « محرر متطوع » دائم يكاد ينهض بعمل الترجمة الفرنسية وحده ، ويكتب الى جانبها التعليقات وحواشي الأخبار والمتفرقات . .

كان الاستاذ « احمد وجدي » شقيق الاستاذ فريد صاحب الصحيفة هو ذلك المحرر المتطوع الدائم ، وكان رحمه الله شابا ألمعيَّ الذكاء كريم الخلق مستقيم الذهن مجتهدا في كل عمل تولاه ، وقد تولى عملا قليلا في الصحافة ثم تولى عمله في المحاماة أمام محكمتي الزقازيق والمنصورة ، فاشتهر في الاقليمين أيما شهرة ، وقامت شهرته على الذمة والعفة كما قامت على البراعة والبلاغة ، ولو امهلته المنية بضع سنوات لما عرفت مصر اسما اشهر من اسمه في عالم المحاماة .

وكان زملاء « الاستاذ احمد وجدي » يتطوعون معه بالكتابة والترجمة من حين الى حين ، ولكنهم اضربوا جميعا ـ أو كادوا ـ بعد الخلاف الذي حدث بين فريد وجدي ومصطفى كامل . . وكان فحوى هذا الخلاف ان صاحب الدستور اعترض في مجلس ادارة الحزب على اختصاص وزارة الخارجية البريطانية بالاحتجاج على الاحتلال ، وقال ان هذا الاختصاص ربما اعطاها الصفة

« الاستثنائية » التي تدعيها في مصر ، ولا ضرر من تعميم الاحتجاج على صيغة من الصيغ اذا كانت الصيغة المكتوبة لا تسمح بتوجيهها الى اكثر من دولة واحدة ، فاعرض مصطفى كامل عن اقتراحه واعرض معه اكثر الأعضاء ، وكتب فريد وجدي خلاصة المناقشة في الدستور فحسبه المؤيدون الآليون منشقا على الحزب وقاطعوه ، ومنهم بعض أولئك الطلبة « النجباء » الذين كانوا يتطوعون للكتابة في صحيفة الحزب الثانية !

الا اننا ـ نحن هيئة التحرير ـ المؤلفة من صاحب الصحيفة ومني ، كنا نعمل في التحرير والترجمةوالتصحيح وتهذيب الرسائل والأخبار . . وكان الاستاذ وجدي قليلا ما يبرح داره ، فكنت أنوب عنه في أعمال الصحيفة الخارجية ، ومنها الحصول على الأخبار وعلى الأحاديث ، وبينها اول حديث للوزراء المصريين . .

والأخبار لم يكن خطبها في ذلك العهد بالامر العسير . . كان لها مكتب بديوان الداخلية ترسل اليه النشرات من جميع الدواوين ، ومعظمها عن التعيينات والتنقلات وصرف الأموال في المشروعات العامة . . ولم تكن هناك حاجة بالمخبرين الى استطلاع النيات والتقاط الاسرار ، فان السياسة الكبرى كان في علم المندوب البريطاني ومستشاريه ومفتشيه ، وليس لأحد من الصحفيين صلة بهؤلاء غير اصحاب « المقطم » وبعضهم وكلاء الصحف الأوربية ، وصلاتهم جميعا لا تفيدهمْ شيئا من أسرار السياسة العليا ، ولا تطلعهم على خبر من أخبار الميزانية قبل أوانه . .

فالمخبر البارع ، والمخبر العاجز ، في النهاية على حد سواء . . الا أن طائفة من المخبرين كانت تساوم « الادارة » على تكاليف المهنة وتوهم وكلاء الحسابات فيها انها تحصل على أخبار النقل والتعيين والاعتمادات المالية من قصاصات « المسودات » في سلال المكاتب المهملة ، وظلت هذه الحيلة تروج

عند بعض الصحف الى ما بعد ايام الثورة في أعقاب الحرب العالمية ، ورأيت بعيني واحدا من هؤلاء المخبرين يبسط هذه القصاصات ويجمع متفرقاتها ويلصقها ليزعم بعد ذلك انه قد جاء بالخبر المضنون به على غير المجتهد الأريب .

***

كنت اذهب الى مكتب الأخبار الصحفية بديوان الوزارة فأرى هناك على التناوب عشرين أو ثلاثين صحفيا من مندوبي الصحف العربية . .

وليس من هؤلاء جميعا واحد فرد يذكر اليوم أو يعرفه السامعون اذا ذكر ، ولكن القارىء قد يعجب لاختلاف مقاييس النظر والتقدير اذا علم انني كنت في نظرهم جميعا فضوليا متطفلا على الصناعة ، وسمعت احدهم يتكلم عن عمر منصور مندوب المؤيد ، وعبد المؤمن الحكيم مندوب الأهرام ، وسامي قصيري مندوب المقطم ، وجورج طنوس مندوب الوطن . . فاذا هو يشيعني بالاشارة الساخرة ، وهو يسب الزمن لأنه قضى عليه بالعمل في الصحافة مع أمثالي :

« يحرق دين ها « البريس » press . . ما عاد غير ها الزعران يسود ورقاتها . . » .

الفصل الثالث

الصّحافة قبل خمسين سنة



قبل خمسين سنة

بعد شهرين من العمل في داخل الصحافة المصرية ، أمكنني أن ألخص حياتها عند أوائل القرن العشرين في كلمة واحدة :

تلفيق ! . .

فلولا ضرورة قضت بوجود الصحافة يومئذ على صورة من الصور لكان من أعجب العجائب حقا أن توجد صحيفة واحدة ، وأن تعيش - إذا وجدت - أكثر من بضعة شهور .

كانت موارد الصحف كلها من الاشتراكات ، وثمن النسخ الموزعة ، وأجور الاعلانات . . وكانت هذه الموارد لا تكفي كل الكفاية للانفاق على الصحيفة الى أمد طويل ، ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من عقباتها وموانعها ولا من جرائر الخلل الدائم في وسائلها ومواعيدها .

فلم يكن للصحيفة ، المنتظمة ، بد من مورد آخر غير الاشتراكات وغير البيع وغير الاعلانات ، وهو كذلك مورد مضطرب معرض بطبيعته للفوضى وتبدل الأحوال ، ونعني به مورد « الاعانات » السرية من أصحاب الدعايات ، ومعظمها دعايات تصدر من قصور الملوك والأمراء أو من دواوين وزارات الخارجية والسفارات .

فالاشتراكات الصحفية ـ قبل خمسين سنة ـ كانت من الموارد الثابتة المنتظمة ، بالقياس الى موارد الصحف في العصر الحاضر ، لأن الصحف في

العصر الحاضر تعتمد على البيع في الأقاليم ولا تعول كثيرا على الاشتراكات ، ولم تكن وسائل البيع في الاقاليم ميسورة للصحف اليومية ، فضلا عن الاسبوعية أو الشهرية الى زمن قريب . .

وكانت الاشتراكات خليقة ان تمد الصحف بمورد نافع لو خلت من موانعها وعثراتها ، ولكنها كانت في الواقع مولودة بموانعها وعثراتها ، إن صح هذا التعبير . .

كان أعيان الريف يحبون أن يشتركوا في الصحف اليومية لأنها مظهر من مظاهر الوجاهة و « الأهمية » في القرية او البلدة الصغيرة . . ولم يكن بالقليل بين مظاهر الوجاهة اليومية ان يحضر ساعي البريد الى الدار يوميا ليدق الباب على مسمع من الجيران وينادي بصوت يشبه صوت المنادي باسم « المحكمة » في ساحة القضاء .

« بوسطة » ! . .

فاذا بالحيّ كله يترقب « سماعا » جديدا بعد هذا النداء ، يحيط بأنباء الأرض والسماء ، ويتحدث عن المسكوف و « الانجلاطيرا » وملك « الفرنسا » أو الجمهور كما كانوا يسمعون عنه منذ أيام حملة نابليون ، ويتخللها بالاسطورة الطريفة التي تسمى بالترنسفال . . وبينها وبين السودان في الجنوب ألوف الأميال ، ويا له من « واقع » وراء الخيال !

ولم يكن الوجيه الريفي يبخل بثمن هذا المظهر ، أو ما يماطل الصحفية بقيمة الاشتراك حبا للمطال . . ولكنه يجود به عن طيب خاطر لو وجد أمامه من يقبضه منه لحساب الصحيفة ، وأين هذا الذي يقبضه لحساب الصحيفة ويؤديه بالأمانة والوفاء ؟ . .

لقد كانت الصحف تنشر ، بين آونة وأخرى ، خبرا مكررا عن الوكيل « فلان » الذي ألغى توكيله وأصبح غير معتمد في تحصيل الاشتراكات . . وكانت هذه

الصحف تنشر قبل ذلك اعلانا موجها الى وكيلها في هذا الأقليم أو ذاك تنبهه الى موعد السداد وتلوح له بالتهديد والانذار . وقد ينفع التهديد مرة ولا ينفع مرات ، ولكنه يعاد ثم يعاد ، ويتجدد مع الوكيل الجديد تارة ومع الوكيل القديم تارات ، ولا تستغني الصحيفة عن مراجعة الوكيل القديم لقلة الوكلاء المتخصصين لهذه الصناعة أو المدربين عليها في معاملة الصحف والمشتركين والموظفين وأفراد « الجمهور الصحفي » على التعميم . .

« حق » الصحيفة :

وكانت للوكيل فنون في معاملة الموظفين واغرائهم بالثناء أو تهديدهم بالتشهير والانتقاد . . ولا غنى له عن هذه الفنون لأنه كان يستعين على الدوام بالموظف الكبير والموظف الصغير في تحصيل « حق » الصحيفة و« حقه » هو في سوقه السوداء . . من وراء الستار . .

ولا مناص من الوكيل لتحصيل الاشتراكات . .

ولا حيلة في قبول الوكيل على علاته ، لأن معاملات الصحف لم تكن في ذلك العهد قد ثبتت ذلك الثبات الذي يسمح « بتكوين » طائفة من الأعوان المدربين ينقطعون لها ويثابرون عليها ، فاذا نجح من الوكلاء واحد من عشرات فانما ينجح بعد ابتلاء الصحيفة بخسائر هؤلاء العشرات ، على دفعات !

ولنذكر أن الوكيل ـ على عيبه هذا ـ لا يستطيع أن يعمل في بلاد يجهلها ولا يقيم بين ظهرانيها . . فلا بد له من موطن في أقليم يعرفه ، ولا يتسع هذا الاقليم المحدود لأكثر من مائتي مشترك على أكبر تقدير . .

وكم يصل من هذا المحصول الى خزانة الصحيفة بعد المطال والعمولة والسوق السوداء . .

قليل . . جد قليل !

وكل صحيفة احتاجت الى هذا القليل ، فقد كان عليها ان تقبل وسائله وتتجرع غصصه ، وتغضي عما تعلمه من عيوبه ومحظوراته . .

عدة الشغل :

ومنها ـ بل في مقدمتها ـ أن تنشر الصحيفة كل ما يصل اليها من رسائل الوكيل أو من مدائحه وأهاجيه في الواقع ، لأنها « عدة الشغل » التي يعمل بها ، ولا عمل له بغيرها ، بين الأعيان والموظفين . . فمن تصدى لتحصيل الاشتراكات ـ وتحصيل غيرها في السوق السوداء ـ فلا أمل له في محصول ينفعه وينفع الصحيفة بغير تخويف وإغراء ، ولا ضير بالتخويف والاغراء في سبيل الخدمة العامة والمصلحة القومية . . ولكنه الضير كل الضير على الوكيل « الأريب » الذي يستطيع ان يجمع المئات من لذعة هنا وأكذوبة هناك ثم يتركها ليقنع بالعشرات وما دون العشرات .

وأحسب ـ بعد هذا كله ـ أن التفاؤل فريضة على الناس يضطرهم اليها الصدق الواقع إن لم يضطرهم اليها شعورهم بالحاجة الى الأمل والعزاء . .

إن الأمور لا تقاس بأسوأ الظروف في جميع الأوقات ، فكثيرا ما تتمخض الظروف السيئة عن حسنات لم تكن في الحسبان . ولقد رأينا في ذلك العهد أناسا عملوا في وكالة الصحف يدينون أنفسهم بنزاهة القاضي وأمانة الطبيب ، ويشتغلون بهذه الصناعة لأنها « هواية » تملأ الفراغ بالرحلات والمقابلات في غير عنت ولا اضطرار ، ولكنهم شذوذ القاعدة الذي يبعث فينا التفاؤل كلما أطبقت علينا ظلمات الشؤم والقنوط . .

أما القاعدة المطردة يومئذ . فقد كانت صفحة من صفحات الصحافة الحالكة في تطورها الأخير . . وكانت « تصنيفة » الوكلاء الصحفيين في القرن العشرين تدل على المورد الذي تتسرب منه اشتراكات الأقاليم ، فهي « تصنيفة »

يتلاقى فيها الكاتب العمومي المتجول ، وقارىء الأعراس والمآتم ، ومأذون الشرع المفصول ، وصاحب الصناعات التي لا تحصى .. لأنه « متشرد » عام يشتغل بجميع الصناعات !

التوزيع :

أما التوزيع بأيدي الباعة فقد كان موردا للصحف اليومية أهم من مورد الاشتراكات وأيسر منه في متاعب التحصيل ، ولكنه لو اجتمع برمته من جميع الصحف الكبرى التي كانت تصدر في القاهرة قبل خمسين سنة ، لما كان فيه الكفاية لاصدار صحيفة يومية واحدة في هذه الأيام .

وكان أربعة اخماس النسخ المعدة للبيع توزع في القاهرة وضواحيها .. ولولا ان الاسكندرية كانت مستعدة بموزعيها المشتغلين ببيع الصحف الاجنبية لما تأتى تدبير مسألة التوزيع فيها ..

ومن المناظر المألوفة اليوم في عواصم القطر ان يرى المارة للصحيفة اليومية أربع سيارات أو خمسا تتسع الواحدة منها لحمل عشرات الألوف من النسخ وتتولى نقلها يوميا على خطوط الاسكندرية أو بور سعيد أو الأقاليم الوسطى في الوجه البحري أو اقاليم الصعيد ...

فقبل خمسين سنة لم تكن في القطر المصري سيارة واحدة من هذا القبيل ، ولو وجدت فيه سيارة واحدة لفرغت من عملها في حمل صحف القاهرة جميعا بعد نصف ساعة ..

المعلم عكريشة

وكان المعلم عكريشة يجلس الى ناحية المكتب وفي يده الجوزة التي لا تفارقه ، وأذناه الى الكاتب الذي يسأل « أولا فأول » عن عدد الوارد من كل صحيفة ، الى أن يتم الوارد من جميع الصحف اليومية .. ثم تبدأ عملية التفريق

على المساعدين من المتعهدين ، فأنصاف المتعهدين ، فالباعة المتفرقين . .

ولا يكلفك الأمر اكثر من جولة سريعة بالنظر في هذه الزاوية الضيقة لتحصر كل ما صدر من صحف مصر الكبرى في ذلك النهار : المؤيد ، واللواء ، والأهرام ، والمقطم ، والوطن ، ومصر ، والظاهر ؛ والراوي ، والجوائب المصرية ، والمحروسة ، في بعض الاحايين . .

وكانت هذه الصحف تصدر معا في وقت واحد بين الساعة الثانية والساعة الثالثة في المساء ، ويحملها عمال عكريشة أو عمال الصحف من مطابعها إلى الزاوية المعروفة ، فلا تلبث « عملية » النقل والصف والتفريق أكثر من ساعة واحدة بنصف حمولتها . .

وما كانت صحف القاهرة الكبرى تحتاج الى مكان للتوزيع أوسع من « زاوية عكريشة » على جانب من رصيف المحكمة المختلطة بجوار العتبة الخضراء . .

ولم تكن « زاوية عكريشة » هذه مكتبا ولا شبه مكتب ، ولكنها كانت منضدة من مناضد الكتبة العموميين على ذلك الرصيف . . وكان المعلم « عكريشة » متعهد بيع الصحف جميعا يستعيرها في مبدأ الأمر من كاتبها الذي كان يستغني عنها بعد الظهر - أي بعد الفراغ من كتابة العرائض للمحكمة وكتابة الرسائل لصندوق البريد - ثم بدا له أن يشتريها وكاتبها جملة واحدة ، لاتساع دائرة العمل وزيادة الاقبال على الصحف اليومية بعد قيام الأحزاب السياسية ، على أثر قضية دنشواي . .

ثم يخلو الرصيف الا من المعلم عكريشة وكاتبه ومنضدته وقلمه الذي يحمله وراء أذنه ، الى أن يودعه مكانه في الدواة النحاسية الصفراء . . ومتى خلا الرصيف هناك لم يبق مكان في القاهرة خلوا من صبي من صبيان المعلم الكبير ، تكاد تحسبهم أسرع من الترام لأنهم يصلون حيث لا يصل الترام ، وتكاد تختلط

اصواتهم بأصوات بائعي الخضر والفاكهة ، ومنها النداء على « الوطن ومصر العال ! » .

وليس أمامي احصاء دقيق لتوزيع الصحف في تلك الايام ، ولكنه على الحد الأقصى لا يزيد على خمسة آلاف للصحيفة الواحدة ، لأنه الحد الأقصى الذي تبلغه طاقة المكنات الطباعية ، قبل وصول مكنات البخار والكهرباء ! . .

الاعلانات :

ولا نعرف اليوم صحيفة تستطيع ان تسقط الاعلانات من حسابها ثم تطمع في البقاء واستيفاء أبواب الاخبار والتعليقات ، ولكن صحافة الأمس كانت تستطيع بلا تردد ان تسقط اعلاناتها من عددها الأول ثم لا تفقد شيئا يعوقها أسبوعا عن الصدور . .

وكانت التقاليد الموروثة ـ والأمية معا ـ عائقين طبيعيين لظهور « الاعلان » الصحفي الى سنوات قليلة مضت . . لعلها هي السنوات التي ظهرت فيها أول شركة للاعلان الصحفي في هذه البلاد . .

كان من التقاليد الموروثة ان يشتري الانسان لوازمه « المهمة » من حيث اشتراها أبوه وجده .

وكان الريفي ينزل القاهرة لشراء لوازم الفرح ، أو لوازم البناء والأثاث ، فيذهب الى أمكنة معروفة بأسمائها لا تتغير من جيل الى جيل ، وكلهم يعرف عناوين مدكور والماوردي والجمال والحمصاني ومخازن الحدائد والأخشاب في ناحية القلعة وسوق السلاح ، ولا نظن ان متجرا من متاجر القاهرة المشهورة نشر إعلاناً واحداً ليكسب به « زبونا » لم يكن يعرفه قبل ذلك الاعلان . .

أما المتاجر الصغيرة التي تباع فيها لوازم البيوت اليومية ، فقد كانت

معروفة في أحيائها وقراها بغير حاجة الى اعلان مكتوب . . .

لهذا بقيت اعلانات الصحف سنوات عدة وهي مقصورة على اعلانات البيوع القضائية واعلانات الوفيات أو اعلانات « ختمي فقد مني وليست علي ديون ولم أوقع على سندات أو كمبيالات . . »

واعلانات « الاختام » وحدها عنوان صادق لنصيب الصحف من قراء الاعلانات . . لأنها عنوان للأمية التي تعجز عن كتابة الاسماء . ومع هذه الأمية ، لا اعلان ، ولا قراء للاعلان !. .

الاعلانات السرية :

ونحن الان نكتب ونقدر ونتذكر ولا نرجع الى الصحف التي عاشت في مصر وانطوت بعد حين . . ولكننا لا نجازف اذا قلنا ان مصاريفها كانت على التحقيق اكبر من مواردها التي يدل عليها حساب البيع والاشتراك والاعلان . . ولولا انها اعتمدت في وقت من الأوقات على مورد الاعانات « السرية » لما طال بها الأجل شهورا ، فضلا عن سنوات . .

وقد تعلم مبلغ الحاجة الى هذه الاعانة اذا علمت أن شركات البرق ـ كشركة روتر وهافاس ـ كانت تتلقى إعانة رسمية من الحكومة المصرية ، وأن مطبوعات الدواوين والسفارات كانت تحال ـ علانية ـ الى بعض الصحف لطبعها ، مع وجود المطبعة الأميرية .

ولم تكن مصادر الاعانة مجهولة بين العاملين في الصحافة والسياسة ، وان لم تبلغ من الصراحة في زمن من الأزمان مبلغ الاعتراف المكتوب .

وربما انقسمت هذه المصادر في جملتها الى مصدرين اثنين على شيء من الدوام والانتظام . . وهما القصور الملكية ودواوين السفارات ووزارات الخارجية ، وقصر « يلدز » في الاستانة كان مصدر القسط الأوفر من اعانات

الصحافة والصحفيين المتطوعين . .

وقصر « عابدين » بمصر كان المصدر الآخر الذي ينافسه يوما ويعمل معه يدا بيد في عامة الأيام . .

وكان بخل عباس المشهور يغل يده عن التبرع بالمال من خزانته الخاصة ، فكان يحيل أعوانه من الصحفيين تارة الى ديوان الاوقاف وتارة الى ديوان الرتب والنياشين . .

أسعار الرتب

وكانت للرتب اسعار مقررة من الباشوية الى البيكوية من الدرجة الثالثة .

فكانت رتبة الميرمران الرفيعة تباع بألف جنيه ، ورتبة البيكوية من الدرجة الاولى تباع بثمن يتراوح بين خمسمائة جنيه وسبعمائة جنيه ، وكانت رتبة البيكوية من الدرجة الثانية تباع بأربعمائة جنيه أو ثلثمائة جنيه ، وتقدر أسعار النياشين والأوسمة بمقدار قيمتها من المعدن والجواهر وقيمتها من الاولية في ترتيب التشريفات .

ولقد بيعت رتب كثيرة في القهوات، وبيعت رتب مثلها في مكاتب التحرير والتوكيل . . ولكنها لم تهبط في السوق - على ما نعلم - الى ما دون مكاتب التوكيل في القاهرة والاسكندرية . . ولو ان سمسارا من سماسرتها خانه الحظ أو غلبه الطمع فباع رتبة من هذه الرتب لرجل محكوم عليه في جريمة شائنة ، لبقيت هذه التجارة موردا للصحافة الى ختام عهد الخديويين . .

والوكالة البريطانية وسفارة فرنسا كانتا في هذا المجال ندّين كفأين - أو أكثر من كفأين - لقصور الملوك والامراء ، ولكن الوكالة البريطانية كانت تكافىء خدامها بالمنافع الجزيلة من الوساطات والشفاعات في دواوين الحكومة ، وقد تجود بالمال من مصروفات « الميزانية » ومن مصروفاتها هي اذا اقتضى الحال . .

ولا تقصر السفارة الفرنسية عن زميلتها في بذل هذه الاعانات على اختلافها ، ولكنها كانت تعوض الخدمات الحكومية بالصفقات التجارية ومساعدات المصارف والشركات ، وقل فيها ما لم تكن للفرنسيين مساهمة فيه . .

ومن الوظائف التي كانت تبدو للنظر ـ بريئة ـ من هذه الشبهات وظيفة المدير العام لدار الكتب المصرية التي كانت موقوفة ـ باتفاق العرف ـ على علماء الالمان . ولكن هذه الوظيفة عملت في الدعاية الخفية أحيانا ما لم تعمله وظيفة في السفارات السياسية ، وكان اتصال المدير العام لدار الكتب بزمرة الصحفيين وحملة الاقلام أمرا لا غبار عليه ، لانهم كانوا يقصدون الى دار الكتب للمطالعة والمراجعة والنسخ في جميع الاوقات . وماذا يحول دون الاتفاق على حملة منظمة في الصحف خلال مقابلة او مقابلتين لنسخ هذه الورقة أو استعارة ذلك الكتاب ؟ . .

ونعود الى الدستور

ونعود الى صحيفتنا التي بدأنا فيها عملنا نسأل : كيف عاشت من مواردها الصحفية ؟ وكيف كانت ترجو أن تعيش كما عاشت الصحف في أيامها ؟ . .

نقول اليوم ان ظهورها بوسائلها التي عهدناها ، ولا يخامرنا الشك فيها ، كان عجبا من العجب . وخلاصة ما يقال عنها ان قلة مصروفاتها كانت هي السند الاكبر لبقائها المزعزع في عمرها القصير .

ضاع الامل في الاشتراكات بعد شهر او شهرين ، ولم يكن صاحب الصحيفة ـ على شهرته بالنظريات ـ مجردا من الدراية الحسنة في تنظيم الاعمال ، فاخترع طريقة الاشتراك الشهري بالاذونات مع خصم رسوم البريد من بعض هذه الاذونات ، وأفادت هذه الطريقة قليلا ولكنها كانت ، على أحسنها ، فائدة تأجيل للقضاء المحتوم .

وكسدت سوق البيع بعد الخلاف بين الدستور واللواء ، فقصرت الادارة عدد المطبوع من النسخ على الطلب اليومي ؛ ولم يزل هذا الطلب اليومي يتناقص من أسبوع الى أسبوع . .

ومن لطائف الاستاذ فريد وجدي ـ وكان يمزح أحيانا ولا يقول الا صدقا ـ ان موظف الادارة فاتحه في نقص أجور الاعلان فقال له متململا : ألا تحمد الله لاننا لا نغرم حتى الان اعلانات في الصحف عن ظهور الدستور ؟!

أما الاعلانات السرية فقد كان الدستور خليقا ان يجمع منها الكثير لولا أن الاستاذ فريد وجدي رحمه الله كان يحسب انه يسخر أصحاب الدعايات لرسالته الدينية ولا يفهم أنهم يسخرونه لدعايتهم السياسية . . وقد يصل الامر الى تبرعات الافراد ، فلا يقبل منها الرجل ما يزيد على قيمة الاشتراك المكتوبة على الصحيفة . . وحدث من ذلك أن السيد توفيق البكري أراد أن يعرب للصحيفة عن شكره لموقفها منه أمام الخديو في مسألة « زفة المحمل » وحضور الطرق الصوفية فيها ، فأرسل الى الاستاذ وجدي مبلغا لا أذكره على التحقيق ، ولكنه يزيد على قيمة الاشتراك بكثير . . فأمر صاحبنا كاتب الحسابات أن يكتب للسيد ايصالا بقيمة الاشتراك ، ويعيد اليه بقية مبلغه مع الايصال . .

وماذا تكون النتيجة ؟

تكون على هذا نتيجة مكتوبة قبل المقدمة ، ولولا قلة المصروفات ـ كما أسلفنا ـ لاتصلت النتيجة بالمقدمة في أيام ، أو على الاكثر في أسابيع !

ستة جنيهات

كانت المصروفات القليلة سببا من أسباب بقاء الصحف المصرية في سنواتها الاولى . .

وتظهر قلة المصروفات من تكاليف التحرير في الصحف اليومية الكبرى ،

فقد كان قلم التحرير في أكبر الصحف لا يزيد على خمسة من المحررين والمترجمين والمخبرين وملخصي الاخبار من الأقاليم ، يبدأ مرتبهم من خمسة جنيهات في الشهر ويندر جدا ان يجاوز العشرين . .

وكان قلم التحرير في صحيفة الدستور يشتمل على محرر واحد غير صاحب الصحيفة . .

وهذا المحرر الواحد هو كاتب هذه السطور ، يشترك في التحرير والترجمة وتلخيص الاخبار ، ويتناول في الشهر مرتبا لا يقنع به الان احد يعمل في الصحف من البوابة الى السعاية ونقل الاوراق بين المكاتب ، ودع عنك التحرير والترجمة وجلب الاخبار . .

ذلك المرتب « مبلغ وقدره » ستة جنيهات ، ولم يكن يزيد على مرتبي من وظيفة الحكومة بأكثر من جنيه واحد . . فلم تكن زيادة المرتب احدى المغريات لي على ترك الوظائف الحكومية للاشتغال بالصحافة ، لان المرتبين متقاربان مع الفارق في الضمان والترقية ومستقبل المعاش . .

الا أن القيمة في هذه المرتبات لا تحسب بحساب الأرقام فان الستة ربما ساوت ثلاثين في الوقت الحاضر أو أربت على الثلاثين . .

كانت خمسة مليمات في ذلك الحين تعطيك مائدة افطار حسنة في الصباح ، وقد ترضيك هذه المائدة عند الضرورة في طعام الغداء أو العشاء . .

مليم ثمن نصف رغيف (شقة من الخبز) يساوي وزن الرغيف في منتصف القرن العشرين . .

ومليمان ثمن الفول والزيت .

ومليم ثمن صفحة من السلطة .

ومليم ثمن برتقالة أو يوسفية أو اصبع موز أو أربع بلحات . .

فان أردت التنويع امكنك ان تغير هذه الاصناف بالحلاوة الطحينية أو العسل والطحينة أو الجبن أو البيض ، ومن هذه الاصناف ما يغنيك عن الفاكهة والحلويات !. .

ولك أن تتوسع في طعام الغداء ، فلا تقنع بالاصناف التي تقدم على مائدة الافطار . . ولكنك لا تحتاج الى أكثر من عشرة مليمات للصفحة من الخضر المطبوخة وعشرة مليمات للصفحة من الارز ، وعشرين مليما للصفحة من الخضر وفيها قطعة من لحم البقر أو الضأن .

وقس على ذلك سائر المأكولات . .

دروس التلغراف

وكانت مشكلة السكن يومئذ أيسر من مشكلة الطعام . .

فكنت أنا من سكان الضواحي الخلوية ، لا يكلفني السكن في الشهر أكثر من ثلاثين قرشا لحجرة ذات نوافذ مطلة على الطريق ومروج الخلاء ، ولم يقع اختياري على الضاحية التي سكنتها ـ بجوار حدائق القبة ـ لانني كنت من طلاب الترف وسكان المنازل الخلوية ، ولكنني كنت أتعلم دروس التلغراف بمدرسته في ضاحية الدمرداش ، فاخترت السكن الى جوارها وضمنت أجور المواصلات باشتراكات « مجانية » على حساب مصلحة السكك الحديدية . فلما اشتغلت بالصحافة خسرت أجور المواصلات ، ولم أعوضها بتذاكر الاشتراك في الترام أو قطار كبري الليمون . . اذ كان طلب هذه التذاكر مخالفا لمبدأ صحيفتنا « الحنبلية » . . فعوضتها بخمسة مليمات في الترام ، أو بمشوار على الاقدام ، وقد كنت من الفلاسفة المشائين قبل أن اسمع باسمهم بين الفلاسفة الاقدمين ، وكنت لا أعجز عن مشوار بين أسوان والخزان أو بين اسوان وأبي الريش ،

فلماذا اعجز عن مشوار بين القاهرة وحدائق القبة أو الدمرداش ؟ . .

لا موجب لهـذا العجـز على التحقيق ، وبخاصـة بعـد العلـم بمدرسـة الفلاسفة المشائين ، وبعـد ترشيحي بهذه الصفة للتلمـذة على استـاذ الاساتـذة ومعلم المعلمين : سيدنـا أرسطـو كما كان يقـول استـاذ الجيل « احمـد لطفـي السيد » .

ديوان زهير . . بقرش

هـذه ضرورات المعيشـة المادية ، فما القـول في ضروراتهـا النفسية أو الادبية ؟

لقد كانت أيسر من ذلك فيما أعرفه من شؤوني الخاصة . . ولعلها ايسر من ذلك في شؤون الكثيرين . .

ففيما عدا شهود التمثيل مرة أو مرتين عند عرض الروايات الجديدة لم يكن لي مطلب عزيز غير شراء الكتب العربية والافرنجية .

فهل تراني أعجز عن « قرش صاغ » ثمنا لديوان البهاء زهير ؟ أو عشرة قروش ثمنـا لديوان المتنبـي ؟ أو قرشـين ثمنـا لكتـاب المستطـرف في كل فن مستظرف ، وعلى هامشه ، أو في ذيله ، كتابان آخران ؟ . .

واذا زادت الحسبة الى الجنيهات ، فهل تراني أعجـز عن رحلـة الى دار الكتب المصرية لمراجعة المجلدات أو للنقل منها « عند اللزوم » ؟ . .

أما الكتب الافرنجية فقد كانت لها طبعـات يبـاع فيهـا الكتـاب بشـلن واحد ، وكانت هذه الطبعات تحيط بالنخبة المختارة من كتب المنظوم والمنثور ، وما يصعب الحصول عليه في طبعة منها لانها مخصصة لصنف من الكتب تنتقيه ولا تعنى بغيره ، فليس من الصعب أن تحصل عليه في طبعة مثلها في الثمن وفي جودة الـورق . .

وعلى هذا امكنني في خلال ستة اشهر ان اجمع مائتي كتاب من عيون كتب الادب الغربي في جميع اللغات ، مترجمة الى اللغة الانجليزية . .

بارك الله في مصطلحات السياسة وفوارق الأشكال والعناوين في العلاقات الدولية .

فما زلت من ذلك الحين أؤمن بأنها شيء صحيح ملموس الأثر ، وليست حروفا على الورق ، ولا الفاظا تطير مع الهواء . .

فالبلاد المصرية كانت ـ في الواقع ـ تابعة للدولة البريطانية في سياستها الخارجية وحكومتها الداخلية . .

ولكنها لم تكن كذلك في مصطلحات السياسة ، ولا في اشكال العناوين . .

ولهذا استطعت ان اشتري كتابا يباع في انجلترا بثلاثة جنيهات ولا ابذل فيه اكثر من اربعين قرشا في مكتبات القاهرة ، لانه صادر من مطبعة المانية حصلت على حقوق طبع الكتب وبيعها في كل مكان غير « الاملاك البريطانية » .

ولم تكن مصر قط من الاملاك البريطانية بحكم القانون ، فليس في العرف الدولي ما يمنع المطبعة الالمانية ان ترسل الى مصر جميع مطبوعاتها لتبيع الكتاب منها بمارك واحد ، أو بشلن واحد على وجه التقريب . . فاستغنينا بهذه الطبعة زمنا عن الكتب الانجليزية في طبعاتها الغالية ، وهانت مشكلة الكتاب بعد مشكلة الغذاء .

ولم تبق الا مشكلة الكساء ! . .

وقد كانت حقا مشكلة المشاكل لا مِراء . ! .

لانها تحتاج الى مبلغ متجمع لا يوجد في اليد ساعة الطلب ، ولا تحلها

عندي حيلة التقسيط لانه ـ على ندرته في ذلك الحين ـ لم يكن مريحا لمن يبيع الكساء ولا لمن يلبس الكساء . .

ومرة واحدة حللت هذه المشكلة بشراء بذلتين قديمتين : ولكن الجوار الصالح هداني الى حيلة اصلح من هذه الحيلة لتدبير هذه المشكلة ، وهي درس خصوصي لتاجر أقمشة يتولى تفصيل القماش وتسليمه كسوة كاملة ، ويوفيني الاجر ـ بذلك ـ كسوة كل ثلاثة أشهر . . ولم تزد مدة التعليم كله على كسوتين ، لنشاط التلميذ أو لبراعة الاستاذ ! . . أو لرغبة الفريقين معا في « فسخ » العقد بسلام !

خصلة مشتركة

وأخال ، بعد هذه القصة عن الكفاية ، انني قد نسيت ان اقول ان قلة المصروفات كانت خصلةمشتركة بيني وبين الصحافة التي عملت فيها ، فقد كنت في سن الحاجة الى المصروفات قليل الحاجة الى المصروفات ، واصح من ذلك ان اقول ان مطالبي في حياتي ليست بالقليلة ولكنها ليست كذلك من النوع الذي يتوقف على المال . .

وكفاية المرتب ، على اية حال ، مهمة جدا في كل عمل نعمله لنعيش من رزقه .

هي شيء مهم جدا ولا كلام . .

ولكن هل ترانا نفهم انها هي الشيء المهم الوحيد ، أو ان شيئا آخر لا يهمنا مثلها على تفاوت المرتبات والاجور ؟ .

ومن يفهم ذلك ففي تجاربه نقص يتعبه في عمله ويتعبه في معيشته . . فالرغبة في العمل الذي نتوفر عليه مهمة جدا كالمرتب الذي نتقاضاه منه ، ونحن نستريح بستة جنيهات نتناولها من عمل نرغب فيه ولا نستريح باثني عشر نتناولها من عمل

نبغضه ونساق اليه ولا نود ان ننجزه محسنين أو غير محسنين !

وقد بدأت عملي في الصحافة راغبا فيه مقبلا عليه . .

ووجدت من اللحظة الأولى انني اريد ان افرغ فيه جعبة المعرفة التي حصلتها من مطالعاتي الصحفية ، ومن مطالعاتي في الكتب ، وفي الحياة . .

وبعض هذه المعرفة صبيانيات مضحكة لا تقدم ولا تؤخر في الموضوع ، ولكنها تدل على حكم العادة وتواتر النظر والسماع . .

« عم » العقاد !

كيف أوقع مقالتي الاولى ؟ وكيف يكون توقيعي الملتزم في جميع المقالات ؟

وقعتها كما توقع المقالات التي كنت اقرأها في المجلات الاجنبية ، فكان توقيعي باللقب وبالحرفين الأولين من الاسمين : « ع . م العقاد » .

ومثل هذا التوقيع لا ينجو من ألسنة الزملاء الهازلين في بلد « القفش » والقافية . . فسرعان ما ظهر لي مقالان أو ثلاثة حتى دغموا الحرفين في اسم واحد ، وراحوا يتحدثون عن مقالات « عم العقاد . . ! » .

وماذا قال عمك ؟ . . وماذا تقول يا عم ؟ . . واكتب لنا يا عمنا بما تراه . . وقس على ذلك بقية القافية في مختلف الاوضاع والنداءات . .

ويأبى العناد ان ارجع عن « عم العقاد » . .

أو لعله لم يكن عنادا محضا ولا صبرا على السخرية بغير مبالاة ، فليس من الكسب الرخيص للكاتب الناشىء ان يذكر وان يكون في توقيعه اغراء بذكره . . وأما السخرية فهي شهرة نابية في جميع الاسماع ، ولكنها تهون اذا اصابت الفطاحل النابهين كما تصيب الناشئين المبتدئين . .

وهكذا مضى « عم العقاد » يكتب بهذا التوقيع من العدد الاول الى آخر الاعداد !

أما الموضوع فقد كان « المقالة الادبية » في المرتبة الاولى ثم تليه المقالة على الاجمال في مختلف الشؤ ون . .

وكان أدب المقالة في تلك الاونة يستوعب مطالعاتي الحديثة أو يكاد . .

كنت أدمن القراءة في كارليل ، وماكولي ، وهازلت ، ولي هنت ، وارنولد ، وغيرهم من ائمة فن المقالة في القرن التاسع عشر . . وكان بعض هذه المقالات مما ينشر في الصحف اليومية ، لانها تمتد حتى تبلغ في المجلة ثلاثين أو أربعين صفحة ، وبعضها مما يصلح للنشر في الصحافة الاسبوعية كما يصلح للنشر في الصحافة اليومية ، ومن هذه المقالات كنت اترجم ما يصلح للنشر في الصحيفة السيارة ، وعلى غرارها كنت اكتب ما اكتب عن ادباء العرب والفرس ومسائل النقد والتعليق . .

فن المقالة !

ولم يخطر لي ان اخترع جديدا في فن المقالة الادبية ، اذ كانت الصحافة المصرية كلها قد قامت على فن المقالة منذ انشأتها قبل الثورة العرابية وكانت « الجريدة » قد سبقت « الدستور » في تاريخ الصدور ، وكان من كتابها المتقدمين « محمد السباعي » تلميذ « لي هنت » في فن المقالة على اسلوب المدرسة الانجليزية ، فكان رائد هذا الفن في تحرير الصحف غير مدافع ، وكان له فيه ابداع يعرفه قراء كتابه الذي سماه « بالصور » واراد ان يعارض به مقالات الترسيم والتخطيط المعروفة باسم « الاسكتش » **sketch** في أدب الغرب الحديث ، فلم احاول في كتابة مقالاتي جديدا غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية ، ولم اطرق غير القليل من موضوعات النقد الاجتماعي ، او

موضوعات المقالة الوصفية والمقالة العاطفية ، لانني كنت مع اشتغالي بالكتابة مشغولا بنظم الشعر في موضوعاته ، وهو أولى بالوصف العاطفي من المقالات . .

على انني احمد الله لان المتقدمين علي في الصحافة لم يغلقوا علي جميع الابواب ، فبقي لي في الصحافة المصرية باب واحد استطيع ان اقول اني كنت أول السابقين اليه . .

وذلك هو باب الاحاديث مع الوزراء والساسة . . فلا أعلم ان احدا من الصحفيين المصريين سبقني الى اجراء حديث عام مع وزير مصري أو رئيس شرقي يسمع له قول في السياسة ، واخالهم معذورين بعض العذر في هذا التأخير ، وأخالني محظوظا بعض الحظ في هذا السبق المقدور ، لأن الاحاديث امر مرهون بأوانه لا يدركه أحد قبل موعده ولا بعده ، ولا هو بالمعقول في صحافة مصر على عهد الاحتلال قبل حادث دنشواي وقيام الاحزاب . .

من كان يحادث الوزراء المصريين في شؤون السياسة العامة ، وماذا يقول الوزير للرأي العام اذا أراد المقال ؟ وأي برنامج له يعرضه على الناس ؟ وأي رأي كان له بعد رأي المستشار ورأي قيصر قصر الدوبارة من وراء المستشار ؟

احاديث الوزراء

ان حديثا يجري مع وزير لا يملك من أعمال وزارته غير التوقيع والسكوت لهو اللغو بعينه ، فلا حرج على الصحفيين المصريين اذا تجنبوه . . وقد تجنبوه معذورين حتى خطر لي ان اقتحم هذا الباب لاول مرة ، فكان اقتحامي اياه في الحق عنوانا لصفحة جديدة في تاريخ الوطنية المصرية ، ولم يكن مجرد سبق في الصحافة يتكرر كل يوم . .

وجرى الحديث الاول مع سعد زغلول في وزارة المعارف ، وجرى غيره

من الاحاديث مع الغازي احمد مختار « قوميسير » الدولة العثمانية كما كانوا يسمونه في زمانه . . وكان على ضآلة نفوذه في مركزه شخصية من اقوى الشخصيات العسكرية والسياسية التي عاشت في ذلك الزمان . .

وكنت أعلم أن حديثا يتطرق الى نظام الجيش في عهد الاحتلال ، ويفوه به أكبر القادة العثمانيين في مركزه الرسمي بالديار المصرية لن يخلو من ضربة تقض مضاجع المحتلين . .

ولقد كان ما قدرت ، فان الرجل خبطها خبطة عنيفة ، وقال لي لما سألته عن العدوان على المحمل المصري في جزيرة العرب : ان الذنب ذنب النظام لا ذنب الامن في الجزيرة العربية ، وانه كان يستطيع ان يفتح الجزيرة كلها بفرقة كالفرقة التي تحرس المحمل في كل عام !

يا خبر !..

ان كلمة دون هذه الكلمة في المساس بنظام الاحتلال العسكري قد اوشكت ان تطيح بعرش عباس الثاني ، وقد حركت الدولة البريطانية بحذافيرها لتهديده وارغامه على الاعتذار . .

فكيف تراهم يصبرون على تلك الضربة من قائد عسكري يمثل الدولة العثمانية ؟ . .

إلا انهم مكروا ولم يجهروا ، وبدأت بينهم وبين القائد الكبير ازمة متوترة . . نصرهم فيها عليه سماسرة الخذلان في الاستانة ، فكان الغازي مختار خاتم « القوميسيرين » في هذه الديار . .

ثورة على الخديو

اذا كنت قد خرجت من صحيفة الدستور بأولية من أوليات الصحافة المصرية ، فهذه هي « أوليتي » التي خرجت بها من اول عملي في صحيفة

يومية : أول صحفي مصري حصل على حديث من وزير عامل في الوزارة ، أو من رئيس شرقي كبير يسمع له رأي في السياسة . .

وقد كدت ان أضيف اليها « أولية » اخرى ذهبت غير محسوس بها ، قبل ان تحبو من مهدها . .

كدت اكون اول كاتب يحاكم على حملة صحفية موجهة الى سياسة الامير في شؤ ون مصر وفي شؤ ون الاصلاح الازهري على التخصيص . .

كانت سياسة الوفاق يومئذ في عنفوانها ، وكان مدار هذه السياسة على التعاون بين السلطة الفعلية سلطة الاحتلال وبين السلطة الشرعية سلطة الامير . . وقامت السياسة فعلا ـ بعد عزل اللورد كرومر ـ على اطلاق يد الخديو في مسائل الحكم التي تعنيه ، ومنها مسألة الازهر والاوقاف ومسألة الرتب والنياشين . .

وفي هذه الفترة تنمر الخديو للحركة الوطنية ، وادار ظهره لطلاب الدستور ، وعمل جهده على استئصال نهضة الاصلاح في الازهر بعد وفاة الاستاذ الامام ، وأعلن عداءه لمدرسة القضاء الشرعي وكاد يقضي عليها . .

وثارت الثائرة على الخديو من داخل الازهر وخارجه ، فتكلم مرة عن نهضة الاصلاح الازهري وأقسم انه يغار على الاصلاح غيرة أصدق من دعوى المدعين للغيرة عليه . .

وكتبت يومئذ مقالا مطولا استغرق الصفحة الاولى من صحيفة « الاخبار » التي كان يصدرها الشيخ يوسف الخازن ويحررها الاستاذ توفيق حبيب . قلت فيه ما فحواه ان الملوك لا يحتاجون الى القسم لانهم يثبتون نياتهم بالاعمال لا بالاقوال !

براءة المشايخ !

وكان في وسعي ان اكتب هذا المقال في صحيفة الدستور لأن صاحبها ـ

الاستاذ فريد وجدي ـ كان كما اسلفت من أرحب خلق الله صدرا لحرية الرأي وحرية المناقشة ولكنني قدرت له حريته هذه فلم اشأ ان أحرجه في مسألة ترتبط بالازهر والاصلاح الديني . وقد كانت له في العالم الاسلامي مكانة تشبه مكانة الاقطاب الدينيين . .

فلما ظهر المقال في صحيفة الاخبار بتوقيع (ع الاسواني) قلقت له الحاشية الخديوية ، وظنوا انه من ايحاء بعض المشايخ الازهريين . . فأكبروا هذا « التمرد » من معقل الخديو الامين في أيامه ، فاستدعت النيابة صاحب الاخبار وسألته عن اسم صاحب المقال ، فأذنت له ان يطلعهم عليه ، ولعلهم اطمأنوا الى هذه النتيجة بعد ان علموا ببراءة المشايخ من الشبهة ، فانطوت المسألة ووقفت عند هذا الحد ، اشفاقا من اثارة القضية الازهرية في أطوار التحقيق والمحاكمة والدفاع وتعليقات الصحف واحاديث المتحدثين .

ولولا ذلك لسبقت نفسي بثلاث وعشرين سنة ، فكنت أول من حوكم على تلك العيوب الملكية التي يحملها اصحاب العروش ويحاسب عليها اصحاب الاقلام .

يومية وغير يومية

كانت الصحف المصرية عند أوائل هذا القرن تنقسم الى يومية وغير يومية ، ولم تكن هناك صحف اسبوعية بالمعنى الذي نفهمه من الصحافة التي تصدر مرة كل أسبوع . . فان لم تكن الصحيفة يومية ، فالصحف التي يقال عنها إنها أسبوعية قد تصدر مرة كل شهر أو مرة كل شهرين ، أو تنتظم على الصدور يوما في كل أسبوع الى أمد محدود ، ثم تنقطع دفعة واحدة ، أو تعود الى الانقطاع على دفعات . .

وكانت مواعيد الانقطاع على الجملة أصدق من مواعيد الصدور . .. لانه كان يتكرر على التحقيق حيث يتعذر التحقق من موعد للصدور . .

وربما انتظمت الصحيفة « الاسبوعية » خمسة أسابيع أو ستة أسابيع متوالية ، ولكنك تنتظرها عبثا اذا انتظرتها في يوم معلوم من أيام الاسبوع ، فاذا ظهر هذا العدد منها يوم الاحد فلا مانع أن يظهر العدد التالي يوم الخميس أو يوم الجمعة ، أو بعد يومين اثنين فقط من ظهور العدد الذي سبقه ، ولا معول في ميعاد من هذه المواعيد على شيء غير « توافر المادة اللازمة للتحصيل . . » .

شيء لزوم الشيء

وما هي المادة اللازمة للتحصيل ؟ . .

حملة على مشهور أو فضيحة في أسرة تخاف التشهير ، أو تهديد مقدور على حسب المناسبات ومصالح الضحايا المعرضين للتهديد ، أو ضجة سياسية ، أو اجتماعية تشتبك فيها المطامع والدعايات وتتعدد فيها الفرص للمنتهزين من هنا ومن هناك . .

وكان أفضل هذه الصحف « الاسبوعية » الذي يسرع الى الاحتجاب وتمتنع عليه وسائل الثبات والاستمرار .

وقد ظهر من هذه الصحف الفضلى كثير لم يبق منها بعد حين كثير ولا قليل ، ولم يقل أحد من الصحفيين الأفاضل أو غير الافاضل ، أنه يصدر صحيفته لمصلحة خاصة أو يصدرها لمحض التشهير والتهديد ، ولكنك تراجع الاسماء فلا ترى بها من خفاء . . وماذا يبقى من الخفايا وراء اسم كاسم « الكرباج » او « البعبع » او « الجاسوس » او « اللجام » او « الصاعقة » او « المرصاد » او « العفريت » او « عفريت المقاولين » على التخصيص ؟ . .

هذا الى أسماء أخرى كالخلاعة والصبوة والغندرة والمرستان والفوضى ، وما أشبهها من أسماء يختارها أصحابها وهم في سعة من الاختيار ، وفي سعة من الادعاء كما يشاءون بما اختاروه من كلمات ! . .

ولم يمض غير يسير حتى افترقت الكفايات اللازمة لاصدار الصحيفة الاسبوعية على هذا المنوال . .

فقد يكون الرجل من اجهل الجهلاء، ولكنه من اقدر الناس على التشهير والتهديد واستغلال الفضائح والاشاعات .

وقد يكون الرجل عاجزا عن كسب مليم من هذه الصناعة ولكنه قادر على تسويد الصفحات وتلفيق الاقاويل والاباطيل ..

ولا بد من الكفايتين لاصدار الصحيفة في موعدها الملائم . . فان لم توجد الكفايتان في رجل واحد فقد توجدان في رجلين ، وقد يهتدي احدهما الى الاخر بحكم المصادفة ان لم يهتد اليه بحكم الضرورة . . وهكذا كان . . .

بين العتبة والفجالة

فقد وجدت في القاهرة ثلاثة مكاتب او اربعة لتحرير المقالات حسب الطلب والاقتراح ، مقرها حانات وقهوات موزعة بين باب الخلق والعتبة الخضراء والفجالة وحي الحسين ، وهي الاماكن التي كثرت فيها المطابع الصالحة لطبع الصحف الصغيرة ، لانها تكلف القليل من الاجور وتتقبل المقلقات .

ورأينا من هذه « المكاتب » قهوة في العتبة الخضراء يجلس اليها محرر مشهور يكاد يرتجل المقالة في دقائق معدودات ، وقد يكتب المقالات قبل اقتراحها على وجهين متناقضين ، احدهما للمدح والتأييد والاخر للقدح والتهديد . . ويجلس بهذه المقالات على ثقة من الطلب في حينه ، وقد يأتيه الطلب على النقيضين من طالب واحد في ساعة واحدة ، ولا يعجزه في اللحظة الاخيرة ان يدخل التعديل المطلوب في القياس والتفصيل ، ان كان لا بد من تعديل ! . .

كان المكتب العام من «مكاتب التحرير» تحت الطلب ، في قهوة على مفترق شارع محمد علي وميدان العتبة الخضراء ، وكان المطعم الذي تعودت ان

اتناول فيه الغداء الى جوار تلك القهوة .. فكنت اجلس فيها هنيهة قبل الغداء او بعده ، وكنت القى فيها بعض الصحفيين والادباء ، واحضر مجالسهم ومحاوراتهم ، واستمع الى احاديث غزواتهم واحابيلهم في تحصيل اتاواتهم ، فرأيت صاحب صحيفة من اشهر الصحف الاسبوعية في ايامها يجلس الى مائدة « الشيخ المحرر » ويبادره بطلب من « البار » على حسابه ، ويفاتحه قبل حضور الطلب في موضوع مقالين مستعجلين ، يثني في احدهما على سريٍّ معروف من اصحاب القصور الباذخة على مقربة من حي عابدين ، لأنه يثابر على عمل البر واسداء المعونة الى الجماعات الخيرية واصلاح المساجد التي تجاور قصره وإطعام الفقراء الذين يترددون على تلك المساجد لوجه الله الكريم ، وينحي في المقال الثاني على ذلك السري بعينه لانه مبتذل العرض والكرامة يغرر بالابرياء فيسوقونه الى ساحة القضاء ، ويطالبونه بالتعويض عما اصابهم به من الادواء ..!

ثمن الفخر والثناء

وخرجت من القهوة الى المطعم والمقالان يكتبان ، ولعلهما عرضا في ساعة واحدة على السري المصلح المفسد ، النافع الضار ، المحمود المذموم .. ولعله قد بذل الثمن ضعفين : ثمن الفخر والثناء وثمن السلامة من الخزي والبذاء .

ومجمل ما يقال في هذه الصحافة انها كانت في مجموعها على هذه الوتيرة .. بين صحافة صالحة تسرع الى الاحتجاب ، او صحافة فاسدة تعيش متقطعة متسكعة ، وينقطع لها الحثالة من نفايات البلد ، وقل ان تعتمد على بضاعة غير بضاعة الجهل والاحتيال ..

ولنا ان نقول في كلمتين انها صناعة مرذولة ولا حرج ، وعلينا ان نذكر اننا نتكلم عن الصحافة وان الصحافة يومئذ كانت ظاهرة اجتماعية تبحث عن مكانها .. ومن اعجل الاحكام ان تدان الظواهر الاجتماعية بحكم واحد في

فترات النشوء والانتقال على نحو خاص ، فلا بد من استثناء في هذه الفترات ، بل لا بد من حكم متئد يقابل الحكم العاجل ويلغيه او يكاد . .

صناعة مرذولة محتقرة . .

هذا هو الرأي المجمل في صحافة مصر غير اليومية منذ خمسين سنة . . ولكنك لا تستطيع ان تبخل بوصف الاحترام على صناعة الصحافة يومئذ في مصر اذا التفت من ناحية الصحافة « غير اليومية » الى ناحية الصحافة اليومية ، لما كان في مصر يومئذ من صناعة تضم بين ابنائها اناسا احق بالاحترام من علي يوسف مدير المؤيد ، ومصطفى كامل مدير اللواء ، واحمد لطفي السيد مدير الجريدة ، كائنا ما كان المقياس الاجتماعي الذي تقاس به الصناعات .

طبقة من المجاورين

ولا استثناء في ذلك لمقياس الدولة والحكومة ، فان الرتب والالقاب التي حصل عليها اقطاب الصحافة المصرية من الدولة لم تكن تقل في قيمتها الرسمية عن القاب الوزراء . . . ومن حصل منهم على « البيكوية » فانما كان يحصل عليها من الصنف الذي ينادى صاحبه بلقب الباشوية ، ولولا ان الاستاذ « احمد لطفي السيد » كان من المعارضين للسيادة العثمانية لجاءته الرتبة التي انعمت بها الدولة على صاحبي المؤيد واللواء . .

***

ومن الملاحظات التي لا تهمل في هذا الصدد مسائل الزوجية التي تعرض لها كبار الصحفيين في تلك الاونة ، فانها تدل على احساس عميق داخل اصحاب هذه الصناعة اودع في نفوسهم الثقة بمكانتهم الاجتماعية في شؤون يتغلب فيها العرف التليد على كل اعتبار جديد ، فلولا « الاحترام الاجتماعي » الذي كان

يحسه الزعيم النابه في الصحافة اليومية لما خطر لمصطفى كامل ان يخطب « الاميرة شويكار » ولا خطر لعلي يوسف ان يتزوج بسليلة بيت السادات ، وهو طموح ابعد من الطموح الى مصاهرة بيت الامارة ، لان اعتداد بيت السادات بشرفه الديني كان في ذلك العهد اقوى من اعتداد الامراء بمراتبهم الدنيوية .

ولا يرجع شيء من هذا الاحترام الاجتماعي الى مزية من مزايا الطبقة او مزايا الثروة . . فان مصطفى كامل كان من طبقة الموظفين الصغار ، وعلي يوسف كان من طبقة الفلاحين الفقراء « المجاورين » للجامع الازهر ، ولم يكن لهما من الثروة قسط يذكر بعد ان بلغا في الصحافة قمة النجاح . .

***

من الكلمات التي قرأتها ولم انسها منذ قرأتها كلمة الروائي العبقري « شارلز ديكنز » في مقدمة قصة المدينتين حيث يقول عن عصر الثورة الفرنسية :

إنه كان احسن الأزمان وكان اسوأ الازمان . . كان عهد اليقين والايمان وكان عهد الحيرة والشكوك . كان اوان النور وكان اوان الظلام . . كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط . بين ايدينا كل شيء وليس في ايدينا اي شيء . وسبيلنا جميعا الى سماء عليين ، وسبيلنا جميعا الى قرار الجحيم . . تلك ايام كأيامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاتها ان نأخذها على علاتها ، والا نذكرها الا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات » . .

فقد قرأت هذه الكلمة فخطر لي يوم قرأتها انها لعبة من العاب المجانسات اللفظية لا تصدق على زمن من الأزمان ولا على حالة من الحالات ، فما برحت منذ قرأتها اعيدها او تعيدني الى ذكراها كلما صادفتني مرحلة من مراحل التاريخ الكبرى ، لانها وصف يصدق على كل مرحلة من هذه المراحل ويصدق على كل جديد . . ومنها فترة اليقظة المصيرية في اوائل هذا القرن العشرين .

حائر بين الاثنين

وطالما حيرتني وحيرت غيري هذه المناقضة بين الصحافة اليومية المحترمة ، والصحافة « غير اليومية » التي لم يكن لها حظ من الاحترام . .

وليس مما يدفع الحيرة ان نعلم ان « الفترات الخالقة » بطبيعتها متناقضة مشتملة على المحاولة من طرفيها ، الى النجاح او الى الاخفاق . .

ولكنني احسب ان.الصحافة في اوائل هذا القرن قد اصبحت « هامة » ولم تصبح « عامة » الا بعد حين . .

وهذا فيما احسب هو علة التناقض بين صحافة يومية محترمة ـ بمقاييس المجتمع ـ وصحافة اخرى غير محترمة بكل مقياس من هذه المقاييس . .

فالصحافة اذا كانت وظيفة هامة ، اثبتتها القوة الاجتماعية التي تعرف لها اهميتها وتحذر من اهمالها ، وهذه القوة الاجتماعية تأتي من قمة المجتمع ومركز القيادة فيه . .

وأما « الوظيفة العامة » فلا غنى لها عن « رأي عام » يسندها ويراقبها ويتعهدها ويتكفل لها كما تتكفل له بالحماية والرعاية . .

ولم يكن لهذا «الرأي العام» وجود في اوائل القرن العشرين ، ولم تكن الصحيفة الاسبوعية قد بلغت من القوة ان تؤدي الوظيفة الهامة التي تؤديها الصحيفة اليومية وتهتم بها قيادة اجتماعية تعرف لها عملها وتتقي عواقب الاهمال فيه . .

كانت الصحيفة اليومية توجد لانها لازمة مهمة في اعتبار طائفة تتولى القيادة الاجتماعية . .

اما الصحيفة الاسبوعية فانما كانت توجد لأنها لازمة لصاحبها ومن يعمل

فيها ، فان لم يتكفلوا بتدبير امرها فما من احد غيرهم يتكفل بتدبيره .

***

وعلى كلتا الحالتين كانت الصحافة - يومية وغير يومية - عارضا غريبا على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك بيئة خاصة يقصدها الصحفيون لانهم صحفيون ، بل لم تكن للصحافة نفسها كلمة متفق عليها .. فربما سمي الكاتب في الصحيفة بالتحريرجي ، او الجورنالجي ، او الغازيتجي ، او المحرر من صناعة التحرير في المطابع والدواوين التي تكتب فيها الرسائل .. فاما كلمة « الصحافة » فهي بدعة مستحدثة خلقها اللغويون على وزن « فعالة » كالنجارة والحدادة والملاحة والتجارة وكل ما يأتي على هذا الوزن للدلالة على الصناعات .

ولو سئل الصحافي يومئذ : ما عملك ؟ لما وجد كلمة مفردة يجيب بها من يسأله ويفهمها السائل والمسؤول ..

صناعة بغير عنوان ، او عنوان بغير جهة ، ولا فرق في هذا بين جهة المكان وبين « الجهة المعنوية » اذا استعرنا هذه العبارة من لغة القانون ..

في « سبلندد بار » ..

فقد ترى في « سبلندد بار » اناسا من الصحفيين ، ولكنهم لا يقصدونه لانهم صحفيون مشتغلون بهذه الصناعة .. وانما يقصدونه لانه ملتقى المهاجرين من سورية ولبنان والعراق وغيرها من الاقطار العثمانية ..

وقد ترى اناسا اخرين في قهوة الشيشة ، او القهوة الوطنية ، او قهوة يلدز ، او قهوة متاتيا ، او قهوات الحي الحسيني ، وباب الخلق ، والفجالة .. ولكنك لا تراهم حيث كانوا لانهم يدخنون الشيشة او يشجعون القهوات المصرية في اول عهدها بمنافسة القهوات الاجنبية ، او لأنهم يلعبون الشطرنج

والدومينة ، او لأنهم تناقلوا سنة الجلوس في هذا الحي او ذاك من ايام الطليعة الاولى بين الادباء رواد الاندية العامة . .

وعلى هذا الاختلاط بين البيئات الصحفية ، او البيئات القلمية ، تتحقق من امر واحد لا اختلاط فيه ، وهو اتصال تلك البيئة بالحركات العامة في الشرق كله . . فلم تعرف حركة عامة في قطر من اقطار الشرق لم تكن لها صلة ببعض الجالسين . .

هنالك ترى الباحث في فلسفة النشوء والارتقاء او مذاهب الاشتراكية او تحرير المرأة ، ومعهم ترى رئيس جماعة « تركيا الفتاة » او صاحب الصحيفة الايرانية الحرة ، او مؤلف كتاب طبائع الاستبداد ، او عصابة الحملة على فتوى الترنسفال . وهناك رأينا ابراهيم ناضف الورداني بهياجه الدائم ولهفته الدائمة على اطباق الارز واللبن ، ورأينا مصطفى الصغير الداعية الاسلامي الهندي الذي جازت حيلته في مصر واعتقله الكماليون في الاستانة فحكموا عليه بالاعدام ونفذوا الحكم على الرغم من احتجاج الدولة البريطانية . .

وهنالك كنا نلقى من نلقاهم من الادباء الذين لا يشتغلون بالصحافة الا اذا كتبوا اليها ، ومنهم كانت صفوة الصحب والزملاء على قلة ترددهم وترددنا على القهوة لغير موعد او مصادفة . .

وكانت الصناعة كلها عارضا غريبا في بيئات غريبة . .

صناعة بغير عنوان

صناعة بغير عنوان او عنوان بغير جهة . . ومن هذا التيه بين البيئات تعرف ما يحيط به من القلق او من « التوزع » والبعثرة بين مختلف الشواغل والهموم . . .

الا اننا نبرىء الذمة قبل ختام هذه الفاصلة من المذكرات فنسأل : اكانت

الصحافة حقا عارضا غريبا كل الغربة في المجتمعات المصرية والشرقية ؟ ايمكن ان توجد صناعة في مجتمع من المجتمعات دون ان تسبقها صناعة مشابهة لها قائمة على اساسها ؟

اكاد اقول ان وجود هذه الصناعة مستحيل ، فلا بد من صحافة قبل الصحافة على صورة من الصور ، ولا بد من صحفيين قبل الصحفيين .

وللصحفي في المجتمع المصري اب او جد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته ، فمن يكون هذا الاب او هذا الجد الذي ننتمي اليه اجمعين ، نحن معاشر الصحفيين ؟ .

هو « اللبيب » على احسنه واعلاه ، وعلى اسوئه وادناه . .

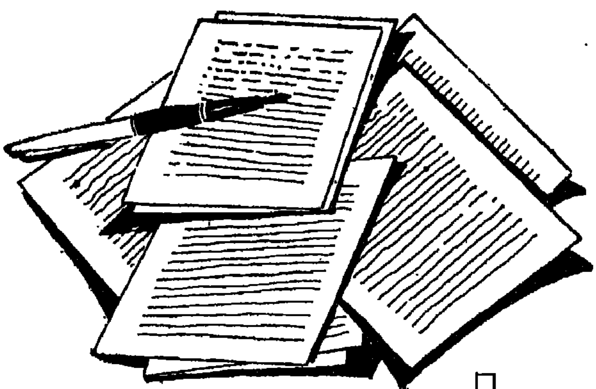
اللبيب الذي يعلو حتى يتبوأ مكان الواعظ المسموع والمستشار المعول عليه والمعلم الذي يصغي اليه المتعلم المستفيد كما يصغي اليه « الفهيم » المعجب بسحر الكلام وفتنة البلاغة . .

واللبيب الذي يهبط حتى يصدق عليه وصف « الثرثارة » او « الادباتي » الذي يفهم بالاشارة ولا يتورع عن الحيلة في طلب الرزق المباح والمحظور ، ولا يبالي ما يصيبه في سبيله من الزراية والابتذال . .

اللبيب هو « جد » الصحفي في المجتمع المصري ، على اسوئه وادناه وعلى احسنه واعلاه .

الفصل الرابع

أزمة قلم



ازمة قلم

تعطيل « الدستور »

بقيت في تحرير صحيفة « الدستور » حتى فرغنا من كتابة الكلمة الاخيرة في عدده الاخير . .

وقد مضت علينا قبل احتجابه اشهر ونحن نعلم أننا نكتب اعداده الاخيرة ، وان كنا لا نعلم ايها يكون الاخير الذي ليس بعده اخير . .

وأبت المروءة على صاحب الصحيفة ان يمطل احدا من اصحاب الديون عليها او اصحاب الاجور فيها بدرهم واحد . . فاتفق مع تاجر من تجار الورق المشهورين على ان يشتري مؤلفاته جملة واحدة سدادا لثمن الورق وما اليه ، واتفق معه في الوقت نفسه على ان يشتري النسخ من الموظفين والعمال بأثمانها المتفق عليها ، واذكر ان ثمن النسخة من معجم « كنز العلوم واللغة » لم يزد في هذا الاتفاق على ثلاثة عشر قرشا ، وكانت تباع قبل ذلك بمائة قرش ثم بيعت بعد اشهر قليلة بخمسين قرشا ، ثم بسبعين . .

ولقيت الرجل مودعا فقال لي انه يرجو ان نتعاون معا في عمل صحفي نحن اقدر عليه واصلح له من الصحافة السياسية ، وانه يدرس الفكرة ويلخصها لي عسى ان افكر فيها ، ويرجو ان يبلغني نتيجة درسه لها بعد اسبوعين او شهر على الأكثر ، اذا صح العزم على الشروع في تنفيذها . .

مقالاتي مرتين ! . .

كان الاستاذ فريد وجدي يصدر مجلة شهرية تسمى « الحياة » ويكتب فيها احيانا مقامات خيالية تسمى بالوجديات ، ثم تفرغ لاصدار الدستور وترك المجلة الا في فترات متباعدة يعاودها كلما اجتمع لها من مادة الفصول الادبية ما يملأ عددا من اعدادها ، وربما اختار بعض هذه الفصول من مقالاتي التي كنت انشرها في الصحيفة اليومية . .

اما « الوجديات » فقد كان يكتبها على اسلوب المقامات ويديرها على المواعظ الاجتماعية ، وتقريب المثل العليا التي تصطبغ على الدوام بصبغة الدين او بصبغة الاخلاق المثالية ، وكان لها قراء كثيرون يطلبونها كلما طالت غيبتها وقد تصدر منها طبعتان وثلاث طبعات .

قال الاستاذ : « ان الحياة » اولى بمقالاتك من الصحيفة اليومية ، وانك تستطيع ان تجرب قلمك في المقامات فتظهر « الحياة » وفيها مقاماتك ومقالاتك الى جانب الوجديات ، ولولا انني انتظر حتى اعلم ان هذا العمل يعوض تكاليفه ويغنيك عن عمل آخر لشرعنا فيه منذ الساعة ، ولكننا قد نشرع فيه بعد أسابيع .

. . بلا عمل

ومضت الاسابيع ولم اسمع من الاستاذ خبرا عن هذه الفكرة ، ولم اصل من دراستها بيني وبين نفسي الى نتيجة تدعو الى الثقة بنجاحها ، فوجب البحث عن عمل لي في الصحافة او ما يناسب الصحافة ، ولكن ما العمل الذي يتسير لي عند طلبه على عجل ، ولا بد من العجل ، ولا طاقة بالانتظار . .

افق الصحافة في تلك الاونة مظلم يطبق عليه الظلام من قراره ، ولا تلوح منه شعاعة برانية ولا جوانية ، لان البلاء الذي كانت تصاب به الصحافة

من داخلها كان اشد عليها من البلاء المسلط عليها من اعدائها . .

كان « اللواء » في حياة مصطفى كامل يعول على موارد يلدز وعابدين ومعونة بعض الغيورين من سراة الترك والمصريين ، وانقطعت موارد يلدز وعابدين من قبل وفاته . . وانقطع الامل في موارد يلدز بعد زوال عهد عبد الحميد ، وفي موارد عابدين بعد اعراض الخديو عباس عن الحزب الوطني في عهد سياسة الوفاق واستحكام العداء بين الحاشية الخديوية وخليفة مصطفى كامل « محمد فريد » . . وقد كاد فريد رحمه الله ينهض وحده باعباء اللواء المالية والسياسية ، لولا ما اصابه من المصادرة بعد المصادرة ومن المحاكمة بعد المحاكمة ، حتى اجمع عزيمته آخر الامر على هجرة الديار . .

وكان « المؤيد » يزدهر في ابان نشاط صاحبه « علي يوسف » . . ثم نكب هذا الرجل العصامي نكبة قاسية عصفت بنشاطه قبل اوانه ، اذ فجعته المنية في وحيده في مقتبل صباه ، واضطربت حياته بعد ذلك بمشكلات الاسرة او مشكلات « مشيخة السادات » التي ساقته قضية الزوجية اليها ، وما زال دبيب الملل يسري اليه ويزهده في صحيفته العزيزة عليه حتى تركها بعد حين للمقادير وهو لا يبالي ماسوف تلقاه ، او ما سيلقاه ! . .

وكانت « الجريدة » اسلم الصحف من هذه الزعازع واشباهها ، ولكنها على هذا لم تسلم من ضربات خصومها السياسيين وفي مقدمتهم الحاشية الخديوية ، وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية . . فان حاشية الخديو افتتحت عهد الوفاق بين السلطتين الشرعية والفعلية بمحاربة « حزب الامة » قبل غيره من الاحزاب ، لان اعضاء الاحزاب الاخرى كانوا يلوذون بالقصر ولا يقاطعونه ، خلافا لاعضاء حزب الاصلاح ، ونجح مسعاهم بعد اختيار وكيل حزب الاصلاح للوزارة وتتابع الانعام بالرتب والالقاب على اعضائه البارزين . . ولم تبق للحزب بقية قادرة على الصمود والمقاومة الا بجهد جهيد ، ولكنه بقاء لم يعصم الجريدة من ازمات المال والخلافات الداخلية ،

وعرفت من محرريها يومئذ من تركها لأنها اضطرت الى القصد في وظائف التحرير بعد التوسعة فيها عند نشأتها ، حتى كانت تقنع من المحرر بنهر في اليوم ، ولا تسأله اذا ونى عن كتابة هذا النهر عدة ايام . .

حياة الظلام

وتلك هي الصحف التي أنظر اليها اذا نظرت الى عمل في الصحافة اليومية ، فاما الصحف الاسبوعية فلم يكن فيها مجال لغير اصحابها او لغير كتاب المقالات ـ بالقطعة ـ على حسب الطلب ، وعلى كل لون ، وفي عرض الطريق ! . .

وربما تأتى للصحافة في مجموعها ان تغالب هذه المحنة ، وان تتغلب عليها في النهاية لو لم تطبق عليها طامتها الكبرى من قانون المطبوعات الرهيب : قانون الحجر والرقابة وتقييد الرخص ومحاسبة الكاتب على السطور وما بين السطور ، وعلى الاقوال والنيات ! . .

وقد انطوى هذا القانون بعد نشره في ايام الثورة العرابية ، ثم بطل العمل به زمنا طويلا حتى نسينا نحن الصحفيين الناشئين ان في البلد قانونا للصحافة كان يسمى قانون المطبوعات ، وان الكاتب يسأل عن شيء قاله في حدود النقد المباح كائنا ما كان مقام المنقود في الحكومة او في البلاد . .

ومما يؤسف له ان نصيب الصحافة من هذه الطامة التي جرتها على نفسها لم يكن اهون من نصيب الحكومة ، وانها جنت على حريتها ولا ريب بما زودت به « السلطة » من معاذير ، يقبلها كل من يؤمن بحق القانون . .

فلا نذكر ان احدا من اعلام الصحافة كتب في صحيفته كلمة تتعلل بها الحكومة لتقييد حرية الكتابة او قال في خطبة من خطبه كلمة تتعلل بها لتقييد حرية الخطابة والاجتماع ، ولا نستثني من ذلك « مصطفى كامل » على تطرفه واندفاعه في الخطب ، وفي المقالات . .

ولكن الصحافة اليومية لم تلبث ان صارت الى الاقلام التي لا تحسن شيئا

كما تحسن ان تسقط معاذيرها وان تمهد العذر لمن يتمحلون العلل عليها ، ولا نخال انّ حاكما حرا او مستبدا كان يعنيه ان يتمحل العلل للحجر على الدعوة الصريحة الى القتل واهدار الدماء ومن امثلتها مانشر في ديوان «.وطنيتي » من ابيات يقول فيها ناظمها :

هل سال في مصر الدم أم هل افاق النوم
ومضوا الى أهل الضلا ل فأعدموا من أعدموا

فإنه لمن سخافة القائل ان يتهم بالاستبداد حكومة تسمح بنشر هذا التحريض . فان لم تكن مستبدة فمن السخف أن يحاسبها على منع هذا التحريض وتحريمه . . فما كانت حكومة حرة او مستبدة لتحاسب على هذا المنع وهذا التحريم .

حفرت قبرها بيدها !

وكأنما كانت الصحافة الاسبوعية والصحافة اليومية في سباق بينها على تدبير المعاذير للسلطة التي تعمل على تقييدها والحجر عليها . . فقد كان جمهرة الصحفيين الاسبوعيين في ذلك الحين يستبيحون كل محظورة في التشهير واستغلال الفضائح وافتراء الاكاذيب لاغتصاب الاتاوات التي لا موعد لها ولا حدود لتكرارها باسم « الاشتراكات » او التبرعات الوطنية ، ويشاء لها سوء حظها وحظ الامة أن يكون ممثلو البلاد أكبر أهدافها واول من يصاب بسهامها ، فكان التشهير بأعضاء مجلس الشورى بابا ثابتا من أبواب كل صحيفة اسبوعية تبحث عن الفريسة بين ذوي الاسماء المعروفة ، ولم يكن لأعضاء مجلس الشورى سلطان في الحكم يحاسبون عليه او يناقشون فيه ، وانما كانوا من اعيان البلاد وكان أكثرهم بعاصمة البلاد على مقربة من جمهرة الصحفيين الاسبوعيين فكادوا أن ينوبوا عن البلاد جميعا في مصابها بالصحافة الاسبوعية وتصدى بعضهم للمطالبة بتقييد الأقلام قبل أن يتصدى لها الوزراء والحكام .

قال احدهم للامير حسين كامل مستثيرا لنخوته : هل يرضيك يا صاحب السمو أن يقال عنك انك رئيس مجلس الشوربة ؟ . .

وعلى هذا النحو تبتلى البلاد بالنكسة وقلب الحال ، وينادى بالحجر على حرية الصحف من كانوا أحق الناس بالغيرة على حريتها لو لم يكن قوامها العدوان على حرية الناس . .

في القائمة السوداء !

وطالت محنة الصحافة هذه بمن يجنون عليها من ابنائها العاملين فيها ومن اعدائها الساخطين عليها . .

وطالت حيرتي بين العمل فيهاوالعمل في غيرها ، واين يكون العمل في غيرها ؟

انه التدريس ولا شيء غيره . . فان لم يتيسر في المدارس الاهلية فقد يتيسر باعطاء الدروس الخصوصية ، واما وظيفة الحكومة فهيهات الآن « هيهاتين » لا هيهات واحدة . . لانني كنت قبل اشتغالي بالصحافة اتنحى عن وظيفة الحكومة لنفوري منها . . فالآن اطلبها ـ ان طلبتها ـ ولا اظفر برضاها ، بعد ان ثبت اسمي في سجلات الحكومة بين أسماء القائمة السوداء وبعد أن صار الغضب على الصحافة والصحفيين غنيا عن الاسباب . .

ولا بد من عمل عاجل على أية حال ، لان تكاليف المعيشة على الشاب الذي لا يكسب رزقه من وظيفة ، ولا من مورد يملكه ، ضرورة ملحة لا تحتمل الارجاء من يوم الى يوم . . . ولا نقول من اسبوع الى أسبوع .

وكرهت نفسي ان ألجأ الى أحد من الميسورين من أهلي ، وهم غير قليلين بحمد الله . .

كرهت نفسي ان الجأ اليهم ، لانني تحديتهم جميعا وخيبت رجاءهم قاطبة

بالخروج من الخدمة الاميرية بعد ان وصلت اليها بين مزدحم الطلاب المتهافتين عليها ، وشق علي ان ارفض نصيحتهم ثم أسعى اليهم لألتمس معونتهم ، وخيل اليَّ أنهم قائلون بلسان الحال ان لم يقولوا بلسان المقال : إنك اعرضت عنا وذهبت الى الصحافة . . فأمامك اليوم صحافتك العزيزة ، فخذ منها ما تعطيك . . !

وإلى أن يوجد العمل ، ما العمل ؟ . .

تبين لي بعد قليل ان المصرف الاكبر بالامس صالح ان يكون اليوم موردي الاكبر ، ان لم يكن موردي الوحيد . .

هذه الكتب الكثيرة لم لا تباع الى ان تتجدد القدرة على شرائها، ان تجددت الحاجة اليها ؟ . .

انها الآن تعد بالمئات بعد الاقبال على شرائها نحو ثلاث سنوات . . وليس من المنظور ان تباع بثمن الشراء مع الحاجة الملحة الى البيع السريع ، ولكنها تباع بما يكفي لقوت اليوم واليومين والاسبوع . . وقد تكفي خمسة قروش لقوت اليوم في تلك الفترة ، وما علينا من أجرة البيت وأمثالها من النفقة المتجمعة التي تقبل التأجيل زمنا طويلا او غير طويل . .

ولقد كان موردا نافعا قد يمتد فيسعفنا ـ مع الدروس الخصوصية ـ بضعة شهور . .

لولا حواء ، وبنات حواء ، جزاهن الله بما هن أهل له من جزاء . .

من سكن الريف عرف خير ما في بنات حواء من مروءة وصفاء ، ولم يخف عليه شر ما فيهن من كيد والتواء . .

هن الامهات المتطوعات للشاب الناشىء والمنفرد بمعيشته في عقر داره . .

من ترى يهيىء له طعامه ؟ من ترى يهتم بتنظيف ثيابه وترتيب اثاثه ؟ ولم

لا يتزوج ؟ ومن تراها تنفعه وتلائمه من بنات الجيران ؟ . .

وقد كنت اسكن في حدائق القبة في ضاحية كالقرية الريفية في كل شيء ، ومنه ـ بل أهمه ـ الامهات المتطوعات والخطيبات « المزعومات » . .

وكانت لي خطيبة منهن لم اخطبها ، ولم أتحدث اليها ولا الى احد من اهلها في حديث زواج . . وكانت لها صاحبة لعوب في مثل سنها متزوجة من بعض ذوي قرباها ، فقالت لي ذات يوم : ان فلانة لا تأتي الى ناحيتك في هذه الايام لأن صويحباتها يعاكسنها ويسمينها خطيبة « أبو طويلة » . . ولا تغضب هي من هذه التسمية ، بل تقول لهن مزهوة مستخفة : وما له ابو طويلة أليس خيرا من المساخيط ؟ . .

ولم اشأ ان أجيب الفتاة اللعوب جوابا يكسر خاطر الخطيبة التي لم اخطبها ، ولم أشأ كذلك ان أجيبها جوابا يربط الخطبة المزعومة ويؤكدها ! . . . ولم أزد على ان قلت : شكرا للفتيات العابثات ، فقد احسن والله الاختيار والانتقاء . . ولو كان في نيتي ان أتزوج او اخطب لما وجدت في الحي زوجة أجمل من صديقتك الحسناء . . .

قالت : كأنك في غير هذا الحي تجد من تخطبه ؟ . .

قلت : ولا في غير هذا الحي . . ولكنني الآن في شاغل عن الزواج . أفلا ينبغي ان أعول نفسي قبل أن أفكر في زوجة اعولها ؟ . .

وكأنها خطبة قد انعقدت بهذا الحوار ، وكأنه حق مكتسب للسؤال عن الحركات والسكنات ، وعن المبيت في المسكن وغيابي عنه بعض ليال . .

ولم أفارق المنزل بحملي من الكتب على دفعتين أو ثلاث حتى اعتقدت الخطيبة انني أنوي الرحيل ، وأهم بفسخ الخطبة التي لم تنعقد قط بكلمة تصريح او تلميح . . وعزز اعتقادها عندها انني كنت احمل كتابي للمطالعة الى

حقل من حقول الليمون بجوار جدول في طريق كنيسة ، فقيل لها انه يهيم بفتاة قبطية هناك ، وأنه يؤجل مسألة الزواج بها لأنها مشكلة لا تنحل الا اذا انحلت بينهما مشكلة الاختلاف في الدين . .

وأين أنتم يا أصحاب المنزل الغافلين عن سكانه وعن زواره وجيرانه ؟ ان ساكنكم الاعزب ليستعد للهرب بالاجرة المتأخرة عليه . . فان لم تصدقوا فتربصوا له في الطريق وانظروا اليه وهو يحمل كتبه دفعة بعد دفعة ليترك لكم حجرتكم خواء خلاء ، لا يعوضكم عن أجرتكم الضائعة ان حجزتم عليه ! . .

وصدق أصحاب المنزل الغافلون ، او المزعوم عنهم بالباطل أنهم غافلون . .

وحيل بيني وبين أول « رصة » من الكتب خرجت بها بعد هذه الوشاية ، وكادت ان تكون مشاجرة ريفية من طراز الشجار بالنبوت على الحقوق الضائعة ، ولكن الله سلم وألهمني ان أسلم الكتب وأمضي بسلام . .

وفي يومها اقترضت اجرة السفر للعودة الى أسوان . .

وفي اليوم التالي لوصولي الى اسوان ، ارسلت منها حوالة بريدية الى صديق لي من ابناء الاقليم ، يدير محلا مشهورا لبيع الطرابيش وتركيبها . .

وانتهى كيد حواء ليلحق به كيد المقادير التي لا تقع في حسبان . .

فقد كان صاحبنا الطرابيشي ممن اشتركوا في ترويج الطربوش الأبيض احتجاجا على دولة النمسا التي كانت تصدر الينا الطرابيش الحمراء ، لانها اعلنت ضم بلاد البشناق اليها من أملاك الدولة العثمانية ، فقاطعها المصريون واستغنوا برهة عن الطرابيش الحمراء بالطرابيش البيضاء . .

واضطغنها وكلاء المعامل النمسوية في القاهرة ، فنصبوا فخاخهم

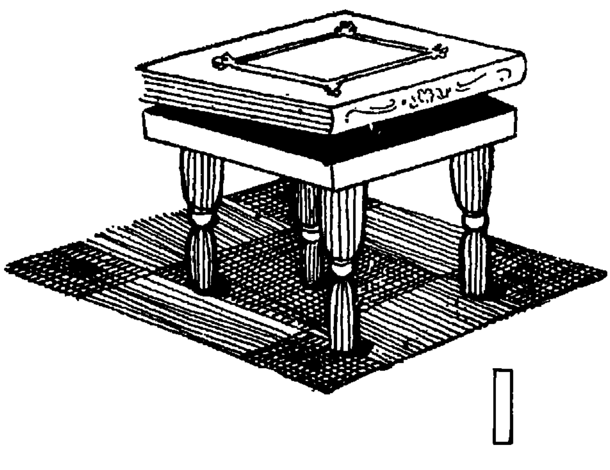
وحبائلهم لجماعة التجار الدين اشتـركوا في حركة المقاطعـة ، ومنهـم صديقنـا الطرابيشي من اقليم أسوان . .

فـلما وصلت الحوالة البريدية الى القاهرة ضاعت في تيه الحراسة والحجز والتصفية واجراءات « السنديك » وأمناء الحسابات . .

ومضت سنوات وانا لا اعلم مصير كتبي في معتقلهـا المهجـور ، الى أن لقيت الاستاذ عبد العزيز الصدر عرضا فأنبأني ان جيرانه في حدائق القبة عرضوا عليه تلك الكتب فاشتراها ، وانه على استعداد لردها الي بثمنها اذا أردتهـا . فشكرته وقلت له انني لا أحتاج اليها ، ولكنني قد استردها بثمنها اذا اتسع لها مكان عندي . ولم يتسع لها ـ بعد ـ مكان . .

الفصل الخامس

بين الأمل واليأس



بين الأمل واليأس

وصلت الى أسوان كالساهر الذي طوى الليالي وصالا بغير راحة ، ثم ركن بجنبه لحظة واحدة الى طرف الفراش .

انه في سهرته يواصل الحركة ولا يبالي متى يرقد ليستريح ، ولكنه يرقد لحظة واحدة فلا يدري متى هو قادر على النهوض .

كنت أجور على جسدي ولا اعرف لهذا الجور حدودا يرجع عنها ، لان تلك الحدود لم تصدمني قط بصخرة من صخورها ولا بحاجز من حواجزها . .

وكنت أحضر ندوة الزملاء عند ميدان المديريةبالزقازيق، ثم أعبر المدينة في ليالي الشتاء الى مسكني على حافة كفر الصيادين . . فلا اكترث للمطر ولا للبرد ، ولا ألبس المعطف ولا أحمله تخففا من مؤنة حمله على الذراع ، وهو معلق في حجرة الدار يعلوه الغبار . .

وكنت اقضي اليوم في حدائق القبة على وجبة واحدة من الخبز والجبن أو من الخبز والفول ، ولا يخطر لي ان اهمال الغذاء ضرر أذكره لحظة بعد ذهاب الجوع .

وكنت أفتح الكتاب الجديد فيروقني ما قرأته فيه فلا القيه من يدي حتى أفرغ منه اخر الليل ، ولا ضياء في البيت غير شمعة أو مصباح ذي فتيل . .

وكنت احسب ان سفرتي الى اسوان ضرورة الجأتني اليها قلة

« المصروف » في القاهرة ، فلما وصلت الى أسوان علمت أنها ضرورة ما في ذلك جدال . . . ولكنها ضرورة الافلاس في ذخيرة البنية واعصابها وليست بضرورة الافلاس في ذخيرة الجيب . . !

وقد وقع في خلدي أنني ازداد نشاطا في بلدتي لانها مصحة للجسم ومصحة للنفس بين الاقرباء والاعزاء ، فعجبت بعد ايام حين رأيتني أفقد النشاط لأيسر الاعمال ، وكنت احسبه تيارا متجددا لا يقبل النفاذ . .

تجمعت المتاعب دفعة واحدة وبدا لي كأنني مريض بكل داء ، معروف وغير معروف . . ولا مرض هناك غير الركود والاعياء بإجماع الاطباء ، ومنهم الفطاحل العالميون الذين يفدون الى المدينة مشتغلين أو يفدون اليها في حواشي الامراء . .

وتملكتني فكرة الموت العاجل ، فأدهشني انني لم أجد في قرارة وجداني فزعا من هذه الفكرة ، وكدت اقول لنفسي انني أطلبها ولا أنفر منها . . !

وأخال ان صدمة اليأس كانت أشد على عزيمتي من صدمة المرض ، أو على الاصح ، من صدمة الاعياء . .

وأشد ما أصابني من هذا اليأس انه كان يأسا من جميع الآمال ، ولم يكن يأسا من امل واحد . .

خلاصة الامل !

كان يأسا من معنى الحياة ، ومن كل غاية في الحياة ، لانني قبل ذلك بشهر عكفت على القراءة في كتب « الفلسفة المادية » وأكثرت من النظر في مذهب النشوء والارتقاء ، فلاح لي أنه اصدق من أقوال خصومه المتعصبين الذين تصدوا للرد عليه بين الاوروبيين باسم الدين ، ولاح لي من النظرة الاولى على غير روية

فيه انه يهبط بالانسان الى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراجا واحدا يرتفع عليه . .

وكذلك كتبت في مقدمة كتابي « خلاصة اليومية » . . ان « الانسان حيوان راق ولكنه حيوان » . .

وقصة « الخلاصة » هذه هي قصة الامل الذي بقي عندي يومئذ في شهرة الادب ، وفي عدد الايام التي أقضيها قبل ظهور هذا الكتاب ، وكنت اظنني مبالغا اذا حسبتها بأكثر من الايام !

هو الموت اذن كما استقر في خلدي بلا أثر ولا خبر . . وهو الموت اذن أمضي اليه صفر اليدين من مجد الادب ، ومن مجد الدنيا ، ومن كل مجد يبقى بعد ذويه . .

وهل هذا يليق ؟ يا ضيعة الرجاء المجد المتطلع الى عشاقه وعباده ؟ . . فهل أقل من هدية في اليد تجبر خاطر العرف على ابواب الابدية ؟ وهل يقال انه يجلس على الابواب في انتظار زيارة فارغة اليدين ؟

ويجوز انني كنت أطيق في تلك الغاشية ان أوفي القربان المطلوب بتصنيف كتاب من وحي الساعة والمناسبة ، ولكنني عدلت عنه لضيق الوقت والشك في اتساع الاجل ويجوز انني قنعت بما تيسر ووجدت ان الخطب أهون من أن أتكلف له عملا أحاوله واستنفد به الفضلة الباقية من مطالب العمر المحدود . . فاذا كان ما تيسر كافيا فذاك ، وان كان للمجد ضريبة أغلى مما تيسر فله أن يتقضاها حيث يلقاها . . فلا خير في جود بغير الموجود . .

وما تيسر يومئذ هو « خلاصة اليومية » .

يوميات اليأس !

و« اليومية » هذه هي دفتر صغير كنت أقيد فيه الخواطر والتعليقات ،

وأبادر الى ايداعه أبيات الشعر التي نظمتها ولم أتممها قبل أن أنساها ، أو رؤوس الموضوعات التي نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات الطريق ونوادر الاحاديث العابرة التي أعاودها في مناسباتها . وقد اجتمع عندي من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات . . فلما وقع في وهمي أنني سأذهب ـ بغير أثر ولا خبر ـ تصفحت هذه الدفاتر ، ونقلت منها صفحات متفرقة تشتمل على جميع نماذجها ، وبعثت بها الى صديق في القاهرة أقول له ان هذه الصفحات هي كل ما أتركه اذا تركت الحياة ، فإن وجدني أهلا للذكر ووجدها أهلا للنشر فتلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقي ، والا فلا حرج عليه ان يهمل نشرها ويسلمها للنسيان يطويها حيث طواها في زاوية من زواياه . .

ولبثت هذه « الخلاصة » المخطوطة سلاحا من أسلحة الفكاهة والنكاية يشحذه اخواننا الذين عرفوا القصة ولم يتورعوا عن استغلالها . . فمنهم من يقول متململا : متى تظهر خلاصة اليومية ؟ لقد طال الامد على انتظارها . . ومنهم من يقول مستمهلا كلما شكوت أو التمست العلاج : على رسلك بالله . . ! ان المطابع مشغولة في هذه الايام . . . فاصبر هنيهة حتى تفرغ لطبع خلاصتك وأمثالها . . !

وما برحوا يستعجلونني ويستمهلونني حتى أرحتهم وأرحت نفسي بطبع خلاصة اليومية ، بعد أن أضفت اليها وحذفت منها ، وكان من التوفيقات التي لم اترقبها انها نفدت في أقل من ستة شهور ، فلم يبق من الفي نسخة طبعتها منها غير مائة أو نيف ومائة ، وهو نجاح غريب لكتاب ولدته فكرة يائسة من الحياة . .

الاكاذيب المتفق عليها !

ولقد عاش معي وهم الموت حقبة في أسوان ، وعاش معي حقبة اخرى في القاهرة . . بعد ان رجعت اليها في وقدة الصيف ، ولكنني التفت فلم أجده

معي في شاطىء الاسكندرية يوم ذهبت اليها لاول مرة ، بل وجدتني مع عرائس البحر وعرائس الشعر في لجة من لجج الامل والمغامرة ، وبرحت الإسكندرية بعد شهرين لابحث عن عمل بالقاهرة . . . اين ؟ أفي الصحافة ؟ كلا . . فما زالت الصحافة في مثل محنتها التي عهدتها يوم انتهيت من عملي فيها . . أفي التدريس ؟ . . كلا ايضا . . فإن المدارس قد بدأت عملها ، ولا معرفة لي بأحد من أصحابها . .

ولم يطل بحثي هذه المرة ، فانني وجدت « المأوى » الذي لا بد منه في عمل بين الصحافة والوظيفة ، أو بين خدمة الميري والخدمة الحرة ، فعملت في قلم السكرتارية بديوان الاوقاف . .

كان الاستاذ « عبد الرحمن البرقوقي » رحمه الله قد أصدر مجلته البيان وكتبت فيها بعض الفصول ، ومنها تلخيص لكتاب « ماكس نوردو » المشهور عن أكاذيب المدنية الحاضرة . .

وكان من دأب الشيخ البرقوقي ان يسأل شيوخ الادب رأيهم في مقالات المجلة وأبوابها . . فسأل حافظ عوض ، وسأل مصطفى صادق الرافعي ، وسأل محمد المويلحي صاحب عيسى بن هشام . فانتقد حافظ عوض عنوان الكتاب كما ترجمته المجلة ، وزاد انتقاده في ثقة الشيخ بكاتب هذه السطور ، لانني ترجمت عنوان الكتاب « بالاكاذيب المتفق عليها » واقترح الشيخ البرقوقي ان « نسجعه » ليوافق أسماء الكتب فجعلناه الاكاذيب المقررة في المدنية الحاضرة . . فلما جاءه النقد من بعيد ـ وهو على عادته سريع التصديق ـ قال لي انه لن يرفض رأيي مطاوعة لرأي السجعة بعد الان . .

وسأل مصطفى صادق الرافعي فزاده انتقاده ثقة بي كذلك ، لانه قال لي انه يسمع حكمه في البيان العربي ويرفضه فيما عداه ولا سيما كتابة الفكر ومباحث العصر الحديث ، وقد أنحى الرافعي على « نوردو » وعلى كاتب هذه السطور ،

فحسنت هذه الشهادة المعكوسة عند الشيخ . .

ولقي صاحبنا المويلحي فسأله عني قائلا :

ـ بماذا يشتغل هذا الشاب ؟

قال الشيخ : بلا شيء !

قال : أتراه يعيش على شيء من ميراث جده العقاد ؟

فأفهمه الشيخ انني لا أنتمي الى « السيد حسن موسى العقاد » المشهور ، وأنه لا قرابة بيني وبين ذلك البيت وأنني اعيش بالقليل مما يردني من أهلي ، وبالقليل من أجور المقالات أو فصول الكتب المترجمة . . فقال المويلحي مبتسما : انه أولى بالوظيفة من اكثر « التنابلة » الذين عندنا في هذا الديوان فطلبتها ، فأجيب طلبي لساعته بغير امتحان . .

وقد كان ديوان الاوقاف في تلك الحقبة مجمع الادباء والشعراء من شيوخ وشبان . . كان فيه محمد المويلحي ، واحمد الازهري صاحب مجلة الازهر ، واحمد الكاشف ، وعبد الحليم المصري ، وعبد العزيز البشري ، وحسين الجمل ، وحسن الدرس ، وعلي شوقي ، ومحمود عماد ، ومصطفى الماحي ، وغيرهم من « المحررين » المغمورين . . وكان عملي الاول فيه مساعدا لكاتب المجلس الاعلى بقلم السكرتارية ، وهي وظيفة من اخطر وظائف الديوان في ذلك الحين .

سمسرة الخديو

وكأنما هي قسمة واحدة تلقاني على صور متعددة في جهات مختلفة . . فكلما اشتغلت بعمل من الاعمال وجدته في ابان أزمة من أزماته أو مرحلة من مراحل الاضطراب في تاريخه ، وأول هذه الاعمال عملي في وظائف الحكومة باقليمي قنا والشرقية . .

في هذين الاقليمين بدأت أول حركة من حركات الشكاية الاجماعية بين الموظفين بعد الاحتلال ، ولم تزلّ قائمة حتى انتهت بزيادة الحد الادنى لمرتبات الوظائف الى خمسة جنيهات. والشروع في تعديل نظام العلاوات وقانون المعاشات .

واشتغلت بالتحرير الصحفي يوم كانت الصحافة المصرية في أحرج أوقاتها بعد قيام الاحزاب وقبل اعادة قانون المطبوعات . .

ثم هأنذا أشتغل بديوان الاوقاف ، وهو ميدان المعركة الحامية بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية وطلاب الاصلاح . . ولست بآسف على هذه القسمة التي تسوقني الى الاعمال في إبان ازماتها ومراحل اضطرابها فقد كانت أنفع لتربيتي النفسية من فترات الهدوء والاستقرار . . وكان عملي في ديوان الاوقاف بين سنتي ١٩١٢ و١٩١٤ أكثر من عملي في وظيفة من وظائف الارتزاق، فقد كنت اجهل الكثير من حقائق بلدي ومن أسراب شؤونه العامة لو لم أقض تينك السنتين في ذلك الديوان . .

كانت يد الخديو مطلقة في وظائفه وامواله . . وكان مع الاسف الشديد يحتكرها لاشباع نهمه من المال والدسيسة ، ولا يأبى ان يسف الى الاختلاس من اموال الصدقات واستباحة السمسرة على صفقات الاستبدال . . وشاعت في تلك الايام قصة أرض المطاعنة التي أخذ فيها الخديو لنفسه ستين ألف جنيه باسم « العمولة أو الوساطة » وعاد بعدها فتعقب كل من عارضوه ووقفوا له في طريقه من الموظفين النزهاء ، يُعاقبهم على الامانة واليقظة بالفصل والاهمال . .

وكان المحتلون يحاربون الخديو على تقليد النزاع بين السلطتين ، ويأبون عليه أن يستأثر بهذه الحكومة الصغيرة في داخل الحكومة الكبيرة ، ويعلمون انهم لا يستطيعون المساس بالمعاهد الدينية فيرجعون سرا الى الاستانة لجس النبض في دار الخلافة والتماس الفتوى من شيخ الاسلام بجواز الرقابة الرسمية على نظار

الاوقاف ، وعلى ناظرهم الكبير وهو أمير البلاد . .

وكان طلاب الاصلاح يهتمون بأمر واحد ، وهو القضاء على المفاسد في ديوان يرتبط به نظام المعاهد الدينية أشد الارتباط . . فلا أمل في اصلاح هذه المعاهد ، ولا في اصلاح القضاء الشرعي معها ، ولا في اصلاح الازهر بفروعه ما لم تكن ادارة الاوقاف خاضعة للرقابة العلنية خارجة من تلك العزلة التي جعلتها أشبه شيء بضيعة من ضياع الخاصة الخديوية ، مع الفارق بين ضيعة يغار عليها مالكها وضيعة يبددها من يملك الامر فيها . .

مقالات بلا توقيع !

وبين هذا المضطرب عملت في الديوان . . والقلم الذي عملت فيه هو حومة المعركة في ميدانها ، لأنه القلم الذي تمر به مذكرات مجلس الادارة ومذكرات المجلس الاعلى ، وهذه هي المذكرات التي تعرض فيها مسائل الموظفين وقضايا الصفقات . .

والسنة التي عملت فيها بالديوان هي السنة التي انتهت بتحويله من ديوان الى نظارة ، وصدور الامر بعرض ميزانيته على مجلس النظارة والجمعية التشريعية . .

ولقد كانت فضائح الاوقاف سرا مباحا لكل من يميل اليه بأذنيه . . فليس فيها من باب أولي سر يخفى على موظف في قلم السكرتارية يتصل كل يوم بموظفي الديوان ممن يشتغلون بمسائل المذكرات التي تعرض على مجلس الادارة او المجلس الاعلى . .

وقد هالني ما علمت من فضائح الديوان بعد فترة وجيزة ، وان كنت لا اجهل قبل ذلك انها شيء يهول . .

وكنت اتكلم ولا اتحفظ . .

وربما كتبت الى الصحف بعض المقترحات لاصلاح الديوان بغير توقيع ، وربما تحدثت بها في المجالس التي اختلف اليها ، وكلها في بيئات الادباء المدرسين بمدارس العباسية الاهلية حيث كنت اقيم . .

وكان الاستاذ حسين روحي الايراني صاحب احدى المدارس الكبيرة في العباسية البحرية ، وكان يعمل في ساعات من اليوم بالترجمة في دار الوكالة البريطانية ، فجاءني عصارى ذات يوم يقول معتذرا :

ـ ارجو ان تغتفر لي غلطة وقعت فيها بغير اذنك ! . .

قلت : خيرا . . فما أظن انني عرضة منك لغلطة تضير . .

قال : إنهم سألوني اليوم عن مقترحاتك في الصحف وأنا اترجمها لهم فقلت انني اعرف كاتبها ، وذكرت لهم انني اراك في كثير من الأيام . . فهل يغضبك ما فعلت ؟

قلت : انني كما تعلم كنت مستعدا ان اكتب في الصحف بتوقيعي لو كنت استطيع ذلك مرتين دون أن يبادروني بالفصل من الوظيفة ، فلا لوم عليك ولا حرج علي . .

قال : ليس هذا كل ما في المسألة . . فان السكرتير الشرقي يريد ان يلقاك . . فهل لديك مانع ؟

قلت : لامانع لديه فما المانع لدي . .

قالوا : لا يزال صغيرا :

وبعد يومين لقيت مستر ستورز مع الاستاذ حسين روحي . فاستهل الحديث بالكلام عن الأدب وعن برنارد شو . . ثم استطرد الى الكلام عن الصحافة ، وأكثر من الكلام على صحيفة « المؤيد » وقرائها ومحرريها ، ثم مضى مستطردا الى الكلام على الأوقاف فسألني عن صفقة منوية على أرض يملكها عين

مشهور من أعيان القليوبية ، وعجبت لعلمه بخبرها وهي لا تزال في دور التحضير الأول ولما تصل مذكرة من مذكراتها الى قلم السكرتارية . .

ثم بدرت منه كلمة جافية لا أدري كيف جرى بها لسانه، الا أن يكون قد تعود الجهر بأمثالها ولم يتعود من أحد أن ينكرها عليه ، فقال : ألا ترى ان حرمان الأوقاف من الرقابة الأجنبية هي علة هذه المفاسد التي شاعت فيها . . ؟!

فصدمتني هذه الكلمة النابية ، ولم البث ان اجبتها بحدة ظاهرة ، فقلت : ان المجلس البلدي الاسكندري يتمتع برقابة اجنبية من كل جنس وملة ، ولا أظنكم تحسبونه مثلا من أمثلة النزاهة والنظام . .

فتنبه وسكت ، ثم استأنف الحديث ليختمه بعبارة صالحة للختام ، واستأذن هنيهة ثم عاد قائلا : ان اللورد - يعني كتشنر - كان يسره أن يراك لولا انه يخرج الساعة الى موعد سريع . .

فنهضت وودعت ، وصادفني اللورد على باب المكتب فأومأ بالتحية ومضى في طريقه ، وجاءني الاستاذ حسين روحي في المساء يقول ويضحك : ماذا صنعت يا أخانا . . ان الرجل اجفل من جوابك الصارم ولكنه قال : إن حديثك كان شائقا جدا . .

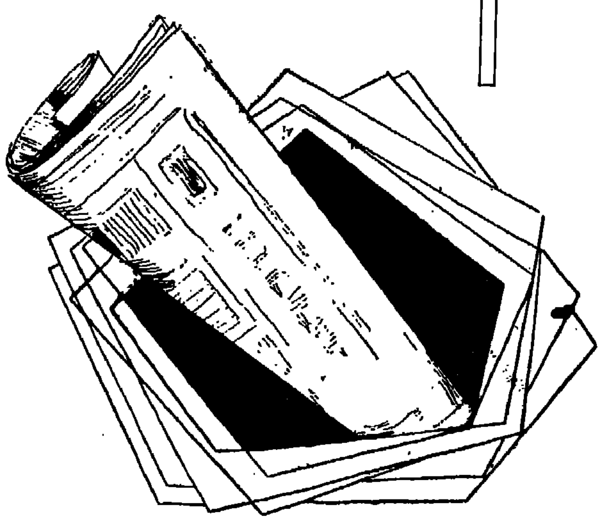
***

وأراد الاستاذ روحي أن يصرف الموضوع ، فقال إن مسألة « المؤيد » كانت عندهم أهم من مسألة الأوقاف ويلوح لي أنهم كانوا يودون لو توليت تحريره ، وكانوا يظنونك أكبر سنا من عشرة العشرين ولكنهم حسبوا عليك جريرة الشباب وقالوا : إنه لا يزال صغيرا .

وهكذا عدنا الى حديث الصحافة من طريق ديوان الأوقاف ، وهكذا سنعود اليه بعد قليل . .

الفصل السادس

بين الوظيفة والصحافة



معركة الأوقاف

عملت في ديوان الأوقاف . . وكان عملي في مكتب السكرتارية اقرب المكاتب الى دخائل الديوان ، ولكنني أعترف اليوم بأن ما علمته في أيام خدمتي بالديوان من خفايا المعركة التي دارت حوله لم يكن غير الفقاقيع التي تطفو على وجه الماء . .

كانت معركة حامية تدور وقائعها بين القاهرة ولندن والاستانة ، وتشترك فيها حاشية الخديوي ودار الوكالة البريطانية وحزب الأمير حليم وأعوانه من رجال تركيا الفتاة ، وأناس متفرقون في القاهرة من طلاب الاصلاح .

وكان الخديوي يستميت في التشبث بموارد الديوان ولا يقبل بحال من الأحوال ان تسحب ميزانيته من ميزانية الدولة ، وحجته في ذلك انه صاحب الولاية على الأوقاف بحكم الشرع وبنصوص الواقفين في كثير من الأحوال . .

وكان المحتلون يحاربون السيطرة الخديوية على الأوقاف كما يحاربونها في كل جهة اخرى . . . ويريدون في حربهم لهذه السيطرة في ديوان الأوقاف ـ بصفة خاصة ـ أن يحولوا بين الخديوي وبين استخدام أموال الأوقاف في حماية سلطانه ونشر دعوته ، سواء كانت مما يخصه ويخص العرش ، أو كانت مما يعم الحركة الوطنية لمقاومة الاحتلال . .

وكان طلاب الاصلاح في حرج شديد لأنهم يريدون أن يقطعوا دابر الفساد في الديوان وما يتصل به من المعاهد الدينية ، ولكنهم يكرهون ان يتوسلوا الى ذلك بمعونة المحتلين . .

ثم حدثت في السنة الأخيرة التي عملت فيها بالديوان حوادث مختلفة بين القاهرة والاستانة غيرت وجوه المسألة ، ويسرت ما لم يكن ميسورا قبل ذلك بسنة واحدة . .

الخديوي بين نارين :

نشأت الجمعية التشريعية بمصر فوجد طلاب الاصلاح منبرا « يوميا » ينادون من فوقه بوجوب الاشراف على ميزانية الدولة كلها ، ومنها ميزانية الأوقاف . .

وتولى الحكم في الاستانة اناس يكرهون الخديوي لانهم أصدقاء أسرة حليم المنافسة لاسرة اسماعيل . ولأنهم يذكرون للخديوي مصادرته لجماعة تركيا الفتاة تمهيدا للمطالبة بجزيرة « طشيوز » التي كانت في حوزة محمد علي الكبير ، ثم استولى عليها السلطان عبد الحميد الثاني مدعيا انها كانت هبة شخصية لرأس الاسرة ، ولم تكن من أملاكه التي تنتقل بالميراث . .

واستطاع المحتلون في ذلك العهد ان يكسبوا لهم عضدا قويا بدار الخلافة ، وأن يحصلوا على وعد من أقطاب الحكومة التركية بمساعدتهم على تقييد سيطرة الخديوي في الديوان ولو اقتضى الأمر خلعه واسناد الامارة الى أمير في بيت حليم . .

وتم اخيرا تحويل الأوقاف من ديوان الى نظارة او وزارة ، وكان اسم الوزارات يومئذ ـ وهو النظارات ـ مما يسوغ ادماج الأوقاف في عدادها ، لاشتهار الاشراف على الوقف باسم النظارة . .

أول وزير :

واختير للنظارة رجل من أنصار الخديوي ترضية له وتغطية لخذلانه ، فكان ناظرها الأول في عهدها الجديد « أحمد حشمت باشا » رحمه الله . . وقد كان

قبل دخوله الوزارة وكيلا لحزب القصر بين الأحزاب الثلاثة ، وهو حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية . .

وبعد أيام قليلة من قيام الوزير بعمله في الوزارة ، جاءتني بطاقة صغيرة من بطاقات الدعوة الى مكتبه ، محدود فيها للمقابلة ساعة قبيل الظهر من ذلك النهار .

وكدت اجزم بالباعث الى دعوتي لمقابلة الوزير ، وأنا موظف في أصغر درجات الوظائف في سلك الخدمة في الديوان .

وماذا يكون الباعث الا انني من المشهورين بادارة الديوان ، وانني ممن تتجه المظنة اليهم في الكتابة عنه بالصحف والعلم باسراره من المذكرات وكتابة المذكرات ؟!

ليس فيها قولان كما هو ظاهر . .

ولكنه في الواقع كان تخمينا نادرا يدل على وجوب التردد في قبول التخمينات مهما تبلغ من الرجاحة والقوة ، فان الوزير لم يتعرض لمسلكي في قضية الديوان بغير التلميح من بعيد . . وانما خاطبني في امر مقالة من مقالاتي نشرتها في الصحف وذيلتها بتوقيعي الصريح ، وهي مقالة كتبتها تأبينا للشيخ علي يوسف صاحب المؤيد رحمه الله ، ونشرتها صحيفة « عكاظ » الأسبوعية التي كنا نخصها برسائلنا النقدية أنا ، والمازني ، وشكري ، وبعض الزملاء . .

ومن أضاحيك المصادفة ان الوزير كان صديقا للشيخ علي يوسف ، وكان وكيلا لحزبه وخصما لكثير من خصومه . . وكان من أشياعه القليلين الذين مشوا في جنازته وأشرت اليهم في بعض ما ذكرته عن وفاء المشيعين له بعد الوفاة .

من فصول الشيطنة !

وكان الشيخ علي يوسف قد ترك المؤيد وهجر الحياة العامة ، واصطلحت عليه العلل والنكبات . . . وقضى نحبه غير مذكور من أقرب المقربين اليه ، فلم

يسر في جنازته منهم غير آحاد معدودين ، بينهم وزير الأوقاف . .

وقلت في تأبينه ان الرجل كان « نفاعا ضرارا » ولكنه كان ينفع ويضر لتمكين نفوذه واستصلاح الأعوان في مشكلاته وقضاياه . . . فمن وصلت اليه يد من أياديه لم يكافئه عليها بالمحبة وخلوص النية ، ولكنه يحس انه مدين مطالب بدين يوفيه في يوم من الأيام . . فلا جرم يشيعونه غير محزونين ويمضون في جنازته متحدثين متشاغلين ، لأنهم في حالة نفسية اشبه بحالة المدين الذي أعفاه موت الدائن من الوفاء له بما عليه . .

خاطبني الوزير بلهجة هادئة كأنها لهجة الاستاذ الذي يلوم تلميذه على فصل من فصول الشيطنة لا يبلغ عنده مبلغ السخط الشديد ولا يخلو من بعض الرضى . فقال بعد الاشارة الى مقال التأبين : « كان أحرى بقلمك الناشىء أن يتخذ له في تأبين الموتى منهجا أطيب من هذا المنهج . وكان عليك الا تنسى في هذا المقام قوله عليه الصلاة والسلام :

اذكروا محاسن موتاكم . . »

فاجتهدت ان يكون جوابي في لهجة توائم لهجة الوزير ، وقلت ما معناه :

« انني لو علمت للشيخ حسنات غير التي ذكرتها لما فاتني ان اذكرها . . » .

فاقتضب الحديث ، مصطنعا الجد ، وقال :

« على كل حال اجعل لقلمك مستقبلا كمستقبل الشيخ ان استطعت ، واستخدمه في عملك ، ودع عنك فضول الأقاويل والأحاديث » .

شبح المؤيد !

المؤيد . . . المؤيد . . . المؤيد . .

ما هذا المؤيد الذي يلوح لي أنني القى شبحا منه أينما ذهبت هذه الأيام ، حيث اريد وحيث لا أريد . .

قبل اسابيع ـ على ما اذكر ـ جاءتني تذكرة مطبوعة كتذاكر الدعوة الى

المحافل والمجتمعات يقول كاتبها « سيد كامل » أنه يتصدى لتحرير المؤيد ويود لو يستعين بالأقلام الفتية في تجديد حياة « شيخ الصحافة » . . أو كلاما من هذا القبيل . .

فمن يكون « سيد كامل » هذا ؟ . .

إنني لم أكن اعلم عنه شيئا ، وأشفقت ان يكون مرشحا للقيام على تحرير المؤيد من قبل الانجليز . . . لأنني تبينت من حديثي مع مستر « ستورز » أنهم يهتمون بهذه الصحيفة ويودون لو يبتعثونها بإشرافهم وتحت رعايتهم وقال لي الاستاذ حسين روحي انهم كانوا يظنون انني « أصلح » لهذه المهمة ولكنني خيبت رجاءهم . .

مولاه !

فهل « سيد كامل » هذا ممن حققوا عندهم هذا الرجاء ، فاختاروه لتوجيه هذه الصحيفة ، ولو من بعيد ؟

خطر لي هذا الخاطر لأول وهلة . . ولم يفارقني حتى علمت المزيد من تاريخ « الدكتور سيد كامل » ، فعلمت انه أفضل وأصدق في الوطنية وفي الولاء لمولاه من أن يصلح لتلك المهمة من بعيد او قريب . . وقد كان مولاه الذي تولى تعليمه في فرنسا على حسابه بتوصية من صاحب المؤيد هو الخديو عباس الثاني وهو الذي رشحه للقيام على تحرير المؤيد بعد اعتزال الشيخ علي يوسف لعمله في الصحافة . . عسى ان يحتفظ بأمانة التراث الموكول اليه من ولي نعمته ومن استاذه الموصى عليه . .

وها هو ذا وزير جديد يفتتح خطابه الأول لي بحديث عن المؤيد وصاحبه وأصحابه ، فما هو شأن المؤيد معنا أو ما هو شأننا مع المؤيد ؟ أهو « لحظ الغيب » يرانا على مقربة من تلك الصحيفة من حيث لا نراه ؟ . .

يحق لي ـ لو أردت ـ أن أصدق هذه الهواتف الغيبية ، فانها لم تنته عند

هذه النهاية ، ولم تزل تلاحقني بخبر من هنا واشارة من هناك حتى عادت بي الى العمل الصحفي محررا بالمؤيد . . وكان السبب المباشر لعودتي اليه قصيدة نشرها المؤيد . . ونظمها شاعر من شعراء السكرتيرية بنظارة الأوقاف ، وهو المرحوم عبد الحليم المصري الذي كان يتطلع الى مكان « شوقي » في القصر الخديوي ووصل اليه ولكن بعد زوال الخديوية . .

فضيحة الأدب :

نظم عبد الحليم قصيدة من أحسن قصائده عن الخصيب أمير مصر في أيام الدولة العباسية ، وقال فيها عن شاعر النيل :

وشاعر النيل دون الخلق يشربه   بينا يشق الصدى منا الحشاشات

وما كان يعني في الحقيقة غير الخديو عباس وشاعره احمد شوقي ، وما كان بالقارىء من حاجة الى البراعة لفهم هذه المواربة المكشوفة . . فقد فهمها كل قراء المؤيد من الأدباء ، ولم يخف مقصدها على أحد غير محرر المؤيد الأول في تلك الأونة : احمد حافظ عوض الذي ترك منصبه في قصر عابدين ليشرف على تحرير هذه الصحيفة في أدق مرحلة من مراحلها ، وخاتمتها . .

أولا تنشر تلك القصيدة عن الخديو وشاعره الا في المؤيد دون غيره من الصحف اليومية والأسبوعية ؟ . .

فضيحة من فضائح الأدب والصحافة لم ينم لها حافظ عوض ، ولم ينم لها شوقي ، ولم تنم لها نظارة الأوقاف . . وأولهم ناظرها في ذلك الحين ـ محمد محب باشا ـ وقد كان متهما في الحاشية الخديوية بمحاباة الانجليز . .

حضر « حافظ عوض » ذات يوم الى ديوان الوزارة ، ولقيته في مكتب الوزير ولا ادري على التحقيق هل دعاني أحد الى المكتب للقائه ، او ذهبت الى المكتب بغير دعوة من احد لسبب من أسباب العمل في مذكرات المجلسين : مجلس الادارة ، والمجلس الأعلى . .

ولكنني لقيت حافظا يبتدرني بالسؤال والسلام ، ويقول لي مازحا : ماذا تصنع هنا ؟ إن مكتبك مستعد بدار المؤيد ، وإن عملك الـذي خلقـت له ان تكتب المقالات لا أن تلخص المحاضر والمذكرات .

ثم قال : إن صفحة الأدب في المؤيد تحتاج الى اديب يتفرغ لها ، ولا ينظر في عمل من اعمال الصحيفة غير كتابتها أو الاشراف على ما يكتب فيها . .

قال : ولو ان وقتي كان يتسع للتفرغ لهـذه الصفحـة لما استغفلنـي هذا « الولد » ودس علينا تلك القصيدة المسمومة التـي جعلتنـا سخـرية المجـالس الأدبية .

ولم اتردد في قبول الدعوة الى تحرير الصفحـة الأدبية في شيخ الصحافـة العربية ، فانني لم اكن اطمح في الرابعة والعشرين الى عمل أهم من هذا العمل في الصحافة . . فان كانـت لديَّ بقية من الرغبـة في صناعـة القلـم من طريق الصحف فلا انتظار اذن لما هو اولى بالقبول من هذه الدعوة بعد ان جاءتني بغير عناء وبغير طلب . . ولا محل للتردد الا ان يكون عملي في نظارة الأوقاف احب اليَّ وأجدى علي من العمل في الصحافة ، ولم يكن عملي في النظارة مرضيا لي في حياتي الأدبية ولا في حياتي المعيشية ، فعلام التردد ؟ وفيم البقاء ؟ . .

العودة الى الصحافة :

وامتلأ مكتبي « الخالي » بدار المؤيد قبل ان ينقضي الأسبوع . . ولم يمض ايام حتى عاودني الطالع القديم : ذلك الطالع الذي تحدثت عنه في مذكرة سابقة من هذه المذكرات . . لا أدخل عمـلا الا وجدتـه في مرحلـة من أدق مراحـل تاريخه ، منذ عملت في الوظائف الحكومية ، الى أن عملت في الصحافة ، الى أن عملت في ديوان الأوقاف ، إلى أن عاودت العمل في الصحافة كرة أخرى !

ولا أطيل في شرح تلك المرحلة من حياة المؤيد ، فقد يغني القارىء عن شرحها انها وافقت الشهور الأخيرة من تاريخ الخديوية المصرية قبل الحرب العالمية

الأولى ، وأنني لم أسلخ في المؤيد شهرا او شهرين حتى ماجت الدار بالحركة التي شغلت رئيس التحرير عن الدار وعن صفحتها الأدبية وصفحاتها الأخرى ، وتركتني فيها بين دسائس القصور ودسائس الصحيفة التي لزمتها من مخلفاتها التقليدية !

كان الخديو يعلم ان لورد كتشنر يصر على خلعه ويرشح للخديوية أميرا من أمراء بيت حليم ، وكان يعلم ان كتشنر لن يغلبه بقوة غير قوة الخلافة في الاستانة أو قوة الرأي العام في مصر ، وفي طليعتها قوة المعارضة من قبل الجمعية التشريعية .

فأما قوة الخلافة في الاستانة فقد احتاط لها الخديو بسفره في تلك السنة الى الاستانة ، وعدل عن زيارة المصائف الأوربية كعادته في السنوات الخالية ، ليبقى الى جوار الخليفة متأهبا لإحباط المؤامرة عليه .

الخديو يزور سعد زغلول !

وأما قوة الرأي فقد احتاط لها برحلة شعبية في الوجه البحري تعمد فيها زيارة الأعيان في قصورهم وزيارة الفلاحين بين اكواخهم واستقبال الشعب حول سرادقات الاحتفال حيثما نزل بقرية من قراهم ، غير ممنوع منها احد من الكبار او الصغار ولا من الرجال او النساء ، ولج به الحرص على ابراز صداقته للمعارضين في الجمعية التشريعية فجعل اسماءهم في الصف الأول بين اسماء الأعيان الذين تقع قراهم على خط الرحلة ، ودعاهم الى مصاحبته في غير قراهم ، وأولهم سعد زغلول .

ولم يشأ الخديو ان يؤتمن على مراسلة « المؤيد » بأخبار الرحلة احد اقل من رئيس تحريره فأخذ حافظ عوض في ركابه ، وجاءني حافظ الى مكتبي قبل سفره يمهد للطلب الذي يريده مني : وهو تنقيح اخبار المراسلين بالصبغة الأدبية وانتظار الرسائل منه لمراجعتها قبل اثباتها في الصحيفة بالصيغة الأخيرة ، وهي

الصيغة التي ستظهر بها في الكتاب الذهبي وكرر كلامه عن الرحلة وعن الصيغة التي ستظهر بها بعد ذلك في سجل شبيه بالسجلات الرسمية ، وانصرف وهو يقول : انه عمل أدبي خالد على أية حال ، وانه يستحق ان اؤ جل من اجله صفحة الادب الى حين .

الكتاب الذهبي !

وانهالت الرسائل كالمطر المنهمر من المراسلين واعيان الأقاليم وكل من قال له الخديو كلمة او قال كلمة للخديو وضاق الوقت عن ملاحقتها بالقراءة والترتيب فضلا عن التنقيح والتصحيح ، ثم انطوى الكتاب قبل أن تنفتح صفحة من صفحاته ، ولا يزال منطويا الى الان .

مشترك من مشتركيه الموعودين ضل طريقه الى حجرتي بدلا من حجرة المحرر الذي كان منوطا بتسلم الرسائل وتسليمها اليَّ بقائمة مكتوبة لايداعها في ملفاتها الى حين الفراغ من تدوينها . فعلمت من خلال كلام المشترك الموعود انه اعطى المحرر المنوط بتسلم الرسائل عشرة جنيهات باسمي ، وأنه حضر في ذلك اليوم ومعه شيء زهيد على سبيل الهدية : ساعة وسلسلة ذهبية . . ولي بعدها هدية على « قد المقام » بعد ظهور الكتاب .

وتركت « الملفات » في أماكنها ريثما يعود رئيس التحرير من الرحلة ، وعاد رئيس التحرير فاستعفيته من العمل في الكتاب وابلغته ما سمعت ، وقلت له ان محرري المؤيد احرار فيما يأخذونه ويدعونه ، ولكنهم لا يملكون ان يزجوا باسمي في معاملاتهم ومبايعاتهم ، ويحق لي اذا فعلوا ذلك ان اصحح ظنون الناس ، وسأترك له ـ أي لرئيس التحرير ـ أن يختار طريقته لتصحيح هذه الظنون . .

فتجهم رئيس التحرير وتوعد المحرر المسؤول بالويل والثبور ، ووعدني ان يكتب غدا في المؤيد كلمة تزيل اللبس وتبعد الشبهة عني في أمر الكتاب

ورسائله واشتراكاته ، ورجاني أن اغض النظر عن المسألة ولا انقطع عن العمل في الكتاب .

ويعلم اصحاب الاستاذ حافظ رحمه الله انه كانت له مواطـن ضعف في تحياته ومقابلاته ، ومنها انه يتشبه بالأمير في مناورات الرضى والغضب والتقريب والاقصاء ، وأنه يجعل من زمرة عمله بلاطا صغيرا تكثر فيه مناوبات التشجيع والاعراض ولمحات الابتسام والعبوس ، وقد شهدنا في مساء ذلك اليوم تمثيلية وجيزة من هذه التمثيليات ، كانت هي فصلها الأخير !

اخر عهدي بالصحافة !

في مساء ذلك اليوم زارني الاستاذ المازني والاستـاذ محمـود سعيد الـذي اصبح بعد ذلك مستشارا في المحاكم الأهلية ، ونزلنا الى باب الدار ننتظر مركبة خالية تمـر بنـا لنستقلهـا الى ندوتنـا المعهـودة عنـد دار القضـــاء « في الوقـــت الحاضر » . . ولم نكد ننادي المركبة العابرة حتى مر بنا الاستاذ حافـظ عوض يحيينا بيمناه ويضع يسراه في ابط المحرر « المتهم » وهـو مقبـل عليه بالضحـك والحديث ، ثم صدر المؤيد في اليوم التالي وليس فيه كلمة عن الاشتراكات ولا عن تصحيح الظنون . .

وكان هذا آخر عهدي بالمؤ يد وآخر عهدي بالصحافة قبل الحرب العالمية الأولى ، لأنها نشبت قبل نهاية الصيف !

يجوز . . .

أغلب الظن عندي ان قصة خروجي من نظارة الأوقاف ثم من صحيفـة المؤيد كانت « قضاء وقدرا » كما يقولون في لغة التحقيقات القانونية .

أما العارفون بتحقيقات الحواشي الملكية فقد كان لهم رأي آخر في القصة بحذافيرها ، وكان من رأيهم ان الخطة وضعت يومئذ في القصر لفصل كل موظف

بالأوقاف عرفت عنه المعارضة في نظام الديوان ، لا فرق بين اكبر الموظفين واصغر الموظفين !

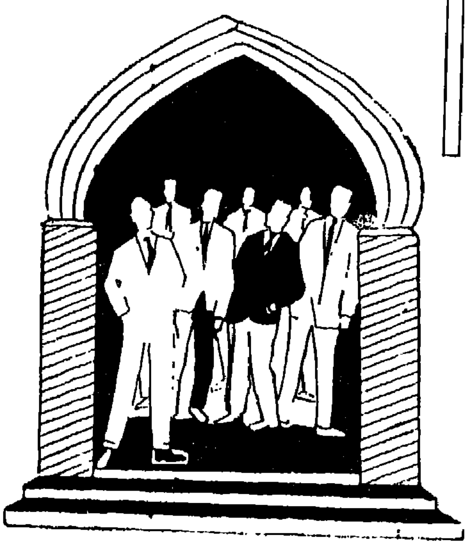
وكان اكبر المعارضين من الموظفين لصفقات السمسرة والاستبدال عبد الرحمن فهمي « بك » وكيل النظارة ، فخرج محالا الى المعاش .

وكنت أنا اصغر المعارضين من الموظفين ولا حيلة لهم في فصلي بالاحالة الى المعاش ، فليكن فصلي « بصنارة » الصحافة ، ثم بمائة سبب ميسور بعد الوصول الى البر . . غير الأمين !

و « يجوز » هي كل ما اقوله في التعقيب على هذه الفكرة القريبة البعيدة ولولا انني استقلت من النظارة ورفضت استقالتي قبل ذلك ، لرجحت التدبير بفعل فاعل على القناعة « بالقضاء والقدر » في تعبير العارفين بالحواشي الملكية ! .

الفصل السابع

في الحرب العالمية الأولى[1]



ساعات بين الكتب

أقمت في القاهرة أياما بعد استقالتي من تحرير « المؤيد » على نية السفر الى الصعيد الاعلى ، وقد منيت نفسي موسما كاملا من المواسم الجميلة في مدينة الشتاء ، ورسمت برنامجي لذلك الموسم الموعود بين المطالعة والتأليف والرياضة والبحث عن التاريخ الطبيعي ومضامين الاثار في أسوان وهي غنية بالمضامين المعلومة والمجهولة ، من أيام الفراعنة الى أيام المماليك الى ايام الدولة العثمانية ..

وأعددت العدة للكتاب الذي نويت تأليفه باسم « ساعات بين الكتب » وجعلت عنوانه دليلا على موضوعه أو موضوعاته ، فهو كتاب أسطر فيه خلاصة ما قرأت وزبدة التعليقات التي وقعت في خاطري واطلعت عليها أثناء القراءة ، أو هو كتاب عن الكتب أردت به أن أصل بين عالم الكتب وعالم الحياة وبين آراء المؤلفين وآراء القراء ، كما تبدو لي من النظر والمراجعة والاحاديث .

وكان الموسم خصبا حقا بثمرات التأليف ، لانني انتهيت من كتاب « ساعات بين الكتب » في نحو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل في أهم مذاهب الفكر الحديث ، وأولها مذهب داروين ومذهب نيتشه في السوبرمان .. وهذا الكتاب غير الكتاب الذي ظهر بعد ذلك باسمه واعيد طبعه مرات ، لأن « ساعات بين الكتب » التي كتبتها في أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير خمسين أو ستين صفحة .

الانسان الثاني

وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة ، سميته « الانسان الثاني » ولم يبق منه كذلك غير صفحات .

وأتممت رسالتي « مجمع الاحياء » تلخيصا للآراء في فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التي تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية ، وهي الكتاب الوحيد الذي تم ونشرته تاما بعد تأليفه بفترة وجيزة . .

ونظمت في هذا الموسم الاسواني اكثر من نصف قصائد الجزء الاول من الديوان ، ومنها قصيدة دالية مطولة نبذتها بعد ذلك لانها تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم يبق لها في نفسي سند سليم ولا مسوغ مقبول . .

أما الكتابة الصحفية ، فقد ذهبت الى أسوان وأنا احسبني في اجازة منها الى موعد غير مسمى . . وخيل اليَّ أنها ستكون أقل الشواغل شغلا لي حتى في الاطلاع عليها والعناية بأخبارها ، فان عاودني الحنين اليها فلتكن عودتي اليها بقصيدة من الشعر ، أو مقالة في حكم القصيدة الشعرية ، توحي بها لمحة من لمحات الخاطر أو عارض من عوارض الشعور . .

وتقدرون فتضحك الاقدار . .

وقدرت ان الكتابة الصحفية لن تشغلني قارئا ولا كاتبا خلال مقامي في أسوان ، الا أنها تسلية من قبيل تزجية الفراغ ، فاذا بمقالة واحدة كتبتها ـ من هذا القبيل ـ تشغلني اضعاف شغلي بمقالات الصحف سنوات في أحرج ايام القلاقل والقضايا والازمات ، مع انها قرئت مخطوطة قبل أن تقرأ مطبوعة ، ولم تزد نسخها المتداولة اولا على عدد اصابع اليدين . .

تلك هي مقالة « نادي العجول » كدت أذهب من جرائها الى جزيرة مالطة وأنا أحوج ما أكون الى المقام بأسوان أو في جو القطر من المشتى الى المصيف .

« شهوة » و« شبهة » !

ادركتني الحرب العالمية الاولى وانا في أسوان ، وأحس الناس بوطأة الاحكام العرفية في هذا البلد النائي على طرف الصعيد الاعلى قبل أن يحسوا بها في سائر البلاد المصرية ، لأن أسوان على ملتقى الطريق بين مصر والسودان وملتقى الطريق بين النيل والبحر الاحمر من جانب الصحراء ، ومرجع الاحكام العرفية فيها الى رئيس اقليمي بعيد من الرقابة مطلق التصرف في الاوقات التي تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشؤون الادارية في الاقاليم . . . . وقد كانت شهوة الطغيان والحجر على الحريات قد ملكت نفوس الحاكمين وأذنابهم من المسلطين على الرقاب تحت حمايتهم ، بعد اشتداد الحركة الوطنية وتتابع القوانين والاوامر المقيدة لحرية المحكومين ، فلما تقررت الاحكام العرفية بكل قسوتها وصرامتها بعد شيوع العمل بالقوانين المقيدة للحريات ، أوشكت الرغبة في الاستبداد ان تصبح هوسا في نفوس بعض « الحكام » . . ولاسيما الحكام الذين بدا لهم أن الفرصة سانحة لأستغلال هذا السلطان المطلق طمعا في الكسب وشفاء للضغائن والاهواء ، وماذا يمنع الرشوة أن ترفع رأسها وتصيح بين الزوايا وفوق الجدران اذا كان أداء الرشوة هو البديل الوحيد من النفي والاعتقال بغير تحقيق ؟ . . وماذا يفيد التحقيق اذا كانت « شبهة » الحركة الوطنية كافية لاعتبار « المتهم » من ذوي الخطر والسابقة المحذورة ؟ وكانت هذه الشبهة لاصقة بالاكثرين من المصريين ؟ . .

لقد بلغ الطغيان بحاكم من الحكام في أسوان أنه اراد أن يقضي يوما مع أسرته في الجزيرة المغربية التي يقصدها بعض الناس للرياضة في أيام الاجازات ، فأرسل المنادي « الرسمي » يطوف أرجاء المدينة ، وينذر من تحدثه نفسه بالنزول في الجزيرة ان يوطن نفسه على السيف والنار وخراب الديار . .

وشاعت سيئات الحرب العالمية على أسوئها في أقليم أسوان الآمن الوديع !

تجنيد اجباري لفرقة العمال واعتقال متكرر لشبهة ولغير شبهة ، وأتاوات تفرض لعلة من العلل المخترعة ، تبرعا للصليب الاحمر ، أو ترفيها عن المرضى والجرحى أو مساعدة على مشروع كائنا ما كان من مختلف المشروعات ، وأصبح كل طلب انذارا بالتهمة المحكوم فيها بغير استئناف ، او انذارا بالسداد في غير تردد ولا مساومة .

نادي العجول !

حدث هذا في بلدي وبين أهلي وعشيرتي وأنا انظر اليه بعيني وأستمع الى أخباره بأذني وأحس كل مظلمة من مظالمه باحساس قريب واحساس انسان . .

حدث هذا وأنا في الخامسة والعشرين .

وحدث هذا وأنا اقرأ الشعر فلا أزدري أبا نواس لقول من اقوال المجون كما كنت أزدريه لقوله في الحكمة :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

لا يا أبا علي ، غفر الله حكمتك ومجونك ، فان كان موت يا صاح فما باله يكون بداء الصمت ؟ ولم لا يكون بداء الكلام . . . ؟!

وتكلمت باللسان ، وتكلمت بالقلم كاتبا الى وزير الداخلية والى السلطان .

وتكلمت بالقلم أيضا فكتبت ونشرت ، أو نظمت على الاصح قصيدة منثورة سميتها نادي العجول . .

نادي العجول هذا كان « ناديا » للسادة الحاكمين وسراة القوم في المدينة « فتحه » الرؤساء بكل معنى « الفتح » . . . لأنه كان أشبه شيء بالغزوة في

طلب الأسلاب ، من طريق المساومات والالعاب .

وكانت له سمعة سيئة غير سمعة المقامرة ، وكان الحضور فيه مفروضا على بعض الناس في ساعات معلومة كي يخلو الجو لبعض الناس الآخرين في تلك الساعات . .

ولم يكن يسمى بطبيعة الحال بنادي العجول ، ولكنني سميته كذلك لان رؤساءه كلهم من أصحاب الوزن الثقيل ولأنه « حظيرة » من حظائر « الدواب » الآدمية لا تخلو من القرون . . !

وأضعف الاعضاء نفوذا في ذلك النادي الموقر كان يملك الترخيص لي بالسفر على حساب الحكومة الى جزيرة مالطة ، غير مشكور مني ولا ملوم من أحد على ذلك الاحسان بالاكراه . .

ولكنني كتبت المقال ، وتناسخه الادباء ، وأرسلته الى الصحف ، وقرأه النادي كله في جلسة حافلة من جلساته ، وتقرر في تلك الجلسة مصير الفضولي الجسور الذي يجترىء على ذوات القرون وعلى ذوات القناطير المقنطرة من الشحوم واللحوم ! . .

مقامة فكاهية

وأعود فأقول ان القافية هي التي قضت قضاءها في الموضوع ـ ولا قضاء لي فيه ولا مشيئة ـ فخرج الموضوع كما ينبغي أن يخرج مقامة فكاهية أو قصيدة منثورة ، يقرؤها من خلا ذهنه من « الموضوع » فلا يشتم منها رائحة الحملة التي يجترىء بها القائل على الحكم العرفي المخيف ولا على الحكم القانوني اللطيف . . ويقرؤها من امتلأ ذهنه « بالموضوع » فتغريه بحفظها وترديدها ، وهو يسأل الله السلامة من تلك العجول .

قال رئيس النادي في مقدمة المقامة : « ايها السادة . . ان العجل مدني

بالطبع . ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بني آدم بضخامة الاجسام ، وصلابة القرون . . وقد غبر بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون فيه بأسنا ويتمسحون بأذيالنا ، حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا فعبدونا من فرط الاجلال . . وسبحوا لنا بالعّشي والآصال ، وكانوا يحسدوننا على قوتنا فدعوا اكبر أبطالهم وأشدهم بأسا وارفعهم ذكرا - أعني الاسكندر المقدوني - بذي القرنين وما اسكندرهم هذا وما قرناه ؟ ان أصغر عجل فينا ليهشم رأسه اذا ناطحه ، ويجندله اذا وثبه او صارعه ، فالعجب لك أيتها العجول لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد فتقام لك الصوامع والمعابد ، بدل النوادي والمعاهد . . » .

وقضى حكم القافية قضاءه في قراءة « الموضوع » كما قضاه في كتابته ، فأصبحت المقامة في مدى يومين كأنها بعض المحفوظات المقررة التي يؤدى فيها الامتحان بعد يومين اخرين ، وراح أولاد الحلال يتساءلون كلما عرض لهم من يعنونه بالسؤال : لم لا تذكرون ذلك المجد الخالد ، فتقام لكم الصوامع والمعابد ؟ ومنهم من كان يتخابث ويتجاهل ويخاطب العضو من الاعضاء التابعين غير المتحدثين ، نعني بهم زمرة الاعضاء المسوقين المسخرين ، فيقول : أنت مدني بالطبع أنت أشجع من الاسكندر . . أنت يقام لك وزن . . أنت مخير على الآدميين ، الى أشباه هذه « التلقيحات » الرمزية التي كانت أصرح عند القائل والسامع من النداء الصريح .

وكانت المناوشات بيني وبين المدير سجالا قبل شيوع تلك الكلمة عن نادي العجول . . كنت أشكوه وأعزز الشكوى بالبينات ، ثم تستدعيه وزارة الداخلية فنقرأ في الصحف أنه قابل عظمة السلطان ، ثم يكشف هو بحماقته عن سر هذه المقابلة التي يستدعى لأجلها من أسوان ، فنعلم أنه سمع فيها ما ليس يرضاه .

الرشوة والأتاوات !

وكانت هذه المناوشات تجري سجالا بين مرتجلة أو مدبـرة حتـى شاع في المدينـة ، ثم في الاقليم ، ذلك المقـال المنشـــور عن نادي العجـــول . . فاذا بالمناوشات التي كانت قصة مبعثرة الفصول تتركز وتنتهي الى مخرجها الذي تحكم به القافية مرة أخرى ، فلا مناص لواحد من اثنين ان يخرج من المدينة : المدير أو كاتب المقال عن نادي العجول . .

ويتبين من مجرى الحوادث أن المدير تعذر عليه نفيي لانه نفى قبلي ناظرا لمدرسة المواساة ، وكنت أنا ناظرها الثاني فأشفق القوم أن يقال إنهم يضطهدون المدرسة الاسلامية الوحيدة في البلدة . . وكل ما استطاع المدير أن يقنعهم به هو ان يشدد عليّ الرقابة ويقيد اقامتي بالمدينة ، فلم أكترث لهذه الرقابـة ولا لهـذا التقييد ، لانني بطبيعتي كثير العكوف في المنزل قانع من الحركة بمشوار الرياضة في الخلاء أو في النيل .

وفتقت الحيلة للمدير أنْ يصدمني بمفتش الداخلية الانجليزي ، فألقـى اليه أنني أتهمه بالرشوة وأذيع عنه أنه يقاسم الموظفين « أتاوات » السلطة على وظائف العمد والمشايخ و« تبرعات » الاعيان وصفقات التموين ، ولـم يكذب المدير فيما ادعاه ، لأنني كتبت في الواقع أقول وأعيد أن المفتش الانجليزي يقبل الرشوة ويفرضها على مرؤ وسيه . .

واستدعاني المفتش الى ديوان المديرية فقال فيما قال في حديث طويل باللغة الانجليزية : « لا يوجد انجليزي مرتش **Corrupt** في الحرب ولا في السلم » . . فبدرت مني كلمة لا أدري ماذا كنت أقول ـ سواها ـ لو قصدتها عن روية . . وقلت : « ان الانجليز جديرون بالتهنئـة لانهـم قد تغـيروا كثيرا بعـد حرب الترنسفال » . .

والمعروف أن حرب الترنسفال قد كشفت عن فضيحة من أشنع الفضائح

في حالتي الحرب والسلم أثناء القتال وبعد القتال . . فلو أنني تعمدت الروية لما وجدت أمامي مثلا أقرب من ذلك المثل للرد على صاحبنا الفخور بالتعفف عن الرشوة في الحرب والسلم ، ولكنني لو تعمدت الروية لكان السكوت عن تلك الكلمة أولى واحجى . . فان الرجل بعدها وقف الى جانب المدير في طلب اعتقالي واقصائي من المدينة ، وقال عني انني أخطر من ناظر المدرسة الذي نفته السلطة قبلي الى جزيرة مالطة ، وكنت قد تعمدت أن اشغل مكانه تحديا للامر الذي صدر بعد القبض عليه ، فعملت بعده ناظرا لمدرسة المواساة . .

وجزى الله مقامة « العجول » خيرا في هذه المرة ، فان قارئاً من قرائها الذين حفظوها أطلعنا على خبر التقرير السري الذي كتبه المفتش ونقحه بعد مراجعة المدير . . فوجب الرحيل اذن من المدينة بكل وسيلة مستطاعة . . وقضت القافية أن يكون الراحل في هذا الفصل من الرواية كاتب المقامة . . لا سعادة المدير .

لكن كيف الرحيل من المدينة والرقيب ملازم لباب الدار بالليل والنهار ؟

لقد كان الرقيب يلازمني اذا خرجت ، ويسلمني في المساء لحارس الدرك فلا يفارق الحارس مكانه في الصباح حتى يتسلمه منه الرقيب الاول أو رقيب جديد . .

أصبحت من أبطال المغامرات !

لست من القراء المغرمين بروايات الهرب والمطاردة ، ولكنني أصبحت بطلا من أبطالها على الرغم مني بحكم الضرورة التي لا حيلة فيها . . فوصلت الى القاهرة قبل أن يعود منها جواب « السلطة » على تقرير المفتش والمدير ، وكأنني كتبت بيدي قرار الفصل عقابا لهما واحدا بعد واحد ، وبينهما فترة أسابيع .

ارسلت ملابسي من المنزل في مقطف عليه قمع يغطيه ، وذهب به حامله الى بيت في شارع مجاور لنا نقلوا فيه الملابس الى حقيبة صغيرة ، وسافر بها بعض أقاربنا بتذكرة من أسوان الى القاهرة ، وتواعدنا ان القاه بالقطار في محطة « الخطارة » ويعود هو الى أسوان على المطية التي وصلت بها من أسوان الى الخطارة . .

وأعددنا عند ظاهر البلدة مطيتين يقودهما من نثق به من الجيران ، وبقيت مهمة الخروج من المنزل في الصباح على الرغم من الحارس الرقيب . . وليس أيسر من ذلك اذا تزحزح الحارس من مكانه الى منعطف الطريق هنيهة قصيرة نخرج فيها ونتوارى على الاثر في منعطف الطريق المقابل ، من ناحية الفضاء ، حيث تنتظرنا المطيتان . .

ولم يعسر علينا ان نزحزح الحارس عن مكانه خلال تلك الهنيهة القصيرة ، فقد كان من ذوينا فتى نستعيذ بالله من ثورات غضبه ومن خفته الى الشجار والخناق ، فرجوناه في ذلك اليوم ان يغضب ، وان يبالغ في الغضب وان يفارق المنزل بعد الفجر كأنه ذاهب للصلاة ، فيشتبك في خناقة حامية مع أول عابر من طلاب الصلاة مثله ، أو من المبكرين الى الاعمال .

وقام صاحبنا بالواجب على ما يرام ، وعاد الحارس الى باب البيت ونحن على المطايا متلفعين متنكرين لا يعرفنا من يرانا ولو كان من معارفنا .

أكبر مقلب للمدير !

وكنت بعد ذلك بيوم في ديوان الداخلية أزور صديقنا الوزير الاديب جعفر والي « باشا » وكيل الوزارة ، ثم تتابعت الايام والتقارير السرية تصل من أسوان بتفصيلات المؤامرات التي أدبرها ، والاحاديث التي أذيعها والاقاويل التي أثير بها الخواطر وأستحق من أجلها التعجيل بالاعتقال والنفي من الديار . .

أنا في القاهرة يصطحبني وكيل الداخلية كل يوم الى مكتب المستشار ، ويشهده على مقامي بعيدا من أسوان بأكثر من ستمائة ميل ، وأنا في الوقت نفسه بأسوان يراني المفتش والمدير أثير الخواطر وأدبر المؤامرات . .

والنتيجة معروفة . . .

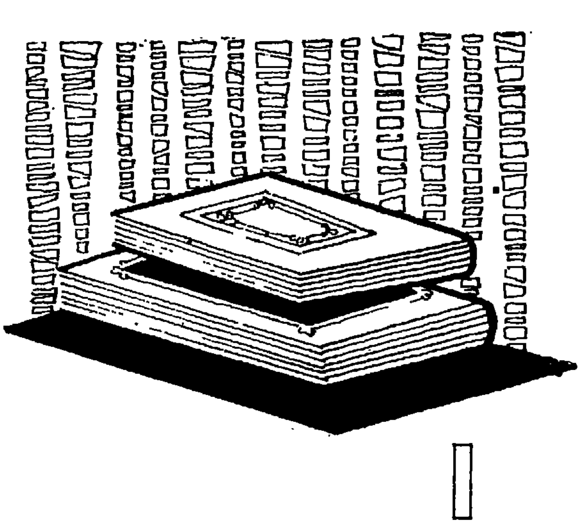
في هذه المرة يخرج المدير من البلدة ويتلوه المفتش ، ويصدر الامر باحالة المدير الى المعاش قبل موعد الحركة الادارية ، وأعرف اسم المدير الذي خلفه فأبادر الى ابلاغ الخبر لاصدقائنا في أسوان بهذه البرقية :

« شر مدبر وخير مقبل » .

وكان المدير الخلف « محمد مقبل باشا » الذي اشتهر بعد ذلك في مناصب الادارة .

الفصل الثامن

بين الموت والحياة



كُنتُ رَقيبًا عَلى الصّحَافَة

كان نصيب التدريس من عملي في سنوات الحرب العالمية الاولى اكبر من نصيب الصحافة ، وكانت علاقتي بالصحافة قليلة متقطعة ولكنها ـ على ذلك ـ كانت متعددة منوعة ، لانني اتصلت فيها بألوان من الكتابة الصحفية لم أعرفها قبل ذلك ، وما لم أعرفه منها عملا واختبارا فقد عرفته وصفا ونظرا واطلعت على طرف من اسراره واخباره عن كثب . فكتبت الى المجلات الشهرية والصحف الاسبوعية واشتغلت بالصحافة اليومية في غير القاهرة ، وقمت على رقابة الصحف اياما معدودة ، ونُدبت « للمراسلة الحربية » في صحراء سيناء وكدت أن أحيط بالدائرة الصحفية من مراكزها الى زواياها ونواحيها .

وتشاء الحوادث ان اشتغل بالرقابة على الصحف وهي من أبغض الاعمال الى نفسي والى فكري ، وتشاء هذه الحوادث ان اهنىء نفسي بالخيبة فيها بعد ايام ، فلم أحمد الله على نجاح كما حمدته على هذه الخيبة الموفقة . . !

كانت لي صداقة أدبية بالمغفور له « جعفر والي باشا » وكيل وزارة الداخلية في أيام الحرب العالمية الاولى ، وكان من الادباء « القانونيين الاداريين » الذين يجالسون احيانا « عثمان فهمي » بك الذي كان مديرا لأسوان فمديراً لِقِنا فوكيلا للخاصة الملكية ، ثم خرج من الخاصة الملكية مغضوبا عليه في عهد الملك أحمد فؤاد ، محالا على المعاش قبل أوانه ، لأنه لم يحسن ان يشترك في ادارة الخاصة على الطريقة التي يرضاها صاحب الجلالة !

وكان حديث جعفر والي معي في الادب يكاد ان ينحصر في المفاضلة بين ابي تمام والمتنبي . فانه كان يفضل أبا تمام ويفرغ لنسخ ديوانه بخطه ويملأ حواشيه بالتعليقات والملاحظات التي توافق مشربه في تفضيله ، وكنت انا تلميذا للمعري في هذه الخصلة كما كنت تلميذه في خصال خلقية او فكرية شتى ، وأعني بها خصلة « التعصب » للمتنبي وقلة الصبر على القدح فيه والانتقاص من أدبه . . أما الاستاذ « عثمان فهمي بك » فقد كان كلامه في العلميات والفلسفيات اكثر من كلامه في الموضوعات الأدبية ، وكان يناصرني احيانا في تفضيل المتنبي من الوجهة الفكرية ولكنه يناصر وكيل الوزارة في حملته على « نفخة » الشاعر الكذابة ، مع تعرضه للرفد والسؤال ، مما يخالف أصول البلاغة على قوله ، وهي مراعاة مقتضى الحال ، أو المقال حسب المقام !

وعلم « جعفر باشا » انني أبحث عن عمل في القاهرة لان حالة « الكبد » عندي لا تسمح بقضاء الصيف في أسوان ، وعلمت منه مرة ان الرؤساء الانجليز يفاتحونه بضيقهم الشديد من مشكلة الرقابة على الصحف العربية ، وانهم يكادون ان يحملوه تبعة هذه المشكلة ، لأنه أحق الناس ان يعرف كيف يختار للرقابة أناسا من أدباء المصريين يصلحون لها ولا يسيئون فهمها .

وقال لي ذات مرة « ان يوسف خلاط بك » مدير المطبوعات على حد تعبيره « في ثياب ضيقة » . . ولكنه هو يخشى ان يلبسه القوم هذه الثياب .

وأزوره يوما على موعد ، فيقول لي ضاحكا : إنني آمنت بعظمة المتنبي وفضله على أبي تمام .

ثم يلمح دهشتي فيبادر قائلا : ولكنه تفضيل معلق على شرط ، وهو ان تستخدم لنا حكمة صاحبك في عمل من أعمالنا هنا بوزارة الداخلية ، وهو مراجعة الصحف العربية . .

تكميم الافواه !

قال : والحيرة في أمر هذه الرقابة ان اكثر الرقباء بادارة المطبوعات لا يفهمونها ويحسبون انها تكميم للأفواه والاقلام ومسابقة بينهم وبين الصحف في المكر والحيلة ، فكلما خطر لهم ان صحيفة من الصحف تلعب بالالفاظ لتفويت خبر من الاخبار داخلهم الغرور وظنوا انهم يغلبون الصحيفة في المكر واللعب ، فيحذفون الخبر ويصرون على منعه ومنع الاشارة اليه . ومن ترخص منهم في السماح بنشر الاخبار التي يحرص عليها الصحفيون فإنما يترخص في ذلك مجاملة لاولئك الصحفيين من اجل الصداقة او من أجل المنفعة المتبادلة .

قال : ولا ادري ماذا أصنع وأنا الوكيل المصري المفروض فيه انه اقدر من غيره على حل المشكلة . فهل لك ان تؤدي هذه الامانة الشاقة وان تعيننا على تجربة الرقابة كما ينبغي ان تكون ، بين العطف على الصحافة ورعاية مقتضى الحال . .

وكانت « رعاية مقتضى الحال » قد اصبحت من القوالب المحفوظة في احاديثنا حول بلاغة المتنبي وبلاغة ابي تمام وحظ الشاعرين من الحكمة على مقتضى الحال .

قلت : انني اقبل العمل في الرقابة ولا غضاضة ، ما دامت الرقابة من المصالح العامة في أيام الحروب .

عجزت والحمد لله !

وبعد ثلاثة ايام جاءني تنبيه وسؤال عن بعض الاخبار التي تركتها للنشر وتحقق لهم انني لم احذفها .

وبعد يومين او ثلاثة جاءتني دعوة الى مكتب مستر « هور نبلور » الرقيب العام يتقدمها حديث مقتضب من « يوسف خلاط بك » فلما دخلت المكتب

سألني مستر « هور نبلور » مقطبا : هل راجعت هذه الاخبار ؟ وقدم الي رزمة من جزازات الصحف اليومية والاسبوعية .

فقلت بعد إجالة النظر فيها : نعم .

فعاد يسأل : وكيف تبيح نشر الاخبار المقلقة التي من هذا القبيل ؟

قلت : إنها تباح فيما أطلع عليه من الصحف الانجليزية ويباح لتلك الصحف ما هو أخطر منها بكثير .

فصاح متهكما : الصحف الانجليزية ؟ ثم أردف قائلا :

ـ هل انت من الحزّب الوطني ؟

قلت : انا مصري وطني بطبيعة الحال .

قال : اذا كنت لا تعطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟

فأجبته بكلام فحواه انني لا افهم المقصود بالعطف معهم ، ولكنني لا ابقى في هذا العمل اذا كان يتطلب مني شعورا لا افهمه ، وله انْ يتقبل استقالتي مشكورا على قبولها . .

وهكذا عجزت بحمد الله عن مهمة الرقابة بعد اسبوع واحد ، وكدت أعجز عنها بعد يومين أو ثلاثة .

المراسلة الحربية

أما المراسلة الحربية فقد ندبت لها من طريق الكتابة في مجلة المقتطف عن المقارنة بين فلسفة المعري وفلسفة شوبنهور .

وكنت أعمل بالتدريس في مدرسة وادي النيل الثانوية بجوار محطة باب اللوق على مدى خطوات من مكتب المقتطف والمقطم . فزارني الاستاذ نجيب

شاهين بالمدرسة موفدا من قبل الدكتور يعقوب صروف وقال لي ان الدكتور وبعض ذوي الشأن ينتظرونني بعد الفراغ من الحصة قبل فسحة الظهر . ولم يخبرني شيئا عن موضوع الدعوة .

فلما دخلت المكتب وجدت الدكتور وشاباً من أصهاره ومعه الشيخ الغنيمي التفتازاني ورجل انجليزي لا اعرفه ولم يعرفني به الدكتور ، ولكنه قال :

ـ انك تعلم قلق الناس في هذه الايام من جانب الحدود الشرقية ، وكلهم يظنون ان الهجمة منها قريبة على قناة السويس ثم على جميع البلاد المصرية ، ومثلك خليق ان يعيد الطمأنينة الى نفوسهم بما تراه عيانا وما تطلع عليه من المعلومات المفصلة وهي حاضرة عند المختصين بالمسألة . . واشار الى ناحية الرجل الانجليزي ، وكل ما يطلب منك ان تطلع منها في القاهرة على ما يلزمك وان تهيء نفسك بعدها للرحلة الى الخطوط الامامية في صحراء سيناء ، ثم تصفها باسلوبك المعهود لان مجرد الوصف الصحفي الشائع لا يكفي للاقناع والتأثير ، ولولا ذلك لكان في مخبر من مخبرينا او مخبري الصحف الاخرى من يغني هذا الغناء .

رأيي الذي لم أعلنه !

وأحب ان أعيد هنا رأيي الذي اعلنته في اثناء الحرب العالمية الثانية ولم أستطع أن أعلنه في أثناء الحرب العالمية الاولى ، فقد كان من رأيي في الحربين ان تتولى مصر واجب الدفاع عن حدودها موفورة السلاح والاستقلال والا تتولاه ـ بداهة ـ في ظل الحماية او الاحتلال .

فلما سمعت اقتراح الدكتور صروف قلت له انني لا أكره أن أبث الطمأنينة في قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم اذا كان المصريون هم الذين يقومون باعباء هذا الدفاع أما وهو ـ كما يحدث الآن ـ من عمل دولة الحماية

فليس من المعقول ان ارفض الحماية واقبل دفاعها .

وكان الدكتور يعلم رأيي هذا في الحماية من احاديثي معه قبل ذلك خلال زياراتي له في صدد مقالاتي الأدبية ، فكاد ان يعتذر من مواجهتي بالاقتراح لانه نسي اننا تحادثنا في مسألة الحماية منذ شهور ، وانصرفت وهو يكرر قوله : انه لو ذكر ان في الاقتراح شيئا لا اسيغه لما فاتحني به ، وجعل يقول مازحا : اذن تعود الى المعري وشوبنهور . . !

ولا أذكر أن أحدا من الحاضرين في تلك الجلسة فاه بكلام يخالف هذا المعنى غير الشيخ التفتازاني . . . فإنه طفق يقول ويعيد : يا سيدي فيها ايه ؟ وماذا في ذلك يا سيد عباس ؟ اليس المهم الآن أن تطمئن النفوس على الحدود ؟

فلم أجبه ولم يجبه احد من الحاضرين .

أنا والمازني . . بين الموت والحياة !

وقبيل انتهاء الحرب العالمية الاولى عدت الى التحرير في الصحف على غير انتظار ، بل على يأس من العمل في الصحافة والتدريس الى ما بعد الهدنة ، اذ كان للهدنة موعد قريب .

فالعمل في التدريس لا أمل فيه ، بعد أن مارسته سنتين مع صديقي المازني في مدرسة بعد مدرسة من كبريات مدارسنا الثانوية ، وجرت العادة في كل مدرسة ان ينتهي عملنا فيها بأزمة من أزمات الخلاف على تصحيح اوراق الامتحان ، لأننا كنا نصحح اسئلة وأجوبة وكانت خزائن المدارس تنظر الى أوراق الامتحان كأنها اوراق الرصيد المنتظر في حساب المصروفات .

فلما وصلنا الى الاوان المقدور للأزمة السنوية خرجنا من المدرسة متفقين على سكنى الامام الشافعي حيث تقيم أسرة الاستاذ المازني من زمن بعيد ، وقدرنا أن اختزال النفقات المعيشية بالسكنى بين عالم الحياة وعالم الموت قد يغنينا

عن التعجل في طلب العمل بضعة أشهر ، ويفرجها ربك بعد ذلك أو قبل ذلك كما شاء .

وقلت للمازني : ابحث يا صاح عن عمل في صناعتك ولا ترتبط بي في بحثك ، ودعني انتظر العمل في صناعتي حيثما اتفق ، فلا حيلة لنا في استعجاله ولا في البحث عنه ، لانه معلق بانتهاء الحرب العالمية فيما قدرناه .

ووجد صديقنا المازني عمله ناظرا للمدرسة المصرية الثانوية ، ولبثت انا بالقاهرة اترقب اوائل الشتاء لأعمل فيما يتهيأ من عمل ارتضيه او أزمع الرحلة الى أسوان .

وكنت أحسبني مترقبا على غير جدوى لان ركود السياسة الوطنية في ابان الحرب قد ذهب بالصحف اليومية الّتي كانت تنطق بألسنة الهيئات السياسية ثم هبطت أزمة الورق بالصحيفتين الباقيتين - وهما المقطم والاهرام - الى ورقة واحدة من صفحتين لا متسع فيهما لغير البرقيات وانباء الدواوين وما هو من قبيل « المحتويات » التقليدية في الوقائع المصرية ، فاكتفت كل صحيفة بمن فيها من المحررين والمترجمين .

وكنا « نفد » على المدينة من « حي » الامام الشافعي مرة كل اسبوع ، وكان يوم السبت على الاغلب هو موعد هذه الزيارة الاسبوعية ، لانه يوم متوسط بين بطالة الجمعة وبطالة الاحد ، فلم اكد اقبل على المكتبة التي كنت اتردد عليها في هذه الزيارات حتى تلقاني صاحبها قائلا بل صائحا : اين انت يا استاذ ؟ ان الاستاذ عبد القادر حمزة قد حفيت قدماه وهو يأتي الى المكتبة ويعود ليسأل عنك وقد يئس من لقائك فأوصى الاستاذ « عبد المؤمن كامل الحكيم » بالبحث عن مكانك والاتصال بك في شأن هام كما قال . وقد كان الاستاذ عبد المؤمن هنا الساعة ، وترك عنوانه لدينا وكتبت له عنوانك كما أعرفه بالامام ، ولا ادري في أي مكان هو بانحاء الامام . .

وعلمت بعد لقاء الاستاذ عبد المؤمن انني مطلوب للتحرير في صحيفة « الاهالي » بالاسكندرية ، وأنني استطيع ان أعد نفسي للسفر خلال اسبوعين او ثلاثة ، وعنده تفويض بتسليمي مرتب شهر وما أطلبه من تكاليف السفر ، وعنده كذلك تفويض بمراجعة الصحيفة في تقدير المرتب ، ان كنت لا أرضاه .

قلت له : لا حاجة الى المراجعة الآن ولعلها في الاسكندرية أجدر وأيسر ، وانثنيت يومئذ الى الامام لإعداد حقيبة السفر واختيار ما أحمله معي من الكتب الى الاسكندرية ، والاستغناء عما هو معد للبيع في يومين أو ثلاثة ، ولم يكن طلابه بالقليلين في تلك الآونة . . لانقطاع البريد الاوربي في الفترات بعد الفترات على غير انتظام .

كانت في الثغر الاسكندري ثلاث صحف يومية هي البصير ووادي النيل والاهالي .

وكانت « البصير » صحيفة القطن والتجارة ، لا تعرض للبيع في خارج الاسكندرية ، ولا تعرض للبيع في الاسكندرية نفسها الا على مقربة من البورصة ومخازن الميناء ، وكانت الصحيفة تعيش باشتراكات التجار والسماسرة ورسوم الاعلانات القضائية من المحاكم المختلطة ، ولا تذكر فيها شؤون السياسة المصرية الا كما تذكر في صحيفة « خارجية » .

وكانت « وادي النيل » صحيفة المجلس البلدي او صحيفة المناورات والمنازعات بين اعضائه واحزابه ، ولها ـ من ثم ـ عناية بمسائل الاسواق والدكاكين والشوارع المرصوفة وغير المرصوفة ، وما اليها . فكان لها نصيب وافر من الرواج في الاسكندرية ، ونصيب « لا بأس به » من الرواج خارج الاسكندرية ، بعد انقطاع الشعب خليفة اللواء وانقطاع المؤيد والجريدة .

أما « الاهالي » فقد كانت في نشأتها صحيفة « شبيهة بالرسمية » يشترك فيها مئات من الموظفين والعمد والاعيان لانها لسان حال رئيس الوزارة محمد

سعيد باشا ، وكان « محمد سعيد باشا » احد الساسة القلائل الذين فهموا في ذلك العهد ضرورة الاتصال بالرأي العام ووجوب الاعتماد على الصحافة في مناقشة الصحافة التي تعارض الوزارة . فأوعز الى طائفة من اصدقائه الاسكندريين بانشاء شركة « الطبع والنشر الاهلية » واستهلال عملها الصحفي باصدار صحيفة يومية تدافع عن الوزارة وترد هجمات الصحف المعارضة عليها . فاختاروا اسم « الاهالي » لصحيفتهم عمدا لأنه اسم قديم لصحيفة كان يصدرها اسماعيل اباظة باشا رحمه الله ، ولان اسم « الاهالي » يقابل اسم « الشعب » واسم « الامة » مصبوغا بالصبغة التي تدل على معنى « الرعية » ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة .

ولم تزل « الاهالي » صحيفة الحكومة « الشبيهة بالرسمية » الى ان سقطت وزارة سعيد باشا وقامت بعدها وزارة حسين رشدي باشا التي اعلنت الحماية على مصر في عهدها ، فلبست « الاهالي » بعد ذلك لباس المعارضة في حدود الظروف التي تسمح بها الحرب والرقابة وكانت هذه المعارضة تقوم على أساسين : أحدهما الخصومة الوزارية بين سعيد ورشدي ، والآخر ايمان سعيد بفائدة السيادة العثمانية في استنهاض الحجة « القانونية » او الحجة الدولية على الاحتلال والحماية فقد كان سعيد « عثمانيا » في تفكيره وشعوره الى اللحظة الاخيرة ، وكان هو صاحب الرأي القائل بالارتباط بين البحث في مسألة الحماية والنظر في معاهدة الصلح مع تركيا والدول المنتصرة في الحرب العالمية .

وأوشكت « الاهالي » ان تحتجب بعد اعتزال الوزارة السعيدية وقيام الوزارة الرشدية ، لان مشتركيها من الموظفين والعمد قطعوا اشتراكها ، ثم جاء كساد الصحافة بعد فرض الرقابة عليها ونشوب الحرب العالمية فطواها فيما طواه من الصحف المهملة أو المعطلة ، ولكن ظروف الحرب انقذتها بعض الانقاذ من حيث لا تحتسب ، لانها حصرت الاعلانات في ايدي شركة تحتكر الاعلانات القضائية من المحاكم الوطنية وتتعهد للاجانب بنشر اعلاناتهم في صحيفة افرنجية

وأخرى مصرية ، فكانت « الاهالي » هي الصحيفة التي تتسع لنشر تلك الاعلانات في ملحقاتها ، وعندها بقية من الورق المخزون غير الورق الذي تدبره الشركة ، ولولا ذلك لما استطاعت ان تعيش سنة بعد ذهاب الوزارة السعيدية وانقطاع الاشتراكات عنها في ذلك المعترك العصيب[1] .

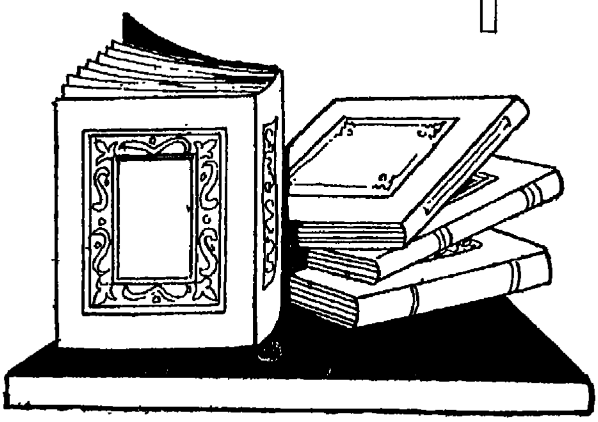
وبقيت في تحرير « الاهالي » الى نهاية الحرب وظهور الدعوة الوطنية على يد الوفد المصري بقيادة سعد زغلول ، وافترقت الخطة العامة بين الصحيفة والوفد فتركتها وعملت في الصحيفة التي كانت تجري يومئذ على تلك الخطة ، وكانت فاتحة عصر جديد في حياة مصر وحياة الصحافة وحياتي الصحفية ، يقترن بتاريخ النهضة الحديثة فيما علمت من ظواهرها وخوافيها .

---

(١) وقف الاستاذ العقاد ـ في الفصول السابقة ـ حتى عام ١٩١٩ حين قامت الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول . وقد اشترك بقلمه في هذه الثورة مؤيدا للمبادىء الوطنية والسياسية التي كان يؤمن بها . حتى اعتزل السياسة في عام ١٩٣٥ حين أفسدتها الحزبية ، وانحرف السياسيون في ذلك الحين عن المبادىء المثلى . . كما أشرنا الى ذلك في « تقديم هذا الكتاب » وتوفر على التأليف ، وكتابة الفصول العلمية والادبية في المجلات الكبرى . ولهذا نقدم هذه الذكريات وما يليها من الفصول التي لم تنشر من قبل في كتاب من كتبه .

الفصل
التاسع

ذكريات وشخصيّات



صديقي المازني

صديقي المازني احوج الادباء الى التعريف بحقيقة فضله ، لاني ما رأيت أحدا من المعجبين به الا وهو يجهل بعض مزاياه . . وليس ذلك لخمول في الذكر . فقد بلغ ـ رحمه الله ـ من الشهرة غاية ما يبلغه الاديب في البلاد العربية .

وليس ذلك لغموض في النفس يباعد ما بين ظواهرها وبواطنها . فما عرفه أحد من طول المعاشرة الا عرف انه من أصفى الناس سريرة وأشبههم ظاهرا بباطن ، وجهرا بخفاء .

ولكنه لم يعرف بحقيقة فضله ـ أو بكل حقيقة فضله ـ لسبب غير الخمول وغير الغموض ، وهو قلة الاكتراث والاكتفاء بأيسر ما ينال وبعضهم يسميها « ملكة السخرية » ويخيل اليه انها على مثال السخرية التي اشتهر بها بعض المفكرين الساخرين . . ولكنها فيما اعتقد تشبه السخرية وليست هي بها . لانها تخلو في جوهرها من نكاية السخرية التي تلازمها . فلا تنطوي على النكاية بأحد ، ولا تدل على حب للنكاية .

وانما هي على ما عرفتها واختبرتها ، شيء آخر غير السخرية وان كانت شبيهة بها :

هي حب « المعاكسة البريئة » أو هي الدعابة لا ضير فيها على أحد ، ولا فرق بين الدعابة على النفس والدعابة على الآخرين .

لم يكن يبالي ان يبرز خير ما عنده ، ولم يكن يبالي ان يقدح في أدبه وفنه بقلمه ولسانه ، فيسبق المنكر والحاسد الى القدح والانكار ولم الجهد والعناء ؟ . .

لقد كان يرى أن حقائق الدنيا كالخيال ، لان غايتها الى أمل أو ذكرى ، وكلاهما خيال . . فليكن متاعه بها ونصيبه منها خيالا بغير عناء . . !

وكان يرى ان الناس يضنون بثنائهم كأنه شيء لا غنى عنه . فكان يريهم انه في غنى عنه فعلا ، وكأنه يقول لهم : « ان استطعتم فقولوا في أدبي وفني ، وفي شخصي وسيرتي ، اكثر مما أقول » .

ويحسب بعضهم أنها فلسفة حياة ، ويحسب الآخرون انها « مظهر » من مظاهر التحدي التي يواجه بها الناس .

وليست هي بفلسفة وليست هي بمظهر .

هي طبيعة فيه عهدتها منه في غير عالم الكتابة ، ولم تفارقه منذ صباه كاتبا أو غير كاتب ، وغاية ما هنالك انه كان يطاوعها حينا فيسترسل فيها ، وانه كان يكفها حينا فلا تظهر كل الظهور . . كان ولعه « بالمعاكسة البريئة » تسليته الكبرى .

ولست أحصي ضروب هذه المعاكسات التي كان يرتجلها ارتجالا في أكثر الحالات ، ولكنني أذكر حادثا منها له اتصال بجانب نفسي في تاريخ حياته ، وهو من قبيل الوقائع التي تفسر الاقوال ، او تفسر مذاهب الكتابة التي يسميها بعضهم فلسفة حياة .

قل من يذكر ان المازني شغل بالموسيقى في عنفوان شبابه ، وانه تعلم العزف على « الكمان » وتلقى دروسا كثيرة فيه ، واستطاع ان يوقع بعض البشارف وأوشك أن يحسب فيه من مهرة العازفين .

وكنا نقضي السهرة ذات ليلة في ناد كبير من اندية الموسيقى والغناء وطالت السهرة الى ما بعد منتصف الليل ، وكان يبيت يومئذ بمنزله على مقربة من الامام ولم يكن خط الترام قد وصل بعد الى الامام ، وقد كان الترام الذي يذهب الى تلك الجهة ينقطع قبل ذلك الموعد على كل حال .

وودعته وهو يتفق مع حوذي ليوصلـه في مركبتـه ، مركبـة خيل ، لان السيارة لـم تكن شائعة في تلك الايام .

وكان الجو ليلتها رائقا والقمراء في أوانها ، وسكون الهزيع الثاني من الليل يغري بالغناء .

ويظهر ان الحوذي ـ حين رآنا نخرج من النادي الغنائي ـ قد بدا له أننا من هواة السمـع ، فلا حرج عليه اذا طرب وأطـرب ، وراح يتغنـى بمـا شاء من « الطقاطيق » التي يهواها ، ولـم ينـس أن يعتذر الى « زبونـه » بعـد أن رفـع عقيرته بالغناء :

ـ لا مؤاخذة يا سيدنا البيه ، ان محسوبك من هواة السمع ، وانـي . .
وقبل ان يمعن في الاعتذار ، بادره « الزبون » قائلا :

ـ خذ راحتك . . « أنا والله أحب أسايرك » . !

فلم يملك الحوذي نفسه من الطرب والارتياح . لأن الجواب الذي سمعه جزء من « الطقطوقة » التي كان يغنيها . وراح يغني تارة ويردد قصته التي بدأ فيها تارة اخرى ، وخلاصتها انه كان ـ لهوايته السماع ـ يختار موقفه الى جانب « تخوت الآلاتية » ويسترق السمع بين لحظة واخرى كلما استطاع الافلات من رقابة البوليس .

وانجلى الحوذي ، وخلا له الجو بعد باب السيدة عائشة ، ونسي البوليس والزبون ، ومضى كأنه في ليلته يود الا تنقضي به الطريق .

وتدرك أخانا ، المازني ، تلك الشنشنة التي لا تفارقه ، ويوحي اليه الموقف بالخاتمة الصالحة لهذا « الفصل الغنائي » الذي أقحمه الحوذي عليه فأفسد عليه في آخر الليل ما سمعه في أوله : ان المطرب المقتحم قضى ساعة وهو يقول في الطقطوقة التي يغنيها « لما أشوف آخرتها معاك . . »

فماذا لو كلفت آخرتها أن يلتفت عند خاتمة المطاف فلا يجد الزبون ؟ . .

خطر الخاطر فلحق به التنفيذ ، وخلت المركبة والمطرب المشغول بغنائه لا يدري لان خلو المركبة واخلاءها بذلك الحمل الذي كان فيها يستويان . . !

والتفت الحوذي بعد ان طالت الرحلة ولم يستمع من الزبون صوتا ولا أمرا بالوقوف . . فطار ما في دماغه من الغناء ، وامتلأ بكل ما وعاه في حياته من البذاء .

ولا حاجة بالقارىء الى ترديد ما ألقاه من لسانه في ذلك الخلاء ، وليس من حوله أحد يجيبه اذا استدل به وغريمه الباحث عنه هو دليله الوحيد .

ويزورني الصديق في اليوم التالي فيسألني : « أتذكر شكل الحوذي الذي ركبت معه بالامس ؟» .

قلت : « لا اظن انني أحقق شبهه فلماذا تسأل عنه ؟ هل فقدت شيئا عنده ؟» .

قال ضاحكا : « كلا . ولكنه هو الذي فقد ! . .» فلم أفهم ما يقول وسألته : « وماذا فقد ؟ . .»

قال : « فقدني أنا » . . وقص علي تفصيل تلك القصة التي أجملتها هنا بعض الاجمال . !

***

انقضى أربه من المعاكسة ، وجاء دور الرحمة بذلك المسكين ، فاذا هو مهموم بالبحث عنه لاعطائه أجره الذي خيل اليه انه قد ضاع بغير أمل ، فقلت له أن حوذيا بهذه الصفة لا بد ان يكون معروفا بين زملائه في موقفه وغير موقفه ، فهلم الى الموقف نبحث عنه هناك !

ولم يخطىء ظننا في جدوى البحث هناك ، لان القصة كانت حديث زملائه جميعا ، وان لم يكن هو في الموقف تلك اللحظة . فأخبرناهم أين يجدنا اذا عاد ، ولم نلبث طويلا حتى أقبل الرجل يهرول وهو لا يصدق ان زملاءه قد صدقوه الخبر . فلما رأى صاحبه بالامس أقبل عليه متهللا وتناول منه ضعف أجره الذي كان يطمع فيه . . !

وانصرف وهو يدعو له ويقسم نادما: « لاعدت الى الغناء أبدا وأنا مركب » . . والا « فعلى روحي أنا الجاني » . . !

قال الصديق العزيز : « بل تغني ما شئت ، ولكن تعطي وجهك للسميع !» هذه هي « المعاكسة البريئة » التي لزمت صديقنا على صور شتى من صباه الى أخريات أيامه . وتزداد بها الفجيعة ان تذكرها فتذكر أي نفس طفلة ـ أي طفولة من طفولة العبقرية الخالدة ـ قد عاجلها الحمام .

بهذه الدعابة البريئة ـ التي لا ضرر فيها على احد ـ كان المازني يستقبل الدنيا ، ويحتمل نقائضها ومفارقاتها ويعفي نفسه من الجهد الذي يبرز للدنيا خير ملكاته ، بل يحاول أن يستر هذه الملكات بيديه غير آسف على شيء . . !

قادر على نفسه . .

على ان المازني يصحح في هذا الباب خطأ يقع فيه اولئك الذين يحكمون على الاطوار النفسية بظواهرها وعناوينها ، فيحسبون ان طبيعة الاستخفاف تقترن دائما بالعجز عن الجد وصرامة الاخلاق .

والواقع ان الذين عاشروا المازني وخبروه يعلمون انه من أقدر الناس على نفسه وأصبرهم على رياضة طبعه ، وأشدهم جلدا على مواقف الشدة والصرامة . وقد عانى من شدائد الايام ما يقصم الظهر ويغشى آفاق الحياة بالظلام ، فلم يكن يتغير لمن يلقاهم ويلقونه في هذه الاحوال الا بالاكثار من المرح والتبسط . . فلا يعرف جليسه أنه في شدة الا اذا تحول مزاجه الى التكلف المحسوس .

وأنا أعلم من عاداته أنه كان مفرط الحس بالشم في مطلع شبابه على الخصوص ، وكنا نمشي مسافات طويلة لنتجنب المرور ببعض الاماكن التي تبعث منها روائح الحانات والنفايات . ولكنه راض نفسه نحو ساعة على احتمال رائحة من أبغض الروائح الى الانوف ، لانه أراد ان يلقي درسا حاسما على محبي « الشيطنة » من التلاميذ .

وكان اولئك التلاميذ يجهلونه ويجهلون انهم يحاربونه في ميدانه حين يعمدون الى ضروب المعاكسات المدرسية التي يغيظون بها طائفة من المعلمين ، فانتظروا حصته ووضعوا في المحابر حمضا كريه الرائحة لا يطاق في مكان محصور ، وسبق الى وهمهم ان الحصة ستضيع في السؤال والجواب عن هذه الرائحة وعن مصدرها وعن واضعها وعن المكان الذي جاء به منها ـ وهو بطبيعة الحال معمل الكيمياء في المدرسة . . ولكنهم لم يلبثوا هنيهة بعد دخوله الى الفصل حتى أدركوا أنهم في وهم بعيد ، لأنه لم يسأل ولم يغضب ولم يبد عليه انه فطن لشيء غريب ، ولم يزد على انه مضى بنفسه الى النوافذ فأغلقها والى الباب فأغلقه ، وأخذ في الدرس وهو على أتم راحة ونشاط ، وكلما اشتد الضيق بالشياطين الذين انقلبت عليهم فعلتهم تصايحوا يسألونه فتح النوافذ والابواب ، وهو يزعم لهم ، في جد وسكون ، ان الحجرة المغلقة أصح من تيار الهواء .

وكان ذلك هو الامتحان الاول والاخير !

ملكة نادرة . . . !

وليس أعلم من المؤلفين بالمشقة التي يعانيها الكاتب اذا حاول ان يعيد الكتابة في موضوع من جديد . فانها مشقة جهد ومشقة ملل في وقت واحد ، ولكنني رأيت المازني يعيد كتابة المقرر في التاريخ لبعض الفرق الثانوية تأديبا لرجل من الناشرين خدعه في طبع الكتاب المقرر لتلك الفرق . فأعلن أنه غير راض عن النسخة المطبوعة وانه سيطبع المذكرات على التوالي بعد اعادة تحضيرها . وصبر على هذا الجهد الممل ليملي على اخوان الامانة درسا في عاقبة الخيانة والخداع .

الا أنني أظلم ملكات المازني كلها اذا رجعت باحتماله لهذه المشقة المملة الى الارادة دون غيرها .

فإن الذكاء المفرط في الحقيقة هو صاحب الفضل الاول في صبره على جهد الاعادة ومللها . لانه كان يستطيع أن يفتح المرجع التاريخي الضخم في اللغة الانجليزية وان يلخصه وهو يقرأه ، وان يترجمه وهو يلخصه ، وان يكتبه على ورق الآلة الناسخة في وقت واحد . وهي أربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة في لحظة واحدة : جهد القراءة وجهد التلخيص وجهد الترجمة وجهد التحضير .

الا أن السرعة في الفهم والترجمة الصحيحة اهون ما في هذه الملكة النادرة .

وأقول النادرة وينبغي أن أقول الوحيدة في تاريخ الآداب العالمية . فانني لا أعرف في آداب المشرق أو المغرب نظيرا للمازني في هذه الملكة التي أسميها بعبقرية الترجمة .

انه يترجم النثر في أسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان . ويترجم الشعر في أسلوب كأسلوب البحتري والشريف ، ثم لا يخرم في ترجمته حرفا من

اللفظ ولا لمحة من المعنى . . بل يأتي بالمقالة المترجمة أو القصيدة المترجمة في طبقة التأليف أو أعلى وابلغ ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الاوربي - العالمي - بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئا لو أنه نظمها في لغة الضاد .

ولا يقل شعره المطبوع عن شعره المترجم في مزايا البلاغة والصقل والسلاسة ، ومن دواعي الاسف الشديد أنه هجر الشعر وأنكر على نفسه الشاعرية ، ومن دواعي الاسف الشديد ان عبقرية الترجمة التي انفرد بها لم تجد من ينفع بها العالم العربي ويغني الفقيد بعمل من اعمالها الخالدة عن كتابة الضرورة أو كتابة الظروف . .

ولا تقل عن ملكة الترجمة فيه ملكة اخرى من انفس الملكات التي يرزقها الاديب والفنان ، وهي ملكة الملاحظة الدقيقة والتعبير السهل القريب عما يلاحظه من المشاهدات والمناظر عن عرض أو عن روية .

كنز زاخر . .

ونعود فنقول إننا نأسف أشد الاسف لان الفرص لم تهيء له أسباب النفع بهذه الملكة في غير الاعمال الصحفية العاجلة ، ولو تيسرت له موارد العيش واستطاع ان يتفرغ للتأليف الذي يريده لأمتع الناس بالعجب العجاب في هذا الباب ، ولظفر العالم العربي بثروة المازني كلها ، وما أنفسها وما أجلها اذا كان هذا الذي اتسع له وقته وتهيأت له أسبابه جد نفيس جليل .

كنز زاخر ضيعنا منه ما ضيعنا وهو فيما بيننا . فان تعلمنا شيئا من العبر فلنتعلم كيف نصون ما أبقاه فانه لخليق أن يبقى بقاء العربية في حرز أمين ، وحسب العربية من فضله على أدبها أنه أثبت لها القدرة على مجاراة أحدث الآداب بأسلوبها الصحيح السليم .

ذكريات مع الذكريات

وأي ذكريات ؟ وكم من ذكريات ؟ وما أكرمها ذكريات ....

انها ذكريات الصبا في بواكيره .

انها ذكريات الاخوة في حماسة الدعوة الاولى الى الرأي والمذهب .

انها ذكريات المشاركة في الجهاد الوطني على خلاف أو على لقاء .

انها ذكريات العطف المتبادل والفكرة المتجاوبة في جميع تلك الحالات[1] .

ومهما يكن من معرفة عامة يعرفها القراء عن أديبهم المازني ، ففي مجال تلك الذكريات احاديث لا تحصى ..

ولكن هذه « الشخصية » المحبوبة ـ شخصية ابراهيم الكاتب وشخصية أبـي خليل الصـديق ـ تعفينـي من كل حـيرة في موقف الاختيار بـين تلك الذكريات ، ولا فرق فيها بين ما يقال أنه شخصي خاص وبين ما يقال انه ترجمة من حق النقد وحق التاريخ . وهكذا تكون « الشخصيات » التي يقول النقاد انها « مطبوعة في الصميم » كل ما تعمله او تقوله خاصة يعين الناقد والقارىء على فهمها وتفسيرها في مجالها الفسيح الذي تتصل فيه بعالـم القلـم ، وعالـم التاريخ ..

---

(١) هذا الفصل كتبه العقاد بمناسبة ذكرى المازني بعد سنوات من وفاته .. أما الفصل الاول فقد كتبه حين وفاته .

لقد كان المازني الذي يسخر من كل شيء ، ويخرج لسانه لعابري الطريق هو المازني الذي يسمي كتبه في أخريات حياته بـ « قبض الريح » و« صندوق الدنيا » و« عالماشي » ، و« حصاد الهشيم » وهو المازني الذي أعجبه ذلك الشاعر الذي أوصى ان يكتب على قبره هذان البيتان :

ايها الزائر قبري اتل ما خط أمامك
ها هنا فاعلم عظامي ليتها كانت عظامك

كأنه يخرج لسانه من تحت التراب لزائر القبر الذي يقرأ ، وهو غافل ، ما يحدثه به الدفين المزور .

في كل ذكرى من تلك الذكريات الشخصية صورة من صور الدعابة التي لا يفوتها الاحترام ، والاستخفاف الذي يعرف مواطن الاعجاب والتقديس .

وكان صديقنا المرحوم عبد الرحمن شكري يقول له فيما بيننا بالانجليزية . حين نسمع تعليقاته على ما نقرأ شعرا ونثرا : ان فيك يا أبا خليل لشيئا ملكيا عفريتيا بلا افتراق **Angelic Impish** وكان هو ـ طيب الله ثراه ـ لا يرفض هذا الوصف ، ولكنه ـ يجيب عليه تارة اجابة الملائكة ، وتارة اجابة العفاريت ! . .

وكان موضع العجب من أمر صديقنا المحبوب المهيب أنه ـ على دعابته ـ لم يكن يفقد احترام عارفيه على أوفاه ، وانه مع استخفافه لم يكن يستخف قط بمواضع التقديس والاعجاب .

كان رحمه الله قصير القامة يظلع في مشيته ، وكان يدرس التاريخ والترجمة في مدرسة ثانوية اشتهرت بتلاميذها المتمردين ، لانها كانت مدرسة اهلية تجمع الذين تجاوزوا السن في المدارس الاميرية أو طردوا منها لسوء السلوك ، ولم يكن أيسر من اجتراء هؤلاء على مدرس شاب قصير القامة يظلع في مشيته ولا يبالي كثيرا بزيه ، ولكنه كان على نقيض ذلك مهيبا عندهم الى حد المخافة ، وكان لقب « تيمورلنك » هو اللقب الذي اختاروه له من دروسه في التاريخ !

ولعله كسب منهم هذا اللقب بعد امتحان أو امتحانين ، ففهموا بعد الامتحان أي رجل هذا الهزيل الضئيل الذي حاولوا ـ على غير معرفة به ـ ان يجترئوا عليه ، لانهم فهموا انه رجل يملك زمام نفسه فلا يستعصي عليه أن يملك زمام الاخرين ، وانه رجل كفؤ لعمله على مثال لم يعهدوه بين عشرات المدرسين .

وبهذه الكفاءة ، وتلك الارادة ، اصبح مدرسهم الهزيل « تيمورلنك » زمانه المخيف ، والمحبوب .

***

ولم تكن المدرسة هي الساحة الوحيدة المختارة لهذه الدعابات ، بل كانت كل مفارقة يلقاها على ثقة بالجواب السريع بفصل من هذه الفصول .

دخل الى صيدلية يشتري حامضا من الحوامض السامة التي تستخدم في المنازل للتطهير ، وتقضي التعليمات على الصيادلة أن يسألوا من يشتري المادة السامة عما يستعملها فيه . فسأله الصيدلي حسب التعليمات .

ـ لماذا تريدها يا أستاذ ؟

فلم يجب الاستاذ ، بل نظر الى الصيدلي ورفع ابهامه الى فمه متلمظا كأنه يقول : اشربها

وكان الصيدلي الظريف كفؤا لزبونه الساخر ، فناوله القارورة وهو يقول :

ـ قدحان مرة واحدة كفاية يا استاذ !

***

وقد كانت دعابة صديقنا الودود سلاحا ماضيا يدفع به الاذى ، كما كانت

سلاحا حاضرا يطرف به الاصدقاء . وكنا جميعا « المازني وشكري وأنا » عرضة للاساءات السخيفة نتلقاها ممن هب ودب من انصار القديم ، ومنهم من كان يتميز غيظا من دعوتنا ، ويتحرق شوقا الى الفرصة التي تهيء له سببا من الأسباب للغض من هؤلاء « الطالعين فيها » . . كما كانوا يصفوننا في لغو الحديث .

ولقد ثقلت هذه الاساءات على مزاج احدنا ـ شكري ـ فسئم لقاء الناس وانطوى على نفسه بعيدا عن المجامع والمجالس ، الا من تدعوه ضرورة العمل الى لقائه . .

أما « ابو خليل » فقد كان بدعابته الحاضرة امضى سلاحا من أن يتراجع أمام المسيئين أو أمام الاساءات ، ولم يكن اخبر منه بأساليب الانتقام العاجل ممن يخيل اليه أنه سيخنقه بالفصول الباردة : الفصول التي تحرج المقصود بها ، لانه لا يدري كيف يحتج عليها ولا كيف يسكت عنها .

***

خرجنا ذات مساء الى ضاحية القبة نتنسم هواء الربيع ، وكان لنا صديق يسكن في تلك الضاحية . فلما مررنا به وجدناه بين فئة من صحبه وجيرانه على باب داره ، فلبينا دعوته ، ولما يكد يستقر بنا الجلوس . . واذا بواحد من الحاضرين يتصدى لتوزيع السجائر ويتخطاني ويتخطى المازني عمدا ليسيء الينا بهذا الاهمال . . وقبل ان أفرغ من سؤال نفسي : ماذا عسي ان يصنع أبو خليل مع هذا الذي خيل اليه أنه يفحمنا باساءته ، وانه حر في افحامنا بها لانه حر في سجائره يحيي بها من يشاء ويهمل من يشاء ؟ . . اذا بالدعابة الحاضرة ـ تحت الطلب ـ تسعد أبا خليل ، فيمد يده الى علبة السجائر ، ويذهل صاحبها فيسلمها اليه ، ويأخذها أبو خليل فيناولني سيجارة ويتناول اخرى ، ويضع اثنتين على المنضدة ، ويقول لذلك المخلوق المذهول :

ـ هاتـان السيجارتـان للـدورة الاتية . . لاننـا لا نريد ان نراك مرة اخرى . .

ثم رفع رأسه كانه تنبه من سهوة عارضة ، ويقول في غير اكتراث :

ـ لا مؤاخذة . . ! حسبتك خادم الـدار ، ولـولا ذلك لطـردك صديقنـا الكريم .

***

ولقد شهد هذه الفصول المازنية كثـيرون من صحبـه الاقربـين وممـن لا يعرفهم بغير تحية المزاملة في العمل أو تحية الطريق ، فلم يعرضه فصل من هذه الفصول قط لفقدان الاحترام ، ولم يعرضه هو ـ بينـه وبـين نفسـه ـ لفقـدان الشعور بالاحترام ، وكان له قدره المرعي في كل بيئة نزل فيها ولو نزول الطارىء الراحل ، وقد كانت لهذا المستخف الساخر غضبته التي لا يغضبها الكثيرون من الجادين الذين لا يعرفون السخرية والاستخفاف . فاذا مست كرامته فلا مزاح ولا هوادة . وقد استقـال من وظيفته الحكومية ، لانه لم يعطـحقه من التقدير بين قرنائه في الديوان .

وفهم هذا الازدواج المحكم في طبيعته بين فلسفة الاستخفـاف وشعـور الاحترام ليس بالامر العسير على الذين عرفوه وعاشروه : ان « اللامبالاة » عنده لم تكن نقصا في الشعور ولم تكن وليدة النظرة السلبية الى الحياة ، ولكنها كانت عنده وليدة للشعور المفرط وللنظرة الموجبة الى العاطفة الانسانية في شعابها التي لا تحصى : كان ملء النفس عطفـا على الام وعلى الابـن ، وعلى الاخ ، وعلى الزوجة ، وعلى الصديق ، كان امتلاء نفسه شعـورا بالواقـع . . هو سر هذا الضيق بالجد المتصل في حالة بعد حالة واحساس بعد احساس ، وكانت نظرته المثالية الى غير الواقع المتكرر هي التي جعلته يعطي ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما قال السيد المسيح : أو هي التي جعلته يعطي للواقع ما للواقع وللمثل الاعلى ما

للمثل الاعلى ، دون أن يمزج بينهما في كل حادث وكل يوم . . فاذا جاء دور المقارنة بين الواقع الانساني وبين الكمال المنشود فهناك تتفتح الابواب للسخرية بجميع مصاريعها . ولكنها سخرية عاطفة كسخرية الاب الذي هو أعطف الناس على ضعف وليده ، وأوسعهم رجاء له في الكمال .

بهذه النظرة المطبوعة الى الواقع والى المثل الاعلى استطاع ان يعرف السخرية بالواقع في حينه ، وان يعرف الغضب للقداسة التي نرفعها الى سماء المثل العليا في كل حين .

فمن غضباته التي نذكرها تلك الغضبة التي أشرت اليها في معرض الكلام على تأليف العبقريات ، وأولها « عبقرية محمد » صلوات الله عليه .

***

كنا نزور ساحة المولد النبوي لعلى مقربة من مسكني بالعباسية ، في جولة من جولاتنا التي كنا نسميها بالتفتيش الفني على احياء المدينة . . فذكرنا مقال البطولة النبوية في كتاب الابطال للفيلسوف الايقوسي توماس كارليل . كان يعرف اعجابي بما يكتب ذلك الفيلسوف . فقال :

ـ ولم لا تكتب انت ذلك المقال من جديد ونحن اولى بهذا الواجب من كتاب الغرب ، مهما يكن من اخلاصهم في تقدير البطولة المحمدية ؟

وكان في الجماعة فتى متحذلق يحسب ان حرية الفكر انما تقاس بمقدار التطاول على المقدسات الموقرة ، وعلى مقدساتنا نحن دون سائر العالمين . . ففاه بكلام هازل يشير به الى السيف والى الزوجات الكثيرات . . وما راعنا الا المازني الوديع الساخر ينتفض غضبا كأنما لمسته لفحة من وقود مضطرم ، والا حركة يوشك ان يتبعها عمل وهو يقول تعقيبا على صيحتي في وجه ذلك الدعي المتحذلق : كلا . كلا . ان هذا الهجر لا يثبت الحاجة الى الضرب بالسيف في

نشر الدعوات . انه ليثبت الحاجة الى ما هو أصلح من ذلك لداء البذاءة والقحة : انه الضرب بالحذاء توفيرا للسيف عن مثل هذا المقام . . !

على أن الزمن قد كان يصنع صنيعه في هذا المزاج الذي وفق هذا التوفيق العجيب بين الجد والقداسة ، وبين السخرية و« اللامبالاة » في عالم الادب الخالد ، وفي عالم المعيشة العارضة من يوم الى يوم . فكان من صنيع الزمن انه لم يزل يوسع المسافة بين الواقع والمثل الاعلى عاما بعد عام ، حتى كاد أن ينتهي بها الى الطرفين المتقابلين . فلم يكن للواقع عنده في اخريات أيامه نصيب غير التحدي والسخرية والاستخفاف ، ولم يكن فيه غير باطل الاباطيل ، وغير النظرة « عالماشي » ، وغير التفويت والاغضاء . . ولم يكن في اكثر الاحايين أهلا للمصالحة بينه وبين المثل الاعلى فوق عرشه الرفيع ، من وراء المنظور والمأمول .

***

وسكنت في طويته قوة النضال حتى عاد بشيء من الندم الى نضاله القديم ، وحتى استكثر الرد على من ينكرون حقه ويجحدون فضله حيث هو أحق واجدر بالاعتراف ، وأحق وأجدر بالفضل والتفضيل .

فما كان انكاره لشعره ـ فيما أعلم وأعتقد ـ الا تحديا منه للاعجاب والاستحسان ، ممن يظنون انهم ينعمون عليه باعجابهم واستحسانهم ويسلبونه نعمة يتكالب عليها بما ينكرونه عليه ، او يبخسونه ، مؤمنين ومكابرين متعنتين . .

وفي هذه الفترة كان يقول ما يقوله وهو لا يبالي ان يحسب جوابه من الجد أو يحسب من المزاح : انني في مصنع النجارة الفني اعطيكم ما تطلبون : وما بالي اعطيكم كرسي الصالون وانتم تطلبون كرسي المطبخ ؟ أو أسومكم ثمن الدولاب

وانتم تبذلون ثمن الصندوق الصغير . وخدعته قبل أن تخدع غيره سهولة الكتابة عليه ، فنسي أن السهل الممتنع هو الذي يستطيعه مثله بلا مبالاة . . يطلبه سواه ، بكل ما في وسعه من مبالاة ، فلا يقدر عليه .

***

كان يجلس الى المرقم « التايبرايتر » ليكتب القصة المطلوبة ، أو المقال المطلوب ، ساعة الطلب بغير تحضير . . وكان يكتبه في جلسة واحدة ويختمه مع ختام الورقة الاخيرة ، فيحس القارىء انه لم يقل كل ما عنده ، ولكنه يحس كذلك أن الذي قرأه كاف ، واف ، او يزيد على الكفاية والوفاء .

وهنا ـ أيضا ـ نعلم الفارق بين « اللامبالاة » السالبة و« اللامبالاة » الموجبة التي تغنيها القدرة عن جهد المبالاة . .

ربما كانت سهولة الكتابة على المازني تقنعه هو نفسه بأنه غير مكترث بما يكتب ، ولكنه ينسى ان هذا الذي يكتبه بغير اكتراث يحاوله المكترثون جهدهم فلا ينتهون اليه . وأحسب أنني قرأت له المقال الذي كان يكتبه في نصف ساعة ، وقرأت له من قبل ذلك مقالات كان يكتبها ويعود اليها في ساعات ، فكان أجود ما كتبه من ثمرات السرعة البالغة ، سرعة الكاتب الذي يقول انه « لا يبالي » ، ولكنه يبلغ غاية الشوط من « مبالاة » الآخرين . .

وهذه هي عبقرية المازني التي لا تجارى : عبقرية تعطي وقائع اليوم حقها ولا تنسى حقوق المثل العليا في سماواتها ، وهي على هذا تعطينانموذجا منها في النكتة مع التلميذ والصاحب وعابر الطريق ، كما تعطينا نموذجا منها في ثمرات الفن والادب ، وتشعر وهي تستخف وتسخر كما تشعر وهي تقدس وتمجد ، لانها فيما « تباليه » وما « لا تباليه » ، انما تصدر عن فرط شعور ، وعن تمييز بين مواطن النقص ومواطن الكمال .

عبد الرحمن شكري

عرفت عبد الرحمن شكري قبل خمس وأربعين سنة[1] فلم اعرف قبله ولا بعده احدا من شعرائنا وكتابنا اوسع منه اطلاعا على أدب اللغة العربية وادب اللغة الانجليزية وما يترجم اليها من اللغات الاخرى .

ولا أذكر أنني حدثته عن كتاب قرأته الا وجدت عنده علما به وإحاطة بخير ما فيه ، وكان يحدثنا أحيانا عن كتب لم نقرأها ، ولم نلتفت اليها ، ولا سيما كتب القصة والتاريخ . .

وقد كان مع سعة اطلاعه صادق الملاحظة ، نافذ الفطنة ، حسن التخيل ، سريع التمييز بين ألوان الكلام ، فلا جرم ان تهيأت له ملكة النقد على أوفاها لأنه يطلع على الكثير ويميز منه ما يستحسن وما يأباه فلا يكلفه نقد الأدب غير نظرة في الصفحة والصفحات يلقي بعدها الكتاب وقد وزنه وزنا لا يتأتى لغيره في الجلسات الطوال .

لم يسبقه احد فيما أذكر الى تطبيق البلاغة النفسية ـ السيكولوجية ـ المستمدة من أدب الغرب على ما يقرؤه من شعر الفحول في اللغة العربية . ولعله أول من كتب في لغتنا عن الفرق بين تصوير الخيال **Immagination** وتصوير الوهم «**Fancy**» وهما ملتبسان حتى في موازين بعض النقاد الغربيين . ومن ذلك التفرقة بين تشبيه الشفق والفجر بدم الشهداء في قول المعري :

---

(١) توفي عبد الرحمن شكري يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م .

وعلى الافــق من دمــاء الشهيد ين علي ونجلــه شاهدان
فهما في اواخــر الليل فجرا ن وفي أولياتــه شفقان

وبين تشبيه ابن الرومي للأصلع حيث يقول :

فوجهــه يأخــذ من رأسه اخــذ نهــار الصيف من ليله

فالاول وهم في خاطر المعري ، لا يلتفت اليه أحد غيره لو لم يذكره ، والآخر خيال مطبوع يخطر لكل بديهة مصورة تتقن من التشبيه ما يتقنه الشاعر . وقد كان يشمئز من بيت الوأواء الدمشقي :

فأمطــرت لؤلــؤا من نرجس وسقت وردا وعضــت على العنــاب بالبرد

ويقول ان نسبته الى يزيد بن معاوية بلاء فوق طاقته فلا نجمع عليه « بين قتل الحسين وقول هذا الشعر الـذي لا بأس به اذا أريد للفكاهـة والعبـث لا للغزل » .

وكذلك كان يحسب من المزاج الغث قول الانباري :

ولما ضاق بطــن الارض عن ان يضــم علاك من بعــد المهات
اصــاروا الجــو قبــرك واستعاضوا عن الاكفــان ثوب السافيات

وهو معدود من عيون الرثاء عند من ينظرون الى اللفظ ولا ينظرون الى بواعث الرثاء من النفس الانسانية . فمثل هذا الرثاء يقال للمكايدة او للعبث ، ولا ينم على حزن دخيل ، ولا تقدير مفيد .

شكري الشاعر

ولم يكن امتع من الاستماع الى شكري وهـو يقـرأ القصيدة العـربية او الاوربية ويعلق عليها بيتا بيتا امثال هذه التعليقات . . وما كتبه من النقـد في

مؤلفاته قطرة من بحر من تلك الآراء النفيسة التي كان يرسلها عفو الساعة ولا يعنى بتقييدها .

وقد نظم شكري سبعة دواوين من الشعر غير القصائد التي لم ينشرهـا وتمتلىء بها كراسة في حجم ديوانين آخرين او أكثر ، فمن تخير من هذه الدواوين المنشورة وغير المنشورة امكنه ان يجمع منها زبدة من أجمل الشعر تضارع صفوة القول في كلام كبار الشعراء . وقد كانت له قدرة على رياضة النظم كما نرى في ترجماته لبعض رباعيات الخيام . فان الترجمة ادل على قدرة النظم من التأليف لتقيد الناظم بالمعاني المنقولة التي لا يتصرف فيها ، فقد أحسن فيما نقله من الخيام غاية الاحسان حيث يقول :

هاج للقلب جدة الحول اشجا — نا لديه قديمة العهد
تأنس النفس بالتفرد والوحد — ة في ظل عيشه الرغد
حيث تحكي الازهار راحة موسى — في بياض النوار والورد
ولها نفحة كأنفاس عيسى — باعثات للميت من لحد

أو يقول :

ارم قد عفت وصوح قدما — في رباها الربيع والزهر
كأس «جمشيد» قدمضت حيث لاحيـ — ث لدنيا من امرها· خبر
لكن الكرم لا يزال جوادا — برحيق حبابه درر
ولنا منزل على الروض فينا — ن تروي ازهاره الغدر

أو يقول :

هات لي الكأس يا حبيبي دهاقا — لا نطع عاتبا كؤوس العقار
ان ثوب الوقار ثوب شتاء — ليس يغني في الصيف ثوب وقار
اغض عنك الوقار وارم به في — جمرات للقيظ مثل النار
انما العيش طائر بين غصنيـ — ن فخذه مآخذ المستطار

وهذه طبقة من الطلاوة والجزالة من سلسلة له في مترجماته كانت في مبتكراته أسلس وأوفر . وقد توافرت لشكري مقطوعات وأبيات في هذه الطبقة من بلاغة الأداء .

وكان خليقاً أن تتوافر له في كل ما نظم لولا أن التفاوت طبيعة في أعمال العباقرة والموهوبين ولولا أنه كان قليل الاحتفاء بالمراجعة والتنقيح ، يرسل شعره إرسالاً كما قال :

أرمي بشعري في حلق الزمان ولا   أبيت منه على هم وبلبال

ولكنه ـ على قلة احتفائه بالتنقيح ـ قد خلص له من جيد الشعر ما يسلكه في عداد المجددين من نخبة الشعراء .

وله عدا ذلك في ميدان القريض فضل الرائد الذي سبق زمانه في عدة حسنات مأثورات فهو من أسبق المتقدمين الى توحيد بنية القصيدة والى التصرف في القافية على أنواع من التصرف المقبول ،. فنظم القصيدة من وزن واحد ومقطوعات متعددة القوافي ، ونظمها مزدوجات وأبياتا من بحر واحد بغير قافية ملتزمة ، وآثر في تجاربه الأخيرة ان يلتزم القافية مع تعديدها في مقطوعات القصيدة الواحدة . وتسنى له في جميع هذه المناهج ان ينظم الكثير من القصص العاطفية والاجتماعية قبل ان يشيع[1] نظم القصص في ادبنا الحديث وله فيها قصيدة اليتيم التي يقول فيها :

وما اليتم الا غربة ومهانة   وأي قريب لليتيم قريب
يمر به الغلمان مثنى وموحدا   وكل امرىء يلقى اليتيم غريب
يرى كل أم بابنها مستعزة   وهيهات لا يحنو عليه حبيب
اذا جاءه عيد من الحول عاده   من الوجد دمع هاطل ووجيب

---

(١) لعل شاعر الأقطار العربية خليل مطران قد سبقه الى ذلك . ففي ديوانه الذي صدر في سنة ١٩٥٨ قصص شعرية نظمت قبل سنة ١٨٩٧ م .

كأن سرور النـــاس بالعيد قسوة   عليه تريق الدمــع وهــو صبيب
عزاءك لا يلمـــم بك الضيم اننا   يتامــى ولــكن الشقــاء ضروب
فهــذا يتيم ثاكل صفــو عيشه   وذاك من الصحــب الـكرام سليب

ونذكر هذه القصيدة خاصة لسبب غير دلالتها على نماذج شعره في هذا الباب ، اذ كانت من أسباب وجومه الذي لزمه من مقتبل شبابه وكان من دواعي هذا الوجوم ان هذه القصيدة اختارها الاستاذ محمد امين واصف في كتاب من كتب المطالعة مستحسنا لها ، موصيا بحفظهـا ، من دون ان يذكر اسـم صاحبها ، فكان هذا الإغفال مما آلم الشاعر أشد الايلام لأنه كان يفهم ـ كما قال لنا ـ ان يغفل ذكره لاستهجان شعره ، فأما ان يكون الاغفال حتما عليه مستحسنا ومستهجنا فذلك كنود عجيب .

ولقد كان بعض الانصاف خليقا أن يلطف من وحشة الشاعر التي لازمته منذ بواكير شبابه ، ولكن التواطؤ على نكران فضله بين من يعرفونه ومن يجهلونه محنة لم يكن ليصبر عليها طويلا ، مع ما فطر عليه من الحس المرهف والملل السريع .

ففي نحو العشرين نظم شكري هذه الأبيات :

لقــد لفظتنــي رحمــة اللــه يافعا   فصرت كأني في الثمانين من عمري
وحاول مني الهـم صبرا فلـم ازل   ادافعــه حتــى ابحــت له صدري
وانــي لأدري أن في الموت راحة   وأجنبــه حتــى كأنــي لا أدري
ولــولا تقــى لا يملك اليأس صرفه   لأوردنــي يأسي على المســلك الوعر

وقد عاش بقية عمره بهذه الوحشة وهذا الملل وهـذا التـردد بـين اليأس والرجاء لا يدري ما يدافعه من خيبة في حياتـه الأدبية ولا من خيبـة في حياتـه الوجدانية ، وكلها اثقل وأمض من ان تطاق في حالة السليم الجليد فلما اطبقت عليه العلة الوبيلة ـ علة الشلل ـ ران عليه وجوم الأبد قبل الهرم وقبل الموت فترك

الدنيا ومن فيها وما فيها ، ولم يحفل حتى بأن يقول انـه تركهـا غـير مأسـوف عليها . .

شكري الناثر :

والشاعر الناقد (شكري) كاتب ناثر على أسلوبه ومنهجه في السهولـة والسلاسة وقلة الاحتفال بالتنقيح والتجميل ، لكن نثره شعر ، ونقده لا تقـرأ مثله لشاعر غير ناقد أو لناقد غير شاعر .

ومن مؤلفاته النثرية كتاب « حـديث ابليس » وكتـاب « الاعترافـات » وكتاب « مذكرات مجنـون » عدا فصولـه المجموعـة في كتـاب « الصحـائف » وكتاب « الثمرات » وطابعها الغالب عليها جميعا انها وحي نفسه الذي لا يشبهه فيه كاتب يطرق هذه المعاني والأغراض ، فهي « شكرية » في كل صفحة من صفحاتها وكل فقرة من فقراتها يكاد يميزها اللفظ المسترسـل ، كما يميزهـا لون الفكر والوجدان .

يقول من فصل له عن هيبة الحياة وهيبة الموت :

« اننا اذا اغرينا الناس بأن لا يهابوا الحياة خفنا ان يغريهم ذلك بأن يغالوا في حب الحياة حتى يجبنوا . . . واذا نحن اغريناهم بأن لا يهابوا الموت خفنا ان يدفعهم ذلك الى كره الحياة والرغبة في التخلص منها فخليق بنا ان نحثهم على ان يجعلوا بين الرهبتين موازنة كي لا ترجح احداهما . ولكن الانسان لا يملك صحة نفسه وسقمها . . فان وراء رغبته في صحة نفسه عوامل لا يملك لها دفعا مثل الوراثة ، والتربية والبيئة فاذا تحالفت هذه الأسباب على اسقام نفسه بأن تجعله جبانا امام الحياة ، أو جبانـا امـام الموت ، كان ضحية لهـا ولا تنفعـه نصيحـة الناصحين شيئا » .

وخذ ما شئت من صفحاته تجد فيها ما تجده في هذه الملاحظة من استيحاء

شعوره وفكره والاستفادة من مراقبته لنفسه ولغـيره . ثم ارسـال التجربـة على الورق كما يرسل الحديث في مجلس السمر عفوا بلا كلفة ولا مراجعة بين مصدره من النفس ومورده من التعبير .

ان « عبد الرحمن شكري » شاعر ناثر نسيج وحده في فنه . ومن توحده في هذا الفن اننا نتلقى تعبيره من « شخصية » فذة لا يحكيها غير صاحبها ، وإن جال به الفكر اللماح والاطلاع الواسع في كل مجال .

ولقد عرف الناس معرفة احزنته اشد من حزنه لجهلهم اياه ، فان عادوا فعرفوه فلعلهم يرضون أنفسهم بارضائهم لذكراه . .

هؤلاء حادثتهم

نشأت وليس أحب الي من الاطلاع على تراجم العظماء ، ولكنني على فرط شغفي بالاطلاع على تراجمهم لم أشعر قط نحوهم بذلك الشعور الذي يغلب على كثير من الناس ، وهو شعور الميل الى رؤيتهم والاتصال بهم ، إن كانوا من الأحياء . وقد يتفق لي ان أقرأ عن أحدهم او اقرأ له كثيرا من الأوصاف والآراء ، ثم يصل الى مصر وتتاح لي فرصة لقائه ، فلا اكره لقاءه ولا اخف اليه ، ولكنني استطيع ان افرض انه لا يزال في بلاده دون ان يكلفني هذا الفرض أقل عناء .

انني احب غاندي واكبره ، وقد عبر بمصر في طريقه الى لندن ، وأرادت صحيفة البلاغ ان تندبني للقائه والتحدث اليه ومصاحبته في السفر من السويس الى بور سعيد ، فلم انشط لهذه الرحلة ، ولم أشعر بأنني أزداد معرفة بالرجل او اكبارا لقدره اذا قضيت معه هذه الساعات .

ومرجع ذلك فيما أظن الى أسباب شتى : منها أنني تعودت أن أرى العظماء والمشهورين في غير « هالتهم » التي تضفي عليهم ما تضفي من الغرابة ، وتثير في نفوس الناس نحوهم حب الاستطلاع أو حب الاستشفاف من وراء الظواهر والمراسم . وقد تعودت ذلك لأنني نشأت في أسوان حيث كنا نرى في كل شتاء زوارا من الملوك وأولياء العهود والنبلاء وكبار القادة والساسة ورجال الأعمال ولكنا نراهم على أبسط ما يكونون من البساطة ، فيرتفع عن أبصارنا غشاء الغرابة

الذي يحيط بهم ويغري الانظار بالتطلع اليهم ، ونقدرهم من بعيد كما نقدرهم من قريب .

كانت الصحف والانباء البرقية تتحدث عن ملنر وكتشنر ، وكان أهل أسوان يرون ملنر في قهوة بلدية اكثر روادها من الحمالين والتراجمة والاكارين ويرون كتشنر على دكة خشبية أمام بيت من بيوت مشايخ العرب .

وكان علماء الأرض الذين تنقل مجلات العلوم آراءهم وبحوثهم وتعتمد عليهم الحكومة في بعوث الكشف والتحقيق يفدون الى أسوان احيانا فيزورونا في المدرسة ونزورهم ، ونألف ان يكون كبار العلماء أناسا مألوفين .

ذلك سبب من اسباب .

أما الأسباب الأخرى فمنها حب العزلة الذي ورثته وطبعت عليه . ومنها انني اتطلع الى معرفة العظمة حقيقة لا صورة ، وأحسب ان رؤية لحظة او لحظات لا تعرفني بالعظيم ان لم تعرفني به قراءة يوم أو ايام .

لهذا لم أنشط كثيرا الى لقاء مشاهير العالم الذين تهيأت لي الفرص للقائهم ومحادثتهم ، ولم اتوسل بعملي في الصحافة الى محادثة احد منهم ، الا لغرض غير حب الاستطلاع أو حب التقرب من ذوي الأخطار .

فحادثت احمد مختار الغازي ، وحادثت سعد زغلول وحادثت أميل لودفيج ، وكان باعث الحديث في كل مرة سببا غير حب الاستطلاع من جانبي أو ارضاء المستطلعين من جمهرة القراء .

احمد مختار باشا الغازي :

ومختار الغازي كما يعلم قراء التاريخ القريب بطل من الأبطال العسكريين الذين اشتهروا في حروب روسيا والدولة العثمانية .

كانت له شهرة عالمية ومكانة موقرة وأرادت الدولة العثمانية أن تنيب عنها في

مصر مندوبا ساميا ملحوظ المكانة ، ليستطيع بمكانته ـ فقـط ـ أن يوازن مركز المندوب البريطاني بما في يديه من السيطرة والنفوذ ، فاختارت مختارا لهذا المنصب ، وعرف في مصر باسم القوميسير .

ولم يكن له عمل في السياسة المصرية ، بل كانت كل اعماله من قبيل التشريفات وحضور الصلاة في يوم الجمعة مع أمير البلاد .

ولكنه كان يسأل : « ماذا تعمل في مصر ؟ » . فكان يقول : « إنني احتجاج حي على وجود الاحتلال » .

ولما خطر لي ان احادثه كان هذا الخاطر في الواقع « شيطنة شباب » . . لأنني اردت ان انقل بأسم هذا الرجل الجريء كلاما يسمع منه ولا يسمع من غيره ، وكان المحمل المصري قد تعرض يومئذ لهجمة من هجمات الأعراب في طريقه الى مكة ، وكانت الجزيرة العربية ولاية عثمانية . فليس اجدر من القوميسير العثماني بأن يسأل عما جرى فيها ، وبخاصة حين يجري لأناس من الحجاج المصريين في حماية فرقة مصرية .

كان مختار الغازي ضئيل الجسم قصير القامة ، ولكنه كان مهيب الطلعة كأنما تشتعل في عينيه نار متوقدة . فلما تحدثت اليه لم يتحفظ ولم يبال ان يقول كل ما عن له ان يقوله عن اهمال الانجليز للقوة العسكرية المصرية . ولا أذكر تفصيلات حديثه اليوم ولا يتيسر لي أن أبحث عنه في مراجعه لنقله بنصه ، ولكنني اذكر انه قال : « ان الانجليز اهملوا جيش مصر ، وانني بقوة كقوة المحمل افتح الجزيرة العربية ! » .

وكنت اكتب يومئذ في صحيفة الدستور لصاحبها الاستاذ الجليل محمد فريد وجدي بك . فلما رويت له ما سمعت من الغازي ابتسم وقال : « انك لا تذكر حادثة الحدود . . فإن كلاما اقل من هذا الكلام قد اثار الانجليز على أمير

البلاد . فكيف تظنهم يتلقون مثل هذا الحديث من رجل يتبرمون به وبمركزه في الديار المصرية ؟ » .

ونشرنا ما تيسر نشره يومذاك ، ولكنه على خفته بالقياس الى ما قيل قد أقام الدنيا واقعدها في الدوائر الانجليزية ، وأحسبه كان من أسباب سعيهم الحثيث في نقل الغازي والمساومة على مركزه في الاستانة .

سعد زغلول :

وحديثي مع سعد زغلول خليق ان يشار اليه ، لأنه فيما اعتقد كان أول حديث لصحفي مصري مع أحد الوزراء المصريين .

ونحن في العصر الحاضر نفتح الصحف اليومية والاسبوعية فلا يفوتنا حديث وزاري في عدد من أعدادها المتلاحقة .

لقد اصبحت محادثة الصحفيين المصريين لوزراء هذا البلد مادة صحفية دائمة ، وموردا ميسورا لكل قاصد .

ولكن صحف مصر قد عبرت في الجيل الماضي سنوات بعد سنوات ، دون ان يسمع فيها صوت « ناظر » من النظار كما كان الوزراء يسمون في ذلك الحين .

لأن النظار كانوا في عزلة عن الرأي العام ، وكان الرأي العام في عزلة عنهم ، فلا يجسر احد منهم على الإفضاء بحديث عن سياسة « نظارته » الى جمهور المصريين .

***

وعلمت أن سعدا رحمه الله ناظر ولا كالنظار ، وأنه لا يبالي ما يباليه زملاؤه من غضب قصر الدوبارة او غضب المستشار .

فأردت ان احطم هذا السد بين الوزارة المصرية والأمة المصرية ، وهمني ان احادث سعدا على الخصوص لأنني كنت اعجب به وأترقب لمصر نهضة وزارية على يديه ، وكان في تلك الايام عرضة لحملة جائرة من بعض خصومه ، وكنت اعلم انها جائرة . لأنهم زعموا انه حارب الجامعة وهو الذي رصد لها عشرة آلاف جنيه في ميزانية الدولة ، وزعموا أنه حارب التعليم باللغة العربية وهو الذي دفع الطلاب دفعا الى مدرسة المعلمين ، وجعل لهم مرتبات شهرية وهم في سلك الدراسة ليخرج منهم اساتذة يعلمون الدروس باللغة العربية ، وزعموا انه مالأ الانجليز على تقييد التعليم وهو الذي كان يطوف البلاد من أسوان الى رشيد لمحاربة الأمية بتعميم المكاتب الأولية .

فاتخذت من حديثي معه وسيلة لدفع هذه الشبهات بالأسانيد الرسمية ، وحصلت فعلا على تلك الأسانيد ، ورأيت بعيني ما يثبت لي صدق ما ظننته في عزيمة سعد واحتفاظه بكرامته وكرامة منصبه ، لأن المستشار العنيد ـ دانلوب ـ جاء يستأذن في عرض اوراق عليه . ولم يكن مستشار انجليزي يستأذن في عرض اوراق . بل كان ينظر في كل مسألة بنفسه ويعرض ما يشاء من ذلك على الوزير للتوقيع .

نشرت حديثي مع سعد في شهر مايو سنة ١٩٠٨ بصحيفة الدستور ، ولم احادث سعدا باقتراح من الاستاذ الجليل صاحب الصحيفة ، ولكن الاستاذ الجليل من كتابنا القلائل الذين يعرفون حرية النشر ، وكثيرا ما خالفته فيما اكتب وانا يومئذ في مطلع حياتي الصحفية ، وربما ذهب في مسألة من المسائل الى رأي وذهبت الى غيره ، فلا يرى حرجا في نشر ما اكتب كما أراه .

اميل لودفيج :

أما إميل لودفيج فلم يكن لقائي له عملا صحفيا ، ولا انا اردت ان القاه لأنشر ما يجري بيني وبينه من الأحاديث ولكنه حضر الى القاهرة فأقامت له

المفوضية الألمانية حفلة استقبال في دار وزيرها ، وأحب ان يتعرف لهذه المناسبة الى أناس من المشتغلين بالأدب والدعوة الفكرية من المصريين فكنت أحد المدعوين .

وتصافحنا في مزدحم من الأجانب والمصريين والرجال والسيدات . فقال لي انه يود لو تلاقينا في فرصة اخرى .

وكان صديقي الأستاذ محمود الدسوقي سكرتيرا شرقيا للمفوضية الألمانية فدعانا معا الى اللقاء في حجرة من حجرات المفوضية وآثر لودفيج ان نتحدث على انفراد .

واحسست من اسئلته الأولى انه ينزع في مسائل المجتمع والسياسة نزعة اشتراكية معتدلة ، فقلت انني اوافق الاشتراكيين في كل ما يؤدي الى تحسين احوال الفقراء والأجراء . وأخالفهم في كل ما يؤدي الى حرمان الفرد حريته الفكرية والشخصية .

فقال : « حسن . حسن » وكررها مرات .

ثم احسست انه قد اطمأنّ اليّ بعد لحظات من الحديث وتبادل وجهات النظر ، لأنه أفضى الي بأصرح ما دار بينه وبين المصريين والأجانب من الأحاديث العامة في المسائل الوطنية والعالمية .

ثم سألني : « عندكم في مصر قوة تقدم ، وقوة محافظة وجمود ، وقوة بريطانيا العظمى ، فأيها يكون له التغلب فيما تظن ؟ »

قلت : « أتسأل عن المدى الطويل أم المدى القصير ؟ »

قال : « بل عن المدى الطويل »

قلت : « سيكون الغلب لا محالة لقوة التقدم »

قال : « يسرني ان اسمع منك ذلك » .

واستطردنا الى الكلام عن مؤلفاته فوجدته أقل ما يكون رضى عن قصصه ، وأكثر ما يكون رضى عن تراجمه ولا سيما ترجمة نابليون فيما اذكر ، فقلت له ايضا : « يسرني ان اسمع منك ذلك ، لأنه هو الصواب فيما اراه » .

وتركته وفي نفسي اثر من لقائه يقارب الأثر الذي استخلصته من قراءة كتبه ، وهو انه صحفي راق ، وأن تواريخه وأدبياته اقرب الى تبليغات المجلات او تعليقاتها ، وإن كانت تفوق بعض ما يكتبه المتخصصون من البحوث والدراسات ، لأنه يكسوها طلاوة لا نجدها كثيرا في تلك البحوث والدراسات .

برناردشو في أسوان :

شمس ربيعية لم تعترف قط بالشتاء ، وأرض تحمل في كل بقعة من بقاعها سمات التاريخ الذي يطوي الفصول والسنين ، ونيل خالد وقور يوحي اليك أن تقيسه بألوف العهود والأجيال ولا تقيسه بألوف الفراسخ والأميال ، وجبال من حولك كأنها أسوار تدور على صومعة ناسك لا تراه بالعينين ، او كأنك تسمعه بأذنيك يقول في سكينته الأبدية : « ها أنا ذا لم أحفل بشيء في دنياك فماذا أصابني على مر الزمن ؟ لا شيء . . فلا تحفل يا بني بشيء ! » . .

تلك هي أسوان في هذا الشتاء ، وفي كل شتاء ، وتلك هي أسوان التي أقضي فيها بضعة أيام ، وفي وسعي ان أقول بضعة قرون حين تغمرني بتلك الآفاق التي لا تعرف حساب الأيام . .

إجازة من عالم السياسة ، ومن عالمنا الصاخب في غير طائل . .

وهل في العالم من يستغني عن هذه الاجازة من سنة الى سنة أو من حين الى حين ؟ . .

ساء حظه ان استغنى عنها ، لأنه لن يستغني عنها إلا اذا أضاع نفسه فيها .

ولقد سنَّ لنا الله سنة الاجازة من الحياة كلها في كل يوم ، فهل نستغني عنها في هذا الشغل الشاغل الذي يبغض الحياة الى نفوس الاحياء ؟ . .

معاذ الله خالق النوم لنا « إجازة يومية » من الحياة ، وليته خلق للحيوان «السياسي» ـ بالطبع كما يقول ارسطو ـ اجازة قهرية ينام فيها عن سياسته . . فان غفلة النوم أروح له من هذه الغفلة الدائمة وهو سهران ! . .

وبحمد الله لا أزال أعرف هذه الاجازات ، وإن لم أكن في بطالة . .

الا يقدر أناس على الغفوة بعد الغفوة وهم في وسط الحركة والضجيج ؟ . . بلى يقدرون . .

***

وفي وسط الحركة والضجيج ، بل في وسط المعمعة كما كان يفعل نابليون على ظهر جواده ، استطيع أن أغمض عيني في عالم الأحلام فأذهب في اجازة اليوم أو الشهر أو العام . .

وإنني في تلك الغفوة لأيقظ ما أكون . .

لأنني في تلك الغفوة أهيم في أحلام الشعر والفن والأدب ، فلا تقوى معركة « المارن » نفسها على اخراجي من ديوان شعر او صفحات كتاب اغلق « أبوابه » عليَّ !

وقلت : هي إجازة في كتاب ، حين قلت لنفسي : « الى أسوان . . . الى اسوان ! » .

لقد كان كتابا حسنا من وجوه كثيرة ، وأحسن ما فيه ان كاتبه هو الفيلسوف « جود » وموضوعه هو الداعية المشهور « برناردشو » . .

فالكاتب أعظم من المكتوب عنه في أكثر من ناحية واحدة ، وهي على الأقل

ناحية الفلسفة وناحية الآراء الاجتماعية . .

وإن شئت فقل أيضا من ناحية الآراء السياسية والمبادىء الدستورية ، وهي اليوم شغل شاغل للصحافة والقراء !

***

بين دوي العجلات ، ودوي الدعوات ، فتحت الكتاب اطوي صفحاته والقطار يطوي الأرض « كطي السجل للكتب » ، كما جاء في القرآن الكريم . .

ولم تمض اربعون صفحة حتى وجدت نفسي على أبواب البرلمان من طريق آخر : طريق الآراء والنظريات ، لا طريق المعارك والأزمات ! . .

صاحبنا الفيلسوف « جود » ينظر الى « برناردشو » نظرة التلميذ الى الاستاذ ، لأن شو كان شيخا يقود الحركة الفكرية يوم كان « جود » طالبا ناشئا يتلمس طريقه في مضطرب المذاهب والمعتقدات . .

وصاحبنا « جود » يرشح نفسه للنيابة عضوا اشتراكيا مع حزب العمال ، فيكتب الى « برناردشو » مستشيرا قبل الإقدام على هذه التجربة . . لأنه استاذه في هذا الميدان ، ولأنه زعيمه في النزعة الاشتراكية قبل عدة سنين . .

وأحسب انني لو كنت في موضع « جود » لما استشرت الداعية الكبير في أمر من الأمور ، لأنني على ثقة أنه يخالف كل ما تقترحه عليه . فلو كنت عضوا في البرلمان واستشرته في الخروج منه لسخر من إقدامك على هذه الخطوة التي لا معنى لها ! ولو كنت كاتبا واستشرته في دخول البرلمان لسخر من اقدامك على هذه الخطوة التي لا معنى لها كذلك . .

لأن كل اقتراح تعرضه على الداعية الساخر لا معنى له على الاطلاق !

فلا معنى اذن لأن تعرض عليه أي اقتراح !

ولكن « جود » قد أراد ان « يسأل » على ما يظهر مجرد سؤال .. ثم لا يعول على الجواب ..

وهكذا سأل ، وهكذا جاءه الجواب الذي لا شك فيه ..

قال له « شو » إن الفلاسفة الذين دخلوا البرلمان غير قليلين ، ومنهم « ميل » و« برادلو » و« وب » الذي كان عضوا في الوزارة .. فهل صنعوا شيئا هناك ؟

وقال له ان « تشرشل » لم يكن عضوافي البرلمان حتى الحزب العالمية ، ثم ساقوه الى دائرة انتخابية اخلوها له ، لأنهم في حاجة اليه ، فقد كان شيئا مهما قبل ان يرشح نفسه للنيابة البرلمانية .

وقال له إنه هو نفسه قد رفض النيابة يوم عرضوها عليه وكرروا العرض مرات ، ثم لم يندم قط على الرفض والإصرار ..

وقال له اخيرا : « ان ورق اللعب لا يزال امامك على المائدة ، فإن شئت فجرب حظك والعب ورقك .. » . ثم تواضع « شو » في ختام خطابه ، لأن التواضع من مثله رياضة محبوبة بين « الادعاءات الكثيرة » . فقال في شيء من الملل : « وهذه على كل حال اراء رجل كان ينبغي الآن ان يكون ميتا لأنه قد بلغ من الهرم اقصاه ! »

ولم ينثن « جود » عن عزمه بهذه النصيحة ، بل كتب الى أستاذه يبلغه أنه ماض في ترشيح نفسه ، فجاءته منه تذكرة بريدية يقول فيها : « حسنا .. إنك سوف تتعلم على الأقل شيئا واحدا ، وهو أن تعرف كيف لا تعمل ! » .

ثم شفعها بتذكرة اخرى قال فيها : « امض في عزمك بكل وسيلة .. فقد تحصل على تجربة مباشرة لا تخلو من فائدة للفلاسفة السياسيين » .

وبعد هذه النصائح المختلفة عدل « جود » عن ترشيح نفسه لأنه لم يرض

عن أساليب الأحزاب في الترشيح ، لا لأنه عمل برأي الداعية الكبير !

***

تلك هي اجازتي في هذا الكتاب . .

اجازة ، ولا اجازة . . !

اجازة لأنها رحلة في عالم الفكر والنظر ، ولا اجازة لأنها تعود بنا الى السياسة في بعض الطريق . .

وهي من هنا خبرة حسنة ، لأنني قد اكون في اجازة والقراء « عاملون » !

وما الرأي بعد هذا في نصائح « برناردشو » لتلميذه الفيلسوف ؟

ما الرأي في تقديره لعمل الأديب ، وعمل العضو في البرلمان ؟ . .

الرأي الذي لا يتسع فيه الخلاف ان الفيلسوف قد يصنع شيئا في المجالس النيابية ولكنه ليس بخير ما يصنع وانه اذا جرب مهنة الترشيح مرة بعد مرة خليق ان ينبذها بعد ذلك لا محالة لأنها تهبط به الى المساومة الرخيصة والوعود الكاذبة ، ولا ترتفع به قيراطا واحدا فوق مستواه . .

ومالنا الآن ولهذه الظلمات ؟ . . .

ان الشمس ساطعة باسمة ، وان مشاهد التاريخ ومعالم الخلود من حولنا قائمة دائمة !!

فهلم الى النور . . !

لِسَان الهلبَاوي

كان في مصر قبل الثورة العرابية حزبان سياسيان : أحدهما حزب محمد شريف باشا ، والآخر حزب أحمد رياض باشا . .

وقد يخطر للقارىء العصري ان تعريف الاحزاب بالاشخاص دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة لها بالبرامج السياسية . .

ولكن الواقع ان تعريف الاحزاب بالاشخاص كان سنة معروفة في ذلك العصر حتى في أعرق الامم البرلمانية . . فكان الحزبان المتناظران في انجلترا يعرفان يومئذ باسم حزب غلادستون وحزب بيكنسفيلد ، ولم يكن ذلك دليلا على وحدة البرامج بين الحزبين . .

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين في البرامج ، ولم يكن الخلاف بينهما مقصورا على الانتماء الى هذا الوزير أو ذاك الوزير . .

كان حزب « شريف » اقرب الى التجديد السريع . .

وكان حزب « رياض » اقرب الى المحافظة مع التقدم في رفق وأناة . .

وكان الهلباوي بك ناقما على رياض باشا لسبب من الاسباب فكان يطلق فيه لسانه ويكتب عنه ما لا يرضيه . .

فأمر عالما من رجال الدين ان يستجوب « الشيخ ابراهيم الهلباوي » تمهيدا لمعاقبته . . فبدأ العالم المحقق كلامه بتهديد الشيخ الناشيء ، واستطرد قائلا :

ان ناظر النظار سيخرب بيتك ان لم تكف عن الحملة عليه . .

فضحك الشيخ ابراهيم واجابه ساخرا :

ـ انه لا يستطيع . .

فعجب العالم المحقق : كيف لا يستطيع وهو ناظر النظار والحكومة كلها في يديه ؟

وقال الشيخ ابراهيم : وليكن ناظر النظار أو اكبر من ناظر النظار : ليكن امير البلاد . . ليكن خاقان البرين والبحرين ، بل ليكن « الله » جل جلاله . فانه لا يستطيع ان يخرب لي بيتا . .

ففزع العالم المحقق ، وخيل اليه ان المسألة تنتقل من التمرد والعصيان الى الكفر بالله ، والعياذ بالله ! . .

فصاح بالشيخ الناشىء حنقا : أهذا الذي تعلمتموه من جمال الدين ؟ . .

وكان جمال الدين مظنة « الزندقة » عند بعض العلماء في ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق ان يجد في كلام التلميذ برهانا على زندقة الاستاذ . .

وكان الشيخ ابراهيم الهلباوي من تلاميذ جمال الدين . . فلم يكن أسرع منه الى رد التهمة الى المتهم ، وقال لصاحبنا : « بل هذا الذي تعلمناه منكم قبل ان نتعلمه من جمال الدين !» . .

قال الرجل : أعلمناكم الكفر نحن ؟ . .

قال الفتى المتحذلق : بل علمتمونا ان قدرة الله لا تتعلق بالمستحيل . . وخراب بيتي مستحيل لسبب واحد ، وهو انه ليس لي بيت ! . .

على ان تلمذة الهلباوي لجمال الدين لم تمكن تمنعه ان يستطيل عليه بمثل هذه الحذلقة اذا « حكمت القافية » كما يقولون ، فلعله هو التلميذ الوحيد الذي

كان يجترىء على السيد بالدعابة في مجالس الدرس أو مجالس الحديث . .

قال لي عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرا من تلك الاحاديث او تلك الدروس ـ وكانت كل احاديث جمال الدين من قبيل الدروس ـ ان السيد كان يتكلم يوما عن بعض الرذائل التي تصيب الجسد والنفس الناطقة ، وبعض الرذائل التي تصيب الجسد ولا تمس النفس الناطقة . .

فقاطعه الهلباوي قائلا : يا خبر ! وهل السيد من هؤلاء ؟

فانتفض السيد مغضبا وصاح به : اغرب عني أيها الخبيث . . لعنة الله عليك !

والهلباوي الذي تدل عليه هاتان النادرتان هو الهلباوي الذي عرفه الناس طوال حياته ، ويمكنك ان تلخصه في عبارة واحدة ، وهي انه رحمه الله كان « ذلاقة لسان لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها » .

ومن هذه الذلاقة المتعجلة كان يؤخذ الهلباوي في كل ما هو مأخوذ عليه . .

سمعنا عنه قبل أن نراه ، أو نسمع عنه ممن رآه . .

كان أشهر المحامين بين الفلاحين بلا استثناء ، وكان من آيات شهرته انها دخلت في « النكتة المصرية » . . فكان الذين يساومون القصابين في شراء لسان الذبيحة يقولون اذا اشتط عليهم القصاب في الثمن : والله ولا لسان الهلباوي . .

وسمعنا بشهرته كاتبا كما سمعنا بشهرته محاميا ، فكان عنوان مقالاته « الى اي طريق نحن مسوقون » يتردد على كل لسان ، وكنا نسمع به وان لم نقرأ تلك المقالات . .

ثم أدركته آفة التعجل وقلة الاستقرار ، فتحول في الوطنية الى خطة

« الاعتدال » وفسر الاعتدال بمصانعة الاحتلال . .

ثم كانت الطامة الكبرى ، ونعني بها « قضية دنشواي » التي وقف فيها موقفا ظل نادما عليه طول حياته . .

وعن قضية دنشواي قلت في كتابي سعد زغلول : « لقد كنا اربعة نقرأ وصف التنفيذ في أسوان ، فأغمي على واحد منا ولم نستطع اتمام القراءة الا بصوت متهدج تخنقه العبرات » .

ويستطيع القارىء اذن ان يتخيل مبلغ السخط الذي أثارته في نفوسنا رؤية الهلباوي امامنا وجها لوجه في دار الجريدة ، يوم ألقى الاستاذ « لطفي السيد بك » خطابه الذي أشرنا اليه في الكلام على صاحب « المؤيد » .

لقد كان اغتباطي شديدا بما أصابه من الاذى في ذلك اليوم ، ولكني اقول انصافا له اننا رأينا في الرجل شجاعة لم نرها في غيره من المقصودين بالهتاف العدائي ذلك المساء . . فقد أوى بعضهم الى حجرات الدار حتى اطمأن الى انصراف الجمهور الغاضب ، وأبى الهلباوي الا ان يقتحم الجمع خارجا من الدار في ابان الهياج ، ولم يحفل بما تعرض له في طريقه من اللكم والايذاء . .

وغاب الهلباوي زمنا عن ميدان السياسة ثم ظهر بعد الثورة الوطنية معارضا لسعد زغلول ، وكانت المسجالات بين الاحزاب يومئذ على أعنفها . . ولكني أشهد القارىء أنني ما وجدت القلم ينبعث في يدي انبعاثا الى القول القارص العنيف كما كان ينبعث في الرد على خطب الهلباوي وأحاديثه ، فردودي عليه فيما اعتقد كانت أعنف ما كتبت على الاطلاق . .

ثم مضت الايام ، وشاء القدر ان يكون للهلباوي شأن في موقف من اهم المواقف في حياتي السياسية ، لانه الموقف الذي اعتزمت فيه جديا ان اترك الهيئة الوفدية مستقلا عن جميع الاحزاب . .

كان الوفد والاحرار الدستوريون مؤتلفين على عهد الوزارة الصدقية التي عدلت الدستور . .

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر فعقد الاحرار الدستوريون اجتماعا في دار حزبهم ، وذهبنا اليه تأييدا لمظهر الائتلاف . .

واذا بالهلباوي هو خطيب الاجتماع . .

واذا بي جالس أمامه على قيد خطوة واحدة ، واذا به يحتال في كلامه ليهملني عند مناسبة ذكرى ويتجاوز الاهمال الى التعريض . .

وعلقت على الخطبة في اليوم التالي ، ورآها فرصة سانحة لإرغامي باسم الائتلاف . .

وجاءتني دعوة الى بيت الامة حيث يجتمع طائفة من اعضاء الوفد وعلى رأسهم مصطفى النحاس (باشا) . .

ما الخبر ؟ . .

الخبر ـ كما قالوا ـ ان مصير الائتلاف معلق على بيان مطلوب منا ، ونحب ان نتلوه عليك . .

قلت : وما شأني في هذا البيان ؟ . .

قالوا : بل الشأن شأنك ، لان فحوى البيان ان الوفد لا يقر ما كتبت عن الهلباوي بك . .

قلت : انكم احرار فيما تكتبون ، ولكنني سأرد لا محالة على هذا البيان . وأقول لكم سلفا انني أنا المسؤول عما أكتب ، ولم يعلم الناس قط انني أكتب باشارة من أحد . .

ثم ذكرت لهم سابقة سعد مع اللورد جورج لويد حين حملت على اللورد

من اجل زياراته للأقاليم ، وثار اللورد ثورته التي اوشكت ان تعصف بالبرلمان ، وارسل الى سعد من يقول له ان اللورد يعتقد انه هو الموعز بتلك الحملة ، فقال سعد كلمته المأثورة : « انها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه » ولم يفاتحني في الامر حتى انقضت الازمة ، لكي لا افهم أنه يقترح علي الكف عن الكتابة في هذا الموضوع . .

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا ان صدور البيان من الوفد امر لا محيص عنه ، فان شئت فاسمعه لتقترح تغييره او تعديله فيما لا يرضيك . .

قلت : لن أسمعه ، ولن اسكت عن الرد عليه . .

في ذلك المساء زارني مكرم عبيد (باشا) والمرحوم صبري أبو علم (باشا) ، وسألاني : « ماذا صنعت ؟» .

قلت: كتبت ردا على البيان سينشر في عدد الغد من جريدة « مصر » - وكانت من الصحف الصباحية ، وفيها كنت أكتب مقالاتي كل يوم . .

فحاولا وقف المقال . .

فقلت لهما : اذا كنت لم استطع ان أقنعكم بوقف بيانكم فلن تستطيعوا اقناعي بوقف هذا المقال . .

ثم قلت لهما : انني أملك ان أنشره في غير الصحيفة الوفدية اذا حيل بيني وبين نشره فيها . .

وكان قد جاءني فعلا من يعرض علي العروض الطوال العراض لأعطيه المقال وينشره حيث يشاء . .

وبعد مناقشة طويلة ، قال مكرم باشا : اننا كنا نود لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك . . أما وأنت مصر على نشره فاقبل منا رجاء آخر . .

قلت : ما هو ؟ . .

قالا : أن يخلو المقال من الملام الشديد .

قلت : انني اذا ذكرت الحقائق كما حصلت فلا حاجة بي إلى ملام شديد ومضت سنوات ثلاث أو نحوها والهلباوي بك لا يقع لي في طريق . .

وحدثت في خلال ذلك جفوة بيني وبين المرحوم عبد القادر حمزة لمناقشة دارت بيني وبينه حين كنت أكتب في صحيفة « الجهاد » . .

ثم زارني يوما بعد طول القطيعة ، وهو يقول لي : لقد مررت بدارك وأنا في مصر الجديدة فحمدت هذه الفرصة وقلت لنفسي : فلنزره ان كان هو لا يزورنا . . فما رأيك ؟ . .

قلت : انه فضل لك سبقتني به وعلي أن أشاركك فيه . .

وزرته في دار البلاغ بعد يوم أو يومين ، فاذا بالهلباوي بك هناك . .

فكدت أهم بالرجوع . .

بيد أن الهلباوي كعادته هجام لا يتردد ، فجذب يدي وبدأني بالحديث .

ولقد خطر لي في تلك اللحظة أن واقعتي معه آخر ما يذكره في تلك المقابلة ، ولكنها على عكس ذلك كانت اول ما ذكره وأسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : « كنت والله يا رجل أحب أن يكتب الله لي ثواب اخراجك من تلك الجماعة . . ولكنه فاتني ، واراك خارجا منها على التسعين . . ! » .

وبعد حديث متشعب دعاني والاستاذ عبد القادر الى قضاء سهرة في منزله . . فاعتذرت ، وخرج معي حين انصرفت حتى افترقنا عند دار محمد محمود (باشا) رحمه الله . .

ويظهر أن رغبته في زيارتي له بقيت تساوره زمنا حتى صدرت صحيفة روز

اليوسف اليومية وواليت الكتابة فيها ، فدعانا جميعا الى قضاء السهرة عنده ، وذهبنا اليه مع السيدة روز اليوسف والدكتور محمود عزمي ، وكانت في الحق من أمتع السهرات ، لان الرجل محدث ظريف لا يمله المستمع اليه . .

ولقد كانت أحاديثه في تلك الليلة اكثر من أن تذكر . . الا أنني أذكر من طرائف السهرة أن السيدة روز اليوسف كانت تخاطب السيدة قرينته وهي تظن أنها زوجة ابنه ، لبعد الفارق بينها وبين زوجها في السن . . ولم تزل على ظنها حتى نبهها الى خطئها بنكتة من نكاته التي تناسب المقام !

نابغة من نوابغ عصره لامراء . . كان يسلم من كثير مما يؤخذ عليه لولا تلك الحيوية التي أقلقته وباعدت بينه وبين الصبر والاستقرار .

طه حسين

للقدماء ضروب من التوقر يستخف بها المحدثون ولا يحفلون بها وحق لهم ان يستخفوا ولا يحفلوا ، لانها ترجع الى اسباب خاطئة في زمانها فضلا عن الازمنة الحديثة ، وليس أدل على قلة الحياة من كثرة البحث فيما يجوز وما لا يجوز ، لانه دليل على كثرة القيود .

وأول ضروب التوقر التي يحق للمحدثين ان يستخفوا بها اجتناب الكتابة عن الاحياء وقصر التاريخ والتقدير على من فارقوا الحياة ، فربما كان مصدر هذا العرف عند القدماء أنهم كانوا يكبرون السلف ويحصرون فيه العلم والمعرفة والادب والخلق والشهرة . وكأنهم كانوا يستكثرون الجمع بين العلم والحياة أو بين الشهرة والحياة في وقت واحد : فإما حياة وخمول وإما موت وشهرة ، ولا توسط بين الامرين في تاريخ العلماء والادباء وتقدير حظوظ العلم والادب .

وقد جرف العصر الحديث ذلك العرف جرف السيل فكثرت تراجم الاحياء . بل كثرت تراجم الادباء لأنفسهم بأقلامهم ونشرها في ابان حياتهم ، وتلك علامة خير وصلاح لأن ما خف من جانب التوقر إنما يزيد الحياة ، ولأن اساغة التاريخ للاحياء تدل على رحابة الصدر والتفاهم على الطبيعة الانسانية في جوانب كمالها ونقصها واطرائها وعيبها ولأن العصر الذي يساغ فيه الاعتراف ببعض العيوب هو العصر الذي تتوافر فيه المزايا والمحاسن ، فلا يضار المرء بالنقد لانه يعرف حدود الطبيعة الانسانية وما يبقى له بعد النقد من وجوه التحبيذ والترجيح .

ولست أنا من أعداء القديم حبا لعداوة القديم ، ولكنني أكره التحرج الكثير في غير طائل ، وأشايع زمني في هذه العادة خاصة ، فلا أرى حرجا في الثناء على الدكتور طه حسين أو اغتيابه على ملأ من الناس . . ولهذا أجبت دعوة « الهلال » حين دعاني الى اجمال رأي في الصديق العالم الاديب ، وهو يعدني أو ينذرني بمثل هذا النصيب وقبلت الكتابة وأنا أرجو ألا أكون مغلوبا حين تنكشف الورقتان المطويتان . اذ الكلام في كلينا سر مكتوم عن صاحبه حتى يطلع الهلال ، وعندئذ تشيع الغيبة وينجلي السر عمن أحسن الحيطة والتخمين .

أنا ضامن ان الدكتور طه حسين سيقول إنني شاعر ، فليضمن الدكتور طه حسين اذاً ان أقول فيه أنه كاتب ناتج في الادب ، وخير ما نتجه كتابه « الايام » وكتابه « في الصيف » وهما الكتابان اللذان سرد فيهما بعض ما جرى له في حياته ، فكان فيهما مثلا في البساطة والثقة التي تعزف بصاحبها عن التماس التأثير المصطنع بالتعمل والتجمل والطلاء والتزويق ، فالموصوف في هذين الكتابين صادق بسيط والوصف كذلك على مثل هذه الحال من الصدق والبساطة ، ولكني لم أطلع على شيء يصف به الدكتور ما لم يجر له أو يصف ما يخلقه من الشخوص والحوادث في عالم الرواية . فما علة ذلك يا ترى ؟

أنا ضامن ان الصديق الاديب سيجد عيبا أو عيوبا في شعري يقيسها بمقياسه ويقدرها بمعياره . فاذا ضمنت هذا فليضمن الصديق الاديب أن علل قلة الوصف المخلوق في كتاباته القصصية بعيب فيه وهو قلة الخيال . . فهو يصف ما يعالجه من المحسوسات ولا يتخيل ما عداه من نقائضه أو مشابهاته ، والعوض من ذلك عنده أنه يحسن البساطة التي يندر من يحسنها ويشعر بالكفاية التي تأتي من الثقة والاطمئنان الى صدق الشعور ، وهو عوض فيه غنى لمن يحسن الاستغناء .

***

أما طه حسين الناقد فماذا أقول فيه ؟

أقول انه اطلع على الادب العربي القديم اطلاعه الواسع الذي لا جدال فيه ، واطلع على نفائس من أدب الاغريق واللاتين الاقدمين ، واطلع على آثار رهط من كبار الادباء الاوربيين ولا سيما الفرنسيين . كل اولئك خليق أن يحبب اليه الصحة والمتانة والقوة ويبغض اليه الزيف والسخف والركاكة . فهو يختار ما يعلو على مقاييس المقلدين المصطنعين ، وينبذ ما يستطيبه المحدودون من اصحاب الاطلاع القليل او اصحاب الذوق السقيم ، وله في ذلك قواعد صحيحة ومراجع وثيقة ، واعتماد على فكر لا يتقيد الا بما يرضاه .

والى هنا لا اظن ان الدكتور سيعترف لي بأقل من هذا القدر في ميزان الكتابة المنثورة فأنا رابح على هذا التقدير .

ولا أظن كذلك أنه سيعترف لي في هذا الميزان بلا تعقيب ولا استدراك ، فلنسرع اذن الى التعقيب والاستدراك . ولا لوم ولا اجحاف .

فالدكتور صحيح الاصول في النقد ولكنه لا يوفق بين أصوله وطبيعته في كثير من الموضوعات .

وهو حين يقرر المبدأ على صواب غالب .

ولكنه حين يطبق المبدأ ينحرف احيانا عن الصواب .

وعلة ذلك كما أسلفنا ان القاعدة والطبيعة عنده لا تتفقان فالطبيعة عنده لا تحتكم الى الخيال والتصوير الخالق ، ولكنها تحتكم الى الرأي والاطلاع فيقع من هنا التباين والاختلاف .

اليس الدكتور يوصي بمبدأ « الشك » او مذهب ديكارت ؟

بلى ! ولكنك حين تقرؤه ترى له عبارات من التوكيد واليقين قلما تراها في عبارات الشاكين المترددين ، فلا يعجب ـ أكثر ما يعجب ـ الا أشد الاعجاب ، أو اعجابا لا حد له ، ولا يقنع بما دون الاسراف وترديد كلمة الاسراف ،

ولا يغضب الذين يتحدث عنهم الا غضبا شديدا ، ولا يضيقون الا اشد الضيق ولا يتكلمون الا بصيغة المبالغة في معظم الاشياء .. ثم تنتقل من هذا الى تشكيك يذكرك « بأن شاء الله » التي قالها جحا حين ضاع المال .. فقال ضاع المال ان شاء الله ...

كأن الدكتور يخاف من نسيان الشك خوف جحا من تلك الكلمة التي نسيها فضاع ماله ، فأنت تسمع منه : « أزعم انني ضحكت، وقد أزعم .. وقد أتردد .. وقد أقول وقد لا أقول » .. مع ان المرء لو أقسم جاهدا : « والله لأزعمن . وتالله لأترددن ، وبالله لأقولن » لما خرج بالقسم مع الزعم ، من دائرة الشكوك .

والقاعدة تستقر على اطراد اذا كانت هي والطبع على وفاق غير أنهما عرضة للاختلاف اذا وقع بينهما الخلاف ، ومن هنا نرى الدكتور يقول مرة ان اصول النقد الغربي واحدة قد وضعها اليونان قديما وفرغوا منها ، وتلقاها منهم الانجليز كما تلقاها منهم الفرنسيون فهم لا يختلفون ..

ثم نراه يقول بعد أشهر قليلة ان النقد ليست له اصول مقررة عند الناقد الفرد فضلا عن الامم الكبيرة والعصور الكثيرة ، وأن الناقد يستحسن أو يستهجن والمرجع الى ذوقه وحده في استحسانه واستهجانه .

ولعل هذا التباين بين القاعدة والطبع هو الذي جعل الدكتور ينكر الجديد اذا جاءه في زي القديم ، أو هو الذي جعله يطالب الشعر الحديث بأمور لا يطالب بها في حكم الطبيعة لانه يجري في مطالبته على القياس .

وأقول للقلم : على رسلك ! الى أين ؟ ما أحسبك الا متوقعا الكثير من تعقيب الدكتور واستدراكه فأنت تستوفي المثل وتأمن أن تزيد .

ويقول القلم : ما أحسبني والدكتور مغلوبين على كل حال في هذه

الصفقة ، وليس الحق فيها بمغلوب .

نعم ، وحساب الدكتور أو « رصيده » كما يقولون في لغة المصارف كثير ، ففيه بقية وافرة بعد كل تعقيب واستدراك .

واذا قلت ان الدكتور أمن استحسان السخيف من الادب باختلافك بعد ذلك في زيادة القيمة التي يقوم بها الجيد أو نقصها انما يغير الثمن ولا يغير جودة الشيء الثمين .

***

ومن حساب الدكتور طه حسين أنه رجل جريء العقل قويه ، مفطور على المناجزة والتحدي ، يستفيد مما يقتنع بصحته ومما يعينه على التحدي والتفرد فلا يحجم عن اتخاذه ، ولهذا تغير أسلوبه الكتابي بعد دراسته للاساليب الاوربية ، فاتخذ له نمطا يوافق علمه بالعربية الفصيحة وعلمه بتقسيم المقاطع والفواصل في الكلام الاوربي ، كما يتكلمه من يجمع بين الحديث والكتابة في وقت واحد . فهو يتحدث ولا ينسى انه يكتب ، ويكتب ولا ينسى أنه يتحدث ، وأسلوبه الذي اختاره أوفق الاساليب لذلك جميعا وأولها من نوعه في اللغة العربية . وليس فيه محاكاة لاسلوب آخر في اللغات الاوربية .

ولو كانت كتابته حديثا محضا لاسترسلت بلا توكيد ولا تكرير ، ولو كانت تقريرا محضا أو درسا محضا لما انحرفت عن أسلوب الكتابة الذي لا يتحدث به القائل ، ولو كانت تقريرا أو درسا على الطريقة الشرقية لما ظهرت فيها المقاطع والفواصل الاوربية ولجرت على سياق قريب من سياق الدروس الازهرية . ولكن كتابته حديث فيه محاضرة ومراجعة وتنظيم ، فلا يوافقها الا ذلك الاسلوب الذي استقل بابتداعه طه حسين ولو غضب المنكرون . وقد يكون غضب المنكرين من أسباب ذلك الابتداع ولأجل هذا الابتداع يغتفر ما في كتابة الدكتور من اسهاب وتكرار .

ولقد أفاد بأسلوبه هذا عملا من لم يفدهم الرأي ولم تقنعهم المناقشة . فرأوا ان العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على اسلوب غير اسلوب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع ، ورأوا كاتبا كبيرا يكتبها كما يشاء هو لا كما يشاء القدماء « فتنكتب » وتلذ وتفيد فاستعدّوا لاستحسان الفصاحة في غير قيودها القديمة ، وألفوا تعديد الاساليب وطرائق التعبير الى غير انتهاء وذلك وحده فتح قدير .

وقد جار نصيب القوة في الدكتور طه حسين على نصيب العمق كما أشرت الى ذلك في نقدي لكتابه « في الصيف » .

وليس بالقليل بين اكبر الادباء العالميين من هو قوي لا يتعمق . فاني لأكتب هذا المقال بعد ان فرغت من قراءة مقال للشاعر الاسباني ميجويل دي أنامينو كتبه ليمثل به رأي الاسبان بين سائر الآراء التي نشرتها مجلة « الشهر » الفرنسية عن فكتور هوجو لمضي خمسين سنة على وفاته . فاذا هو يقول ان عمله في اسبانيا على الاقل كان واسعا اكثر مما هو عميق ، وأرجو الا يحسب الدكتور أنني أعود به الى التفرقة بين السكسون واللاتين اذا أضفت الى هذا أن شاعر الامة الاسبانية اللاتينية يقرر ان « بيرون » والشعراء الانجليز هم الذين وجهوا أدب تلك البلاد ، وليس فكتور هوجو ولا الشعراء الفرنسيون ، وانه ليقرر ذلك في مجلة فرنسية تحتفل بهوجو في عام ذكراه !

***

والآن وقد أبرأت ذمتي وأفضيت بمجمل الرأي مع الحيطة والمعادلة والتربص فإني على ما أرجح كاسب ولست بخاسر . فإن اختلف تقديري فسأتهم محرر الهلال بافشاء السر واطلاع مناجزي على ما أعددت له قبل ان يتأهب لي بسلاحه ، والمناجزة يومئذ بيني وبين محرر الهلال .

من وحي أسوان

هبطت اسوان في هذا الشتاء ، وأنا اذكر قول دعبل الخزاعي :

هبطت محلا يقصر البرق دونه ويعجز عنه الطيف ان يتجشما
وان امرأ أضحت مساقط رحله بأسوان لم يترك له الحزم معلما

وذكرت كلام دعبل في هذه الرحلة خاصة لاننا قضينا ساعة من الوقت في القطار نتحدث عن السفر الى الصعيد بطريق الهواء . ومسافته لا تزيد في هذا الطريق على اربع ساعات ، وقد تنقص غدا الى ساعتين ، ومسافة السفر بسكة الحديد تنقضي ما بين عشية اليوم وضحى الغد . . ثم ينتهي الى حيث يستمع السامع اذا شاء الى صوت المتحدث اليه من القاهرة والاسكندرية كما يتبادل الحديث مع جليسه في ناديه ، أو يدير المفتاح في المذياع فيصغي الى لندن وواشنطن ، ولا يقصر مكان في الارض عن ابلاغ صوته اليه . أما الاطياف فما أكثرها في دور الصور المتحركة الناطقة هناك ! ان منها لاطيافا تنتقل من هوليوود . وأطيافا تنتقل من الجيزة ، ولا تعجز عن التجشم ، ولا يبدو عليها انها تعرف الاعياء كما عرفته أطياف دعبل يرحمها الله .

تلك أطياف وهذه أطياف ، وتلك بروق وهذه بروق ، وما أكسل البروق والأطياف فيما مضى ، وما أسرع البروق والاطياف في هذا الزمان ، فلو عاش دعبل اليوم لتمنى ساعة من تلك الايام التي كان يتبرم بها قبل الف عام ، ولنظر حوله فرأى أناسا يتسابقون الى المكان الذي قصرت عنه أطيافه وبروقه ،

ويغبطون أنفسهم على الحزم الذي ساقهم الى هذا المقام في خاتمة المطاف .

وقصة دعبل في هجاء العالم كله معروفة . أما قصته مع أسوان فخلاصتها انه وفد مع أخيه على عبد المطلب بن عبد اللّه أمير مصر يومئذ فولاه أسوان ، ثم بلغ المطلب هجاءه اياه فأنفذ اليه كتاب العزل مع مولى له وأوصاه أن ينتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة فينزله ويصعد مكانه ، ففعل كما أوصاه !

ذكرت كلام دعبل وذكرت كلام أخ له من قبل في هذا المقام . أهو أخوه في النسب يا ترى ؟ أهو أخوه في العربية ؟ أهو أخوه في الزمن الذي عاش فيه ؟ كلا . ولكنه أخوه في صناعة الهجاء ، ولم يكن أخاه في قومه ولا عصره ، لأنه كان من أمة الرومان ، وكان عصره في القرن الاول للميلاد ، وهو الشاعر اللاتيني جوفنال **Juvenal** .

من توافق المصادفات أن الشاعر اللاتيني كان كالشاعر العربي لا يسلم أحد من لسانه ، وأن هجاءه لفنان العصر « باريس » قذف به من روما الى جزيرة أسوان ، لأن هذا الفنان الساحر كان حظيا عند العاهل دومسيان !

قدم جوفنال الى جزيرة أسوان قائدا للحامية الرومانية في ظاهر الامر وأسيرا منفيا في حقيقته ، ولم يستطع أن يلعن دومسيان فلعن الجزيرة ومن فيها ومن حولها ، ولم يرض عن شيء رآه في ولايته التي فرضت عليه ، فكذب واقذع في شكواه ، وادعى على مصر والمصريين ما لم يدعه أحد سواه .

قال ان المصريين يعبدون كل حيوان ، ولا يدعون شيئا الا عبدوه حتى الثوم . وما كان المصريون يعبدون الثوم ولا البصل ، ولكنهم عرفوا خصائص هذا وذاك فانتفعوا بهما في الغذاء وفي العلاج ، وجاء المحدثون في عصرنا هذا فاتخذوا من الثوم عصيرا سموه ماء الحياة .

وقال ان المصريين يأكلون لحم البشر ، وقص من أخبار هذه الدعوة أن

أناسا من أهل كوم امبو الذين يعبدون التمساح هجموا على رجل من أهل دندرة قتل تمساحا فأكلوه !

والتمساح ، واسمه هذا منقول من المصرية القديمة ، حيوان مقدس كالذئبة الرومانية ، ولكنه كان مقدسا عند أناس ورجيما ملعونا عند آخرين ، أما ان الذين يقدسونه يأكلون لحم قاتليه فتلك هي الفرية التي اتفق المؤ رخون على تكذيبها ، وحسبوها « اختراعة » من أفانين الهجاء ، جناها السخط على الشاعر الهجاء قبل أن يجنيها بشعره على أبناء كوم امبو الأقدمين ، المظلومين !

ومن عجيب التوافق بين الشاعرين الساخطين أنهما يتفقان في الخاطر كما يتفقان في المزاج .، فكان جوفنال يعجب لمن يسأله عن سبب هجائه كأنما كان الهجاء عنده أصلا من الأصول التي لا تحتاج الى سبب ، وكان دعبل ينظم القصيدة المقذعة ويسألونه عمن قيلت فيه فيقول لهم انها ستجد صاحبها لا محالة، ويتفلسف فيمضي قائلا : « ان من يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك في تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك » .

فهي طبيعة واحدة في الشعراء الهجائين مع تباعد الجنس والزمن ، ولا نظلمهم فنحكيهم حين يجنون بالسخط على الحقيقة ، فما نحسبهم ظالمين في كل ما تقولوه على الناس ، وما نظنهم سخطوا بغير حق في كل مقال ، فلعل اصابتهم الناس تنفيس عن بعض ما أصابهم منهم ، ولعلهم شقوا بالعالم كما شقي العالم بهم ، ومن دلائل هذا الشقاء ، أن شاعرا هجاء في اللاتينية وشاعرا هجاء في العربية يرددان معنى واحدا عميقا في دلالته على شقاوة الرجلين ، فيقول جوفنال في الاهجية الخامسة عشرة : « ان الطبيعة خلقت للانسان الكريم قلبا رحيما فأودعت فيه ينابيع الدموع ، وهي اكرم جانب في طوية الانسان » .

ويقول ابن الرومي :

لم يخلق الدمع لامرىء عبثا — اللّه أدرى بلوعة الحزن

وقد تكون الحاجة الى الهجاء كالحاجة الى البكاء ، في طبائع الشعراء ، فلنقل إن الشعراء الهجائين ظالمون مظلومون ، وكلهم في هذه الخلة سواء .

* * *

وأعود الى دعبل فأقول ان الاعياء الذي ابتليت به أطيافه وبروقه ليست من فعل الزمن وحده ، ولكنها من فعل الخيبة التي كانت تلاحقه حيث ذهب ، فلا هو استقر في صعيد مصر ولا هو استقر في صعيد حيث كان .

وقبل أن ينشط العصر الحديث بأصداء الاثير وأطياف الستار الابيض نظر الشعراء الى أسوان بغير هذه العين التي تستعجز البرق وتتهم الطيف بالقصور : نظروا اليها بعين الرضا فوجدوا فيها بغية الطلاب على اختلاف المقاصد والآراب ، كما قال جعفر بن ثعلب أبو الفضل كمال الدين :

أسوان في الأرض نصف دائرة — الخير فيها والشر قد جمعا
تصلح للناسك التقي اذا — أقام والفاتك الخليع معا
وحسنها ما أراك مبدعة — تروق الا بأختها شفعا

وقد حببت الحياة الى أبنائها حتى قال فيها أحد هؤلاء الأبناء من الشعراء :

ما الشيب الا نعمة مشكورة فاشكر عليه
ما الغبن الا أن تمو ت وأنت لم تبلغ اليه

وقائل هذين البيتين هو الاديب ابراهيم بن محمد بن ابراهيم ، وهو من أسرة عريقة أمرها في النبوغ عجب ، ومن هذه الأسرة خالاه النابغان أحمد بن علي

الملقب بالرشيد ، والحسن بن علي الملقب بالمهذب ، وكلاهما شاعر مشارك في العلوم يدل كلامه على علمه كما قال الرشيد :

ولن يستفيد البدر اكمال نوره　　من الشمس الا وهو في غاية البعد

أو كما قال المهذب في وصف ليلة :

لو لم تكن نهرا لما عامت به　　أبدا نجوم الحوت والسرطان
نادمت فيها الفرقدين كأنني　　دون الورى وجذيمة أخوان
وترفعت هممي فما أرضى سوى　　شهب الدجى عوضا من الخلان

أو كما قال :

لا ترج ذا نقص وان أصبحت　　من دونه في الرتبة الشمس
كيوان أعلى كوكب موضعا　　وهو اذا انصفته نحس

وكانا لهذا مبلوين بالحساد والأضداد ، ولا سيما الرشيد الذي قيل عنه انه تطلع الى الخلافة ، وكان يقول عن نفسه انه خلق من نار . فقال فيه ابن قادوس :

ان قلت من نار خلقـ　　ـت وفقت كل الناس فهما
قلنا صدقت فما الذي　　أطفاك حتى صرت فحما

وقال فيه شاعر يمني ، وكان الخليفة قد أوفده الى اليمن داعيا وسماه علم المهتدين ، فحسده أدباء اليمن وقال فيه أحدهم :

بعثت لنا علم المهتدين　　ولكنه علم أسود !

ولكنه كان لا ينظر الى الحساد نظرة الأقران والانداد ، وقال في أمير رجاه فخيب مناه :

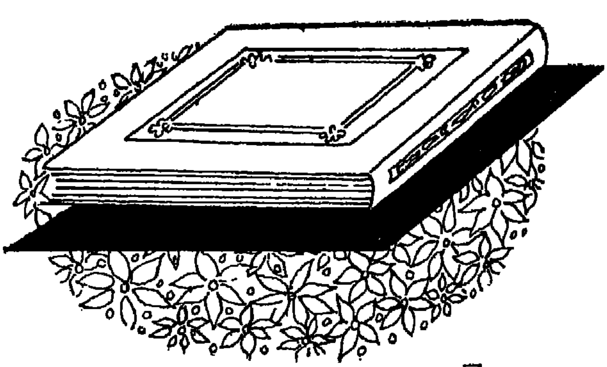
لئن خاب ظني في رجائك بعدما　　توهمت أني قد ظفرت بمنصف

فانــك قد قلدتنــي كل منة ملـكت بهــا شكري لدى كل موقف
لانــك قد حذرتنــي كل صاحب وأعلمتني أن ليس في الأرض من يفي

عليهم رحمة اللّه جميعا من ظفر بالانصاف ومن فاته انصاف الناس وفاته هو أن ينصف الناس ، فقد بقي بعدهم وحي أسوان ووحي الزمـان كما كان ، وكذلك يبقيان ! . .

الفصل العاشر

مِنْ أرض الميعاد



قِصَّــة المَـدِيــنتَيْن

قلت لبعض الاخوان الفلسطينيين ان اللّه أنعم عليكم بحرية الاختيار في أمر واحد ، ولعله فأل حسن وبشارة صادقة بنعمة أخرى تملكون فيها حرية الاختيار فيما يشغلكم اليوم وتؤثرونه على كل نعمة ، وهو نعمة الحرية القومية . .[1] .

انكم تملكون اختيار الاجواء والاهوية في كل فصل من فصول السنة ، وترجعون الى حسابكم أنتم لا الى حساب الافلاك والكواكب لتخرجوا من الصيف وتدخلوا في الشتاء . .

فنحن في مصر ننتظر ثلاثة أشهر أو أربعة لنشيع الصيف ونستقبل الشتاء ، ولكنكم هنا لا تحتاجون الى هذا الانتظار الطويل ، لأن ساعة واحدة تنقلكم من حرارة يوليو الى برودة نوفمبر أو يناير في بعض الجهات ، وعندكم المكان الذي يتذكر فيه السمار معاطفهم اذا طالت السهرة كما تطول أبدا في ليالي الربيع . . . وعلى مسيرة ساعة منه مكان يتذكر فيه السائرون مظلاتهم في أبرد أيام الشتاء ، وقد أوحى مكان من هذه الامكنة نغمة الفكاهة الى قائد من قواد الحرب وهو في ميدان القتال ، فكتب منه اللورد اللنبي الى وزارة الدفاع البريطانية برقية يصف بها احدى المعارك في أيام الحرب العالمية الماضية فقال : « حلقت طائراتنا هذا

---

(١) قام إمام البيان الاستاذ عباس العقاد بهذه الرحلة في صيف عام ١٩٤٥ قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات ولما عاد منها كتب هذه الفصول التي تناولت حالة فلسطين المدنية والسياسية والاجتماعية في ذلك الحين . وقد أشار فيها الى ما يجب على العرب عمله قبل أن تقع الكارثة .

الصباح تحت سطح البحر الابيض المتوسط بستمائة قدم ، ولاحقت العدو عند أريحا من هذا الارتفاع ! » .

وقد كان الحر هذا العام على أشده في شواطىء البحر الابيض جميعها ، فلم نشعر بوطأته الثقيلة حين تركنا الشواطىء وارتفعنا الى هضاب رام اللّه أو « رام ايل » الفيحاء ، ولكنني لم أندم على قضاء معظم أيامي في فلسطين بين الشواطىء حيث تفرط الحرارة والرطوبة هذا العام على خلاف المألوف في السنوات الماضية ، لانني لمست فيها عن كثب ذلك الصراع العنيف الذي احسبه اعجب صراع بين مدينتين متجاورتين في تاريخ المشرق أو في تاريخ العالم بأسره ، وهو الصراع بين مدينة يافا ومدينة تل أبيب . .

ان المدينتين متجاورتان تقيمان في مكان واحد ، حتى ليبدأ الشارع أحيانا في يافا وينتهي في تل أبيب ، ولكن السباق بينهما سباق بين أقدم ميناء على شواطىء بحر الروم واحدث ميناء عليه . . أو لعله أحدث ميناء على جميع شواطىء البحار .

كانت « يافا » علما مشهورا في التاريخ القديم قبل نيف وثلاثين قرنا من الزمان . .

وكانت « الاسكندرية » جنينا في الغيب يوم كان سوفكليس ويوربيدس وغيرهما من شعراء اليونان يتغنون بجمال « يافا » وينسجون خيوط القصيد حول عروسها الفاتنة « اندروميد » التي ربطها الارباب الى صخرة الشاطىء عقابا لها على رفض البناء بخطابها السماويين ! . . ثم مازالت حتى نجا بها القدر من وحش البحر وهو راصد لها ليغتالها . . فأصبحت بعد ذلك كوكبا من كواكب السماء . .

ولا نحسب ان مدينة في الشرق الادنى عرض لها من تعاقب السعود والنحوس ما عرض لمدينة « يافا » في جميع الدول وعلى جميع العهود . .

فعمرت وخربت مرات على أيدي البشر ، وعلى أيدي الزلازل والجوائح الطبيعية ، وصمدت للعراك بين الدول التي تداولتها من عهد تحوتمس وسنحاريب ، الى عهد العرب والصليبيين ، الى هذا العهد الذي لا يحسب في تاريخها من العهود الرخية الميمونة ، وان كنا لنرجو ألا يكون من أقسى العهود ، لأنها قد صمدت في تجاربها الكثيرة لما هو أقسى وأصرم من تجارب العهد الذي هي فيه الآن .

كانت « يافا » تعول في معيشتها على الزراعة وعلى الصناعة وعلى الميناء وما يدور حوله من حركة السفن وحركة البيع والشراء . . .

فأصيبت في جميع هذه الموارد ، ولا تزال مع هذا قائمة على قدميها تناضل نضالها المجيد في سبيل البقاء .

فالموالح والثمرات التي عرفت باسمها من قديم الزمن لا تلقى اليوم في الأسواق القريبة ذلك الترحيب الذي تعوّدت ان تلقاه الى زمن غير بعيد .

والصناعة ـ وأهمها صناعة الجلود وصناعة الصابون ـ قد منيت بالمزاحمين الاقوياء في تل أبيب وما وراء تل ابيب من بلدان الشرق الادنى .

أما الميناء فقد تحول عنه أكثر السفن الى ميناء حيفا الذي تنتهي اليه أنابيب البترول من آبار العراق ، أو الى ميناء تل أبيب الذي بناه مجلسها البلدي ومد الى جانبه ذلك « الكرنيش » الطويل محاكيا به كرنيش الاسكندرية في كل شيء . . حتى في « الاذرة الشامية » التي تشوى أو تسلق على زواياه ومنعطفاته ، ويقبل عليها المتنزهون والمتنزهات الى أواخر الليل !

فهي اليوم تتماسك على مضض ، أو على صبر أليم ، وحسبك من مدينة تفجع في مواردها جميعا ولا تزال ناهضة على قدميها في اباء المناضل المستميت .

* * *

الى جانب هذه « الشيخة » الصبور فتاة ماكرة لعوب تتيه عليها بدلال الفتنة وجمال الشباب . .

تلك مدينة تل أبيب . .

صبية لم تتجاوز الثانية والعشرين ، اذا نظرنا الى مولدها الصحيح في أعقاب الحرب الماضية ، ولم تتجاوز السادسة والثلاثين اذا نظرنا الى نشأتها في عهد الدولة العثمانية أيام كانت هذه الدولة تحب أن تستعين بالدعاية الاسرائيلية في مقاومة روسيا ودويلات البلقان ، ولم تكن نشأتها يومئذ نشأة مدينة تزخر بالسكان وتحتوي من الوافدين عشرات الالوف ، ولكنها كانت روضة للنزهة وقضاء ساعات الاصيل في أيام الصيف والربيع ، ولهذا سميت « تل الربيع » حين غرسوها في أول عهدها بالظهور . .

كذلك نشأت منذ نيف وثلاثين سنة على غير حذر من عواقبها السريعة لا من جانب الراعي ولا من جانب الرعية . .

أما اليوم فليست هي تلك الروضة البريئة التي يتنسم لديها أهل « يافا » نفحات الغروب من نسمات الربيع . . .

ياله من صراع عجيب بين شيخة الامس وفتاة اليوم . .

وانه لصراع ظالم اذا ترك فيه الندان منفردين على النحو الذي نراه ، لأن « يافا » تقف وحدها هناك ولا تقف « تل أبيب » وحدها في ميدانها . . بل تقف هنالك ومن ورائها أمة موزعة بين جميع أنحاء العالم تعينها بأحدث ما اخترعه العلم من الوسائل ؛ وأخفى ما يعرفه المال من الاساليب ، وأقوى ما تسيطر عليه السياسة من الخدع والاحابيل . .

واليافيون لا يغفلون عن الخطر الذي يستهدفون له ولا يجهلون ان الاساليب القديمة لن تجدي وحدها في اتقاء هذه المنافسة التي تعتز بأحدث ما

عرفه الناس من ضروب التعمير والاستغلال . .

فقد علمت من مدير المجلس البلدي بمدينة يافا انهم يعدون العدة لبنـاء الكرنيش الذي يضارع كرنيش تل أبيب ، ولتنظيم الطرقات التي لا تزال بحاجة الى التنظيم . .

وعلمت أنهم يؤلفون شركة كبيرة لبناء فندق فخم وناد حديث يستغني بهما من يريد الاستغناء عن ارتياد الفنادق والاندية في تل ابيب . .

وهذا كله حسن واجب ، بل هذا كله قليل من كثير ينبغـي الشروع في انجازه قبل أن يطول التفكير فيه . .

ولكن الحقيقة التي ينبغي أن تذكر في هذا الصدد قبل كل حقيقة أخرى ، هي ان مدينة « يافا » لن تقوى على هذا الصراع العنيف على انفراد ، فلا بد لها من عون سريع كالعون الذي ترجع اليه غريمتها ، ليجري الامر بينهما على سنة الانصاف ، ويرجى منه اتقاء الهزيمة في هذا النضال .

الصّهيونية والجامعة العربيّة

اذا عبرت « تل أبيب » رأيت في أكثر أوقات النهار زحاما يملأ جوانب الطرق من اليمين والشمال ، وخيل اليك ان القوم منصرفون من محفل أو مقبلون على اجتماع في منعطف الطريق . .

لان حركة المرور لا تنقطع في « تل أبيب » من ساعات الصباح الباكر الى ما بعد العشاء . .

ولكنك مع هذا تلاحظ هذا الزحام المتلاحق فتعجب لأنك لا ترى فيه أحدا يلوي على أحد ، ولا تكاد تلمح انسانا يومىء الى انسان آخر بالتحية ، الا في العرض النادر الذي يرجع الى محض الاتفاق . .

واعجب من ذلك انك تنظر الى القوم فلا ترى على وجوههم ما يدل على السعادة : سعادة الظفر بالامنية الروحية والمطلب التراثي القديم . . فلا تملك ان تسأل نفسك : ما هذا ؟ أهؤلاء قوم يهبطون الى أرض الميعاد بعد التفرق في جوانب الارض مئات السنين ؟ . .

وتتخيل المسلمين في عرفات ، أو النصارى في معاهد المسيحية المقدسة ، فلا ترى على وجوه القوم في « تل أبيب » شيئا من دلائل تلك الاخوة الروحانية التي تفيض على وجوه الحجاج من جميع الاديان ، ولا يقع في نفسك الا ان القوم مسوقون الى هذه الحجة الموعودة ، وان الذي وجدوه هنالك غير الذي آمنوا به وصدقوه . .

وما في الامر من غرابة اذا رجعت الى الواقع ، أو رجعت الى المعقول . .

اذ كانت حجة اليهود الى أرض الميعاد غير الحجة الى عرفات أو الى كنيسة القيامة أو ما شابهها من مناسك الديانة المسيحية . . .

فان المسلمين والمسيحيين يقضون مناسك الحج ويعودون الى أوطانهم التي نشأوا فيها وألفوا معالمها . .

أما اليهودي حين يهجر بلاده الى الوطن القومي بفلسطين ، فإنه يترك وطنه الذي نشأ فيه وألف معالمه ليستنبت نفسه في وطن جديد . . ولا يفعل ذلك الا بدافع قوي من الامل في تحسين الأحوال ، أو بدافع قوي من الحماسة الروحية . . فليس من شك في أن اليهودي الناجح في وطنه - الاوربي أو الامريكي - لن يهجر ذلك الوطن ليستأنف الحياة زارعا أو بائعا في ناحية يجهلها من أرض فلسطين ، ولن يبيع نجاحه المحقق بأمل بعيد يمنيه به الزعماء الصيونيون ، بالغا ما بلغ به الايمان بوعود صهيون . . .

ولنذكر أن اليهودي قد ألف العمل في التجارة والصفقات المالية ، ولم يألف العمل في الزراعة وتربية الدواجن وما اليها من اعمال الفلاحة ورعي الحيوان . . فهو لا يقدم على تبديل مألوفاته الا اذا اتفق الشظف والتعصب والامل في المجهول على اقناعه بالهجرة وامداده بالبواعث النفسية التي تساعده على هذا التبديل . . وقلما تعمر هذه البواعث الى زمن طويل . .

والذي نعتقده أن « النقلة الصهيونية » هي نقلة مصطنعة عارضة تخلقها تلك العوامل الموقوتة التي أشرنا اليها ، وينفخ فيها عاملان آخران موقوتان ، وهما دعاية الزعماء واضطهاد الطوائف الاسرائيلية في أوربا الوسطى واوربا الشرقية . . ولولا هذان العاملان لبقيت الصهيونية حيث كانت أملا من آمال الخيال . .

ظهرت في الايام الاخيرة مذكرات اللورد « هربرت صمويل » الذي كان أول مندوب سام على فلسطين من قبل الدولة البريطانية . .

وهو سياسي فيلسوف ينتمي الى أسرة اسرائيلية كبيرة في البلاد الانجليزية ، ويتكلم بكثير من الصراحة عن موقف زعماء اليهود من الدعوة الصهيونية عند ظهورها واشتدادها في اعقاب الحرب الماضية . ومن هذه المذكرات يتبين لنا ان ثلاثة من عظماء اليهود الانجليز الذين شاورتهم الحكومة البريطانية في اعلان الوطن القومي بفلسطين كانوا معارضين لإعلانه متشائمين من عقباه ، وعلى رأسهم « أدوين مناجو » الذي كان وزيرا للهند في وزارة لويد جورج الائتلافية . .

فحماسة الشعوب الاسرائيلية للوطن القومي هي حماسة مصطنعة مبالغ فيها بغير مراء ، وأقل ما يقال فيها انها ليست بالحماسة الاجتماعية التي تقاوم جميع المصاعب وتذلل جميع العقبات . .

وانما قامت الحركة كلها على دعاية الزعماء ، وصادفت هذه الدعاية ما صادفته من النجاح لأمرين لا مناص منهما للمثابرة على نشاط الحركة واستمرارها . .

هذان الامران هما : « أولا » سهولة الحصول على الوطن القومي في اعقاب الحرب الماضية . و« ثانيا » صعوبة المقام في كثير من الاقطار الاوربية على اليهود ، لما كانوا يلقونه هناك من ضروب الحجر والاضطهاد . .

فاذا تغير الموقف بعد الحرب العالمية الاخيرة ، فصعب المقام في الوطن القومي وسهل المقام في الاقطار الاوروبية بعد زوال الاضطهاد منها وفتح أبوابها لمشروعات التعمير وصفقات التجارة والمال ، فقد تنكشف الحركة المصطنعة عن حقيقتها الباقية فاذا هي أضعف من أن تقوى على الثبات الى زمن طويل .

***

نعم ان الصهيونية تعتمد الآن ـ بعد القيام في فلسطين زهاء ربع قرن ـ على عاملين آخرين غير تلك العوامل التي بعثت الحركة من مرقدها في دفعتها الاولى . .

تعتمد الآن على الجيل الجديد الذي يولد وينشأ في تل أبيب وما يحيط بها من المستعمرات الاسرائيلية .

وتعتمد كذلك على الصناعات الحديثة التي تأسست في أيام الحرب الاخيرة على الخصوص ، واتصلت معاملاتها بأقطار الشرق الادنى وما جاورها من الاقطار .

لكن الجيل الجديد الذي يولد وينشأ في تل ابيب خليط من الاوطان المختلفة لا يمتزج بعضه ببعض في زمن قريب .

اما الصناعات الحديثة فلها مزاحم قوي من الصناعات الاوروبية المتعطشة الى الاسواق ، ولها مزاحم آخر من الصناعات الوطنية التي تعتمد على الشعور الوطني والضرورات الاقتصادية ، ولها بعد هذا وذاك كابح آخر من حراسة الاسواق الشرقية حيثما تنبهت الى اخطار الاحتكار ، وليست أزمات البطالة فيها بعد انتهاء الحرب بالازمات التي يسهل علاجها في هذه الاوقات .

***

كنت أقول لإخواننا الفلسطينيين كلما سألوني عن رأيي في قضية بلادهم وقضية البلاد العربية : انني متفائل قوي التفاؤل عظيم الرجاء في مصير البلاد الشرقية على الاجمال . .

ولكنني كنت اشفع ذلك دائما بتفسير التفاؤل الذي أعنيه وأعقد عليه عظيم الرجاء . .

فالتفاؤل المحمود هو التفاؤل الذي يقنعك بأن العمل ممكن وأنه مع امكانه مفيد . . .

ومتى آمنت بذلك فعليك أن تعمل وأن تحقق الفائدة التي ترجوها وان كلفك العمل أثقل الجهود . .

فلا فائدة من تعظيم خطر الصهيونية والارتفاع به الى ما وراء طاقة الجهود البشرية . .

ولكن لا فائدة كذلك من تهوين هذا الخطر اذا لم يقترن تهوينه بالشروع في العمل المفيد . .

والجامعة العربية خليقة ان تنتهز فرصة العمل في هذه الآونة لأنها فرصة سانحة بعد الحرب الاخيرة وفي مفتتح الحياة الجديدة التي تستعد لها الاقطار الاوروبية ، ممن كانت على صلة بالمسألة الصهيونية او باضطهاد اليهود ، وقد تفتح أبوابها غدا لمن يؤثرون العودة إليها من أرض الميعاد اذا عز عليهم الوفاء بما وعدهم به الدعاة والزعماء . .

ولا غنى للبلاد العربية على أية حال ـ لخدمة نفسها لا لخدمة القضية الفلسطينية وكفى ـ من تنظيم الصناعات الحديثة ، وتنظيم الاسواق في وجه المعاملات الطارئة عليها ، ومن منع الاحتكار في أيدي فريق من الناس كائنا ما كان . .

واذا استقامت البلاد العربية على هذا الطريق فقد استقامت على الطريق السوي الذي يفضي بها الى النجاح في جميع قضاياها ، ومنها قضية فلسطين .

الحالة الاجتماعية

المجتمع الفلسطيني قريب من المجتمع المصري في تكوينه وفي معظم آدابه وعاداته ، ولا يختلفان الا في بعض التقاليد التي ترجع أولا الى امتزاج شعائر الاسرة المصرية بشعائر الحداد الموروث من أقدم العصور ، وترجع ثانيا الى الزراعة المصرية والبادية الفلسطينية . . فمصر تنقسم الى عاصمة وقرية ، وفلسطين تنقسم الى حاضرة وبادية ، وإن كانت باديتها اخصب من بادية الصحراء وأقرب الى العمار . . .

ولا يزال سلطان البادية ظاهرا في تقاليد الاسرة الفلسطينية سواء منها الاسلامية أو المسيحية . .

والبادية كما لا يخفى تشتد في المحافظة الاجتماعية وتحب البقاء على القديم ، وأظهر ما تبدو عليه هذه المحافظة الاجتماعية في حجاب المرأة ونظام الحياة الزوجية . . فان بنات الاسر في جواضر فلسطين متعلمات على نصيب وافر من الثقافة العصرية ، ولا يندر بينهن من تحسن لغة أو لغتين من اللغات الحديثة ، ولكنهن قليلات الظهور في الحياة العامة ، وقلما تجسر السيدة منهن أو الفتاة على السفور في الطريق الا ان تكون من أسرة قوية السلطان مهيبة الجانب تحميها بسلطانها وهيبتها ان تتعرض للاذى والمهانة من بعض من ينكرون السفور ، وهم كثيرون . .

فاذا سفرت السيدة أو الفتاة من البيوت المتوسطة التي لا تخشى شوكتها فقد

يصيبها ما يسوءها في طريقها ، ولا يتقدم احد لحمايتها ، لانها تستحق ما تلقاه في رأي السابلة من طبقات العامة ومن يحسبون حسابها . .

ونحن لا نتمنى لفلسطين ذلك الشطط الذي تمادى فيه بعض السافرات في بعض الاقطار الشرقية . . ولكننا نعتقد أن تيسير الحجاب والتخفيف من قيوده الثقيلة نافعان للمجتمع الفلسطيني في مرحلته الحاضرة ، ولعلهما نافعان له جد النفع في مكافحة « تل أبيب » ومغرياتها ، لان الفتى الذي يصحب خطيبته أو زوجته في رياضته اليومية يشعر بالامانة الزوجية ماثلة أمام عينيه في بيته وفي طريقه ، وتغنيه هذه الصحبة المشروعة عن تلك الصحبة الموبقة التي تذهله عن كرامته وماله وقضية بلاده .

ولسلطان البادية القوي أثر في السياسة الفلسطينية . لان الزعماء هناك هم - بطبيعة تكوين المجتمع - رؤساء العشائر وعمداء البيوت العريقة في الحواضر ، ولهم من النفوذ في السياسة بمقدار ما لهم من الاشياع والاتباع والاقرباء وانصار العصبيات ، وهم الذين نهضوا بأعباء الحركة في اشدها ، وتعرضوا لمخاطر الموت والابعاد من أجلها . .

وقد أضيف الى هذا العامل الموروث عامل مكتسب من نفوذ الدين أو نفوذ الرئاسة الرسمية ، بل أضيف اليه ما تقضي به أطوار العصر من رعاية البرامج والمبادىء التي تتعلق بها آمال الشعوب في الزمن الحديث . .

ولا تخلو فلسطين من ذلك القلق الذي يخامر نفوس الشباب ويعجلهم على الصبر والانتظار ، ومطاولة الاحوال التي درجت عليها السياسة في أيدي الرؤساء والعمداء .

وقد سألني بعضهم سؤالا صريحا في حفل حاشد عن الزعامة السياسية والبرامج الوطنية فقال موجها الي الخطاب : ألا ترى أن ينفرد الشباب بقيادة الحركة القومية دون الرؤساء والعمداء ؟ . .

فلمحت على وجوه الحاضرين أن صاحب السؤال ينوب في الحقيقة عن الاكثرين منهم ، وأنه يعبر عن خاطر يساورهم ويدور عليه النقاش الطويل فيما بينهم ، فقلت : ان الشباب يستطيع أن يسمع صوته فلا يقوى الزعماء على اغفاله ، ولا يزال للشباب عمل كثير يضطلع به في خدمة وطنه قبل أن يتصدى لمهمة الزعامة الشعبية ، ولكنه اذا رزق الالمعية النادرة التي ترشحه لقيادة قومه فان هذه الهبة الفطرية لن تخفى على أحد ، ولن تحول الحوائل دونه ودون القيادة التي يستحقها ، اذ لا حاجة به يومئذ الى التوسل والرجاء في طلب الاعتراف له بالكفاءة الممتازة والزعامة الموهوبة ، لان الكفاءة الممتازة تفرض مكانتها على من يعرفها ومن ينكرها على السواء . .

***

والفلسطيني وسط بين المصري وبين السوري واللبناني في الاقدام على الهجرة والتمرس بالمحاولات الاقتصادية في بلاده أو في البلاد الاجنبية . .

فهو لا يهاجر كما يهاجر السوريون واللبنانيون . .

وهو أجرأ على انفاق المال من أبناء الامم التي تعودت المحاسبة على الموارد والمصارف ، وانتظمت على الموازنة بين الارباح والخسائر ، منذ عهد بعيد . .

ولم يزل الى زمن قريب يعول على تربية الماشية والزراعة ، ويعول معها أحيانا على التجارة الدورية التي تجري في مواسمها على سنة الزراعة والثروة الطبيعية . .

وفي طبعه استقلال البدوي الذي تثقل عليه رياضة الحياة المدنية وتعنته بما فيها من الموانع والقيود . .

وقد قال لي رجل من أذكياء السوريين وذوي الغيرة منهم على القضية

الفلسطينية : ان اخواننا هنا يتعبون كثيرا مع جماعة الصهيونية ، لانها تحاربهم بسلاح لم يتعودوه .

قال ذلك وقد مررنا بخص من القش على شاطىء البحر في جوار « يافا » يملكه رجل يهودي يطهو فيه الطعام لمن يستريحون لديه في أثناء الطريق ، أو لمن يقصدونه في طلب النزهة والاستجمام وقضاء فترة من الوقت في ضواحي الخلاء . .

قال الدمشقي الاريب: لو نزل رجل من بلدنا هنا يوما واحدا وتناول هنا وجبة واحدة ، لما فارق المكان قبل ان يعيد حسبته في ذهنه ويقدر نفقات المكان ونفقات الطعام ومكسب اليوم الواحد ثم مكسب الايام . .

فاذا أعجبه الحال وراقه المكسب ، فما هي الا أيام معدودات حتى يرى اليهودي خصا قائما الى جانب خصه يبيع الطعام الذي يبيعه ويهيء المائدة التي يهيئها ، وينزل عن بعض ربحه في أيامه الاولى ليحول قصاد الخص القديم الى الخص الجديد . .

قال صاحبي الدمشقي : فليت الصهيونية تبتلى في هذه الديار بمن ينافسونها هذه المنافسة وينازلونها بمثل هذا السلاح . .

قلت : ان الدرس غير عسير على من يرى الصراع من حوله ويعلم عاقبة التهاون فيه . .

***

وأحسب ان المصريين والفلسطينيين في مجال الهجرة فرسا رهان ، أو فارسان متقاربان . .

فمن فلسطين مهاجرون في مصر ، ومن مصر مهاجرون في فلسطين ، وقد يعيش الفلسطيني في مصر زمنا ثم يعود الى بلاده ، وقد ترى بينهم من يلقب

بالانشاصي والبلبيسي والطنطاوي كما ترى بيننا من يلقب بالغزي والرملي والعكاوي ، وكأنهم يتسابقون أو يتلاحقون في حلبة واحدة لا يخرجون منها ولا يسرعون الى تبديل معالمها ، سواء في التقاليد الاجتماعية أو معيشة البيوت . . حتى «الملوخية» ـ وهي صحفة مصرية لا يتقنها الطهاة في غير وادي النيل ـ قد أكلناها في بيت أبي خضرة كما تؤكل على أفخر موائدنا التي تعتز بتقديمها في بواكيرها او معقباتها . . لان أبناء هذا البيت يحافظون على تراثهم القديم منذ كانوا بريف مصر ، ولا تزال لهم قرابة فيه . .

بين مصر وفلسطين جوار هو أقرب من جوار المكان لانه كذلك جوار التاريخ وجوار السكان .

مصر والقضيّة العربية

سألني فنان صهيوني : لماذا يهتم المصريون بمشاكل العرب ؟

فاستغربت سؤاله ، ولم اكتمه أنه سؤال غريب . فعاد يسأل : وما وجه الغرابة فيه ؟ . .

قلت : وجه الغرابة فيه انك تنتظر الاهتمام من يهود أمريكا بجماعة الوطن القومي في فلسطين وتحسبه من الامور الطبيعية التي لا تحتمل السؤال والاستفسار ، ولكنك تستغرب من العرب المتجاورين أن يهتم بعضهم ببعض ، وهم مضطرون الى هذا الاهتمام . . نعم مضطرون اليه ولو لم ينظروا الى المسألة من الوجهة الشعورية أو العلاقة التاريخية الروحية ، لان استقرار السلام في الشرق الادنى يعنيهم جميعا ويوجب عليهم أن يتداركوا اخطاره قبل وقوعها بشيء من الحيطة والمعاونة ، ولا استقرار للسلام في الشرق الادنى مع تهديد أمة كاملة في استقلالها ومصالحها ومعالم وجودها .

فلاح عليه أنه كان يتوقع جوابا غير هذا الجواب . .

وكان غيره أصرح منه في السؤال ـ وهو كاتب في صحيفة « فلسطين بوست » الانجليزية يراسل بعض الشركات البرقية ـ فسألني :

هل تريد مصر أن تسيطر على سياسة البلاد العربية ؟ . .

قلت : كلا . . ولو جاءتها السيطرة طيعة هينة بغير سعي منها ، لان

الاساس الذي قامت عليه الجامعة العربية هو استقلال كل أمة من أمم العرب التي تشترك فيها ، وبذل المجهود المستطاع لتمكين الامم الخاضعة للحكم الاجنبي من بلوغ استقلالها ، وليست لمصر مصلحة في التوسع او زيادة التبعات والاعباء السياسية والعسكرية والاقتصادية ، ولكنها ترى المصلحة كل المصلحة في التعاون بينها وبين الامم التي تقاربها في الموقع الجغرافي والتراث التاريخي والوجهة السياسية . .

***

ان الشعوذة السياسية وحدها هي التي تسول لبعض الادعياء ان ينتحلوا لانفسهم صفة الزعامة على جميع الامم العربية ، كما ينتحلون لانفسهم صفة الزعامة المطلقة على الامة المصرية . .

وانما يخدم أولئك الادعياء أنفسهم بتلك الشعوذة البغيضة الى كل من يطلب الحرية وكل من يؤمن في الشرق بمبادىء الديموقراطية ، لانها تضير القضية المصرية كما تضير القضية العربية ، ولا تنتهي الى فائدة مرجوة لغير أولئك الادعياء فيما يتخيلونه من الاوهام والاحلام . .

انهم يتوهمون انهم يروجون في سوق المناصب على قدر البضائع التي يعلنون عنها ويدخلون في روع الاجانب أنهم قادرون على تسليمها . .

فهم يبيعون ويشترون في قضية مصر وقضية العرب على السواء ، ويخرجون المسألة من حدود التعاون المحمود الى حدود الزعامة المنكرة وما وراءها من الدعاوى والشبهات .

ونحمد الله على ان الوقائع قد افهمت من يفهم ومن لا يفهم أن مصر تبغض هذا النوع من الشعوذة وتتشاءم به وتأباه ، وأنها تعاف مزاج الدعاة الذين يدقون الطبول وينفخون الابواق حول انفسهم ، ولا ينزهون مطلبا من المطالب

عن صغائر التهريج والتهييج ، لانهم لا يعيشون بغير اجراس المزاد في سوق المساومات .

ليس في ساسة مصر اليوم ـ بحمد الله ـ من ينطوي على مثل ذلك المزاج ، فهم لا يعملون لمصر ولا لغير مصر ليحتكروا الزعامة الابدية على هذا الشعب أو ذاك ، ولكنهم يعملون لانهم يعرفون الواجب ولا يتجاوزون به حدوده ، ويخدمون القضية العربية خدمة الاخوان أو الاعوان ، ولا يخدمونها ـ ولا يستطيعون ان يخدموها ـ من طريق الضجة الخاوية التي يعلن بها المعلنون عن تسليم البضاعة في أسواق المطامع الاجنبية .

هذا التعاون على أساس الاستقلال الموفور لكل أمة من الامم العربية هو قوام الجامعة العربية ، ولا قوام لها بغيره . .

وينبغي ان يفهم الاستقلال هنا على أوسع معانيه أو على جميع معانيه ، فهو يشمل الاستقلال الأدبي ، كما يشمل الاستقلال في عرف العلاقات الدولية . .

فلا افتئات فيه على حق أمة من الامم في الاعتماد على نفسها والتوفر على جهودها ، وليس من شأنه أن يحمل أحدًا على التواكل ولا أن يحمل أحدا على تجاوز الحدود . .

لكل أمة عربية أن تنتظر المعونة من أخواتها وجاراتها .

ذلك حق الاخ على اخيه والجار على جاره . .

وعلى كل امة عربية ان تعمل ما في طاقتها لتحقيق مطالبها . .

ذلك واجب الانسان على نفسه بل واجبه لنفسه . . .

وقوام الامر بين الجميع هو استقلال في الرأي والعمل وتعاون بين اخوان مستقلين في الآراء والاعمال . .

فلا سيطرة هناك ولا قيادة ، ولا اعفاء من واجب ولا تجاوز في الحقوق . .

***

ومن دواعي الغبطة أني رأيت دلائل الشعور بهذه التبعة العظيمة ـ على هذا الاساس القويم ـ في كل من لقيت من ذوي الرأي والمكانة بين خاصة ابناء الامم العربية . .

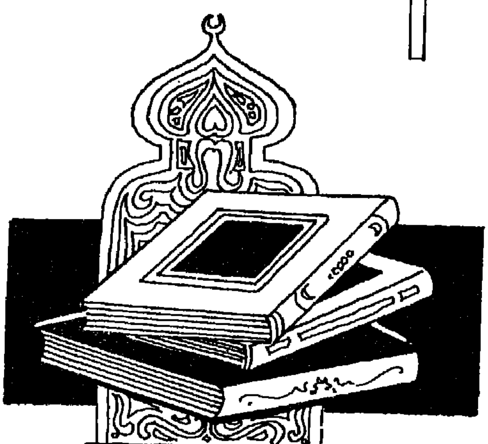
فهم ـ مع ايمانهم بجدوى هذا التعاون الاخوي في تخفيف الاعباء ومضاعفة القدرة على النجاح ـ يعتقدون أنه قد ضاعف شعورهم بالتبعة وتقديرهم للواجب ورعايتهم للحقوق ، لان عمل امة تسأل عنه أمم ، وكلمة فريق من المجاهدين قد تحسب على كل فريق . .

قلت للكاتب الصهيوني : ان مصر لا تريد السيطرة على الامم العربية ولو جاءتها السيطرة بغير سعي منها . .

واحسبني أردد كل رأي رشيد في الاقطار العربية حين أقول ان الضجة الخاوية التي سولت لبعض الظنون أن تهجس فيها هذه الهاجسة قد ذهبت الى غير رجعة ، وأن العمل الوقور هو العمل الوحيد الذي يليق بخدام هذه القضية الكبرى ، وانه لا يستقيم على أساس كما يستقيم على اساس التعاون الاخوي في حدود الاستقلال المرعي ، ومرحبا بآمال الامم العربية في الامة المصرية ولو طالبتها بالحصة الكبرى من المعونة وتوجهت اليها بالجانب الاكبر من الرجاء . . فحبذا مضاعفة الواجب كلما تضاعفت الطاقة ، وحبذا ان تزداد القدرة ويزداد معها التوفيق الى تحقيق الآمال .

الفصل الحادي عشر

دين وفلسفة



الله

في رأينا أن مسألة وجود الله مسألة « وعي » قبل كل شيء .

فالانسان له « وعي » يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من « وعي » يقني بالوجود الاعظم والحقيقة الكونية ، لانه متصل بهذا الوجود ، بل قائم عليه .

والوعي والعقل لا يتناقضان ، وان كان الوعي أعم من العقل في ادراكه لانه مستمد من كيان الانسان كله ، ومن ظاهره وباطنه ، وما يعيه هو وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياما مجملا .

ونحن نخطىء فهم العقل نفسه حين نفهم أنه مقصور على ملكة التحليل والتجزئة والتفتيت ، وانه لا يعمل عمله الشامل الا على طريقة التقسيم المنطقي وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج واثباتها بالبراهين على النحو المعروف .

فالعقل موجود بغير تجزئة وتقسيم . . وهو في وجوده ملكة حية تعمل عملا حيا ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه في عرف المنطقيين . . وهو في وجوده هذا يقول : « نعم » ويقول « لا » ويحق له ان يقولهما مجملتين في المسائل المجملة على الخصوص .

وقد يخطىء القول في بعض الاشياء ولا يضمن الاصابة في كل شيء . ولكن الخطأ ينفي العصمة الكاملة ولا ينفي الوجود . فقد يكون العقل المجمل

موجودا عاملا وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل ، ولن يقدح ذلك لا في وجوده ولا في صلاحه للتفكير . لان « التقسيم المنطقي » يخطيء أيضا كما يخطيء العقل المجمل في احكامه المجملة ، ولا يقال من أجل ذلك ان التقسيم المنطقي غير موجود أو غير صالح للتفكير .

فاذا قالت البداهة العقلية : « نعم . . هناك إله » فهذا القول له قيمة في النظر الانساني لا تقل عن قيمة المنطق والقياس ، لانها قيمة العقل الحي الذي لا يرجع المنطق والقياس الى مصدر غير مصدره أو سند أقوى من سنده . وقد كان العقل المجمل أبدا اقرب الى الايمان وأقرب الى قولة « نعم » في البحث عن الله ، ولم يستطع التقسيم المنطقي أن يقول « لا » قاطعة مانعة في هذا الموضوع .

وقد اسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفة لاثبات وجود الله بالحجة والدليل ، ونحسب أننا نضعها في موضعها حين نقرر في شأنها هذه الحقيقة التي يقل فيها التشكك والخلاف : وهي أن البراهين جميعا لا تغني عن الوعي الكوني ، وأن الاحاطة بالحقيقة الالهية شيء لا ينحصر في عقل انسان ولا في دليل يتمخض عنه عقل الانسان ، وانما الترجيح هنا بين نوعين من الادلة والبراهين ، وهما نوع الادلة والبراهين التي يعتمد عليها المؤمنون ، ونوع الادلة والبراهين التي يعتمد عليها المنكرون ، فاذا كانت أدلة المؤمنين ، أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل غناءه وأدى القياس رسالته التي يستطيعها في هذا المجال ، وهي في الواقع أرجح وأصلح للاقتناع بالفكر ـ فضلا عن الاقتناع بالبداهة ـ كما يبدو من كل موازنة منصفة بين الكفتين .

ولا يخفى أن قاعدة الاثبات والنفي في مناقشات الخصوم لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل . فليس للعقل البشري خصومة في الاثبات ولا خصومة في الانكار . . وليس على أحد عبء الدليل كله ولا على أحد عبء الانكار كله في

البحث عن حقيقة الوجود .

ونحن لا نحصي هنا جميع البراهين التي استدل بها الفلاسفة على وجود الله فانها كثيرة يشابه بعضها بعضا في القواعد وان اختلفت قليلا في التفصيلات والفروع ، ولكننا نكتفي منها بأشيعها وأجمعها وأقربها الى التواتر والقبول وهي : برهان الخلق ، وبرهان الغاية ، وبرهان الاستكمال أو الاستقصاء ، وبرهان الاخلاق أو وازع الضمير .

محمد الإنسان[1]

من الاقوال المتواترة بين كثير من مؤرخي المسيحية ، انها انتشرت على يد بولس الرسول ، ولولم يعرف المسيحيون قبل ذلك بهذا الاسم لعرفوا في الغرب باسم « البولسيين » نسبة الى « بولس » الذي كان يدعى قبل ذلك باسم شاؤل .

ويحمل الاستطراد بعض مؤرخي الغرب الى التماس الشبه بين انتشار المسيحية وانتشار الاسلام في خصلة كهذه بين محمد عليه السلام وخليفة من أكبر أصحابه وهو الفاروق عمر بن الخطاب ، ويزيدهم ولعا بهذا التشبيه ان الفاروق كان ، أيام جاهليته ، أشد ابناء قريش ايذاء للمسلمين ، وكذلك كان بولس قبل ايمانه برسالة السيد المسيح . فانه آمن بها وهو متجرد لاضطهاد اتباعها في حملة من حملاته على الشام .

وهذه مشابهة مغرية بالمقارنة في اكثر ظواهرها وأشكالها ولكنها تنقضي عند حقيقة واحدة غفل عنها أصحاب المقارنات بين الاديان ، وتلك هي الفرق بين اثر الدعوة وأثر الداعي بالنسبة الى الرجلين ، فان بولس الرسول لم يلق السيد المسيح ولم يعاشره على التحقيق ، ولكن الفاروق كان هو نفسه غرسا من غروس محمد عليه السلام ، وكان في كل ما عمله بعد اسلامه طالبا مجتهدا على يد معلم محبوب .

واجتماع الرجال الافذاذ من قبيل ابن الخطاب هو مقياس العظمة الانسانية

في نبي الاسلام صلوات الله عليه ، فلم يحدث قط في تواريخ الدعوات الدينية ، كتابية كانت أو غير كتابية ، ان اجتمع حول داع من دعاتها رهط من أفذاذ الرجال يدينون « لشخص » ذلك الداعي بالاجلال والمحبة ويعترفون له بالتفوق والرجحان راضين مغتبطين كما اجتمع الفاروق وأقرانه حول نبي الاسلام ، وقد ظل الفاروق طوال حياته يتحدث بعذوبة قول النبي له « يا أخي » مرة ونداءه له بكنيته « أبي حفص » مرة اخرى ، وظل غيره من الصحابة يحتفظون بكل اثر « شخصي » ظفروا به في أيام صحبتهم له سنوات بعد سنوات .

***

كان للانبياء والدعاة اصحاب كثيرون او قليلون ، ولكنهم لم يذكروا بين عداد العاملين بين ابطال التاريخ ،ولم يجتمع قط في صحبة طويلة للانبياء امثال هؤلاء الاصحاب الذين حفوا بنبي الاسلام ، ولا نحصيهم في هذا المقام ولكننا نذكر منهم ابا بكر وعمر وعثمان وعليا وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ومعاوية بن أبي سفيان وابا عبيدة بن الجراح والمقداد بن عمرو ، وغيرهم من السابقين المتلاحقين في هذا الطراز ، كل منهم أمة في رجل أو قائد على جيش ، أو مؤسس لدولة ، أو سيد بين علية قومه يؤتم به ويهاب ، وكلهم يلحظ في عشرته لنبيه أنه يعتز برئاسته وولائه ، فضلا عن ايمانه به ايمان المهتدي بهاديه المصدق الامين .

ذلك مقياس للعظمة الانسانية لم يتحقق قط لعظيم من عظماء بني الانسان ، ولا استثناء لاحد من العظماء الدينيين كان أو من العظماء الدنيويين .

فالصداقة العالية أكبر برهان من براهين العظمة المحمدية في صورتها الانسانية ، مع صورتها القدسية الالهية . .

ومحمد الصديق هو أعظم العظماء بين بني الانسان بمقياس هذه « الظاهرة » النفسية الفذة في تواريخ العظماء .

ولسنا نقول غير الحقيقة التي تثبت كل الثبوت بمعيار النفوس ، اذا قلنا ان محمدا الزوج أعظم نفسا وخلقا من محمد الصديق .

ان الاراذل من المحترفين بالتبشير الديني قد ابتذلوا كل أدب من آداب الدين ، وكل خلق من أخلاق الكرام ، حين اتخذوا من زواج محمد عليه السلام مذمة يعيبونه بها ، حاشاه ، بين رسل الله بل يعيبونه بها بين عامة الخلق من عباد الله .

ولو كان محمد كما أرادوا أن يكون طالب متعة في زواجه لكان على النقيض مما كان .

لو كان كما أرادوا لكان في حريمه عشرات من أجمل العقائل والجواري ، من بيوت العرب ومن سبايا العجم والروم ، يرفلن في الحرير ويتحلين بالذهب والجوهر ، ويأكلن على سماط كسماط قيصر وكسرى وبلقيس .

ولكنه كان وحوله من الزوجات الكهلة والشيخة والتي مات عنها زوجها والتي عز عليها الزواج من غيره ، ولم تكن بين هؤلاء غير فتاة عذراء واحدة هي بنت صديقه ابي بكر الصديق ، وكن جميعا يشكين قلة المؤنة وشظف العيش ويخيرن بين الطلاق وبين البقاء على هذه الحال : «يا أيها النبي قل لازواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » .

واذا بحثنا عن بواعث الزواج النبوي كلها لم نجد بينها غير باعثين اثنين كان لهما الاثر الاول والاخير في اختياره عليه السلام لكل زوجة من زوجاته : وهما مصلحة الدعوة والمروءة العالية .

فقد بنى بثلاث من زوجاته لانهن بنات أصحابه الاوائل : أبي بكر وعمر

وعثمان ، وليس للاخوة في الله من سند انساني في بلاد العرب أوثق من الاخوة في النسب والمصاهرة .

وأولى زوجاته خديجة رضي الله عنها كانت في نحو الاربعين يوم بنى بها وهو في نحو الخامسة والعشرين ، ولم يكن وفاؤه لها وفاء الحس والمتعة ، لانه فضلها على اصغر زوجاته ، وأحبهن اليه : عائشة بنت الصديق ، عليهما الرضوان . .

وكانت أم سلمة مسنة حين قتل زوجها عبدالله المخزومي في واقعة أحد ، ورملة بنت أبي سفيان تركت أباها لتسلم وتركت وطنها لتهاجر ، وفارقها زوجها بغير عائل وهي في الحبشة ، فطلبها النبي من النجاشي وتزوج بها لكي لا ترتد وهي عائدة الى أهلها . وصفية الاسرائيلية خيرت بين العودة الى قومها وبين العتق وزواج الحرائر غير السبايا فاختارت زواجها بالنبي عليه السلام .

وأكرم ما كان من بواعث المروءة في اختيار زوجات النبي قد كان ذلك الزواج الذي خاض المبشرون في حديثه ،وزعموه عشقا غلبه على نفسه الكريمة ، حاشاه ، فطلقها من فتاة زيد ليضمها اليه .

فقد كانت زينب زوجة زيد بن حارثة من بنات عمومته عليه السلام رآها منذ طفولتها الى يوم زفافها ، ولم تكن من الغريبات اللاتي يفاجأ برؤيتهن لاول مرة في بيوت أزواجهن ، وانما كان كرم النبي هو الذي حبب اليه أن يرفع من شأن الاسير الغريب فيجعله أهلا لمصاهرته ومصاهرة بني هاشم من أبناء عمومته ، وقد شق على الفتاة ان تسكن الى العيش مع رجل من غير اكفائها ، ثم شق على زيد ان يواجه النبي بتسريح بنت عمته بعد ما كرمه بمصاهرته ، فكان كرم النبي باعثه على اعفاء الزوج من ضنك هذه العشرة واعفاء الزوجة من اهمال يصيبها بعد طلاق يذلها ، ثم يقصي عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين الى مطلقات الارقاء ، وتمت القدوة كما أرادها الانسان بمروءته ، وأرادها النبي

بتشريف الاسير وجبر الخاطر الكسير .

وان الانسان ـ حق الانسان ـ ليعرف من أمر محمد في اختيار زوجاته جانبا من المروءة المثلى في صاحب الدعوة الالهية ينبىء عن تلك العظمة الانسانية التي تمثلت في مكانة الرجل بين صفوة الابطال من عظماء الرجال ، فهو كذلك لانه انسان عظيم ، غاية ما ترتقي اليه شمائل الرجل العظيم .

***

ولقد كانت معاملة محمد لنسائه صفحة اخرى من صفحات تلك المروءة التي يسمو بها ـ انسانا عظيما ـ الى شرف الرسالة الالهية . فمن وصاياه ، نبيا ، ان خير الناس خيرهم لنسائهم ، ومن رعايته لهن ، انسانا ، قد ضرب للرجال مثلا يعلو على غاية الغايات في العمل بتلك الوصية ، فما من رجل مضت له في العشرة الزوجية سنوات طوال لم تفلت من لسانه الكلمة النابية ولم تبد على وجهه اللمحة القاسية ، ولم يلق امرأته بحالة من الشدة تبدر من الرجل للمرأة كما تبدر من المرأة للرجل ، وهذه سيرة محمد مفصلة مطولة لم يهمل رواتها خبرا من أخبارها ولم يسقطوا حديثا من أحاديثها التي تؤثر بالنقل والرواية ، فما انتقلت الينا منها كلمة زجر ولا نظرة سخط ولا لمحة تأنيب أو زراية ولم يكن له في حالة غير حال الرضا موقف أشد من موقف العتاب في صمت أو السؤال في غير اقبال ، وتلك شيمة من شيم الرفق الانساني تتلاقى عندها طبائع الملائكة وطبائع البشر من أبناء آدم وحواء .

وليس هذا من صنيع رجل لا يعرف الغضب فليس من لا يعرف الغضب بإنسان ! ولكنها قدرة على النفس حيث تحمد القدرة في موضعها ، وهي أحمد ما تكون من رجل اذا غضب حق الغضب استطاع ان يوقع بمن يغضب عليه ما ليس في طاقة الاقوياء بله الضعفاء ولقد غضب النبي على اناس خدعوه وكفروا نعمته وقتلوا الآمنين من رجاله واستدرجوهم ليعلموهم الدين كما زعموا فغدروا بهم

وانتزعوا منهم ما أحسنوا به اليهم ، فغضب الانسان محمد ، والنبي محمد ، حيث يعاب الرضا والهوادة .

غضب على الغدر والشر والخداع والغلظة ، وجزاهم الجزاء العدل وهم غير أهل للرحمة ، ولم يحرمهم الرحمة وهي ليست عنده أو ليست من الزم شمائله ، بل حرمهم رحمته ورحمة الله لان الرحمة بهم قسوة على كل خلق شريف في الانسان ، فكان غضبه سواء لرفقه ورحمته في خير ما يحمد من انسان .

ولقد يكون الضعف الانساني خير مقياس للعظمة الانسانية في أرفع مراتبها ، بل هو في الواقع أصدق فياسا للعظمة الحقة من منازلة الابطال الاشداء من الرجال فان من يغلب بقدرته قدرة تصارعها وتضارعها عظيم ، ولكن القدرة التي هي أعظم من قدرة القاهر الغلاب قدرة تغلب نفسها باختيارها لترفق بالضعيف الذي لا طاقة له بقهرها ولا غنى له عن رفقها ولا أمل له في النصفة من غيرها ، ولا حصر لمآثر النبي التي شمل بها الضعفاء في عنفوان قوته ونصره ، ولكننا قد نحصرها كلها اذا ذكرنا منها تلك المروءة التي حببت اليه أن يجبر خاطر الاسير الضعيف المنقطع عن أهله ، فيرفعه الى مقام مصاهرته في أقرب الناس اليه ، وتلك آية من ايات « الانسانية » الحقة أروع ما فيها ان تأتي من النبي العربي القرشي الهاشمي ، وليس أحق منه باعتزاز النسب في مقام المصاهرة .

ان محمدا الصديق لانسان في الذروة من عظمة الانسانية .

وان محمدا رب الاسرة لفي الذروة من رفق الانسانية .

وان محمدا المنتقم لفي الذروة من بأس الانسانية وعدل الانسانية والرحمة بالانسانية .

وان محمدا السيد لفي الذروة من بطولة الانسانية .

وان محمدا الاب قد عرف ضعف الانسان فبكى بكاء الانسان ، فكان في

موضع ضعفه نعم الاب الانسان ، ونعم النبي المرسل في آن .

بكى وهو يحمل جثة وليده الصغير ابراهيم على يديه ، ونظر الى الجبل فقال : « يا جبل ! لو كان بك مثل ما بي لهدك . ولكن انا لله وانا اليه راجعون » .

وكان النبي الصادق الامين أقرب ما يكون يومئذ من الانسان الباكي الحزين ، فلما انكسفت الشمس وقيل انها انكسفت لموت ابراهيم أبت النبوة على الاب أن يبلغ بالبنوة هذا المبلغ في سورة الوجد عليها ، فقال الاب الذي انكسفت الشمس حقا في عينيه :«كلا ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا حياته » .

بهذا الحزن الصادق وهذا الصدق الحزين استحق الانسان محمد بمشيئة الله أن يصبح رسوله إلى الناس : والله أعلم حيث يجعل رسالته ، كما قال عنه من قال :

ومحمد « الانسان » هو الذي استحق كرامة النبوة فصنع في تاريخ الكون ما لم يصنعه قط انسان سواه : أربعمائة ألف ألف من بني الانسان هم اليوم في مشارق الارض ومغاربها يقرنون اسمه باسم خالق الارض والسماء كل صباح ومساء : لا اله الا الله محمد رسول الله .

ليلة القدر

ليلة القدر خير من الف شهر . .

والمتفق عليه بين جلة المفسرين أن ليلة القدر شرفت هذا التشريف لنزول القرآن الكريم فيها ، ولا خلاف بينهم على هذا المعنى ، ولكنهم ـ كعادتهم في تحقيق كل دقيقة وجليلة من تفاصيل الآيات والاخبار القرآنية ـ يفسرون نزول القرآن على كل وجه من وجوهه المحتملة . اذ يجوز أن يكون المقصود به ابتداء النزول كما يجوز أن يقصد به نزول الكتاب كله جملة واحدة ، ويشير القرطبي وابن كثير الى قول القائلين ان ليلة القدر اسم جنس لجميع الليالي التي تنزلت فيها الآيات ، قد تبلغ عدتها عشرين أو أكثر من عشرين ليلة على هذا الاحتمال ، ولكنه قول لا يأخذ به الكثيرون وإن أخذوا بتعدد الليالي التي تنزلت فيها آيات الكتاب .

والمفسرون الذين يحققون ان ليلة القدر ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان يرجحون انها احدى لياليه العشر الاخيرات ، وانها على الارجح ليلة السابع والعشرين منه لاسباب لا محل لتفصيلها في هذا المقام .

ومن المفسرين من يرى أن نزول القرآن الكريم جملة واحدة هو المقصود بنزوله في ليلة القدر يعززون رأيهم بأن ابتداء نزول الآيات كان نهارا ، ولم يكن في ليلة من الليالي . لانه من المتواتر ان النبي عليه السلام خوطب بأول آية كريمة وهو عاكف بغار حراء ، وقيل له (اقرأ) فقال : ما انا بقارىء ، الى آخر ما ورد

في الحديث المشهور ، ولكن الامر الـذي لا خلاف فيه أن سورة العلـق التـي افتتحت بهذه الآيات قد تمت بعد ذلك لما ورد فيها من الاشارة الى الامور التي حدثت كما قال الاستاذ الامام « بعد شيوع خبر البعثة وظهور أمر النبوة وتحرش قريش لايذائه عليه السلام » .

فلا خلاف على وجه من الوجوه في تشريف ليلـة القـدر لنـزول القـرآن الكريم فيها آيات متفرقة أو جملة واحدة ، وأن حكمتها الكبرى انها هي ليلـة الفرقان كما جاء في سورة الدخان « انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم » .

فهي ليلة القدر لانها ليلة التقدير والتمييز بين الخير والشر والتفريق بين المباح والمحظور ، والامر بالدعوة والتكليف ، وهو اشرف ما يشرف به الانسان لانه هو المخلوق المميز بالتكليف والمخصوص بالتمييز بين جميع المخلوقـات ، ومن أجل هذا فضل على الملائكة لانها لا تتعرض لما يتعرض له الانسان من فتنة التمييز بين المباح والمحظور وفضيلة الوصول الى الخير والامتناع عن الشر بمشيئة الحي المكلف المسؤ ول ، وقد افتتحت دعوة محمد عليه السلام بالامـر بالقـراءة واقترن تمييز آدم على الملائكة بفضيلة العلم كما جاء في وصف الخليقة من الكتاب المبين : « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم ، واذ قال ربك للملائـكة انـي جاعـل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفـك الدمـاء ونحـن نسبـح بحمدك ونقدس لك ، قال اني أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتـم صادقـين ، قالـوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا ادم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال ألم أقـل لكم انـي أعلـم غيب السمـوات والارض واعلـم ما تبـدون ومـا كنتـم تكتمون » .

وقد جاء ود... لانسان بهذه المزية بعد الامر بالقراءة في أول آية خوطب بها عليه السلام : « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .

وهكذا ينبغي أن نفهم معنى القرآن ومعنى الفرقان ومعنى التقدير والتمييز الذي خص به الانسان ، ومعنى الامر الحكيم الذي يفرق في ليلة القدر ، بأمر العليم الحكيم .

فالشرف الذي فضلت به ليلة القدر انما هو شرف التقدير والتمييز ، وشرف القرآن والفرقان ، وشرف التكليف الذي رفع به الانسان الى منزلة أشرف المخلوقات وحق عليه أن يذكره لانه محاسب عليه ، فيذكر في كل يوم وليلة انه مسؤ ول عما يفعل ، وانه مشرف بين الخلائق جميعا لانه مناط السؤال والحساب .

وعلى هذا المعنى وحده ينبغي أن نفهم التقدير الذي يرتبط بنزول القرآن وبأمر القراءة والعلم الذي يفرق به كل أمر حكيم .

ومن حقائق البداهة التي يدين بها المؤمن بالله انه سبحانه وتعالى يقدر الاقدار ويقسم الارزاق ، ويحيي ويميت ، ويجري قضاءه في صروف الحوادث واطوال الحياة والاحياء ، ولكن اقتران ذلك بليلة واحدة من ليالي الزمن أمر لا يقول به المؤمن بالاله الواحد السرمد الذي لا أول له ولا آخر ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وانما يتخلف هذا الاعتقاد من بقايا الاديان التي ظلت تعدد الارباب وتخص كل رب منها بوقته وسمائه ، أو تشبهه بما يعده الانسان من أعمال أصحاب التصريف والسلطان من بني نوعه المحكمين فيه ، وتجعل للسعود والنحوس اياما تتعلق بمطالع النجوم ومدارات الافلاك ، ويستنزلها العارفون بأسرار النجوم عندهم توسلا اليها بشفاعة القرابين والضحايا ورموز الطلاسم والعبادات .

ومن بقايا تلك العقائد الوثنية تسربت عقيدة التقدير في احدى ليالي السنة ، وسرت الى بني اسرائيل بعد اختلاطهم بعباد النجوم والارباب الارضية

أو الفلكية في أرض بابل فأخذت سبيلها مع سائر الخرافات والاسرائيليات الى عامة المسلمين ، فظهرت في تلك الاساطير التي أحاطت بأخبار ليلة القدر وعدلت بتلك الليلة المباركة عن معناها الذي يتصل به شرف الانسان وشرف التمييز والتكليف الى معنى يناقضه ويبطل حكمته ويبطل حكمة الاسلام في جملته ، لانه يرتهن السعادة والشقاء والمثوبة والجزاء بغير الاعمال والمقاصد ويعود بها الى أرصاد الليالي والايام ورموز الشفاعات والقرابين .

كان قدماء البابليين يحتفلون بسنتهم الزراعية ويبتهلون الى أربابهم في مطلعها أن يغدق فيها المطر ، ويورق فيها الشجر ، ويجعلها سنة أمن ورخاء ونعمة وثراء ، لاعتقادهم ان أرباب النجوم تقضي في الليلة الاولى من مطلع السنة كل ما يقضى من أمور الخصب والجدب والرزق والحرمان والحياة والموت ، وكان من عقائدهم ان للاعمار شجرة تخضر أوراقها او تذبل مع اخضرار الشجر على الارض وذبوله ، فمن كتب له العيش اخضرت ورقته ، ومن قضي عليه بالموت ذبلت ورقته وسقطت فلم يبق منه غير عود كعيدان الحطب بغير روح ، وكان من عقائدهم مع هذا ان اخضرار الورقة وذبولها مرتهنان بمراسم الصلاة وطلاسم السحر التي يتولاها الكهان ويفرضون من أجلها القرابين والهدايا على طلاب الصلوات والدعوات .

وقد نقل الاسرائيليون كل ذلك الى عيد من أعيادهم التي اختلطت فيها عبادة الاله بعبادة الارباب الوثنية ، ثم تسربت منهم الى عامة المسلمين ، وانخدع بها من غير العامة من كان يحسب ان القوم ينقلون ذلك عن مصادر الكتاب الصحيحة ، فأضافوا الى ليلة القدر اكثر ما كان يقال عن مراسم السنة الزراعية عندالبابليين ومراسم التكفير عند كهان اسرائيل .

ولعل انتقال بعضهم بليلة القدر الى منتصف شهر شعبان ، مع وضوح نسبتها الى شهر الصيام في القرآن الكريم ، انما جاء من ذلك الاعتقاد القديم في

السنة الزراعية اذ كان شهر شعبان انما سمي بذلك لانشعاب عيدان الشجر فيه على ما جاء في روايات الجاهلية ، فهو أشبه بما كان يقال في بابل القديمة عن شجرة الحياة وعما يعرض لها من « انشعاب » الاعمار بين الاخضرار والذبول .

لكنه في الواقع « انشعاب » آخر بين العقائد الاسلامية في صميمها وبين العقائد التي تخلفت عن عبادة الاوثان والارباب من دون اللّه .

فالعقيدة الاسلامية في صميمها لا تتمثل في شيء كما تتمثل في التكليف والتمييز ، وفي المخلوق العاقل المسؤول الذي يدان بعمله ولا يصيبه الجزاء أو الغفران من عمل غيره ، وهنا تنشعب العقائد بين ليلة القدر في شريعة المسلم وبين اشباه هذه الليالي في كل شريعة يناط فيها قدر الانسان بغير الاعمال والنيات وان المسلم ليعود الى اسلامه الصحيح كلما احتفل بليلة القدر ، وهو يذكر انها ليلة فرقان وحساب ، وانه يدعو اللّه فيها ليشرف بما شرفته به الليلة المباركة من آيات التقدير والتذكير .

القصّة في القرآن الكريم

القصص في اللغة هو تتبع الاثر لمعرفة المكان الـذي نزل به أصحابـه أو سلكوه .

ومن هنا قيل للحكاية عن القوم انها قصة ، لان من يحكي عنهم يتتبع أثرهـم ليعرف خبرهم ، فهو يقص سيرتهم في الزمان ، كما تقص السـير في المواقع والجهات .

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بالمعنيين في سورة واحدة . فجاء في سورة الكهف : « فارتدا على آثارهما قصصا » بمعنى تتبع الاثر لمعرفة الطريق ، وجاء فيها : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهـم وزدناهـم هدى » بمعنى تتبع الخبر في التاريخ .

ولكن كلمة القصص في القرآن الكريم تنصرف على عمومهـا الى معنـى الهداية الى الاخبار والآثار الباقية من سير القرون الغابرة ، وهي تساق في الكتاب لمقاصد كثيرة تجمعها كلها هذه المقاصد الثلاثة :

فهي تساق للعبرة والموعظة ، أو تساق للقدوة وتثبيت العزيمة ، أو تساق للتعليم والهداية .

وتتلى قصص العبرة والموعظة في القرآن الـكريم لتـذكير الاحياء بمصائـر الغابرين من الامم الاولى ، وكانت توصف بأنها أساطير الاولـين من الـكلام

المسطور أي المكتوب ، وقد تكون الكلمة أحدى الالفاظ التي تعربت عن اليونانية ، لان « الاستوريا » عندهم بمعنى الخبر المسجل أو المعروف ، ولا يبعد أن يكون اليونان قد أخذوها عن العرب لانهم أخذوا الكتابة عن الامم السامية وسبقهم عرب الشمال وعرب الجنوب الى رسم الحروف ، ولا تزال أسماء « الالفا والبيتا والجما » عندهم منقولة من الالف والباء والجيم ، بل يرجع أن كلمة « كلموس » اليونانية أي « القلم » منقولة عن العربية ، لان القلامة أصيلة فيها ، ومن مادتها « القصم والقضم والقطم والقحم والقرم » وكلها تفيد القطع كما يفيده التقليم ، وكذلك السطر والشطر بمعنى الخط أو القط في العربية ، يقال سطره وشطره وخطه وقطه بمعنى واحد ، فليس من البعيد أن تنتقل هذه الكلمات مصاحبة للكتابة التي لا شك في انتقالها من الامم السامية الى اليونان .

وقد ترددت في القرآن الكريم أخبار الاولين على سبيل العبرة والموعظة ، وكان مدارها جميعا على تحذير الامم الباقية من الاغترار بالمتعة . . كما اغترت بها الامم الخالية ، وكانت هذه العظات الزم العبر لتلك الامم التي آمنت بالاوثان والارباب ولم تؤمن بالوحدانية ، فانها اذا علمت أن أربابها لا تحميها من الكوارث ، ولا تقدر على أصابتها بها ، ذهب ايمانها بتلك الارباب ، ووجب عليها أن تبحث عن قوة الهية تملك القدرة التي عجزت عنها معبوداتها .

وفي القرآن غير القصص التي تدعو الى العبرة بمصير الكافرين أنباء تروى عن الانبياء الذين أرسلوا الى الامم الغابرة ، فكذبتهم وتنكرت لهم ، ثم ظهرت دعوتهم وحاقت النقمة بمن كذبوهم وانكروهم ، وبقيت قدوتهم لينتفع بها من يعمل عملهم ، ويقفو أثرهم ، ويلقى من قومه مثل ما كانوا يلقونه من أقوامهم . . « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » كما جاء في سورة هود .

وهذه على الجملة حكمة القصص التي جاءت في الكتاب عن جهاد الرسل وعاقبة الصبر على الدعوة ، تثبيتا للافئدة وتبشيرا للدعاة والمصلحين بعاقبة الصبر على الجهاد .

***

ومن قصص التعليم والهداية في القرآن قصة موسى والخضر عليهما السلام ، يرى بعض المفسرين أنها درس لاصحاب الشرائع يفرقون به بين شريعة الظاهر وشريعة الباطن كأنهما على اختلاف ، كما اعتقد أناس من القائلين بالاسرار والاشارات الخفية ، ويرى الثقات أن القصة درس لاصحاب الشرائع حقا ولكنهم يفهمون من هذا الدرس ان سعة العلم من شروط القضاء بين الناس ، وان العدل منوط بمقدار ما يعلمه الحاكم من شؤونهم وحقائق أحوالهم وأسباب مصالحهم ، فلا يتساوى في العدل قاض يعرف تلك الأحوال على حقائقها واخر ينظر فيها بما يبدو له من ظاهرها ، وذلك درس لا غنى عنه لمن يقضي بشريعة من الشرائع تجري على قسطاس واحد ولا يختلف فيها ظاهر وباطن ، كما يعتقد القائلون بالاسرار والاشارات الخفية ، فلا حاجة بالقاضي العادل الى غير العلم بحقيقة القضية التي بين يديه ، ثم لا يختلف فيها بعد ذلك قولان .

ومن الواجب أن نذكر ان قصص القرآن جميعا تساق للموعظة والتعليم وحسن القدوة ، وانها تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سياق أو مقصد يعنى به الدين . فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين ، وليست حكمتها موقوفة على شيء غير ما فيه الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها الناس .

ولكن الجانب التاريخي المحض من القصص الديني قد كان له درسه النافع للمتعجلين من ادعياء التحقيق ـ العلمي ـ منذ أوائل القرن التاسع عشر ، لعلهم لا يستغنون عنه بغد انتصاف القرن العشرين . فقد كان ورود الخبر في

كتاب من كتب الدين كافيا عندهم للجزم باختلاقه وحسبانه في عداد الخرافات أو في عداد الخيالات الشعرية التي لم تحدث قط في غير أوهام الشعراء ، فلم تمض سنوات على الشروع في حركة البحوث الحفرية حتى ثبتت علامات الصبغة التاريخية لكل خبر من أخبار تلك الحوادث المشكوك فيها ، وثبت ان علماء التاريخ كانوا خلقاء ان يجهلوا كل شيء عن تلك الحوادث لو لم يعلموا بها من مصادرها الدينية ، قبل ان يتوفروا على حركة الحفر والتنقيب في اثار الشرق الادنى وما جاور بلاد النهرين .

ومن هذه الاخبار ما كانوا يقرءونه في الكتب ويمرون به على غير انتباه لانهم لم يعرفوا له خطرا جديرا بالاهتمام في غير المصادر الدينية ، فشكوا في وجود عاد وثمود وشكوا في حملة الفيل وهلاك اصحاب الفيل ، وشكوا في الزلازل والاعاصير والطوفانات والجوائح والحروب التي سيقت مساق العبرة في قصص القرآن وانفرد بها احيانا بين كتب الاديان ، فلما حققوا الآثار وصححوا المراجعة تبين لهم ان عادا وثمودا من اخبار بطليموس ، وان هلاك اصحاب الفيل من تواريخ الحبش والروم ، وان المدن التي ساخت بها الارض او عصفت بها الرياح حقيقة لا تقل في صدقها عن حقائق طيبة ومنف وطروادة ومسيني ، وان بقايا اللغة تقول لنا اليوم بعد المقارنة بين اللغات كل ما كذبوه من الاصول أو من الصلات بين شعوب الامس وأعراقه في احاديث المتدينين ، وانهم هم في انكارهم وتحقيقهم المزعوم قد أبدعوا لهذا العصر صورة جديدة من صور الخرافة لم تكن مقبولة عند المخرفين الاقدمين . وهي خرافة العالم الذي ينكر ما يجهل ويجهل ما ينكر ، ويظن ان كلمة « التحقيق » وحدها سلطة تخولهم دون غيرهم حق الاستئثار بالرفض والانكار .

واذا أنكر هؤلاء المتعجلون كل شيء في الدين فلعلهم لا يستطيعون ان ينكروا اليوم هذا الدرس الذي تعلموه من كتب الدين ، فقد تعلموا على غير قصد منهم ان التعجل بالانكار جهل شائن كجهل المتعجلين بالتصديق .

رمضان شهر الإرادة

كان منا رجل من رجال الاعمال ، وسفير ، وشاعر ، وكاتب وصحفي ، ومنا المسلمون والمسيحيون ، وجرى حديث الصحة ونظام التغذية المفضل فقال رجل الاعمال : « انني تعودت بين حين وحين ان اصوم اسبوعا أو اسبوعين عن كل طعام غير السوائل وافضل من السوائل عصير البرتقال » .

وقال السفير : « انني أصوم فترة كهذه واكتفي فيها كل يوم بوجبة أو وجبتين من اللبن ، ولكني افضل عليه السوائل الاخرى » .

وقلت : « انني أعالج الصوم مرة في كل اسبوع ، واختار يوما من أيامه للصوم عن كل طعام غير السوائل ، وافضل منها مغلي البابونج أو عصير الليمون الحلو أو عصير البرتقال ، وقد احتاج في أيام الاسبوع الاخرى الى اسقاط وجبة من الوجبات الثلاث ، واكثر ما تكون وجبة العشاء » .

ولا أذكر مما قيل في هذا المعنى غير ما تقدم ، ولكنني على يقين ان القارىء يسمع في مجالسه مثل ما سمعنا في ذلك المجلس وفي غيره فان لم يسمع حديثا عن الصيام لاصلاح المعدة سمع حديثا عنه لاجتناب السمنة او لزيادة نصيب الجسم من بعض الاغذية الحيوية ، او سمع عن الصيام السياسي الذي يراد به فرض رأي او الاحتجاج على معاملة ، فليس اكثر من انواع الصيام في هذه الايام .

ولا حاجة الى الافاضة عن الكلام على انواع الصيام التي يعالجها الجنس اللطيف حرصا على الرشاقة واعتدال القوام ، او رياضة له في سبيل الجمال تشبه

الرياضة التي يعالجها اللاعبون في سبيل القوة والنشاط . فان حديث الصيام من هذا القبيل في كل بيت وكل ناد ، وبلغ من شيوعه انه اخاف المصانع التي كانت تعول على الشراب الخفيف كالجعة والمنقوعات وما اليها وتعلم ان وجود الجنس اللطيف مع الرجال اكبر مشجع على الاكثار من هذه الاشربة ، فاننا نقرأ اخيرا عن الجعة التي تخفف السمنة وعن التي تزيل الرواسب وتحفظ على الجسم « هندامه » واعتدال قوامه .

ووراء هذه المنشورات مصالح تلك المصانع على الاقل في بعض الاحايين .

ليس زماننا اذن زمان الاعراض عن الصيام كأنه عادة من عادات الاقدمين التي عفى عليها الدهر كما يقولون ، بل هو في الواقع زمان تزيد فيه الوان الصيام ولا تنقص ، ويكثر فيه اختلاف انواعه ولا يقل ، فما علمنا من عصر قط انه استحق ان يسمى عصرا « صياميا » كالعصر الذي نحن فيه .

ونقول « الصيام على اختلاف انواعه » لان الانواع التي ذكرناها آنفا ليست هي كل الصيام الذي يشتغل به ابناء العصر الحاضر ، فتلك جميعا انواع « جسدية » تراد لحفظ الصحة أو حفظ الرشاقة او حفظ القوة والنشاط ، وغيرها كثير من انواع الصيام يدرسها ابناء العصر الحاضر ولا يطلق عليها وصف « الانواع الجسدية » . . لانها تراد لتربية الخلق ورياضة النفس وتعويد الانسان ان يملك عاداته كما يشاء .

وقد تفتح باب البحث في هذه « الصيامات » على أثر التوسع في دراسة الاديان والمقارنة بينها ، وعلى اثر التوسع في الدراسات النفسية وعلاقة العقل فيها بالبنية ، وعلى اثر القول بامكان توليد الامراض العقلية وشفائها بتعاطي بعض العقاقير او الامتناع عن بعض اصناف الطعام .

وكثر الكلام على « اليوجا » الهندية ، كما كثر الكلام على عادات

المتصوفين والنساك التي ملكوا بها زمام أجسادهم وضمائرهم ، فلا يقل الكلام على الصيام في سبيل الروح والضمير عن الصيام في سبيل الجوارح والعضلات .

والصيام الذي فرضته الأديان احق هذه الانواع بالبحث عن دواعيه وعن معانيه ، وقد طال القول في أصل الصيام الديني قديما قبل ظهور الاديان الكتابية فلا حاجة بنا الى استقصائه في هذا المقام .

أما حكمة الصيام في الاديان الكتابية فهي محصورة في أغراض معدودة : وهي تعذيب النفس والتكفير عن الخطايا والسيئات ، وتربية الاخلاق على نحو من الانحاء .

والدين الاسلامي هو الدين الكتابي الوحيد الذي فرض كتابه الصيام فترة معروفة من الزمن على نحو معروف من النظام .

ولا خلاف بين الائمة في الحكمة المقصودة بهذه الفريضة وهي تقويم الاخلاقِ وتربيتها ، وان تعددت الاخلاق التي تذكر في هذا المقام .

فمن الجائز كثيرا ان صيام الغني يعلمه الرحمة بالفقير ، ولكنه مقصد لا يشمل الفقراء كما يشمل الاغنياء وكما ينبغي في كل فريضة عامة لا تخصص بانسان ولا بطائفة من الناس .

أما الخلق الذي يعم الاغنياء والفقراء ولا يستفاد من فريضة عامة كما يستفاد من الصيام فهو « الارادة » الزم الصفات لكل انسان . ان الارادة لازمة في كل تكليف وفي كل تبعة وفي كل فضيلة ، فلا قوام للفرائض والفضائل جميعا بغير هذه الارادة .

وهي لازمة للفقير لزومها للغني ، فان كان احدهما احوج اليها من الآخر فهو الفقير . لان الغني قد يجد عنده ما يعوض التفريط في اعمال الارادة والعزيمة والحزم والمضاء ، وليس هذا العوض ميسورا للفقير الا بزيادة الجهد والعناء .

الارادة اذن هي فضيلة الفضائل في الصيام .

ومتى عرفت هذه الحكمة فآداب رمضان كلها محصورة فيها مستفادة من معناها ، ولا حاجة بالصائم الى ادب غير ان يذكر انه يريد الصيام وانه يقوم بفريضة يطلبها ويعلم نفعها ويحمل جهدها ، وان لم تكن مفروضة عليه .

فليس من ادب رمضان ان يتململ الصائم وان يتجهم لمحدثيه وان يبدو منه ما يدل على الضيق بالفريضة كأنه مكره عليها مطيع لها بغير رضاه .

وليس من ادب رمضان ان يهرب الصائم من ارادته بقضاء النهار كله في النوم تاركا للطعام ، لانه غافل عن مواعيده غير متنبه اليه .

وليس من ادب رمضنان ان يفلت زمام الارادة بعد غروب الشمس فلا يعرف الصائم له ارادة تصده عن الافراط في الطعام والشراب الى موعد الامساك .

وليس من ادب رمضان ان يصوم الانسان وهو معرض للتهلكة بصيامه فان من كان مريضا لم تجب الفريضة عليه ولا معنى لاداء الفريضة اذن الا انه يريد لنفسه الهلاك ، وهذا محرم عليه .

كلمة « الارادة » وحدها تلخص آداب رمضان ولا تحتاج الى اسهاب في تفسيرها وتعديد انواعها

ومزية رمضان انه فريضة اجتماعية مع فرصه على آحاد المكلفين ، فهو موعد معلوم من العام لترويض الجماعة على نظام واحد من المعيشة وعلى نمط واحد من تغيير العادات ، وليس اصلح لتربية الامة من تعويدها هذه الاهبة للنظام ولتغيير العادات شهرا في كل سنة ، تتلاقى فيه على سنن واحد في الطعام واليقظة والرقاد وما يستتبع ذلك من أهبة الجماعة كلها لهذا الشهر خلال العام .

واذا استطاعت الجماعة ان « تريد » ذلك التنظيم وذلك التغيير ، فليس

ثمة نمط من انماط المعيشة لا تستطيعه على هذا المثال في الشدة او الرخاء .

رمضان شهر الارادة .

ادبه ادب الارادة ، وحكمته حكمة الارادة ، وليست الارادة بالشيء اليسير في الدين والخلق ، فما الدين وما الخلق الا تبعات وتكاليف ، وعماد التبعات والتكاليف جميعا انها تناط بمزيد .

ومن ملك الارادة فزمام الخلق جميعا في يديه .

لو عاد محمد عليه السلام

من الاماثيل التي تعاد ولا تمل امثولة للكاتب الرومي « ديستيفسكي » عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش في قصة الاخوة كرامزوف .

وخلاصة الامثولة ان السيد المسيح عاد الى الارض وأخذ في وعظ الشعب وتبشيره بالملكوت فأقبلوا عليه واستمعوا له وأوشكوا ان ينفضوا عن وعاظهم ودعاتهم المعهودين ، فأشفق هؤلاء على مكانتهم وأوعزوا الى رئيس محكمة التفتيش فإعتقله وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح ! . . وقال له : ان هؤلاء الذين يقبلون عليك اليوم هم اول الثائرين عليك وأسبق المبادرين الى تنفيذ القضاء فيك . .

أمثولة تعاد ولا تمل لان العبرة بها لا تنقضي في حقبة واحدة ، ولا تزال عبرة الدهر كله في احاديث المصلحين والمفسدين .

ولم يبالغ الكاتب العظيم في تخيله ، فانما يكون مبالغا لو كان ما تخيله بعيدا او غريبا في بابه ، ولكنه في الواقع اقرب شيء الى الاحتمال مع هذه البشرية التي تختلط فيها الشيطانية والخنزيرية والحمارية في وقت واحد ، فلا تزال حربا على من ينفعها والعوبة في أيدي العابثين بها ، وان كرروا العبث بها كل يوم مرات بعد مرات .

لو عاد السيد المسيح لانكره كثيرون ممن يعيشون باسمه وينتحلون هدايته .

لو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك النصيب ممن يرفعون

العقيرة بهداية الاسلام والاسلام بريء منهم ، وكل ما هنالك من خلاف ان المسألة لا تمر بتلك السهولة التي توهمها رئيس محكمة التفتيش أو من يتصدى في الاسلام لمثل عمله ، وانه سيندم على فعلته ندما يكفر عن سيئاته ، ان كانت سيئاته مما يقبل التكفير .

وأسأل نفسي كيف ينتفع المسلمون على أحسن وجوه النفع بعودة النبي عليه السلام فترة قصيرة من الزمن ؟ وما هي المسائل التي يرجعون بها الى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها ؟

أسأل نفسي فتخطر لي مسائل خمس يرجع فيها الى شخصه الكريم ويغني جوابه فيها كل الغناء فلا لجاجة ولا اختلاط ولا حاجة الى الاجتهاد والتأويل من مجتهد أو مقلد وما أشبه الاجتهاد والتقليد في هذا الزمان !

تلك المسائل الخمس هي : مسألة الاحاديث النبوية ، ومسألة الروايات في قراءة الكتاب المجيد ، ومسألة الخلافة والملك ، ومسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، ومسألة المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الاسلام عليها وقول نبي الاسلام فيها .

مسألة الاحاديث النبوية

ان رجال الحديث قد بلغوا الغاية من الاجتهاد المشكور في جمع الاحاديث وتبويبها وتقسيم رواتها وأسانيدها ، وقد جعلوا من أقسامها الثابت والراجح والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علما مستقلا يتفرغ له علماء مستقلون .

وبعد كل هذا الجهد المشكور لا تزيد الاحاديث الثابتة على عشر الاحاديث المتداولة في الكتب وعلى الالسنة .

وكلمة واحدة من فمه الشريف عليه السلام ترد الامور جميعا الى نصابها : « لم أقل هذه الاحاديث !» وينتهي القيل والقال ويبطل الخلاف والجدال ، ويبطل معهما بلاء اولئك المحدثين الذين يستندون الى الحديث الكاذب في التضليل وترويج الاباطيل .

قراءات القرآن

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الاحاديث في اشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فان الروايات التي لم يتفق عليها القراء لا تغير شيئا من احكام القرآن ، ويمكن الاخذ بها جميعا ولا ضرر في ذلك ولا ضرار .

الا انها لا تحتمل اقل اختلاف مع وجود النبي الذي تنزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القراءات ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس الى تلاوته ـ في عصر التسجيل ـ فتلك ذخيرة الابد في ذاكرة الاجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن اول ما يسمعه السامعون في مجالس الذكر الحكيم .

الخلافة والملك

وتأتي مسألة الخلافة ، بل معضلة الخلافة تلك المعضلة التي سالت فيها بحور من الدماء وجداول من المداد ، وبقيت وراء كل انقسام نذكره في الاسلام حين نذكر السنة والشيعة والاماميين والزيديين والاسماعيليين والنزاريين ، وحين نذكر الهاشميين والامويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم وغيرهم من المنقسمين واقسام المنقسمين .

بم أوصيت يا رسول الله في امر الخلافة ؟ وهل أوصيت بها دينية او دنيوية ؟ وهل تريدها اليوم على هذه أو على تلك من صفاتها واحكامها ؟

فاذا قال عليه السلام أوصيت بكذا ولم أوص بكذا ، فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فاذا هي بيضاء من غير سوء ، واذا هي

بقية من بقايا الماضي تحال الى دار المحفوظات للعبرة والحذر او يلقى بها حيث لا حس ولا خبر .

وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال .

الرسالة بعد خاتم المرسلين

والخطب أهون من ذلك جدا في مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، فان المخالفين للاجماع في هذه المسألة واحد في كل خمسمائة مسلم ، وسينتهي خلافهم عما قريب .

ولكن اذا انتهى بكلمة من الرسول الذي يؤمن به المسلمون جميعا فتلك هي النهاية الفاصلة ، وقد تمنع في المستقبل اضرارا لا يقاس عليها ضررها في الوقت الحاضر ، وخير من واحد ينشق على خمسمائة ان يتفق الخمسمائة فلا ينشق منهم واحد .

المذاهب الاجتماعية الحديثة

وما قولك يا رسول الله في دعاة المذاهب العصرية من اجتماعية أو غير اجتماعية ؟

لا حاجة الى السؤال عن الديموقراطية ، فان سابقة الاسلام فيها أصلح من كل سابقة .

ولا حاجة الى السؤال عن الفاشية فان الاسلام يمقت الجبارين والمتجبرين .

ولا حاجة الى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فانها ملعونة في كل دين .

وانما يسأل النبي عليه السلام في الاشتراكية فيقول ما قاله القرآن حيث نهى ان تكون الثروة « دولة بين الاغنياء » . . ثم يسأل عن شرحها فيتلقاه منه المسلمون على أقوم المناهج وأسلم الحلول .

وتأتي على الهامش اسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين في الاحكام والقوانين باسم الدين ، وعن احاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأشباه الصحفيين .

ويسمع من النبي عليه السلام في اولئك كله جواب يغني عن ألف جواب أو عن كل جواب .

ونعود الى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين .

ان كاتب هذه السطور آخر من يؤمن باقناع العقول او بسلطان البرهان في الاقناع .

ان كاتب هذه السطور قد رأى بعينيه اناسا اغرب وأصفق ممن ينكرون الشمس في رائعة النهار .

وليس بالمستحيل عندي أن يعاندك المعاند ويكابرك المكابر في « اثنين واثنين يساويان اربعة وفي واحد وواحد يساويان اثنين » .

بل ليس بالمستحيل عندي ان يكابرك المكابرون في معنى الواحد ومعنى الاثنين وان هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس برقم من الارقام .

فاذا عاد النبي عليه السلام وقضى قضاءه في احكام الاسلام فلا والله لا يعدم الناس من يشكك في كلامه وبيانه وفي ملامح وجهه وعلامات جثمانه ، ولا والله لن يسلس المقاد ممن يلج في العناد ويضيع عليه الجاه أو الغنى بما قضاه الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول .

غير أنه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع اصحابه ولا يطمعون في الرجاء منه حتى تفجأهم الحوادث بالندم عليه ، وصلى الله على محمد في الاولين والاخرين ، فما هو الا ان يعود فلا تعز عليه هداية المهتدين ورياضة الذين لا يهتدون ، فلا يصدون احدا عن الدنيا ولا عن الدين .

لَوْ عَادَ السَّيِّدُ المَسِيح[٧]

في احدى روايات الكاتب الروسي العظيم ـ دستيفسكي ـ بطل من ابطال الرواية يتخيل ان السيد المسيح عاد الى الارض في طوفة عابرة ونزل باشبيلية في ابان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة .

وانه ليمضي بين الشعب يضفي عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم اذا برئيس ديوان التفتيش ـ المفتش الاعظم ـ يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير الى الحراس ويأمرهم ان يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء في انتظار التحقيق .

ويأتي المساء فيذهب المفتش الاعظم الى الحجرة ويقول للرسول الكريم : « انني اعرفك ولا اجهلك ، ولهذا حبستك ، لماذا جئت الى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقي العثرات والعقبات في سبيلنا »؟

ثم يقول له فيما يقول : « انك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة . كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم . . والآن وقد عرفنا نحن داءهم واعفيناهم من ذلك التكليف ، واعدناهم الى الشرائع والشعائر ، تعود الينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟

« ليس اثقل على الانسان من حمل الحرية ، وليس اسعد منه حين يخف عنه

محملها وينقاد طائعا لمن يسلبه الحرية ويوهمه في الوقت نفسه انه قد اطلقها له وفوض اليه الامر في اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان من جديد ان يفتح عينيه وان يتطلع الى المعرفة وان يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء»؟

« انك منحتنا السلطان قديما وليس لك ان تسترده ، وليس في عزمنا ان ننزل عنه ، فدع هذا الانسان لنا وارجع من حيث اتيت ، والا اسلمناك لهذا الانسان غدا وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك واخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا الشعب الذي لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا ان نخلصه منك وان ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين » .

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التي تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار « ان السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس او ازورار ، وتقدم الى المفتش الاعظم ـ وهو شيخ فان في التسعين ـ فلثم شفتيه وخرج الى ظلام المدينة وغاب عن الانظار » .

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الآخر الذي يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم .

ولا نحسب ان الخيال في هذا الخطاب العجيب بعيد عن الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الاعظم حين انذر الرسول الكريم ان يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد ان أحاط به ولثم قدميه وتوسل اليه .

كلا . . ان الخيال في ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة ، واقرب شيء الى طبائع الناس ان يصنعوا ذلك الصنيع وان يتبعوا المفتش الاعظم في نقمته على الرسول الكريم .

وأقرب شيء ان يكون لو عاد السيد المسيح الى الارض ان ينكر الكثير مما

يعمل اليوم باسمه وان يجد بين اتباعه كتبة وفريسيين ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد ان السبت للانسان وليس الانسان للسبت ، وان العبرة بما في الضمائر لا بما تفوه به الالسن ويبدو على الوجوه ، وان الوحي في طوية الانسان لا في طوايا الكتب والاوراق .

أقرب شيء ان يكون ان ينعي على الناس ما نعاه قبل الف وتسمعائة سنة ، وان يجد انسان اليوم كانسان الامس في شروره وعداوته ، وفي نفاقه وشقاقه ، وفي اعراضه عن اللباب واقباله على القشور ، وفي استعلائه بالتقوى حين يتقي ، ولجاجه في الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدي ، خمرا جديدة في زق قديم .

ذلك اقرب شيء ان يكون .

واقرب شيء ان يقال اذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، ان يردد اللسان قول أبي العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدي الى غناء اجتهاد

ففيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشهداء ؟ وفيم يأتي الانبياء ويذهبون ؟ وفيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون ؟ فيم كان هذا ؟ فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان او بغير احسان .

جاءوا وعادوا . .

وانصرفوا والبلاء باق ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي جاءت في صورة الخيال .

ولكن الحقيقة الكبرى التي توزن بها جميع الحقائق هي ان الحقيقة لا ترى

من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التي تخلد على الزمن في أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه أنى يكون .

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المسافة ، يرحل اليه الانسان ثم يصل اليه ويقعد عنده ، ويكف بعده عن كل عناء .

إنما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الانسان شوطا بعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوما الا لينظر بعده الى جهاد مستأنف ولا يودع الشر في مرحلة من مراحله الا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه في سلام .

ومطالبنا المحسوسة تهدينا الى القياس الصحيح في هذه المشكلة ، وهي أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التي تعتلج بالضمير وتبعثه الى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات .

منذا يقول ان عناء التعليم باطل اذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو في الخامسة ، ورآه يحمله وهو في العاشرة ، ورآه يحمله وهو في العشرين ثم في الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة لا يستغني عن علم ولا يقضي على الجهل كل القضاء ؟

منذا يقول ان عناء الطب باطل اذ رأى الناس يمرضون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم في الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء .؟

منذا يقول ان الغاية عبث لأن الطريق اليها طويل ، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله في غاية كحرية الضمير هي سر الأسرار في حياة الانسان منذ كان وأنى يكون ؟

ليست العبرة ان الشر واقع ، ولكن العبرة كيف ننظر اليه وكيف نواقعه او كيف نتقيه .

واذا وقع اثنان في الشر ، فليس الذي وقع فيه وهو مستريح اليه مستزيد منه ، كالذي وقع فيه وهو مضطر اليه نادم عليه ، وليس الذي وقع فيه وهو يعلمه كالذي وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار .

إنما الانسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير ، وإنما يقاس ضمير الانسان بالقيم التي يقومها والمثل العليا التي يتمثلها ، والمطالب التي يطلبها وينالها أو لا ينالها ، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الانسان قيمة يغليها ويرفعون أمامه مثلا أعلى يتسامى اليه . . فهم عاملون وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وإن دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الاحصاء .

واذا قلنا يوما ان الانسان في هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين انه افضل من الانسان الذي كان لا يطلبه ولا يعرفه ، وان عمله غير مطلوب وغير معروف كما يعمل الحيوان .

إنما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ، وبما تزيده من نصيب الانسان في حرية الضمير أو في حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الأديان كثيرا ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغني الانسان يوما عن جهاد الضمير .

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء .

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء إنهم جهلاء .

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم اذا اعتقدوا أن دينا من الأديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لأن الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغي ، باق فيها الكفران .

أي فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة في « الألفية » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب الى التقدير الصحيح من اولئك العارفين ، لأنهم يفكرون وينتظرون « الألفية » . وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير !

****

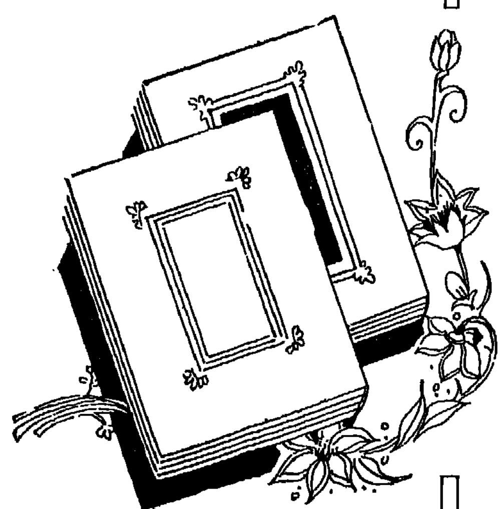
لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه ، ولصنع كثيرا بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التي يصنع فيها الهداة صنيعا كثيرا خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير .

ولن يختم المسيح العائد الى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هي شوط الضمير الذي لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام .

وسيعلم الناس في العصر الحديث ـ ان لم يكونوا قد علموا حتى اليوم ـ أن عقيدة الانسان شيء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعي أو ممتنا عليه ، ولكنها هي ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، ان احتاج الى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه لمرضاته . فالعقيدة مسألة الانسان ، لا شأن للانبياء بها الا لأنها مسألة الانسان ، وعليه اذا عالج اصلاحه ان يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها الى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة الى آخر الزمان .

الفصل الثاني عشر

في الشعر العربي



المذاهب العربية

نظم الشعر في اللغة العربية فن مستقل بذاته بين الفنون التي عرفت في العصر الحديث باسم الفنون الجميلة ، وتلك مزية نادرة جدا بين أشعار الأمم الشرقية والغربية ، خلافا لما يبدر الى الخاطر لأول وهلة . . فان كثيرا من أشعار الأمم تكسب صفتها الفنية بمصاحبة فن آخر ، كالغناء أو الرقص أو الحركة على الايقاع . ولكن النظم العربي فن معروف المقاييس والأقسام بعد استقلاله عن الغناء والرقص والحركة الموقعة ، فلا يصعب تمييزه شطرة شطرة بمقياسه الفني من البحور والأعاريض ، الى الأوتاد والأسباب .

وليست هذه خاصة من خواص اللغات السامية اخوات العربية . فاننا اذا أخذنا سطرا على حدة من قصيدة عبرية لم نستطع ان ننسبه الى وزن محدود أو مقياس متفق عليه ، ولا بد من اقترانه بسطور اخرى يتم بها الايقاع ولا تطرد في قول كل شاعر ولا في سطور كل قصيدة فهو والفاصلة النثرية التي يمكن أداؤها بالغناء أو بالايقاع على حركة الرقص ، متساويان .

ومن الشعر الغربي ما يعرف كل سطر منه بعدد من المقاطع والنبرات ، ولكنه بغير قافية تنتهي اليها هذه السطور .

أما ضروب النظم التي تلتزم فيها القافية ، فكلها في نشأتها كانت تغنى او تنشد على ايقاع الرقص ، ثم استقلت بأوزانها المحدودة على نحو مشابه للأوزان العربية ، وهي الموشحات التي اشتهرت عندهم باسم « استانزا » أو اسم

« سونيت » ويدل كلا الاسمين على أصلها من الرقص والغناء . . فان استانزا كلمة ايطالية بمعنى الوقوف تقابلها ستاند stand بالانجليزية ، وسونيت sonnet من كلمة سونج song بمعنى الغناء .

فالشعر الذي لا يضبط بالوزن او بالقافية موجود في اللغات السامية واللغات الآرية ، وبعضه لا يزيد الايقاع فيه على الموازنة بين السطور بغير ضابط متفق عليه ، وبعضه يضبط فيه الايقاع بعدد المقاطع والنبرات ، ولا ينتهي الى قافية ملتزمة في القصيدة او المقطوعة الصغيرة إنما الوزن المقسم بالأسباب والأوتاد والتفاعيل والبحور خاصة عربية نادرة المثال في لغات العالم . وكذلك القافية التي تصاحب هذه الأوزان .

ومرجع ذلك الى أسباب خاصة لم تتكرر في غير البيئة العربية الأولى : أهمها سببان : هما الغناء المنفرد ، وبناء اللغة نفسها على الأوزان .

فالامم التي ينفرد فيها الشاعر بالانشاد تظهر القافية في شعرها . . لأن السامعين يحتاجون الى الشعور بموضع الوقوف والترديد ، ولكن الجماعة اذا اشتركت في الغناء لم تكن بها حاجة الى هذا التنبيه ، لأن المغنين جميعا يحفظون الغناء بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والترديد في كلماته وفقراته ، فينساقون مع الايقاع بغير حاجة الى القوافي عند نهاية السطور ، وإنما تنشأ الحاجة الى القافية ، أو وقفة تشبه القافية عند تفاوت السطور وانقسام القوم الى منشدين ومستمعين .

يقول العلامة جلبرت موري ـ وهو من ثقات البحث في الأوزان والأعاريض ـ « إن احدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية في اللغات الحديثة . ففي اللغتين اللاتينية واليونانية ينظمون بغير قافية لأن الأوزان فيهما واضحة ، وانما تدعو الحاجة الى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الأذن بعلامة ثابتة للوقوف . . وبغير هذه العلامة تثقل الأوزان وتغمض ولا تستبين للسامع مواضع الانتقال والانفصال . بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام

منظوم أو كلام منثور . وقد اختلف الطابعون عند طبع الكتب هذا الاختلاف في بعض المناظر المرسلة من كلام شكسبير ، فحسبها بعضهم من المنثور وحسبها الآخرون من المنظوم . ومما يلاحظ ان اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه الى النسبة العددية . . وأن الصينيين يحرصون على القافية لأنهم يلتزمون الأوزان ، وان انتشار القافية في أغاني الريف الانجليزية يقترن الترخص في أوزان الأعاريض » .

ويستطرد الاستاذ موري الى الشعر الفرنسي فيقول : « إن اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن الى مجرد احصاء للمقاطع ، وأصبحت المقاطع بين مطولة وصامتة ـ نشأت فيها من أجل ذلك حاجة ماسة الى القافية ، فصارت في شعرها ضرورة لا محيص عنها ، ودعا الأمر الى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه » .

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية في أشعار الغربيين سبب لم يذكره الاستاذ موري ، وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ كما تقدم .

فحيث شاعت اناشيد الجماعة قل الاعتماد على القافية وكثر الاعتماد على حركات الايقاع ولو لم تكن متناسقة الوزن على نمط محدود ، لأن الغناء بالكلام المنثور ممكن مع توازن الفواصل وموازاة السطور .

وأناشيد الجماعة قد شاعت بين العبريين لأنهم قبيلة متنقلة تحمل تابوتها في رحلتها وتنشد الدعوات معا في صلواتها الجامعة ، وفي هذه الدعوات ترانيم على وقع الدفوف كما جاء في الأصحاح الخامس عشر من سفر الخروج حيث « أخذت مريم النبية الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص . وأجابتهم مريم : رنموا للرب فانه قد تعظم . . » .

وكذلك شاعت بين اليونان أغاني المسرح التي ترجع في نشأتها الى الشعائر الدينية ، ثم انتقلت منها الى الأمم الأوروبية .

ومما يؤيد الصلة بين غناء الفرد والتزام القافية ان شعراء الأمم الغربية الذين ينشدون قصائدهم للمستمعين قد لجأوا الى القافية والتزموا في مراعاتها احيانا ما يلتزمه عندنا شعراء الموشحات .

أما البيئة العربية فلم تكن فيها قبل الاسلام صلوات جامعة منتظمة بمواعيدها ومحفوظاتها ، وإنما كان الحداء هو الغناء الذي يصاحب انشاد الشعر على بساطة كأنها بساطة الترتيل ، ينشده الحادي على انفراد وتصغي اليه القافلة احيانا في هدأة الليل ، إذ يعتمد الحس كله على السمع في متابعة النغم الى مواضع الوقوف والترديد ، فتقفو النغمة على وتيرتها ، ويصدق عليها اسم القافية بجملة معانيه .

لهذا استقل النظم بحقه في الصنعة ، لأن هذه الصنعة لازمة لتمييزه مع الغناء ومع غير الغناء . فانتظمت قوافيه وانتظم ترتيله انتظاما لا بد منه لكفايته ، مع بساطة افانين الغناء ..

واذا التمسنا مدخلا لفن الحركة الموقعة مع الحداء فهناك ايقاع واحد نتابعه في خطوات الإبل وفي خطوات الهرولة التي تصاحبها على القدم . والى هذا الايقاع يرجع وزن الرجز على قصد وعلى غير قصد ، ومجيئه على غير قصد ادل على تمكن العادة وعلى أصالتها في الحياة البدوية :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

***

هل أنت الا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

***

وقد تكون حركة الهرولة في الطواف بالكعبة ملحوظة في كل دعاء مروي كيفما اختلف المختلفون في صحة الرواية ، كما قيل عن امرأة اخزم بن العاص

حين نذرت ولدها للكعبة فقالت :

إنــي جعلــت رب من بنيه ربيطــة بمــكة العلية
فبــاركن لي بهــا اليه واجعلــه لي من صالــح البرية

فهـكذا يفهـم الناظـم كيف تكون حركة الدعـاء مع الهرولـة ، أيا كان صاحب النظم او من ينسب اليه .

هذه المرددات الفردية هي التي ميزت النظم العربي باستقلال فنه ووضوح قافيته وترتيله ، ولو وجدت في الجاهلية العـربية صلـوات جامعـة تنشـد فيهـا الدعوات المحفوظة لوجدت فيها القصائد التي تمثل لنا حياتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية ، اما من اناشيد الصلاة كما عرفها العبرانيون ، أو من اناشيد المسرح كما عرفها اليونان . ولكننا نعرف العرب من قصائدهم الفردية كما نعرف الأمم الأخرى من أمثال تلك القصائد ، فلا يفوتنا منها غاية ما تدل عليه .

هذا سبب من أسباب تلك الظاهرة النادرة التي ظهرت لنـا في القصيدة العربية ، وكانت نادرة بين الأمم السامية والأمم الآرية على السواء .

أما السبب الآخر فهو أصالة الـوزن في تركيب اللغـة ، فالمصـادر فيهـا اوزان ، والمشتقات أوزان ، وأبواب الفعل اوزان ، وقوام الاختلاف بين المعنى والمعنى حركة على حرف من حروف الكلمة تتبدل بها دلالة الفعل ، بل يتبدل بها الفعل فيحسب من الأسماء أو يحتفظ بدلالته على الحدث حسب الـوزن الـذي ينتقل اليه .

هذه اصالة في موضع الوزن من المفردات والتراكيب لا يستغرب معها ان يكون للوزن شأنه في شعر هذه اللغة وأن يكون شأنهـا في نظـم أشعارهـا على خلاف المعهود في منظومات الأمم الأخرى ، ولو صرفنا النظر عن أثر الانشـاد الفردي في تثبيت القـافية واستقـلال فن العـروض عن فن الغنـاء في القصائـد العربية .

نعم إن اللغات السامية تجري على قواعد الاشتقاق وتوليد الأسماء من الأفعال ، ولكن المقابلة بين هذه اللغات في أقسام مشتقاتها وتفريع الكلمات من جذورها تدل على تمام التطور في قواعد الأوزان العربية وعلى نقص هذه القواعد أو التباسها في اخواتها السامية ، بل تدل في باب الاعراب خاصة على تفصيل في العربية يقابله الاجمال أو الاهمال في أخواتها ، وفي غيرها من اللغات الآرية التي دخلها شيء من الاعراب .

***

وواضح مما تقدم أننا قصرنا القول على النظم من حيث هو أوزان عروضية أو قوالب تحتوي الكلم المنظوم فيها .

فهذه القوالب هي التي تطورت في اللغة العربية فأصبحت فنا مستقلا بمقاييسه عن فن الغناء أو فن الحركة الموقعة ، أما الكلام المنظوم في تلك القوالب فهو عمل ممتد مع الزمن يأتي فيه كل عصر بما هو أهله من الابداع أو الزيادة او المحاكاة . . وإنما نعود الى القوالب والأوزان في كل عصر لنسأل : هل هي صالحة لأداء المقاصد الشعرية ومجاراة الأمم في تطورها الذي يمتد مع الزمن على حسب حالاتها من الشعور والفهم والقدرة على الأداء ؟ وهل تتسع للتعديل اذا وجب التعديل للوفاء بمطلب جديد من مطالب التعبير ؟

إن تجارب العصور الماضية تنجلي عن صلاح القوالب العروضية لمجاراة أغراض الشعر في أحوال كثيرة ، ويبدو منها أن أساس العروض العربي قابل للبناء عليه بغير حاجة الى نقضه والغائه . فقد كانت بضعة بحور من أوزان الشعر كافية لأغراض الشعراء في الجاهلية ، أشهرها الطويل والكامل والوافر والخفيف ، ثم نشأت من أوزانها مجزوءات ومختصرات صالحة للغناء حين استحدثت الحاجة اليه في الحواضر العربية التي عرفت الغناء على ايقاع الآلات ، ثم اتخذت من هذه البحور أسماط وموشحات وأهازيج تتعدد قوافيها مع اختلاف

مواقعها وتطول فيها الأشطر أو تقصر مع التزام قواعد الترديد فيها . واختار بعض الشعراء نظم المثاني أو المزدوجات وبعضهم نظم المقطوعات التي تجتمع في قصيد واحد متعدد القوافي أو تتفرق وتتعدد بأوزانها مع توحيد الموضوع ، ولما نقلت الالياذة اليونانية الى النظم العربي لم تضق بها أوزانه ولم يظهر سياق الترجمة ان هذه الأوزان قاصرة عن التنويع فيها على نمط غير هذا النمط لمن يشاء التنويع ، واستجابت الأوزان لمطالب المسرح كما استجابت للملحمة المترجمة ولما يشبهها من القصائد التاريخية المطولة .

وقد أفرد الموسيقار العصري الاستاذ خليل اللاوردي فصلا وافيا في كتابه فلسفة الموسيقى الشرقية لبحث التوزين والايقاع وتطبيق العروض العربي على الضوابط الموسيقية فانتهى من بحثه الى إمكان التنويع في الأوزان العروضية واستطاعة الموسيقى والشاعر ان « يفتتح اشكالا غير محدودة من أشكال الموازين ، واعتمد في تجاربه على الجهاز الفني المسمى بالمتروتوم وهو صندوق صغير من الخشب هرمي الشكل ، يفتح من احدى جهاته الأربع فينكشف عن قضيب معدني مقسم بخطوط ، وعليه ثقل متنقل يحدث حركة متساوية . . فيقسم الدقيقة الواحدة من الزمن الى نقرات تتراوح بين أربعين ومائتين وثمان ، فيمثل الحد الأدنى النقرات المتناهية في البطء ويمثل الحد الأعلى النقرات المتناهية في السرعة » . . ولم يلجأ الموسيقار الى وحدات للنغمات غير وحدات الفواصل والأوتاد والأسباب التي يستخدمها العروضيون ولم يجعل لها أقساما غير أقسامهم المعروفة كالسبب الخفيف والسبب الثقيل ، والوتد المقرون والوتد المفروق ، والفاصلة الصغرى والفاصلة الكبرى ، وإنما استخدم الضوابط الموسيقية لبحث الموضوع بمصطلحات فنه ، وترك مجال بحثه للعروضيين يتفاهمون فيه بمصطلحاتهم التي لا تحتاج الى التخصص أو التوسع في فنون الألحان فخلص من بحوثه الموسيقية والعروضية معا الى نتيجة محققة خلاصتها ـ كما قال ـ ان أشكال الموازين الشعرية غير محدودة او أن حدودها ـ على ما نرى ـ أشبه بحدود الكلمات

التي تتألف من الحروف الأبجدية ، على حين ان الحروف الابجدية قلما تزيد على الثلاثين .

فاذا نظرنا الى ما تم من أشكال العروض ، وما يتأتى ان يتم منها مع التنويع والتوزين ، ثبت لنا انها قائمة على أساس صالح للبناء عليه وتجديد الأنماط والأشكال فيه ، على نحو يتسع لأغراض الشعر ولا يلجئنا الى نقض ذلك الأساس .

***

وهذا كله مع التسليم بداهة بالتفرقة بين الكلام المنثور والكلام المنظوم في السهولة او الصعوبة ، فان التسهيل المطلوب لفن من الفنون كائنا ما كان ينبغي أن ينتهي عند بقاء الفن فنا مقرر القواعد والمقاييس ، وما جهل الناس قط ان الكلام اسهل من الغناء ، وأن المشي أسهل من الرقص ، وأن الحركة المرسلة أسهل من الحركة الرياضية ، ولم يكن ذلك قط مسوغا للاستغناء بالكلام عن فن الغناء أو بالمشي عن فن الرقص ، أو بتحريك الأعضاء بغير هدى عن أصول الحركة الرياضية أو الحركة في ألعاب الفروسية . فمهما يكن من تيسير الأوزان بالتنويع والتوفيق فلا مناص في النهاية من التفرقة بينها وبين الكلام المرسل في سهولة الأداء ، وإنما المطلوب أن تكون فنا سهلا وليس المطلوب مجرد السهولة التي تخرجها من عداد الفنون .

ولا بد في هذا السياق من تفرقة اخرى هي التفرقة بين القواعد والقيود في كل فن من الفنون ، فلا سبيل الى الاستغناء عن القواعد في عمل له صفة فنية ، ولا ضرر من الاستغناء عن القيود التي تعوق حرية الفن ولا يتوقف عليها قوامه الذي يسلكه في عداد الفنون .

ومن تجاربنا في تاريخ الشعر العربي يتبين لنا أن قواعد النظم عندنا مؤاتية

للشاعر في كل تصرف يلجئه اليه تطور المعاني والتعبيرات في مختلف البيئات والأزمنة . فلا موجب للفصل بين قواعد النظم وأغراض الشعر في تجربة من التجارب العربية التي وعيناها منذ نشأت أوائل الأوزان الى أن بلغت ما بلغته في منتصف هذا القرن العشرين .

ذلك شأن التجارب العربية ، فما بال التجارب في أمم الحضارة التي تتصل بنا ونتصل بها وتبادلنا ونبادلها مطالب الفنون والآداب كما يحدث الآن بيننا وبين أمم الحضارة الغربية ؟ ماذا تفرض علينا هذه الثقافة المتبادلة في ميدان النظم والشعر على أتصال بينهما أو على انفراد ؟

أما في النظم فلا خفاء بالأمر من أيسر نظرة الى آدابنا وآداب الأمم الغربية التي نتصل بها في العصر الحديث .

فمما لا تردد فيه أن هذه الأمم لم تبدع في موازين النظم بدعا نستفيده منها ولم نكن قد سبقناها اليه في عصر من عصورنا ، فاذا التزموا الأعاريض معتدلين أو مبالغين فليس عندهم ما هو أدق واجمل من الموشحة في اوزانها التي تقبل التنويع والتشجير الى غير نهاية ، والتي يعتبر تعدد القافية فيها ندحة وزينة في وقت واحد . فان اطلاق الحرية للشاعر لتوزيع القوافي حيث شاء يوشك ان يعفيه من قيودها كما يزيد الايقاع جمالا على جمال . ولم يبدع الأوربيون ـ حتى في شعر المسرحيات الملحنة ـ فنا من الأناشيد أتم من الموشحة وأصلح منها للتلحين وحركة الايقاع .

فاذا ترخص الشاعر الغربي في القواعد فأسقط القافية واختار الوزن الذي يسمونه النظم الحر او النظم الأبيض ـ فجهد ما بلغوا اليه انهم عادوا الى الأسطر المتوازية او الى الاكتفاء بالمقاطع التي لا تبلغ في دقتها مبلغ الأسباب والأوتاد والفواصل ، وكل اولئك طور من الأطوار التي تخطاها الشعر العربي في الأزمنة الماضية او سبقتهم اليه أمة من الأمم الشرقية وتوقف بها التطور عنده ، لارتباطه بالتقاليد الدينية .

فليس عند الغرب من فنون النظم جديد نأخذه منه في أبـواب التـوزين والتنويع .

ليس في فن النظم جديد نأخذه من الأعاريض الغربية لم تكن عندنا اسسه العريقة ، ولـم تكن عندنا اصولـه وفروعـه أو جذوره وأغصانـه على حد تعبـير « الموشحين » .

لكن الأمر يختلف كثيرا في الكلام على « الشعر » أو الـكلام على الأدب ومدارسه ومذاهبه ودعواته التي تجيش بها الحياة الغربية في كل حقبة ، ولا تتميز منها دعوة واحدة دون ان يتميز لها حكم خاص بالشعر يتناوله قبل أن يتناول غيره من الفنون الجميلة ولا سيما فنون التعبير .

هذه المذاهب الشعرية تعنينا كما تعنيهم وتمتد بآثارها الى أقوالهم وأفعالهم كما تمتد الى أقوالنا وأفعالنا .

لأنها من أطوار الحياة التي لا تنحصر في دوائر الفن ولا في أدوار الثقافة على اطلاقها وان يكن مظهرها الثقافي هو الجانب الذي يشتغل به النقاد والمؤرخون في ميادين الفنون .

هذه الدعوات أوسع نطاقا من أن يحاط بها في مقال . ولكنها تقترب من الحصر المستطاع اذا جمعناها في ادوارها الانسانية العامة التـي توشـك ان تكون امواجا دورية في هذا المحيط الزاخر ، اذ هي عالقة بطبيعة الانسان في جملتها ، وطبيعة الانسان واحدة كما قيل في كل زمان ومكان . .

ونحن نعلم ان ابقراط حصر الطبائع الجسدية في أربعة أمزجـة ، وهـي المزاج الدموي والمزاج الصفراوي والمزاج البلغمي والمزاج السوداوي . ثم جاء العلامة بافلوف بعد تقسيم خصائص الاجسام بين الهرمونـات وعائـلات الـدم وودائع الوعي الباطن والوعي الظاهر اقساما لا تنفد ولا تحصى ، فعاد الى الامزجة

الابقراطية تيسيرا للفوارق العامة وجعلها أساسا لتجاربه النفسية التي تعد الى هذه الساعة من أحدث تجارب العلماء .

فنحن على هذه الوتيرة نقسم الذوق الفني في الانسان الى أقسامه الخالدة حين نقول : ان الناس كانوا منذ فطروا واقعيين وخياليين ، ومحافظين على القديم وطلابا للجديد ، أو انهم كانوا اذا اكتفينا بقسمتهم الى قسمين اثنين : صنفا يمشي في وسط القطيع وصنفا ينزع الى الاطراف ، أمام ووراء وعلى كلا الجناحين من اليمين واليسار ، وقد تفكه بعض الجادين فأطلق على الصنف الاول اسم فريق الضأن وعلى الصنف الثاني اسم فريق المعز ...

ونرى من تاريخ الامم الغربية منذ ملكت حرية التفكير أنها دارت دورتها بين مذاهب الاذب خلال القرون الثلاثة الاخيرة ، وأنها نزعت في دعواتها المتعاقبة كل نزعة طبيعية تستلزمها أطوار الحياة بعد عصر الجمود والتقليد .

ففي فترة اليقظة الاولى كان من الطبيعي ان ينزع الانسان الى استقلال « الشخصية الانسانية » في وجه التقاليد المطبقة والقيود العتيقة والاحكام التي تطاع بغير فهم ، بل بغير شعور في أكثر الأحوال ، وهذه هي النزعة التي سميت بنزعة الابداع و« الحرية » الشخصية **Romanticism** .

ومن الطبيعي أن ينتهي هذا الابداع من كل جانب على غير هدى متفق عليه ، الى شيء من الفوضى والشرود يستحب معه التوقف الى حين ، وهنا ظهرت دعوة العود الى الاتباع والاطراد على نحو جديد يناسب مطالب الزمن ، فنشأت من ثم دعوة الاتباع او الاطراد الجديد **Neo Classicism** .

واذا حكم اختلاف الطبائع حكمه بين أنصار الواقع وانصار الخيال فهنا مجال الاختلاف بين الواقعيين **Realists** والخياليين المثاليين **Idealists** .

وقد يظهر هذا الاختلاف في صورة أخرى بين الطبيعيين **Naturalists** وبين الفنيين أنصار الفن للفن **Art for Art's sake** .

ونقول ان الواقعيين والطبيعيين متقاربون لانهم جميعا من أنصار الواقع ، وانما ينفرد الواقعيون بمحاربة النزعات الخيالية ، وينفرد الطبيعيون بمحاربة النزعات الصناعية : نزعات الاغراق في التزويق والتنسيق . واذا اقترنت هذه المذاهب جميعا في عصر من عصور النهضة العلمية فالانقسام بينها يؤول في هذه الحالة الى قسمين : قسم تغلب عليه الصبغة العلمية وقسم تغلب عليه الصبغة الفنية ، ويتسع كل قسم منها لكثير من الاراء وأشتات من الاساليب .

ولا جدوى من متابعة العناوين التي تنتهي في الغرب بصيغة النسبة المذهبية Ism فانها تنطوي جميعا في هذه الدعوات ، ويحيط كل منها بعالم من الاراء والاسباب . ولكننا نجمعها في حدودها الواسعة اذا اكتفينا منها بالرومانتيزم والنيوكلاسيزم والريالزم والايدليزم ، فلا يخرج من هذه المذاهب مذهب جاد يناط به عمل من أعمال البناء والاصلاح في عالم الفنون ، ولا تزال حتى اليوم وافية بأغراض البحث والمناقشة بين المختلفين على الفنون فيما يستحق الخلاف .

وعلى تعدد المذاهب والعناوين في الغرب لا نرى هنالك لبسا على الاطلاق بين المذاهب التي أشرنا اليها وبين عشرات المذاهب التي ينتحلها الدعاة على عجل منذ الحرب العالمية الاولى ، ويندر أن تعيش احداها أو تستقل عن سواها بصفة من الصفات التي يتناولها التطبيق والتمييز .

فلا لبس على الاطلاق بين مذاهب الجد ومذاهب الهزل في الاداب الغربية ، فمذاهب الجد تدعو كلها الى البناء وتقوم بالبناء فعلا ويعيش ما تبنيه ، ومذاهب الهزل لا تتحدث بشيء غير الهدم والالغاء فلا لون ولا شبه ولا رسم ولا قاعدة في التصوير ، ولا لفظ ولا معنى ولا منطق ولا مدلول في الشعر والنثر ، وانه لمن الحظ الحسن ان تقصر هذه الدعوى عن الفنون التي ترتبط بها ضرورات المعيشة والاجتماع ، فانها لو تناولتها لسمعنا بفن المعمار الذي لا حجرات ولا جدران ولا حجارة ولا طلاء فيه . وسمعنا بمجامع الموسيقى التي لا تميز بين الضوضاء والالحان ، ولا محل فيها للمعازف والآلات .

من هذه المذاهب ما يطلق عليه اسم المستقبلية Futurism أو فوق الواقعية Surrealism أو الذئبية Fauvism . . . بل منها ما يسمى بمدرسة التأتأة Dadalsm ويقول اصحابه انهم اختاروا له هذا الاسم من أول تأتآت الطفل Da Da وتطلق احيانا على حصان الخشب ليسهل النطق به على السنة الاطفال . ومؤدى مذهب هؤلاء الدعاة ان التعبير الصحيح عن النفس الانسانية انما يرجع الى صورة الطفولة ورموز الاحلام وخفايا الوعي الباطن كما تبدو للحالم في المنام أو كما يرسلها الناطق عفوا بغير تأمل وبغير انتباه !

ومن هؤلاء الملفقين للمذاهب من يختار اللفظة ويسأل عن معناها فيسخر من السائل لانه يبحث عن المعنى ولا يكتفي بوقع اللفظة في الاذن أو من منظرها للعين القارئة . فمن عناوين مارينتي أمام المستقبلية « زانج تمب تيايم » Zang Tumb -Tuuum ومن عناوين زميله أردينجوسوفيسي 18 + Bifz . ما لا يفهم ولا يترجم . وانما هو مقابل عندنا لحرف الباء ثم الياء ثم الفاء ثم علامة موسيقية ثم زاي ثم علامة + ثم رقم ١٨

وقد عقب صاحب تاريخ الادب الايطالي على إمام هذه المدرسة فقال انه لم يجاوز حدود السخف في شعره . . ولم يخل كلام المؤرخ من مجاملة . لان السخف معنى يوصف بالرداءة . . ولا معنى هنا ولا وصف لرديء أو غير رديء[1] .

***

ولا بد من وضع هذه الدعوات في موضعها من تاريخ الاداب الانسانية والاداب الاوربية التي تظهر بينها . . فما هو موضعها الصحيح ؟

موضعها الصحيح انها تمثل جانب السخافة الذي لا بد ان يتمثل في بيئة

---

(١) صفحة ٤٨٥ من كتاب تاريخ الأدب الايطالي تأليف « أرنست هانش ولكنز » .

يباح فيها القول لكل قائل والقراءة لكل قارىء ، ولا يخجل فيهـا العاجـز من عجزه ولا صاحب اللجاجة من لجاجته ، وهـم جميعا في غمرة من محن الحروب والفتن والقلاقل والافات . فهل تخلو هذه البيئة من جانب سخافة في الاذواق والدعوات ؟ وأين هو هذا الجانب ان لم يكن هذا مظهره الذي يتمثل في صوت القنوت ؟

ولسنا نقول ان هذه السخافة جانب يهمل ولا يلتفت اليه ، فانها خليقة أن تدرس كما تدرس عوارض الامراض والعلل والنكبات ، ولكن البون بعيد جدا بين دراستها لهذا الغرض ودراستها للاقتـداء بهـا واعتبارهـا من مدارس الفـن والادب ونماذج الذوق والجمال .

ولا تفوتنا في معرض الكلام على الشطـط الفنـي ملاحظـة وثيقـة الصلـة بموضوع الخلط الذي يقال عنه أنه هو الفن الصحيح أو أنه هو التعبير الصادق دون غيره عن الوعي الباطن والسريرة الانسانية في أعماقها « اللامنـطقية » على حد تعبيرهم المأثور .

فالخلط الهاذر مذهب لم يخلقه دعاة « اللامنطقية » في القرن العشرين ، ولكنهم خلقوا شيئا واحدا فيه لم يسبقهم احـد اليه ، وهـو اطـلاق العنـاوين العلمية عليه واستعارتها من دراسات التحليل النفساني أو من دراسات العلوم الطبيعية ، وقديما وجد في الشعراء والفنانين من يجنح به هواه أحيانـا الى رفـع الكلفة واطراح الحشمة والابتذال في اللفظ او المعنى او في كليهما ، فيسترسل في الهذر واللفظ كانه في اجازة من « نفسه الفضلى » كما يقولون ، وينسب الى هذه النزوات شعر المجانة والهزل وشعـر الاباحـة والجمـوح ، وينسـب اليه كذلك ضرب من الشعر الذي يخيل الى الناس انه محدثهم بالحـكم والامثـال وهـو في أسلوبه الهازل ساخر بضروب الحكمة والمثل ، كما صنع ابن سودون اليشبغاوي (٨٠١ ـ ٨٦٨ هـ) في قصيدته البائية التي يقول فيها :

عجب عجب عجب عجب بقر تمشي ولها ذنب
ولها في بزبزها لبن يبدو للناس اذا حلبوا
ولا تغضب يوما ان شتمت والناس اذا شتموا غضبوا
من أعجب ما في مصر يرى الكرم يرى فيه العنب
والنخل يرى فيه بلح أيضا ، ويرى فيه رطب
زهر الكتان مع البلسـ ان هما لونان ولا كذب
كيهود في دير ، خلطوا بنصارى حركهم طرب

وأدخل من هذا في باب « اللامنطقية » مذهب من مذاهب الزجل في اللغة الدارجة يعاقبون بينه وبين الادوار المقصودة ، فيبدأون بالدور العاقل ويتبعونه بالدور المجنون الى نهاية الزجل ، ويحفظ من هذه الازجال كثير في مجموعات هذا والاجيال القريبة ، من أمثلتها في كتاب ترويح النفوس لحسن الآلاتي زجل يقول فيه :

كسرت بطيخة رأيت العجب في وسطها أربع مداين كبار
وفي المداين خلق مثل البقر في كل واحدة أربع قواعي حصار
وفي القلاع أقوام طوال اللاقون ودمعهم يجري شبيه البحار
من دمعهم تزرع نجوم السما في خلقة المشمش عديم المثال

وأحيانا يقسمون الادوار الى دور صاح ودور سكران . أو يصوغون فيها المفارقات على ألسنة الصبيان كما يجري على ألسنة العامة :

يا ليل يا عين معرفش أكدب والضفدعة شايلة مركب
وأبو فصاده ريسها والقط الاعور حارسها

الى أشباه هذه « اللامنطقيات » المتواضعة التي يضعها أصحابها في مواضعها ويسمونها بأسمائها ولا تعدو عندهم أن تكون « منفسا » يستبيحونه الى

حين ويعرضون به « اللامنطقية » في صورة فنية ، ويعلمون ويعلم الناظرون اليها أنها من قبيل الصور الهزلية أو« الكاريكاتور » ولا يطلبون من الانسانية أن تحلها في محل فنونها وأن تنبذ المنطق في سبيلها .

فاذا كان لا بد من هذه اللامنطقية في الاداب العربية فعندها منها ما يغنيها ولها فيها مجال لا يخرج بالعقل من دائرة الغقل ولا بالجنون من دائرة الجنون .

الشِعْرأسْبَق أم النَّـثر ؟

السيد جوردان شخصية مشهورة من الشخصيات المضحكة في احدى روايات « موليير » التي استوى بها على عرش الفكاهة المسرحية في الآداب الفرنسية . .

ومدار الفكاهة في شخصية جوردان أنه غني من محدثي النعمة أراد أن يتشبه بالنبلاء فاتخذ له معلمين يعلمونه الرقص والمسايفة والبلاغة ، وجاء بالطرائف التي لا تخطر على البال وهو يحاول ان يفهم دروسهم ويعقب على شروحهم وأقوالهم ، فاذا هو كما قال يتكلم « النثر » طوال حياته ولا يعرف ذلك حتى عرفه من كلام معلم البلاغة !

لقد أفهمه معلمه معنى الشعر ومعنى النثر ، فخيل اليه أن النثر هو ما ليس بكلام موزون منظوم ، وتخيل اذن ان كلامه طول حياته داخل في ذلك التعريف ، وأنه كاد أن يقضي بقية حياته وهو يجهل هذه المعجزة . . لولا أنه تلقى الخبر اخيرا من الاستاذ .

أراد موليير أن يجعل السيد « جوردان » مضحكا بهذه العبارة فأفلح فيما أراد وضحك الناس مما قال ، لانهم ادركوا على البديهة من غير تطويل في البحث والاستقصاء ان السيد « جوردان » مخطىء في تصوره الساذج ، وان النثر شيء غير مجرد الكلام الذي لا ينطبق عليه تعريف الشعر : وهو الكلام الموزون المنظوم .

فاذا لم يكن الكلام شعرا فليس من الضروري اللازم في هذه الحالة أن يكون نثرا لا محالة . قد يكون كلاما وليس بشعر وليس بنثر ، لان المقصود بالنثر هو التعبير الادبي في غير نظم أو وزن من أوزان البحور الشعرية ، وقد يتكلم الانسان طول حياته وهو لا ينظم ولا ينثر ، اذا كان كلامه خلوا من التعبير الادبي في المنظوم والمنثور .

واذا سأل السائل : أيهما أسبق ، الكلام أم الشعر ؟ فلا محل للخلاف ولا لإطالة الروية قبل الجواب ، فان اللغة سابقة للكلام المنظوم والكلام المنثور على السواء . ولكن السؤال الذي يقع عليه الخلاف هو : أيهما أسبق ، الشعر أم النثر ؟ ونعتقد نحن أن الشعر أسبق من النثر بزمن طويل . نعتقد هذا ولا نحسب أن الدليل القاطع في تقرير هذا الرأي مستطاع ، ولكنه رأي يقوم على القرائن التاريخية والقرائن النظرية ، ولا ينقضه من الواقع شيء معلوم حتى الآن .

فمن القرائن التاريخية أن الشعراء أقدم من الكتاب ومن الناثرين على العموم ، اذا صرفنا النظر عن الكلام المكتوب أو المحفوظ في الاوراق .

فشعراء العرب في الجاهلية لا يسبقهم ناثر ، ولا يحفظ العرب كلاما منثورا يقترن تاريخه بالتاريخ الذي نظموا فيه قصائدهم المروية ، وما بقي من كلام الكهان المسجوع فهو ـ ان صح ـ أدل على قدم الشعر والقافية ، لان الكلام المقفى محاكاة للشعر الذي تلتزم فيه الاوزان والقوافي ، ودليل على سبق الكلام المنظوم للكلام المنثور ، ولم يثبت قط أن الشعر هو سجع متطور ، لان التاريخ لم يحفظ لنا قط كلاما مسجوعا عن عصر من العصور ليس فيه شعر ، ولم نعرف عن الشعراء في أقدم العصور أنهم سجعوا ثم تطوروا فنظموا . ولم تزل اسجاع الكهانة غير أوزان « الشاعرية » في طبيعتها وموضوعها ، فالكاهن لا يتدرج من السجع الى النظم والشاعر لا يتعلم الكلام الموزون من المرانة على الكلام المسجوع .

والآداب اليونانية هي مرجع الباحثين عن أوائل الآداب الاوربية القديمة ، وهي شاهد آخر على سبق النظم للنثر في جميع الآداب ، لان « هومير » قد نشأ في زمن سابق للقرن السابع قبل الميلاد ، وكان من معاصريه في بعض الاقوال « أرشيلوكس » الذي أشار في قصائده الى كسوف الشمس ، وحسب الفلكيون أنه كسوف أبريل سنة ٦٤٨ قبل الميلاد ، أو كسوف مارس سنة ٧١١ قبل الميلاد ، وليس في المحفوظات اليونانية كلام منثور يرجع الى ما قبل ذلك التاريخ . . وكل ما بقي من الكلام المسجوع الذي يقارب ذلك التاريخ فهو من قبيل سجع الكهان ، أو من قبيل السجع الذي يستعان به في الخطابة ، وأقدم ما ورد من ذكره لا يرجع الى عصر سابق لعصر الناقد المعروف ثراسيما كوس **Thrasymachus** وهو من أبناء القرن الخامس قبل الميلاد .

أما الادب اللاتيني فقد كان من الواجب ان تنعكس فيه هذه القاعدة لانه الادب القديم الذي امتاز بالرسائل المأثورة لسعة أطراف الدولة وتجدد الحاجة الى المراسلة بين سكان تلك الاطراف المترامية ، ومنهم الادباء والبلغاء .

ولكن الثابت مع هذا ان الأغاني اللاتينية سابقة للملاحم والقصائد في لغة اللاتين بعد تطورها ، وأن مشاهير الشعراء سابقون لمشاهير البلغاء والكتاب وأصحاب الرسائل المنتقاة ، ومنهم شيشرون الناقد الاديب الخطيب .

وما يؤثر عن قدم الشعر في الآداب العربية والاوربية شبيه بالمأثور عن آداب الامم الشرقية في جملتها ، فليس في آدابها نثر أقدم من قصائدها المقدسة وأغانيها الشعبية الاولى ، وكل محفوظاتها المسجوعة لاحقة بمحفوظاتها من الشعر الموزون .

وقد يخطر على البال أن السبب راجع الى الحفظ لا الى القدم ، وأن النثر قد سبق الشعر ولكنه لم يبق كما بقي الشعر ، لان الكلام الموزون أيسر حفظا من الكلام المنثور . ولكنه خاطر مردود يسهل نقضه بقليل من الروية فيه ، فان

سهولة الحفظ نفسها تحتاج الى التعليل ، وليس لها علة الا أن يكون الكلام المحفوظ أقرب الى الطباع وأدنى الى الفطرة وأغنى عن الصناعة ، وأن الكلام الذي يصعب حفظه بغير التسجيل في الورق يعتمد على صناعات كثيرة ولا يكفي فيه الاعتماد على الفطرة ، فهو معلق بمعرفة الحروف ومعرفة الادوات الكتابية وتطور المجتمع مع تطور الحاجة فيه الى التدوين بغير الوسائل الفطرية ، وهي وسائل الحفظ والتعويل على الذاكرة .

وقد يبدو للسيد « جوردان » ان تأخر النثر عن النظم شيء غريب ، لانه يخلط بين ظهور النثر وظهور اللغة .، وهي لا شك سابقة لظهور الشعراء والبلغاء .

لكن السيد جوردان مضحك كما أراده موليير ، ومضحك كما رأينا من فهمه لكل شيء . فالواقع ان تأخر النثر عن النظم ترتيب طبيعي لا غرابة فيه ، اذ كانت شروط الشعر تتوافر قبل توافر الشروط المطلوبة للكلام المنثور ، ويكفي لظهور الشعر ان تظهر في انسان من الناس ملكة غنائية ، وهي من أقدم الملكات في الاحياء . أما الكلام المنثور فما الحاجة اليه في المجتمعات الاولى ؟ وما أكثر الشروط الصناعية التي ينبغي ان تتوافر في المجتمع قبل شعوره بالحاجة اليه !

ولا نخلط بين الخطيب والناثر فهما شيئان مختلفان ، فان الخطابة في المجتمعات الاولى صفة من صفات الزعامة ، وليست كذلك صفة الناثر البليغ ، ولكننا ـ على فرض التشابه بين الخطابة والنثر ـ قد نتصور ظهور الشاعر قبل ظهور الخطيب والناثر ، لان ملكة الشعر لا تتوقف على نشوء « القبيلة السياسية » التي تستمع الى الخطباء في شؤونها العامة ، بل لعلها توجد مع الدوافع الحيوية التي تهم كل فرد على حدة ولا تتوقف على سياسة الجماعات .

والغالب أن الشعر فطرة وأن النثر تعليم ، وأن الباعث الى الكلام البليغ يأتي بعد الباعث الى الغناء ، فقد تغنى الحي الذي لا يتكلم ، وليس بالمعقول أن

يصل الحيوان الناطق الى الكلام وهو عاجز عن الغناء وعن صوغ كلامه في النغم الموزون .

***

في حديث مروي عن أستاذ المدرسة الموسيقية القديمة مصطفى رضا بك ـ رحمه اللّه ـ أنه كان يعجب للذين يعرضون أنفسهم على محطة الاذاعة المصرية للغناء وهم لا يفرقون بين المقامات الموسيقية وعناوين النغمات ، وأنه كان يشبههم بمن يتصدى لكتابة خطاب قبل أن يميز بين الحروف وأنواع الخطوط . وهذا قياس مع الفارق كما هو ظاهر ، فان الاحرى أن يقال ان المغني الذي لا يعرف أسماء المقامات والانغام كالشاعر الذي لا يعرف اسماء البحور والاعاريض .

وقد وجد الغناء قبل أن توجد اسماء مقاماته وأنغامه ، ووجد الشعر قبل أن توجد أسماء بحوره وأعاريضه . .

لكن العجيب حقا هو أن يوجد ناثر قبل ان توجد الحاجة الى التدوين ، فحيثما وجد النثر فهناك جماعة تحتاج الى تدوين الكلام ، ولو لم يكن صاحب النثر نفسه هو الذي يدون ما يقول ، بالحروف أو بغير الحروف .

ولهذا نرى أن سبق الشعر لا عجب فيه ، وأن سبق النثر فيه شيء من العجب ، وأن اولاهما بالسبق هو أغناهما عن الصناعة وتطور الجماعة ، وأقدرهما على الاكتفاء بالفطرة على أبسط ما تكون .

الشعر لازم

الشعر لازم في عامنا هذا كما كان لازما فيما سلف من ألوف السنين ومئات العصور .

لا ينقص من لزومه شيوع الصاروخ كما قيل . .

بل هو ألزم ما يكون حين تشيع الصواريخ وتشيع معها اخواتها من صفائح الحديد والخشب والات النار والكهرباء .

وكلما غلبت المادة وصفائحها وآلاتها تحسس الانسان مكان روحه ، وارتد الى قرارة عواطفه ووجدانه ، يطمئن على نفسه : ألا يزال انسانا بعد ، أو هو قد فقد الانسانية في كيانه وصار مع الصاروخ واخواته آلة من الآلات ، وقطعة من الخشب والحديد ، وشواظا من النار والكهرباء .

وما كانت بالانسان حاجة الى أن يتلمس دخيلة حياته بين جنبيه ، يوم كانت عشرته من الاحياء ، وطعامه من خيرات الاحياء ، ومقامه بين صنوف الاحياء ، ورحلته على متون الاحياء .

ولكنه في عصر الصاروخ ، أحوج ما يكون أن يتلمس موطن تلك الحياة ، وأن يستمع الى نجوى فؤاده بلسان الحياة ، وان ينظم الشعر ويحن الى النغم ويشهد صور الجمال والعطف في كل منظور ومسموع .

وما كان الصاروخ ليحل محل الشعر واخواته من فنون الجمال ، اذ كان

الناس لم ينظموا الشعر لانهم بحثوا عن الصاروخ فلم يجدوه ، وانما نظموه لانهم يحسون وينطقون ولانهم يترقون مع الزمن فيزدان النطق عندهم بالجمال ، ويحسن الانسان من التعبير الجميل ما لم يحسنه الحيوان ، ويستطيع من النظم ما ليس يستطيعه الطير بالتغريد ، ولا الخيل بالصهيل ولاسباع الغاب بالزئير .

ولئن سبق الصاروخ الطيارة لن يسبق الصاروخ سبحات الخيال . .

لقد سبقه الخيال يوم تحدث للانسان عن حصان الآبنوس ، وعن أجنحة واق الواق ، وسبقه الخيال فأملى على الصانع كيف يكون الطيران بالخفة ، وقد كان العلماء يجزمون جزم اليقين الا طيران في الهواء بغير أداة أخف من الهواء ، عجزا منهم عن فهم الطير كيف يطير حين لم يعجز الخيال ، وانما هي القوة يطير بها ذو الجناح كما يطير بها الحصان الطيار .

ان الشعر لازم للانسان الناطق ، ما دام ينطق ويعقل ويترقى بالنطق في معارج الكمال ومعارض الجمال .

ان الشعر الزم ما يكون للانسان في عصر الصواريخ . .

وان حفاوتنا به في هذا العصر شهادة لعصر الصاروخ تشرفه وتعليه ، لانه لم يتخلف عن عصور تعلم فيها الانسان كيف يكون انسانا بالمنطق الساحر واللسان المبين .

وفي الغرب الذي يدين بالصاروخ علامات كهذه العلامة ، وآيات كهذه الآية ، تنويها بلزوم الشعر وعنوانا على اللهج به والحرص عليه .

في السنوات الست الاخيرات ـ سنوات الصاروخ ـ صارت الجائزة العالمية للادب الى ستة من الادباء : خمسة منهم شعراء ، وهم خيمينيز الاسباني ، وباسترناك الروسي وكوسيميدو الايطالي وبيرس الفرنسي وسيفريس اليوناني .

ومهما يكن من الرأي في انصاف جائزة نوبل العالمية ، أو في نظرتها الناقدة

الى الآداب والفنون فلا نكران عليها انها علامة من علامات الزمن بصوابه وخطئه ، وبما يراه من لزوم ومالا يراه .

ولا علامة للشعر اللازم في هذا الزمن ، أصدق من العلامة التي تدل على أمم خمس : بينها من المشابهات والفوارق ما بين الاسبان والروس والطليان والفرنسيين واليونان .

***

اذا لزم الشعر في لغة من اللغات فانما يلزم لألزم ما فيه والزم ما في الشعر انه فن من الفنون .

والزم ما في الفن أنه ذو قواعد وأصول ، توائم في كل لغة ما طبعت عليه تلك اللغة ، وتوائمه في اللغة العربية ـ خاصة ـ أنها لغة الوزن في كل كلمة وفي كل صيغة ، فليست فيها كلمة واحدة تنعزل من وزن اشتقاق او وزن سماع . . لا شعر بغير فن . . ولا فن بغير قاعدة .

والذين يقولون بغير ذلك يقولون عجبا يستغربه السامع ويستغرب الذي يسمع ويفقه ما يقال كيف يصغي اليه السمع وكيف يستجيب له الفهم ، وكيف يتكرر بعد تكرار اللسان فيه .

يقولون ان قواعد الوزن تدعو الانسان ان يقول ما لا يلزم ، تكملة للوزن حيث لا محل له من الكلام .

هل يقال هذا في الشعر وحده أو يقال في شتى الفنون عندنا وعند غيرنا من العالمين ؟

ماذا يصنع منشد الغناء ؟

ماذا يصنع الراقص في حركات يديه وقدميه ؟

ماذا يصنع الموسيقار في صوته المرسل بغير كلام ؟

الا يزيد المغني في غنائه ليطابق فيه بين الألفاظ والالحان ؟

انبطل الالحان لانها تسومنا المد في الصوت وراء ما يلزم . . كما يقال ! أو لأنها تسومنا الزيادة في الحروف والكلمات وراء ما تتم به جملة المبتدأ والخبر أو جملة الفعل والفاعل ، أو جملة المحمول والموضوع ؟

انبطل الرقصة التي تسوم الماشي أن يخطو فوق خطوه أو يقصر عنه باختياره ؟

ان الفنان لا يضع في مده أو زيادته غير ما يلزم ، بل غير اللازم قبل كل لزوم : وهو رعاية الفن والقاعدة في الفنون . وليس الوزن زيادة في المقال بل هو قوام المقال كله ، الا أن يكون من غير الفنون . وانما الشعرُ تفاعل كامل بين اللفظ والمعنى وقاعدة القواعد الفنية في وزن أو نظام مقدور .

وملكة الشاعر هي الملكة التي تقدر على هذا التفاعل بغير حشو أو فضول ، أو يكون الحشو والفضول ـ ان كانا ـ زيادة للمعنى وتوكيدا للاثر ، لا وقرا محملاً عليه ، ولا فضولا ملصقا به ، ولا لغوا مضافا اليه .

وكل بيت في الشعر المطبوع آية على صدق هذا التفاعل التام بين الألفاظ والمعاني والاوزان ، وآية على لزوم الوزن كلزوم لفظ الشعر ومعناه

أمامنا مثل من أبيات لامرىء القيس وصفا للفرس :

وقد اغتدي والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا   كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه   كما زلت الصفواء بالمتنزل

لا شك ان كلمات « الهيكل » و« من عل » و« المتنزل » قد جاءت لوزن القافية اللامية .

ولكن هل هي زائدة ؟ كلا . . ونجرب حذف الهيكل لنرى كيف ينقص المعنى والاثر ، ولو كان من الكلام المنثور .

نقول مثلا : « اننا نغدو مبكرين قبل نهوض الطير بمنجرد قيد الأوابد . . . » .

فنسمع وصفا للسرعة ولا نسمع وصفا للشكل والحجم والمنظر ، وانما يتم ذلك كله حين نقول انه قيد الاوابد هيكل اي أنه ضخم جسيم .

ولقد يقال ان كلمة أخرى تحل محل « هيكل » حين نقول « ضخم أو جسيم أو مكين » .

فهل ترانا نشعر بأثر لهذه الكلمات كما شعرنا بأثر الهيكل فيما حققته الكلمة من وصف الجسامة والصورة والمثال ؟

جواب ذلك عند من يتهمون القافية بزيادة الفضول ، ان لم يكن جوابهم هنا من فضول المقال .

ونأتي بعد ذلك الى كلمة « من عل » وهي التي تتمم وصف الجلمود وهو ينحط مع السيل ، فهل يتم الاثر بحذف هذه الكلمة ؟ هل التذكير بانحطاط الحجر من الاعلى فضول وزيادة بغير مدلول ؟

وهل ذكر المطر دون وصفه بالمتنزل تنزيه للبيت من اللغو أو هو مما يتمم هذا الوصف للمطر بالتنزل والزلل عن متن الصفواء في هذه الحال .

وأبيات غير هذه الابيات من كلام المعري يقول فيها مفتخرا :

الا في سبيل المجد ما أنا فاعل	عفاف واقدام وحزم نائل
أعندي وقد مارست كل خفية	يصدق واش او يخيب سائل
تعد ذنوبي عند قوم كثيرة	ولا ذنب لي الا العلا والفضائل

فمما لا شك فيه أن النائل والسائل والفضائل قد جاءت في مواضعها هنا لان القافية لامية .

ولكن لماذا نغيرها لضرورة المعنى

ولماذا نقول معنى غير هذه المعاني التي تؤدى بهذا النظم وهذه القافية ؟

ولماذا نعدد فضائل اخرى تزيد على هذا العدد أو تنقص منه ، بعد ذكر العفاف والاقدام والحزم والنائل . ؟ واذا كانت كلمة العطاء مثلا تؤدي معنى كلمة النائل ، فلماذا نفضلها عليها .

ويقول ابن الرومي في وصف مغن كريه الصوت والغناء :

أبو سليمان لا ترضى طريقته لا في غناء ولا تعليم صبيان
له اذا جاور الطنبور محتفلا صوت بمصر وضرب في خراسان

فمما لا شك فيه أن خراسان جاءت هنا وزانا لصبيان ، بل لا شك أن « محتفلا » في الشطر الاول كلمة لازمة لتمام البيت . .

لكن الشاعر قد يقول بدلا من الشطر الثاني : « صوت بمصر وايقاع ببغداد » اذا كانت القافية دالية . . فما الذي يختلف بين هذين الاسمين ؟

وقد يحذف الناثر كلمة « محتفلا » بعد الطنبور فيقول : له اذا تناول الطنبور صوت هنا وضرب هناك . . فهل يكسب البيت بحذف هذه الكلمة ويقوى ؟ أو يخسر ويضعف ؟

ان كلمة « محتفلا » تصور لنا اجتهاد المغني وتأهبه بجلسته وايمائه واستعداد السامعين للاصغاء الى شيء حسن ، فاذا بهم يفاجأون بالصوت الرديء ، فلا يكون أثره في نفوسهم كأثره فيها وهم لا يرون ذلك الاحتفال ولا ينتظرون بعده ألاتقان والكمال : . . فما جاءت « محتفلا » هنا فضولا لاجل الوزن ، بل كان تفاعل الكلمة مع الوزن سببا لاستدراك نقص واستكمال اثر ،

لم يكن لهما في النثر من داع منبه لهذا الاستدراك .

اننا نردد اليقين بالشعر اللازم والفن الألزم . .

لزوما يتم فيه المعنى واللفظ بالوزن والقافية ، وتؤدي فيه ملكة الشاعر المطبوع عملها « تفاعلا » حيا بين نغماته وحروفه وكلماته ، تتزاوج فيه جميعا لتزداد بلاغة في الاثر وايناسا للسمع ، واشباعا للاداء ، ونفياً للفضول ، وتجاوبا بين الوقع والايقاع . . . وعلى ذلك جبلت ملكة الشاعر المطبوع . من رزقها قال وتغنى وأفهم وأثر ، ومن لم يرزقها فلا حق له في قول الشعر ولا في القول فيه ، ولأن يسكت فلا يقول شعرا ولا يقول عن شعر خير له وللناس ، وخير للشعر والفن وللعقول والاسماع .

التَجْدِيدُ في الشِعْـر

اذا أوجزنا قلنا ان التجديد هو اجتناب التقليد ، فكل شاعر يعبـر عن شعوره ويصدق في تعبيره فهو مجدد وان تناول أقدم الاشياء . هل شيء في هذا العالم الارضي اقدم من الشمس ؟ ان الذي يصفها اليوم صادقا في وصفه غير مقلد في تصويره مجدد تمام التجديد ، وان لم يأت بكلام جديد .

هكذا تجدد الشمس النهار ، وتجدد الارض الـربيع ، ويجـدد الشبـاب الامل والحب جيلا بعد جيل .

وليست الدنيا عتيقة بالية لانها تجيئنا كل عام بربيع كالربيع الذي تقدمه ، وليس الشاعر عتيقا باليا لانه يجيئنا بذلك الربيع كما جاءت به الدنيا في حينه ، موصوفا على الصورة التي عهدها آدم في جنة الفردوس ، ثم عهدهـا أبنـاؤه في جناتهم على هذه الغبراء ! . . . التجديد ـ في كلمتين ـ هو اجـتناب التقليد .

أما اذا تعمدنا الاسهاب والتفصيل ، وتناولنا عناصر الشعر جميعـا فهـي مختلفة في قبولها للتجديد ، أو مختلفة على الاصح في حاجتها الى التجديد .

هذه العناصر هي اللفظ والوزن والموضوع ، وهي على هذا التـرتيب في حاجتها الى التجديد مع الزمن : فاللفظ الذي يتألف منه الشعر يبقى الف سنة ولا يطرأ عليه تغيير يذكر ، ويصـلح في هذه الحالـة لشعـر امـرىء القيس كما يصلح لشعر البارودي ، مع قليل من التحوير الذي لا يلتفت اليه الا المختصون بتسجيل أطوار الكلمات .

ونعني باللفظ هنا المفردات في غير الجمل والأبيات ، وهي المفردات التي تطرأ عليها الزيادة القليلة كل بضعة قرون ، أو يطرأ عليها اختلاف الاستعمال من فترة الى فترة في حياة اللغة الواحدة ، ولا بد للشاعر من متابعة هذه الاطوار وقد يكون هو عاملا من عوامل الزيادة والتصرف في الكلمات .

الا ان الجهد في تجديد المفردات يظل على الدوام أقل وأهون من الجهد في تجديد الأوزان وتجديد الموضوعات . فالمعجم الشعري اليوم قريب من المعجم الشعري في عهد أصحاب المعلقات . أما الوزن فقد اختلف في عدد البحور ، واختلف في عدد القوافي ، ولا يزال قابلا للاختلاف ، وفي حاجة الى الاختلاف .

كانت أوزان الشعر في الجاهلية قليلة البحور ، وكانت القصيدة الواحدة قليلة الأبيات . ثم تعددت البحور ومجزوءاتها ، وتضاعف عدد الأبيات في القصيدة الواحدة ، وطرأ التنويع على القافية في الرجز ثم في التسميط والتوشيح ، ثم انتهينا الى العصر الحديث فظهر بيننا من دعاة التجديد من يدعو الى الغاء القافية ونظم الشعر مرسلا أو مطلقا على الطريقة الاوروبية ، ولكنها دعوة لم يكتب لها النجاح ، ولا نظنها جديرة بالنجاح في المستقبل . لان أعاريض الشعر العربي تستلزم القافية من حيث لا تلزم في الأعاريض الاوروبية ، وقد يكون الاطلاق من القافية في الأعاريض الأوروبية نفسها مقصورا على المطولات والملاحم التي تصلح للقراءة وقلما تصلح للسماع . والشعر قبل كل شيء سماع .

والذي نعتقده أو نشعر به ، أن تنويع القوافي أوفق للشعر العربي من ارساله بغير قافية ، وانه يقبل التنويع في أوزان المصاريع والمقطوعات على أسلوب الموشحات ، فيتسع للمعاني المختلفة والموضوعات المطولة ، ولا ينفصل عن الموسيقية التي نشأ فيها ودرج عليها ، ولعلنا لا نحتاج الى تيسير أوسع من هذا التيسير ، كائنا ما كان موضوع القصيد وان طال غاية المطال .

تجديد قليل في اللفظ ، وتجديد أكثر منه في الوزن ، وتجديد أكثر من هذين التجديدين في الموضوع . فكيف يكون هذا التجديد في الموضوع ؟

ان صرف الشعر الى الاجتماعيات والأحداث العامة رأي من الآراء في تجديد الموضوعات الشعرية ، ويقترن به رأي آخر ينادي بالطابع الاقليمي في الشعر خاصة وفي الأدب عامة ، ويقول آخرون بالشعر المسرحي أو شعر القصة المسرحية وغير المسرحية ، وكل هذه الآراء مقبولة من ناحية مرفوضة من ناحية ، لان العبرة في الشعر بالملكة التي توحي معانيه ، وليست العبرة بالعنوان الذي تختاره لموضوعاته ، كعنوان المسرحية او عنوان الشعر الاقليمي ، أو عنوان الشؤون الاجتماعية والمسائل العالمية .

ونحن اذا نظرنا الى الشعر من ناحية الملكة التي توحيه وجدنا أن ملكة الشعر الغنائي قد لازمت القصيدة العربية من نشأتها الاولى ، فهي تتردد بين نغمات الغزل والفخر والحماسة والرثاء ، او تتردد بين ألوان الشعور الفردي البسيط ، ويندر أن تتخطاه الى الشعور المركب المتوشح ، وهو الشعور المتجاوب بين عدة نفوس على عدة امزجة وفي عدة حالات .

فاذا كان للتجديد في موضوع الشعر وجهة ، فهذه هي الوجهة التي أمامنا ، ولتكن سبيلها الرواية المسرحية أو الحادثة العالمية او الأوصاف الاقليمية ، فانما العبرة بالملكة التي توحي المعاني في جميع الموضوعات ، وليست العبرة بالعناوين التي نخلعها على هذه الموضوعات .

والفرق بين الشعر الغنائي والشعر المركب المتجاوب هو الفرق بين الربابة وبين الفرقة الموسيقية التي نسمع منها عشرات المعازف في نغمات متعددة مع التناسق بينها والوحدة في مجموعها ، وينبغي أن نذكر هنا أن التنوع والتجاوب هما المقصودان بالتصرف والتجديد ، وليس المقصود هو كثرة الآلات التي نعزف عليها في وقت واحد . فان ألف ربابة توقع لنا لحنا واحدا هي أسلوب ساذج بغير

تصرف . وقد يكون التصرف كل التصرف في ربابة ومزمار ودف وبيان تختلف وتتجاوب وتفلح في الارتفاع بالشعور من البساطة والانفراد الى التجاوب والتركيب .

ولكن الخير أن نبقى كما نحن ، وأن نقصر نظمنا على الشعر الغنائي ، اذا كنا ننظم في الموضوعات الجديدة تقليدا للذين سبقونا الى النظم فيها ، فان التقليد نقيض التجديد ، والدرهم الصحيح أنفس من الدينار الزائف يحكي الذهب باللون والصورة ولا يحكيه بالمعدن والقيمة .

ومن أمثلة الدعوات الزائفة الى التجديد أن يسمع بعضنا بالشعر الاقليمي في اللغة الانجليزية - وأكثره من شعر الاميركيين - فيخطر له أن الشعر الاقليمي اختراع واختيار ، وينسى أنه واقع طبيعي لا محل لفرضه على الشعراء ، حيث لا تفرضه عليهم طبيعة الحياة ، وفي أمريكا أقاليم لا تتشابه في الموقع ولا في المكان ولا في المعيشة ، فهم لا يختارون الاقليمية في الشعر ولا في الجغرافية ، ونحن هنا لن نستطيع أن نزرع قمحا في التربة المصرية دون أن يصبح قمحا اقليميا باختيارنا أو بغير اختيارنا ، ومن قال لشاعر : كن اقليميا فقد قال له كن مقلدا . ولكنه اذا كان من طبيعته منتميا الى اقليمه فلا حاجة به الى الامر والارشاد .

كذلك يقول بعضهم متعجبا : هل توحي حرب طروادة الى هوميروس بالالياذة ولا تظهر في العصر الحديث الياذة أضخم منها بعد الحرب العالمية العظمى ؟

ولو كان هؤلاء القائلون يفهمون وحي الابتكار في الشعر لما خطر لهم أن شاعرا عصريا ينبغي أن ينظم الياذة في الحرب العالمية ، لان شاعرا قديما نظم الياذة في حرب طروادة . من أين لهم مثلا أن هوميروس كان ينظم في الحرب العالمية الياذة لو أنه عاش في زماننا ؟

من أين لهم أن ضخامة الحرب هي التي توحي بالنظم فيها ؟ فقد تكون

الحرب بين عشرين فارسا متقابلين أعنف في اثارة النفس من حرب الملايين بين الخنادق لا يشهد بعضهم بعضا ولا يعرفون من الحركة غير ضغط الزناد !

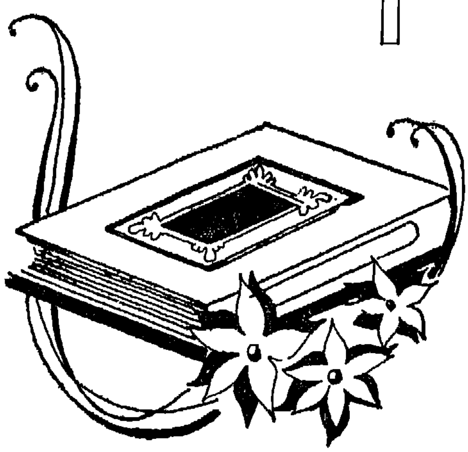
كذلك لا يفقه التجديد من يحسب أن الشعر المسرحي حيث كان أرفع من الشعر الغنائي في كل موضوع . فان الشاعر المسرحي الذي لا يرسم لك شخصية واحدة صحيحة أقل من الشاعر الغنائي الذي يتحدث لك عن غناء البلبل فيصدقك الحديث والشعور ، فكل فضل الشاعر في الملكة التي توحي اليه شعره دون العناوين التي يطلقها على موضوعاته ، ونحن لا نفضل الشاعر المسرحي على الشاعر الغنائي الا لان الشاعر المسرحي يستطيع شعر الغناء ويستطيع زيادة عليه ، وهذه الزيادة عليه هي الحس المتجاوب في النفوس المتعددة ، فان كان يملك هذا الحس فهو صاحب الفضل بهذه الملكة أيا كان الموضوع الذي يختاره لنظمه ، وان لم يملكها فالموضوع لا يعطيه ملكة هو محروم منها .

واذا كان التجديد هو اجتناب التقليد فالتجديد كذلك هو اجتناب الاختلاق ، والمختلق هو كل من يجدد ليخالف ، وان لم يكن هناك موجب للخلاف . ان الذي يمشي على يديه يأتي بجديد ويدل على براعة لا يستطيعها من يمشي على قدميه . ولكننا قد نضع في يده درهما وقد نزج به في مستشفى المجاذيب ، ولا نمشي على الايدي من أجل تلك البراعة وذلك الاختلاف أو الاختلاق .

نجدد فلا نقلد ولا نختلق ، ونحن مجددون كما ينبغي ـ وكأحسن ما ينبغي ـ اذا خرجنا بالشعر العربي من لحن الربابة الى لحن الفرقة الموسيقية ، شعورا منا بتعدد النغمات النفسية ، لا لمجرد المباهاة بكثرة المعازف وارتفاع الضجيج .

الفصل الثالث عشر

أدبٌ وفنّ



مَن هُوَ الأديب ؟[٧]

كان جماعة من « الادباء » يتحدثون عن وظيفة الادب الاجتماعية ، فاختلفوا في الفرق بين وظيفة الاديب في المجتمعات القديمة ووظيفته في مجتمعاتنا العصرية ، فخطر لي أن أسألهم : ومن هو الاديب في المجتمعات القديمة ؟

اننا نتكلم عن الادب في المجتمعات قديمها وحديثها كأن الادب بمعناه الذي نعرفه اليوم قد كان معروفا هكذا بين جميع الامم وفي جميع الازمنة ، وهو ولا شك خطأ لا يصمد لأول سؤال .

فأنت اذا نزلت اليوم ببلد من بلدان الحضارة وقلت لهم دلوني على رجل من أدبائكم لم يجهلوا ما تريد ودلوك على واحد ممن يصح أن يطلق عليهم وصف الاديب كما تعنيه . .

ولكن على من يدلك أهل الجاهلية مثلا اذا نزلت بينهم وقلت لهم : دلوني على واحد من أدبائكم ؟ . .

انهم لا يدلونك على الشاعر ، ولا على الراوية ، ولا على النسابة ، ولا على الخطيب ، وان كان العلم بالشعر والتاريخ والخطب مما يدخل في نطاق صناعة الادب في الازمنة الحديثة . ولو أنك سألت عن أديب في صدر الاسلام لفهموا أنك تقصد انسانا بريئا من العنجهية البدوية واللوثة الاعرابية :

وانـي على ما فيّ من عنجهية ولوثـة أعرابيتـي لاديب

وقد تتحدث الى هذا الاديب الذي يدلونك عليه فيخوض معك في سمر شائق وطرائف شتى من أطايب الحديث ، ولكنه قد يرضيك من هذه الوجهة ولا يحسب في زمنه من أهل العلم ، ولا يحسب في الزمن الحديث من زمرة الادباء .

ولعلهم يدلونك على مثله في أنس محضره وظرف معشره لو أنك نزلت بمصر أو بقطر من أقطار العربية في أواخر القرن التاسع عشر ، وسألتهم أن يجمعوك بأديب من الادباء .

أما معنى الاديب كما نفهمه اليوم ، فهو من المعاني المستحدثة التي تطورت فترة بعد فترة في العصور الاخيرة ، فكان الاوروبيون يفهمون من مقابل هذه الكلمة **Man of letters** أنه رجل مطلع على الكتب دارس للعلوم ، لان دراسة الكتب على اختلافها كانت هي الفارق بين العلماء والجهلاء . ثم شاعت الدراسة وتنوعت فعرفوا الفرق بين عشرات من الموضوعات التي يطلع عليها الدارسون ، ومنها الموضوع الذي خصص لمعنى الادب بمدلوله المصطلح عليه في هذه الايام . . .

ولكن ما هو هذا المدلول ؟ ومرة أخرى من هو الاديب ؟

أهو الشاعر ؟ أهو القصاص ؟ أهو ناقد الشعر ؟ اهو المطلع على سير الادباء والقصاصين والنقاد ؟

انك اذا قلت « فلان شاعر » فقد وصفته بغير حاجة الى وصف الادب بعد ذلك ، وكذلك تصف « القصاص » سواء كتب القصة المطولة أو النادرة القصيرة . .

فاذا قلت عن العارف بالشعر والقصاص انه أديب قيل لك : حسن ! ولكن ما الفرق بين مؤرخ الادب وناقد الادب وبين الاديب ؟

حينئذ يلوح لك أن دليلك القديم لم يكن على ضلال بعيد . .

ونعني بالدليل القديم ذلك المرشد الذي كنت تسأله في العصور الاولى أن يرشدك الى أديب فيذهب بك الى رجل حسن الحديث . .

فالاديب بكلمة واحدة هو « المحدث » في جميع العصور ، وقيمته في كل عصر تختلف باختلاف حديثه ومن يحدثه ومن يتطلب منه الحديث ، سواء كان حديثه مما تسمعه الآذان أم تعبره الاعين في صفحات الاوراق .

وبهذه الصفة وحدها يمكن أن تميز من الشاعر ، ومن القصصي ، ومن الناقد ، ومن مؤرخ الآداب . . . أيكون الاديب شاعرا ؟ أيكون قصاصا ؟ أيكون ناقدا للشعر والقصة ؟ . . أيكون عالما مطلعا على تاريخ هؤلاء وتواريخ غيرهم ممن يحفل بهم التاريخ .

نعم ، ولكنه في هذه الحالة يكون شاعرا وأديبا ، أو قصاصا وأديبا ، أو ناقداً وأديباً أو مؤ رخاً . . ولا يلزم حتما أن يكون واحدا من هؤ لاء ليقال انه أديب . فهو محدث حسن الحديث أيا كان موضوع الحديث وأية كانت صفاته الاخرى التي تقترن بحسن الحديث .

وبهذا المعنى كان أديب الزمن القديم محدثا في مجلس الصحب أو محدثا في مجلس الامير . . وبهذا المعنى أصبح أديب الزمن الحاضر محدثا لقرائه ومستمعيه ، ولو لم يجمعه بهم مجلس أو مقام .

ولم ننزل بوظيفة الاديب لاننا جعلناه « محدثا » في العصور الاولى أو في هذه العصور . . فانما العبرة بما يقال وبمن يقال لهم في جميع الاحاديث .

فمن الناس من يحدث ليعلم ويهذب ، ومنهم من يحدث ليضرب للناس أمثال البطولة والشرف ، ومنهم من يحدث ليروح عن النفس ، ومن يحدث ليكشف للنفس سريرتها ، ومن يحدث ليسلي ويلهي ، ومن يسلي ويلهي كرام الناس ، ومن يقصد بالتسلية واللهو غير هؤلاء الكرام .

وكلهم على هذا المعنى أديب ، ولكن شتان شتان بين أديب وأديب . .

فلا ينزل الادب لانه حديث . .

وانما ينزل الادب اذا نزل موضوعه ومن يستمع اليه . .

وقد نزل الأدب في عصرنا هذا وصعد على جميع هذه الدرجات ، فكان من أدباء العربية في أوائل القرن العشرين من يوصف بالأدب لانه سمير مجلس ، ثم شهدنا من أدباء العربية في أيامنا هذه من يحدث قراءه جميعا كما يشاء فيجد من يصغي اليه . وكل ما تغير بين أمس واليوم أن الحديث كان بالامس موقوفا على سامع واحد أو سامعين قلائل ، فأصبح اليوم موجها الى مئات وألوف ، لعلهم لا يجتمعون بالمتحدث في مكان .

وربما صح أن شيئا اخر قد تغير بهذا الصدد ، وهو أن الادب ـ حيثما كان بضاعة تنتظر الجزاء ـ لم يكن ينتظر جزاءه فيما مضى من غير الآحاد القلائل ، وأن الاديب كان يدون أحاديثه في الورق ليقرأه كل من حصل عليه ، ولكنه لا ينتظر الجزاء الذي يغنيه في عيشه من هؤلاء القراء ، وانما ينتظره من فرد يتصل به ويعول عليه .

أما اليوم فالاديب على نقيض ما كان بالامس ينتظر هذا الجزاء ممن يوجه اليهم حديثه على يد المطبعة أو المذياع ، وهم مئات وألوف في وطنه وفي غير وطنه وفي زمنه وغير زمنه ، لا يلقاهم ولا يلقونه في أغلب الاحوال .

وذلك هو باب الخير الكثير . . وذلك أيضا هو باب الشر المستطير . .

لأن استغناء الأديب عن هذا السيد أو ذاك قد فتح له باب الاستقلال في المعيشة والاستقلال بالرأي ، والاستقلال بالشعور .

الا أنه قد يغنى عن هذا السيد أو ذاك ثم يتقيد بهذه الجماعة أو تلك ، واستعباد الجماعة شر من استعباد الآحاد .

وليس من الحتم أن تستعبد الجماعة محدثها ، لأن الجماعة طوائف شتى من الناس ، ولمن يحدث هذه الطوائف أن ينص الحديث لمن شاء منها ويضن به على غيره ، وأن يقنع بالمهذب الكريم من سامعيه ويطوي كشحه عن سواه ،فله ولا شك أن يختار وان صعبت عليه الموازنة بين أسباب الاختيار .

وهناك باب من أبواب الحرية يطرقه من يستطيع حين يشاء ، فيتحدث « المحدث » العصري وحده ، كأنما يتحدث لنفسه . . ويسمعه من يريدون أن يسمعوه ، وهو لا يأخذ نفسه بكلفة الجليس في محضر الامير أو اشباه الامير .

وهو على كل حال « محدث » على نمط العصر وأسلوبه ، وخليفة للمحدث القديم على ما كان لعصره من نمط وأسلوب .

وليس لوظيفة الأديب في اعتقادنا تعريف أصدق من هذا التعريف ، فانه هو التعريف الوحيد الذي يزيل اللبس بينه وبين الشاعر والراوية والناقد والمؤرخ ، ولا يمنعه مع ذلك أن يأخذ بسهم أو سهوم من جميع هذه الفنون ، على اعتبار أنه مادة من مواد الحديث .

فمن هو الاديب في كل عصر من العصور ؟ هو المحدث في كل مجتمع ، على اختلاف العصور . . وتسأل مرة اخرى : هل الادب اذن وظيفة اجتماعية ؟

فان أردت ان الحديث يجري بين متحدث ومستمع أو مستمعين فالادب ولا شك وظيفة اجتماعية . .

ولكنك خليق أن لا تنسى بعد هذا أن الملكة الشخصية شرط لا معدى عنه في كل حديث كائنا ما كان قائله ومستمعوه ، فان الناس جميعا أعضاء في بنية جماعة ، ولا يحسن التحدث منهم الا الآحاد المعدودون . .

كذلك لا تنس أن الاديب في مجتمع هذا العصر يستطيع أن يكلم نفسه ولا يحسب من المجانين بل من صفوة العقلاء . . أو يضمن المستمعين اليه كلما كان حديثه لنفسه جديرا بالاصغاء .

الفرق بين الصّدق والكذب

ما الصدق ؟ هو كما عرفوه مطابقة للواقع . . .

ولكن ما هو الواقع ؟ وكيف نطابقه ؟ هل نطابقه بادراك الحواس ؟ أو نطابقه بألفاظ اللسان ؟ . . أو نطابقه بوعي القريحة والخيال ؟

كل أولئك مطابقة . . وكل مطابقة من هذه المطابقات صدق على حسب ذلك التعريف ، ولكنها على هذا تختلف فيما بينها أوسع اختلاف في التعبير والتمثيل .

فاذا رأيت مرجا من مروج الربيع صدقت في وصفه حين أقول انه رقعة من الارض ذرعها ألف ذراع ، يتخللها جدول ماء ، وفيها ثمر من فصيلة كذا وكذا وزهر من فصيلة كذا وكذا في علم النبات . .

وصدقت في وصفه حين أقول انه جميل مريح . .

وصدقت في وصفه حين اقول انه يتألق كما تتألق العيون ، ويزدهر كما تزدهر الوجنات ، ويفتر كما تفتر الثغور ، ونمرح فيه النضرة كما يمرح صفو الشباب في الصبايا الحسان ، وتتغنى فيه العصافير كما تتغنى الوصائف الثملات في الأعراس . .

أما اذا قلت انني رأيت فيه ثغورا ووجنات ، ولمحت فيه أحداقا مؤتلقات ، واستخفني المرح من قدود حسانه ، واستطارني الطرب من ألحان عيدانه ، فما أنا بكاذب ، وما أنا بمخالف لما قلته في تلك العبارة التي أوردتها

مورد التشبيه ، وكل ما هنالك انني حذفت الكافات والكأنات ، واعتمدت على فطنة السامع في فهم هذه التشبيهات . . فعبرت عن الواقع بأسلوب يختلف في اللفظ ولا يختلف في المدلول .

ان كان هذا هو الكذب الذي أرادوه حين قالوا ان « أعذب الشعر أكذبه » فهذا هو الواقع بعينه فيما نراه .

وغاية ما في الأمر اننا نطابق الواقع هنا بوعي القريحة والخيال ، ولا نحب ان نطابقه بلغة الحس ، أو بلغة الحساب والاحصاء . .

وأيا كان نوع المطابقة فهو صدق على أية حال . .

* * *

مثل آخر قريب من هذا المثل . .

أعرابي غمر يغرب في رحلة مهلكة في مفازة موحشة . .

تسأله فيقول لك انها عامرة بالغيلان والسعالي ، متجاوبة بأصداء الجن والعفاريت ، من يسلكها لا يسلم من شر سكانها هؤلاء ، ومن سلم منهم فقد كتب له عمر جديد . .

هذا الاعرابي الغمر كاذب ان شئت ، ولكن في حساب واحد ، هو حساب الرحلات الجغرافية والمباحث العلمية .

فان الرحالين والباحثين يجوبون تلك الصحراء ويعودون منها فيقولون وهم صادقون : ما عثرنا في تلك الصحراء بسعلاة ، وما السعلاة التي ذكرها الاعرابي مما يمكن العثور عليه . .

ولكنه اذا كذب في حساب الجغرافيين أفما من حساب آخر هو صادق فيه ، أو مطابق للواقع فيما يدعيه ؟ . .

بلى ! هناك حساب هو صادق فيه كل الصدق ، مطابق للواقع كل المطابقة ، وهو حساب الشعور والخيال . .

لانه وصف الخوف من الهلاك ، ولا فرق بين الهلاك من الغول والسعلاة والهلاك من الوحشة والانقطاع وغاية ما في الامر أنه وصف الخوف محذوفا منه الكافات والكأنات ، ولا يزال صادقا حين قال لنا : ان من يسلم من شر تلك المفازة فقد كتب له عمر جديد . .

وكذلك قل في عرائس البحار . .

وكذلك قل في كنوز الارض وما يحرسها من المردة والشياطين . .

وكذلك قل في همسات النسيم ونجوى الانفاس . .

وكذلك قل في كل واقع نطابقه بالشعور والخيال ، ولا نقصر المطابقة فيه على اللمس والعيان . .

❋ ❋ ❋

وننتقل الى الشعر الذي يتمثل فيه هذا الضرب من الواقع فنذكر بيت أبي الطيب في وصف الاسد :

ورد اذ ورد البحيرة شاربا ورد الفرات زئيره والنيلا

فعلماء الطبيعة يقولون لك انه كذب . . لأنهم يقيسون سرعة الصوت في الهواء ، وسرعة الصوت في الماء ، ويقيسون المسافة بين البحيرة ومصر والعراق ، ويقدرون النسبة التي يتخافت بها الصوت فيجدون ان زئير الاسد الذي وصفه أبو الطيب لا يصل الى النيل ، ولا يصل الى الفرات . .

أفكاذب أبو الطيب فيما وصف ؟ . .

ان قلت نعم مع علماء الطبيعة ، قلت لا على الاثر مع سامع ذلك الزئير . .

لان زئير الاسد ملأ جوانب نفسه وشاع في منافذ حسه ، فلم يدع فيها فراغا لغير الرهبة والحذر . .

ورهبة تملأ كل مكان في دنياه ، خليقة ان تملأ كل مكان على وجه الارض ، ولو في الساعة التي ملأته الرهبة فيها ، وذلك حسبه من مطابقة الواقع كما وقع في لحظة من اللحظات . .

ولو أن أبا الطيب قال يومئذ في وصف شعوره بزئير الاسد انه وصل في الدقيقةالى بعد كذا من الاميالَ لما خالف الواقع في حساب العلم الطبيعي ، ولكنه لا يذكر لنا شيئا عن الواقع في طبيعة الشعور .

وهذا هو الواقع الذي يعنينا ويعنيه من وصف الاسد وزئيره . .

كذلك يقول البحتري في وصف البناء السامق :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه   من منظر خطر المزلة هائل

فيصيب في تمثيل الذعر كما يحسه الواقف على شرفات ذلك الصرح ولا يخطىء الا من ناحية بعيدة من هذه الناحية ، لانه يقول عن الحمام المذعور انه يترنم ، وللترنم حال لا تشبه حال مذعور . .

ويقول أبو العلاء في سخرية الموت والحياة :

رب لحد قد صار لحدا مرارا   ضاحك من تزاحم الاضداد

والواقع ان اللحد لا يسخر ، ولكنه من حقه ان يسخر اذا استطاع ، وان هناك سخرية في تعاقب الموتى على مكان واحد يكرهونه ، ويتزاحمون عليه كأنهم يشتهونه . فاذا أعرنا اللحد سخريتنا فنحن لم نغير من السخرية ولا من الواقع ، ولكنها « استعارة » لا تضيع معها الحقوق ! . .

هذه خلاصة القول عن الفن بين الصدق والكذب . .

فلن يكون الفن جميلا اذا كان فنا كاذبا لا يطابق الواقع ولكن أي واقع ؟ . . وأي مطابقة ؟ . .

الواقع في الشعور ، والمطابقة لذلك الشعور ، وهي مطابقة لا ريب فيها ، ومطابقة أصدق من كل مطابقة أخرى ، اذا كانت المطابقات الاخرى خلوا من تمثيل ما نشعر به ونؤديه في فن من الفنون ، سواء أديناه بالقلم أم بالريشة أو بالازميل أو بالوتر والمزمار . .

ويصدق على الواقع التاريخي ما يصدق على الواقع الحاضر أمامنا . .

فمن مثل لنا بطلا في غير عصره فأحسن تمثيله فهو صادق في الفن كاذب في التاريخ ، أوهو شاعر حسن ومؤرخ رديء ، نلومه على كسله وجهله ، ولا ننكر عليه الصدق في حسه وخياله ولا القدرة على حسن تعبيره وتمثيله . . فنمنحه درجة النجاح في الشعر ونضن عليه بها في التاريخ . .

وكل فن جميل ، فلن يكون كاذبا ابدا ، لانه لا بد له من مطابقة الواقع ، على اختلاف صور المطابقة في الشعور . .

ولقد قيل عن أرواح شكسبير وعفاريته انها لو برزت الى عالم الحياة لما برزت في غير الصورة التي تصورها . . وما قيل عن المخلوقات الخيالية في شعر شكسبير يقال عن كل مخلوق خيالي يمثل لنا حالة نفسية نشعر بها ونتصورها فيه ، لانه ولد من شعورنا ، فان لم يطابقه فلا صلة بيننا وبينه في عالم الحس ولا في عالم الخيال .

المَدْرَسَةُ الرَّمْزِيَّة

١ ـ حب الازياء

كانت باريس فيما بعد القرون الوسطى عاصمة الحضارة الاوربية ، وكان بلاطها الفخم مصدر المراسم والتقاليد في ارجاء الغرب كله ، تصدر عنه الازياء والآداب والعرف المتبع في مجالس الطبقات العليا ، وكان لها الشأن ـ كل الشأن ـ يومئذ في جميع البلدان . فلا تنقضي فترة يسيرة من الزمن دون ان يسفر التنافس بين فرسان البلاط وحسانه عن شارة جديدة وزي جديد ، ولم يكن لهم بد من طرافة يتحدثون بها في عالم الادب والفن كما يتنافسون بالطرائف في عالم الشارات والازياء . فلما بدأت نهضة الاحياء الحديثة باستحياء الاساليب اللاتينية واليونانية رحب بها طلاب الجديد ريثما طال عليها العهد فبرموا بها وتطلعوا الى نمط جديد . فتوالت الانماط بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين من المدرسة المجازية الى المدرسة الواقعية الى المدرسة البرناسية الى المدرسة الرمزية ، الى هذه المدارس التي تسمى بالمستقبلية تارة وبما وراء الواقعية تارة اخرى ، ولا تستقر طويلا على حال .

ولم يكن التفات الناس الى عاصمة الازياء وانتظارهم منها الجديد بعد الجديد هو الباعث الوحيد الى تعاقب هذه المدارس بمختلف الاسماء والاراء ، وانما صادفت هذه الحالة معينا لها من حب الاندفاع في السليقة الفرنسية ، فأصبح حب التغيير نتيجة لازمة لكل اندفاع بلغ مداه واستنفد قواه .

فلا تجد في غير فرنسا ولعا كهذا الولع بالمدارس الادبية المتلاحقـة ، ولا سأما كهذا السأم من أسلوب بعد أسلوب ، وصبغة بعد صبغة .

وفي فرنسا نفسها لا تجد هذه المدارس في القمم العالية أو الاعلام البارزة من افذاذ الادب المعدودين ، وانما تجدها في بيئات الاوساط واشباه الاوساط الذين يخضعون لموجات التقلب وحركات التكلف والاصطناع .

أما أعلام الادب الفرنسي من أمثال موليير وراسين وفولتير وشاتوبـريان ولامرتين وهوجو وموسيه وأناتول فرانس وبروست فأنت لا تجدهم تحت راية من هذه الرايات ، ولا على شارة من هذه الشارات ، واذا بدت على احدهم مسحة من هذه الصبغة او تلك فهي مسحة لا تنحرف به قط عن اللونين الخالدين اللذين يرجع الانقسام بينهما الى طبيعة الانسان لا الى تقلب الازياء بين جيل وجيل ، وهما لون الواقعية ولون المجازية ، او لون البساطة ولون التنميق ، وسمهما بعد ذلك بما تشاء من الاسماء .

٢ ـ ظهور الرمزية

وكان الصف الأول من صفوف الطليعة في هذه المدارس هو صف الاحياء ، أو صف الأساليب اللاتينية واليونانية القديمة ، ولا يخلو من دعوة الى بساطة « الطبيعة » على ألسنة الفلاسفة والشعراء .

ثم تفنن الأدباء في المجاز على أنماط شتى من الأساليب المجازية التي توشك ان تتعدد بتعدد الآحاد . . فأسلوب هوجو مجازي ، ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنها في موكب دائم من الطبول والأبواق ومن الغنائم والأسلاب ، وأسلوب لامرتين مجازي ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنك تعيش منها أبدا في عالم مسحور تتهامس فيه الأرواح وتتخافت فيه الأصداء .

واتفق في الأيام الأخيرة من هذه المدرسة المجازية أن شاعت مباحث العلم ومقررات العلماء المحدثين ، فظهرت المدرسة الواقعية والمدرسة البرناسية ونزعت كلتاهما الى الأسلوب المدرسي البسيط ـ أسلوب اللاتين واليونان ـ ممزوجا بلون الدراسات العلمية التي اشتغل بها كل عقل مثقف في عهد المدرسة البرناسية على التخصيص .

ويدل اسم المدرسة البرناسية على مذهبها بعض الدلالة لأن اصحابها يسمون انفسهم بالبرناسيين المعاصرين منتسبين الى البرناس وهو جبل أبولون وعرائس الفن في اليونان القديمة . فالبرناسيون المعاصرون مدرسيون من ناحية الاقتداء بأعلام الأدب اليوناني القديم ، ومحدثون علميون من ناحية التجديد

العصري على نمط لم يعرفه قدماء اليونان .

وكان شعارهم « الكلمة المحكمة » أي الكلمة في موضعها الذي لا تتجاوزه للتنميق أو التهويل ، وعقيدتهم « أن الفن للفن » بغير قصد آخر غير احكام التعبير وحسن الأداء .

وأفرط البرناسيون كما يفرط الدعاة الى المدارس الخاصة فيندفعون فيها الى الطرف الأخير ، أو الى حيث يحسن الارتداد والرجوع ، وكان إفراطهم هذا مسوغا بعض التسويغ لظهور الرمزيين .

٣ ـ مسوغات الرمزية

والتعبير بالرموز عادة قديمة في تعبير الانسان ، بل عادة قديمة في بديهة الانسان .

فالحالم مثلا يعبر في منامه عن شعور الضيق أو الخوف بقصة رمزية يتمثل فيها شيئا مخيفا في صورة وحش او مارد مرهوب .

والكاتب الذي لم يعرف الحروف الابجدية يرمز الى المعاني بالشخوص والرسوم ، ويعبر لك عن الكتابة بصورة الكاتب أو صورة القلم أو صورة المكتوب ، وقد يلجأ الى الاستعارة بعد عرفان الحروف لأنها نوع من التصويرالذي يساعد على اختصار التعبير .

وكهان الديانات يرمزون ويعمدون كثيرا الى الكنايات والألغاز ، لأنهم يجعلون لغة الدين لغة سرية ينفردون بها ولا يطلعون سواد الناس على دخائلها ، فيختارون الرمز في التعبير وان قدروا على الافصاح والتصريح .

والنساك المتصوفون يرمزون لأنهم لا يستوضحون المعاني الغامضة التي تجيش بها نفوسهم في حالة كحالة الغيبوبة او نشوة من نشوات الذهول . فيؤثرون التشبيه لأنهم عاجزون عن التوضيح ويخاطبون من يعرف حالهم برمز من هنا وتورية من هناك فلا يحتاج منهم الى زيادة ايضاح .

وكان بعض الدول يقهر الرعية على عقيدة لا يدينون بها وقد يدينون

بغيرها ، فيشيرون الى عقائدهم برموز يفهمونها ويجعلون للالفاظ الشائعة معاني غير معانيها المتفق عليها في اللغة المتداولة ، ثم ينبذون تلك الرموز اذا ارتفع عنهم الضغط والاكراه .

وقد يكون الرمز اختصارا لعبارة مفهومة او صورة ظاهرة ، كرمز الرياضيين والكيميائيين بالخطوط والنقط الى الأفلاك او العناصر أو المقادير .

فالرمز شيء مألوف في تعبير الانسان وفي طبيعة الانسان ، ولكنه مألوف على حالة واحدة لا يخلو منها معرض الرمز والكتابة ، وهي حالة الاضطرار والعجز عن الافصاح ، فلم يرمز الانسان قط وهو قادر على التصريح والتوضيح ، ولم يجد كلمة واضحة لمعنى واضح ثم آثر عليها الالتواء شغفا بالالتواء .

فاذا لوحظت هذه الحالة فالرمز أسلوب متفق عليه لا يحتاج الى مدرسة تنبه الأذهان اليه . فالخيال لا يستشير مدرسة من المدارس لتشير عليه ان يحلم بالصور والتشبيهات أو يحلم بقواعد التحليل والتركيب في معامل الكيمياء ، والشاعر لا يعاب اذا مثل لنا الكواكب والأزهار فألبسها ثياب الاحياء ، ومن ضاق به اللفظ فعمد الى التخييل والتشبيه فالناس لا يحسبونه من هذه المدرسة أو تلك ، لأن المدرسة التي يصدر عنها في هذه الحالة هي مدرسة البديهة الانسانية حيث كان الانسان وبأي لغة من اللغات ألغز أو أبان .

وفحوى ذلك أنه لا حاجة الى مدرسة لتعليم الناس كيف يرمزون ويكنون حين ينبغي الرمز وتنبغي الكناية ، ولكنهم قد يحتاجون الى مدرسة لتذكيرهم بحقيقة واحدة قد ينسونها في دفعة الافراط والمغالاة ، وهي ان الحياة تنطوي على كثير من الأسرار ، وأن العالم نور وظلام وجهر وخفاء ، وأنه يفاجئنا احيانا بمعاني لا تترجم عنها الألفاظ ولا غنى فيها عن الاشارة والاستعارة ، أو عن تمثيل الظل بالظل ، والحجاب بالحجاب .

وقد كانت الآداب الفرنسية بحاجة الى هذا التذكير في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ولم تكن هذه الحاجة مقصورة على الآداب الفرنسية في الواقع لأنها كانت حاجة من حاجات التطور العقلي في العالم بأسره ، ولكنها أظهر ما تكون حين يكون الاندفاع من الأطراف الى الأطراف .

فالعالم الأوربي قد تنقل في ثلاثة أطوار عقلية منذ عصر الاصلاح :

طور لم يكن فيه سلطان للعقل في تفسير الوجود ، وطور ثار فيه العقل لحقوقه المشروعة ثم بالغ في الثورة حتى اوشك ان يستبد بكل سلطان ، وطور ثارت فيه المبديهة الانسانية لتذكر العقل بالحقيقة التي نسيها في شططه وغلوائه ، وهي أن البديهة الانسانية تشاطر العقل حقوقه في تفسير العالم والاتصال بخفايا الوجود .

ففي الطور الأول كان السلطان للكهنة ورجال الدين ، وكانت النصوص التي يساء فهمها ويساء العمل بها هي مرجع المراجع كلها في العلم والحكمة والفنون والاداب .

وفي الطور الثاني تفرد العقل بتفسير كل شيء وزعم ان العلوم التجريبية وحدها كفيلة بالكشف عن جميع الحقوق وجميع الأسرار .

وفي الطور الثالث صنع « رد الفعل » صنيعه المعهود في أمثال هذه الأطوار ، فثار المفكرون انفسهم على العقلية « **Rationalism** » كما ثار الفنانون على الواقعية « **Realism** » وسمعنا بضروب شتى من دعوات المثاليين والنفسانيين والروحانيين وفلاسفة المنطق الحديث الذي يدين بالبصيرة كما يدين بالقياس والتحليل .

في هذه الفترة ظهر الرمزيون في الآداب الفرنسية وكان لهم حق في الظهور .

بـل ظهـروا « متأخـرين » عن رواد هذا المذهــب في الآداب الأوربية الاخرى ، وفي عالم الفنون التي لها تأثير بين على الاداب . .

فكانت موسيقى « فاجنر » تدوي في ارجاء القارة الأوربية قبل ان تتحول الموسيقى الفرنسية من لغة الطرب والمشاهد الواقعية الى لغة الأغوار والكنايات ، وكان كولردج وبرونج وسوينبرن وتنيسون من أعلام الشعر الانجليزي يتناولون المعاني الغامضة تارة بالرمز والكناية وتارة بالكلمات التي تماثلها في الغموض . ويكفي ان يذكر القراء تأثير دافيد هيوم في روسـو وفولتـير ، وتأثـير بـيرون في لامرتـين ، ليذكر ان المدرسـة الرمـزية في الآداب الفـرنسية لـم تكن فريدة في الآداب الأوربية حين ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وراجت الى أوائـل القرن العشرين .

لكنهـا ظهـرت سائغـة مدعـوة الى الظهـور بدعـوة التطـور في التفـكير والشعور ، ثم استحقت الاحتجاب قبل ان تتمكن من الثبـات على الأسـاس الصحيح . . . وصدقت عليها الفكاهة التي تحدث بها ظرفاء بغداد عن بهلول المجنون ، حين قالوا انه كان يغني بدرهم ويسكت بدرهمين .

فان المدرسة الرمزية التي وجب ظهورها مرة وجـب سكوتهـا بعـد ذلك مرتين ، ولـم يلبث الفرنسيون ان اطلقوا عليها اسم مدرسة الهبوط والانحـدار « Decadents » ولـن يظلموها بهذه التسمية الصادقة ، لأن شعراءها وكتابها قد جعلـوا ديدنهم من الرمز ان يرمزوا الى كـل وضيع خليع ، وان يعتبروا التسمية مطلوبة لذاتها لا لمزية من مزايا التعبير والتقرير . فلو تهيأت لهم للمعنى الواحد عبارتان تؤديانه على السواء لفضلوا الأغمض منهما على الأوضح في غـير سبـب معقول لهذا التفضيل ، بل يفضلون الغموض على الوضوح ولو كان الوضوح أجمل في اللفظ واقرب الى البديهة وأثبت في الافهام .

وما هو الا ان تلقفوا من الأفواه كلمة عن مذهب فرويد واقـوال العلماء

النفسانيين عن « الوعي الباطن » و « اللاوعي » المكنون في اطواء النفس حتى اندفعوا من الرمزية المتطرفة الجامحة الى رمزية ابعد منها في التطرف والجموح . فنشأت بينهم مدرسة يسمونها بمدرسة ما وراء الواقع ، تترجم الرموز بالرموز ، والألغاز بالألغاز وراجت هذه البدعة الجديدة في عالم التصوير ، لأن رواجها في عالم الكتابة والشعر يستلزم جمهورا كاملا من المخبولين والأدعياء ، وقلما يجتمع جمهور كامل من هؤلاء ، كما يتفق اجتماع الآحاد من طلاب الصور الملفقة بين الأغنياء .

وخلاصة ما وعاه هؤلاء الرمزيون الغلاة من الوعي الباطن أنهم لا يفقهون ما هو الوعي الباطن وما هو الوعي الظاهر على السواء ، فان الوعي الباطن قديم لم تخلقه التسمية الحديثة في كتب العلماء النفسانيين ، وقد كان الناس بوعيهم الباطن حين وصفوا ما وصفوه وصوروا ما صوروه من المناظر والضمائر والوجوه ، ومن شأن العقل الباطن ان يظل عقلا باطنا حيث خلقه اللّه ، فان برزت لنا بعض خباياه فليس معنى بروزها أنها تلغي العقل الظاهر وتبطل عمل الحواس ، وتقلب معالم الأجسام والأشياء ، ولا موجب لتمييز المصورين بالقلم او الريشة بالتخمين والتنجيم عن الوعي الباطن او العقل الباطن لأنهم يستعدون لصناعتهم بمزج الألوان ونقل الأشباه لا بالتدرب على الكهانة ونقش الطلاسم ووضع الألغاز .

فالرمزية في حدودها المعقولة ـ ما لم تجعل الدنيا كلها رموزا وكنايات وأطيافا ـ تعيش في الظلام ولا تعيش في الضياء ، وهي ضرورية ما شعر الانسان بضرورتها في تمثيل الدقائق والأسرار ، ولكنها تخرج من الضرورة الى الضرر اذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها « الرمز للرمز » والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق .

وهي على الجملة « خطر » حين تصبح مدرسة قائمة بذاتها لأن الانسان لا

يحتاج الى مدرسة ليكون انسانا يعبر باللفظ الصريح حين يتأتى له التعبير باللفظ الصريح ويعبر بالكناية حين لا تسعفه وسيلة غير وسيلة الكناية . وقد عرف الناس « الاستعارة » في جميع اللغات فلم تكن استعارتهم الا ضربا من الرمز والتصوير بالكلام ، ولم تفسد هذه الاستعارات الا حين اصبحت فنا مصطنعا وانقطع ما بينها وبين البداهة الصادقة والتخيل السليم .

وكذلك افاد الرمزيون الفرنسيون حين التزموا هذه الحدود المعقولة ومثلوا ثورة البديهة على غرور العلميين والعقليين ، وأطلقوا الشعر الفرنسي والشعر الأوربي عامة من أوزانه المتحجرة وقيوده العتيقة ، ولكنهم لم يقفوا عند ذلك فاستحقوا ان يقال فيهم انهم : غنوا بدرهم وسكتوا بدرهمين .

فهرس كتاب أنا

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

الفصل التاسع :

فهرس كتاب حياة قلم

دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧
ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - برقياً: كتامصر

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202): 3924657 CAIRO - EGYPT

دار الكتاب اللبناني

للطباعة والنشر والتوزيع

The Complete Works of
ĀBBAS MAHMOUD AL - ĀAKAD

Volume XXII

DAR
AL-KITAB
ALLUBNANI